حال ثالثة. ثم إن كان المراد بالبحرين: بحرين معروفين من البحار الملحة تكون)من(في قوله)منهما(ابتدائية لأن الؤلؤ والمرجان يكونان في البحر الملح.
وإن كان المراد بالبحرين: البحر الملح، والبحر العذاب كانت) من(في قوله)منهما(للسببية كما في قوله تعالى)فمن نفسك في سورة النساء، أي يخرج اللؤلؤ والمرجان بسببهما، أي بسبب مجموعهما، أما اللؤلؤ فأجوده ما كان في مصب الفرات على خليج فارس، قال الرماني: لما كان الماء العذب كاللقاح للماء الملح في إخراج اللؤلؤ، قيل: يخرج منهما كما يقال: يتخلق الولد من الذكر والأنثى، وقد تقدم بيان تكون اللؤلؤ في البحار في سورة الحج.
وقال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما وهو كقوله تعالى)ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا(، والقمر في السماء الدنيا.
وقال أبو علي الفارسي: هو من باب حذف المضاف، أي من أحدهما كقوله تعالى)على رجل من القريتين عظيم(أي من أحدهما.
والمرجان: حيوان بحري ذو أصابع دقيقا ينشأ لينا ثم يتحجر ويتلون بلون الحمرة ويتصلب كلما طال مكثه في البحر فيستخرج منه كالعروق تتخذ منه حلية ويسمى بالفارسية بسذ . وقد تتفاوت البحار في الجيد من مرجانها. ويوجد ببحر طبرقة على البحر المتوسط في شمال البلاد التونسية.
والمرجان: لا يخرج من ملتقى البحرين الملح والعذب بل من البحر الملح.
وقيل: المرجان أصغر لصغار الدر، واللؤلؤ كباره فلا إشكال في قوله منهما.
وقرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب)يخرج(بضم الياء وفتح الراء على البناء للمجهول. وقرأ الباقون)يخرج(بفتح الياء وضم الراء لأنهما إذا أخرجهما الغواصون فقد خرجا.
وبين قوله)مرج(وقوله)والمرجان(الجناس المذيل.
)فبأي آلاء ربكما تكذبان[23](تكرير لنظيره المتقدم أولا.
)وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام[24](الجملة عطف على جملة)يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان(لأن هذا من أحوال البحرين وقد أغنت إعادة لفظ البحر عن ذكر ضمير البحرين الرابط لجملة الحال بصاحبها.

واللام للملك وهو ملك تسخير السير فيها قال تعالى)ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا(. فالمعنى: أن الجواري في البحر في تصرفه تعالى، قال تعالى)والفلك تجري في البحر بأمره(.

والإخبار عن الجواري بأنها له للتنبيه على أن إنشاء البحر للسفن لا يخرجها عن ملك الله.

والجواري صفة لموصوف محذوف دل عليه متعلقه وهو قوله)في البحر(والتقدير: السفن الجواري إذ لا يجري في البحر غير السفن.

وكتب في المصحف الإمام)الجوار(براء في آخره دون ياء وقياس رسمه أن يكون بباء في آخره، فكتب بدون ياء اعتدادا بحالة النطق به في الوصل إذ لا يقف القارئ عليه ولذلك قرأه جميع العشرة بدون ياء في حالة الوصل والقف لأن الوقف عليه نادر في حال قراءة القارئين.

وقرأ الجمهور)المنشئات(بفتح الشين، فهو اسم مفعول، إذا أجد وصنع، أي التي أنشأها الناس بإلهام من الله فحصل من الكلام منتان منة تسخير السفن للسير في البحر ومنة إلهام الناس لإنشائها.

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بكسر الشين فهو اسم فاعل.

فيجوز أن يكون المنشآت مشتقا من أنشأ السير إذا أسرع، أي التي يسير بها الناس سيرا سريعا. قال مجاهد: المنشآت التي رفعت قلوعها. والآية تحتمل المعنيين على القراءتين باستعمال الاشتقاق في معنيي المشتق منه ويكون في ذلك تذكيرا بنعمة إلهام الناس إلى اختراع الشراع لإسراع سير السفن وهي مما اخترع بعد صنع سفينة نوح.

ووصفت الجواري بأنها كالأعلام، أي الجبال وصفا يفيد تعظيم شأنها في صنعها المقتضي بداعة إلهام عقول البشر لصنعها، والمقتضي عظم المنة بها لأن السفن أمكن لحمل العدد الكثير من الناس والمتاع.

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[25](تكرير لنظيره السابق.

)كل من عليها فان[26] ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام[27](

لما كان قوله)وله الجواري المنشئات في البحر كالأعلام(مؤذننا بنعمة إيجاد أسباب النجاة من الهلاك وأسباب السعي لتحصيل ما به إقامة العيش إذ يسر للناس السفن عونا للناس على الأسفار وقضاء

الأوطار مع السلامة من طغيان ماء البحار، وكان وصف السفن بأنها كالأعلام توسعة في هذه النعمة أتبعه بالموعظة بأن هذا لا يحول بين الناس وبين ما قدره الله لهم من الفناء، على عادة القرآن في الفرص للموعظة والتذكير كقوله)أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة(. وفائدة هذا أن لا ينسوا الاستعداد للحياة الباقية بفعل الصالحات، وأن يتفكروا في عظيم قدرة الله تعالى ويقبلوا على توحيده وطلب مرضاته.

ووقوع هذه الجملة عقب ما عدد من النعم فيه إيماء إلى أن مصير نعم الدنيا إلى الفناء.

والجملة استئناف ابتدائي.

وضمير)عليها(مراد به الأرض بقرينه المقام مثل)حتى توارت بالحجاب(، أي الشمس ومثله في القرآن كثير وفي كلام البلغاء.

ومعنى)فإن(: أنه صائر إلى الفناء، فهذا من استعمال اسم الفاعل لزمان الاستقبال بالقرينة مثل)أنك ميت وأنهم ميتون(.

والمراد ب)من عليها(: الناس لأنهم المقصود بهذه العبر، ولذلك جيء ب)من(الموصولة الخاصة بالعقلاء.

والمعنى: أن مصير جميع من على الأرض إلى الفناء، وهذا التذكير بالموت وما بعده من الجزاء.

و)وجه ربك(: ذاته، فذكر الوجه هنا جار على عرف كلام العرب. قال في الكشاف: والوجه يعبر به عن الجملة والذات اه.

وقد أضيف إلى أسمه تعالى لفظ الوجه بمعان مختلفة منها ما هنا ومنها قوله)فأينما تولوا فثم وجه الله(وقوله)إنما نطعمكم بوجه الله(.

وقد علم السامعون أن الله تعالى يستحيل أن يكون له وجه بالمعنى الحقيقي وهو الجزء الذي في الرأس.

وأصطلح علماء العقائد على تسمية مثل هذا بالمتشابه وكان السلف يحجون على الخوف في ذلك مع اليقين باستحالة ظاهرة على الله تعالى، ثم تناوله علماء التابعين وما بعدهم بالتأويل تدريجيا إلى أن اتضح وجه التأويل بالجري على قواعد علم المعاني فزال الخفاء، وأندفع الجفاء، وكل الفريقين خيرة الحنفاء.

وضمير الخاطب في قوله)وجه ربك(خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وفيه تعظيم لقدر النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم غير مرة.

والمقصود تبليغه إلى الذين يتلى عليهم القرآن ليذكروا ويعتبروا. ويجوز أن يكون خطابا لغير معين ليعم كل مخاطب.

ولما كان الوجه هنا بمعنى الذات وصف ب)ذو الجلال(، أي العظمة والإكرام(، المنعم على عباده وإلا فإن الوجه الحقيقي لا يضاف)

للإكرام في عرف اللغة، وإنما يضاف للإكرام اليد، أي فهو لا يفقد عبيده جلاله وإكرامه، وقد دخل في الجلال جميع الصفات الراجعة إلى التنزيه عن النقص وفي الإكرام جميع صفات الكمال الوجودية وصفات الجمال كالإحسان.

وتفريع)فبأي آلاء ربكما تكذبان(إنما هو تفريع على جملة)ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام(كما علمت من أنه يتضمن معاملة خلقه معاملة العظيم الذي لا تصدر عنه السفاسف، الكريم الذي لا يقطع إنعامه، وذلك من الآلاء العظيمة.

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[28](تكرير كما تقدم وهذا الموقع ينادي على أن ليست هذه الجملة تذييلا لجملة)كل من عليها فان(، ولا أن جملة)كل من عليها فان(تتضمن نعمة إذ ليس في الفناء نعمة.

)يسأله من في السماوات والأرض(استئناف، والمعنى أن الناس تنقرض منهم أجيال وتبقى أجيال وكل باق محتاج إلى أسباب بقائه وصلاح أحواله فهم في حاجة إلى الذي لا يفني وهو غير محتاج إليهم. ولما أفضى الإخبار إلى حاجة الناس إليه تعالى أتبع بأنه الاحتياج عام أهل الأرض وأهل السماء. فالجميع يسألونه، فسؤال أهل السماوات وهو الملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ويسألون رضى الله تعالى، ومن في الأرض وهو البشر يسألونه نعم الحياة والنجاة في الآخرة ورفع الدرجات في الآخرة. وحذف مفعول)يسأله(لإفادة التعميم، أي يسألونه حوائجهم ومهامهم من طلوع الشمس إلى غروبها.

)كل يوم هو في شأن[29](

صفحة : 4252

يجوز أن تكون الجملة حالا من ضمير النصب في)يسأله(أو تذييلا لجملة) يسأله من في السماوات والأرض(، أي كل يوم هو في شأن زمن الشؤون للسائلين وغيرهم فهو تعالى يبرم شؤونا مختلفة من أحوال الموجودات دواما، ويكون)كل يوم(ظرفا متعلقا بالاستقرار في قوله)هو في شأن(، وقدم على ما فيه متعلقة للاهتمام بإفادة تكرر ذلك ودوامه. والمعنى: في شأن من شؤون من في السماوات والأرض من استجابة سؤل، ومن زيادة، ومن حرمان، ومن تأخير الاستجابة، ومن تعويض عن المؤول بثواب، كما ورد في أحاديث الدعاء أن استجابته تكون مختلفة، وتقدم عند قوله تعالى) وقال ربكم ادعوني استجب لكم(.

ومعنى)في(في هذا التفسير تقوية ثبوت الشؤون لله تعالى وهي شؤون تصرفه ومظاهر قدرته، كما قال الحسين بن الفضل النيسابوري: شؤون يبديها لا شؤون يبتديها .

و)يوم(مستعمل مجازا في الوقت بعلاقة الإطلاق، إذ المعنى: كل وقت من الأوقات ولو لحظة، وليس المراد باليوم الوقت الخاص الذي يمتد من الفجر إلى الغروب.

وإطلاق اليوم ونحوه على مطلق الزمان كثير في كلام العرب كقولهم: الدهر يومان يوم نعم ويوم بؤس، وقال عمرو بن كلثوم:

وإن غدا وإن اليوم رهن وبعد غد

لما لا تعلمين أراد الزمان المستقبل والحاضر والمستقبل البعيد وإلا فأي فرق بين غد وبعد غد.

والشأن: الشيء العظيم والحدث الهم من مخلوقات وأعمال من السماوات والأرض، وفي الحديث أنه تعالى كل يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع أقواما ويضع آخرين ، وهو تعالى يأمر وينهي ويحي ويميت ويعطي ويمنع ونح ذلك وإذا كان في تصرفه كل شأن فما هو أقل من الشأن أو لا بكونه من تصرفه.

والظرفية المستعملة في حرف)في(ظرفية مجازية مستعارة لشدة التلبس والتعلق بتصرفات الله تعالى بمنزلة إحاطة الظرف بالمظروف أو بأسئلة المخلوقات الذين في السماء والأرض.

والمعنى: أنه تعالى كل يوم تتعلق قدرته بأمور يبرزها ويتعلق أمره التكويني بأمور من إيجاد أو إعدام.

ومن أحاسن الكلم في تفسير هذه الآية قول الحسين بن الفضل لما سأله عبد الله بن طاهر قائلا: قد أشكل علي قوله هذا: وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة. فقال: إنها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها وقد أجمل الحسين بن الفضل الجواب بما يقنع أمثال عبد الله بن طاهر، وإن كان الإشكال غير وارد إذ ليس في الآية أن الشؤون تخالف ما سطره قلم العلم الإلهي، على أن هذا الجواب لا يجري إلا على أحد الوجوه في تفسير قوله)كل يوم هو في شأن(كما علمت آنفا.

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[30](تكرير لنظائره.

)سنفرغ لكم أيها الثقلان[31](هذا تخلص من الاعتبار بأحوال الحياة العاجلة إلى التذكير بأحوال الآخرة والجزاء فيها انتقل إليه بمناسبة اشتمال ما سبق من دلائل سعة قدرة الله تعالى, على تعريض بأن فاعل أهل للتوحيد بالإلهية, ومستحق الإفراد بالعبادة, وإذ قد كان المخاطبون بذلك مشركين مع الله في العبادة انتقل إلى تهديدهم بأنهم أولياءهم من الجن المسولين لهم عبادة الأصنام سيعرضون على حكم الله فيهم.

وحرف التنفيس مستعمل في مطلق التركيب المكنى به عن التحقيق, كما تقدم في قوله تعالى)قال سوف أستغفر لكم ربي(في سورة يوسف.

والفراغ للشيء: الخلو عما يشغل عنه, وهو تمثيل للاعتناء بالشيء, شبه حال المقبل على عمل دون عمل آخر بحال الوعاء الذي أفرغ مما فيه ليملأ بشيء آخر.

وهذا التمثيل صالح للاستعمال في الاعتناء كما في قول أبي بكر الصديق لابنه عبد الرحمن أفرغ إلى أضيافك أي تخل عن كل شغل لتشغل بأضيافك وتتوفر على قراهم وصالح للاستعمال في الوعيد, كقول جرير:

ألان وقد فرغت إلى نمير فهذا حين

كنت لها عذابا والمناسب لسياق الآية باعتبار السابق واللاحق, أن تحمل على معنى الإقبال على أمور الثقلين في الآخرة, لأن بعده) يعرف المجرمون بسيماهم(, وهذا لكفار الثقلين وهم الأكثر في حين نزول هذه الآية.

والثقلان: تثنية ثقل, وهذا المثنى اسم مفرد لمجموع الإنس والجن.

صفحة : 4253

وأحسب أن الثقل هو الإنسان لأنه محمول على الأرض, فهو كالثقل على الدابة, وأن إطلاق هذا المثنى على الإنس والجن من باب التغليب, وقيل غير هذا مما لا يرتضيه المتأمل. وقد عد هذا اللفظ بهذا المعنى مما يستعمل إلا بصيغة التثنية فلا يطلق على نوع الإنسان بانفراده اسم الثقل ولذلك فهو مثنى اللفظ مفرد الإطلاق. وأظن أن هذا اللفظ لم يطلق على مجموع النوعين قبل القرآن فهو من أعلام الأجناس بالغلبة, ثم استعمله أهل الإسلام, قال ذو الرمة:

ومية أحسن الثقلين وجها وسالفة

وأحسنه قـذالا أراد وأحسن الثقلين, وجعل الضمير له مفرداً. وقد أخطأ في استعماله إذ لا علاقة للجن في شيء من غرضه.

وقرأ الجمهور)سنفرغ(بالنون. وقرأه حمزة والكسائي بالياء المفتوحة على أن الضمير عائد إلى الله تعالى على طريقة الالتفات.

وكتب)أيه(في المصحف بهاء ليس بعدها ألف وهو رسم مراعى فيه حال النطق بالكلمة في الوصل إذ لا يوقف على مثله, فقرأها الجمهور بفتحة على الهاء دون ألف في حالتي الوصل والوقف.

وقرأها أبو عمرو والكسائي بألف بعد الهاء في الوقف. وقرأه ابن عامر بضم الهاء تبعا لضم الياء التي قبلها وهذا من الإتباع.

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[32](تكرير لنظائره وليس هو خطابا للثقلين ولا تذييلا للجملة التي قبله إذ ليس في الجملة التي قبله ذكر نعمة على الثقلين بل هي تهديد لهما.

)يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان[33](هذا مقول قول محذوف يدل عليه سياق الكلام السابق واللاحق, وليس خطابا للإنس والجن في الحياة الدنيا. والتقدير: فنقول لكم كما في قوله تعالى)ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس(الآية, أي فنقول: يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس, وقد تقدم في سورة الأنعام.

والمعشر: اسم للجمع الكثير الذي يعد عشرة عشرة دون آحاد.

وهذا إعلان لهم بأنهم في قبضة الله تعالى لا يجدون منجى منها, وهو ترويع للضالين والمضلين من الجن والإنس بما يترقبهم من الجزاء السيء لأن مثل هذا لا يقال لجمع مختلط إلا والمقصود أهل الجناية منهم فقوله)يا معشر الجن والإنس(عام مراد به الخصوص بقرينة قوله بعده)يرسل عليكما شواظ(الخ.

والنفوذ والنفاذ: جواز شيء عن شيء وخروجه منه. والشرط مستعمل في التعجيز, وكذلك الأمر الذي هو جواب هذا الشرط من قوله)فانفذوا(, أي وأنتم لا تستطيعون الهروب.

والمعنى: إن قدرتم على الانفلات من هذا الموقف فافلتوا. وهذا مؤذن بالتعريض بالتخويف مما سيظهر في ذلك الموقف من العقاب لأهل التضليل.

والأقطار: جمع قطر بضم القاف وسكون الطاء وهو الناحية الواسعة من المكان الأوسع, وتقدم في قوله تعالى)ولو دخلت عليهم من أقطارها(في سورة الأحزاب.

وذكر السماوات والأرض لتحقيق إحاطة الجهات كلها تحقيقا للتعجيز, أي فهذه السماوات والأرض أمامكم فإن استطعتم فاخرجوا من جهة منها فرارا من موقفكم هذا, وذلك أن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من إحدى جهاتها.

والأرض المذكورة هنا أما أن تكون الأرض المذكورة في الدنيا وذلك حين البعث, وأما أن تكون أرض الحشر وهي التي سماها القرآن)الساهرة(في سورة النازعات, وقال تعالى)يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات(, وإما أن يكون ذلك جاريا مجرى المثل المستعمل للمبالغة في إحاطة الجهات كقول أبي بكر الصديق: أي أرض تقلني, وأي سماء تظلني.

وهذه المعاني لا تتنافى, وهي من حد إعجاز القرآن.
وجملة)لا تنفذون إلا بسلطان(بيان للتعجيز الذي في الجملة قبله فإن السلطان: القدرة, أي لا تنفذون من هذا المأزق إلا بقدرة عظيمة تفوق قدرة الله الذي حشركم لهذا الموقف, وأنى لكم هاته القوة.
وهذا على طريق قوله)وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون(, أي ما صعدوا إلى السماء فيتنزلوا به.
)فبأي آلاء ربكما تكذبان[34](القول فيه كالقول في نظيره المذكور قبله.
)يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران[35](

استئناف بياني عن جملة)إن استطعتم أن تنفذوا(الخ لأن ذلك الإشعار بالتهديد يثير في نفوسهم تساؤلا عما وراءه.
وضمير)عليكما(راجع إلى الجن والإنس فهو عام مراد به الخصوص بالقرينة, وهي قوله بعده)ولمن خاف مقام ربه جنتان(الآيات. وهذا تصريح بأنهم معاقبون بعد أن عرض لهم بذلك تعريضا بقوله)إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا(.
ومعنى)يرسل عليكما(أن ذلك يعترضهم قبل أن يلجوا في جهنم, أي تقذفون بشواظ من نار تعجيلا للسوء. والمضارع للحال, أي ويرسل عليكما الآن شواظ.
والشواظ بضم الشين وكسرها: اللهب الذي لا يخالطه دخان لأنه قد كمل اشتعاله وذلك أشد إحراقا. وقرأه الجمهور بضم الشين. وقرأه ابن كثير بكسرها.
والنحاس: يطلق على الدخان الذي لا لهب معه. وبه فسر ابن عباس وسعيد بن جبير وتبعهما الخليل.
والمعنى عليه: أن الدخان الذي لم تلحقهم مضرته والاختناق به بسبب شدة لهب الشواظ يضاف إلى ذلك الشواظ على حياله فلا يفلتون من الأمرين.
ويطلق النحاس على الصفر وهو القطر. وبه فسر مجاهد وقتادة, وروي عن ابن عباس أيضا. فالمعنى: أنه يصب عليهم الصفر المذاب.
وقرأ الجمهور)ونحاس(بالرفع عطفا على)شواظ(. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وروح عن يعقوب مجرورا عطفا على)نار(فيكون الشواظ منه أيضا, أي شواظ لهب من نار, ولهب من نحاس ملتهب. وهذه نار خارقة للعادة مثل قوله تعالى)وقودها الناس والحجارة(.

ومعنى)فلا تنتصران(: فلا تجدان مخلصا من ذلك ولا تجدان ناصرا.
والناصر: هنا مراد منه حقيقته ومجازه, أي لا تجدان من يدفع عنكما ذلك ولا ملجأ تتقيان به.
)فبأي آلاء ربكما تكذبان[36](تكرير كالقول في الذي وقع قبله قريبا.
)فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان[37] فبأي آلاء ربكما تكذبان[38] فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان[39] فبأي آلاء ربكما تكذبان[40](تفريع على إخبار فرع على بعض الخبر المجمل في قوله)سنفرغ لكم أيها الثقلان(إلى آخره, تفصيل لذلك الإجمال بتعيين وقته وشيء من أهوال ما يقع فيه للمجرمين وبشائر ما يعطاه المتقون من النعيم والحبور.
وقوله)فكانت وردة(تشبيه بليغ, أي كانت كوردة.
والوردة: واحدة الورد, وهو زهر أحمر من شجرة دقيقة ذات أغصان شائكة تظهر في فصل الربيع وهو مشهور. ووجه الشبه قيل هو شدة الحمرة, أي يتغير لون السماء المعروف أنه أزرق إلى البياض, فيصير لونها أحمر قال تعالى)يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات(. ويجوز عندي: أن يكون وجه الشبه كثرة الشقوق كأوراق الوردة.
والدهان, بكسر الدال: دردي الزيت. وهذا تشبيه ثان للسماء في التموج والاضطراب.
وجملة)فبأي آلاء ربكما تكذبان(معترضة بين جملة الشرط وجملة الجواب وقد مثل بها في مغني اللبيب للاعتراض بين الشرط وجوابه, وعين كونها معترضة لا حالية, وهذه الجملة معترضة تكرير للتقرير والتوبيخ كما هو مبين, وانشقاق السماء من أحوال الحشر, أي فإذا قامت القيامة وانشقت السماء. كما قال تعالى)فإذا وقعت الواقعة وانشقت السماء(أن قوله)يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية(. وهذا هو الانشقاق المذكور في قوله)ويم تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن(في سورة الفرقان.
وجملة)فيومئذ لا يسأل عن ذنبه(الخ جواب شرط)إذا(. واقترن بالفاء لأنها صدرت باسم زمان وهو)يومئذ(وذلك لا يصلح لدخول)إذا(عليه.
ومعنى)لا يسأل عن ذنبه(: نفي السؤال الذي يريد به السائل معرفة حصول الأمر المتردد فيه, وهذا مثل قوله تعالى)ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون(.
وليس هو الذي في قوله تعالى)فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون(وقوله)وقفوهم إنهم مسؤولون(, فإن ذلك للتقرير

والتوبيخ فإن يوم القيامة متسع الزمان, ففيه مواطن لا يسأل أهل الذنوب عن ذنوبهم, وفيه مواطن يسألون فيها سؤالا تقرير وتوبيخ.
وجملة)فبأس آلاء ربكما تكذبان(تكرير للتقرير والتوبيخ.
)يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام[41](

هذا استئناف بياني ناشئ عن قوله)فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان(, أي يستغنى عن سؤالهم بظهور علاماتهم للملائكة ويعرفونهم بسيماهم فيؤخذون أخذ عقاب ويساقون إلى الجزاء.
والسيما: العلامة. وتقدمت في قوله تعالى)تعرفهم بسيماهم(في آخر سورة البقرة.
و)ال(في)بالنواصي والأقدام(عرض عن المضاف إليه, أي بنواصيهم وأقدامهم وهو استمال كثير في القرآن.
والنواصي: جمع ناصية وهي الشعر في مقدم الرأس, وتقدم في قوله تعالى)ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها(في سورة هود.
والأخذ بالناصية أخذ ممكن لا يفلت منه, كما قال تعالى)لئن لم ينته لنسفعن بالناصية(.
والأقدام: جمع قدم, وهو ظاهر الساق من حيث تمسك اليد رجل الهارب فلا يستطيع انفلاتا وفيه أيضا يوضع القيد, قال النابغة:
أو حرة كمهاة الرمل قد كبلت فوق
المعاصم منها والعراقيب)فبأي آلاء ربكما تكذبان[42](تكرير كما تقدم في نظيرها الذي قبلها.
)هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون[43] يطوفون بينها وبين حميم آن[44](هذا مما يقال يوم القيامة على رؤوس الملأ.
ووصف)جهنم(ب)التي يكذب بها المجرمون(تسفيه للمجرمين وفضح لهم. وجملة)يطوفون(حال من)المجرمون(, أي قد تبين سفه تكذيبهم بجهنم اتضاحا بينا بظهورها للناس وبأنهم يترددون خلالها كما ترددوا في إثباتها حين أنذروا بها في الدنيا.
والطواف: ترداد المشي والإكثار منه, يقال طاف به, وطاف عليه, ومنه الطواف بالكعبة, والطواف بالصفا والمروة, قال تعالى)فلا جناح عليه أن يطوف بهما(وتقدم في سورة البقرة.
والحميم: الماء المغلي الشديد الحرارة.
والمعنى: يمشون بين مكان النار وبين الحميم فإذا أصابهم حر النار طلبوا التبرد فلاح لهم الماء فذهبوا إليه فأصابهم حرة فانصرفوا إلى النار دواليك وهذا كقوله)وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل(.
وآن: اسم فاعل من أنى, إذا اشتدت حرارته.

)ولمن خاف مقام ربه جنتان[46] فبأي آلاء ربكما تكذبان[47] ذواتا أفنان[48] فبأي آلاء ربكما تكذبان[49] فيهما عينان تجريان[50] فبأي آلاء ربكما تكذبان[51] فيهما من كل فاكهة زوجان[52] فبأي آلاء ربكما تكذبان[53](انتقال من وصف جزاء المجرمين إلى ثواب المتقين. والجملة عطف على جملة)يرف المجرمون بسيماهم(إلى آخرها, وهو أظهر لأن قوله في آخرها)يطوفون بينها وبين حميم آن(يفيد معنى أنهم فيها.

واللام في)لمن خاف(لام الملك, أي يعطى من خاف ربه ويملك جنتين, ولا شبه في أن من خاف مقام ربه جنس الخائفين لا خائف معين فهو من صيغ العموم البدلي بمنزلة قولك: وللخائف مقام ربه. وعليه فيجيء النظر في تأويل تثنية)جنتان(فيجوز أن يكون المراد: جنسين من الجنات.

وقد ذكرت الجنات في القرآن بصيغة الجمع غير مرة وسيجيء بعد هذا قوله)ومن دونهما جنتان(فالمراد جنسان من الجنات.

ويجوز أن تكون التثنية مستعملة كناية عن التعدد, وهو استعمال موجود في الكلام الفصيح وفي القرآن قال الله تعالى)ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير(ومنه قولهم: لبيك وسعديك ودواليك, كقول القوال الطائي من شعر الحماسة:

فقولا لهذا المرء ذو جاء ساعيا هلم

فإن المشرفي الفـرائض أي فقولوا: يا قوم, وتقدم عند قوله تعالى) سنعذبهم مرتين(في سورة التوبة. وإيثار صيغة التثنية هنا لمراعاة الفواصل السابقة واللاحقة فقد بنيت قرائن السورة عليها والقرينة ظاهرة وإليه يميل كلام الفراء, وعلى هذا فجميع ما أجري بصيغة التثنية في شأن الجنتين فمراد به الجمع.

وقيل: أريد جنتان لكل متق تحفان بقصره في الجنة كما قال تعالى في صفة جنات الدنيا)جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب(الآية, وقال)لقد كان لسبإ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال(فهما جنتان باعتبار يمنة القصر ويسرته والقصر فاصل بينهما.

صفحة : 4256

والمقام: أصله محل القيام ومصدر ميمي للقيام وعلى الوجهين يستعمل مجازا في الحالة والتلبس كقولك لمن تستجيره: هذا مقام العائذ بك, ويطلق على الشأن والعظمة, فإضافة)مقام(إلى)ربه(هنا إن كانت على اعتبار المقام للخائف فهو بمعنى الحال, وإضافته إلى

)ربه(تشبه إضافة المصدر إلى المفعول, أي مقامه من ربه, أي بين يديه.
وإن كانت على اعتبار المقام لله تعالى فهو بمعنى الشأن والعظمة. وإضافته كالإضافة إلى الفاعل, ويحتمل الوجهين قوله تعالى)ذلك لمن خاف مقامي(في سورة إبراهيم وقوله)وأما من خاف مقام ربه(في سورة النازعات.
وجملة)فبأي آلاء ربكما تكذبان(معترضة بين الموصوف والصفة وهي تكرير لنظائرها.
وذواتا: تثنية ذات, والواو أصلية لأن أصل ذات: قوة, والألف التي بعدها الواو إشباع للفتحة لازم للكلمة. وقيل: الألف أصلية وأن أصل)ذات(: ذوات فخففت في الإفراد وردتها التثنية إلى أصلها وقد تقدم في قوله تعالى)وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط(في سورة سبأ. وأما الألف التي بعد التاء المثناة الفوقية فهي علامة رفع نائبة عن الضمة.
والأفنان: جمع فنن بفتحتين, وهو الغصن. والمقصود هنا: أفنان عظيمة كثيرة الإيراق والإثمار بقرينة أن الأفنان لا تخلو عنها الجنات فلا يحتاج إلى ذكر الأفنان لولا قصد ما في التنكير من التعظيم.
وتثنية)عينان(جار على نحو ما تقدم في تثنية)جنتان(, وكذلك تثنية ضميري)فيهما(وضمير)تجريان(تبع لتثنية معادهما في اللفظ.
فإن كان الجنتان اثنتين لكل من خاف مقام ربه فلكل جنة منهما عين فهما عينان لكل من خاف مقام ربه, وإن كانت الجنتان جنسين فالتثنية مستعملة في إرادة الجمع, أي عيون على عدد الجنات, وكذلك إذا كان المراد من تثنية)جنتان(الكثرة كما تثنية) عينان(للكثرة.
وفصل بين الأفنان وبين ذكر الفاكهة بذكر العينين مع أن الفاكهة بالأفنان أنسب, لأنه لما جرى ذكر الأفنان, وهي من جمال منظر الجنة أعقب بما هو من محاسن الجنات وهو عيون الماء جمع للنظيرين, ثم أعقب ذلك بما هو من جمال المنظر, أعني: الفواكه في أفنانها ومن ملذات الذوق.
وأما تثنية زوجان فإن الزوج هنا النوع, وأنواع فواكه الجنة كثيرة وليس لكل فاكهة نوعان: فإما أن نجعل التثنية بمعنى الجمع ونجعل إيثار صيغة التثنية لمراعاة الفاصلة ولأجل المزاوجة مع نظائرها من قوله)ولمن خاف مقام ربه جنتان(إلى هنا.
وأما أن نجعل تثنية)زوجان(لكون الفواكه بعضها يؤكل رطبا وبعضها يؤكل يابسا مثل الرطب والتمر والعنب والزبيب, وأخص الجوز واللوز وجافهما.
و)من كل فاكهة(بيان ل)زوجان(مقدم على المبين لرعي الفاصلة.

وتخلل هذه الآيات الثلاث لآيات)فبأي آلاء ربكما تكذبان(جار على وجه الاعتراض وعلى أنه مجرد تكرير كما تقدم أولاها.

)متكئين على فرش بطآئنها من إستبرق وجنا الجنتين دان[54]

(حال من)لمن خاف مقام ربه(. وجيء بالحال صيغة جمع بمعنى اعتبار صاحب الحال وصلاحية لفظه للواحد والمتعدد, لا باعتبار وقوع صلته بصيغة الإفراد فإن ذلك اعتبار بكون)من(مفردة اللفظ.

والمعنى: أعطوا الجنان واستقروا بها واتكأوا على فرش.

والاتكاء: افتعال من الوكء مهموز اللام وهو الاعتماد, فصار الاتكاء اسما لاعتماد الجالس ومرفقه إلى الأرض وجنبه إلى الأرض وهي هيئة بين الاضطجاع على الجنب والقعود, وتقدم في قوله)وأعتدت لهن متكئا(في سورة يوسف, وتقدم أيضا في سورة الصافات.

وفرش: جمع فراش ككتاب وكتب. والفراش أصله ما يفرش, أي يبسط على الأرض للنوم والاضطجاع.

ثم أطلق الفراش على السرير المرتفع على الأرض بسوق لأنه يوضع عليه ما شأنه أن يفرش على الأرض تسمية باسم ما جعل فيه, ولذلك ورد ذكره في سورة الواقعة في قوله)على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين(وفي سورة الصافات)على سرر متقابلين(.

والمعبر عنه في هذه الآيات واحد يدل على أن المراد بالفرش في هذه الآية السرر التي عليها الفرش.

والاتكاء: جلسة أهل الترف المخدومين لأنها جلسة راحة وعدم احتياج إلى النهوض للتناول نحوه وتقدم في سورة الكهف.

صفحة : 4257

والبطائن: جمع بطانة بكسر الباء وهي مشتقة من البطن ضد الظهر من كل شيء, وهو هنا مجاز عن الأسفل. يقال للجهة السفلى: بطن, وللجهة العليا ظهر, فيقال: بطنت ثوبي بآخر إذا جعل تحت ثوبه آخر, فبطانة الثوب داخله وما لا يبدو منه, وضد البطانة الظهارة بكسر الظاء, ومن كلامهم: أفرشني ظهر أمره وبطنه, أي علانيته وسره, شبهت العلانية بظهر الفراش والسر ببطن الفراش وهما الظهارة والبطانة, ولذلك اتبع هذا التشبيه باستعارة فعل: أفرشني. فالبطانة: هي الثوب الذي يجعل على الفراش. والظهارة: الثوب الذي يجعل فوق البطانة ليظهر لرؤية الداخل للبيت فتكون الظهارة أحسن من البطانة في الفراش الواحد.

والعرب كانوا يجعلون الفراش حشية, أي شيئا محشوا بصوف أو قطن أو ليف ليكون أوثر للجنب, قال عنترة يصف تنعم عبلة:

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية

وأبيت فوق سراة أدهم ملجـم فإذا وضعوا على الحشية ثوبا أو خاطوها بثوب فهو البطانة, وإذا غطوا ذلك بثوب أحسن منه فهو الظهارة.

فالمعنى هنا: أن بطائن فرش الجنة من إستبرق فلا تسأل عن ظهائرها فإنها أجود من ذلك, ولا ثوب من الثياب المعروفة عند الناس في الدنيا أنفس من الإستبرق البطائن بالذكر كناية عن نفاسة وصف ظهائر الفرش.

والإستبرق: صنف رفيع من الديباج الغليظ. والديباج: نسيج غليظ من حرير والإستبرق ينسج بخيوط الذهب. قال الفخر: وهو معرب عن الفارسية عن كلمة استبرك بكاف في آخره علامة تصغير استبز بمعنى ثخين, وقد تقدم في سورة الكهف, فأبدلوا الكاف قافا خشية اشتباه الكاف بكاف الخطاب, والذي في القاموس: الإستبرق: الديباج الغليظ معرب أستروه , وقد تبين أن الإستبرق: صنف من الديباج, والديباج: ثوب منسوج من الحرير منقوش وهو أجود أنواع الثياب.

ومن)جنى الجنتين(: ما يجنى من ثمارهما, وهو بفتح الجيم ما يقطف من الثمر. والمعنى: أن ثمر الجنة دان منهم وهم على فرشهم فمتى شاءوا اقتطفوا منه.

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[55](وهو مثل نظائره.

)فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس ولا جان[56] فبأي آلاء ربكما تكذبان[57] كأنهن الياقوت والمرجان[58](ضمير)فيهن(عائد إلى فرش وهو سبب تأخير نعم أهل الجنة بلذة التأنس بالنساء عن ما في الجنات ون الأفنان والعيون والفواكه والفرش, ليكون ذكر الفرش مناسبا للانتقال إلى الأوانس في تلك الفرش وليجيء هذا الضمير مفيدا معنى كثيرا من لفظ قليل, وذلك من خصائص الترتيب من هذا التركيب.

ف)قاصرات الطرف(كائنة في الجنة وكائنة على الفرش مع أزواجهن قال تعالى)وفرش مرفوعة إنا أنشأناهن إنشاءا فجعلناهن إبكارا(الآية.

و)قاصرات الطرف(صفة لموصوف محذوف تقديره نساء, وشاع المدح بهذا الوصف في الكلام حتى نزل منزلة الاسم, ف)قاصرات الطرف(نساء في نظرهن مثل القصور والغض خلقة فيهن, وهذا نظير ما يقول الشعراء من المولدين مراض العيون, أي مثل المراض

خلقة. والقصور: مثل الغض من صفات عيون المها والظباء, قال كعب بن زهير:

وما سعاد غداة البين إذ رحـلـوا إلا

أغن غضيض الطرف مكحول أي: كغضيض الطرف وهو الظبي.

والطمث بفتح الطاء وسكون الميم مسيس الأنثى البكر, أي من أبكار. وعبر عن البكارة ب)لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان(إطنابا في التحسين, وقد جاء في الآية الأخرى)فجعلناهن إبكارا(. وهؤلاء هن نساء الجنة لا أزواج المؤمنين اللآئي كن لهم في الدنيا لأنهن قد يكن طمثهم أزواج فإن الزوجة في الجنة تكون لآخر من تزوجها في الدنيا.

وقرأ الجمهور)يطمثهن(هنا, وفي نظيره الآتي بكسر الميم. وقرأه الدوري عن الكسائي بضم الميم وهما لغتان في مضارع طمث. ونقل عن الكسائي التخيير بين الضم والكسر.

وقوله)إنس قبلهم(أي لم يطمثهن أحد قبلهم, وقوله)ولا جان(تتميم واحتراس وهو إطناب دعا إليه أن الجنة دار ثواب لصالح الإنس والجن فلما ذكر)إنس(نشأ توهم أن يمسهن جن فدفع ذلك التوهم بهذا الاحتراس.

وجملة)كأنهن الياقوت والمرجان(نعت أو حال من)قاصرات الطرف(.

صفحة : 4258

ووجه الشبه بالياقوت والمرجان في لون الحمرة المحمودة, أي حمرة الخدود كما يشبه الخد بالورد, ويطلق الأحمر على الأبيض فمنه حديث بعثت إلى الأحمر والأسود , وقال عبد بني الحساس:

فلو كنت وردا لونه لعشقتني ولكن

ربي شانني بسـواديا)فبأي آلاء ربكما تكذبان[59](كرر)فبأي آلاء ربكما تكذبان(فيما علمت سابقا.

)هل جزاء الإحسان إلا الإحسان[60](تذييل للجمل المبدوءة بقوله)ولمن خاف مقام ربه جنتان(, أي لأنهم أحسنوا فجازاهم ربهم بالإحسان.

والإحسان الأول: الفعل الحسن, والإحسان الثاني: إعطاء الحسن وهو الخير, فالأول من قولهم: أحسنوا في كذا, والثاني من قولهم: أحسن إلى فلان.

والاستفهام مستعمل في النفي, ولذلك عقب بالاستثناء فأفاد حصر مجازاة الإحسان في أنها إحسان, وهذا الحصر إخبار عن كونه الجزاء

الحق ومقتضى الحكمة والعدل, وإلا فقد يتخلف ذلك لدى الظالمين, قال تعالى)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(وقال)فلما أتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما(.

وعلم منه أن جزاء الإساءة السوء قال تعالى)جزاء وفاقا(.

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[61](القول فيه مثل القول في نظائره.

)ومن دونهما جنتان[62] فبأي آلاء ربكما تكذبان[63] مدهامتان[64] فبأي آلاء ربكما تكذبان[65] فيهما عينان نضاختان[66] فبأي آلاء ربكما تكذبان[67] فيهما فاكهة ونخل ورمان[68] فبأي آلاء ربكما تكذبان[69](عطف على قوله)جنتان(، أي ومن دون تينك الجنتين جنتان، أي لمن خاف مقام ربه.

ومعنى)من دونهما(يحتمل أن)دون(بمعنى)غير(، أي ولمن خاف مقام ربه ربع جنتان وجنتان أخريان غيرهما كقوله تعالى)للذين أحسنوا الحسنى وزيادة(. ووصف ما في هاتين الجنتين بما يقارب ما وصف به ما في الجنتين الأوليين وصفا سلك فيه مسلك الإطناب أيضا لبيان حسنهما ترغيبا في السعي لنيلهما بتقوى الله تعالى فذلك موجب تكرير بعض الأوصاف أو ما يقارب من التكرير بالمترادفات.

ويكون لكل الجنات الأربع حور مقصورات لا ينتقلن من قصورهن، ويجوز أن تكون)دون(بمعنى أقل، أي لنزول المرتبة، أي ولمن خاف مقام ربع جنتان أقل من الأوليين فيقتضي ذلك من هاتين الجنتين لطائفة أخرى لمن خاف مقام ربهم هم أقل من الأوليين في درجة مخافة الله تعالى.

ولعل هاتين الجنتين لأصحاب اليمين الذين ورد ذكرهم في سورة الواقعة والجنتين المذكورتين قبلها في قوله)جنتان... ذواتا أفنان(إلى آخر الوصف جنتان سابقين الوارد ذكرهم قوله في سورة الواقعة) والسابقون السابقون(الآيات.

و)مدهامتان(وصف مشتق من الدهنة بضم الدال وهي لون السواد. ووصف الجنتين بالسواد مبالغة في شدة خضرة أشجارهما حتى تكونا أشجارها وقوة خضرتها كالسوداوين لأن الشجر إذا كان ريان اشتدت خضرة أوراقه حتى تقرب من السواد، وقد أخذ هذا المعنى أبو تمام وركب عليه فقال:

يا صاحبي تقصيا نظـريكـمـا تريا
وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قـد شـابـه زهر
الربى فكأنما هو مقمـر و)نضاختان(: فوارتان بالماء، والنضخ بخاء معجبة في آخره أقوى من النضح بالحاء المهملة الذي هو الرش.

وقد وصف العينان هنا بغير ما وصف به العينان بالجنتين المذكورتين، فقيل: هما صنفان مختلفان في أوصاف الحسن يشير

اختلافهما إلى أن هاتين الجنتين دون الأولين في المحاسن ولذلك جاء هنا)فيها فاكهة ونخل ورمان(، وجاء فيها تقدم)فيها من كل فاكهة زوجان(. وقيل: الوصفان سواء، وعليه فالمخالفة بين الصنفين من الأوصاف تفنن.
وعطف)ونخل ورمان(على)فاكهة(من باب عطف الجزئي على الكلي تنويها ببعض أفراد الجنتين كما قال تعالى)وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل(في سورة البقرة.
وجاءت جمل)فبأي آلاء ربكما تكذبان(معترضات بين) جنتان(وصفاتها اعتراضا للازدياد من تكرير التقرير والتوبيخ لمن حرموا من تلك الجنات.

صفحة : 4259

)فيهن خيرات حسان[70] فبأي آلاء ربكما تكذبان[71] حور مقصورات في الخيام[72] فبأي آلاء ربكما تكذبان[73] لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان[74](ضمير)فيهن(عائد إلى الجنات الأربع الجنتين الأوليين والجنتين اللتين من دونها فيجوز أن يكون لصاحب الجنتين الأوليين جنتان أخريان فصارت له أربع جنات. ويجوز أن يكون توزيعا على من خافوا ربهم كما تقدم.
و)خيرات(صفة لمحذوف يناسب صيغة الوصف، أي نساء خيرات، وخيرات مخفف من خيرات بتشديد الياء مؤنث خير وهو المختض بأن صفته الخير ضد الشر. وخفف في الآية طلبا لخفة اللفظ مع السلامة مع اللبس بما اتبع به ومن وصف)حسان(الذي هو جمع حسناء كما خفف هين ولين في قول الشاعر:
هينون لينون ومعنى)خيرات(أنهن فاضلات النفس كرائم الأخلاق.
ومعنى حسان: أنهم حسان الخلق، أي صفات الذوات.
و)حور(بدل من)خيرات(. الحور:: جمع حوراء وهي ذات الحور بفتح الواو، وهو وصف مركب من مجموع شدة بياض أبيض العين وشدة سواد أسودها وهو من محاسن النساء، وتقد عند قوله تعالى) وزوجانكم بحور عين(في سورة الدخان.
ووصف نساء الجنتين الأوليين ب)قاصرات الطرف(. ووصف نساء الجنات الأربع بأنهن)حور مقصورات(في الخيام، فعلم أن الصفات الثابتة لنساء الجنتين واحدة.
والمقصورات: اللاء قصرت على أزواجهن لا يعدون الأنس من أزواجهن، وهو من صفات الترف في نساء الدنيا فهن اللاء لا يحتجن إلى مغادرة بيوتهن بخدمة أو ورد أو اقتطاف ثمار، أي هن

مخدومات مكرومات كما قال أبو قيس بن الأسلت: ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتعذر والخيام: جمع خيمة وهي البيت، وأكثر ما تقال على البيت من أدم أو شعر تقام على العمد وقد تطلق على العمد وقد تطلق على بيت البناء.

واعتراض بجملة)فبأي آلاء ربكما تكذبان(بين البدل والمبدل منه وبين الصفتين لقصد التكرير في كل مكان يقتضيه.

وتقد القول في)لم يطمثهن إنس قبلهن ولا جان(آنفا.

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[75](تكرير في آخر الأوصاف لزيادة التقرير والتوبيخ.

)متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان[76](و)متكئين(: حال من)ولمن خاف مقام ربه(كررت بدون عطف لأنها في مقام تعداد النعم وهو مقام يقتضي التكرير استئنافا.

والرفرف: ضرب من البسط، وهو اسم جمع رفرفة، وهو ما يبسط على الفراش لينام عليه، وهي تنسج على شبه الرياض بالبسط العبقرية في قوله:

حتى كأن رياض القف ألبسها من

وشي عبقر تجليل وتنجيد فوصفها في الآية بأنها)خضر(وصف كاشف لاستحضار اللون الأخضر لأنه يسر الناظر.

وكانت الثياب الخضر عزيزة وهي لباس الملوك والكبراء، وقال النابغة:

يصونون أجسادا قديما نعيمـها

بخالصة الأردان خضر المناكب وكانت الثياب مصبوغة بالألوان الثابتة التي لا يزيلها الغسل نادرا لقلة الأصباغ الثابتة ولا تكاد تعدل أخضر والأحمر يسمى الأرجواني.

وأما المتداول من أصباغ الثياب عند العرب فهو ما صبغ بالورس والزعفران فيكون اصفر، وما عدا ذلك فإنما لونه لون ما ينسج منه من وصف الغنم أبيض أو أسود أو من وبر أو من كتان أبيض أو كان من شعر المعز الأسود.

و)حسان(: جمع حسناء وهو صفة ل)رفرف(إذ هو اسم جمع.

وعبقري: وصفة لما كان فائقا في صنفه عزيز الموجود وهو نسبة إلى عبقر بفتح فسكون ففتح اسم بلاد الجن في معتقد العرب فنسبوا إليه كل ما تجاوز العادة في الإتقان والحسن، حتى كأنه ليس من الأصناف المعروفة في ارض البشر، قال زهير:

بخيل عليها جـنة عـبـقـرية جديرون

يوما أن ينالوا ويستعلوا فشاع ذلك فصار العبقري وصفا للفائق في صنفه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما حكاه من رؤيا

القليب الذي استسقى منه ثم أخذها أي الذنوب عمر فاستحالت غربا فلم أر عبقريا يفري فريه.
وإلى هذا أشار المعري بقوله:
وقد كان أرباب الفصاحة كلـما رأوا
حسنا عدوه من صنعة الجن فضربه القرآن مثلا لما هو مألوف عند العرب في إطلاقه.

صفحة : 4260

)فبأي آلاء ربكما تكذبان[77](هذه الجملة آخر الجمل المكررة وبها انتهى الكلام المسوق للاستدلال على تفرد الله بالإنعام والتصرف.
)تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام[78](إيذان بانتهاء الكلام وفذلكة لما بنيت عليه السورة من التذكير بعظمة الله تعالى ونعمائه في الدنيا والآخرة.
والكلام: إنشاء ثناء على الله تعالى مبالغ فيه بصيغة التفعل التي إذا كان فعلها غير صادر من اثنين فالمقصود منها المبالغة.
والمعنى: وصفه تعالى بكمال البركة، والبركة: الخير العظيم والنفع، وقد تطلق البركة على علو الشأن، وقد تقدم ذلك في أول سورة الفرقان.
والاسم ما دل على ذات سواء كان علما مثل لفظ الله أو كان صفة مثل الصفات العلى وهي الأسماء الحسنى، فأي اسم قدرت من أسماء الله فهو دال على ذات الله تعالى.
واسند)تبارك(إلى)اسم(وهو ما يعرف به المسمى دون أن يقول: تبارك ربك، كما قال)تبارك الذي نزل الفرقان(وكما قال) فتبارك الله أحسن الخالقين(قصد المبالغة في قوله تعالى بصفة البركة على طريقة الكناية لأنها أبلغ من التصريح كما هو مقرر في علم المعاني، وأطبق عليه البلغاء لأنه إذا كان اسمه قد تبارك فإن ذاته تباركت لا محالة لأن الاسم دال على المسمى، وهذا على طريقة قوله تعالى)سبح اسم ربك الأعلى(فإنه إذا كان التنزيه متعلقا باسمه فتعلق التنزيه بذاته أولى ومنه قوله تعالى)وثيابك فطهر(على التأويل الشامل، وقول عنترة:
فشككت في الرمح الأصم ثيابه ليس
الكريم على القنا بمحرم أراد فشككته بالرمح.
وأما قوله)فسبح باسم ربك العظيم(فهو يحتمل أن يكون من قبيل)فسبح بحمد ربك(على أن المراد أن يقول كلاما فيه تنزيه

لله فيكون من قبيل قوله)بسم الله الرحمن الرحيم(، ويحتمل زيادة الباء فيكون مساويا لقوله)سبح اسم ربك الأعلى(.
وهذه الكناية من دقائق الكلام كقولهم: لا يتعلق الشك بأطرافه وقول...:
يبيت بنجاة من اللؤم بيتهـا إذا ما
بيوت بالملامة حلت ونظير هذا في التنزيه أن القرآن يقرأ ألفاظه من ليس بمتوضئ ولا يمسك المصحف إلا المتوضئ عند جمهور الفقهاء.
فذكر)اسم(في قوله)تبارك اسم ربك(مراعى فيه أن ما عدد من شؤون الله تعالى ونعمه وإفضاله لا تحيط به العبارة، فعبر عنه بهذه المبالغة إذ هي أقصى ما تسمح به اللغة في التعبير، ليعلم الناس أنهم محقوقون لله تعالى بشكر يوازي عظم نعمه عليهم.
وفي استحضار الجلالة بعنوان)رب(مضافا إلى ضمير المخاطب وهو النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى ما في معنى الرب من السيادة المشوبة بالرأفة والتنمية، وإلى ما في الإضافة من التنويه بشأن المضاف إليه وإلى كون النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى.
وقرأ الجمهور)ذي الجلال(بالياء مجرورا صفة ل)ربك(وهو ذلك مرسوم في غير المصحف الشامي. وقرأه ابن عامر)ذو الجلال(صفة ل)اسم(كما في قوله)ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام(. وكذلك هو مرسوم في غير مصحف أهل الشام. والمعنى واحد على الاعتبارين.
ولكن إجماع القراء على رفع)ذو الجلال(الواقع موقع)ويبقى وجه ربك(واختلاف الرواية في جر)ذي الجلال(هنا يشعر بأن لفظ)وجه(أقوى دلالة على الذات من لفظ)اسم(لما علمت من جواز أن يكون المعنى جريان البركة على التلفظ بأسماء الله بخلاف قوله) ويبقى وجه ربك(فلذلك من حكمة إنزال القرآن على سبعة أحرف.
والجلال: العظمة، وهو جامع لصفات الكمال اللائقة به تعالى.
والإكرام: إسداء النعمة والخير، فهو إذن حقيق بالثناء والشكر.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الواقعة
سميت هذه السورة الواقعة بتسمية النبي صلى الله عليه وسلم.
روى الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت، قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت وقال الترمذي حديث حسن غريب.
وروى ابن وهب والبيهقي عن عبد الله بن مسعود بسند ضعيف أنه سمع رسول الله يقول ????من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم

تصبه فاقدا أبدا ، وكذلك سميت في عصر الصحابة. روى أحمد عن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور .

صفحة : 4261

وهكذا سميت في المصاحب وكتب السنة فلا يعرف لها اسم غير هذا.
وهي مكية قال أبن عطية: باجتماع من يعتد به من المفسرين. وقيل فيها آيات مدنية، أي نزلت في السفر، وهذا كله غير ثابت اه. وقال القرطبي: عن قتادة وأبن عباس استثناء قوله تعالى) وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(نزلت بالمدينة.
وقال الكلبي: إلا أربع آيات: اثنتان نزلتا في سفر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة وهما)أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(، واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة وهما)ثلة من الأولين وثلة من الآخرين(وأخرج أبن أبي حاتم عن أبن مسعود أنها نزلت في غزوة تبوك.
وهي سورة السادسة والأربعون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء.
وقد عد أهل المدينة ومكة والشام آيها تسعا وتسعين وعدها أهل البصرة سبعا وتسعين وأهل الكوفة ستا وتسعين.
وهذه السورة جامعة للتذكير قال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ونبأ أهل الجنة ونبأ أهل النار ونبأ أهل الدنيا ونبأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة اه.

أغراض هذه السورة
التذكير بيوم القيامة وتحقيق وقوعه.
ووصف ما يعرف وهذا العالم الأرضي عند ساعة القيامة.
ثم صفة أهل الجنة وبعض نعيمهم.
وصفة أهل النار وما هم فيه من العذاب وأن ذلك لتكذيبهم بالبعث. وإثبات الحشر والجزاء والاستدلال على إمكان الخلق الثاني بما أبدعه اللام من الموجودات بعد أن لم تكن.
والاستدلال بدلائل قدرة الله تعالى.
والاستدلال بنزع الله الأرواح من الأجساد والناس كارهون لا يستطيع أحد منعها من الخروج، على أن الذي قدر على نزعها بدون مدافع قادر على إرجاعها متى أراد أن يميتهم.

وتأكيد أن القرآن منزل من عند الله وأنه نعمة أنعم بها عليهم فلم يشكروها وكذبوا بما فيه.

)إذا وقعت الواقعة[1] ليس لوقعتها كاذبة[2](افتتاح السورة بالظرف المتضمن الشرط، افتتاح بديع لأنه يسترعي الألباب لترقب ما بعد هذا الشرط الزماني مع ما في الاسم المسند إليه من التهويل بتوقع حدث عظيم يحدث.

و)إذا(ظرف زمان وهو متعلق بالكون المقدر في قوله)في جنات النعيم(الخ وقوله)في سدر مخضود(الخ وقوله)في سموم وحميم(الخ. وضمن)إذا(معنى الشرط.

وجملة)ليس لوقعتها كاذبة(استئناف بياني ناشىء عن قوله)إذ وقعت الواقعة(الخ وهو اعتراض بين جملة)إذا وقعت الواقعة(وبين جملة)فأصحاب الميمنة(الخ.

والجواب قوله)فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة(، فيفيد جوابا للشرط ويفيد تفصيل جملة)وكنتم أزواجا ثلاثة(، وتكون الفاء مستعملة في معنيين: ربط الجواب، والتفريع، وتكون جملة)ليس لوقعتها كاذبة(وما بعده اعتراضا.

والواقعة أصلها: الحادثة التي وقعت، أي حصلت، يقال: وقع أمر، أي حصل كما يقال: صدق الخبر مطابقته للواقع، أي كون المعنى المفهوم منه موافقا لمسمى ذلك المعنى في الوجود الحاصل أو التوقع على حسب ذلك المعنى، ومن ذلك حاثة الحرب يقال: واقعة ذي قار، وواقعة القادسية.

فراعوا في تأنيثها معنى الحادثة أو الكائنة أو الساعة، وهو تأنيث كثير في اللغة جار على ألسنة العرب لا يكونون راعوا فيه إلا معنى الحادثة أو الساعة أو نحو ذلك، وقريب منه قولهم: دارت عليه الدائرة، قال تعالى)يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة(وقال)عليهم دائرة السوء(.

والمراد بالواقعة هنا القيامة فجعل هذا الوصف علما لها بالغلبة في اصطلاح القرآن قال تعالى)فيومئذ وقعت الواقعة(كما سميت الصاخة والطامة والآزفة، أي الساعة الواقعة وبهذا الاعتبار صار في قوله)إذا وقعت الواقعة(محسن التجنيس.

و)الواقعة(: الموصوفة بالوقوع، وهو الحدوث.

و)كاذبة(يجوز أن يكون اسم فاعل من كذب المجرد، جرى على التأنيث للدلالة على أنه وصف لمحذوف مؤنث اللفظ. وتقديره هنا نفس، أي تنتفي كل نفس كاذبة، فيجوز أن يكون كذب اللازم إذا قال خلاف ما في نفس الأمر وذلك أن منكري القيامة يقولون: لا تقع القيامة فيكذبون في ذلك فإذا وقعت الواقعة آمنت النفوس كلها

بوقوعها فلم تبق نفس تكذب، أي في شأنها أو في الإخبار عنها. وذلك التقدير كله مما يدل عليه المقام.

صفحة : 4262

ويجوز أن يكون من كذب المتعدي مثل الذي في قولهم كذبت فلانا نفسه، أي حدثته نفسه، أي رأيه بحديث كذب وذلك أن اعتقاد المنكر للبعث اعتقاد سوله له عقله القاصر فكأن نفسه حدثته حديثا كذبته به، ويقولون: كذبت فلانا نفسه في الخطب العظيم، إذا أقدم عليه فأخفق كأن نفسه لما شجعته على اقتحامه قد قالت له: إنك تطيقه فتعرض له ولا تبال به فإنك مذلله فإذا تبين له عجزه فكأن نفسه أخبرته بما لا يكون فقد كذبته، كما يقال: كذبته عينه إذا تخيل مرئيا ولم يكن.
والمعنى: إذا وقعت القيامة تحقق منكروها ذلك فأقلعوا عن اعتقادهم أنها لا تقع وعلموا أنهم ضلوا في استدلالهم وهذا وعيد بتحذير المنكرين للقيامة من خزي الخيبة وسفاهة الرأي بين أهل الحشر.
وإطلاق صفة الكذب في جميع هذا استعارة بتشبيه السبب للفعل غير المثمر بالمخبر بحديث كذب أو تشبيه التسبب بالقول قال أبو علي الفارسي: الكذب ضرب من القول فكما جاز أن يتسع في القول في غير نطق نحو قول أبي النجم:
قد قالت الأنساع للبطن الحق جاز في الكذب أن يجعل في غير نطق نحو:
بأن كذب القراطف والقروف واللام في)لوقعتها(لام التوقيت نحو)أقم الصلاة لدلوك الشمس(وقوله تعالى)فطلقوهن لعدتهن(.
وقولهم: كتبته لكذا من شهر كذا، وهي بمعنى عند وأصلها لام الاختصاص شاع استعمالها في اختصاص الموقت بوقته كقوله تعالى)ولما جاء موسى لميقاتنا(. وهو توسع في معنى الاختصاص بحيث تنسوي أصل المعنى. وفي الحديث سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل فقال: الصلاة لوقتها . وهذا الاستعمال غير الاستعمال الذي في قوله تعالى)ليس لهم طعام إلا من ضريع(.
)خافضة رافعة[3](خبران لمبتدأ محذوف ضمير)الواقعة(، أي هي خافضة رافعة، أي يحصل عندها خفض أقوام كانوا مرتفعين ورفع أقوام كانوا منخفضين وذلك بخفض الجبابرة والمفسدين الذين كانوا في الدنيا في رفعة وسيادة، وبرفع الصالحين الذين كانوا في الدنيا

لا يعبأون بأكثرهم، وهي أيضا خافضة جهات كانت مرتفعة كالجبال والصوامع، رافعة ما كان منخفضا بسبب الانقلاب بالرجات الأرضية.
وإسناد الخفض والرفع إلى الواقعة مجاز عقلي إذ هي وقت ظهور ذلك. وفي قوله)خافضة رافعة(محسن الطباق مع الإعراب بثبوت الضدين لشيء واحد.
)إذا رجت الأرض رجا[4] وبست الجبال بسا[5] فكانت هباء منبثا[6] وكنتم أزواجا ثلاثة[7]( )إذا رججت الأرض(بدل من جملة)إذا وقعت الواقعة(وهو بدل اشتمال.
والرج: الاضطراب والتحرك الشديد، فمعنى)رجت(رجها راج، وهو ما يطرأ فيها من الزلازل والخسف ونحو ذلك.
وتأكيده بالمصدر للدلالة على تحققه وليأت التنوين المشعر بالتعظيم والتهويل.
والبس يطلق بمعنى التفتت وهو تفرق الأجزاء المجموعة، ومنه البسيسة من أسماء السويق أي فتتت الجبال ونسفت فيكون كقوله تعالى)ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا(.
ويطلق البس أيضا على السوق للماشية، يقال: بس الغنم، إذا ساقها. وفي الحديث فيأتي قوم يبسن بأموالهم وأهليهم والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون(فهو في معنى قوله تعالى)ويوم نسير الجبال(، وقوله)وسيرت الجبال(وتأكيده بقوله)بسا(كالتأكيد في قوله)رجا(لإفادة التعظيم بالتنوين.
وتفريع)فكانت هباء منبثا(على)وبست الجبال(لائق بمعنى البس لأن الجبال إذا سيرت فإنما تسير تسييرا يفتتها ويفرقها، أي تسيير بعثرة وارتطام.
والهباء: ما يلوح في خيوط شعاع الشمس من دقيق الغبار، وتقدم عند قوله تعالى)فجعلناه هباء منثورا(في سورة الفرقان.
والمنبث: اسم فاعل انبث، مطاوع بثه، إذا فرقه. واختير هذا المطاوع لمناسبته مع قوله)وبست الجبال(في أن المبني للنائب معناه كالمطاوعة، وقوله)فكانت هباء منبثا(تشبيه بليغ، أي فكانت كالهباء المنبث.
والخطاب في)وكنتم أزواجا ثلاثة(للناس كلهم، وهذا تخلص للمقصود من السورة وهو الموعظة.
والأزواج: الأصناف. والزوج يطلق على الصنف والنوع كقوله تعالى) فيها من كل فاكهة زوجان(ووجه ذلك أن الصنف إذا ذكر يذكر معه نظيره غالبا فيكون زوجا.

)فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة[8] وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة[9] والسابقون السابقون[10] أولئك المقربون[11] في جنات النعيم[12](قد علمت عند تفسير قوله تعالى)إذا وقعت الواقعة(الوجه في متعلق)إذا(وإذا قد وقع قوله)وكنتم أزواجا ثلاثة(عطفا على الجمل التي أضيف إليها)إذا(من قوله)إذا رجت الأرض رجا(كان هو محط القصد من التوقيت ب)إذا(الثانية الواقعة بدلا من)إذا(الأولى وكلتاهما مضمن معنى الشرط، فكأن هذا في معنى الجزاء، فلك أن تجعل الفاء لربط الجزاء مع التفصيل للإجمال، وتكون جملة)فأصحاب الميمنة(جوابا ل)إذا(الثانية آئلا إلى كونه جوابا ل)إذا(الأولى لأن الثانية مبدلة منها، ولذلك جاز أن يكون هذا هو جواب)إذا(الأولى فتكون الفاء مستعملة في معنييها كما تقدم عند قوله تعالى)ليس لوقعتها كاذبة(.

وقد أفاد التفصيل أن الأصناف ثلاثة: صنف منهم أصحاب الميمنة، وهم الذين يجعلون في الجهة اليمنى في الجنة أو في المحشر. واليمين جهة عناية وكرامة في العرف، واشتقت من اليمن، أي البركة.

وصنف أصحاب المشأمة، وهي اسم جهة مشتقة من الشؤم، وهو ضد اليمن فهو الضر وعدم النفع وقد سمي في الآية الآتية أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فجعل الشمال ضد اليمين كما جعل المشأمة هنا ضد الميمنة إشعار بأن حالهم حال شؤم وسوء، وكل ذلك مستعار لما عرف في كلام العرب من إطلاق هذين اللفظين على هذا المعنى الكنائي الذي شاع حتى ساوى الصريح، وأصله جاء من الزجر والعيافة إذ كانوا يتوقعون حصول خير من أغراضهم من مرور الطير أو الوحش من يمين الزاجر إلى يساره ويتوقعون الشر من مروره بعكس ذلك، وقد تقدم تفصيله عند قوله تعالى)قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين(في سورة الصافات، وتقدم شيء منه عند قوله تعالى) يطيروا بموسى ومن معه(في سورة الأعراف، وعند قوله تعالى)قالوا إنا تطيرنا بكم(في سورة ياسين.

ولذلك استغني هنا عن الإخبار عن كلا الفريقين بخبر في وصف بعض حاليهما بذكر ما هو إجمال لحاليهما مما يشعر به ما أضيف إليه أصحابه من لفظي الميمنة والمشأمة، بطريقة الاستفهام المستعمل في التعجيب من حال الفريقين في السعادة والشقاوة، وهو تعجيب ترك على إبهامه هنا لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن من الخير والشر، ف)ما(في الوضعين اسم استفهام.

و)أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة(خبران عن)ما(في الموضعين كقوله تعالى)الحاقة ما الحاقة(، وقوله)القارعة ما القارعة(.
وإظهار لفظي)أصحاب الميمنة(و)أصحاب المشأمة(بعد الاستفهامين دون الإتيان بضميريهما. لأن مقام التعجب والتشهير يقتضي الإظهار بمقام قوله تعالى) وما أدراك ما هيه(.
وقوله)والسابقون(هذا الصنف الثالث عي العد وهم الصنف الأفضل من الأصناف الثلاثة، ووصفهم بالسبق يقتضي أنهم سابقون أمثالهم من المحسنين الذين عبر عنهم بأصحاب الميمنة فهم سابقون إلى الخير، فالناس لا يتسابقون إلا لنوال نفيس مرغوب لكل الناس، وأما الشر والضر فهم يتكعكون عنه.
وحقيقة السبق: وصول أحد مكانا قبل وصول أحد آخر. وهو هنا مستعمل على سبيل الاستعارة، وقد جمع المعنيين قول النابغة:
سبقت الرجال الباهشين إلى العـلا
كسبق الجواد اصطاد قبل الظوارد فيجوز أن يكون)
السابقون(مستعملا في المبادرة والإسراع إلى الخير في الدين كما في قوله تعالى)والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار(في سورة براءة.
ويجوز أن يكون مستعملا في المغالبة في تحصيل الخير كقوله تعالى)أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون(في سورة المؤمنين.

صفحة : 4264

وقوله)السابقون(ثانيا يجوز جعله خبرا عن)السابقون(الأول كما أخبر عن أصحاب الميمنة بأنهم)ما أصحاب الميمنة(لأنه يدل على وصفهم بشيء لا يكتنه كنهه بحيث لا يفي به التعبير بعبارة غير تلك الصف إذ هي أقصى ما يسعه التعبير، فإذا أراد السامع أن يتصور صفاتهم فعليه أن يتدبر حالهم، وهذا على طريقة قوله)وأولئك هم المفلحون(. ويجوز جعله تأكيدا للأول. فمآل جملة)ما أصحاب الميمنة(ونظيرتها وجملة)والسابقون السابقون(هو التعجب من حالهم وطريقة هو الكناية ولكن بين الكنايتين فرقا بين إحداهما كانت من طريق السؤال عن الوصف، والأخرى من طريق تعذر التعبير بغير ذلك الوصف.
والمعنى: أن حالهم بلغت منتهى الفضل والرفعة بحيث لا يجد المتكلم خبر يخبر به عنهم أدل على مرتبتهم من اسم)
السابقون(فهذا الخبر أبلغ في الدلالة على شرف قدرهم من الإخبار

ب)ما(الاستفهامية التعجيبية في قوله)ما أصحاب الميمنة(، وهذا مثل قول أبي الطمحان القفيني:

وإني من القوم الذين همو همو إذا

مات منهم سيد قام صاحبه مع ما في اشتقاق لقبهم من)

السبق(من الدلالة على بلوغهم أقصى ما يطلبه الطالبون.

وحذف متعلق)السابقون(في الآية لقصد جعل وصف)

السابقون(بمنزلة اللقب لهم، وليفيد العموم، أي أنهم سابقون في كل ميدان تتسابق إليه النفوس الزكية كقوله تعالى)وفي ذلك فليتنافس المتنافسون(، فهؤلاء هم السابقون إلى الإيمان بالرسل وهم الذين صحبوا الرسل والأنبياء وتلقوا منهم شرائعهم، وهذا الصنف يوجد في جميع العصور من القدم، ومستمر في الأمم إلى الأمة المحمدية وليس صنفا قد انقضى وسبق الأمة المحمدية. وأخر)السابقون(في الذكر عن أصحاب اليمين لتشويق السامعين إلى معرفة صنفهم بعد أن ذكر الصنفان الآخران من الأصناف الثلاثة ترغيبا في الاقتداء وجملة)أولئك المقربون في جنات النعيم(، مستأنفة استئنافا بيانيا لأنها جواب عما يثيره قوله)والسابقون السابقون(من تساؤل السامع عن أثر التنويه بهم.

وبذلك كان هذا ابتداء تفصيل لجزاء أصناف الثلاثة على طريقة النشر بعد اللف، نشرا مشوشا تشويشا اقتضته مناسبة اتصال المعاني بالنسبة إلى كل صنف أقرب ذكرا، ثم مراعاة الأهم بالنسبة إلى الصنفين الباقيين فكان بعض الكلام آخذا بحجز بعض.

والمقرب: أبلغ من الغريب لدلالة صيغته على الاصطفاء والاجتباء، وذلك قرب مجازي، أي شبه بالقرب في ملابسة القريب والاهتمام بشؤونه فإن المطيع لمجاهدته في الطاعة يكون كالمقترب إلى الله، أي طالب القرب منه فإذا بلغ مرتبة عالية من ذلك قربه الله، أي عامله معاملة المقرب المحبوب، كما جاء ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذه وكل هذه الأوصاف مجازية تقريبا لمعنى التقريب.

ولم يذكر متلق)المقربون(لظهور أنه مقرب من الله، أي من عنايته وتفضيله، وكذلك لم يذكر زمان التقريب ولا مكانه لقصد تعميم الأزمان والبقاع الاعتبارية في الدنيا والآخرة.

وفي جعل المسند إليه اسم إشارة تنبيه على أنهم أحرياء بما يخبر عنه من أجل الوصف الوارد قبل اسم الإشارة وهو أنهم سابقون على نحو ما تقدم في قوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم(في سورة البقرة.

وقوله)في جنات النعيم(خبر ثان عن)أولئك المقربون(أو حال منه.
وإيقاعه بعد وصف)المقربون(مشير إلى أن مضمونه من آثار التقريب المذكور.
)ثلة من الأولين[13] وقليل من الآخرين[14](اعتراض بين جملة) في جنات النعيم(وجملة)على سرر موضونة(.
و)ثلة(خبر عن مبتدأ محذوف، تقديره: هم ثلة، ومعاد الضمير المقدر)السابقون(، أي السابقون ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.
وهذا الاعتراض يقصد منه التنويه بصنف السابقين وتفضيلهم بطرق الكناية عن ذلك بلفظي)ثلة(و)قليل(المشعرين بأنهم قل من كثر، فيستلزم ذلك أنهم صنف عزيز نفيس لما عهد في العرف من قلة الأشياء النفيسة وكقول السموأل وقيل غيره :

تعيرنا أنا قليل عـديدنـا فقلت لها: إن الكرام قليل

مع بشارة المسلمين بأن حظهم في هذا الصنف كحظ المؤمنين السالفين أصحاب الرسل لأن المسلمين كانوا قد سمعوا في القرآن وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تنويها بثبات المؤمنين السالفين مع الرسل ومجاهدتهم فربما خامر نفوسهم أن تلك صفة لا تنال بعدهم فبشرهم الله بأن لهم حظا منها مثل قوله تعالى) وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم(إلى قوله)وكأين من نبي قاتل معهم ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين(وغيرها، تلهيبا للمسلمين وإذكاء لهممهم في الأخذ بما يلحقهم بأمثال السابقين من الأولين فيستكثروا من تلك الأعمال. وفي الحديث لقد كان من قبلكم يوضع المنشار على أحدهم فينشر إلى عظمه لا يصده ذلك عن دينه .
والثلة: بضم الثاء لا غير: اسم للجماعة من الناس مطلقا قليلا كانوا أو كثيرا وهذا هو قول الفراء وأهل اللغة والراغب وصاحب لسان العرب وصاحب القاموس والزمخشري في الأساس، وقال الزمخشري في الكشاف إن الثلة: الأمة الكثيرة من الناس ومحمله على أنه أراد به تفسير معناها في هذه الآية لا تفسير الكلمة في اللغة.

ولما في هذا الاعتراض من الإشعار بالعزة قدم على ذكر ما لهم من النعيم للإشارة إلى عظيم كيفيته المناسبة لوصفهم ب)السابقين(بخلاف ما يأتي في أصحاب اليمين.

ومعنى)الأولين(قوم متقدمون على غيرهم في الزمان لأن الأول هو الذي تقدم في صفة ما كالوجود أو الأحوال على غير الذي هو الآخر أو الثاني، فالأولية أمر نسبي يبينه سياق الكلام حيثما وقع.

فالظاهر أن)الأولين(هنا مراد بهم الأمم السابقة قبل الإسلام بناء على ما تقدم من أن الخطاب في قوله)وكنتم أزواجا ثلاثة(خطاب لجميع الناس بعنوان أنهم ناس لأن المنقرضين الذين يتقدمون من أمة أو قبيلة أو أهل نحلة يدعون بالأولين كما قال الفرزدق:

ومهلهل الشعراء ذاك الأول وقال تعالى)أو آباؤنا الأولون(الذين هم يخلفونهم ويكونون موجودين، أو في تقدير الموجودين يدعون الآخرين.

وقد وصف أهل الإسلام بالآخرين في حديث فضل الجمعة نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا الحديث. وإذ قد وصف السابقون بما دل على أنهم أهل السبق إلى الخير ووصفت حالهم في القيامة عقب ذلك فقد علم أنهم أفضل الصالحين من أصحاب الأديان الإلهية ابتداء من عصر آدم إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى)مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين(.

فلا جرم أن المراد ب)الأولين(الأمم الأولى كلها، وكان معظم تلك الأمم أهل عناد وكفر ولم يكن المؤمنون فيهم إلا قليلا كما تنبئ به آيات كثيرة من القرآن.

ووصف المؤمنون من بعض الأمم عند أقوامهم بالمستضعفين، وبالأرذلين، وبالأقلين.

ولا جرم أن المراد بالآخرين الأمة الأخيرة وهم المسلمون.

فالسابقون طائفتان طائفة من الأمم الماضين ومجموع عددها في ماضي القرون كثير مثل أصحاب موسى عليه السلام الذين رافقوه في التيه، ومثل أصحاب أنبياء بني إسرائيل، ومثل الحواريين، وطائفة قليلة من الأمة الإسلامية وهم الذين أسرعوا للدخول في الإسلام وصحبوا النبي صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى)والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار(، وإذا قد كانت هذه الآية نزلت قبل الهجرة فهي لا يتحقق مفادها إلا في المسلمين الذين بمكة.

و)من(تبعيضية كما هو بين، فاقتضى أن السابقين في الأزمنة الماضية وزمان الإسلام حاضره ومستقبله بعض من كل، والبعضية تقتضي القلة النسبية ولفظ)ثلة(مشعر بذلك ولفظ)قليل(صريح فيه.

وإنما قوبل لفظ)ثلة(بلفظ)قليل(للإشارة إلى أن الثلة أكثر منه. وعن الحسن أنه قال: سابقوا من مضى أكثر من سابقينا.
وروي عن أبي هريرة أنه لما نزلت)ثلة من الأولين وقليل من الآخرين(شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحزنوا وقالوا: إذن لا يكون من أمة محمد إلا قليل، فنزلت نصف النهار) ثلة من الأولين وثلة من الآخرين(فنسخت)وقليل من الآخرين(.

صفحة : 4266

وهذا الحديث مشكل ومجمل فإن هنا قسمين مشتبهين، والآية التي فيها)وثلة من الآخرين(ليست واردة في شأن السابقين فليس في الحديث دليل على أن عدد أهل مرتبة السابقين في الأمم الماضية مساو لعدد أهل تلك المرتبة في المسلمين، وأن قول أبي هريرة فنسخت)قليل من الآخرين(يريد نسخت هذه الكلمة. فمراده أنها أبطلت أن يكون التفوق مطردا في عدد الصالحين فبقي التفوق في العدد خاصا بالسابقين من الفريقين دون الصالحين الذين هم أصحاب اليمين. والمتقدمون يطلقون النسخ على ما يشمل البيان فإن مورد آية)ثلة من الأولين وثلة من الآخرين(في شأن صنف أصحاب اليمين. ومورد الآية التي فيها)وقليل من الآخرين(هو صنف السابقين فلا يتصور معنى النسخ بالمعنى الاصطلاحي مع تغاير مورد الناسخ والمنسوخ ولكنه أريد به البيان وهو بيان بالمعنى الأعم.
)على سرر موضونة[15] متكئين عليها متقابلين[16] يطوف عليهم ولدان مخلدون[17] بأكواب وأباريق وكأس من معين[18] لا يصدعون عنها ولا ينزفون[19] وفاكهة مما يتخيرون[20] ولحم طير مما يشتهون[21] وحور عين[22] كأمثال اللؤلؤ المكنون[23] جزاء بما كانوا يعملون[24] لا يسمعون فيها لغوا و لا تأثيما[25] إلا قيلا سلاما سلاما[26](الجار والمجرور خبر ثالث عن)أولئك المقربون(أو حال ثانية من اسم الإشارة. وهذا تبشير ببعض ما لهم من النعيم مما تشتاق إليه النفوس في هذه الحياة الدنيا لتشويقهم إلى هذا المصير فيسعوا لنواله بصالح الأعمال، وليس الاقتصار على المذكور هنا بمقتض حصر النعيم فيما ذكر فقد قال الله تعالى)وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين(.
والسرر جمع سرير، وهو كرسي طويل متسع يجلس عليه المتكئ والمضطجع له سوق أربع مرتفع على الأرض بنحو ذراع يتخذ من مختلف الأعواد ويتخذه الملوك من ذهب وفضة ومن عاج ومن

نفيس العود كالأبنوس ويتخذه العظماء المترفهون من الحديد الصرف ومن الحديد الملون أو المزين بالذهب. والسرير مجلس العظماء والملوك. وتقدم في قوله تعالى)على سرر متقابلين(في سورة الصافات.

والموضونة: المسبوك بعضها ببعض كما تسبك حلق الدروع وإنما توضن سطوحها وهي ما بين سوقها الأربع حيث تلقى عليها الطنافس أو الزرابي للجلوس والاضطجاع ليكون ذلك المفرش وثيرا فلا يؤلم المضطجع ولا الجالس. وفسر بعضهم)موضونة(بمرمولة، أي منسوجة بقضبان الذهب.

والاتكاء: اضطجاع من تباعد أعلى الجنب، والاعتماد على المرفق، فتقدم في سورة الرحمان.

والتقابل: من تمام النعيم لما فيه من الأنس بمشاهدة الأصحاب والحديث معهم.

وقوله)يطوف عليهم ولدان مخلدون(بيان لجملة)في جنات النعيم(وتقدم في قريب منه في سورة الصافات.

والطواف: المشي المكرر حول شيء وهو يقتضي الملازمة للشيء. ووصف الولدان بالمخلدين أي دائمين على الطواف عليهم ومناولتهم لا ينقطعون عن ذلك. وإذا قد ألفوا رؤيتهم فمن النعمة دوامهم معهم.وقد فسر)مخلدون(بأنهم مخلدون في صفة الولدان، أي بالشباب والغضاضة، أي ليسوا كولدان الدنيا يصيرون قريبا فتيانا فكهولا فشيوخا.

وفسره أبو عبيدة بأنهم مقرطون بالأقراط. والقرط يسمى خلدا وخلدا وجمعه خلدة كقردة وهي لغة حميرية استعملها العرب كله وكانوا يحسنون غلمانهم بالأقراط في الآذان.

والأكواب: جمع كوب، وهو إناء الخمر لا عروة له ولا خرطوم وفيه استدارة موضع الشرب منه فهو كالقدح.

والأباريق: جمع إبريق وهو إناء تحمل فيه الخمر للشاربين فتصب في الأكواب، والإبريق له خرطوم وعروة.

والكأس: إناء للخمر كالكوب إلا أنه مستطيل ضيق المشرب وتقدم في سورة الصافات.

والكأس جنس يصدق بالواحد والمتعدد فليس إفراده هنا للوحدة فإن المراد كؤوس كثيرة كما اقتضاه جمع أبواق وأباريق، فإذا كانت آنية حمل الخمر كثيرة كانت كؤوس الشاربين أكثر، وإنما أوثرت صيغة المفرد لأن في لفظ كؤوس ثقلا بوجود همزة مضمومة في وسطه مع ثقل صيغة الجمع.

والمعين: الجاري، والمراد به الخمر التي لكثرتها تجري في المجاري كما يجري الماء وليست قليلة عزيزة كما هي في الدنيا، قال تعالى)وأنهار من خمر لذة للشاربين(.
وليس المراد بالمعين الماء لأن الكأس ليست من نية الماء وإنما آنيتها الأقداح، وقد تقدم في سورة الصافات)يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون(وتلك صفات الخمر.
والتصديع: الإصابة بالصداع، وهو وجع الرأس من الخمار الناشئ عن السكر، أي لا تصيبهم الخمر بصداع.
ومعنى)عنها(مجاورين لها، أي لا يقع لهم صداع ناشئ عنها، أي فهي منزهة عن ذلك بخلاف خمور الدنيا فاستعملت)عن(في معنى السببية.
وعطف)ولا ينزفون(على)لا يصدعون عنها(فيقدر متعلق دل عليه متعلق)لا يصدعون(فقد قال في سورة الصافات)ولا هم عنها ينزفون(، أي لا يعتريهم نزف بشببها كما يحصل للشاربين في الدنيا.
والنزف: اختلاط العقل. وفعله مبني للمجهول يقال: نزف عقله مثل: عني فهو منزوف.
وقرأ الجمهور)ينزفون(بفتح الزاي من أنزف الذي همزته للتعدية. وقرأه حفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الزاي من أنزف المهموز القاصر إذا سكر وذهب عقله.
والفاكهة: الثمار والنقول كاللوز والفستق، وتقدم في سورة الرحمن.
وعطف)فاكهة(على)أكواب(، أي ويطوفون عليهم بفاكهة وذلك أدخل في الدعة وألذ من التناوب بأيديهم، على أنهم إن اشتهوا اقتطافها بالأيدي دنت لهم الأغصان فإن المرء قد يشتهي تناول الثمرة من أغصانها.
و)ما يتخيرون(: الجنس الذي يختارونه ويشتهونه، أي يطوفون عليهم بفاطهة من النواع التي يختارونها، ففعل)يتخيرون(يفيد قوة الاختيار.
ولحم الطير: هو أرفع اللحوم وأشهاها وأعزها.
وعطف)ولحم طير(على)فاكهة(كعطف)فاكهة(على)أكواب(.
والاشتهاء: مصدر اشتهى، وهو افتعال من الشهوة التي هي محبة نيل شيء مرغوب فيه من محسوسات ومعنويات، يقال: شهي كرضي، وشها كدعا. والكثر أن يقال: اشتهى، والافتعال فيه للمبالغة.
وتقديم ذكر الفاكهة على ذكر اللحم قد يكون لأن الفواكه أعز. وبهذا يظهر وجه المخالفة بين الفاكهة ولحم طير فجعل التخير للأول، والاشتهاء للثاني ولأن الشتهاء علق بالطعام منه بالفواكه،

فلذة كسر الشاهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن طعمه، وكثرة التخير للفاكهة هي لذة تلوين الأصناف.
و)حور عين(عطف على)ولدان مخلدون(، أي ويطوف عليهم حور عين.
والحور العين: النساء ذوات الحور، وتقدم في سورة الرحمن. وذوات العين وهو سعة العين وتقدم في سورة الصافات.
وقرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر)وحور عين(بالكسر فيهما على أن)حور(عطف على)أكواب(عطف معنى من باب قوله:
وزججن الحواجب والعيونا بتقدير: وكحلن العيون، أو يعطف على)جنات(، أي وفي حور عين، أي هم في حور عين أو محاطون بهن ومحدقون بهن.
والمراد: أزواج السابقين في الجنة وهن المقصورات في الخيام.
والأمثال: الأشباه. ودخول كاف التشبيه على)أمثال(للتأكيد مثل قوله تعالى)ليس كمثله شيء(.
والمعنى: هن أمثال اللؤلؤ المكنون.
واللؤلؤ: الدر، وتقدم تبيينه عند قوله تعالى)يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا(في سورة الحج.
والمكنون: المخزون المخبأ لنفاسته، وتقدم في سورة الصافات.
وانتصب)جزاء(على المفعول لأجله لفعل مقدر دل عليه قوله)المقربون(، أي أعطيناهم ذلك جزاء، ويجوز أن يكون)جزاء(مصدرا جاء بدلا عن فعله، والتقدير: جازيناهم جزاء.
والجملة على التقديرين اعتراض تفيد إظهار كرامتهم بحيث جعلت أصناف النعيم الذي حظوا به جزاء على عمل قدموه وذلك إتمام لكونهم مقربين.
ثم أكمل وصف التعليم بقوله)لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما(، وهي نعمة روحية فإن سلامة النفس من سماع ما لا يحب سماعه ومن سماع ما يكره سماعه من الأذى نعمة براحة البال وشغله بسماع المحبوب.
واللغو: الكلام الذي لا يعتد به كالهذيان، والكلام الذي لا محصل له.
والتأثيم: اللوم والإنكار، وهو مصدر أثم، إذا نسب غيره إلى الإثم.
وضمير)فيها(عائد إلى)جنات النعيم(.

وأتبع ذكر هذه النعمة بذكر نعمة أخرى من الأنعام بالمسموع الذي يفيد الكرامة لأن الإكرام لذة روحية يكسب النفس عزة وإدلالا

)إلا قيلا سلاما سلاما(. وهو استثناء من)لغوا ولا تأثيما(بطريقة تأكيد الشيء بما يشبه ضده المشتهر في البديع باسم تأكيد المدح لما يشبه الذم، وله موقع عظيم في البلاغة كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن

فلول من قراع الكتائب فالاستثناء متصل إدعاء وهو المعبر عنه بالاستثناء المنقطع بحسب حاصل المعنى، وعليه فأن انتصاب) قيلا(على الاستثناء لا على البدلية من)لغوا(.

و)سلاما(الأول مقول)قيلا(، أي هذا اللفظ الذي تقديره: سلمنا سلاما، فهو جملة محكية بالقول.

و)سلاما(الثاني تكرير ل)سلاما(الأول تكريرا ليس للتأكيد بل لإفادة التعاقب، أي سلاما إثر سلام، كقوله تعالى)كلا إذا دكت الأرض دكا دكا(وقولهم: قرأت النحو بابا بابا، أو مشارا به إلى كثرة المسلمين فهو مؤذن مع الكرامة بأنهم معظمون مبجلون، والفرق بين الوجهين أن الأول يفيد التكرير بتكرير الأزمنة، والثاني يفيد التكرار بتكرير المسلمين.

وهذا القيل يتلقونه من الملائكة الموكلين بالجنة، قال تعالى) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم(ويتلقاه بعضكم من بعض كما قال تعالى)وتحيتهم فيها سلام(.

وإنما جيء بلفظ)سلاما(منصوبا دون الرفع مع كون الرفع أدل على المبالغة كما ذكروه في قوله)قالوا سلاما قال سلام(في سورة هود وسورة الذاريات لأنه أريد جعله بدل من)قيلا(.

)وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين[27] في سدر مخضود[28] وطلح منضود[29] وظل ممدود[30] وماء مسكوب[31] وفاكهة كثيرة[32] لا مقطوعة ولا ممنوعة[33] وفرش مرفوعة[34](عود إلى نشر ما وقع لفه في قوله)وكنتم أزواجا ثلاثة(كما تقدم عند قوله) فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة(.

وعبر عنهم هنا ب)أصحاب اليمين(وهنالك ب)أصحاب الميمنة(للتفنن.

فجملة)وأصحاب اليمين(عطف على جملة)أولئك المقربون(عطف القصة على القصة.

وجملة)ما أصحاب اليمين(خبر عن)أصحاب اليمين(بإبهام يفيد التنويه بهم كما تقدم في قوله)فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة(. وأتبع هذا الإبهام بما يبين بعضه بقوله)في سدر مخضود(الخ.

والسدر: شجر من شجر العضاه ذو ورق عريض مدور وهو صنفان: عبري بضم العين وسكون الموحدة وياء نسب نسبة إلى العبر بكسر

العين وسكون الموحدة على غير قياس وهو عبر النهي، أي ضفته، له شوك ضعيف في غصونه لا يضير.
والصنف الثاني الضال بضاد ساقطة ولام مخففة وهو ذو شوك. وأجود السدر الذي ينبت على الماء وهو يشبه شجر العناب، وورقه كورق العناب وورقه يجعل غسولا ينظف به، يخرج مع الماء رغوة كالصابون.
وثمر هذا الصنف هو النبق بفتح النون وكسر الموحدة وقاف يشبه ثمر العناب إلا أنه أصفر مز بالزاي يفوح الفم ويفوح الثياب ويتفكه به، وأما الضال وهو السدر البري الذي لا ينبت على الماء فلا يصلح ورقه للغسول وثمره عفص لا يسوغ في الحلق ولا ينتفع به ويخبط الرعاة ورقه للراعية، وأجود ثمر السدر ثمر سدر هجر أشد نبق حلاوة وأطيبه رائحة.
ولما كان السدر من شجر البادية وكان محبوبا للعرب ولم يكونوا مستطيعين أن يجعلوا منه في جناتهم وحوائطهم لأنه لا يعيش إلا في البادية فلا ينبت في جناتهم خص بالذكر من بين شجر الجنة إغرابا به وبمحاسنه التي كان محروما منها من لا يسكن البوادي وبوفرة ظله وتهدل أغصانه ونكهة ثمره.
ووصف بالمخضود، أي المزال شوكه فقد كملت محاسنه بانتفاء ما فيه من أذى.
والطلح شجر من شجر العضاه واحدة طلحة، وهو من شجر الحجاز ينبت في بطون الأودية، شديد الطول، غليظ الساق. من أصلب شجر العضاه عودا، وأغصانه طوال عظام شديدة الارتفاع في الجو ولها شوك كثير قليلة الورق شديدة الخضرة كثيرة الظل من التفاف أغصانها، وصمغها جيد وشوكها أقل الشوك أذى، ولها نور طيب الرائحة، وتسمى هذه الشجرة أم غيلان، وتسمى في صفاقس غيلان وفي أحواز تونس تسمى مسك صنادق.

صفحة : 4269

والمنضود: المتراص المتراكب بالأغصان ليست له سوق بارزة، أو المنضد بالحمل، أي النوار فتكثر رائحته.
وعلى ظاهر هذا اللفظ يكون القول في البشارة لأصحاب اليمين بالطلح على نحو ما قرر في قوله)في سدر مخضود(ويعتاض عن نعمة نكهة ثمر السدر بنعمة عرف نور الطلح.
وفسر الطلح بشجر الموز روي ذلك عن ابن عباس وابن كثير، ونسب إلى علي بن أبي طالب.

والامتنان به على هذا التفسير امتنان بثمره لأنه ثمر طيب لذيذ ولشجره من حسن المنظر، ولم يكن شائعا في بلاد العرب لاحتياجه إلى كثرة الماء.

والظل الممدود: الذي لا يتقلص كظل الدنيا، وهو ظل حاصل من التفاف أشجار الجنة وكثرة أوراقها.

وسكب الماء: صبه،ة وأطلق هنا على جريه بقوة يشبه السكب وهو ماء أنهار الجنة.

والفاكهة: تقدمت آنفا.

ووصفت ب)لا مقطوعة ولا ممنوعة(وصفا بانتفاء ضد المطلوب إذ المطلوب أنها دائمة مبذولة لهم. والنفي هنا أوقع من الإثبات لأنه بمنزلة وصف وتوكيده، وهم لا يصفون بالنفي إلا مع التكرير بالعطف كقوله تعالى)زيتونة لا شرقية ولا غربية(. وفي حديث أم زرع قالت المرأة الرابعة: زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة.

ثم تارة يقصد به إثبات حالة وسطى بين حالي الوصفين المنفيين كما في قول أم زرع: لا حر ولا قر، وفي آية)لا شرقية ولا غربية(وهذا هو الغالب وتارة يقصد به نفي الحالين لإثبات ضديهما كما في قوله)لا مقطوعة ولا ممنوعة(وقوله الآتي لا بارد ولا كريم، وقول المرأة الرابعة في حديث أم زرع ولا مخافة ولا سآمة .

وجمع بين الوصفين لأن فاكهة الدنيا لا تخلو من أحد ضدي هذين الوصفين فإن أصحابها يمنعونها فإن لم يمنعوها فإن لها أبانا تنقطع فيه.

والفرش: جمع فراش بكسر الفاء وهو ما يفرش وتقدم في سورة الرحمن. و)مرفوعة(: وصف ل)فرش(، أي مرفوعة على الأسرة أي ليست مفروشة في الأرض.

ويجوز أن يراد بالفرش الأسرة من تسمية الشيء باسم ما يحل فيه.

)إنا أنشأناهن إنشاءا[35] فجعلناهن إبكارا[36] عربا أترابا[37] لأصحاب اليمين[38](لما جرى ذكر الفرش وهي مما يعد للاتكاء والاضطجاع وقت الراحة في المنزل يخطر بالبال بادئ ذي بدأ مصاحبة الحور العين معهم في تلك الفرش فيتشوف إلى وصفهن، فكانت جملة)إنا أنشأناهن إنشاء(بيانا لأن الخاطر بمنزلة السؤال عن صفات الرفيقات.

فضمير المؤنث من)أنشأناهن(عائد إلى غير مذكور في الكلام ولكنه ملحوظ في الإفهام كقول أبي تمام في طالع قصيدة:

هن عوادي يوسف وصواحبه ومنه قوله تعالى)حتى توارت بالحجاب(. وهذا أحسن وجه في تفسير الآية، فيكون لفظ)

فرش(في الآية مستعملا في معنييه ويكون)مرفوعا(مستعملا في حقيقته ومجازه، أي في الرفع الحسي والرفع المعنوي.
والإنشاء: الخلق والإيجاد فيشمل إعادة ما كان موجودا وعدم، فقد سمى الله لإعادة إنشاء في قوله تعالى)ثم الله ينشيء النشأة الآخرة(فيدخل نساء المؤمنين اللاء كن في الدنيا أزاجا لمن صاروا إلى الجنة ويشمل إيجاد نساء أنفا يخلقن في الجنة لنعيم أهلها.
وقوله)فجعلناهن إبكارا(شامل للصنفين.
والعرب: جمع عروب بفتح العين، ويقال: عربه بفتح فكسر فيجمع على عربات كذلك، وهو اسم خاص بالمرأة. وقد اختلفت أقوال أهل اللغة في تفسيره. وأحسن ما يجمعهما أن العرب: المرأة المتحببة إلى الرجل، أو التي لها كيفية المتحببة، وإن لم تقصد التحبب، بأن تكثر الضحك بمرأى الرجل أو المزاح أو اللهو و الخضوع في القول أو اللثغ في الكلام بدون علة أو التغزل في الرجل أو المساهلة في مجالسته والتدلل وإظهار معاكسة أميال الرجل لعبا لا جدا وإظهار أذاه كذلك كالمغاضبةمن غير غضب بل للتورك على الرجل، قال نبيه بن الحجاج:

تلك عريسي غضبى تريد زيالي
ألـبـين أردت أم لـــدلال

صفحة : 4270

الشاهد في قوله: أم لدلال، قال تعالى)فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا(، وقال)ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن(. وإنما فسروها بالمتحببة لأنهم لما رأوا هاته الأعمال تجلب محبة الرجل للمرأة ظنوا أن المرأة تفعلها لاكتساب محبة الرجل. ولذلك فسر بعضهم: العروب بأنها المغتلمة، وإنما تلك حالة من أحوال بعض العروب. وعن عكرمة العروب: الملقة.
والعروب: اسم لهذه المعاني مجتمعة أو مفترقة أجروه مجرى الأسماء الدالة على الأوصاف دون المشتقة من الأفعال فلذلك لم يذكروا له فعلا ولا مصدرا وهو في الأصل مأخوذ من الإعراب والتعريب وهو التكلم بالكلام الفحش.
والعرابة: بكسر العين: اسم من التعريب وفعله: عربت وأعربت، فهو مما يسند إلى ضمير المرأة غالبا. كأنهم اعتبروه إفصاحا عما شأنه أن لا يفصح عنه ثم تنوسي هذا الأخذ فعومل العروب معاملة الأسماء غير المشتقة، ويقال: عرب. مثل عروب. وجمع العروب عرب وجمع عربة عربات.

ويقال للعروب بلغة أهل مكة العرب والشكلة. ويقال لها بلغة أهل المدينة: الغنجة. وبلغة العراق: الشكلة، أي ذات الشكل بفتح الكاف وهو الدلال والتعرب.

والأتراب: جمع ترب بكسر المثناة الفوقية وسكون الراء وهي المرأة التي ساوى سنها سن من تضاف هي إليه من النساء، وقد قيل: إن الترب خاص بالمرأة، وأما المساوي في السن من الرجال فيقال له: قرن ولده.

فالمعنى: أنهن جعلن في سن متساوية لا تفاوت بينهن، أي هن في سن الشباب المستوي فتكون محاسنهن غير متفاواة في جميع جهات الحسن، وعلى هذا فنساء الجنة هن الموصوفات بأنهن) أتراب(بعضهن لبعض.

وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف)عربا(بسكون الراء سكون تخفيف وهو ملتزم في لغة تميم في هذا اللفظ.

واللام في)لأصحاب اليمين(يتنازعها)أنشأناهن(و)جعلناهن(لإفادة توكيد الاعتناء بأصحاب اليمين المستفاد من المقام من قوله) أصحاب اليمين ما أصحاب اليمين(الآية.

وأعلم أن ما أعطي لأصحاب اليمين ليس مخالفا لأنواع ما أعطي للسابقين ولا أن ما أعطي للسابقين مخالف لما أعطي أصحاب اليمين فإن الظل والماء المسكوب وكون أزواجهم عربا أترابا لم يذكر مثله للسابقين وهو ثابت لهم لا محالة إذ لا يقصرون عن أصحاب اليمين، وكذلك ما ذكر للسابقين من الولدان وأكوابهم وأباريقهم ولحم الطير وكون أزواجهم حورا عينا وأنهم لا يسمعون ألا قيلا سلاما سلاما لم يذكر مثله لأصحاب اليمين مع أن لأهل الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. وقد ذكر في آيات كثيرة أنهم أعطوا شيئا لم يذكر إعطاؤها لهم في هذه الآية مثل قوله)وتحيتهم فيها سلام(، فليس المقصود توزيع النعيم ولا قصره ولكن المقصود تعداده والتشوق إليه مع أنه قد علم أن السابقين أعلى مقاما من أصحاب اليمين بمقتضى السياق. وقد أشار إلى إلى تفاوت المقامين أنه ذكر في نعيم السابقين أنه جزاء بما كانوا يعملون للوجه الذي بيناه فيها ولم يذكر مثله في نعيم أصحاب اليمين وجماع الغرض من ذلك التنويه بكلا الفريقين.

)ثلة من الأولين[39] وثلة من الآخرين[40](أي أصحاب اليمين: ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، والكلام فيه كالكلام في قوله)ثلة من الأولين وقليل من الآخرين(فاذكره. وفي تفسير القرطبي عن أبي بكر الصديق: أن كلتا الثلتين من الأمة المحمدية ثلة من صدرها وثلة من بقيتها ولم ينبه على سند هذا النقل.

وإنما أخر هذا عن ذكر ما لهم من النعيم في أشعار بأن عزة هذا الصنف وقتله دون عزة صنف السابقين، فالسابقون أعز، وهذه الدلالة مستتبعات التراكيب المستفادة من ترتيب نظم الكلام.
)وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال[41] في سموم وحميم[42] وظل من يحموم[43] لا بارد ولا كريم[44](إفضاء إلى النصف الثالث من الأزواج الثلاثة، وهم أصحاب المشاقة. والقول في جملة) ما أصحاب الشمال(وموقع جملة)في سموم(بعدها كالقول في جملة)وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود(.
والسموم: الريح الشديد الحرارة الذي لا بلل معه وكأنه مأخوذ من السم، وهو ما يهلك إذا لاقى البدن.
والحميم: الماء الشديد الحرارة.

صفحة : 4271

واليحموم: الدخان الأسود على وزن يفعول مشتق من الحمم بوزن صرد اسم للفحم. والحممة: الفحمة، فجاءت زنة يفعول فيها اسما ملحوظا فيه هذا الاشتقاق وليس ينقاس.
وحرف)من(بيانة إذ الظل هنا أريد به نفس اليحموم، أي الدخان الأسود.
ووصف ظل بأنه)من يحموم(للإشعار بأنه ظل دخان لهب جهنم، والدخان الكثيف له ظل لأنه بكثافته يحجب ضوء الشمس، وإنما ذكر من الدخان ظله لمقابلته بالظل الممدود المعد لأصحاب اليمين في قوله)وظل ممدود(، أي لا ظل لأصحاب الشمال سوى ظل اليحموم، وهذا من قبيل التهكم.
ولتحقيق معنى التهكم وصف هذا الظل بما يفيد نفي البرد عنه ونفي الكرم، فبرد الظل ما يحصل في مكانه من دفع حرارة الشمس، وكرم الظل ما فيه من الصفات الحسنة في الظلال مثل سلامته من هبوب السموم عليه، وسلامة الموضع الذي يظله من الحشرات والأوساخ، وسلامة أرضه من الحجارة ونحو ذلك إذ الكريم من كل نوع هو الجامع لأكثر محاسن نوعه، كما تقدم في قوله تعالى)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل، فوصف ظل اليحموم بوصف خاص وهو انتفاء البرودة عنه واتبع بوصف عام وهو انتفاء كرامة الظلال عنه، ففي الصفة بنفي محاسن الظلال تذكير للسامعين بما حرم منه أصحاب الشمال عسى أن يحذروا أسباب الوقوع في الحرمان، ولإفادة هذا التذكير عدل عن وصف الظل بالحرارة والمضرة إلى وصفه بنفي البرد ونفي الكرم.

)إنهم كانوا قبل ذلك مترفين[45] وكانوا يصرون على الحنث العظيم[46] وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون[47] أو آباؤنا الأولون[48](تعليل لما يلقاه أصحاب الشمال من العذاب، فيتعين أن ما تضمنه هذا التعليل كان من أحوال كفرهم وأنه مما له أثر في إلحاق العذاب بهم بقرينة عطف)وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون(الخ عليه.

فأما إصرارهم على الحنث وإنكارهم البعث فلا يخفى تسببه في العذاب لأن الله توعدهم عليه فلم يقلعوا عنه، وإنما يبقى النظر في قوله)إنهم كانوا قبل ذلك مترفين(فإن الترف في العيش ليس جريمة في ذاته وكم من مؤمن عاش في ترف، وليس كان كافرا مترفا في عيشه، فلا يكون الترف سببا مستقلا في تسبب الجزاء الذي عوملوا به.

فتأويل هذا التعليل: إما بأن يكون الإتراف سببا باعتبار ضميمة ما ذكر بعده إليه بأن كان إصرارهم على الحنث وتكذيبهم بالبعث جريمتين عظيمتين لأنهما محفوفتان بكفر نعمة الترف التي خولهم الله إياها على نحو قوله تعالى)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(فيكون الإتراف جزء سبب وليس سببا مستقلا، وفي هذا من معنى قوله تعالى)وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا(.

وإما أن يراد بأن الترف في العيش علق قلوبهم بالدنيا واطمأنوا بها فكان ذلك مملیا على خواطرهم إنكار الحياة الآخرة، فيكون المراد الترف الذي هذا الإنكار عارض له وشديد الملازمة له، فوازن وازن قوله تعالى)والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم(.

وفسر)مترفين(بمعنى متكبرين عن قبول الحق. والمترف: اسم مفعول من أترفه، أي جعله ذا ترفة بضم التاء وسكون الراء، أي نعمة واسعة، وبناؤه للمجهول لعدم الإحاطة بالفاعل الحقيقي للإتراف كشأن الأفعال التي التزم فيها الإسناد المجازي العقلي الذي ليس لمثله حقيقة عقلية، ولا يقدر بنحو: أترفه الله، لأن العرب لم يكونوا يقدرون ذلك فهذا من باب: قال قائل، وسأل سائل.

وإنما جعل أهل الشمال مترفين لأنهم لا يخلو واحد منهم عن ترف ولو في بعض أحواله وأزمانه من نعم الأكل والشرب والنساء والخمر، وكل ذلك جدير بالشكر لواهبه، وهم قد لابسوا ذلك بالإشراك في جميع أحوالهم، أو لأنهم لما قصروا أنظارهم على التفكير في العيشة العاجلة صرفهم ذلك عن النظر والاستدلال على صحة ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه جعل الترف في الدنيا من أسباب جزائهم الجزاء المذكور.

والإشارة في قوله)قبل ذلك(إلى)سموم وحميم وظل من يحموم(بتأويلها بالمذكور، أي كانوا قبل اليوم وهو ما كانوا عليه في الحياة الدنيا.
والحنث: الذنب والمعصية وما يتخرج منه، ومنه قولهم: حنث في يمينه، أي أهمل ما حلف عليه فجر لنفسه حرجا.

صفحة : 4272

ويجوز أن يكون الحنث حنث اليمين فإنهم كانوا يقسمون على أن لا بعث، قال تعالى)وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت(، فذلك من الحنث العظيم، وقال تعالى)وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها(وقد جاءتهم آية إعجاز القرآن فلم يؤمنوا به.
والعظيم: القوي في نوعه، أي الذنب الشديد والحنث العظيم هو الإشراك بالله. وفي حديث ابن مسعود أنه قال قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: إن تدعوا لله ندا وهو خلقك وقال تعالى) إن الشرك لظلم عظيم(.
ومعنى)يصرون(: يثبتون عليه لا يقبلون زحزحة عنه، أي لا يضعون للدعوة إلى النظر في بطلان عقيدة الشرك.
وصيغة المضارع في)يصرون(و)يقولون(تفيد تكرر الإصرار والقول منه. وذكر فعل)كانوا(لإفادة أن ذلك ديدنهم.
والمراد من قوله)وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا(الخ إنهم كانوا يعتقدون استحالة البعث بعد تلك الحالة.
ويناظرون في ذلك بأن القول ذلك يستلزم أنهم يعتقدون استحالة البعث.
والاستفهام إنكاري كناية عن الإحالة والاستبعاد، وتقدم نظير)أإذا متنا وكنا ترابا(الخ في سورة الصافات.
وقرأ الجمهور)أإذا متنا(بإثبات الاستفهام الأول والثاني، أي إذا متنا أإنا. وقرأه نافع والكسائي وأبو جعفر بالاستفهام في)أإذا متنا(والإخبار في)إنا لمبعوثون(.
وقرأ الجمهور)أو آباؤنا(بفتح الواو على أنها واو عطف عطفت استفهاما على استفهام، وقدمت همزة في الاستفهام على حرف عطف لصدارة الاستفهام، وأعيد الاستفهام توكيدا للاستبعاد. والمراد بالقول في قوله)وكانوا يقولون(الخ أنهم يعتقدون استجابة مدلول ذلك الاستفهام.

)قل إن الأولين والآخرين[49] لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم[50](لما جرى تعليل ما يلاقيه أصحاب الشمال من العذاب بما كانوا عليه من كفران النعمة، وكان المقصود من ذلك وعيد المشركين وكان إنكارهم البعث أدخل في استمرارهم على الكفر أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخاطبهم بتحقيق وقوع البعث وشموله لهم ولآبائهم ولجميع الناس، أي أنبئهم بأن الأولين والآخرين، أي هم آباؤهم يبعثون في اليوم المعين عند الله، فقد انتهى الخبر عن حالهم يوم ترج الأرض وما يتبعه.

وافتتح الكلام بالأمر بالقول للاهتمام به كما افتتح به نظائره في آيات كثيرة ليكون ذلك تبليغا عن الله تعالى.

فيكون قوله)قل إن الأولين(الخ استئنافا ابتدائيا لمناسبة حكاية قولهم)أإذا متنا وكنا ترابا(الآية.

والمراد ب)الأولين(: من يصدق عليه وصف)أول(بالنسبة لمن بعدهم، والمراد ب)الآخرين(: من يصدق عليه وصف آخر بالنسبة لمن قبله.

ومعنى)مجموعون(: أنهم يبعثون ويحشرون جميعا، وليس البعث على أفواج في أزمان مختلفة كما كان موت الناس بل يبعث الأولون والآخرون في يوم واحد. وهذا إبطال لما اقتضاه عطف)أو آباؤنا الأولون(في كلامهم من استنتاج استبعاد البعث لأنهم عدوا سبق من سبق موتهم أدل على تعذر بعثهم بعد أن مضت عليهم القرون ولم يبعث فريق منهم إلى يوم هذا القيل، فالمعنى: أنكم.

وتأكيد الخبر ب)أن(واللام لرد إنكارهم مضمونة.

والميقات: هنا لمعنى الوقت والأجل، وأصله اسم آلة للوقت وتوسعوا فيه فأطلقوه على الوقت نفسه بحيث تعتبر الميم والألف غير دالتين على معنى، وتوسعوا فيه توسعا آخر فأطلقوه على مكان لعمل ما. ولعل ذلك متفرع على اعتبار ما في التوقيت من التحديد والضبط، ومنه مواقيت الحج، وهي أماكن يحرم الحاج بالحج عندها لا يتجاوزها حلالا. ومنه قول ابن عباس لم يوقت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر حدا معينا .

ويصح حمله في هذه الآية على معنى الكلام.

وقد ضمن)مجموعون(معنى مسوقون، فتعلق به مجروره بحرف) إلى(للانتهاء، وإلا فإن ظاهر)مجموعون(أن يعدى بحرف)في(.

وأفاد تعليق مجروره به بواسطة)إلى(أنه مسير إليه حتى ينتهي إليه فدل على مكان. وهذا من الإيجاز.

وإضافة)ميقات(إلى)يوم معلوم(لأن التجمع واقع في ذلك اليوم. وإذا كان التجمع الواقع في اليوم واقعا في ذلك الميقات كانت بين الميقات واليوم ملابسة صححت إضافة الميقات إليه لأدنى ملابسة وهذا أدق من جعل الإضافة بيانية. وهذا تعريض بالوعيد بما يلقونه في ذلك اليوم الذي جحدوه.

)ثم إنكم أيها الضالون المكذبون[51] لآكلون من شجر من زقوم[52] فمالئون منها البطون[53] فشاربون عليه من الحميم[54] فشاربون شرب الهيم[55](هذا من جملة ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم.

و)ثم(للترتيب الرتبي فإن التصريح في تفصيل جزائهم في ذلك اليوم ما هو أعظم وقعا في النفوس من التعريض الإجمالي بالوعيد الذي استفيد من قوله)إن الأولين والآخرين لمجموعون(.

وهذا التراخي الرتبي مثل الذي في قوله تعالى)قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم(بمنزلة الاعتراض بين جملة)إن الأولين والآخرين(وجملة)نحن خلقناكم فلولا تصدقون(.

والخطاب موجه للمقول إليهم ما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم فليس في هذا الخطاب التفات كما قد يتوهم، في ندائهم بهذين الوصفين إيماء إلى أنهما سبب ما لحقهم من الجزاء السيء، ووصفهم بأنهم: ضالون مكذبون، ناظر إلى قولهم) أإذا كنا ترابا(الخ.

وقد وصف)الضالون(على وصف)المكذبون(مراعاة لترتيب الحصول لأنهم ضلوا عن الحق فكذبوا بالبعث ليحذروا من الضلال ويتدبروا في دلائل البعث وذلك مقتضى خطابهم بهذا الإنذار بالعذاب المتوقع.

وشجر الزقوم: من شجر العذاب، تقدم في سورة الدخان.

والحميم: الماء الشديد الغليان، وقد تقدم في قوله تعالى)لهم شراب من حميم(في سورة الأنعام وتقدم قريبا في هذه السورة.

والمقصود من قوله)فمالئون منها البطون(تفظيع حالهم في جزائهم على ما كانوا عليه من ترف في الدنيا بملء بطونهم بالطعام والشراب ملئا أنساهم إقبالهم عليه وشربهم من التفكر في مصيرهم.

وقد زيد تفظيعا في التشبيه في قوله)فشاربون شرب الهيم(، كما سيأتي. وإعادة فعل)شاربون(للتأكيد وتكرير استحضار تلك الصورة الفظيعة. ومعنى)شاربون عليه(يجوز أن يكون)على (في للاستعلاء، أي شاربون فوقه الحميم، ويجوز مع ذلك استفادة معنى)مع(من حرف)على(تعجيبا لفظاعة حالهم، أي يشربون هذا الماء

المحرق مع ما طعموه من شجر الزقوم الموصوفة في آية أخرى بأنها)تغلي في البطون غلي الحميم(فيفيد أنهم يتجرعونه ولا يستطيعون امتناعا.
و)من(الداخلة على)شجر(ابتدائية، أي آكلون أكلا يؤخذ من شجر الزقوم، و)من(الثانية الداخل على)زقوم(بيانية لأن الشجر هو المسمى بالزقوم.
وتأنيث ضمير الشجر في قوله)فمالئون منها البطون(لأن ضمائر الجمع لغير العاقل تأتي مؤنثة غالبا.
وأما ضمير)عليه(فإنما جاء بصيغة المذكر لأنه عائد على الأكل المستفاد من قوله)لآكلون(، أي على ذلك الأكل بتأويل المصدر باسم المفعول مثل الخلق ومعنى المخلوق.
والهيم: جمع أهيم، وهو البعير الذي أصابه الهيام بضم الهاء، وهو داء يصيب الإبل يورثها حمى في الأمعاء فلا تزال تشرب ولا تروى، أي شاربون من الحميم شربا لا ينقطع فهو مستمرة آلامه.
وقرأ نافع وعاصم وحمزة وأبو جعفر)شرب(بضم الشين اسم مصدر شرب، وقرأ الباقون بفتح الشين وهو المصدر لشرب. ورويت عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند صححه الحاكم، وخبر الواحد لا يزيد المتواتر قوة فكلتا القراءتين متواتر.
والفاء في قوله)فشاربون عليه من الحميم(عطف على)لآكلون(لإفادة تعقيب)أكل الزقوم(ب)شرب الهيم(دون فترة ولا استراحة.
وإعادة)فشاربون(توكيد لفظي لنظيره، وفائدة هذا التوكيد زيادة تقرير ما في هذا الشرب من الأعجوبة وهي أنه مع كراهته يزدادون منه كما ترى الأهيم، فيزيدهم تفظيعا لأمعائهم لإفادة التعجيب من حالهم تعجيبا ثانيا بعد الأول، فإن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي الحرارة أمر عجيب، وشربهم له كما تشرب الإبل الهيم في الإكثار أمر عجيب أيضا، فكانتا صفتين مختلفتين.
)هذا نزلهم يوم الدين[56](

صفحة : 4274

اعتراض بين جمل الخطاب موجه إلى السامعين غيرهم فليس في ضمير الغيبة التفات.
والإشارة بقوله)هذا(إلى ما ذكر من أكل الزقوم وشرب الهيم.
والنزل بضم النون وضم الزاي وسكونها ما يقدم للضيف من طعام. وهو هنا تشبيه تهكمي كالاستعارة التهكمية في قول عمرو بن كلثوم:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القرى أن تشتمونا
قريناكم فعجلنا قـراكـم قبيل الصبح مرداة طحونا وقول أبي الشعر الضبي، واسمه موسى بن سحيم:
وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنـا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا و)يوم الدين(: يوم الجزاء، أي هذا جزاؤهم على أعمالهم نظير قوله آنفا)جزاء بما كانوا يعملون(. وجعل يوم الدين وقتا لنزلهم مؤذن بأن ذلك الذي عبر عنه بالنزل جزاء على أعمالهم. وهذا تجريد للتشبيه التهكمي وهو قرينة عل التهكم كقول عمرو بن كلثوم مرداة طحونا .
)نحن خلقناكم فلولا تصدقون[57](أعقب إبطال نفيهم بالبعث بالاستدلال على إمكانه وتقريب كيفية الإعادة التي أحالوها فاستدل على إمكان إعادة الخلق بأن الله خلقهم أول مرة فلا يبعد أن يعيد خلقهم، قال تعالى)كما بدأنا أول خلق نعيده(لأنهم لم يكونوا ينكرون ذلك، وليس المقصود إثبات أن الله خلقهم.
وهذا الكلام يجوز أن يكون من تمام ما أمر به بأن يقوله لهم، ويجوز أن يكون اسئنافا مستقلا. والخطاب على كلا الوجهين موجه للسامعين فليس في ضمير)خلقناكم(التفات.
وتقديم المسند عليه على المسند الفعلي لإفادة تقوي الحك ردا على إحالتهم أن يكون الله قادرا على إعادة خلقهم بعد فناء معظم أجسادهم حين يكونون ترابا وعظاما، فهذا تذكير لهم بما ذهلوا عنه بأن الله خلقهم لما لم يجروا على موجب ذلك العلم بإحالتهم بإعادة الخلق نزلوا منزلة من يشك في أن الله خلقهم، فالمقصود بتقوي الحكم الإفضاء إلى ما سيفرع عنه من قوله)أفرأيتم ما تمنون(إلى قوله)وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم(. ونظير هذه الآية في نسج نظمها والترتيب عليها قوله تعالى)نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شأنا بدلنا أمثالهم تبديلا(في سورة الإنسان.
وموقعها استدلال وعلة لمضمون جملة)إن الأولين والآخرين لمجموعون(ولذلك لم تعطف.
وفرع على ذلك التذكير تحضيضهم على التصديق، أي بالخلق الثاني وهو البعث فإن ذلك هو الذي لم يصدقوا به.
)أفرأيتم ما تمنون[58] أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون[59](تفريع على)نحن خلقناكم(، أي خلقناكم الخلق الذي لم تروه ولكنكم توقنون بأنا خلقناكم فتدبروا في خلق النسل لتعلموا أن إعادة الخلق تشبه ابتداء الخلق. وذكرت كائنات خمسة مختلفة الأحوال متحدة المآل إذ في كلها تكوين لموجود مما كان عدما، وفي جميعها حصول وجود متدرج إلى أن تتقوم بها الحياة وابتدئ بإيجاد

النسل من ماء ميت، ولعله مادة الحياة بنسلكم في الأرحام من النطف تكوينا مسبوقا بالعدم.
والاستفهام للتقرير بتعيين خالق الجنين من النطفة إذ لا يسعهم إلا أن يقروا بأن الله خالق النسل من النطفة وذلك يستلزم قدرته على ما هو من نوع إعادة الخلق.
وإنما ابتدئ الاستدلال بتقديم جملة)أأنتم تخلقونه(زيادة في إبطال شبهتهم غذ قاسوا الأحوال المغيبة على المشاهدة في قلوبهم لا نثعاد بعد أن كنا ترابا وعظاما، وكان حقهم أن يقيسوا على تخلق الجنين من مبدأ ماء النطفة فيقولوا: لا تصير العظام البالية ذواتا حية، وإلا فإنهم لم يدعوا قط أنهم خالقون، فكان قوله)أأنتم تخلقونه(تمهيد للاستدلال على أن الله هو خالق الأجنة بقدرته، وأن تلك القدرة لا تقتصر على الخلق الثاني عند البعث.
وفعل الرؤية في)أرأيتم(من باب ظن لأنه ليس رؤية عين.
وقال الرضي: هو في مثله منقول من رأيت، بمعنى أبصرت أو عرفت، كأنه قيل: أأبصرت حاله العجيبة أو أعرفتها، أخبرني عنها، فلا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيء اه، أي لأن أصل فعل الرؤية من أفعال الجوارح لا من أفعال العقل.
و)ما تمنون(مفعول أول لفعل)أفرأيتم(. وفي تعدية فعل) أرأيتم(إليه إجمال إذ مورد فعل العلم على حال من أحوال ما تمنون، ففعل)رأيتم(غير وارد على نفس)ما تمنون(.

صفحة : 4275

فكانت جملة)أأنتم تخلقونه(بيانا لجملة)أفرأيتم ما تمنون(، وأريد حرف الاستفهام ليطابق البيان مبينه.
وبهذا الاستفهام صار فعل)أرأيتم(معلقا عن العمل في مفعول ثان لوجود موجب التعليق وهو الاستفهام. قال الرضي: إذا صدر المفعول الثاني بكلمة الاستفهام فالأولى أن لا يعلق فعل القلب عن المفعول الأول نحو: علمت زيدا أيومن هو. اه.
وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في)أأنتم تخلقونه(لإفادة التقوي لأنهم لما نزلوا منزلة من يزعم ذلك كما علمت صيغة جملة نفيه بصيغة دالة على زعمهم تمكن التصرف في تكوين النسل.
وقد حصل من نفي الخلق عنهم وإثباته لله تعالى معنى قصر الخلق على الله تعالى.
و)أم(متصلة معادة الهمزة، وما بعدها معطوف لأن الغالب أن لا يذكر له خبر اكتفاء بدلالة خبر المعطوف عليه على الخبر المحذوف،

وههنا أعيد الخبر في قوله)أم نحن الخالقون(زيادة في تقرير إسناد الخلق إلى الله في المعنى وللإيفاء بالفاصلة وامتدادا نفس الوقف، ويجوز أن نجعل)أم(منقطعة بمعنى)بل(لأن الاستفهام ليس بحقيقي فليس من غرضه طلب تعيين الفاعل ويكون الكلام قد تم عند قوله)تخلقونه(.

والمعنى: أتظنون أنفسكم خالقين النسمة ما تمنون.

)نحن قدرنا بينكم الموت(استدلال بإماتة الأحياء على أنها مقدورة لله تعالى ضرورة أنهم موقنون بها ومشاهدونها ووادون دفعها أو تأخيرها، فإن الذي فقدر على خلق الموت بعد الحياة قادر على الإحياء بعد الموت إذ القدرة على حصول شيء تقتضي القدرة على ضده فلا جرم أن القادر على خلق حي مما ليس فيه حياة وعلى إماتته بعد الحياة قدير على التصرف في حالتي إحيائه وإماتته، وما الإحياء بعد الإماتة إلا حالة من تينك الحقيقتين، فوضح دليل إمكان البعث، وهذا مثل قوله تعالى)وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون(في سورة المؤمنين.

فهذا وجه التعبير ب)قدرنا بينكم الموت(دون: نحن نميتكم، أي أن الموت مجعول على تقدير معلوم مراد، مع ما في مادة)قدرنا(من التذكير بالعلم والقدرة والإرادة لتتوجه أنظار العقول إلى ما في طي ذلك من دقائق وهي كثيرة، وخاصة في تقدير موت الإنسان الذي هو سبيل إلى الحياة الكاملة إن أخذ لها أسبابها.

وفي كلمة)بينكم(معنى آخر، وهو أن الموت يأتي على آحادهم تداولا وتناوبا، فلا يفلت واحد منهم ولا يتعين لحلوله صنف ولا عمر فآذن ظرف)بين(بأن الموت كالشيء الموضوع للتوزيع لا يدري أحدهم متى يصيبه قسطه منه، فالناس كمن دعوا إلى قسمة مال أو ثمر أو نعم لا يدري أحد متى ينادى عليه ليأخذ قسمه، أو متى يطير إليه قط]ه ولكنه يوقن بأنه نائله لا محالة.

وبهذا كان في قوله)بينكم الموت(استعارة مكنية إذ شبه الموت بمقسوم ورمز إلى المشبه به بكلمة)بينكم(الشائع استعمالها في القسمة، قال تعالى)أن الماء قسمة بينهم(. وفي هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للناس أما في الدنيا لئلا تضيق بهم الأرض والأرزاق وأما في الآخرة فللجزاء الوفاق.

وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي لإفادة تقوي الحكم وتحقيقه، والتحقيق راجع إلى ما اشتمل عليه التركيب من فعل) قدرنا(وظرف)بينكم(في دلالتهما على ما في خلق الموت من الحكمة التي أشرنا إليها.

وقرأ الجمهور)قدرنا(بتشديد الدال. وقرأه ابن كثير بالتخفيف وهما بمعنى واحد، فالتشديد مصدره التقدير، والتخفيف مصدره القدر.

)وما نحن بمسبوقين[60] على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون[61](

صفحة : 4276

هذا نتيجة لما سبق من الاستدلال على أن الله قادر على الإحياء بعد الموت فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بفاء التفريع ويترك عطفه فعدل عن الأمرين، وعطف بالواو عطف الجمل فيكون جملة مستقلة مقصودا لذاته لأن مضمونه يفيد النتيجة، ويفيد تعليما اعتقاديا، فيحصل الإعلام به تصريحا وتعريضا، فالصريح منه التذكير بتمام قدرة الله تعالى وأنه لا يغلبه غالب ولا تضيق قدرته عن شيء، وأنه يبدلهم خلقا آخر في البعث مماثلا لخلقهم في الدنيا، ويفيد تعريضا بالتهديد باستئصالهم وتعويضهم بأمة أخرى كقوله تعالى)إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز(ولو جيء بالفاء لضاقت دلالة الكلام على المعنيين الآخرين.

والسبق: مجاز من الغلبة والتعجيز لأن السبق يستلزم أن السابق غالب للمسبوق، فالمعنى: وما نحن بمغلوبين، قال الفقعسي مرة بن عداء:

كأنك لم تسبق من الدهـر مـرة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب ويتعلق)على أن نبدل أمثالكم(بمسبوقين لأنه يقال: غلبه على كذا، إذا حال بينه وبين نواله، وأصله: غلبه على كذا، أي تمكن من كذا دونه قال تعالى) والله غالب على أمره(.

ويكون الوقف على قوله)أمثالكم(.

ويجوز أن يكون)على أن نبدل أمثالكم(في موضع الحال من ضمير)قدرنا(، أي قدرنا الموت على أن نحييكم فيما بعد إدماجا لإبطال قولهم)أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون(، فتكون) على(بمعنى)مع(وتكون حالا مقدرة، وهذا كقول الواعظ على شرط النقض رفع البنيان، وعلى شرط الخروج دخلت الأرواح للأبدان(ويكون متعلق)مسبوقين(محذوفا دالا عليه المقام، أي ما نحن بمغلوبين فيما قدرناه من خلقكم وإماتتكم، ويجعل الوقف على)بمسبوقين(.

ويفيد قوله)نحن قدرنا بينكم الموت(الخ وراء ذلك عبرة بحال الموت بعد الحياة فإن في تقلب ذينك الحالين عبرة وتدبرا في عظيم قدرة الله وتصرفه فيكون من هذه الجهة وزانه وزان قوله الآتي)لو نشاء جعلناه حطاما(وقوله)لو نشاء جعلناه أجاجا(وقوله) نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين(.

ومعنى)أن نبدل أمثالكم(: نبدل بكم أمثالكم، أي نجعل أمثالكم بدلا.
وفعل)بدل(ينصب مفعولا واحدا ويتعدى إلى ما هو في معنى المفعول الثاني بحرف الباء، وهو الغالب أو ب)من(البدلية فإن مفعول)بدل(صالح لأن يكون مبدلا ومبدلا منه، وقد تقدم في سورة البقرة قوله تعالى)أتستبدلون الذي هو أدنى(، وفي سورة النساء عند قوله)ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب(، فالتقدير هنا: على أن نبدل منكم أمثالكم، فحذف متعلق)نبدل(وأبقي المفعول لأن المجرور أولى بالحذف.
والأمثال: جمع مثل بكسر الميم وسكون المثلثة وهو النظير، أي نخلق ذوات مماثلة لذواتكم التي كانت في الدنيا ونودع فيها أرواحكم. وهذا يؤذن بأن الإعادة عن عدم لا عن تفريق. وقد تردد في تعيين ذلك علماء السنة والكلام.
ويجوز أن يفيد معنى التهديد بالاستئصال، أي لو شأنا استئصلناكم لما أعجزتمونا فيكون إدماجا للتهديد في أثناء الاستدلال ويكون من باب قوله تعالى)إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد(.
و)ننشئكم(عطف على)نبدل(، أي ما نحن بمغلوبين على إنشائكم.
وهذا العطف يحتمل أن يكون عطف مغاير بالذات فيكون إنشاؤهم شيئا آخر غير تبديل أمثالهم، أي نحن قادرون على المرين جميعا، فتبديل أمثالهم خلق أجساد أخرى تودع فيها الأرواح، وأما إنشاؤهم فهو نفخ الأرواح في الأجساد الميتة الكاملة وفي الأجساد البالية بعد إعادتها بجميع متفرقها أو بإنشاء أمثالها من ذواتها مثل: عجب الذنب، وهذا إبطال لاستبعادهم البعث بعد استقرار صور شبهتهم الباعثة على إنكار البعث.
ويحتمل أن يكون عطف مغاير بالوصف بأن يراد من قوله) وننشئكم في ما لا تعلمون(الإشارة إلى كيفية التبديل إشارة على وجه الإبهام.
وعطف بالواو دون الفاء لأنه بمفرده تصوير لقدرة الله تعالى بحكمته بعدما أفاده قوله)أن نبدل أمثالكم(من إثبات أن الله قادر على البعث.
و)ما(من قوله)فيما لا تعلمون(صادقة على الكيفية، أو الهيئة التي يتكيف بها الإنشاء، أي في كيفية لا تعلمونها إذ لم تحيطوا علما بخفايا الخلقة. وهذا الإجمال جامع لجميع الصور التي يفرضها الإمكان في بعث الأجساد لإيداع الأرواح.

والظرفية المستفادة من)في(ظرفية مجازية معناها قوة الملابسة الشبيهة بإحاطة الظرف بالمظروف كقوله)فعدلك في أي صورة شاء ركبك(.

ومعنى)لا تعلمون(: أنهم لا يعلمون تفاصيل تلك الأحوال.

)ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون[62](أعقب دليل إمكان البعث المستند للتنبيه على صلاحية القدرة الإلهية لذلك ولسد منافذ الشبهة بدليل من قياس التمثيل، وهو تشبيه النشأة الثانية بالنشأة الأولى المعلومة عندهم بالضرورة، فنبهوا ليقيسوا عليها النشأة الثانية في أنها إنشاء من أثر قدرة الله وعلمه، وفي أنهم لا يحيطون علما بدقائق حصولها.

فالعلم المنفي في قوله)فيما لا تعلمون(وهو العلم التفصيلي، والعلم المثبت في قوله)ولقد علمتم النشأة الأولى(وهو العلم الإجمالي، والإجمالي كاف في الدلالة على التفصيلي إذ لا أثر للتفصيل في الاعتقاد.

وفي المقابلة بين قوله)فيما لا تعلمون(بقوله)ولقد علمتم(محسن الطباق.

ولما كان علمهم بالنشأة الأولى كافيا لهم في إبطال إحالتهم النشأة الثانية رتب عليه من التوبيخ ما لم يرتب مثله على قوله) وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون(فقال)فلولا تذكرون(، أي هلا تذكرتم بذلك فأمسكتم عن الجحد، وهذا تجهيل لكم في تركهم قياس الأشباه على أشباهها، ومثله قوله آنفا)نحن خلقناكم فلولا تصدقون(.

وجيء بالمضارع في قوله)تذكرون(للتنبيه على أن باب التذكر مفتوح فإن فاتهم التذكر فيما مضى فليتداركوه الآن.

وقرأ الجمهور)النشأة(بسكون الشين تليها همزة مفتوحة مصدر نشأ على وزن المرة وهي مرة الجنس. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحدة بفتح الشين بعدها ألف تليها همزة، وهو مصدر على وزن الفعالة على غير قياس، وقد تقدم في سورة العنكبوت.

)أفرأيتم ما تحرثون[63] أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون[64] (انتقال إلى دليل آخر على إمكان البعث وصلاحية قدرة الله تعالى له بضرب آخر من ضروب الإنشاء بعد العدم.

فالفاء لتفريع ما بعدها على جملة)نحن خلقناكم فلولا تصدقون(كما فرع عليه قوله)أفرأيتم ما تمنون(، ليكون الغرض من هذه الجمل متحدا وهو الاستدلال على إمكان البعث، فقصد تكرير الاستدلال وتعداده بإعادة جملة)أفرأيتم(وإن كان مفعول فعل الرؤية

مختلفا وسيجيء نظيره في قوله بهده)أفرأيتم الماء الذي تشربون(وقوله)أفرأيتم النار التي تورون(.
وإن شئت جعلت الفاء لتفريع مجرد استدلال لا لتفريع معنى معطوفها على معنى المعطوف عليه، على أنه لما آل الاستدلال السابق إلى عموم صلاحية القدرة الإلهية جاز أيضا أن تكون هذه الجملة مرادا بها تمثيل بنوع عجيب من أنواع تعلقات القدرة بالإيجاد دون إرادة الاستدلال على خصوص البعث فيصح جعل الفاء تفريعا على جملة)أفرأيتم ما تمنون(من حيث أنها اقتضت سعة القدرة الإلهية.
ومناسبة الانتقال من الاستدلال بخلق النسل إلى الاستدلال بنبات الزرع هي التشابه البين بين تكوين الإنسان وتكوين النبات، قال تعالى)والله أنبتكم من الأرض نباتا(.
والقول في)أفرأيتم ما تحرثون(نظير قوله)أفرأيتم ما تمنون(.
و)ما تحرثون(موصول وصلة والعائد محذوف.
والحرث: شق الأرض ليزرع فيها أو يغرس.
وظاهر قوله)ما تحرثون(أنه الأرض إلا أن هذا لا يلائم ضمير) تزرعونه(فتعين تأويل)ما تحرثون(بأنه يقدر: ما تحرثون له، أي لأجله على طريقة الحذف والإيصال، والذي يحرثون لأجله هو النبات، وقد دل على هذا ضمير النصب في)أأنتم تزرعونه(لأنه استفهام في معنى النفي والذي ينفي هو ما ينبت من الحب لا بذره.
فإن فعل)زرع(يطلق بمعنى: أنبت، قال الراغب: الزرع: الإنبات، لقوله تعالى)أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون(فنفي عنهم الزرع ونسبه إلى نفسه اه واقتصر عليه، ويطلق فعل)زرع(بمعنى: بذر الحب في الأرض لقول صاحب لسان العرب: زرع الحب بذره، أي ومنه سمي الحب الذي يبذر في الأرض زريعة لكن لا ينبغي حمل الآية على هذا الإطلاق. فالمعنى:أفرأيتم الذي تحرثون الأرض لأجله، وهو النبات ما أنتم تنبتونه بل نحن ننبته.

صفحة : 4278

وجملة)أأنتم تزرعونه(الخ بيان لجملة)أفرأيتم ما تحرثن(كما تقدم في)أأنتم تزرعونه(والاستفهام في)أأنتم تزرعونه(إنكاري كالذي في قوله)أأنتم تخلقونه(.
والقول في موقع)أم(من قوله)أم نحن الزارعون(كالقول في موقع نظيرتها من قوله)أم نحن الخالقون(أي أن)أم(منقطعة للإضراب.

وكذلك القول في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله)أأنتم تزرعونه(مثل ما في قوله)أأنتم تخلقونه(.
وكذلك القول في نفي الزرع عنهم وإثباته لله تعالى يفيد معنى قصر الزرع ، أي الإنبات على الله تعالى، أي دونهم، وهو قصر مبالغة لعدم الاعتداء بزرع الناس.
6ويؤخذ من الآية إيماء لتمثيل خلق الأجسام خلقا ثانيا مع الانتساب بين الأجسام البالية والأجسام المجددة منها بنبات الزرع من الحية التي هي منتسبة إلى سنبلة زرع أخذت هي منها فتأتي هي بسنبلة مثلها.
)لو نشاء لجعلناه حطما فظلتم تفكهون[65] إنا لمغرمون[66] بل نحن محرومون[67](جملة)لو نشاء لجعلناه حطاما(، موقعها كموقع جملة)نحن قدرنا بينكم الموت(في أنها استدلال بإفنائه ما أوجده على انفراده بالتصرف إيجادا وإعداما، تكملة لدليل إمكان البعث.
واللام في قوله)لجعلناه(مفيدة للتأكيد. ويكثر اقتران جواب) لو(بهذه اللام إذا كان ماضيا مثبتا كما يكثر تجره عنها كما سيجيء في الآية الموالية لهذه.
والحطام: الشيء الذي حطمه حاطم، أي مسره ودقه فهو بمعنى المحطوم كما تدل عليه زنة فعال مثل الفتات، والجذاذ والدقاق، وكذلك المقترن منه بهاء التأنيث كالقصاصة والقلامة والكناسة والقمامة.
والمعنى: لو نشاء لجعلنا ما ينبت بعد خروجه من الأرض حطاما بأن نسلط عليه ما يحطمه من برد أو ريح أو حشرات قبل أن تنتفعوا به، فالمراد جعله حطاما قبل الانتفاع به. وأما أن يؤولوا إلى الكون حطاما فذلك معلوم فلا يكون مشروطا بحرف)لو(الامتناعية.
وقوله)فضلتم تفكهون إنا لمغرمون بل نحن محرومون(تفريع على جملة)لجعناه حطاما(أي يتفرع على جعله حطاما أن تصير تقولون: إنا لمغرمون بل نحن محرومون، ففعل)ظلتم(هنا بمعنى: صرتم، وعلى هذا حمله جميع المفسرين.
وأعرض وقع فعل)تفكهون(، فعن أبن عباس ومجاهد وقتادة وأبن زيد: تفكهون تعجبون، وعن عكرمة: تتلاومون، وعن الحسن وقتادة: تندمون، وقال أبن كيسان: تحزنون، وقال الكسائي: هو تلهف على ما فات وهو أي فعل تفكهون من الأضداد تقول العرب: تفكهت، أي تنعمت، وتفكهت، أي حزنت اه.
ذلك أن فعل)تفكهون(من مادة فكه والمشهور أن هذه المادة تدل على المسرة والفرح ولكن السياق سياق ضد المسرة، وبيانه بقوله)إنا لمغرمون بل نحن محرومون(يؤيد ذلك، فالفكاهة: المسرة والانبساط، وادعى الكسائي أنها من أسماء الأضداد واعتمده في

القاموس إذ قال: وتفكه، أكل الفاكهة وتجنب عن الفاكهة ضده. قال ابن عطية:وهذا كله أي ما روي عن ابن عباس وغيره في تفسير فظلتم تفكهون لا يخص اللفظة أي هو تفسير بحاصل المعنى دون معاني الألفاظ والذي يخص اللفظة هو تطرحون الفاكهة كذا ولعل صوابه الفكاهة عن أنفسكم وهي المسرة والجذل، ورجل فكه، إذا كان منبسط النفس غير مكترث بشيء اه. يعني أن صيغة التفعل فيه مطاوعة فعل الذي تضيفه للإزالة مثل قشر العود وقرد البعير وأثبت صاحب القاموس هذا القول ونسبه إلى ابن عطية.

وجعلوا جملة)إنا لمغرمون(تندم وتحسرا، أي تعلمون أن حطم زرعكم حرمان من الله جزاء لكفركم، ومعنى)مغرمون(من الغرام وهو الهلاك كما في قوله تعالى)إن عذابها كان غراما(. وهذا شبيه بما في سورة القلم من قوله تعالى)فلما رأوها قالوا إنا لضالون(إلى قوله)إنا كنا طاغين(.

فتحصل أن معنى الآية يجوز أن يكون جاريا على ظاهر مادة فعل)تفكهون(ويكون ذلك تهكما بهم حملا لهم على معتاد أخلاقهم من الهزل بآيات الله، وقرينة التهكم ما بعده من قوله عنهم)إنا لمغرمون بل نحن محرومون(.

ويجوز أن يكون محمل الآية على جعل)تفكهون(بمعنى تندمون ويحزنون، ولذلك كان لفعل)تفكهون(هنا وقع يعوضه غيره.

وجملة)إنا لمغرمون(مقول قول محذوف هو حال من ضمير) تفكهون(.

صفحة : 4279

وقرأ الجمهور)إنا لمغرمون(بهمزة واحدة وهي همزة)إن(، وقرأه أبو بكر عن عاصم)أأنا(بهمزتين همزة استفهام وهمزة)أن(.

)أفرأيتم الماء الذي تشربون[68] أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون[69](هذا على طريقة قوله)فرأيتم ما تحرثون(الآية، تفريعا واستفهاما وفعل رؤية.

ومناسبة الانتقال أن الحرث إنما ينبت زرعه وشجره بالماء فانتقل من الاستدلال لتكوين النبات إلى الاستدلال بتكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر. ووصف)الماء(ب)الذي تشبون(إدماج للمنة في الاستدلال، أي الماء العذب الذي يشربونه، فإن شرب الماء من أعظم النعم على الإنسان ليقابل بقوله بعده)لو نشاء جعناه أجاجا فلولا تشكرون(.

والمراد ماء المطر ولذلك قال)أأنتم أنزلتموه من المزن(، والمراد: أنزلتموه على بلادكم وحروثكم. وماء المطر هو معظم شراب العرب المخاطبين حينئذ ولذلك يقال للعرب: بنو ماء السماء.
والمزن: جمع اسم مزنة وهي السحابة.
ووجه الاستدلال إنشاء ما به الحياة بعد أن كان معدوما بأن كونه الله تعالى في السحاب بحكمة تكوين الماء. فكما استدل بإيجاد الحي من أجزاء ميتة في خلق الإنسان والنبات استدل بإيجاد ما به الحياة عن عدم تقريبا لإعادة الأجسام بحكمة دقيقة خفية، أي يجوز أن يمطر الله مطرا على ذوات الأجساد الإنسانية يكون سببا في تخلقها أجسادا كاملة كما كانت أصولها، كما تتكون الشجرة من نواة أصلها، وقد تم الاستدلال على البعث عند قوله)أم نحن المنزلون(.
وقوله)أأنتم أنزلتموه من المزن(جعل استدلالا منوطا بإنزال الماء من المزن على طريقة الكتابة بإنزاله، عن تكوينه صالحا للشرب، لأن إنزاله هو الذي يحصل منه الانتفاع به ولذلك وصف بقوله)الذي تشربون(. وأعقب بقوله)لو نشاء جعلناه أجاجا(فحصل بين الجملتين اتباك كأنه قيل: أأنتم خلقتموه عذبا صالحا للشرب وأنزلتموه من المزن لو نشاء جعلناه أجاجا ولأمسكناه في سحابته أو أنزلناه على البحار أو الخلاء فلم تنتفعوا به.
)لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون[70](موقعها كموقع جملة) لو نشاء لجعلناه حطاما(والمعنى: لو نشاء جعلناه غير نافع لكم. فهذا استدلال بأنه قادر على نقض ما في الماء من الصلاحية للنفع بعد وجود صورة المائية فيه. فوزان هذا وزان قوله)نحن قدرنا بينكم الموت(وقوله)لو نشاء لجعلناه حطاما(.
وتخلص من هذا التتميم إلى الامتنان بقوله)فلولا تشكرون(تحضيضا لهم على الشكر ونبذ الكفر والشرك.
وحذفت اللام التي شأنها أن تدخل على جواب)لو(الماضي المثبت لأنها لام زائدة لا تفيد إلا التوكيد فكان حذفها إيجازا للكلام.
وذكر الشيخ محمد بن سعيد الحجري التونسي في حاشيته على شرح الأشموني للألفية المسماة زواهر الكواكب عن كتاب البرهان في إعجاز القرآن هذا الاسم سمي به كتابان أحدهما لكمال الدين محمد المعروف بابن الزملكاني والثاني لابن أبي الأصبع أنه قال: فإن قيل لم أكد الفعل باللام في الزرع ولم يؤكد في الماء، قلت: لأن الزرع ونباته وجفافه بعد النضارة حتى يعود حطاما مما يحتمل أنه من فعل الزارع أو أنه من سقي الماء، وجفافه من عدم السقي، فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك على الحقيقة وأنه قادر على جعله حطاما في حال نموه لو شاء، وإنزال الماء من السماء مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه غير الله تعالى اه.

وحذف هذه اللام قليل إلا إذا وقعت)لو(وشرطها صلة لموصول فيكثر حذف هذه اللام للطول وهو الذي جزم به ابن مالك في التسهيل وتبعه الرضي كقوله تعالى)وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم(وإن قال المرادي والدماميني في شرحيهما إن هذا لا يعرف لغير المصنف، قال الرضي: وكذلك إذا طال الشرط بذيوله كقوله تعالى)ولو أن ما في الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعدة سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله(، أي وأما في غير ذلك فحذف اللام قليل ولكنه تكرر في القرآن في عدة مواضع منها هذه الآية. وللفخر كلام في ضابط حذف هذه اللام، ليس له تمام.

)أفرأيتم النار التي تورون[71[أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون[72](هو مثل سابقه في نظم الكلام.

صفحة : 4280

ومناسبة الانتقال من الاستدلال بخلق الماء إلى الاستدلال بخلق النار هي ما تقدم في مناسبة الانتقال إلى خلق الماء من الاستدلال بخلق الزرع والشجر، فإن النار تخرج من الشجر بالاقتداح وتذكى بالشجر في الاشتعال والالتهاب.

وهذا الاستدلال على تقريب كيفية الإحياء للبعث من حيث إن الاقتداح إخراج والزند الذي به إيقاد النار يخرج من أعواد الاقتداح وهي ميتة.

وفي قوله)التي تورون(إدماج للامتنان في الاستدلال بما تقدم في قوله)أفرأيتم الماء الذي تشربون(.

وهو أيضا وصف للمقصود من الدليل وهو النار التي تقتدح من الزند لا النار الملتهبة. وضمير شجرتها عائد إلى النار.

وشجرة النار: هي جنس الشجر الذي فيه حراق، أي ما يقتدح منه النار وهو شجر الزند وأشجار النار كثيرة منها المرخ بفتح فسكون والعفار بفتح العين والعشر بضم ففتح والكلخ بفتح فسكون ومن المثال في كل شجر نار، واستنجد المرخ والعفار أي أكثر من النار.

وتورون: مضارع أورى الزند إذا حكه بمثله يستخرج منه النار كانوا يضعون عودا من شجر النار ويحكونه من أعلاه بعود مثله فتخرج النار من العود الأسفل ويسمى العود الأعلى زندا بفتح الزاي وسكون النون وزنادا بكشر الزاي ويسمى الأسفل زندة بهاء تأنيث في آخره، شبهوا العود الأعلى بالفحل وشبهوا العود الأسفل

بالطروقة وقد تابع ذو الرمة هذا المعنى في وصفه الاقتداح للنار فقال على شبه الألغاز:

وسقط كعين الديك عاورت صاحبي
أباها وهيأنا لموقـعـهـا وكـرا
مشهرة لا تمكن الفـحـل أمـهـا إذا

نحن لم نمسك بأطرافها قسـرا وحذف العائد على الموصول لأن ضمير النصب يكثر حذفه من الصلة، وتقديره: التي تورونها.

وتعدية)تورون(إلى ضمير)النار(تعدية على تقدير مضاف، أي تورون شجرتها كما دل عليه قوله)أأنتم أنشأتم شجرتها(، قد شاع هذا الحذف في الكلام فقالوا: أورى النار كما قالوا أورى الزناد.

وجملة)أأنتم أنشأتم شجرتها(الخ بيان لجملة)أفرأيتم النار(الخ كما تقدم في قوله)أأنتم تخلقونه(.

)نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين[73](الجملة بدل اشتمال من جملة)أم نحن المنشئون(، أي أن إنشاء النار كان بفوائد وحكما منها أن تكون تذكرة للناس يذكرون بها نار جهنم ويوازنون بين إحراقها وإحراق جهنم التي يعلمون أنها أشد من نارهم.

والمتاع: ما يتمتع، أي ينتفع به زمانا، وتقدم في قوله)قل متاع الدنيا قليل(في سورة النساء.

والمقوي: الداخل في القواء)بفتح القاف والمد(وهي القفر، ويطلق المقوي على الجائع لأن جوفه أقوت، أي خلقت من الطعام إذ كلا الفعلين مشتق من القوى وهو الخلاء. وفراغ البطن: قواء وقوى. فإيثار هذا الوصف في هذه الآية ليجمع المعنيين فإن النار متاع للمسافرين يستضيئون بها في مناخهم ويصطلون بها في البرد ويراها السائر ليلا في القفر فيهتدي إلى مكان النزل فيأوي إليهم ومتاع للجائعين يطبخون بها طعامهم في الحضر والسفر، وهذا إدماج في الامتنان في خلال الاستدلال. واختير هذان الوصفان لأن احتياج أصحابهما إلى النار أشد من احتياج غيرهما.

)فسبح باسم ربك العظيم[74](رتب على ما مضى من الكلام المشتمل على دلائل عظمة القدرة الهية وعلى أمثال لتقريب البعث الذي أنكروه خبرا، وعلى جلائل النعمة المدمجة في أثناء ذلك أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن ينزه خاصا معقبا لما تفيضه عليه تلك الأوصاف الجليلة الماضية من تذكر حديد يكون التنزيه عقبة ضربا من التذكر من جلال ذاته والتشكر لآلائه فإن للعبادات مواقع تكون هي فيها أكمل منها في دونها، فيكون لها من الفضل ما يجزل ثوبه فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يخلوا عن تسبيح ربه والتفكر في عظمة شأنه ولكن لاختلاف التسبيح والتفكر

من تجدد ملاحظة النفس ما يجعل لكل حال من التفكر مزايا تكسبه خصائص وتزيده ثوبا.
فالجملة عطف على جملة)قل أن الأولين والآخرين لمجموعون(إلى قوله)ومتاعا للمقوين(، وهي تذييل.
والتسبيح: التنزيه، وقد تقدم عند قوله تعالى)ونحن نسبح بحمدك(في سورة البقرة.

صفحة : 4281

واسم الرب: هو ما يدل على ذاته وجماع صفاته وهو اسم الجلالة، أي بأن يقول: سبحان الله، فالتسبيح لفظ يتعلق بالألفاظ.
ولما كان الكلام موضوعا للدلالة على ما في النفس كان التسبيح الاسم مقتضيا تنزيه مسماه وكان أيضا مقتضيا أن يكون التسبيح باللفظ مع الاعتقاد لا مجرد الاعتقاد لأن التسبيح لما علق بلفظ اسم تعيين أنه تسبيح لفظي، أي قل كلاما فيه معنى التنزيه، وعلقه باسم ربك، فكل كلام يدل على تنزيه الله مشمول لهذا الأمر ولكن محاكاة لفظ القرآن أولى وأجمع بأن يقول: سبح الله. ويؤيد هذا ما قالته عائشة رضي الله عنها إنه ما أنزل قوله تعالى)فسبح بحمد ربك وأستغفره(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده: سبحانك الله ربنا وبحمدك اللهم أغفر لي يتأول القرآن أي يتأوله على إرادة ألفاظه.
والباء الداخلة على)اسم(زائدة لتوكيد اللصوق، أي اتصال الفعل لمفعوله وذلك لوقوع الأمر بالتسبيح عقب ذكر عدة أمور تقتضيه حسبما دلت عيه فاء الترتيب فكان حقيقا بالتقوية والحث عليه، وهذا بخلاف قوله)سبح اسم ربك الأعلى(لوقوعه في صدر جملته كقوله)يا أيها الذي آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا(.
وهذا الأمر شامل للمسلمين بقرينه أن القرآن متلو لهم وأن ما تفرع الأمر عليه لا يخص علمه بالنبي صلى الله عليه وسلم فلما أمر بالتسبيح لأجله فكذلك من علمه من المسلمين.
والمعنى: إذا علمتم ما أنزلنا من الدلائل وتذكرهم ما في ذلك من النعم فنزهوا الله وعظموه بقصارى ما تستطيعون.
و)والعظيم(صالح لأن يجعل وصفا ل)ربك(، وهو عظيم بمعنى ثبوت جميع الكمال له وهذا مجاز شائع ملحق بالحقيقة؛ وصالح لأن يكون وصفا ل)اسم(والاسم عظيم عظمة مجازية ليمنه ولعظمة المسمى به.

)فلا أقسم بمواقع النجوم[75] وإنه لقسم لو تعلمون عظيم[76] إنه لقرآن كريم[77] في كتاب مكنون[78] لا يمسه إلا المطهرون[79] تنزيل من رب العالمين[80](تفريغ على جملة)قل إن الأولين والآخرين لمجموعون(يعرب عن خطاب من الله تعالى موجه إلى المكذبين بالبعث القائلين)أإذا متنا وكنا من ترابا وعظاما إنا لمبعوثون(، انتقل به إلى التنويه بالقرآن لأنهم لما كذبوا بالبعث وكان إثبات البعث من أهم ما جاء به القرآن وكان مما أغراهم بتكذيب القرآن اشتماله على إثبات البعث الذي عدوه محالا، زيادة على تكذيبهم به في غير ذلك مما جاء به من إبطال شركهم وأكاذيبهم، فلما قامت الحجة على خطئهم في تكذيبهم، فقد تبين صدق ما أنبأهم به القرآن فثبت صدقه فلذلك تهيأ المقام للتنويه بشأنه.

والفاء لتفريغ القسم على ما سبق من أدلة وقوع البعث فإن قوله)قل إن الأولين والآخرين لمجموعون(، إخبار بيوم البعث وإنذار لهم به وهم قد أنكروه، ولأجل استحالته في نظرهم القاصر كذبوا القرآن وكذبوا من جاء به، ففرع على تحقيق وقوع البعث والإنذار به تحقيق ان القرآن منزه عن النقائض وأنه تنزيل من الله وأن الذي جاء به مبلغ عن الله.

فتفريع القسم تفريع معنوي باعتبار المقسم عليه، وهو أيضا تفريع ذكري باعتبار إنشاء القسم إن قالوا لكم: أقسم بمواقع النجوم.

وقد جاء تفريع القسم على ما قبله بالفاء تفريعا في مجرد الذكر في قول زهير:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم عقب أبيات النسيب من معلقته، وليس بين النسيب وما تفرع عنه من القسم مناسبة وإنما أراد أن ما بعد الفاء هو المقصود من القصيد، وإنما قدم له النسيب تنشيطا للسامع وبذلك يظهر البون في النظم بين الآية وبين بيت زهير.

و)لا أقسم(بمعنى: أقسم، و)لا(مزيدة للتوكيد، وأصلها نافية تدل على أن القائل لا يقدم على القسم بما أقسم به خشية سوء عاقبة الكذب في القسم.

وبمعنى أنه غير محتاج إلى القسم لأن الأمر واضح الثبوت، كما كثر هذا الاستعمال فصار مرادا تأكيد الخبر فساوى القسم بدلي قوله عقبه)وأنه قسم لو تعلمون عظيم(، وهذا الوجه الثاني هو الأنسب بما وقع من مثله في القرآن.

وعلى الوجهين فهو إدماج للتنويه بشأن ما لو كان مقسما لقسم به. وعلى الوجه الثاني يكون قوله)وإنه لقسم(بمعنى: وإن المذكور لشيء عظيم يقسم به المقسمون، فإطلاق قسم عليه من إطلاق المصدر وإرادة المفعول كالخلق بمعنى المخلوق.

وعن سعيد بن جبير وبعض المفسرين: أنهم جعلوا)لا(حرفا مستقلا عن فعل)أقسم(واقعا جوابا لكلام مقدر يدل عليه بعده من قوله) إنه لقرآن كريم(ردا على أقوالهم في القرآن أنه شعر، أو سحر، أو أساطير الأولين، أو قول كاهن، وجعلوا قوله)أقسم(استئنافا. وعليه بمعنى الكلام مع فاء التفريع على ما سطع من أدلة إمكان البعث ما يبطل قولكم في القرآن فهو ليس كما تزعمون بل هو قرآن كريم الخ.

و)مواقع النجوم(جمع موقع يجوز أن يكون مكان الوقوع، أي محال وقوعها من ثوابت وسيارة. والوقوع يطلق على السقوط، أي الهوى، فمواقع النجوم مواضع غروبها فيكون في معنى قوله تعالى)والنجم إذا هوى(والقسم بذلك مما شمله قوله تعالى)فلا أقسم برب المشارق والمغارب(. وجعل)مواقع النجوم(بهذا المعنى مقسما به لأن تلك المساقط في حال سقوط النجوم عندها تذكر بالنظام البديع المجعول لسير الكواكب كل ليلة لا يختل ولا يتخلف، وتذكر بعظمة الكواكب وبتداولها خلفة بعد أخرى، وذلك أمر عظيم يحق القسم به الراجع إلى القسم بمبدعه.

ويطلق الوقوع على الحلول في المكان، يقال: وقعت الإبل، إذا بركت، ووقعت الغنم في مرابضها، ومنه جاء اسم الواقعة للحادثة كما تقدم، فالمواقع محال وقوعها وخطوط سيرها فيكون قريبا من قوله)والسماء ذات البروج(.

والمواقع هي: أفلاك النجوم المضبوطة السير في أفق السماء، وكذلك بروجها ومنازلها.

وذكر)مواقع النجوم(على كلا المعنيين تنويه بها وتعظيم لأمرها لدلالة أحوالها على دقائق حكمة الله تعالى في نظام سيرها وبدائع قدرته على تسخيرها.

ويجوز أن يكون)مواقع(جمل موقع المصدر الميمي للوقوع.

ومن المفسرين من تأول النجوم أنها جمع نجم وهو القسط الشيء من مال وغيره كما يقال: نجوم الديات والغرامات وجعلوا النجوم، أي الطوائف من الآيات التي تنزل من القرآن وهو عن ابن عباس وعكرمة فيؤول إلى القسم بالقرآن على حقيقته على نحو ما تقدم في قوله تعالى)والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا(.

وجملة)وإنه قسم لو تعلمون عظيم(معترضة بين القسم وجوابه.

وضمير)إنه(عائد إلى القسم المذكور في)لا أقسم بمواقع النجوم(، أو عائد إلى مواقع النجوم بتأويله بالمذكور فيكون قسم بمعنى مقسم به كما علمت آنفا.
ويجوز أن يعود إلى المقسم عليه وهو ما تضمنه جواب القسم من قوله)إنه لقرآن كريم(.
وجملة)لو تعلمون(معترضة بين الموصوف وصفته وهي اعتراض في اعتراض.
والعلم الذي اقتضى شرط)لو(الامتناعية عدم حصوله لهم إن جعلت ضمير)إنه(عائد إلى القسم هو العلم التفصيلي بأحوال مواقع النجوم، فإن المشركين لا يخلون من علم إجمالي متفاوت بأن في تلك المواقع عبرة للناظرين، أو نزل ذلك العلم الإجمالي منزلة العدم لأنهم بكفرهم لم يجروا على موجب ذلك العلم من توحيد الله فلو علموا ما اشتملت عليه أحوال مواقع النجوم من متعلقات صفات الله تعالى لعلموا مواقع قدسية لا يحلف بها إلا بار في يمينه ولكنهم بمعزل عن هذا العلم، فإن جلالة المقسم به مما يزع الحالف عن الكذب في يمينه. ودليل انتفاع علمهم بعظمته أنهم لم يدركوا دلالة ذلك على توحيد الله بالإلهية فأثبتوا له شركاء لم يخلقوا شيئا من ذلك ولا ما يدانيه فتلك آية أنهم لم يدركوا ما في طي ذلك من دلائل حتى استوى عندهم خالق ما في تلك المواقع وغير خالقها.
فأما إن جعلت ضمير)وإنه لقسم(عائد إلى المقسم عليه فالمعنى: لو تعلمون ذلك لما احتجتم إلى القسم.
وقرأ الجمهور)بمواقع(بصيغة الجمع بفتح الواو وبعدها ألف، وقرأه حمزة والكسائي وخلف)بموقع(سكون الواو دون ألف بعدها بصيغة المفرد على أنه مصدر ميمي، أي بوقوعها، أي غروبها، أو هو اسم لجهة غروبها كقوله)رب المشرق والمغرب(.
ومفعول)تعلمون(محذوف دل عليه الكلام، أي لو تعلمون عظمته، أي دلائل عظمته، ولك أن تجعل فعل)تعلمون(منزلا منزلة اللازم، أي لو كان لكم علم لكنكم لا تتصفون بالعلم.

صفحة : 4283

وضمير)إنه لقرآن كريم(راجع إلى غير مذكور في الكلام لكونه معلوما مستحضرا لهم.

والقرآن: الكلام المقروء، أي المتلو المكرر، أي هو كلام متعظ به محل تدبر وتلاوة، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن(في سورة يونس.
والكريم: النفيس الرفيع في نوعه كما تقدم عند قوله تعالى)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل.
وهذا تفضيل للقرآن على أفراد نوعه من الكتب الإلهية مثل التوراة والإنجيل والزبور ومجلة لقمان. وفضله عليها بأنه فاقها في استيفاء أغراض الدين وأحوال المعاش والماد وإثبات المعتقدات بدلائل التكوين. والإبلاغ في دحض الباطل دحضا لم يشتمل على مثله كتاب سابق، وخاصة الاعتقاد، وفي وضوح معانيه، وفي كثرة دلالته مع قلة ألفاظه، وفي فصاحته، وفي حسن آياته، وحسن مواقعها في السمع وذلك من آثار ما أراد الله به من عموم الهداية به، والصلاحية لكل أمة، ولكل زمان، فهذا وصف للقرآن بالرفعة على جميع الكتب حقا لا يستطيع المخالف طعنا فيه.
وبعد أن وصف القرآن ب)كريم(، وصف وصفا ثانيا بأنه)في كتاب مكنون(وذلك وصف كرامة لا محالة، فليس لفظ)كتاب(ولا وصف) مكنون(مرادا بهما الحقيقة إذ ليس في حمل ذلك على الحقيقة تكريم، فحرف)في(للظرفية المجازية.
والكتاب المكنون: مستعار لموافقة ألفاظ القرآن ومعانيه ما في علم الله تعالى وإرادته وأمره الملك بتبليغه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وتلك شؤون محجوبة عنا فلذلك وصف الكتاب بالمكنون اشتقاقا من الاكتنان وهو الاستتار، أي محجوب عن أنظار الناس فهو أمر مغيب لا يعلم كنهه إلا الله.
وحاصل ما يفيده معنى هذه الآية: أن القرآن الذي بلغهم وسمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم هو موافق لما أراد الله إعلام الناس به وما تعلقت قدرته بإيجاد نظمه المعجز، ليكمل له وصف أنه كلام الله تعالى وأنه لم يصنعه بشر.
ونظير هذه الظرفية قوله تعالى)وما تسقط من ورقة إلا يعلمها(إلى قوله)إلا في كتاب مبين(في سورة الأنعام، وقوله)وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب(أي إلا جاريا على وفق ما علمه الله وجرى به قدره، فكذلك قوله هنا)في كتاب مكنون(، فاستعير حرف الظرفية لمعنى مطابقة ما هو عند الله تشبيها بتلك المطابقة باتحاد المظروف بالظرف. وقريب منه قوله تعالى)إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى(وهذا أولى من اعتبار المجاز في إسناد الوصف بالكون في كتاب مكنون إلى قرآن كريم على طريقة المجاز العقلي باعتبار أن حقيقة هذا المجاز وصف مماثل القرآن ومطابقة لأن المماثل ملابس لمماثله.

واستعير الكتاب للأمر الثابت المحقق الذي لا يقبل التغيير، فالتأم من استعارة الظرفية لمعنى المطابقة، ومن استعارة الكتاب للثابت المحقق معنى موافقة معاني هذا القرآن لما عند الله من متعلق علمه ومتعلق إرادته وقدرته وموافقة ألفاظه لما أمر الله بخلقه من الكلام الدال على تلك المعاني على أبلغ وجه، وقريب من هذه الاستعارة قول بشر بن أبي حازم أو الطرماح:

وجدنا في كتاب بني تـميم أحق الخيل بالركض المعار

وليس لبني تميم كتاب ولكنه أطلق الكتاب على ما تقرر من عوائدهم ومعرفتهم.

وجملة)لا يمسه إلا المطهرون(صفة ثانية لكتاب(.

والمطهرون: الملائكة، والمراد الطهارة النفسانية وهي الزكاة. وهذا قول جمهور المفسرين وفي الموطإ قال مالك: أحسن ما سمعت في هذه الآية)لا يمسه إلا المطهرون(إنها بمنزلة هذه الآية التي في)عبس وتولى(قول الله تبارك وتعالى)كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة(اه. يريد أن)المطهرون(هم السفرة الكرام البررة وليسوا الناس الذين يتطهرون.

ومعنى المس: الأخذ وقت الحديث مس من طيبة ، أي أخذ. ويطلق المس على المخالطة والمطالعة قال يزيد بن الحكم الكلابي:

مسسنا من لآباء شيئا فـكـلـنـا إلى حسب في قومه غير واضع

قال المرزوقي في شرح هذا البيت من الحماسة: مسسنا يجوز أن يكون بمعنى أصبنا واختبرنا لأن المس باليد يقصد به الاختبار. ويجوز أن يكون بمعنى طلبنا اه. فالمعنى: أن الكتاب لا يباشر نقل ما يحتوي عليه لتبليغه إلا الملائكة.

صفحة : 4284

والمقصود من هذا أن القرآن ليس كما يزعم المشركون قول كاهن فإنهم يزعمون أن الكاهن يتلقى من الجن والشياطين ما يسترقونه من أخبار السماء بزعمهم، ولا هو قول شاعر إذ كانوا يزعمون أن لكل شاعر شيطانا يملي عليه الشعر، ولا هو أساطير الأولين، لأنهم يعنون بها الحكايات المكذوبة التي يتلهى بها أهل الأسمار، فقال الله: إن هذا القرآن مطابق لما عند الله الذي لا يشاهده إلا الملائكة المطهرون.

وجملة)تنزيل من رب العالمين(مبينة لجملة في)كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون(فهي تابعة لصفة القرآن، أي فبلوغه إليكم كان بتنزيل من الله، أي نزل به الملائكة.

وفي معنى نظم هذه الآية قوله تعالى)وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين(.

وإذ قد ثبتت هذه المرتبة الشريفة للقرآن كان حقيقا بأن تعظم تلاوته وكتابته، ولذلك كان من المأمور به أن لا يمس مكتوب القرآن إلا المتطهر تشبيها بحال الملائكة في تناول القرآن بحيث يكون ممسك القرآن على حالة تطهر ديني وهو المعنى الذي تومئ إليه مشروعية الطهارة لمن يريد الصلاة نظير ما في الحديث المصلي يناجي ربه .

وقد دلت آثار على هذا أوضحها ما رواه مالك في الموطأ مرسلا إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إيقال ذي رعين وقعافر وهمذان وبعثها به مع عمرو بن حزم أن لا يمس القرآن إلا طاهر ، قال المناوي: وسنده صحيح وجعله السيوطي في مرتبة الحسن.

وفي كتب السيرة أن عمر بن الخطاب قبل أن يسلم دخل على أخته وهي امرأة سعيد بن زيد فوجدها تقرأ القرآن من صحيفة مكتوب فيها سورة طه فدعا بالصحيفة ليقرأها فقالت له: لا يمسها إلا المطهرون فقام فاغتسل وقرأ السورة فأسلم، فهذه الآية ليست دليلا لحكم مس القرآن بأيدي الناس ولكن ذكر الله إياها لا يخلو من إرادة أن يقاس الناس على الملائكة في أنهم لا يمسون القرآن إلا إذا كانوا طاهرين كالملائكة، أي بقدر الإمكان من طهارة الآدميين.

فثبت بهذا أن المر بالتطهر لمن يمسك مكتوبا من القرآن قد تقرر بين المسلمين من صدر الإسلام في مكة.

وإنما اختلف الفقهاء في مقتضى هذا الأمر من وجوب أو ندب، فالجمهور رأوا وجوب أن يكون ممسك مكتوب القرآن على وضوء وهو قول علي وابن مسعود وسعد وسعيد وعطاء والزهري ومالك والشافعي، وهو رواية عن أبي حنيفة، وقال فريق: إن هذا أمر ندب وهو قول ابن عباس والشعبي، وروي عن أبي حنيفة وهو قول أحمد وداود الظاهري.

قال مالك في الموطإ ولا يحمل أحد المصحف لا بعلاقته ولا على وسادة إلا وهو طاهر إكراما للقرآن وتعظيما له . وفي سماع ابن القاسم من كتاب الوضوء من العتبية في المسألة السادسة سئل مالك عن اللوح فيه القرآن أيمس على غير وضوء؟ فقال: أما للصبيان الذين يتعلمون فلا أرى به بأسا، فقيل له: فالرجل يتعلم

فيه؟ قال: أرجو أن يكون خفيفا، فقيل لابن القاسم: فالمعلم يشكل ألواح الصبيان وهو على غير وضوء، قال: أرى ذلك خفيفا . قال ابن رشد في البيان والتحصيل: لما يلحقه في ذلك من المشقة فيكون ذلك سببا إلى المنع من تعلمه. وهذه هي العلة في تخفيف ذلك للصبيان. وأشار الباجي في المنتقى إلى أن إباحة مس القرآن للمتعلم والمعلم هي لأجل ضرورة التعلم.

وقد اعتبروا هذا حكما لما كتب فيه القرآن بقصد كونه مصحفا أو جزءا من مصحف أو لوحا للقرآن ولم يعتبروه لما يكتب من آي القرآن على وجه الاقتباس أو التضمين أو الاجتجاج ومن ذلك ما يكتب على الدنانير والدراهم وفي الخواتيم.

والمراد بالطهارة عند القائلين بوجوبها الطهارة الصغرى، أي الوضوء، قال ابن عباس والشعبي: يجوز مس القرآن بالطهارة الكبرى وإن لم تكن الصغرى.

صفحة : 4285

ومما يلتحق بهذه المسألة مسألة قراءة غير المتطهر القرآن وليست مما شملته الآية ظاهرا ولكن لما كان النهي عن أن يمس المصحف غير المتطهر لعله أن المس ملابسة لمكتوب القرآن فقد يكون النهي عن تلاوة ألفاظ القرآن حاصلا بمفهوم الموافقة المساوي أو الأحرى، إذ النطق ملابسة كملابسة إمساك المكتوب منه أو أشد وأحسب أن ذلك مثار اختلافهم في تلاوة القرآن لغير المتطهر. وإجماع العلماء على أن غير المتوضئ يقرأ القرآن مع اختلافهم في مس المصحف لغير المتوضئ يشعر بأن مس المصحف في نظرهم أشد ملابسة من النطق بآيات القرآن.

قال مالك وأبو حنيفة والشافعي: لا يجوز للجنب قراءة القرآن ويجوز لغير المتوضئ. وقلت: شاع بين المسلمين في عهد الصحابة العمل بأن لا يتلو القرآن من كان جنبا ولم يؤثر عنهم إفتاء بذلك. وقال أحمد وداود: تجوز قراءة القرآن للجنب. ورخص المالك في قراءة اليسير منه كالآية والآيتين،ولم يشترط أحد من أهل العلم الضوء على قارئ القرآن.

واختلف في قراءته للحائض والنفساء. وعن مالك في ذلك روايتان، وأحسب أن رواية الجواز مراعى فيها أن انتفاء انتقاض طهارتهما تطول مدته فكان ذلك سببا في الترخيص.

)أفبهذا الحديث أنتم مدهنون[81](الفاء تفريع على ما سيق لأجله الكلام الذي قبلها في غرضه من التنويه بشن القرآن، وهو الذي

بحذو الفاء، أو من إثبات البعث والجزاء وهو الذي حوى معظم السورة، وكان التنويه بالقرآن من مسبباته.

وأطبق المفسرون عدا الفخر على أن اسم الإشارة وبيانه بقوله) فبهذا الحديث(مشير إلى القرآن لمناسبة الانتقال من التنويه بشأنه إلى الإنكار على المكذبين به. فالتفريع على قوله)إنه لقرآن كريم(الآية.

والمراد ب)الحديث(إخبار الله تعالى بالقرآن وإرادة القرآن من مثل قوله)أفبهذا الحديث(واردة في القرآن، أي في قوله في سورة القلم)فذرني ومن يكذب بهذا الحديث(وقوله في سورة النجم) أفمن هذا الحديث تعجبون(.

ويكون العدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة بقوله)أفبهذا الحديث(دون أن يقول: أفبه أنتم مدهنون، إخراجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لتحصل باسم الإشارة زيادة التنويه بالقرآن.

وأما الفخر فجعل الإشارة من قوله)أفبهذا الحديث(إشارة إلى ما تحدثوا به من قبل في قوله تعالى)وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون(، فإن الله رد عليهم ذلك بقوله)قل إن الأولين والآخرين(الآية. وبين أن ذلك كله إخبار من الله بقوله)إنه لقرآن كريم(ثم عاد إلى كلامهم فقال: أفبهذا الحديث الذي تتحدثون به أنتم مدهنون لأصحابكم اه، أي على معنى قوله تعالى)وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا(.

وإنه لكلام جيد ولو جعل المراد من)هذا الحديث(جميع ما تقدم من أول السورة أصلا وتفريعا، أي من هذا الكلام الذي قرع أسماعكم، لكان أجود. وإطلاق الحديث على خبر البعث أوضح لأن الحديث يراد به الخبر الذي صار حديثا للقوم.

والتعرف في)الحديث(على كلا التفسيرين تعريف العهد.

والمدهن: الذي يظهر خلاف ما يبطن، يقال: أدهن، ويقال: داهن، وفسر أيضا بالتهاون وعدم الأخذ بالحزم، وفسر بالتكذيب.

والاستفهام على كل التفاسير مستعمل في التوبيخ، أي كلامكم لا ينبغي إلا أن يكون مداهنة كما يقال لأحد قال كلاما باطلا: أتهزأ، أي قد نهض برهان صدق القرآن بحيث لا يكذب به مكذب إلا وهو لا يعتقد أنه كذب لأن حصول العلم بما قام عليه البرهان لا يستطيع صاحبه دفعه عن نفسه، فليس إصراركم على التكذيب بعد ذلك إلا مداهنة لقومكم تخشون إن صدقتم بهذا الحديث أن تزول رئاستكم فيكون في معنى قوله تعالى)فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون(.

وعلى تفسير)مدهنون(بمعنى إلا لأنه، فالمعنى: لا تتراخوا في هذا الحديث وتدبروه وخذوا بالفور في إتباعه.
وإن فسر)مدهنون(بمعنى: تكذبون، فالمعنى واضح.
وتقديم المجرور للاهتمام.
وصوغ الجملة الاسمية في)أنتم مدهنون(لأن المقرر إدهان ثابت مستمر.
)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون[82](

إذا جرينا على ما فسر به المفسرون تكون هذه الجملة عطفا على جملة)أفبهذا الحديث أنتم مدهنون(عطف الجملة على الجملة فتكون داخلة في حيز الاستفهام ومستقلة بمعناها.
والمعنى: افتجعلون رزقكم أنكم تكذبون، وهو تفريع على ما تضمنه الاستدلال بتكوين نسل الإنسان وخلق الحب، والماء في المزن، والنار من أعواد الاقداح، فإن في مجموع ذلك حصول مقومات الأقوات وهي رزق، والنسل رزق، يقال: رزق فلان ولدا، لأن الرزق يقع على العطاء النافع، قال لبيد:
رزقت مرابيع النجوم وصابها ودق
الرواعد جودها فرهامها أي اعطيت وقال تعالى)ما أريد مهم من رزق وما أريد أن يطعمون(فعطف الإطعام على الرزق والعطف يقتضي المغايرة.
والاستفهام المقدر بعد العاطف إنكاري، وإذ كان التكذيب لا يصح أن يجعل رزقا تعين بدلالة الاقتضاء تقدير محذوف يفيده الكلام فقدره المفسرون: شكر رزقكم، أو نحوه، أي تجعلون شكر الله على رزقه إياكم أن تكذبوا بقدرته على إعادة الحياة، لأنهم عدلوا عن شكر الله تعالى فيما أنعم به عليهم فاستنقصوا قدرته على إعادة الأجسام، ونسبوا الزرع لأنفسهم، وزعموا أن المطر تمطره النجوم المسماة بالأنواء فلذلك قال ابن عباس: نزلت في قولهم: مطرنا بنوء كذا، أي لأنهم يقولونه عن اعتقاد تأثير الأنواء في خلق المطر، فمعنى قول ابن عباس: مطرنا بنوء كذا، أنه مراد من معنى الآية.
قال ابن عطية: أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ في القائلين بالمطر الذي ينزله الله رزقا: هذا بنوء كذا وكذا اه.
أشار هذا إلى ما روي في الموطأ عن زيد بن خالد الجهني قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على

الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا ونوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، وليس فيه زيادة فنزلت هذه الآية ولو كان نزولها يومئذ لقاله الصحابي الحاضر ذلك اليوم.

ووقع في صحيح مسلم عن ابن عباس أنه قال مطر الناس على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا ونوء كذا. قال فنزلت)فلا أقسم بمواقع النجوم(حتى بلغ)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(فزاد على ما في حديث زيد بن خالد قوله فنزلت)فلا أقسم(الخ.

وزيادة الراوي مختلف في قبولها بدون شرط أو بشرط عدم اتحاد المجلس، أو بشرط أن لا يكون ممن لا يغفل مثله عن مثل تلك الزيادة عادة وهي أقوال لأئمة الحديث وأصول الفقه، وابن عباس لم يكن في سن أهل الرواية في مدة نزول هذه السورة بمكة فعل قوله)فنزلت(تأويل منه، لأنه أراد أن الناس مطروا في مكة في صدر الإسلام فقال المؤمنون قولا وقال المشركون قولا فنزلت آية)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(تنديدا على المشركين منهم بعقيدة من العقائد التي أنكرها الله عليهم وأن ما وقع في الحديبية مطر آخر لأن السورة نزلت قبل الهجرة. ولم يرو أن هذه الآية ألحقت بالسورة بعد نزول السورة.

ولعل الراوي عنه لم يحسن التعبير عن كلامه فأوهم بقوله فنزلت)فلا أقسم بمواقع النجوم(بأن يكون ابن عباس قال: فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم)فلا أقسم بمواقع النجوم(، أو نحو تلك العبارة. وقد تكرر مثل هذا الإيهام في أخبار أسباب النزول، ويناكد هذا صيغة)تكذبون(لأن قولهم: مطرنا بنوء كذا، ليس فيه تكذيب بشيء، ولذلك احتاج ابن عطية إلى تأويله بقوله: فإن الله تعالى قال)ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد(. فهذا معنى)أنكم تكذبون(أي تكذبون بهذا الخبر.

والذي نحاه الفخر منحى آخر فجعل معنى)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(تكملة للإدهان الذي في قوله تعالى)أفبهذا الحديث أنتم

مدهنون(فقال: أي تخافون أنكم إن صدقتم بالقرآن ومنعتم ضعفاءكم من الكفر يفوت عليكم من كسبكم ما تربحونه بسببهم فتجعلون رزقكم أنكم تكذبون الرسول أي فيكون عطفا على) تدهنون(عطف فعل على اسم شبيه به، وهو من قبيل عطف المفردات، أي أنتم مدهنون وجاعلون رزقكم أنكم تكذبون، فهذا التكذيب من الإدهان، أي أنهم يعلمون صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم يظهرون تكذيبه إبقاء على منافعهم فيكون كقوله تعالى)فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون(. وعلى هذا يقدر قوله)أنكم تكذبون(مجرورا بباء الجر محذوفة، والتقدير: وتجعلون رزقكم بأنكم تكذبون، أي تجعلون عوضه بأنه تكذبوا بالبعث.

)فلولا إذا بلغت الحلقوم[83] وأنتم حينئذ تنظرون[84] ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون[85] فلولا إن كنتم غير مدينين[86] ترجعونها إن كنتم صادقين[87](مقتضى فاء التفريع أن الكلام الواقع بعدها ناشئ عما قبله على حسب ترتيبه وإذ قد كان الكلام السابق إقامة أدلة على أن الله قادر على إعادة الحياة للناس بعد الموت، وأعقب ذلك بأن تلك الأدلة أيدت ما جاء في القرآن من إثبات البعث، وأنحى عليهم أنهم وضحت لهم الحجة ولكنهم مكابرون فيها ومظهرون الجحود وهم موقنون في الباطل، وكل ذلك راجع إلى الاستدلال بقوة قدرة الله على إيجاد موجودات لا تصل إليها مدارك الناس، انتقل الكلام إلى الاستدلال على إثبات البعث بدليل لا محيص لهم عن الاعتراف بدلالته.

فالتفريع على جملة)ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون(وهو أن عجزهم عن إرجاع الروح عند مفارقتها الجسد ينبههم على أن تلك المفارقة مقدرة في نظام الخلقة وأنها الحكمة.

فمعنى الكلام قد أخبركم الله بأنه يجازي الناس على أفعالهم وذلك فهو محييهم بعد موتهم لإجراء الجزاء عليهم، وقد دلكم على ذلك بانتزاع أرواحهم منهم قهرا، فلو كان ما تزعمون من أنكم غير مجزيين بعد الموت لبقيت الأرواح في أجسادها، إذ لا فائدة في انتزاعها منها بعد إيداعها فيها، لولا حكمة نقلها إلى حياة ثانية، ليجري جزاؤها على أفعالها في الحياة الأولى.

وهذا نظير الاستدلال على تفرد الله بالإلهية بأن في كينونة الموجودات دلائل خلقية على أنها مخلوقة لله تعالى وذلك قوله تعالى)ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال(. ومرجع هذا المعنى إلى أن هذا استدلال بمقتضى الحكمة الإلهية في حالة خلق الإنسان فإن إيداع الأرواح في الأجساد تصرف من تصرف الله تعالى، وهو الحكيم، فما نزع الأرواح من

الأجساد بعد أن أودعها فيها مدة إلا لأن انتزاعها مقتضى الحكمة أن تنتزع، وانحصر ذلك في أن يجري عليها الحساب على ما اكتسبته في مدة الحياة الدنيا.

وهذا كقوله تعالى)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(فالله تعالى جعل الحياة الدنيا والآجال مدد عمل، وجعل الحياة الآخرة دار جزاء على الأعمال، ولذلك أقام نظام الدنيا على قاعدة الانتهاء لآجال حياة الناس.

أما موت من كان قريبا من سن التكليف ومن دونه وموت العجماوات فذلك عارض تابع لإجزاء التكوين للأجساد الحية على نظام التكوين المتماثل، وكذلك ما يعرض لها من عوارض مهلكة اقتضاها تعارض مقتضيات الإنظام وتكوين الأمزجة من صحة ومرض، ومسالمة وعدوان.

فبقي الإشكال في جعل)ترجعونها(من جملة جواب شرط) إن(إذ لا يلزم من عدم قدرتهم على صد الأرواح عن الخروج، أن يكون خروجها لإجراء الحساب.

ودفع هذا الإشكال وجوب تأويل)ترجعونها(بمعنى تحاولون إرجاعها، أي عدم محاولتكم إرجاعها منذ العصور الأولى دليل على تسليمكم بعد إمكان إرجاعها، وما ذلك إلا لوجوب خروجها من حياة الأعمال إلى حياة الجزاء.

صفحة : 4288

وأصل تركيب هذه الجملة: فإذا كنتم صادقين في أنكم غير مدينين فلولا حاولتم عند كل محتضر إذا بلغت الروح الحلقوم أن ترجعوها إلى مواقعها من أجزاء جسده فما صرفكم عن محاولة ذلك إلا العلم الضروري بأن الروح ذاهبة لا محالة. فإذا علمت هذا اتضح لك انتظام الآية التي نظمت نظما بديعا من الإيجاز، وأدمج في دليلها ما هو تكملة للإعجاز.

و)لولا(حرف تحضيض مستعمل في التعجيز لأن المحضوض إذا لم يفعل ما حض على فعله فقد أظهر عجزه والفعل المحضوض عليه هو)ترجعونها(، أي تحاولون رجوعها.

و)إذا بلغت(ظرف متعلق ب)ترجعونها(مقدم عليه لتهويله والتشويق إلى الفعل المحضوض عليه.

والضمير المستتر في)بلغت(عائد على مفهوم من العبارات لظهور أن التي تبلغ الحلقوم حذف إيجازا نحو قوله تعالى)حتى توارت بالحجاب(أي الشمس.

و)ال(في)الحلقوم(للعهد الجنسي.
وجملة)وأنتم حينئذ تنظرون(حال من ضمير)بلغت(ومفعول)
تنظرون(محذوف تقديره: تنظرون صاحبها، أي صاحب الروح بقرينة قوله بعده)ونحن أقرب إليه(، وفائدة هذه الحال تحقيق أن الله صرفهم عن محاولة إرجاعها مع شدة أسفهم لموت الأعزة.
وجملة)ونحن أقرب إليه منكم(في موضع الحال من مفعول)
تنظرون(المحذوف، أو معترضة والواو اعتراضية.
وأيا ما كانت فهي احتراس لبيان أن ثمة حضورا أقرب من حضورهم عند المحتضر وهو حضور التصريف لأحواله الباطنة.
وقرب الله: قرب علم وقدرة على حد قوله)وجاء ربك(، أو قرب ملائكته المرسلين لتنفيذ أمره في الحياة والموت على حد قوله)
ولقد جئناهم بكتاب(، أي جاءهم جبريل بكتاب، قال تعالى)حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم(.
وجملة)ولكن لا تبصرون(معترضة بين جملة)ونحن أقرب إليه منكم(وجملة)فلولا أن كنتم غير مدينين(وكلمة)فلولا(الثانية تأكيد لفظي لنظيرها السابق أعيد لتبنى عليه جملة)ترجعونها(لطول الفصل.
وجملة)إن كنتم غير مدينين(معترضة أو حال من الواو في)
ترجعونها(.
وجواب شرط)إن(محذوف دل عليه فعل)ترجعونها(. قال ابن عطية: وقوله)ترجعونها(سد مسد الأجوبة والبيانات التي تقتضيها التحضيضات، و)إذا(من قوله)فلولا إذا بلغت(و)إن(المتكررة وحمل بعض القول بعضا إيجاز أو اقتضابات اه.
وجملة)إن كنتم صادقين(بيان لجملة)إن كنتم غير مدينين(وعلى التفسير الأول لمعنى)مدينين(يكون وجه إعادة هذا الشرط مع أنه مما استفيد من قوله)إن كنتم غير مدينين(هو الإيماء إلى فرض الشرط في قوله)إن كنتم غير مدينين(بالنسبة لما في نفس الأمر وأن الشرط في قوله)إن كنتم صادقين(هو فرض وتقدير لا وقوع له نفي البعث، وعلى الوجه الثاني يرجع قوله)إن كنتم صادقين(إلى ما أفاده التحضيض، وموقع فاء التفريع من إرادة أن قبض الأرواح لتأخيرها إلى يوم الجزاء، أي إن كنتم صادقين في نفي البعث والجزاء.
وضمير التأنيث في قوله)ترجعونها(عائد إلى الروح الدال عليه التاء في قوله)إذا بلغت الحلقوم(.
ومعنى الاستدراك في)ولكن لا تبصرون(راجع إلى قوله)ونحن أقرب إليه منكم(لرفع توهم قائل: كيف يكون أقرب إلى المحتضر

من العواد الحافين حوله وهم يرون شيئا غيرهم يتبع ذلك بأنهم محجوبون عن رؤية أمر الله تعالى.
وجملة)ولكن لا تبصرون(معترضة، والواو اعتراضية. ومفعول) تبصرون(محذوف دل عليه قوله)ونحن أقرب إليه(.
ومعنى)مدينين(مجازين على أعمالكم. وعلى هذا المعنى حمله جمهور النتقدمين من المفسرين ابن عباس ومجاهد وجابر بن زيد والحسن وقتادة، وعليه جمهور المفسرين من المتأخرين على الإجمال، وفسره الفراء والزمخشري)مدينين(بمعنى: عبيد لله، من قولهم: دان السلطان الرعية، إذا ساسهم، أي غير مربوبين وهو بعيد عن السياق.
واعلم أن قوله)إن كنتم غير مدينين(فرض وتقدير ف)إن(فيه بمنزلة لو ، أي لو كنتم غير مدينين، أي غير مجزيين على الأعمال.

صفحة : 4289

وأسند فعل)إن كنتم غير مدينين(إلى المخاطبين بضمير المخاطبين، دون أن يقول: إن كان الناس غير مدينين لأن المخاطبين هم الذين لأجل إنكارهم البعث سيق هذا الكلام. والمعنى: لو كنتم أنتم وكان الناس غير مدينين لما أخرجت الأرواح من الأجساد إذ لا فائدة تحصل من تفريق ذينك الإلفين لولا غرض سام، وهو وضع كل روح فيما يليق بها من عالم الخلود جزاء على الأعمال، ولذلك أوثر لفظ)غير مدينين(دون أن يقال: غير مبعوثين أو غير معادين، وإن كان لا يلزم من نفي الإدانة نفي البعث فإنه يجوز أن يكون بعث بلا جزاء لكن ذلك لا يدعى لأنه عبث.
فقوله)أن كنتم غير مدينين(إيماء إلى أن الغرض من سوق هذا الدليل إبطال إنكارهم البعث الذي هو لحكمة الجزاء.
ومن مستتبعات هذا الكلام أن يفيد الإيماء إلى حكمة الموت بالنسبة للإنسان لأنه لتخليص الأرواح من هذه الحياة الزائلة المملوءة باطلا إلى الحياة الأبدية الحق التي تجري فيها أحوال الأرواح على ما يناسب سلوكها في الحياة الدنيا، كما أشار إليه قوله تعالى)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(فيقتضي أنه لولا أنكم مدينون لما انتزعنا الأرواح من أجسادها بعد أن جعلناها فيها ولأبقيناها لأن الروح الإنساني ليس كالروح الحيواني، فتكون الآية مشتملة على دليلين: أحدهما بحاق

التركيب، والآخر بمستتبعاته التي أومأ إليها قوله)إن كنتم غير مدينين(. والغرض الأول هو الذي ذيل بقوله)إن كنتم صادقين(.
هذا تفسير الآية الذي يحيط بأوفر معانيها دلالة واقتضاء ومستتبعات. وجعل في الكشاف مهيع الآية يصب إلى إبطال ما يعتقده الدهريون، أي الذين يقولون نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، لأنهم نفوا أن يكونوا عبادا لله. وجعل معنى) مدينين(مملوكين لله، وبذلك فسره الفراء وقال ابن عطية: إنه صح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبر بمجازي أو بمحاسب، فلذلك هنا قلق. وقلت: في كلامه نظر ظاهر.
وجعل الزمخشري تفريعه على ما حكي من كلامهم السابق مبنيا على أن ما حكي من كلامهم في الأنواء والتكذيب يفضي إلى مذهب التعطيل، فاستدل عليهم بدليل يقتضي وجود الخالق وهو كله ناء عن مهيع الآية لأن الدهرية لا ينتحلها جميع العرب بل هي نحلة طوائف قليلة منهم وناء عن متعارف ألفاظها وعن ترتيب استدلالها.
فأما إن كان من المقربين[88] فروح وريحان وجنات نعيم[89] وأما إن كان من أصحاب اليمين[90] فسلام لك من أصحاب اليمين[91] وأما إن كان من المكذبين الضالين[92] فنزل من حميم[93] وتصلية جحيم[94](لما اقتضى الكلام بحذافره أن الإنسان صاحب الروح صائر إلى الجزاء فرع عليه إجمال أحوال الجزاء في مراتب الناس إجمالا لما سبق تفصيله بقوله)وكنتم أزواجا ثلاثة(إلى قوله)لا بارد ولا كريم(ليكون هذا فذلكة للسورة وردا لعجزها على صدرها.
فضمير)إن كان(عائد إلى ما عاد إليه ضمير)إليه(من قوله) ونحن أقرب إليه منكم(.
والمقربون هم السابقون الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى) والسابقون السابقون أولئك المقربون(وأصحاب اليمين قد تقدم. والمكذبون الضالون: هم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم.
وقد ذكر لكل صنف من هؤلاء جزاء لم يذكر له فيما تقدم ليضم إلى ما أعد له فيما تقدم على طريقة القرآن في توزيع القصة.
والروح: بفتح الراء في قراءة الجمهور، وهو الراحة، أي فروح له، أي هو في راحة ونعيم، وتقدم في قوله)ولا تيأسوا من روح الله(في سورة يوسف. وقرأه رويس عن يعقوب بضم الراء. ورويت هذه القراءة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم عند أبي داود والترمذي والنسائي، أي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم روي عنه الوجهات، فالمشهور روي متواترا، والآخر روي متواتر وبالآحاد، وكلاهما مراد.
ومعنى الآية على قراءة ضم الراء: أن روحه معها الريحان وهو الطيب وجنة النعيم. وقد ورد في حديث آخر: أن روح المؤمن تخرج

طيبة . وقيل: أطلق الروح بضم الراء على الرحمة لأن من كان في رحمة الله فهو الحي حقا، فهو ذو روح، أما من كان في العذاب فحياته أقل من الموت، فقال تعالى)لا يموت فيها ولا يحيي(، أي لأنه يتمنى الموت فلا يجده.

صفحة : 4290

والريحان: شجر لورقة وقضبانه رائحة ذكية شديد الخضرة كانت الأمم تزين به مجالس الشراب. قال الحريري وطورا يستبزل الدنان، ومرة يستنشق الريحان وكانت ملوك العرب تتخذه، قال النابغة:

يحيون بالريحان يوم السباسب وتقدم عند قوله تعالى)والحب ذو العصف والريحان(في سورة الرحمن فتخصيصه بالذكر قبل ذكر الجنة التي تحتوي عليه إيماء إلى كرامتهم عند الله، مثل قوله) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار(.

وجملة)فروح وريحان(جواب)أما(التي هي بمعنى: مهما يكن شيء. وفصل بين)ما(المتضمنة معنى اسم شرط وبين فعل شرط وبين الجواب بشرط آخر هو)إن كان من المقربين(لأن الاستعمال جرى على لزوم الفصل بين)إما(وجوابها بفاصل كراهية اتصال فاء الجواب بأداة الشرط لما التزموا حذف فعل الشرط فأقاموا مقامه فاصلا كيف كان.

وجواب)إن(الشرطية محذوف أغنى عنه جواب)إما(.

وكذلك قوله)فسلام لك من أصحاب اليمين(.

والسلام: اسم للسلام من المكروه، ويطلق على التحية، واللام في قوله)لك(للاختصاص. والكلام إجمال للتنويه بهم وعلو مرتبتهم وخلاصهم من المكدرات لتذهب نفس السامع كل مذهب.

واختلف المفسرون في قوله)فسلام لك من أصحاب اليمين(فقيل: كاف الخطاب موجهة لغير معين، أي لكل من يسمع هذا الخبر.

والمعنى: أن السلامة الحاصلة لأصحاب اليمين تسر من يبلغها أمرها. وهذا كما يقال: ناهيك به، وحسبك به، و)من(ابتدائية، واللفظ جرى مجرى المثل فطوي منه بعضه، وأصله: فلهم السلامة سلامة تسر من بلغه حديثها.

وقيل: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتقرير المعنى كما تقدم لأن النبي صلى الله عليه وسلم يسر بما يناله أهل الإسلام من الكرامة عند الله وهم ممن شملهم لفظ)أصحاب اليمين(.

وقيل: الكلام على تقدير القول، أي فيقال له: سلام لك، أي تقول له الملائكة.
و)من أصحاب اليمين(خبر مبتدأ محذوف، أي أنت من أصحاب اليمين، و)من(على هذا تبعيضية، فهي بشارة للمخاطب عند البعث على نحو قوله تعالى)والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار(.
وقيل: الكاف خطاب لمن كان من أصحاب اليمين على طريقة الالتفات. ومقتضى الظاهر أن يقال: فسلام له، فعدل إلى الخطاب لاستحضار تلك الحالة الشريفة، أي فيسلم عليه أصحاب اليمين على نحو قوله تعالى)وتحيتهم فيها سلام(أي يبادرونه بالسلام، وهذا كناية عن كونه من أهل منزلتهم، و)من(على هذا ابتدائية.
فهذه محامل لهذه الآية يستخلص من مجموعها معنى الرفعة والكرامة.
والمكذبون الضالون: هم أصحاب الشمال في القسم السابق لى أزواج ثلاثة.
وقدم هنا وصف التكذيب على وصف الضلال عكس ما تقدم في قوله)ثم أنكم أيها الضالون المكذبون(لمراعاة سبب ما نالهم من العذاب وهو التكذيب، لأن الكلام هنا عذاب قد حان حينه وفات وقت الحذر منه فبين سبب عذابهم وذكروا بالذي أوقعهم في سببه ليحص لهم ألم التندم.
والنزل: ما يقدم للضيف من القرى، وإطلاقه هنا تهكم، كما تقدم قريبا في هذه السورة كقوله تعالى)هذا نزلهم يوم الدين(.
والتصلية: مصدر صلاه المشدد، إذ أحرقه وشواه، يقال: صلى اللحم تصلية، إذا شواه، وهو هنا من الكلام الموجه لإيهامه له يصلى له الشواء في نزله على طريقة التهكم، أي يحرقوا بها.
والجحيم: يطلق على النار المؤججة، ويطلق علما على جهنم دار العذاب الآخرة.
)إن هذا لهو حق اليقين[95](تذييل لجميع ما اشتملت عليه السورة من المعاني المثبتة.
والإشارة إلى ذلك بتأويل المذكور من تحقيق حق وإبطال باطل.
والحق: الثابت. واليقين: المعلوم جزما الذي لا يقبل التشكيك.

وإضافة)حق(إلى)اليقين(من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي لهو اليقين الحق. وذلك أن الشيء إذا كان كاملا في نوعه وصف

بأنه حق ذلك الجنس، كما في الحديث لأبعثن معكم أمينا حق أمين . فالمعنى: أن الذي قصصنا عليك في هذه السورة هو اليقين حق اليقين، كما يقال: زيد العالم حق عالم. ومآل هذا الوصف إلى توكيد اليقين، فهو بمنزلة ذكر مرادف الشيء وإضافة المترادفين تفيد معنى التوكيد، فلذلك فسروه بمعنى: أن هذا يقين اليقين وصواب الصواب. نريد: أنه نهاية الصواب. قال ابن عطية: وهذا أحسن ما قيل فيه.

ويجوز أن تكون الإضافة بيانية على معنى)من(، وحقيقته على معنى اللام بتقدير: لهو حق الأمر اليقين، وسيجيء نظير هذا التركيب في سورة الحاقة. وسأبين هنالك ما يزيد على ما ذكرته هنا فانظره هنالك.

وقد اشتمل هذا التذييل على أربعة مؤكدات وهي: إن، ولام الابتداء، وضمير الفصل، وإضافة شبه المترادفين .

)فسبح باسم ربك العظيم[96](تفريع على تحقيق أن ما ذكر هو اليقين حقا فأن ما ذكر يشتمل على عظيم صفات الله وبديع صنعه وحكمته وعدله، ويبشر النبي صلى الله عليه وسلم وأمته بمراتب من الشرف والسلامة على مقادير درجاتهم وبنعمة النجاة مما يصير إليه المشركون من سوء العاقبة، فلا جرم كان حقيقا بأن يؤمر بتسبيح الله تسبيحا استحقه لعظمته، والتسبيح ثناء، فهو يتضمن حمدا لنعمته وما هدى إليه من طرق الخير، وقد مضى تفصيل القول في نظيره من هذه السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد

هذه السورة تسمى في عهد الصحابة)سورة الحديد(، فقد وقع في حديث إسلام عمر بن الخطاب عند الطبراني والبزاز أن عمر دخل على أخته قبل أن يسلم فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد فقرأه حتى بلغ)آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه(فأسلم، وكذلك سميت في المصاحف وفي كتب السنة، لوقوع لفظ)الحديد(فيها في قوله تعالى)وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد(. وهذا اللفظ وإن ذكر في سورة الكهف في قوله تعالى)آتوني زبر الحديد(وهي سابقة في النزول على سورة الحديد على المختار، فلم تسم به لأنها سميت باسم الكهف للاعتناء بقصة أهل الكهف، ولأن الحديد الذي ذكر هنا مراد به حديد السلاح من سيوف ودروع وخوذ، تنويها به إذا هو أثر من آثار حكمة الله في خلق مادته وإلهام الناس صنعه لتحصل به منافع لتأييد الدين ودفاع المعتدين كما قال تعالى)فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب(.

وفي كون هذه السورة مدنية أو مكية اختلاف قوي لم يختلف مثله في غيرها، فقال الجمهور: مدنية. وحكى ابن عطية عن النقاش: أن ذلك إجماع المفسرين، وقد قيل: إن صدرها مكي لما رواه مسلم في صحيحه والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود أنه قال ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية)ألم يإن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله(إلى قوله)وكثير منهم فاسقون(إلا أربع سنين . عبد الله بن مسعود أول الناس إسلاما، فتكون هذه الآية مكية.

وهذا يعارضه ما رواه ابن مردويه عن أنس وابن عباس: أن نزول هذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من ابتداء نزول القرآن، فيصار إلى الجمع بين الروايتين أو الترجيح، ورواية مسلم وغيره عن ابن مسعود أصح سندا، وكلام ابن مسعود يرجح على ما روي عن أنس وابن عباس لأنه أقدم إسلاما وأعلم بنزول القرآن، وقد علمت آنفا أن صدر هذه السورة كان مقروءا قبل إسلام عمر بن الخطاب. قال ابن عطية يشبه صدرها أن يكون مكيا والله أعلم، ولا خلاف أن فيها قرآنا مدنيا اه.

وروي أن نزولها كان يوم ثلاثاء استنادا إلى حديث ضعيف رواه الطبراني عن ابن عمر ورواه الديلمي عن جابر بن عبد الله.

وأقول الذي يظهر أن صدرها مكي كما توسمه ابن عطية وأن ذلك ينتهي إلى قوله)وإن الله بكم لرؤوف رحيم(وأن ما بعد ذلك بعضه نزل بالمدينة كما تقتضيه معانيه مثل حكاية أقوال المنافقين، وبعضه نزل بمكةمثل آية)ألم يإن للذين آمنوا(الآية كما في حديث مسلم. ويشبه ان يكون آخر السورة قوله)إن الله قوي عزيز(نزل بالمدينة ألحق بهذه السورة بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم في خلالها أو في آخرها.

صفحة : 4292

قلت: وفيها آية)لا يستوي منكم من أنفق قبل الفتح(الآية، وسواء كان المراد بالفتح في تلك الآية فتح مكة أو فتح الحديبية. فإنه أطلق عليه اسم الفتح وبه سميت)سورة الفتح(، فهي متهينة لأن تكون مدنية فلا ينبغي الاختلاف في أن معظم السورة مدني.

وروي أن نزولها كان يوم الثلاثاء استنادا إلى حديث ضعيف رواه الطبراني عن ابن عمر ورواه الديلمي عن جابر بن عبد الله.

وقد عدت السورة الخامسة والتسعين في ترتيب نزول السور جريا على قول الجمهور: إنها مدنية فقالوا: نزلت بعد سورة الزلزال

وقبل سورة القتال، وغذا روعي قول ابن مسعود: إنها نزلت بعد البعثة بأربع سنين. وما روي من أن سبب إسلام عمر بن الخطاب أنه قرأ صحيفة لأخته فاطمة فيها صدر سورة الحديد لم يستقم هذا العد لأن العبرة بمكان نزول السورة لا نزول آخرها فيشكل موضعها في عد نزول السورة.

وعلى قول ابن مسعود يكون ابتداء نزولها آخر سنة أربع من البعثة فتكون من أقدم السور نزولا فتكون نزلت قبل سورة الحجر وبعد غافر، فالوجه أن معظم آياتها نزل بعد سورة الزلزال.

وعدت آيها في عد أهل المدينة ومكة والشام ثمانا وعشرين، وفي عد أهل البصرة والكوفة تسعا وعشرين.

وورد في فضلها مع غيرها من السور المفتتحة بالتسبيح ما رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: إن فيهن ية افضل من ألف آية وقال الترمذي حديث حسن غريب.

وظن ابن كثير أن الآية المشار إليها في حديث العرباض هي قوله تعالى)هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم(لما ورد في الآثار من كثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها.

أغراضها

الأغراض التي اشتملت عليها هذه السورة: التذكير بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة، وسعة قدرته وملكوته، وعموم تصرفه، ووجوب وجوده، وسعة علمه، والأمر بالإيمان بوجوده، وبما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم، وما أنزل عليه من الآيات البينات.

والتنبيه لما في القرآن من الهدي وسبيل النجاة، والتذكير برحمة الله ورأفته بخلقه.

والتحريض على الإنفاق في سبيل الله، وأن المال عرض زائل لا يبقى منه لصاحبه إلا ثواب ما انفق منه في مرضاة الله.

والتخلص إلى ما أعد الله للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة من خير وضد ذلك للمنافقين والمنافقات.

وتحذير المسلمين من الوقوع في مهواة قساوة القلب التي وقع فيها أهل الكتاب من قبلهم من إهمال ما جاءهم من الهدى حتى قست قلوبهم وجر ذلك إلى الفسوق كثيرا منهم.

والتذكير بالبعث.

والدعوة إلى قلة الاكتراث بالحياة الفانية.

والأمر بالصبر على النوائب والتنويه بحكمة إرسال الرسل والكتب لإقامة أمور الناس على العدل العام.

والإيماء إلى فضل الجهاد في سبيل الله.
وتنظير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام على أن في ذريتهما وهتدين وفاسقين.
وأن الله أتبعهما برسل آخرين منهم عيسى عليه السلام الذي كان آخر رسول أرسل بشرع قبل الإسلام، وأن أتباعه كانوا على سنة ن سبقهم، منهم مؤمن ومنهم كافر.
ثم أهاب بالمسلمين أن يخلصوا الإيمان تعريضا بالمنافقين ووعدهم بحسن العاقبة وأن الله فضلهم على الأمم لأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء.
)سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم[1](افتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه مؤذن بأن أهم ما اشتملت عليه إثبات وصف الله بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزه عما ضل في شأنه أهل الضلال من وصفه بما لا يليق بجلاله، وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية فإن الوحدانية هي أكبر صفة ضل في كنهها المشركون والمانوية ونحوهم من أهل التثنية وأصحاب التثليث والبراهمة، وهي الصفة التي ينبئ عنها اسمه العلم أعني)الله(لما علمت في تفسير الفاتحة من أن أصله الإله، أي المنفرد بالإلهية.

صفحة : 4293

وأتبع هذا الاسم بصفات ربانية تدل على كمال الله تعالى وتنزهه عن النقص كما يأتي بيانه فكانت هذه الفاتحة براعة استهلال لهذه السورة، ولذلك أتبع اسمه العلم بعشر صفات هي جامعة لصفات الكمال وهي: العزيز، الحكيم، له ملك السماوات والأرض، يحيي، ويميت، وهو على كل شيء قدير، وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيء عليم.
وصيغ فعل التسبيح بصيغة الماضي للدلالة على أن تنزيهه تعالى أمر مقرر أمر الله به عباده من قبل وألهمه الناس وأودع دلائله في أحوال ما لا اختيار له، كما دل عليه قوله تعالى)ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال(وقوله)وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم(.
ففي قوله)سبح(تعريض بالمشركين الذين أهملوا أهم التسبيح وهو تسبيحه عن الشريك والند.
واللام في قوله)لله(لام التبيين. وفائدتها زيادة بيان ارتباط المعمول بعامله لأن فعل التسبيح متعد بنفسه لا يحتاج إلى التعدية

بحرف، قال تعالى)فاسجد له وسبحه(، فاللام هنا نظيره اللام في قولهم: شكرت لك، ونصحت لك، وقوله تعالى)ونقدس لك(، وقولهم سقيا لك ورعيا لك، وأصله: سقيك ورعيك.

و)ما في السماوات والأرض(يعم الموجودات كلها فإن)ما(اسم موصول يعم العقلاء وغيرهم، أو هو خاص بغير العقلاء فجرى هنا على التغليب، وكلها دال على تنزيه الله تعالى عن الشريك فمنها دلالة بالقول كتسبيح الأنبياء والمؤمنين، ومنها دلالة بالفعل كتسبيح الملائكة، ومنها دلالة بشهادة الحال كما تنبئ به أحوال الموجودات من الافتقار إلى الصانع المنفرد بالتدبير، فإن جعل عموم)ما في السماوات والأرض(مخصوصا بمن يتأتى منهم النطق بالتسبيح وهم العقلاء كان إطلاق التسبيح على تسبيحهم حقيقة.

وإن حمل العموم على ظاهره لزم تأويل فعل)سبح(بما يشمل الحقيقة والمجاز فيكون مستعملا في حقيقته وجازه.

والعزيز: الذي لا يغلب، وهذا الوصف ينفي وجود الشريك في الإلهية.

و)الحكيم(الموصوف بالحكمة، وهي وضع الأفعال حيث يليق بها، وهي أيضا العلم الذي لا يخطئ ولا يتخلف ولا يحول دون تعلقه بالمعلومات حائل، وتقدما في سورة البقرة. وهذا الوصف يثبت أن أفعاله تعالى جارية على تهيئة المخلوقات لما به إصابة ما خلقت لأجله، فلذلك عززها الله بإرشاده بواسطة الشرائع.

)له ملك السماوات والأرض يحيي ويمت وهو على كل شيء قدير[2](استئناف ابتدائي بذكر صفة عظيمة من صفات الله التي متعلقها أحوال الكائنات في السماوات والأرض وخاصة أهل الإدراك منهم.

ومضمون هذه الجملة يؤذن بتعليل تسبيح الله تعالى لأن من له ملك العوالم العليا والعالم الدنيوي حقيق بأن يعرف الناس صفات كماله.

وأفاد تعريف المسند قصر المسند على المسند إليه وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداء بملك غيره في الأرض إذ هو ملك ناقص فإن الملوك مفترقون إلى من يدفع عنهم العوادي بالأحلاف والجند، وإلى من يدبر لهم نظام المملكة من وزراء وقواد، وإلى أخذ الجباية والجزية ونحو ذلك، أو هو قصر حقيقي، إذ اعتبرت إضافة) ملك(إلى مجموع)السماوات والأرض(فإنه لا ملك لمالك على الأرض كلها بله السماوات معها.

وهذا معنى صفة تعالى)الملك(، وتقدم في آخر سورة آل عمران.

وجملة)يحيي ويميت(بدل اشتمال من مضمون)له ملك السماوات والأرض(فإن الإحياء والإماتة ما يشتمل عليه معنى ملك السماوات والأرض لأنها من أحوال ما عليها، وتخصيص هذين بالذكر للاهتمام

بهما لدلالتهما على دقيق الحكمة في التصرف في السماء والأرض ولظهور هاذين الفعلين لا يستطيع المخلوق ادعاء أن لهم عملا فيهما، وللتذكير بدليل مكان البعث الذي جحده المشركون، وللتعريض بإبطال زعمهم إلهية أصنامهم كما قال تعالى)ولا يملكون موتا ولا حيا ولا نشورا(، ومن هذين الفعلين جاء وصفة تعالى بصفة)المحيي والمميت(.

وتقدم ذكر الإحياء والإماتة عند قوله تعالى)وكنتم أمواتا فأحياكم(في أول سورة البقرة.

صفحة : 4294

وجملة)وهو على كل شيء قدير(تفيد مفاد التذييل لجملة)يحيي ويميت(لتعميم ما دل عليه قوله)يحيي ويميت(من بيان جملة)له ملك السماوات والأرض(، وإنما عطفت بالواو وكان حق التذييل أن يكون مفصولا لقصد إيثار الإخبار عن الله تعالى بعموم القدرة على كل موجود، وذلك لا يفيت قصد التذييل، لأن التذييل يحصل بالمعنى.

)هو الأول والآخر والظاهر والباطن(استئناف في سياق تبيين أن له ملك السماوات والأرض، بأن ملكه دائم في عموم الأزمان وتصرف فيهما في كل الأحوال، إذ هو الأول الأزلي، وأنه مستمر من قبل وجود كل محدث ومن بعد فنائه إذ الله هو الباقي بعد فناء ما في السماوات والأرض وذلك يظهر من دلالة الآثار على المؤثر فإن دلائل تصرفه ظاهرة للمتبصر بالعقل وهو معنى)الظاهر(كما يأتي، وأن كيفيات تصرفاته محجوبة عن الحس وذلك معنى)الباطن(تعالى كما سيأتي.

فضمير)هو(ليس ضمير فصل ولكنه ضمير يعبر اسم الجلالة لاعتبارنا الجملة مستأنفة ولو جعلته ضمير فصل لكانت أوصاف) الأول والآخر والظاهر والباطن(أخبار عن ضمير)وهو العزيز الحكيم(.

وقد اشتملت هذه الجملة على أربعة أخبار هي صفات لله تعالى.

فأما وصف)الأول(فأصل معناه الذي حصل قبل غيره في حالة تبينها إضافة هذا الوصف إلى ما يدل على الحالة من زمان أو مكان، فقد يقع مع وصف)أول(لفظ يدل على الحالة التي كان فيها السبق، وقد يستدل على تلك الحالة من سياق الكلام، فوصف)الأول(لا يتبين معناه إلا بما يتصل به من الكلام ولا يتصور إلا بالنسبة إلى موصوف آخر وهو متأخر عن الموصوف ب)أول(في حالة ما.

فقول امرئ القيس:
ومهلهل الشعراء ذاك الأول يفيد أن مهلهل سابق غيره من الشعراء في الشعر، وقوله تعالى)قل أي أمرت أن أكون أول من أسلم(أي أولهم في أتباع الإسلام، وقوله)ولا تكونوا أول كافر به(، أي أولهم كفرا وقوله)وقالت أولاهم لأخراهم(، أي أولاهم في الدخول إلى النار.
وأشهر معاني الأولية هو السبق في الموجود، أي في ضد العدم، ألا ترى أن جميع الأحوال التي يسبق صاحبها غيره فيها هي وجودات من الكيفيات، فوصف الله بأنه)الأول(معناه: أنه السابق وجوده على كل موجود وجد أو سيوجد، دون تخصيص جنس ولا نوع ولا صنف، ولكنه وصف نسبي غير ذاتي.
ولهذا لم يذكر لهذا الوصف متعلق بكسر اللام ، ولا ما يدل على متعلق لأن المقصود أنه الأول بدون تقييد.
ويرادف هذا الوصف في اصطلاح المتكلمين صفة)القدم(.
واعلم أن هذا الوصف يستلزم صفة الغنى المطلق، وهي عدم الاحتياج إلى المخصص، أي مخصص يخصصه بالوجود بدلا من العدم، لأن الأول هنا معناه الموجود لذاته دون سبق عدم، وعدم الاحتياج إلى محل يقوم به قيام العرض بالجوهر.
ويستلزم ذلك انفراده تعالى بصفة الوجود لأنه لو كان غير الله واجبا وجوده لما كان الله موصوفا بالأولية، فالموجودات غير الله ممكنة، والممكن لا يتصف بالأولية المطلقة، فلذلك تثبت له الوحدانية، ثم هذه الأولية في الوجود تقتضي أن تثبت لله جميع صفات الكمال اقتضاء عقليا بطريق الالتزام البين بالمعنى الأعم وهو الذي من تصور ملزومه وتصوره الجزم بالملازمة بينهما(.
وأما وصف الآخر فهو ضد الأول، فأصله: هو المسبوق بموصوف بصفة متحدث عنها في الكلام أو مشار إليها فيه بما يذكر من متعلق به، أو تمييزه، على نحو ما تقدم في قوله)هو الأول(كقوله تعالى)حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم(أي أخراهم في الإدراك في النار، وقول النبي صلى الله عليه وسلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة... الخ، وقول الحريري في المقامة الثانية وجلس في أخريات الناس ، أي الجماعات الأخريات في الجلوس، وهو وصف نسبي.
ووصف الله تعالى بأنه)الآخر(بعد وصفه بأنه)الأول(مع كون الوصفين متضادين يقتضي انفكاك جهة الأولية والآخرية، فلما تقرر أن كونه الأول متعلق بوجود الموجودات اقتضى أن يكون وصفه ب)الآخر(متعلقا بانتقال ذلك الوجود، أي هو الآخر بعد جميع

الموجودات في السماء والأرض، وهو معنى قوله تعالى)يرث الأرض ومن عليها(وقوله)كل شيء هالك إلا وجهه(.

صفحة : 4295

فتقدير المعنى والآخر في ذلك أي في استمرار الوجود الذي تقرر بوصفه بأنه الأول. وليس في هذا إشعار بأنه زائل ينتابه العدم، إذ لا يشعر وصف الآخر بالزوال لا مطابقة ولا التزاما، وهذا هو صفة البقاء في اصطلاح المتكلمين. فآل معنى)الآخر(إلى معنى الباقي ، وإنما أوثر وصف)الآخر(بالذكر أنه مقتضى البلاغة ليتم الطباق بين الوصفين المتضادين، وقد علم عند المتكلمين أن البقاء غير مختص بالله تعالى وأنه لا ينافي الحدوث على خلاف في تعيين الحوادث الباقية، بخلاف وصف القدم بأنه مختص بالله تعالى ومتناف مع الحدوث.

واعلم أن في قوله)هو الأول والآخر(دلالة قصر من طريق تعريف جزئي الجملة.

فأما قصر الأولية على الله تعالى في صفة الوجود فظاهر، وأما قصر الآخرية عليه في ذلك وهو معنى البقاء، فإن أريد به البقاء في العالم الدنيوي عرض إشكال المتعارض بما ورد من بقاء الأرواح، وحديث أن عجب الذنب لا يفنى وأن الإنسان منه يعاد . ورفع هذا الإشكال أن يجعل القصر ادعائيا لعدم الاعتداد ببقاء غيره تعالى لأنه بقاء غير واجب بل هو بجعل الله تعالى.

والجمع بين وصفي)الأول والآخر(فيه محسن الطباق.

و)الظاهر(الأرجح أنه مشتق من الظهور الذي هو ضد الخفاء فيكون وصفه تعالى به مجازا عقليا، فإن إسناد الظهور في الحقيقة هو ظهور أدلة صفاته الذاتية لأهل النظر والاستدلال والتدبر في آيات العالم فيكون الوصف جامعا لصفته النفسية، وهي الوجود، إذ أدلة وجوده بينة واضحة ولصفاته الأخرى مما دل عليها فعلة من قدرة وعلم وحياة وإرادة، وصفات الأفعال من الخلق والرزق والإحياء والإماتة كما علمت في قوله)هو الأول(عن النقص أو ما دل عليها تنزيهه عن النقص كصفة الوحدانية والقدم والبقاء والغنى المطلق ومخالفة الحوادث، وهذا المعنى هو الذي يناسبه المقابلة بالباطل.

ويجوز أن يكون مشتقا من الظهور، أي الغلبة كالذي في قوله تعالى)إنهم إن يظهروا عليكم يرجمونكم(، فمعنى وصفه تعالى ب)الظاهر(أنه الغالب.

وهذا لا يناسب مقابلته ب)الباطن(إلا على اعتبار محسن الإيهام، وما وقع في حديث أبي هريرة في صحيح مسلم من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت الظاهر فليس فوقك شيء فمعنى فاء التفريع فيه أن ظهوره تعالى سبب في انتفاء أن يكون شيء فوق الله في الظهور، أي في دلالة الأدلة على وجوده واتصافه بصفات الكمال، فدلالة الفاء تفريع لا تفسير.

و)الباطن(الخفي يقال: بطن، إذا خفي ومصدره بطون.

ومعنى وصفه تعالى بباطن وصف ذاته وكنهه لأنه محجوب عن دراك الحواس الظاهرة قال تعالى)لا تدركه الأبصار(.

والقصر في قوله)الظاهر والباطن(قصر ادعائي لأن ظهور الله تعالى بالمعنيين ظهور لا يدانيه ظهور غيره، وبطونه تعالى لا يشبهه بطون الأشياء الخفية إذ لا مطمع لأحد في إدراك ذاته ولا في معرفة تفاصيل تصرفاته.

والجمع بين وصفه ب)الظاهر(بالمعنى الراجح و)الباطن(كالجمع بين وصفه ب)الأول والآخر(كما علمته آنفا. وفي الجمع بينهما محسن مطابقة.

وفائدة إجراء الوصفين المتضادين على اسم الله تعالى هنا التنبيه على عظم شأن الله تعالى ليتدبر العالمون في مواقعها واعلم أن الواوات الثلاثة الواقعة بين هذه الصفات الأربع متحدة المعنى تقتضي كل واحدة منها عطف صفة.

وقال الزمخشري: الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولية والآخرية. والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين اه. وهو التشبث لا داعي إليه ولا دليل عليه ولو أريد ذلك لقال: هو الأول الآخر، والظاهر الباطن، بحذف واوين. والمعنى الذي حاوله الزمخشري: تقتضيه معاني هاته الصفات بدون اختلاف معاني الواوات.

)وهو بكل شيء عليم[3](عطف على جملة)هو الأول والآخر(الخ عطفت صفة علمه على صفة ذاته، وتقدم نظير هذه الجملة في أوائل سورة البقرة.

)هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش(

موقع هذه الجملة استئناف كموقع جملة)هو الأول والآخر(الآية، فهذا استئناف ثان مفيد الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية ليقلعوا

عن الإشراك به. ويفيد أيضا بيانيا لمضمون جملة)له ملك السماوات والأرض(وجملة)وهو على كل شيء قدير(، فإن الذي خلق السماوات والأرض قادر على عظيم الإبداع.

والاستواء على العرش تمثيل للملك الذي في قوله)له ملك السماوات والأرض(.

وهذا معنى اسمه تعالى)الخالق(، وتقدم قريب من هذه الآية في أوائل سورة الأعراف.

)يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها(استئناف لتقرير عموم علمه تعالى بكل شيء فكان بيان جملة)وهو على كل شيء قدير(وجملة)وهو بكل شيء عليم(جاريا على طريقة النشر للف على الترتيب، وتقدم نظير هذه الآية في سورة سبأ فانظر ذلك.

)وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير[4](عطف معنى خاص على معنى شمله وغيره لقصد الاهتمام بالمعطوف.

والمعية تمثيل كنائي عن العلم بجميع أحواله.

و)أينما(ظرف مركب من)أين(وهي اسم للمكان، و)ما(الزائدة للدلالة على تعميم الأمكنة.

وجملة)والله بما تعملون بصير(تكملة لمضمون)وهو معكم أينما كنتم(، وكان حقها أن لا تعطف وإنما عطفت ترجيحا لجانب ما تحتوي عليه من الخبر عن هذه الصفة.

)له ملك السماوات والأرض(هذا تأكيد لنظيره الذي في أول هذه السورة كرر ليبنى عليه قوله)وإلى الله ترجع الأمور(، فكان ذكره في أول السورة مبنيا عليه التصرف في الموجودات القابلة للحياة والموت في الدنيا، وكان ذكره هنا مبنيا عليه أن أمور الموجودات كلها ترجع إلى تصرفه.

وتقديم المسند لقصر الإلهية عليه تعالى فيفيد صفة الواحد.

)وإلى الله ترجع الأمور[5](عطف على)له ملك السماوات والأرض(عطف الخاص من وجه على العام منه فيما يتعلق بالأمور الجارية في الدنيا، وعطف المغاير فيما يتعلق بالأمور التي تجري يوم القيامة على ما سيتضح في تفسير معنى)الأمور(.

فالأمور: جمع أمر، واشتهر في اللغة أن الأمر اسم للشأن والحادث فيعم الأفعال والأقوال.

وقال ابن عطية: الأمور هنا: جميع الموجودات لأن الأمر والشيء والموجود أسماء شائعة في جميع الموجودات: أعراضها وجواهرها اه. ولم أره لغيره. وفي المحصول وشرحه في أصول الفقه، ومن تبعه من كتب أصول الفقه أن)أمر(مشتركة بين الفعل والقول

والشأن والشيء. ولم أر عزو ذلك إلى معروف ولا أتوا له بمثال سالم عن النظر ولا أحسب أن ذلك من اللغة.
فإن أخذنا بالمشهور في اللغة كان المعنى ترجع أفعال الناس إلى الله، أي ترجع في الحشر، والمراد: رجوع أهلها للجزاء على أعمالهم إذ لا يتعلق الرجوع بحقائقها، فعطف قوله)وإلى الله ترجع الأمور(تتميم لجملة)له ملك السماوات والأرض(أي له ملك العوالم في الدنيا وله التصرف في أعمال العقلاء من أهلها في الآخرة.
وإذا أخذنا بشمول اسم الأمور للذوات كان مفيدا لإثبات البعث، أي الذوات التي كانت في الدنيا تصير إلى الله يوم القيامة فيجازيها على أعمالها.
وعلى كلا الاحتمالين فمفاده مفاد اسمه)المهيمن(.
وتعريف الجمع في)الأمور(من صيغ العموم.
وتقديم المجرور على متعلقه للاهتمام لا للقصر إذ لا مقتضى للقصر الحقيقي ولا داعي للقصر الإضافي إذ لا يوجد من الكفار من يثبت البعث ولا من زعموا أن الناس يصيرون في تصرف غير الله.
والرجوع: مستعار للكون في مكان غير المكان الذي كان فيه دون سبق مغادرة عن هذا المكان.
وإظهار اسم الجلالة دون أن يقول: وإليه ترجع الأمور، لتكون الجملة مستقلة بما دلت عليه فتكون كالمثل صالحة للتسيير.
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر) ترجع(بضم التاء وفتح الجيم على معنى يرجعها مرجع وهو الله قصرا. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف)ترجع(بفتح التاء وكسر الجيم، أي ترجع من تلقاء أنفسها لأنها مسخرة لذلك في آجالها.
)يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل(

صفحة : 4297

مناسبة ذكره هذه الجملة أن تقدير الليل والنهار وتعاقبهما من التصرفات الإلهية المشاهدة في أحوال السماوات والأرض وملابسات أحوال الإنسان، فهذه الجملة بدل اشتمال من جملة)له ملك السماوات والأرض(.
وهو أيضا مناسب لمضمون جملة)وإلى الله ترجع الأمور(تذكير للمشركين بأن المتصرف في سبب الفناء هو الله تعالى فأنهم يعتقدون أن الليل والنهار هما اللذان يفنيان الناس، قال الأعشى:
ألم تروا إرما وعادا أفناهما الليل
والنهار وحكى الله عنهم قولهم)وما يهلكنا إلا الدهر(فلما قال)له

ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور(، أبطل بعده اعتقاد أهل الشرك إن للزمان الذي هو تعاقب الليل والنهار والمعبر عنه بالدهر تصرفا فيهم، وهذا معنى اسمه تعالى)المدبر(.

)وهو عليم بذات الصدور[6](لما ذكر تصرف الله في الليل وكان الليل وقت إخفاء الأشياء أعقب ذكره بأن الله عليم بأخفى الخفايا وهي النوايا، فإنها مع كونها معاني غائبة عن الحواس كانت مكنونة في ظلمة باطن الإنسان فلا يطلع عليها عالم إلا الله تعالى، وهذا كقوله تعالى)وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض(، وقوله)إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون(.

)ذات الصدور(: ما في خواطر الناس من النوايا، ف)ذات(هنا مؤنث)ذو(بمعنى صاحبه.

والصحبة: هنا بمعنى الملازمة.

ولما أريد بالمفرد الجنس أضيف إلى)جمع(، وتقدم)إنه عليم بذات الصدور(في سورة الأنفال. وقد أشتمل هذا المقدار في أول السورة إلى هنا على معاني ست عشر صفة من أسماء الله الحسنى: وهي: الله، العزيز، الحكيم، الملك، المحيي، المميت، القدير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، الخالق، البصير، الواحد، المدبر.

وعن أبن عباس أن اسم الله الأعظم في ست آيات من أول سورة الحديد فهو يعنى مجموع هذه الأسماء. وأعلم أن ما تقدم من أول السورة إلى هنا يرجح أنه مكي.

)آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير[7](استئناف وقع موقع النتيجة بعد الاستدلال فإن أول السورة قرر خضوع الكائنات إلى الله تعالى وأنه تعالى المتصرف فيها بالإيجاد والإعدام وغير ذلك فهو القدير عليها، وأنه عليم بأحوالهم مطلع على ما تضمره ضمائرهم وأنهم صائرون إليه فمحاسبهم، فلا جرم تهيأ المقام لإبلاغهم التذكير بالإيمان به إيمانا لا يشوبه إشراك والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم إذ قد تبين صدقه بالدلائل الماضية التي دلت على صحة ما أخبرهم به مما كان محل ارتيابهم وتكذيبهم كما أشار إليه قوله)والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم(.

فذلك وجه عطف)ورسوله(على متعلق الإيمان مع أن الآيات السابقة ما ذكرت إلا دلائل صفات الله دون الرسول صلى الله عليه وسلم.

فالخطاب ب)آمنوا(للمشركين، والآية مكية حسب ما روي في إسلام عمر وهو الذي يلائم اتصال قوله)وما لكم لا تؤمنون بالله(الخ بها.

والمراد بالإنفاق المأمور به: الإنفاق الذي يدعوا إليه الإيمان بعد حصول الإيمان وهو الإنفاق على الفقير، وتخصيص الإنفاق بالذكر تنويه بشأنه، وقد كان أهل الجاهلية لا ينفقون إلا في اللذات، والمفاخرة والمقامرة، ومعاقرة الخمر، وقد وصفهم القرآن بذلك في مواضع كثيرة كقوله)إن كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين(وقوله)بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما(وقوله) ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر(إلى آخر السورة.

وقيل: نزلت في غزوة تبوك يعني الإنفاق لتجهيز جيش العسرة قال ابن عطية عن الضحاك، فتكون الآية مدنية ويكون قوله) آمنوا(أمرا بالدوام على الإيمان كقوله)يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله(.

صفحة : 4298

ويجوز أن أمرا لمن في نفوسهم بقية نفاق أو ارتياب، وأنهم قبضوا أيديهم عن تجهيز جيش العسرة كما قال تعالى)المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض(إلى قوله)ويقبضون أيديهم(، فهم إذا سمعوا الخطاب علموا أنهم المقصود على نحو ما في آيات سورة براءة، ولكن يظهر أن سنة غزوة تبوك لم يبق عندها من المنافقين عدد يعتد به فيوجه إليه خطاب كهذا.

وجيء بالموصول في قوله)مما جعلكم مستخلفين فيه(دون أن يقول)وأنفقوا من أموالكم أو مما رزقكم الله(لما في صلة الموصول من التنبيه على غفلة السامعين عن كون المال لله جعل الناس كالخلائف عنه في التصرف فيه مدة ما، فلما أمرهم بالإنفاق منها على عباده كان حقا عليهم أن يمتثلوا لذلك كما يتمثل الخازن أمر صاحب المال إذا أمره بإنفاذ شيء منه إلى من يعينه.

والسين والتاء في)مستخلفين(للمبالغة في حصول الفعل لا للطلب لاستفادة الطلب من فعل)جعلكم(. ويجوز أن تكون لتأكيد الطلب.

والفاء في قوله)فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير(تفريع وتسبب على الأمر بالإيمان والإنفاق لإفادة تعليله كأنه قيل لأن الذين آمنوا وأنفقوا أعددنا لهم أجرا كبيرا.

والمعنى على وجه كون الآية مكية: أن الذين آمنوا من بينكم وأنفقوا، أي سبقوكم بالإيمان والإنفاق لهم أجر كبير، أي فاغتنموه وتداركوا ما فاتوكم به.

و)من(للتبعيض، أي الذين آمنوا وهم بعض قومكم.
ويجوز أن يكون فعلا المضي في قوله)فالذين آمنوا منكم وأنفقوا(مستعملان في معنى المضارع للتنبيه على إيقاع ذلك.
)ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين(ظاهر استعمال أمثال قوله)وما لكم لا تؤمنون(أن يكون استفهاما مستعملا في التوبيخ والتعجيب، وهو الذي يناسب كون الأمر في قوله)آمنوا بالله ورسوله(مستعملا في الطلب لا في الدوام.
وتكون جملة)لا تؤمنون(حالا من الضمير المستتر في الكون المتعلق به الجار والمجرور كما تقول: ما لك قائما؟ بمعنى ما تحصل في حالة القيام. والتقدير: وما لكم كافرين بالله، أي ما حصل لكم في حالة عدم الإيمان.
وجملة)والرسول يدعوكم(حال ثانية، والواو واو الحال لا العطف، فهما حالان متداخلان. والمعنى: ماذا يمنعكم من الإيمان وقد بين لكم الرسول من آيات القرآن ما فيه بلاغ وحجة على أن الإيمان بالله حق فلا عذر لكم في عدم الإيمان بالله فقد جاءتكم بينات أحقيته فتعين أن إصراركم على عدم الإيمان مكابرة وعناد.
وعلى هذا الوجه فالميثاق المأخوذ عليهم هو ميثاق من الله، أي ما يماثل الميثاق من إيداع الإيمان بوجود الله وبوحدانيته في الفطرة البشرية فكأنه ميثاق قد أخذ على كل واحد من الناس في الأزل وشرط التكوين فهو ناموسي فطري. وهذا إشارة إلى قوله تعالى)وقد أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى(وقد تقدم في سورة الأعراف.
فضمير)أخذ(عائد إلى اسم الجلالة في قوله)وما لكم لا تؤمنون بالله(والمعنى: أن النفوس لو خلت عن العناد وعن التمويه وعن التضليل كانت منساقة إلى إدراك وجود الصانع ووحدانيته وقد جاءهم من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ما يكشف عنهم ما غشى على إدراكهم من دعاء أئمة الكفر والضلال.
وجملة)إن كنتم مؤمنين(مستأنفة، وجواب الشرط محذوف دل عليه قوله)والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم(.
واسم الفاعل في قوله)إن كنتم مؤمنين(مستعمل في المستقبل بقرينة وقوعه في سياق الشرط، أي فقد حصل ما يقتضي أن تؤمنوا من السبب الظاهر والسبب الخفي المرتكز في الجبلة.
ويرجح هذا المعنى أن ظاهر الأمر في قوله)آمنوا بالله ورسوله(أنه لطلب إيجاد الإيمان كما تقدم في تفسيرها وأن الآية مكية.

وقرأ الجمهور)أخذ(بالباء للفاعل ونصب)ميثاقكم(على أن الضمير عائد إلى اسم الجلالة، وقرأه أبو عمرو)أخذ(بالبناء للنائب ورفع) ميثاقكم(.
)هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم[9](

صفحة : 4299

استئناف ثالث انتقل به الخطاب إلى المؤمنين، فهذه الآية يظهر أنها مبدأ الآيات المدنية في هذه السورة ويزيد ذلك وضوحا عطف على قوله)وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله(الآيات كما سيأتي قريبا.
والخطاب هنا وإن كان صالحا لتقرير ما أفادته جملة)وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم(ولكن أسلوب النظم وما عطف على هذه الجملة يقتضيان أن تكون استئنافا انتقاليا هو من حسن التخلص إلى خطاب المسلمين، ولا تفوته الدلالة على تقرير ما قبله لأن التقرير يحصل من انتساب المعنيين: معنى الجملة السابقة، ومعنى هذه الجملة الموالية.
فهذه الجملة بموقعها ومعناها وعلتها وما عطف عليها أفادت بيانا وتأكيدا وتعليلا وتذييلا وتخلصا لغرض جديد، وهي أغراض جمعتها جمعا بلغ حد الإعجاز في الإيجاز، مع أن كل جملة منها مستقلة بمعنى عظيم من الاستدلال والتذكير والإرشاد والامتنان.
والرؤوف: من أمثلة المبالغة في الاتصال بالرأفة وهي كراهية إصابة الغير بضر.
والرحيم: من الرحمة وهي محبة إيصال الخير إلى الغير.
وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم)لرؤوف(بواو بعد الهمزة على اللغة المشهورة. وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بدون واو بعد الهمزة وهي لغة ولعلها تخفيف، قال جرير:
يرى للمسلمين عليه حـقـا كفعل
الوالد الرؤوف الرحيم وتأكيد الخبر ب)إن(واللام في قوله)وإن الله بكم لرؤوف رحيم(لأن المشركين في إعراضهم عن دعوة الإسلام قد حسبوها إساءة لهم ولآبائهم وآلهتهم، فقد قالوا)أهذا الذي بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها(. وهذا يرجح أن قوله تعالى)آمنوا بالله ورسوله(إلى هنا مكي. فإن كانت الآية مدنية فلأن المنافقين كانوا على تلك الحالة.

)وما لكم لا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض(الإنفاق في سبيل الله بمعناه المشهور وهو الإنفاق في عتاد الجهاد لم يكن إلا بعد الهجرة فإن سبيل الله غلب في القرآن إطلاقه على الجهاد ويؤيده قوله عقبه)لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح(، لأن الأصل أن يكون ذلك متصلا نزوله مع هذا ولو حمل الإنفاق على معنى الصدقات لكان مقتضيا أمه مدنية لأن الإنفاق بهذا المعنى لا يطلق إلا على الصدقة على المؤمنين فلا يلام المشركون على تركه.

وعليه فالخطاب موجه للمؤمنين، فقد أعيد الخطاب بلون غير الذي ابتدئ به.

ومن لطائفه أنه موجه إلى المنافقين الذين ظاهرهم أنهم مسلمون وهم في الباطن مشركون فهم الذين شحوا بالإنفاق.

ووجه إلحاق هذه الآية وهي مدنية بالمكي من السورة مناسبة استيعاب أحوال الممسكين عن الإنفاق من الكفار والمؤمنين تعريضا بالتحذير من خصال أهل الكفر إذ قد سبقها قوله)وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه.

و)ما(استفهامية مستعملة في اللوم والتوبيخ على عدم إنفاقهم في سبيل الله.

و)أن(مصدرية، والمصدر المنسبك منها والفعل المنصوب بها في محل جر باللام، أو ب)في(محذوف، والتقدير: ما حصل لكم في عدم إنفاقكم، أي ذلك الحاصل أمر منكر.

وعن الأخفش أن)أن(زائدة فيكون بمنزلة قوله)وما لكم لا تؤمنون بالله(. وليس نصبها الفعل الذي بعدها بمانع من اعتبارها زائدة لأن الحرف الزائد قد يعمل مثل حرف الجر الزائد، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)قالوا وما لنا لا نقاتل في سبيل الله(في سورة البقرة.

والواو في)ولله ميراث السماوات والأرض(واو الحال وهو حال من ضمير)تنفقوا(باعتبار أن عموم السماوات والأرض يشمل ما فيهما فيشمل المخاطبين فذلك العموم هو الرابط. والتقدير: لله ميراث ما في السماوات والأرض، ويشمل ميراثه إياكم.

والمعنى: إنكار عدم إنفاق أموالهم فيما دعاهم الله إلى الإنفاق فيه وهم سيهلكون ويتركون أموالهم لمن قدر الله مصيرها إليه فلو أنفقوا بعض أموالهم فيما أمرهم الله لنالوا رضى الله وانتفعوا بمال هو صائر إلى من يرثهم.

وإضافة ميراث إلى السماوات والأرض من إضافة المصدر إلى المفعول وهو على حذف مضاف، تقديره: أهلها، وليس المراد ميراث

ذات السماوات والأرض لأن ذلك إنما يحصل بعد انقراض الناس فلا يؤثر في المقصود من حثهم على الإنفاق.

صفحة : 4300

)لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير[10](استئناف بياني ناشئ عما يجول في خواطر كثير من السامعين من أنهم تأخروا عن الإنفاق غير ناوين تركه ولكنهم سيتداركونه.

وأدمج فيه تفضيل جهاد بعض المجاهدين على بعض لمناسبة كون الإنفاق في سبيل الله يشمل إنفاق المجاهد على نفسه في العدة والزاد وإنفاقه على غيره ممن لم يستكمل عدته ولا زاده، ولأن من المسلمين من يستطيع الجهاد ولا يستطيع الإنفاق، فأريد أن لا يغفل ذكره في عداد هذه الفضيلة إذ الإنفاق فيها وسيلة لها.

وظاهر لفظ الفتح أنه فتح مكة فإن هذا الجنس المعرف صار علما بالغلبة على فتح مكة، وهذا قول جمهور المفسرين.

وإنما كان المنفقون قبل الفتح والمجاهدون قبله أعظم درجة في إنفاقهم وجهادهم لأن الزمان الذي قبل فتح مكة كان زمان ضعف المسلمين لأن أهل الكفر كانوا أكثر العرب فلما فتحت مكة دخلت سائر قريش والعرب في الإسلام فكان الإنفاق والجهاد فيما قبل الفتح أشق على نفوس المسلمين لقلة ذات أيديهم وقلة جمعهم قبالة جمع العدو، ألا ترى أنه كان عليهم أن يثبتوا أمام العدو إذا كان عدد العدو عشرة أضعاف عدد المسلمين في القتال قال تعالى)إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين(.

وقيل المراد بالفتح: صلح الحديبية، وهذا قول أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والزهري، والشعبي، وعامر بن سعد بن أبي وقاص، واختاره الطبري. ويؤيد ما رواه الطبري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية عام الحديبية وهو الملائم لكون هذه السورة بعضها مكي وبعضها مدني فيقتضي أن مدنيها قريب عهد من مدة إقامتهم بمكة، وإطلاق الفتح على صلح الحديبية وارد في قوله تعالى)إنا فتحنا لك فتحا مبينا(.

و)من أنفق(عام يشمل كل من أنفق. وقيل: أريد به أبو بكر الصديق فإنه أنفق ماله كله من أول ظهور الإسلام.

ونفي التسوية مراد به نفيها في الفضيلة والثواب فإن نفي التسوية في وصف يقتضي ثبوت أصل ذلك الوصف لجميع من نفيت

عنهم التسوية، فنفي التسوية كناية عن تفضيل أحد جانبين وتنقيص الجانب الآخر نقصا متفاوتا.
ويعرف الجانب الفاضل والجانب المفضول بالقرينة أو التصريح في الكلام، وليس تقديم أحد الجانبين في الذكر بعد نفي التسوية بمقتض أنه هو المفضل فقد قال الله تعالى)لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم(وقدم هذه الآية الجانب المفضل، وكذا الذي في قول السموأل:
فليس سواء عالم وجهول وقد أكد هذا الاقتضاء بقوله)أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا(، أي أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا من بعد الفتح، فإن اسم التفضيل يدل على المشاركة فيما اشتق منه اسم التفضيل وزيادة من أخبر عنه باسم التفضيل في الوصف المشتق منه، أي فكلا الفريقين له درجة عظيمة.
وحذف قسم من أنفق من قبل الفتح إيجازا لدلال فعل التسوية عليه لا محالة. والتقدير: لا يستوي من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق بعده.
والدرجة: مستعارة للفضل لأن الدرجة تستلزم الارتقاء، فوصف الارتقاء ملاحظة فيها، ثم يشبه الفضل والشرف بالارتقاء فعبر عنه بالدرجة، فالدرجة من أسماء الأجناس التي لوحظت فيها صفات أوصاف مثل اسم الأسد بصفة الشجاعة في قول الخارجي:
أسد علي وفي الحروب نعامة وقوله)وكلا وعد الله الحسنى(احتراس من أن يتوهم أن اسم التفضيل مسلوب المفاضلة للمبالغة مثل ما في قوله)قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه(، أي حبيب إلي دون ما يدعونني إليه من المعصية.
وعبر ب)الحسنى(لبيان أن الدرجة هي درجة الحسنى ليكون للاحتراس معنى زائد على التأكيد وهو ما فيه من البيان.
والحسنى: لقب قرآني إسلامي يدل على خيرات الآخرة، قال تعالى)للذين أحسنوا الحسنى وزيادة(.
وقوله)منكم(حال من)من أنفق(أصله نعت قدم للاهتمام تعجيلا بهذا الوصف.

صفحة : 4301

وجيء باسم الإشارة في قوله)أولئك أعظم درجة(دون الضمير لما تؤذن به الإشارة من التنويه والتعظيم، وللتنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما يذكر بعد اسم الإشارة، لأجل ما ذكر قبله من

الإخبار ومثله قوله)أولئك على هدى من ربهم(بعد قوله)هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب(الخ.
وقرأ الجمهور)وكلا وعد الله الحسنى(بنصب)كلا(على أنه مفعول أول مقدم على فعله على طريقة الاشتغال بالضمير المحذوف اختصارا. وقرأ ابن عامر بالرفع على الابتداء وهما وجهان في الاشتغال متساويان.
وهذه الآية أصل في تفاضل أهل الفضل فيما فضلوا فيه، وأن الفضل ثابت للذين أسلموا بعد الفتح من أهل مكة وغيرهم. وبئس ما يقوله بعض المؤرخين من عبارات تؤذن بتنقيص من أسلموا بعد الفتح من قريش مثل كلمة)الطلقاء(وإنما ذلك من أجل حزازات في النفوس قبلية أو حزبية، والله يقول)ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون(.
وجملة)والله بما تعملون خبير(تذييل، والواو اعتراضية، والمعنى: أن الله يعلم أسباب الإنفاق وأوقاته وأعذاره، ويعلم أحوال الجهاد ونوايا المجاهدين فيعطي كل عامل على نية عمله.
)من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم[11](موقع هذه الجملة موقع التعليل والبيان لجملة)وكلا وعد الله الحسنى(.
وما بينهما اعتراض، والمعنى: أن مثل المنفق في سبيل الله كمثل من يقرض الله ومثل الله تعالى في جزائه كمثل المستسلف مع من أحسن قرضه وأحسن في دفعه إليه.
و)من(استفهامية كما هو شأنها إذا دخلت على اسم الإشارة والموصول و)الذي يقرض(خبرها، و)ذا(معترضة لاستحضار حال المقترض بمنزلة الشخص الحاضر القريب.
وعن الفراء:)ذا(صلة، أي زائدة لمجرد التأكيد مثل ما قاله كثير من النحاة: إن)ذا(في)ماذا(ملغاة، قال الفراء: رأيتها في مصحف عبد الله)منذا الذي(والنون موصولة بالذال اه.
والاستفهام مستعمل في معنى التحريض مجازا لأن شأن المحرض على الفعل أن يبحث عمن يفعله ويتطلب تعيينه لينوطه به أو يجازيه عليه.
والقرض الحسن: هو القرض المستكمل محاسن نوعه من كونه عن طيب نفس وبشاشة في وجه المستقرض، وخلو عن كل ما يعرض بالمنة أو بتضييق أجل القضاء. والمشبه هنا بالقرض الحسن هو الإنفاق في سبيل الله المنهي عن تركه في قوله)وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله(.

وقرأ الجمهور)فيضاعفه(بألف بعد الضاد. وقرأه ابن كثير وابن عامر ويعقوب)فيضعفه(بدون ألف وبتشديد العين.
والفاء في جملة)فيضاعفه له(فاء السببية لأن المضاعفة مسببة على القرض. وقرأ الجمهور فعل)يضاعفه(مرفوعا على اعتباره معطوفا على)يقرض(.
والمعنى: التحريض على الإقراض وتحصيل المضاعفة لأن الإقراض سبب المضاعفة فالعمل لحصول الإقراض كأنه عمل لحصول المضاعفة.
أو على اعتبار مبتدأ محذوف لتكون الجملة اسمية في التقدير فيقع الخبر الفعلي بعد المبتدأ مفيدا تقوية الخبر وتأكيد حصوله، واعتبار هذه الجملة جوابا ل)من(الموصولة بإشراب الموصول معنى الشرط وهو إشراب كثير في القرآن.
وقرأه حفص عن عاصم وأبن عامر ويعقوب)كل على قراءته(بالنصب على جواب الاستفهام.
ومعنى)وله أجر كريم(: أن له أنفس جنس الأجور لأن الكريم في كل شيء هو النفيس، كما تقدم في قوله تعالى)إني ألقي إلي كتاب كريم(في سورة النمل . وجعل الأجر الكريم مقابل القرض الحسن فقوبل بهذا موصوف وصفته بمثلها. والمضاعفة: مماثلة الأقدار، فالمعنى: يعطيه مثلي قرضه.
والمراد هنا مضاعفته أضعافا كثيرة كما قال)مثل الذين ينفقونأموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل(الآية في سورة البقرة.
وقال)من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة(وضمير النصب في)يضاعفه(عائد إلى القرض الحسن، والكلام على حذف مضاف تقديره: فيضاعف جزاءه له. لأن القرض هنا تمثيل بحال السلف المتعارف بين الناس فيكون تضعيفه مثل تضعيف مال السلف وذلك قبل تحريم الربا.

صفحة : 4302

والأجر: ما زاد على قضاء القرض من عطية يسديها المستلف إلى من سلفه عندما يجد سعة، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيركم أحسنكم قضاء ، وقال تعالى)وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما(.
والظاهر أن هذا الأجر هو المغفرة كما في قوله تعالى)إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم(

في سورة التغابن. وهذا يشمل الإنفاق في الصدقات قال تعالى)إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم(، وهو ما فسره قول النبي صلى الله عليه وسلم والصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار ، أي زيادة على مضاعفتها مثل الحسنات كلها.

)يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم[12](لما كان معلوما أن مضاعفة الثواب وإعطاء الأجر يكون في يوم الجزاء، ترجح أن يكون قوله)يوم ترى المؤمنين(منصوبا بفعل محذوف تقديره: اذكر تنويها بما يحصل في ذلك اليوم من ثواب للمؤمنين والمؤمنات ومن حرمان للمنافقين والمنافقات، ولذلك كرر)يوم(ليختص كل فريق بذكر ما هو من شؤونه في ذلك اليوم.

وعلى هذا فالجملة متصلة بالتي قبلها بسبب هذا التعلق، على أنه في نظم الكلام يصح جعله ظرفا متعلقا ب)يضاعفه له وله أجر كريم(على طريقة التخلص لذكر ما يجري في ذلك اليوم من الخيرات لأهلها ومن الشر لأهله.

وعلى الوجه الأول فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لمناسبة ذكر أجر المنفقين فعقب بيان بعض مزايا المؤمنين، وعلى الوجه الثاني فهي متصلة بالتي قبلها بسبب التعلق.

والخطاب في)ترى(لغير معين ليكون على منوال المخاطبات التي قبله، أي يوم يرى المرائي، والرؤية بصرية، و)يوم(مبني على الفتح لأنه أضيف إلى جملة فعلية، ويجوز كونها فتحة إعراب لأن المضاف إلى المضارع يجوز فيه الوجهان.

ووجه عطف)المؤمنات(على)المؤمنين(هنا، وفي نظائره من القرآن المدني التنبيه على أن حظوظ النساء في هذا الدين مساوية حظوظ الرجال إلا فيما خصصن به من أحكام قليلة لها أدلتها الخاصة وذلك لإبطال ما عند اليهود من وضع النساء في حالة ملعونات ومحرومات من معظم الطاعات.

وقد بينا شيئا من ذلك عند قوله تعالى)والأنثى بالأنثى(في سورة البقرة.

والنور المذكور هنا نور حقيقي يجعله الله في مسيرهم من مكان الحشر إكراما لهم وتنويها بهم في ذلك المحشر.

والمعنى: يسعى نورهم حين يسعون، فحذف ذلك لأن النور إنما يسعى إذا سعى صاحبه وإلا لانفصل عنه وتركه.

وإضافة)نور(إلى ضميرهم وجعل مكانه من بين أيديهم وبأيمانهم يبين أنه نور لذواتهم أكرموا به.

وانظر معنى هذه الإضافة لضميرهم ، وما في قوله)يسعى(من الاستعارة، ووجه تخصيص النور بالجهة الأمام وبالأيمان كل ذلك في سورة التحريم.
والباء في)وبأيمانهم(بمعنى)عن(واقتصر على ذكر الأيمان تشريفا لها وهو من الاكتفاء، أي وبجانبيهم.
ويجوز أن يكون الباء للملابسة، ويكون النور الملابس لليمين نور كتاب الحسنات كما قال تعالى)فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا(فإن كتاب الحسنات هدى فيكون لفظ) النور(قد استعمل في معنييه الحقيقي والمجازي وهو الهدى والبركة.
قال ابن عطية: ومن هذه الآية انتزع حمل المعتق للشمعة اه.
لعله يشير إلى عادة كانت مألوفة عندهم أن يجعلوا بيد العبد الذي يعتقونه شمعة مشتعلة يحملها ساعة عتقه ولم أقف على هذا في كلام غيره .
والبشرى: اسم مصدر بشر وهي الإخبار بخبر يسر المخبر، وأطلق المصدر على المفعول وهو إطلاق كثير مثل الخلق بمعنى المخلوق، أي الذي تبشرون به جنات، والكلام على حذف مضافين تقديرهما: إعلام بدخول جنات كما دل عليه قوله)خالدين فيها(.
وجملة)بشراكم(إلى آخرها مقول قوله محذوف، والتقدير: يقال لهم، أي يقال من جانب القدس، تقوله الملائكة، أو يسمعون كلاما يخلقه الله يعلمون أنه من جانب القدس.

صفحة : 4303

وجملة)ذلك هو الفوز العظيم(يحتمل أن يكون من بقية الكلام المحكي بالقول المبشر به، ويحتمل أن يكون من الحكاية التي حكيت في القرآن، على الاحتمالين فالجملة تذييل تدل على مجموع محاسن ما وقعت به البشرى. واسم الإشارة للتعظيم والتنبيه، وضمير الفصل لتقوية الخبر.
)يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب[13] ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور[14]( )يوم يقول(بدل من)يوم ترى المؤمنين(بدلا مطابقا إذا اليوم هو عين اليوم المعرف بقوله)يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم(.
والقول في فتحة)يوم(تقدم في نظره قريبا.

وعطف)المنافقات(على)المنافقون(كعطف)المؤمنات(على) المؤمنين(في الآية قبل هذه.
والذين آمنوا تغليب للذكور لأن المخاطبين هم أصحاب النور وهو للمؤمنين والمؤمنات.
و)انظرونا(بهمزة وصل مضموما، من نظره، إذ انتظره مثل نظر، إذا أبصر، إلا أن نظر بمعنى الانتظار يتعدى إلى المفعول، ونظر بمعنى أبصر يتعدى بحرف)إلى(قال تعالى)وانظر إلى العظام كيف ننشزها(.
الانتظار: التريث بفعل ما، أي تريثوا في سيركم حتى نلحق بكم فنستضيء بالنور الذي بين أيديكم وبجانبكم وذلك يقتضي أن الله يأذن للمؤمنين الأولين بالسير إلى الجنة فوجا، ويجعل المنافقين الذين كانوا بينهم في المدينة سائرين وراءهم كما ورد في حديث الشفاعة وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها والمعنى: أنهم يسيرون في ظلمات فيسأل المنافقون المؤمنين أن ينتظروهم.
وقرأ الجمهور)انظرونا(بهمزة وصل وضم الظاء، وقرأه حمزة وحده بهمزة قطع وكسر الظاء، من أنظره، إذا أمهله، أي أمهلونا حتى نلحق بكم ولا تعجلوا السير فينأى نوركم عنا وهم يحسبون أن بعدهم عنهم من جراء السرعة.
والاقتباس حقيقته: أخذ القبس بفتحتين وهو الجذوة من الحمر. قال أبو علي الفارسي: ومجيء فعلت وافتعلت بمعنى واحد كثير كقولهم: شويت واشتويت، وحقرت واحتقرت، قلت: وكذلك حفرت واحتفرت، فيجوز أن يكون إطلاق تقتبس هنا حقيقة بأن يكونوا ظنوا أن النور الذي كان مع المؤمنين نور شعلة وحسبوا أنهم يستطيعون أن يأخذوا قبسا منه يلقى ذلك في ظنهم لتكون خيبتهم أشد حسرة عليهم.
ويجوز أن يستعار الاقتباس لانتفاع أحد بضوء آخر لأنه يشبه الاقتباس في الانتفاع بالضوء بون علاج فمعنى)نقتبس من نوركم(نصب منه ونلتحق به فنستنر به.
ويظهر من إسناد)قيل(بصيغة المجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين.
وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكما إذ لا نور وراءهم وإنما أرادوا إطماعهم ثم تخييبهم بضرب السور بينهم وبين المؤمنين، لأن الخيبة بعد الطمع اشد حسرة. وهذا استهزاء كان جزاء على استهزائهم بالمؤمنين واستسخارهم بهم، فهو من معنى قوله تعالى) الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم(.

و)وراءكم(: تأكيد لمعنى)ارجعوا(إذ الرجوع يستلزم الوراء، وهذا كما يقال: رجع القهقري. ويجوز أن يكون ظرفا لفعل)التمسوا نورا(، أي في المكان الذي خلفكم.

وتقديمه على عامله للاهتمام فيكون فيه معنى الإغراء بالتماس النور هناك وهو أشد في الإطماع، لأنه يوهم أن النور يتناول من ذلك المكان الذي صدر منه المؤمنون، وبذلك الإيهام لا يكون الكلام كذبا لأنه من المعاريض لا سيما مع احتمال أن يكون)وراءكم(تأكيدا لمعنى)ارجعوا(.

وضمير)بينهم(عائد إلى المؤمنين والمنافقين.

وضرب السور: وضعه، يقال: ضرب خيمة، قال عبدة بن الطيب:

إن التي ضربت بيتا مهاجـرة بكوفة الجند غالت ودها الغول

صفحة : 4304

وضمن)ضرب(في الآية معنى الحجز فعدي بالباء، أي ضرب بينهم سور للحجز به بين المنافقين والمؤمنين، خلقه الله ساعتئذ قطعا لأطماعهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، فحق بذلك التمثيل الذي مثل الله به حالهم في الدنيا بقوله)مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون(في سورة البقرة. وأن الحيرة وعدم رؤية لمصير عذاب أليم.

ولعل ضرب السور بينهم وجعل العذاب بظاهره والنعيم بباطنه قصد منه التمثيل لهم بأن الفاصل بين النعيم والعذاب هو العمال في الدنيا وأن الأعمال التي يعملها الناس في الدنيا منها ما يفضي بعامله إلى النعيم ومنها ما يفضي بصاحبه إلى العذاب فأحد طرفي السور مثال لأحد العملين وطرفه الآخر مثال لضده. و)الباب(واحد وهو الموت، وهو الذي يسلك بالناس إلى أحد الجانبين.

ولعل جعل الباب في سور واحد فيه مع ذلك ليمر منه أفواج المؤمنين الخالصين من وجود منافقين بينهم بمرأى من المنافقين لمحبوسين وراء ذلك السور تنكيلا بهم وحسرة حين يشاهدون أفواج المؤمنين يفتح لهم الباب الذي في السور ليجتازوا منه إلى النعيم الذي بباطن السور.

وركب القصاصون على هذه الآية تأويلات موضوعة في فضائل بلاد القدس بفلسطين عزوها إلى كعب الأحبار فسموا بعض أبواب مدينة القدس باب الرحمة، وسموا مكانا منها وادي جهنم، وهو خارج سور بلاد القدس، ثم ركبوا تأويل الآية عليها وهي أوهام على أوهام.

واعلم أن هذه السور المذكورة في هذه الآية غير الحجاب الذي ذكر في سورة الأعراف.
وضمائر)له باب(و)باطنه(و)ظاهره(عائد إلى السور، والجملتان صفتان ل)سور(. وإنما عطفت الجملة الثالثة بالواو لأن المقصود من الصفة مجموع الجملتين المتعاطفتين كقوله تعالى)ثيبات وأبكارا(.
والباطن: هو داخل الشيء، والظاهر: خارجه.
فالباطن: هو داخل السور الحاجز بين المسلمين والمنافقين وهو مكان المسلمين.
والبطون والظهور هنا نسبيان، أي باعتبار مكان المسلمين ومكان المنافقين، فالظاهر هو الجهة التي نحو المنافقين، أي ضرب بينهم بسور بشاهد من المنافقون العذاب من ظاهره الذي يواجههم، وأن الرحمة وراء ما يليهم.
و)قبل(بكسر ففتح، الجهة المقابلة، وقوله)من قبله(خبر مقدم، و)العذاب(مبتدأ والجملة برمتها خبر عن)ظاهره(.
و)من(بمعنى)في(كالتي في قوله تعالى)إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة(فتكون نظير قوله)باطنه فيه الرحمة(.
والعذاب: هو حرق جهنم فإن جهنم دار عذاب، قال تعالى)إن عذابها كان غراما(.
وجملة)ينادونهم(حال من)يقول المنافقون والمنافقات(.
وضمائر)ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى(تعرف مراجعها مما تقدم من قوله)يوم يقول المنافقون والمنافقات(الآية.
و)ألم نكن معكم(استفهام تقريري، استعمل كناية عن طلب اللحاق بهم والانضمام إليهم كما كانوا معهم في الدنيا يعملون أعمال الإسلام من المسلمين.
والمعية أطلقت على المشاركة في أعمال الإسلام من نطق بكلمة الإسلام وإقامة عبادات الإسلام، توهموا أن المعاملة في الآخرة تجري كما تجري المعاملة في الدنيا على حسب صور العمال، وما دروا أن الصور مكملات وان قوامها إخلاص الإيمان وهذا الجواب إقرار بأن المنافقين كانوا يعملون أعمالهم معهم.
ولما كان هذا الإقرار يوهم أنه قول بموجب الاستفهام التقريري أعقبوا جوابهم الإقراري بالاستدراك الرافع لما توهمه المنافقون من أن الموافقة للمؤمنين في أعمال الإسلام تكفي في التحاقهم بهم في نعيم الجنة فبينوا لهم أسباب التباعد بينهم بأن باطنهم كان مخلفا لظاهرهم.
وذكروا لهم أربعة أصول هي أسباب الخسران، وهي: فتنة أنفسهم، والتربص بالمؤمنين، والارتياب في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، والاغترار بما تموه إليهم أنفسهم.

وهذه الأربعة هي أصول الخصال المتفرعة على النفاق.
الأول: فتنتهم أنفسهم، أي عدم قرار ضمائرهم على الإسلام، فهم في ريبهم يترددون، فكأن الاضطراب وعدم الاستقرار خلق لهم فإذا خطرت في أنفسهم خواطر خير من إيمان ومحبة للمؤمنين نقضوها بخواطر الكفر والبغضاء، وهذا من صنع أنفسهم فإسناد الفتن إليهم إسناد حقيقي، وكذلك الحال في أعمالهم من صلاة وصدقة.

صفحة : 4305

وهذا ينشأ عن الكذب، والخداع، والاستهزاء، والطعن في المسلمين، قال تعالى)يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به(.
الثاني: التربص، والتربص: انتظار شيء، وتقدم في قوله تعالى) والمطلقات يتربصن بأنفسهن(الآية.
ويتعدى فعله إلى المفعول بنفسه ويتعلق به ما زاد على المفعول بالباء. وحذف هنا مفعوله ومتعلقه ليشمل عدة الأمور التي ينتظرها المنافقون في شأن المؤمنين وهي كثيرة مرجعها إلى أذى المؤمنين والإضرار بهم فيتربصون هزيمة المسلمين في الغزوات ونحوها من الأحداث، قال تعالى في بعضهم)ويتربص بكم الدوائر(ويتربصون انقسام المؤمنين فقد قالوا لفريق من الأنصار يندمونهم على من قتل من قومهم في بعض الغزوات)لو أطاعونا ما قتلوا(.
الثالث: الارتياب في الدين وهو الشك في الاعتماد على أهل الإسلام أو على الكافرين وينشأ عنه القعود عن الجهاد قال تعالى) فهم في ريبهم يترددون(ولذلك كانوا لا يؤمنون بالآجال، وقالوا لإخوانهم)لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا(.
الرابع: الغرور بالأماني، وهي جمع أمنية وهي اسم التمني. والمراد بها ما كانوا يمنون به أنفسهم من أنهم على الحق وأن انتصار المؤمنين عرض زائل، وأن الحوادث تجري على رغبتهم وهواهم، ومن ذلك قولهم)ليخرجن الأعز منها الأذل(وقولهم)لو نعلم قتالا لاتبعناكم(ولذلك يحسبون أن العاقبة لهم)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا(. وقد بينت الخصال التي تتولد على النفاق في تفسير سورة البقرة فطبق عليه هذه الأصول الأربعة وألحق فروع بعضها ببعض.
والمقصود من الغاية ب)حتى جاء أمر الله(التنديد عليهم بأنهم لم يرعووا عن غيهم مع طول مدة أعمارهم وتعاقب السنين عليهم وهم لم يتدبروا في العواقب، كما قال تعالى)أولم نعمركم ما

يتذكر فيه من تذكر(وإسناد التغيير الأماني مجاز عقلي لأن الأماني والطمع في حصولها سبب غرورهم وملابسه.
ومجيء أمر الله هو الموت، أي حتى يتم على تلك الحالة السيئة ولم تقلعوا عنها بالإيمان الحق.
والغاية معترضة بين الجملتين المتعاطفتين، ومن حق المؤمن أن يعتبر بما تضمنه قوله تعالى)وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله(الآية، فلا يماطل التوبة ولا يقول: غدا غدا.
وجملة)وغركم بالله الغرور(عطف على جملة)وغرتكم الأماني(تحقيرا لغرورهم وأمانيهم بأنها من كيد الشيطان ليزدادوا حسرة حينئذ.
والغرور: بفتح الغين مبالغة في المتصف بالتغرير، والمراد به الشيطان، أي بإلقائه خواطر النفاق في نفوسهم بتلوينه بلون الحق وإرضاء دين الكفر الذي يزعمون أنه رضي الله)وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم(.
ويجوز أن يراد جنس الغارين، أي وغركم بالله أئمة الكفر وقادة النفاق.
والتغرير: إظهار الضار في صورة النافع بتمويه وسفسطة.
والباء في قوله)بالله(للسببية أو للآلة المجازية، أي جعل الشيطان شأن الله سببا لغروركم بأن خيل إليكم أن الحفاظ على الكفر مرضي لله تعالى وأن النفاق حافظتم به على دينكم وحافظتم به نفوسكم وكرامة قومكم واطلعتم به على أحوال عدوكم.
وهذا كله معلوم عندهم قد شاهدوا دلائله فمن أجل ذلك فرعوا لهم عليه قولهم)فاليوم لا يؤخذ منكم فدية(، قطعا لطمعهم أن يكونوا مع المؤمنين يومئذ كما كانوا معهم في الحياة.
)فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير[15](يجوز أن يكون هذا الكلام من تتمة خطاب المؤمنين للمنافقين استمرار في التوبيخ والتنديم. وهذا ما جرى عليه المفسرون، فموقع فاء التفريع بين والعلم للمؤمنين بأن لا تؤخذ فدية من المنافقين والذين كفروا حاصل مما يسمعون في ذلك اليوم من الأقضية الإلهية بين الخلق بحيث صار معلوما لأهل المحشر، أو هو علم متقرر في نفوسهم مما علموه في الدنيا من أخبار القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم وذلك موجب عطف)ولا من الذين كفروا(تعبيرا عما علموه بأسره وهو عطف معترض جرته المناسبة.

ويجوز أن يكون كلاما صادرا من جانب الله تعالى للمنافقين تأييسا لهم من الطمع في نوال حظ من نور المؤمنين، فيكون الفاء من عطف التلقين عاطفة كلام أحد على كلام غيره لأجل اتحاد مكان المخاطبة على نحو قوله تعالى قال)ومن ذريتي(.

ويكون عطف)ولا من الذين كفروا(جمعا للفريقين في توبيخ وتنديم واحد لاتحادهما في الكفر.

وإقحام كلمة)فاليوم(لتذكيرهم بما كانوا يضمرونه في الدنيا حين ينفقون مع المؤمنين رياء وتقية. وهو ما حاكاه الله عنهم بقوله) ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر(.

وقرأ الجمهور)لا يؤخذ(بياء الغائب المذكر لأن تأنيث)فدية(غير حقيقي، وقد فصل بين الفعل وفاعلو بالظرف فحصل مسوغان لترك اقتران الفعل بعلامة المؤنث. وقرأه ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بمثناة فوقية جريا على تأنيث الفاعل في اللفظ، والقراءتان سواء.

وكني ينفي أخذ الفدية عن تحقق جزاؤهم على الكفر، وإلا فإنهم لم يبذلوا فدية، ولا كان النفاق من أنواع الفدية ولكن الكلام جرى على الكناية لما هو مشهور من أن الأسير والجاني قد يتخلصان من المؤاخذة بفدية تبذل عنهما.

فعطف)ولا من الذين كفروا(قصد منه تعليل أن لا محيص لهم من عذاب الكفر، مثل الذين كفروا، أي الذين أعلنوا الكفر حتى كان حالة يعرفون بها. وهذا يقتضي أن المنافقين كانوا هم والكافرون في صعيد واحد عند أبواب جهنم، ففيه احتراس من أن يتوهم الكافرون الصرحاء من ضمير)لا يؤخذ منكم فدية(إن ذلك حكم خاص بالمنافقين تعلقا بأقل طمع، فليس ذكر)ولا من الذين كفروا(مجرد استطراد.

والمأوى: المكان الذي يؤوى إليه، أي يصار إليه ويرجع، وكني به عن الاستمرار والخلود.

وأكد ذلك بالصريح بجملة)مأواكم النار هي مولاكم(أي ترجعون إليها كما يرجع المستنصر إلى مولاه لينصره أو يفادي عنه، فاستعير المولى للمقر على طريقة التهكم.

ويجوز مع ذلك أن يجعل المولى اسم مكان الولي، وهو القرب والدنو، أي مقركم، كقول لبيد:

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها أي مكان المخافة ومقرها.

و)بئس المصير(تذييل يشمل جميع ما يصيرون إليه من العذاب. وقد يحصل العلم للمؤمنين بما أجابوا به أهل النفاق لأنهم صاروا إلى دار الحقائق.

)ألم يأن للذين أمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون[16](قد علم من صدر تفسير هذه السورة أن هذه الآية نزلت بمكة سنة أربع أو خمس من البعثة رواه مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود أنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية)ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله(إلى)وكثير منهم فاسقون(إلا أربع سنين.

والمقصود من)الذين آمنوا(: إما بعض منهم ربما كانوا مقصرين عن جمهور المؤمنين يومئذ بمكة فأراد الله إيقاظ قلوبهم بهذا الكلام المجمل على عادة القرآن وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم في التعريض مثل قوله ما بال أقوام يفعلون كذا وقوله تعالى)وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يضنون بالله غير الحق ظن الجاهلية(. وليس ما قاله ابن مسعود مقتضيا أن مثله من أولئك الذين ذكرهم الله بهذه الآية ولكنه يخشى منهم حذرا وحيطة.

فالمراد)بالذين آمنوا(المؤمنون حقا من يظهرون الإيمان من المنافقين إذ لم يكن في المسلمين بمكة منافقون ولا كان داع إلى نفاق بعضهم. وعن ابن مسعود لما نزلت جعل بعضنا ينظر إلى بعض ويقول: ما أحدثنا .

وإما أن يكون تحريضا للمؤمنين على مراقبة ذلك والحذر من التقصير.

والهمزة في)ألم يأن(للاستفهام وهو استفهام مستعمل في الإنكار، أي إنكار نفي اقتراب وقت فاعل الفعل.

صفحة : 4307

ويجوز أن يكون الاستفهام للتقرير على النفي، وفعل)يأن(مشتق من اسم جامد وهو الإني بفتح الهمزة وكسرها، أي الوقت قال تعالى)غير ناظرين إناه(. وقريب من قوله)ألم يإن(قولهم: أما آن لك أن تفعل، مثل ما ورد في حديث إسلام عمر بن الخطاب من قول النبي صلى الله عليه وسلم له أما آن لك يا ابن الخطاب أن تسلم(وفي خبر إسلام أبي ذر من أن علي بن أبي طالب وجده في المسجد الحرام وأراد أن يضيفه وقال له أما آن للرجل أن يعرف منزله يريد: أن يعرف منزلي الذي هو كمنزله. وهذا تلطف في عرض الاستضافة، إلا أن فعل)يإن(مشتق من الإنى وهو فعل منقوص آخره ألف. وفعل: آن مشتق من الأين وهو الحين وهو فعل أجوف آخره نون.

فأصل: أنى أني واصل آن: آن وآل معنى الكلمتين واحد.
واللام للعلة، أي ألم يإن لأجل الذين آمنوا الخشوع، أي ألم يحق حضوره لأجلهم.
و)أن تخشع(فاعل)يإن(، والخشوع: الاستكانة والتذلل.
و)ذكر الله(ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم أو هو الصلاة. و)ما نزل من الحق(القرآن، قال تعالى)إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم(.
ويجوز أن يكون الوصفان للقرآن تشريفا له بأنه ذكر الله وتعريفا لنفعه بأنه نزل من عند الله، وأنه الحق، فيكون قوله)وما نزل من الحق(عطف وصف آخر للقرآن مثل قول الشاعر أنشده في الكشاف:
إلى الملك القرم وابن الهمام... البيت واللام في)لذكر الله(لام العلة، أي لأجل ذكر الله.
ومعنى الخشوع لأجله: الخشوع المسبب على سماعه وهو الطاعة والامتثال.
وقرأ نافع وحفص عن عاصم)وما نزل(بتخفيف الزاي. وقرأه الباقون بتشديد الزاي على أن فاعل)نزل(معلوم من المقام، أي الله.
و)لا يكونوا(قرأه الجمهور بياء الغائب، وقرأه رويس عن يعقوب) ولا تكونوا(بتاء الخطاب.
و)لا(نافية على قراءة الجمهور والفعل المعمول ل)أن(المصدرية التي ذكرت قبله، والتقدير: ألم يإن لهم أن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب. وعلى قراءة رويس عن يعقوب فتاء الخطاب الالتفات
و)لا(نافية، والفعل منصوب بالعطف كقراءة الجمهور، أو)لا(ناهية والفعل مجزوم والعطف من عطف الجمل.
والمقصود التحذير إلا أنهم تلبسوا بذلك ولم يإن لهم الإقلاع عنه. والتحذير منصب إلى ما حدث لأهل الكتاب من قسوة القلوب بعد طول الأمد عليهم في مزاولة دينهم، أي فليحذر الذين آمنوا من أن يكونوا مثلهم على حدثان عهدهم بالدين. وليس المقصود عذر الذين أوتوا الكتاب بطول الأمد عليهم لأن طول الأمد لا يكون سببا في التفريط فيما أطال فيه الأمد بل الأمر بالعكس ولا قصد تهوين حصوله للذين آمنوا بعد أن يطول الأمد لأن ذلك لا يتعلق به الغرض قبل طول الأمد، وإنما المقصود النهي عن التشبيه بالذين أوتوا الكتاب في عدم خشوع قلوبهم ولكنه يفيد تحذير المؤمنين بعد أن يطول الزمان من أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب. ويستتبع ذلك الأنباء بأن مدة المسلمين تطول قريبا أو أكثر من مدة أهل الكتاب الذين كانوا قبل البعثة، فإن القرآن موعظة للعصور والأجيال.

ويجوز أن تجعل)لا(حرف نهي وتعلق النهي بالغائب التفاتا أو المراد: أبلغهم أن لا يكونوا.
وفاء)فطال عليهم الأمد(لتفريع طول الأمد على قسوة القلوب من عدم الخشوع، فهذا التفريع خارج عن التشبيه الذي في قوله) كالذين أوتوا الكتاب من قبل(، ولكنه تنبيه على عاقبة ذلك التشبيه تحذيرا من أن يصيبهم مثل ما أصاب الذين أوتوا الكتاب من قبل.
والأمد: الغاية من مكان أو زمان والمراد به هنا: المدة التي أوصوا بأن يحافظوا على اتباع شرائعهم فيها المغياة بمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم المبشر في الشرائع)وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه(.
والمعنى: أنهم نسوا ما أوصوا به فخالفوا أحكام شرائعهم ولم يخافوا عقاب الله يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا، وصار ديدنا لهم رويدا رويدا حتى ضرئوا بذلك، فقست قلوبهم، أي تمردت على الاجتراء على تغيير أحكام الدين.
وجملة)وكثير منهم فاسقون(اعتراض في آخر الكلام.

صفحة : 4308

والمعنى: أن كثيرا منهم تجاوزوا ذلك الحد من قسوة القلوب فنبذوا دينهم وبدلوا كتابهم وحروفه وأفسدوا عقائدهم فبلغوا حد الكفر. فالفسق هنا مراد به الكفر كقوله تعالى)قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا من قبل وأن أكثرهم فاسقون(، أي غير مؤمنين بدليل المقابلة بقوله)آمنا بالله(إلى آخره.
وبين قوله)فقست(وقوله)فاسقون(محسن الجناس. وهذا النوع فيه مركب مما يسمى جناس القلب وما يسمى الجناس الناقص وقد اجتمعا في هذه الآية.
)اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد(أعقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح أنه الحرص على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا، فضرب لهم مثل الحياة الدنيا بحال محقرة على أنها زائلة تحقيرا لحاصلها وتزهيدا فيها لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح قال تعالى)ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(، وقال)

وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا(.

كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب وغيره، وأشير إلى أنها ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة بنعيم الدائم في الآخرة، ووقاية من العذاب الشديد، وما عدا ذلك من أحوال الحياة فهو متاع قليل، ولذلك أعقب مثل الحياة الدنيا بالإخبار عن الآخرة بقوله)وفي الآخرة عذاب(الخ.

وافتتاح هذا بقوله تعالى)اعلموا(للوجه الذي بيناه آنفا في قوله) اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها(.

و)أنما(المفتوحة الهمزة أخت)إنما(المكسورة الهمزة في إفادة الحصر، وحصر الحياة الدنيا في الأخبار الجارية عليها وهو أقصر أحوال الناس في الحياة على هذه الأمور الستة باعتبار غالب الناس، فهو قصر ادعائي بالنظر إلى ما تنصرف إليهم همم غالب الناس من شؤون الحياة الدنيا، والتي إن سلم بعضهم من بعضها لا يخلو من ملابسة بعض آخر إلا الذين عصمهم الله تعالى فجعل أعمالهم في الحياة كلها لوجه الله، وإلا فإن الحياة قد يكون فيها أعمال التقى والمنافع والإحسان والتأييد للحق وتعليم الفضائل وتشريع القوانين.

وقد ذكر هنا من شؤون الحياة ما هو الغالب على الناس وما لا يخلو من مفارقة تضييع الغايات الشريفة أو اقتحام مساو ذميمة، وهي أصول أحوال المجتمع في الحياة، وهي أيضا أصول أطوار آحاد الناس في تطور كل واحد منهم، فإن اللعب طور سن الطفولة والصبا، واللهو طور الشباب، والزينة طور الفتوة، والتفاخر طور الكهولة، والتكاثر طور الشيخوخة. وذكر هنا خمسة أشياء.

فاللعب: اسم لقول أو فعل يراد به المزاح والهزل لتمضية الوقت أو إزالة وحشة الوحدة، أو السكون، أو السكوت، أو لجلب فرح ومسرة للنفس، أو يجلب مثل ذلك للحبيب، أو يجلب ضده للبغيض، كإعمال الأعضاء وتحريكها دفعا لوحشة السكون، والهذيان المقصود لدفع وحشة السكوت، ومنه البعث، وكالمزاح مع المرأة لاجتلاب إقبالها ومع الطفل تحببا أو إرضاء له.

واللعب: هو الغالب على أعمال الأطفال والصبيان فطور الطفولة طور اللعب ويتفاوت غيرهم في الإتيان منه فيقل ويكثر بحسب تفاوت الناس في الأطوار الأولى من الإنسان وفي رجاحة العقول وضعفها. والإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذن بخسة العقل، ولذلك قال قوم إبراهيم له)أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين(.

واللعب يكثر في أحوال الناس في الدنيا فهو جزء عظيم من أحوالها وحسبك أنه يعمر معظم أحوال الصبا.

واللهو: اسم لفعل أو قول يقصد منه التذاذ النفس به وصرفها عن ألم حاصل من تعب الجسد أو الحزن أو الكمد، يقال: لها عن الشيء، أي تشاغل عنه. قال امرؤ القيس:

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت

من لهو بها غير معجل وقال النابغة يذكر حجه:

حياك ربي فإنا لا يحل لنا لهو

النساء وإن الدن قد عزما ويغلب اللهو على أحوال الشباب فطور الشباب طوره، ويكثر اللهو في أحوال الدنيا من تطلب اللذات والطرب.

صفحة : 4309

والزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسرا له، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم وذلك في طباع النساء أشد، وربما كان من أسباب شدته غرورا بأنفسهم بل ذلك لتكون حسنة في الناس من الرجال والنساء.

ويغلب التزين على أحوال الحياة فإن معظم المساكن والملابس يراد منه الزينة، وهي ذاتية ومعنوية، ومن المعنوية ما يسمى في أصول الفقه بالتحسيني.

والتفاخر: الكلام الذي يفخر به، والفخر: حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل. وصيغ منه زنة الفاعل لأن شأن الفخر أن يقع بين جانبين كما أنبأ به تقييده بظرف (بينكم(.

والناس يتفاخرون بالصفات المحمودة في عصورهم وأجيالهم وعاداتهم، فمن الصفات ما الفخر به غير باطل. وهي الصفات التي حقائقها محمودة في العقل أو الشرع. ومنها ما الفخر به باطل من الصفات والأعمال التي اصطلح قوم على التمدح بها وليست حقيقة بالمدح مثل التفاخر بالإغلاء في ثمن الخمور وفي الميسر والزنى والفخر بقتل النفوس والغارة على الأموال في غير حق.

وأغلب التفاخر في طور الكهولة واكتمال الأشد لأنه زمن الإقبال على الأفعال التي يقصد منها الفخر.

والتفاخر كثيرا في أحوال الناس في الدنيا، ومنه التباهي والعجب، وعنه ينشأ الحسد.

والتكاثر: تفاعل من الكثرة، وصيغة التفاعل هنا للمبالغة في الفعل بحيث ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة شيء، فإنه يكون

أحرص على أن يكون الأكثر منه عنده فكان المرء ينظر في الكثرة من الأمر المحبوب إلى أمر آخر له الكثرة منه، ألا ترى إلى قول طرفة:

فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وطاف بـي
بنون كـرام سـادت لـمـسـود ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر فصارت تستعمل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه، قال تعالى)ألهاكم التكاثر(.

و)في(من قوله)في الأموال والأولاد(: أما مستعملة في التعليل، وأما هي الظرفية المجازية، فإن جعلت الأموال كالظرف يحصل تكاثر الناس عنده كمن ينزع في بئر.

والمعنى: أن الله أقام نظام أحوال الناس في الحياة الدنيا على حكمة أن تكون الحياة وسيلة لبلوغ النفوس إلى ما هيئها الله له من العروج إلى سمو الملكية كما دل عليه قوله)إني جاعل في الأرض خليفة(، فكان نظام هذه الحياة على أن تجري أمور الناس فيها على حسب تعاليم الهدى للفوز بالحياة الأبدية من نعيم الحق بعد الممات والبعث، فإذا الناس قد حرفوها على مهيعها، وقد تضمن ذلك قوله تعالى)من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون(.

)كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما(يجوز أن يكون في موضع خبر من مبتدأ محذوف، أي هي كمثل غيث فتكون الجملة استئنافا، وحذف المسند إليه من النوع الذي سماه السكاكي متابعة الاستعمال .

ويجوز أن يكون الكاف في موضع الحال و)كمثل(معناه كحال، أي حال الحياة الدنيا كحال غيث الخ، فشبهت هيئة أهل الدنيا أحوالهم الغالبة عليهم والمشار إلى تنويعها بقوله)لعب ولهو(إلى آخره بهيئة غيث أنبت زرعا فأينع ثم اصفر ثم اضمحل وتحطم، أي تشبيه هيئة هذه الأحوال الغالبة على الناس في الحياة في كونها محبوبة للناس مزهية لهم وفي سرعة تقضيها بهيئة نبات جديد أنبته غيث فاستوى واكتمل وأعجب به من رآه فمضت عليه مدة فيبس وتحطم.

والمقصود بالتمثيل هو النبات، وإنما ابتدأ بغيث تصويغا للهيئة من مبادئها لإظهار مواقع الحسن فيها لأن ذلك يكتسب منه المشبه حسنا كما فعل كعب بن زهير في تحسين أوصاف الماء الذي مزجت به الراح في قوله:

شجت بذي شيم من ماء محـنـية
صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

تنفي الرياح القذى عنه وأفرطـه من
صوب سارية بيض يعـالـيل

صفحة : 4309

والزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسرا له، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم وذلك في طباع النساء أشد، وربما كان من أسباب شدته غرورا بأنفسهم بل ذلك لتكون حسنة في الناس من الرجال والنساء.
ويغلب التزين على أحوال الحياة فإن معظم المساكن والملابس يراد منه الزينة، وهي ذاتية ومعنوية، ومن المعنوية ما يسمى في أصول الفقه بالتحسيني.
والتفاخر: الكلام الذي يفخر به، والفخر: حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل. وصيغ منه زنة الفاعل لأن شأن الفخر أن يقع بين جانبين كما أنبأ به تقييده بظرف (بينكم(.
والناس يتفاخرون بالصفات المحمودة في عصورهم وأجيالهم وعاداتهم، فمن الصفات ما الفخر به غير باطل. وهي الصفات التي حقائقها محمودة في العقل أو الشرع. ومنها ما الفخر به باطل من الصفات والأعمال التي اصطلح قوم على التمدح بها وليست حقيقة بالمدح مثل التفاخر بالإغلاء في ثمن الخمور وفي الميسر والزنى والفخر بقتل النفوس والغارة على الأموال في غير حق.
وأغلب التفاخر في طور الكهولة واكتمال الأشد لأنه زمن الإقبال على الأفعال التي يقصد منها الفخر.
والتفاخر كثيرا في أحوال الناس في الدنيا، ومنه التباهي والعجب، وعنه ينشأ الحسد.
والتكاثر: تفاعل من الكثرة، وصيغة التفاعل هنا للمبالغة في الفعل بحيث ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة شيء، فإنه يكون أحرص على أن يكون الأكثر منه عنده فكان المرء ينظر في الكثرة من الأمر المحبوب إلى أمر آخر له الكثرة منه، ألا ترى إلى قول طرفة:
فلو شاء ربي كنت قيس بن عاصم
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وطاف بـي
بنون كـرام سـادت لـمـسـود ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر فصارت

تستعمل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه، قال تعالى)ألهاكم التكاثر(.
و)في(من قوله)في الأموال والأولاد(: أما مستعملة في التعليل، وأما هي الظرفية المجازية، فإن جعلت الأموال كالظرف يحصل تكاثر الناس عنده كمن ينزع في بئر.
والمعنى: أن الله أقام نظام أحوال الناس في الحياة الدنيا على حكمة أن تكون الحياة وسيلة لبلوغ النفوس إلى ما هيئها الله له من العروج إلى سمو الملكية كما دل عليه قوله)إني جاعل في الأرض خليفة(، فكان نظام هذه الحياة على أن تجري أمور الناس فيها على حسب تعاليم الهدى للفوز بالحياة الأبدية من نعيم الحق بعد الممات والبعث، فإذا الناس قد حرفوها على مهيعها، وقد تضمن ذلك قوله تعالى)من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون(.
)كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما(يجوز أن يكون في موضع خبر من مبتدأ محذوف، أي هي كمثل غيث فتكون الجملة استئنافا، وحذف المسند إليه من النوع الذي سماه السكاكي متابعة الاستعمال .
ويجوز أن يكون الكاف في موضع الحال و)كمثل(معناه كحال، أي حال الحياة الدنيا كحال غيث الخ، فشبهت هيئة أهل الدنيا أحوالهم الغالبة عليهم والمشار إلى تنويعها بقوله)لعب ولهو(إلى آخره بهيئة غيث أنبت زرعا فأينع ثم اصفر ثم اضمحل وتحطم، أي تشبيه هيئة هذه الأحوال الغالبة على الناس في الحياة في كونها محبوبة للناس مزهية لهم وفي سرعة تقضيها بهيئة نبات جديد أنبته غيث فاستوى واكتمل وأعجب به من رآه فمضت عليه مدة فيبس وتحطم.
والمقصود بالتمثيل هو النبات، وإنما ابتدأ بغيث تصويغا للهيئة من مبادئها لإظهار مواقع الحسن فيها لأن ذلك يكتسب منه المشبه حسنا كما فعل كعب بن زهير في تحسين أوصاف الماء الذي مزجت به الراح في قوله:

شجت بذي شيم من ماء محـنـية
صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفي الرياح القذى عنه وأفرطـه من
صوب سارية بيض يعـالـيل

صفحة : 4310

وعن ابن مسعود أن الكفار: الزراع، جمع كافر وهو الزارع لأنه يكفر الزريع بتراب الأرض، والكفر بفتح الكاف الستر، أي ستر

الزريعة، وإنما أوثر هذا الاسم هنا وقد قال تعالى في سورة الفتح)يعجب الزراع(قصدا هنا للتورية بالكفار الذين هم الكافرون بالله لأنهم أشد إعجابا بمتاع الدنيا إذ لا أمل لهم في شيء بعده. وقال جمع من المفسرين: الكفار جمع الكافر بالله لأنهم قصروا إعجابهم على الأعمال ذات الغايات الدنيا دون الأعمال الدينية، فذكر الكفار تلويح إلى أن المثل مسوق إلى جانبهم أولا.

والنبات: اسم مصدر نبت قال تعالى)والله أنبتكم من الأرض نباتا(، وهو هنا أطلق على النابت من أشواق المصدر على الفاعل وهو كثير، وأصله أن يراد به المبالغة، وقد يشيع فيزول قصد المبالغة به.

وقوله)ثم يهيج(تضافرت كلمات المفسرين على تفسير يهيج ب ييبس أو يجف، ولم يستظهروا بشاهد من كلام العرب يدل على أن من معاني الهياج الجفاف، وقد قال الراغب: يقال: هاج الجمل، إذا اصفر وطاب، وفي الأساس: من المجاز هاج البقل، إذا أخذ في اليبس. وهذان الإمامان لم يجعلا هاج بمعنى يبس كيف لفظ الآية)ثم يهيج فتراه مصفرا(، فالوجه أن الهياج: الغلظ ومقاربة اليبس، لأن مادة الهياج تدل على الاضطراب والثوران وسميت الحرب الهيجاء، وقال النابغة:

أهاجك من سعداك مغنى المعاهد والزرع إذا غلظ يكون بحركته صوت فكأنه هائج، أي ثائر وذلك ابتداء جفافه، وذلك كقوله تعالى) كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع(في سورة الفتح.

وعطفت جملة)يهيج(ب)ثم(لإفادة التراخي الرتبي لأن اصفرار النبات أعظم دلالة على التهيؤ للزوال، وهذا هو الأهم في مقام التزهيد في متاع الدنيا.

وعطف)فتراه مصفرا(بالفاء لأن اصفرار النبت مقارب ليبسه، وعطف)ثم يكون حطاما(ب)ثم(كعطف)ثم يهج(.

والحطام: بضم الحاء ما حطم، أي كسر قطعا.

فضرب مثل الحياة الدنيا لأطوار ما فيها من شباب وكهولة وهرم ففناء، ومن جده وتبذل وبلى، ومن إقبال الأمور في زمن إقبالها ثم أدبارها بعد ذلك، بأطوار الزرع. وكلها أعراض زائلة وآخرها فناء.

وتندرج فيها أطوار المرء في الحياة المذكورة في قوله)لعب ولهو(إلى)والأولاد(كما يظهر بالتأمل.

وهذا التمثيل مع كونه تشبيه هيئة مركبة بهيئة مثلها هو صالح للتفريق ومقابلة أجزاء الهيئة المشبهة بأجزاء الهيئة المشبه بها، فيشبه أول أطوار الحياة وإقبالها بالنبات عقب المطر، ويشبه الناس المنتفعون بإقبال الدنيا بناس زراع، ويشبه اكتمال أحوال الحياة وقوة الكهولة بهياج الزرع، ويشبه ابتداء الشخوخة ثم الهرم وابتداء ضعف

عمل العامل وتجارة التاجر وفلاحة الفلاح باصفرار الزرع وتهيئة للفناء، ويشبه زوال ما كان للمرء من قوة ومال بتحطم الزرع.
ويفهم من هذا أن ما كان من أحوال الحياة مقصودا لوجه الله فإنه من شؤون الآخرة فلا يدخل تحت هذا التمثيل إلا ظاهرا.
فأعمال البر ودراسة العلم ونحو ذلك لا يعتريها نقص ما دام صاحبها مقبلا عليها، وبعضها يزداد نماء بطول المدة، وتقدم نظير هذه الآية في سورة الزمر.
)وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور[20](كان ذكر حال الحياة الدنيا مقتضيا ذكر مقابلة على عادة القرآن، والخبر مستعمل في التحذير والتحريض بقرينة السياق، ولذلك لم يبين أصحاب العذاب وأصحاب المغفرة والرضوان لظهور ذلك.
وكني عن النعيم بمغفرة من الله ورضوان لأن النعيم قسمان مادي وروحاني، فالمغفرة والرضوان أصل النعيم الروحاني كما قال تعالى)ورضوان من الله أكبر(وهما يقتضيان النعيم الجسماني لأن أهل الجنة لما ركبت ذواتهم من أجسام وأودعت فيها الأرواح كان النعيمان مناسبين لهم تكثيرا للذات، وما لذة الأجسام إلا صائرة إلى الأرواح لأنها المدركة اللذات، وكان رضوان الله يقتضي إعطائهم منتهى ما به التذاذهم، ومغفرته مقتضية الصفح عما قد يعوق عن بعض ذلك.
وعطف)وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور(على)وفي الآخرة عذاب شديد(للمقابلة بين الحالين زيادة في الترغيب والتنفير.
والكلام على تقدير مضاف، أي وما أحوال الدنيا إلا متاع الغرور.

صفحة : 4311

والحصر ادعائي باعتبار غالب أحوال الدنيا بالنسبة إلى غالب طالبيها، فكونها متاعا أمر مطرود وكون المتاع مضافا إلى الغرور أمر غالب بالنسبة لما عدا الأعمال العائدة على المرء بالفوز في الآخرة.
والغرور: الخديعة، إي إظهار الأمر الضار الذي من شأنه لأن يحترز العاقل منه في صورة النافع الذي يرغب فيه.
وإضافة)متاع(إلى)الغرور(على معنى لام العاقبة، أي متاع صائر لأجل الغرور به، أي آيل إلى أنه يفر الناظرين إليه فيسرعون في التعلق به.

)سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[21](فذلكة لما تقدم من قوله تعالى)يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم(إلى هنا فذلك مسوق مساق الترغيب فيما به تحصيل نعيم الآخرة والتحذير من فواته وما يصرف عنه من إيثار زينة الدنيا، ولذلك فصلت الجملة ولم تعطف، واقتصر في الفذلكة على الجانب المقصود ترغيبه دون التعرض إلى المحذر منه لأنه المقصود.

وعبر عن العناية والاهتمام بفعل المسابقة لإلهاب النفوس بصرف العناية بأقصى ما يمكن من الفضائل كفعل من يسابق غيره إلى غاية فهو يحرص على أن يكون المجلي، ولأن المسابقة كناية عن المنافسة، أي واتركوا المقتصرين على متاع الحياة الدنيا في الأخريات والخوالف.

وتنكير)مغفرة(لقصد تعظيمها ولتكون الجملة مستقلة بنفسها، وإلا فإن المغفرة سبق ذكرها في قوله)ومغفرة من الله(، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: سابقوا إلى المغفرة، أي أكثروا من أسبابها ووسائلها: فالمسابقة إلى المغفرة هي المسابقة في تحصيل أسبابها.

والعرض: مستعمل في السعة وليس مقابل الطول لظهور أنه لا طائل في معنى ما يقابل الطول، وهذا كقوله تعالى)وإن مسه الشر فذو دعاء عريض(، وقول العديل لما فر من وعيد الحجاج:

ودون يد الحجاج من أن تنالني

بساط بأيدي الناعجات عريض وتشبيه عرض الجنة بعرض السماء والأرض، أي مجموع عرضيهما لقصد تقريب المشبه بأقصى ما يتصوره الناس في الاتساع، وليس المراد تحديد ذلك العرض ولا أن الجنة في السماء حتى يقال: فماذا بقي لمكان جهنم.

وهذا الأمر شامل لجميع المسابقات إلى أفعال البر الموجبة للمغفرة ونعيم الجنة، وشامل للمسابقة الحقيقية مع المجازية على طريقة استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وهي طريقة شائعة في القرآن إكثارا للمعاني، ومنه الحديث لو يعلم الناس ما في الصف الأول لاستبقوا إليه أو استهموا إليه .

وليس في الآية دليل على أن الجنة غير مخلوقة الآن إذ وجه الشبه في قوله)كعرض السماء والأرض(هو السعة لا المقدار ولا على أن الجنة في السماء الموجودة اليوم ولا عدمه، وتقدم من معنى هذه الآية قوله)سارعوا إلى مغفرة من ربكم(الآية في سورة آل عمران.

وظاهر قوله)أعدت(أن الله خلقها وأعدها لأن ظاهر استعماله الفعل في الزمن الماضي إن حصل مصدرهم فيه، فقد تمسك بهذا

الظاهر الذين قالوا: إن الجنة مخلوقة الآن، وأما الذين نفوا ذلك فاستندوا إلى ظواهر أخرى وتقدم ذلك في سورة آل عمران.
وعلم من قوله)أعدت للذين آمنوا بالله ورسله(أن غيرهم لا حظ لهم في الجنة لأن معنى إعداد شيء لشيء قصره عليه.
وجمع الرسل هنا يشمل كل أمة آمنوا بالله وبرسولهم الذي أرسله الله إليهم، وليس يلزمها أن تؤمن برسول أرسل إلى أمة أخرى ولم يدع غيرها إلى الإيمان به.
والإشارة في)ذلك فضل الله(إلى المذكور من المغفرة والجنة.
)ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير[22] لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور[23](

صفحة : 4312

لما جرى ذكر الجهاد آنفا بقوله)لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل(وقوله)والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم(على الوجهين المتقدمين هنالك، وجرى ذكر الدنيا في قوله)وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور(، وكان ذلك كله مما تحدث فيه المصائب من قتل وقطع وأسر في الجهاد، ومن كوارث تعرض في الحياة من فقد وألم واحتياج، وجرى مثل الحياة الدنيا بالنبات، وكان ذلك ما يعرض له القحط والجوائح، أتبع ذلك بتسلية المسلمين على ما يصيبهم لأن المسلمين كانوا قد تخلقوا بآداب الدنيا من قبل فربما لحقهم ضر أو رزء خارج عن نطاق قدرتهم وكسبهم فأعلموا أن ذلك مما اقتضاه ارتباط أسباب الحوادث بعضها ببعض على ما سيرها عليه نظام جميع الكائنات في هذا العالم كما أشار إليه قوله تعالى)إلا في كتاب من قبل أن نبرأها(كما ستعلمه، فلم يملكهم الغم والحزن، وانتقلوا عن ذلك إلى الإقبال على ما يهمهم من الأمور ولم يلهمهم التحرق على ما فات على نحو ما وقع في قوله)ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل حياء ولكن لا تشعرون ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون(، ولعل المسلمين قد أصابهم شدة في إحدى المغازي أو حبس مطر أو نحو ذلك مما كان سبب نزول هذه الآية.
و)ما(نافية و)من(زائدة في النفي للدلالة على نفي الجنس قصدا للعموم.
ومفعول)أصاب(محذوف تقديره: ما أصابكم أو ما أصاب أحد.

وقوله)في الأرض(إشارة إلى المصائب العامة كالقحط وفيضان السيول وموتان الأنعام وتلف الأموال.
وقوله)ولا في أنفسكم(إشارة إلى المصائب اللاحقة لذوات الناس من الأمراض وقطع الأعضاء والأسر في الحرب وموت الأحباب وموت المرء نفسه فقد سماه الله مصيبة في قوله)فأصابتكم مصيبة الموت(. وتكرير حرف النفي في المعطوف على المنفي في قوله)ولا في أنفسكم(لقصد الاهتمام بذلك المذكور بخصوصه فإن المصائب الخاصة بالنفس أشد وقعا على المصاب، فإن المصائب العامة إذا أخطأته فإنما يتأثر لها تأثرا بالتعقل لا بالحس فلا تدوم ملاحظة النفس إياه.
والاستثناء في قوله)إلا في كتاب(استثناء من أحوال منفية ب)ما(، إذ التقدير: ما أصاب من مصيبة في الأرض كائنة في حال إلا في حال كونها مكتوبة في كتاب، أي مثبتة فيه.
والكتاب: مجاز من علم الله تعالى ووجه المشابهة عدم قبول التبديل والتغيير والتخلف، قال الحارث بن حلزة:
حذر الجور والتطاخـي وهـل ينقص
ما في المهارق الأهواء ومن ذلك علمه وتقديره لأسباب حصولها ووقت خلقها وترتيب آثارها والقصر المفاد ب)إلا(قصر موصوف على صفة وهو قصر إضافي، أي إلا في حال كونها في كتاب دون سبق تقدير في علم الله ردا على اعتقاد المشركين والمنافقين المذكور في قوله تعالى)وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا(وقوله)الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا(. وهذا الكلام يجمع الإشارة إلى ما قدمناه من أن الله تعالى وضع نظام هذا العالم على أن تترتب المسببات على أسبابها، وقدر ذلك وعلمه، وهذا مثل قوله)وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب(ونحو ذلك.
والبرء: بفتح الباء : الخلق ومن أسمائه تعالى البارئ، وضمير النصب في)نبرأها(عائد إلى الأرض أو إلى الأنفس.
وجملة)إن ذلك على الله يسير(رد على أهل الضلال من المشركين وبعض أهل الكتاب الذين لا يثبتون لله عموم العلم ويجوزون عليه البداء وتمشي الحيل، ولأجل قصد الرد على المنكرين أكد الخبر ب)إن(.
والتعليل بلام العلة و)كي(متعلق بمقدور دل عليه هذا الإخبار الحكيم، أي أعلمناكم بذلك لكي لا تأسوا على ما فاتكم الخ، أي لفائدة استكمال مدركاتكم وعقولكم فلا تجزعوا للمصائب لأن من أيقن أن ما عنده من نعمة دنيوية مفقودة يوما لا محالة لم يتفاقم

جزعه عند فقده لأنه قد وطن نفسه على ذلك، وقد أخذ هذا المعنى كثير في قوله:

فقلت لها يا عز كل مـصـيبة إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

صفحة : 4313

وقوله)ولا تفرحوا بما آتاكم(تتميم لقوله)لكيلا تأسوا على ما فاتكم(فإن المقصود من الكلام أن لا يأسوا عند حلول المصائب لأن المقصود هو قوله)ما أصاب من مصيبة إلا في كتاب(ثم يعلم أن المسرات كذلك بطريق الاكتفاء فإن من المسرات ما يحصل للمرء من غير ترقب وهو أوقع في المسرة كمل أدبه بطريق المقابلة.

والفرح المنفي هو الشديد منه البالغ حد البطر، كما قال تعالى في قصة قارون)إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين(. وقد فسره التذييل من قوله)والله لا يحب كل مختال فخور(.

والمعنى: أخبرتكم بذلك لتكونوا حكماء بصراء فتعلموا أن لجميع ذلك أسبابا وعللا، وأن للعالم نظاما مرتبطا بعضه ببعض، وأن الآثار حاصلة عقب مؤثراتها لا محالة، وإن إفضاءها ليها بعضه خارج عن طوق البشر ومتجاوز حد معالجته ومحاولته، وفعل الفوات مشعر بأن الفائت قد سعى المفوت عليه في تحصيله ثم غلب على نواله بخروجه عن مكنته، فإذا رسخ ذلك في علم أحد لم يحزن على ما فاته مما لا يستطيع دفعه ولم يغفل عن ترقب زوال ما يسره إذا كان مما يسره، ومن لم يتخلق بخلق الإسلام يتخبط في الجزع إذا أصابه مصاب ويستطار خيلاء وتطاولا إذا ناله أمر محبوب فيخرج عن الحكمة في الحالتين.

والمقصود من هذا التنبيه على أن المفرحات صائرة إلى زوال وأن زوالها مصيبة.

واعلم أن هذا مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند نوال الرغيبة.

وصلة الموصول في)بما آتاكم(مشعرة بأنه نعمة نافعة، وفيه تنبيه على أن مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند انهيال الرغيبة، هو أن لا يحزن على ما فات ولا يبطر بما ناله من خيرات، وليس معنى ذلك أن يترك السعي لنوال الخير واتقاء الشر قائلا: إن الله كتب الأمور كلها في الأزل، لأن هذا إقدام على إفساد ما فطر عليه الناس وأقام عليه نظام العالم. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للذين قالوا أفلا نتكل اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

وقوله)والله لا يحب كل مختال فخور(تحذير من الفرح الواقع في سياق تعليل الأخبار بأن كل ما ينال المرء ثابت في كتاب، وفيه بيان للمراد من الفرح أنه الفرح المفرط البالغ بصاحبه إلى الاختيال والفخر.

والمعنى: والله لا يحب أحدا مختالا فخورا. ولا تتوهم أن موقع)كل(بعد النفي يفيد النفي عن المجموع لا عن كل فرد لأن ذلك ليس مما يقصده أهل اللسان، ووقع للشيخ عبد القاهر ومتابعيه توهم فيه، وقد تقدم عند قوله تعالى)والله لا يحب كل كفار أثيم(في سورة البقرة ونبهت عليه في تعليقي على دلائل الإعجاز.

وقرأ الجمهور)آتاكم(بمد بعد الهمزة محول عن همزة ثانية هي فاء الكلمة، أي ما جعله آتيا لكم، فالهمزة الأولى للتعدية إلى مفعول ثان، والتقدير: بما آتاكموه. والإتيان هنا أصله مجاز وغلب استعماله حتى ساوى الحقيقة، وعلى هذه القراءة فعائد الموصول محذوف لأنه ضمير متصل منصوب بفعل، والتقدير: بما آتاكموه، وفيه إدماج المنة مع الموعظة تذكيرا بأن الخيرات من فضل الله. وقرأ أبو عمرو وحده بهمزة واحدة على أنه من)أتى(، إذا حصل، فعائد الموصول هو الضمير المستتر المرفوع ب)أتى(، وفي هذه القراءة مقابلة)آتاكم(ب)فاتكم(وهو محسن الطباق ففي كلتا الحالتين محسن.

)الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله الغني الحميد[24](يجوز أن يكون)الذين يبخلون(ابتداء كلام على الاستئناف لأن الكلام الذي قبله ختم بالتذييل بقوله)والله لا يحب كل مختال فخور(فيكون)الذين يبخلون(مبتدأ وخبره محذوفا يدل عليه جواب الشرط وهو)فإن الله الغني الحميد(. والتقدير: فإن الله غني عنهم وحامد للمنفقين.

ويجوز أن يكون متصلا بما قبله على طريقة التخلص فيكون) الذين يبخلون(بدلا من)كل مختال فخور(، أو خبر لمبتدأ محذوف هو ضمير)كل مختال فخور(. تقديره: هم الذين يبخلون، وعلى هذا الاحتمال الأخير فهو من حذف المسند إليه اتباعا للاستعمال كما سماه السكاكي، وفيه وجوه أخر لا نطول بها.

والمراد ب)الذين يبخلون(: المنافقون، وقد وصفهم الله بمثل هذه الصلة في سورة النساء، وأمرهم الناس بالبخل هو الذي حكاه الله

عنهم بقوله)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا(، أي على المؤمنين.
وجملة)ومن يتول فإن الله الغني الحميد(تذييل لأن)من يتول(يعم)الذين يبخلون(وغيرهم فإن)الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل(أي في سبيل الله وفي النفقات الواجبة قد تولوا عن أمر الله و)من(شرطية عامة.
وجملة)فإن الله الغني الحميد(قائمة مقام جواب الشرط لأن مضمونها علة للجواب، فالتقدير: ومن يتول فلا يضر الله شيئا ولا يضر الفقير لأن الله غني عن مال المتولين، ولأن له عبادا يطيعون أمره فيعبدهم.
والغني: الموصوف بالغنى، أي عدم الاحتياج. ولما لم يذكر له متعلق كان مفيدا الغنى العام.
والحميد: وصف مبالغة، أي كثير الحمد للمنفقين على نحو قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه(الآية.
ووصفه ب)الحميد(هنا نظير وصفه ب)الشكور(في قوله)إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم(، فإن اسمه)الحميد(صالح لمعنى المحمود فيكون فعيلا بمعنى مفعول، وصالح لمعنى كثير الحمد، فيكون من أمثلة المبالغة لأن الله يثيب على فعل الخير ثوابا جزيلا ويثني على فاعله ثناء جميلا فكان بذلك كثير الحمد. وقد حمله على كلا المعنيين ابن برجان الأشبيلي في شرحه لأسماء الله الحسنى ووافقه كلام ابن العربي في أحكام القرآن في سورة الأعراف، وهو الحق. وقصره الغزالي في المقصد الأسنى على معنى المحمود .
وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر)فإن الله الغني الحميد(بدون ضمير فصل، وكذلك هو مرسوم في مصحف المدينة ومصحف الشام. وقرأه الباقون)فإن الله هو الغني الحميد(بضمير فصل بعد اسم الجلالة وكذلك هو مرسوم في مصاحف مكة والبصرة والكوفة، فهما روايتان متواترتان.
والجملة مفيدة للقصر بدون ضمير فصل لأن تعريف المسند إليه والمسند من طرق القصر، فالقراءة بضمير الفصل تفيد تأكيد القصر.
)لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز[25](استئناف ابتدائي ناشئ عما تقدم من التحريض على الإنفاق في سبيل الله وعن الفتح وعن تذييل ذلك بقوله)ومن يتول فإن الله الغني

الحميد(، وهو إعذار للمتولين من المنافقين ليتداركوا صلاحهم باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والتدبر في هدي القرآن وإنذار لهم إن لم يرعووا وينصاعوا إلى الحجة الساطعة بأنه يكون تقويم عوجهم بالسيوف القاطعة وهو ما صرح لهم به في قوله في سورة الأحزاب)لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا(وقوله في سورة التحريم)يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم(لئلا يحسبوا أن قوله)ومن يتول فإن الله الغني الحميد(مجرد متاركة فيطمئنوا لذلك.

وتأكيد الخبر بلام القسم وحرف التحقيق راجع إلى ما تضمنه الخبر من ذكر ما في إرسال رسل الله وكتبه من إقامة القسط للناس، ومن التعريض بحمل المعرضين على السيف إن استمروا على غلوائهم.

وجمع)الرسل(هنا لإفادة أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعا من الرسل، وأن مكابرة المنافقين عماية عن سنة الله في خلقه فتأكيد ذلك مبني على تنزيل السامعين منزلة من ينكر أن الله أرسل رسلا قبل محمد صلى الله عليه وسلم لأن حالهم في التعجب من دعواه الرسالة كحال من ينكر أن الله أرسل رسلا من قبل. وقد تكرر مثل هذا في مواضع من القرآن كقوله تعالى)قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات(.

والبينات: الحجج الدالة على أن ما يدعون إليه هو مراد الله، والمعجزات داخلة في البينات.

وتعريف)الكتاب(تعريف الجنس، أي وأنزلنا معهم كتبا، أي مثل القرآن.

صفحة : 4315

وإنزال الكتاب: تبليغ بواسطة الملك من السماء، وإنزال الميزان: تبليغ الأمر بالعدل بين الناس.

والميزان: مستعار للعدل بين الناس في إعطاء حقوقهم لأن مما يقتضيه الميزان وجود طرفين يراد معرفة تكافئهما، قال تعالى)وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل(. وهذا الميزان تبينه كتب الرسل، فذكره بخصوصه للاهتمام بأمره لأنه وسيلة انتظام أمور البشر كقوله تعالى)إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله(وليس المراد أن الله ألهمهم وضع آلات الوزن لأن

هذا ليس من المهم، وهو مما يشمله معنى العدل فلا حاجة إلى التنبيه عليه بخصوصه.
ويتعلق قوله)ليقوم الناس بالقسط(بقوله)وأنزلنا معهم(.
والقيام: مجاز في صلاح الأحوال واستقامتها لأنه سبب لتيسير العمل وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)ويقيمون الصلاة(في أوائل البقرة.
والقسط: العدل في جميع الأمور، فهو أعم من الميزان المذكور لاختصاصه بالعدل بين متنازعين، وأما القسط فهو إجراء أمور الناس على ما يقتضيه الحق فهو عدل عام بحيث يقدر صاحب الحق منازعا لمن قد احتوى على حقه.
ولفظ)القسط(مأخوذ في العربية من لفظ قسطاس اسم العدل بلغة الررم، فهو من المعرب وروي ذلك عن مجاهد.
والباء للملابسة، أي يكون أمر الناس ملابسا للعدل ومماشيا للحق، وإنزال الحديد: مستعار لخلق معدنه كقوله)وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج(، أي خلق لأجلكم وذلك بإلهام البشر استعماله في السلاح من سيوف ودروع ورماح ونبال وخوذة ودرق ومجان. ويجوز أن يراد بالحديد خصوص السلاح المتخذ منه من سيوف وأسنة ونبال، فيكون إنزاله مستعارا لمجرد إلهام صنعه، فعلى الوجه الأول يكون ضمير)فيه بأس شديد(عائدا إلى الحديد باعتبار إعداده للبأس فكأن البأس مظروف فيه.
والبأس: الضر. والمراد بأس القتل والجرح بآلات الحديد من سيوف ورماح ونبال، وبأس جرأة الناس على إيصال الضر بالغير بواسطة الواقيات المتخذة من الحديد.
والمنافع: منافع الغالب بالحديد من غنائم وأسرى وفتح بلاد.
ويتعلق قوله)للناس(بكل من)بأس(و)منافع(على طريقة التنازع، أي فيه بأس لناس ومنافع لآخرين فإن مصائب قوم عند قوم فوائد.
والمقصود من هذا لفت أبصار السامعين إلى الاعتبار بحكمة الله تعالى من خلق الحديد وإلهام صنعه، والتنبيه على أن ما فيه من نفع وبأس أنما أريد به أن يوضع بأسه حيث يستحق ويوضع نفعه حيث يليق به لا لتجعل منافعه لمن لا يستحقها مثل قطاع الطريق والثوار على أهل العدل، ولتجهيز الجيوش لحماية الأوطان من أهل العدوان، وللادخار في البيوت لدفع الضاريات والعاديات على الحرم والأموال.
وكان الحكيم)انتيثنوس(اليوناني تلميذ سقراط إذا رأى امرأة حالية متزينة في أثينا يذهب إلى بيت زوجها ويسأله أن يريه فرسه وسلاحه فإذا رآهما كاملين أذن لامرأته أن تتزين لأن زوجها قادر على حمايتها من داعر يغتصبها، وإلا أمرها بترك الزينة وترك الحلي.

وهذا من باب سد الذريعة، لا ليجعل بأسه لإخضاد شوكة العدل والآمرين بالمعروف على السكوت، فإن ذلك تحريف لما أراد الله من وضع الأشياء النافعة والقارة، قال تعالى)والله لا يحب الفساد(، وقال على لسان أحد رسله)إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت(.

وقد أوما إلى هذا المعنى بالإجمال قوله)وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب(، أي ليظهر للناس أثر علم الله بمن ينصره، فأطلق فعل)ليعلم(على معنى ظهور أثر العلم كقول إياس بن قبيصة الطائي:

وأقبلت والخطي يخطر بيننـا لأعلم

من جبانها من شجاعها أي ليظهر للناس الجبان والشجاع، أي فيعلموا أني شجاعهم.

ونصر الناس الله هو نصر دينه، وأما الله فغني عن النصر، وعطف)ورسله(، أي من ينصر القائمين بدينه، ويدخل في نصر شرائع الرسول صلى الله عليه وسلم بعده ونصر ولاة أمور المسلمين القائمين بالحق. وأعظم رجل نصر دين الله بعد وفاة رسوله صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق في قتاله أهل الردة رضي الله عنه.

وقوله)بالغيب(يتعلق ب)ينصره(، أي ينصره نصرا يدفعه إليه داعي نفسه دون خشية داع يدعوه إليه، أو رقيب يرقب صنيعه والمعنى: أنه يجاهد في سبيل الله والدفاع عن الدين بمحض الإخلاص.

صفحة : 4316

وقد تقدم ذكر الحديد ومعدنه وصناعته في تفسير قوله تعالى) آتوني زبر الحديد(في سورة الكهف.

وجملة)إن الله قوي عزيز(تعليل لجملة)أرسلنا رسلنا بالبينات(إلى آخرها، أي لأن الله قوي عزيز في شؤونه القدسية، فكذلك يجب أن تكون رسله أقوياء أعزة، وأن تكون كتبه معظمة موقرة، وإنما يحصل ذلك في هذا العالم المنوطة أحدثه بالأسباب المجعولة بأن ينصره الرسل وأقوام مخلصون لله ويعينوا على نشر دينه وشرائعه.

والقوي العزيز: من أسمائه تعالى. فالقوي: المتصف بالقوة، قال تعالى)ذو القوة المتين(وتقدم القوي في قوله)إن الله قوي شديد العقاب(.

والعزيز: المتصف بالعزة، وتقدمت في قوله)إن العزة لله جميعا(في سورة البقرة. وقوله)فاعلموا أن الله عزيز حكيم(.
)ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون[26](معطوف على جملة)لقد أرسلنا رسلنا بالبينات(عطف الخاص على العام لما أريد تفصيل لإجماله تفصيلا يسجل به انحراف المشركين من العرب والضالين من اليهود عن مناهج أبويهما: نوح وإبراهيم، قال تعالى في شأن بني إسرائيل)ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا(، والعرب لا ينسون أنهم من ذرية نوح كما قال النابغة يمدح النعمان بن المنذر:

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان

نوح لا يخون والنبوءة في ذريتهما كنبوءة هود وصالح وتبع ونبوءة إسماعيل وإسحاق وشعيب ويعقوب.
والمراد ب)الكتاب(ما كان بيد ذرية نوح وذرية إبراهيم من الكتاب التي فيها أصول ديانتهم من صحف إبراهيم وما حفظوه من وصاياه ووصايا إسماعيل وإسحاق.
والفسق: الخروج عن الاهتداء، ومن الفاسقين: المشركون من عاد وثمود وقوم لوط واليمن والأوس والخزرج وهم من ذرية نوح، ومن مدين والحجاز وتهامة وهم من ذرية إبراهيم.
والمراد: من)أشركوا(قبل مجيء الإسلام لقوله)ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم(.
)ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون[27]( )ثم(للتراخي الرتبي لأن بعثة رسل الله الذين جاءوا بعد نوح وإبراهيم ومن سبق من ذريتهما أعظم مما كان لدى ذرية إبراهيم قبل إرسال الرسل الذين قفى الله بهم، إذ أرسلوا إلى أمم كثيرة مثل عاد وثمود وبني إسرائيل وفيهم شريعة عظيمة وهي شريعة التوراة.
والتقفية: إتباع الرسول برسول آخر، مشتقة من القفا لأنه يأتي بعده فكأنه يمشي عن جهة قفاه، وقد تقدم في قوله تعالى)ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل(في سورة البقرة.
والآثار: مجع الأثر، وهو ما يتركه السائر من مواقع رجليه في الأرض، قال تعالى)فارتدا على آثارهما قصصا(.
وضمير الجمع في قوله)على آثارهم(عائد إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب، فأما الذين كانت فيهم النبوة فكثيرون، وأما الذين كان فيهم الكتاب فمثل بني إسرائيل.

و)على(للاستعلاء. وأصل)قفى على أثره(يدل على قرب ما بين الماشين، أي حضر الماشي الثاني قبل أن يزول أثر الماشي الأول، وشاع ذلك حتى صار قولهم: على أثره، بمعنى بعده بقليل أو متصلا شأنه بشأن سابقه، وهذا تعريف للأمة بأن الله أرسل رسلا كثيرين على وجه الإجمال وهو تمهيد للمقصود من ذكر الرسول الأخير الذي جاء قبل الإسلام وهو عيسى عليه السلام.

وفي إعادة الفعل)قفينا(وعدم إعادة)على آثارهم(إشارة إلى بعد المدة بين آخر رسل إسرائيل وبين عيسى فإن آخر رسل إسرائيل كان يونس بن متى أرسل إلى أهل نينوى أول القرن الثامن قبل المسيح فلذلك لم يكن عيسى مرسلا على آثار من قبله من الرسل.

والإنجيل: هو الوحي الذي أنزله الله على عيسى وكتبه الحواريون في أثناء ذكر سيرته.

صفحة : 4317

والإنجيل: بكسر الهمزة وفتحها معرب تقدم بيانه أول سورة عمران. ومعنى جعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه أن تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى أمرهم أمرتهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها، أو إن ارتياضهم بسيرة عيسى عليه السلام أرسخ ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى لأنه أمرهم به ويسره عليهم.

ذلك أن عيسى بعث لتهذيب نفوس اليهود واقتلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيال طويلة قال تعالى)ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي الحجارة أو أشد قسوة(في سورة البقرة.

والرأفة: الرحمة المتعلقة بدفع الأذى والضر فهي رحمة خاصة، وتقدمت في قوله تعالى)أن الله بالناس لرؤوف رحيم(في سورة البقرة وفي قوله)ولا تأخذكم بها رأفة في دين الله(في سورة النور.

والرحمة: العطف والملاينة، وتقدمت في أول سورة الفاتحة.

فعطف الرحمة على الرأفة من عطف العام على الخالص لاستيعاب أنواعه بعد أن اهتم ببعضها.

والرهبانية: اسم للحالة التي يكون الراهب متصفا بها في غالب شؤون دينه، فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس لأن قياس النسب إلى الراهب الراهبية، والنون فيها مزيدة للمبالغة في النسبة

كما زيدت في قولهم: شعراني، لكثير الشعر، ولحياني لعظيم اللحية، وروحاني، ونصراني.

وجعل في الكشاف النون جائية من وصف رهبان مثل نون خشيان من خشي والمبالغة هي هي، إلا أنها مبالغة في الوصف لا في شدة النسبة.

والهاء هاء تأنيث بتأويل الاسم بالحالة وجعل في الكشاف الهاء للمرة.

وأما اسم الراهب التي نسبت إليه الرهبانية فهو وصف عومل معاملة الاسم، وهو العابد من النصراني المنقطع للعبادة، وهو وصف مشتق من الرهب: أي الخوف لأنه شديد الخوف من غضب الله تعالى أو مخالفة دين النصرانية. ويلزم هذه الحالة في عرف النصارى العزلة عن الناس تجنبا لما يشغل عن العبادة وذلك بكنى الصوامع والأديرة وترك التزوج تجنبا للشواغل، وربما أوجبت بعض طوائف الرهبان على الراهب ترك التزوج غلوا في الدين.

وجعل في الكشاف: الرهبانية مشتقة في الرهب، أي الخوف من الجبابرة، أي الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام من اليهود، وأن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعيسى فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية وهي ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين اه.

وأول ما ظهر اضطهاد أتباع المسيح في البلاد اليهودية، فلما تفرع أتباع المسيح وأتباعهم في البلدان ناواهم أهل الإشراك والوثنية في الروم حيث حلوا من البلاد التابعة لهم فحدثت فيهم أحوال من التقنية هي التي دعاها صاحب الكشاف بمقاتلة الجبابرة.

فالراهب يمتنع من التزوج خفية أن تشغله زوجه عن عبادته، ويمتنع من مخالطة الأصحاب خشية أن يلهوا عن العبادة، ويترك لذائذ المآكل والملابس خشية أن يقع في اكتساب المال الحرام، وأنهم أرادوا التشبيه بعيسى عليه السلام في الزهد في الدنيا وترك التزوج، فلذلك قال الله تعالى)ابتدعوها(، أي أحدثوها فإن الابتداع الإتيان بالبدعة والبدع وهو ما لم 0يكن معروفا، أي أحدثوها بعد رسولهم فإن البدعة ما كان محدثا بعد صاحب الشريعة.

ونصب)رهبانية(على طريقة الاشتغال. والتقدير وابتدعوا رهبانية) وليس معطوفا على رأفة ورحمة(لأن هذه الرهبانية لم تكن مما شرع الله لهم فلا يستقيم كونها مفعولا ل)جعلنا(، ولأن الرهبانية عمل لا يتعلق بالقلوب وفعل)جعلنا(مقيد ب)في قلوب الذين اتبعوه(فتكون مفعولاته مقيدة بذلك، إلا أن يتأول جعلها في القلوب بجعل حبها كقوله تعالى)وأشربوا في قلوبهم العجل(..

وعلى اختيار هذا الإعراب مضى المحققون مثل أبي علي الفارسي والزجاج والزمخشري والقرطبي. وجوز الزمخشري أن يكون عطفا على)رأفة رحمة(. واتهم أبن عطية هذا الإعراب بأنه إعراب المعتزلة فقال: والمعتزلة تعرب رهبانية أنها نصب بإضمار فعل يفسره)ابتدعوها(ويذهبون في ذلك إلى أن الإنسان يخلق أفعاله فيعربون الآية على هذا اه. وليس في هذا الإعراب حجة لهم ولا في إبطاله نفع لمخالفتهم كما علمت.

وإنما عطفت هذه الجملة على جملة)وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه(لاشتراك مضمون الجملتين في أنه من الفضائل المراد بها رضوان الله.

صفحة : 4318

ومعنى: وابتدعوا لأنفسهم رهبانية ما شرعناه لهم ولكنهم اتبغوا بها رضوان الله فقبلها الله منهم لأن سياق حكاية ذلك عنهم يقتضي الثناء عليهم في أحوالهم.

وضمير الرفع من)ابتدعوها(عائد إلى الذين اتبعوا عيسى. والمعنى: أنهم ابتدعوا العمل بها فلا يلزم أن يكون جميعهم اخترع أسلوب الرهبانية ولكن قد يكون بعضهم سنها وتابعه بقيتهم.

والذين اتبعوه صادقا على من أخذوا بالنصرانية كلهم، وأعظم مراتبهم هم الذين اهتدوا بسيرته اهتداء كاملا وانقطعوا لها وهم القائمون بالعبادة.

والإتيان بالموصول وصلته إشعار بأن جعل الرأفة والرحمة في قلوبهم متسبب عن اتباعهم سيرته وانقطاعهم إليه.

وجملة)ما كتبناها عليهم(مبينة لجملة)ابتدعوها(، وقوله)إلا ابتغاء)رضوان الله(احتراس، ومجموع الجمل الثلاث استطراد واعتراض.

والاستثناء بقوله)إلا ابتغاء رضوان الله(معترض بين جملة)ما كتبناها عليهم(وجملة)وما رعوها(.

وهو استثناء منقطع، والاستثناء المنقطع يشمله حكم العامل في المستثنى منه وإن لم يشمله لفظ المستثنى منه فإن معنى كونه مقطعا أنه منقطع عن مدلول الاسم الذي قبله، وليس منقطعا عن عامله، فالاستثناء يقتضي أن يكون ابتغاء رضوان الله معمولا في المعنى لفعل)كتبناها(فالمعنى: لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، أي أن يبتغوا رضوان الله بكل عمل لا خصوص، الرهبانية التي ابتدعوها، أي أن الله لم يكلفهم بها بعينها.

وقوله)إلا ابتغاء رضوان الله(يجوز أن يكون نفيا لتكليف الله بها ولو في عموم ما يشملها، أي ليست ما يشمله الأمر برضوان الله تعالى وهم ظنوا أنهم يرضون الله بها. ويجوز أن يكون نفيا لبعض أحوال كتابة التكاليف عليهم وهي كتابة الأمر بها بعينها فتكون الرهبانية مما يبتغي به رضوان الله، أي كتبوها على أنفسهم تحقيقا لما فيه رضوان الله، فيكون كقوله تعالى)إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة(، وقول النبي صلى الله عليه وسلم شددوا فشدد الله عليهم في قصة ذبح البقرة. وهذا هو الظاهر من الآية.

وانتصب)ابتغاء(على المفعول به لفعل)كتبناها(، ولك أن تجعله مفعولا لأجله بتقدير فعل محذوف بعد حرف الاستثناء، أي لكنهم ابتدعوها لابتغاء رضوان الله.

وفي هذه الآية على اظهر الاحتمالين إشارة إلى مشروعية تحقيق المناط وهو إثبات العلة في آحاد جزئياتها وإثبات القاعدة الشرعية في صورها.

وفي حجة لانقسام البدعة إلى محمودة ومذمومة بحسب اندراجها تحت نوع من أنواع المشروعية فتعتريها الأحكام الخمسة كما حققه الشهاب القرافي وحذاق العلماء. وأما الذين حاولوا حصرها في الذم فلم يجدوا مصرفا. وقد قام عمر لما جمع الناس على قارئ واحد في قيام رمضان)نعمت البدعة هذه(.

وقد قيل: إنهم ابتدئوا الرهبانية للانقطاع عن جماعات الشرك من اليونان والروم وعن بطش اليهود، وظاهر أن ذلك طلب رضوان الله كما حكى الله عن أصحاب الكهف)وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا الكهف(. وفي الحديث يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن ، وعليه فيكون التزوج عارضا اقتضاه الانقطاع عن المدن والجماعات فظنه الذين جاءوا من بعدهم أصلا من أصول الرهبانية.

وأما ترك المسيح التزوج فلعله لعارض آخر أمره الله به لأجله، وليس ترك التزوج من شؤون النبوءة فقد كان لجميع الأنبياء أزواج قال تعالى)وجعلنا لهم أزواجا وذرية(.

وقيل: إن ابتداعهم الرهبانية بأنهم نذروا لله وكان الانقطاع عن اللذائذ وإعنات النفس من وجود التقرب في بعض الشرائع الماضية بقيت إلى أن بطلها الإسلام في حديث النذر في الموطأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأي رجلا قاما في الشمس صامتا فسأل عنه فقالوا: نذر أن لا يتكلم أو لا يستظل وأن يصوم يومه فقال: مروه فليتكلم وليستظل وليتم إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني . وقد مضى في سورة مريم قوله تعالى)فقولي إني نذرت

للرحمان صوما فلم أكلم اليوم إنسيا(ولا تنافي بين القولين لأن أسباب الرهبانية قد تعددت باختلاف الأديان.

صفحة : 4319

وقد فرع على قوله)ابتدعوها(و)ما كتبناها عليهم(وما بعد قوله) فما رعوها حق رعايتها(أي فترتب على التزامهم الرهبانية أنهم، أي الملتزمين للرهبانية ما رعوها حق رعايتها. وظاهر الآية أن جميعهم قصروا تقصيرا متفاوتا، قصروا في أداء حقها، وفيه إشعار بأن? ما يكتبه الله على العباد من التكاليف لا يشق على الناس العمل به.
والرعي: الحفظ، أي ما حفظوها حق حفظها، واستعير الحفظ لاستيفاء ما تقتضيه ماهية الفعل، فالرهبانية تحوم حول الإعراض عن اللذائذ الزائلة وإلى التعود على الصبر على ترك المحبوبات لئلا يشغله اللهو بها عن العبادة والنظر في آيات الله، فإذا وقع التقصير، في التزامها في بعض الأزمان أو التفريط في بعض الأنواع فقد انتفى حق حفظها.
و)حق رعايتها(من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي رعايتها الحق.
وحق الشيء: هو وقوعه على أكمل أحوال نوعه، وهو منصوب على المفعول المطلق المبين للنوع.
والمعنى: ما حفظوا شؤون الرهبانية حفظا كاملا فمصب النفي هو القيد بوصف)حق رعايتها(.
وهذا الانتفاء له مراتب كثير، والكلام مسوق مساق اللوم على تقصيرهم فيما التزموه أو نذروه، وذلك تقهقر عن مراتب الكمال وإنما ينبغي للمتقي أن يكون مزدادا من الكلام.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم احب الدين إلى الله أدومه .
وقوله)فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم(تفريع على جملة)وجعلنا في قلوب الذين أتبعوا(إلى آخرها وما بينها استطراد.
والمراد ب)الذين آمنوا(المتصفون بالإيمان المصطلح عليه بالقرآن، وهو توحيد الله تعالى والإيمان برسله في كل زمان، أي فآتيناه الذين آمنوا من الذين أتبعوه أجرهم، أي الذين لم يخلقوا متابعتهم إياه بما يفسدها مثل الذين اعتقدوا إلهية عيسى عليه السلام أو بنوته لله، ونحوهم من النصارى الذي أدخلوا في الدين ما هو مناقض لقواعده وهم كثير من النصارى كما قال)وكثير منهم فاسقون(.
والمراد بالفسق: الكفر وهذا ثناء عن المؤمنين الصادقين ممن مضوا من النصارى قبل البعثة المحمدية وبلوغ دعوتها إلى النصارى،

وادعاؤهم أنهم أتباع المسيح باطل لأنهم ما أتبعوه إلا في الصورة والذين أفسدوا إيمانهم بنقص حصوله هم المراد بقوله تعالى)وكثير منهم فاسقون(، أي وكثير من الذين التزموا دينهم خارجون عن الإيمان، فالمراد بالفسق ما يشمل الكفر وما دونه مثل الذين بدلوا الكتاب واستخفوا كما قال تعالى)يا أيها الذين آمنوا إن كثير من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله(.

)يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم[28] (الغالب في القرآن أن الذين آمنوا لقب للمؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم ولكن لما وقع)يا أيها الذين آمنوا(هنا عقب قوله)فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم(، أي من الذين أتبعوا عيسى عليه السلام، أحتمل قوله ?)يا أيها الذين آمنوا(أن يكون مستعملا استعماله اللقبي أعني: كونه كالعلم بالغلبة على مؤمني ملة الإسلام. وأحتمل أن يكون قد أستعمل استعماله اللغوي الأعم، أعني: من حصل منه إيمان، وهو هنا من آمن بعيسى. والأظهر أن هذين الاحتمالين مقصودان ليأخذ خلص النصارى من هذا الكلام حظهم وهو دعوتهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ليستكملوا ما سبق من إتباعهم عيسى فيكون الخطاب موجها إلى الموجودين ممن آمنوا بعيسى، أي يا أيها الذين آمنوا إيمانا خالصا بشريعة عيسى اتقوا الله واخشوا عقابه واتركوا العصبية والحسد وسوء النظر وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وأما احتمال أن يراد بالذين آمنوا الإطلاق اللقبي فيأخذ منه المؤمنون أهل الملة الإسلامية بشارة بأنهم لا يقل أجرهم عن أجر مؤمني أهل الكتاب لأنهم لما آمنوا بالرسل السابقين أعطاهم الله أجر مؤني ?أهل مللهم، ويكون قوله)وآمنوا(مستعملا في الدوام على الإيمان كقوله ?)يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله(في سورة النساء، ويكون إقحام الأمر بالتقوى في هذا الاحتمال قصدا لأن يحصل في الكلام أمر بشيء يتجدد ثم يردف عليه أمر يفهم منه أن المراد به طلب الدوام وهذا من بديع نظم القرآن.

صفحة : 4320

ومعنى إيتاء المؤمنين من أهل ملة الإسلام كفلين من الأجر: أن لهم مثل أجري من آمن من أهل الكتاب. ويشرح هذا حديث أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري

الذين فيه مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل لرجل استأجر إجراء يعملون له، فعملت اليهود إلى نصف النهار، وعملت النصارى من الظهر إلى العصر على قيراط، ثم عمل المسلمون من العصر إلى الغروب على قيراطين، قال فيه: واستكملوا أجر الفريقين كليهما ، أي استكملوا مثل أجر الفريقين أي أخذوا ضعف كل فريق.

وتقوى الله تتعلق بالأعمال وبالاعتقاد، وبعلم الشريعة وقد استدل أصحابنا على وجوب الاجتهاد للمتأهل إليه بقوله تعالى)فاتقوا الله ما استطعتم(.

وقوله)اتقوا الله(أمر لهم بما هو وسيلة ومقدمة للمقصود وهو الأمر بقوله)وآمنوا برسوله(.

ورتب على هذا الأمر ما هو جواب شرط محذوف وهو جملة) يؤتكم كفلين(الخ المجزوم في جواب الأمر، أي يؤتكم جزاء في الآخرة وجزاء في الدنيا فجزاء الآخرة قوله)يؤتكم كفلين من رحمته(وقوله)ويغفر لكم(، وجزاء الدنيا قوله)ويجعل لكم نورا تمشون به(.

والكفل: بكسر الكاف وسكون الفاء: والنصيب.?? وأصله: الأجر المضاعف، وهو معرب من الحبشية كما قال أبو موسى الأشعري، أي يؤتكم أجرين عظيمين، وكل أجر منهما هو ضعف الآخر مماثل له ???فلذلك ثني كفلين كما يقال: زوج، لأحد المتقاربين، هذا مثل قوله تعالى)ربنا آتهم ضعفين من العذاب(وقوله)يضاف له العذاب ضعفين(. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يوتون أجورهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، واتبعني، وصدقني فله أجران الحديث.

ويتعلق)من رحمته(ب)يؤتكم(، و)من(ابتدائية مجازية، أي ذلك من رحمة الله بكم، وهذا في جانب النصارى معناه بإيمانهم بمحمد معناه لإيمانهم بمحمد وإيمانهم بعيسى، من فضل الله وإكرامه وإلا فإن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واجب كأيمانهم بعيسى وهو متمم للإيمان بعيسى وإنما ضوعف أجرهم لما في النفوس من التعلق بما تدين به فيسعر عليها تركه، وأما في جانب المسلمين فهو إكرام لهم لئلا يفوقهم بعض من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من النصارى.

ويجوز أن يكون)من رحمته(صفة ل)كفلين(وتكون)من(بيانية، والكلام على حذف مضاف، تقديره: وهو ثواب الجنة ونعيمها.

وقوله)ويجعلون لكم نورا تمشون به(تمثيل لحال القوم الطالبين التحصيل على رضى الله تعالى والفوز بالنعيم الخائفين من الوقوع في ضد ذلك بحالة قوم يمشون في طريق بليل يخشون الخطأ فيه

فيعطون نورا يتربصون بالثنايا فيأمنون الضلال فيه. والمعنى: ويجعل لكم حالة كحالة نور تمشون به، والباء للاستعانة مثل كتبت بالقلم.
والمعنى: وييسر لكم دلالة تهتدون بها إلى الحق.
وجميع أجزاء هذا التمثيل صالحة لتكون استعارات منفردة، وهذا أبلغ أحوال التمثيل، وقد عرف بالقرآن تشبيه الهدى بالنور، والضلال بالظلمة، والبرهان بالطريق، وإعمال النظر بالمشي، وشاع ذلك بعد القرآن في كلام أدباء عربية.
والمغفرة: جزاء على امتثالهم م أمروا به، أي يغفر لكم ما فرط منكم من الكفر والضلال.
)لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[29](

صفحة : 4321

اسم)أهل الكتاب(لقب في القرآن لليهود والنصارى الذين لم يتدينوا بالإسلام لأن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل إذ أضيف إليه) أهل(، فلا يطلق على المسلمين: أهل الكتاب، وإن كان لهم كتاب، فمن صار مسلما من اليهود والنصارى لا يوصف بأنه من أهل الكتاب في اصطلاح القرآن، ولذلك لما وصف عبد الله بن سلام في القرآن وصف بقوله)ومن عنده علم الكتاب(وقوله)وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله(، فلما كان المتحدث عنهم آنفا صاروا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد أنسلخ عنهم وصف أهل الكتاب، فبقي الوصف بذلك خاصة باليهود والنصارى، فلما دعا الله الذين اتبعوا المسيح إلى الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ووعدهم بمضاعفة ثواب ذلك الإيمان، أعلمهم أن إيمانهم يبطل ما ينتحله إتباع المسيحية بعد ذلك من الفضل والشرف لأنفسهم بدوامهم على متابعة عيسى عليه السلام فيغالطوا الناس بأنهم إن فاتهم فضل الإسلام لم يفتهم شيء من الفضل باتباع عيسى مع كونهم لم يغيروا دينهم.
وقد أفاد هذا المعنى قوله تعالى)لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله(.
قال الفخر: قال الواحدي: هذه آية مشكلة وليس للمفسرين كلام واضح في اتصالها بما قبلها اه. هل هي متصلة بقوله)يؤتكم كفلين من رحمته(الآية، أو متصلة)فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم(إلى قوله)والله غفور رحيم(. يريد الواحدي أن اتصال الآية ما قبلها ينبني عليه معنى قوله تعالى)لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله(.

فاللام في قوله)لئلا يعلم أهل الكتاب(يحتمل أن يكون تعليلية فيكون ما بعدها معلولا بما قبلها، وعليه فحرف)لا(يجوز أن يكون زائدا للتأكيد والتقوية.

والمعلل هو ما يرج إلى فضل الله لا محالة وذلك ما تضمنه قوله)يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم(أو قوله)فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم(إلى)غفور رحيم(.

وذهب جمهور المفسرين إلى جعل)لا(زائدة. وإن المعنى على الإثبات، أي لأن يعلم، وهو قول أبن عباس وقرأ) ليعلم(، وقرأ أيضا)لكي يعلم( )قراءته تفسير(. وهذا قول الفراء والأخفش، ودرج عليه الزمخشري في الكشاف وأبن عطية وأبن هشام في مغنى اللبيب، وهو بناء على أن)لا(قد تقع زائدة وهو ما أثبته الأخفش، ومنه قوله تعالى)وما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني(وقوله)وما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك(وقوله)فلا أقسم بمواقع النجوم(ونحو ذلك وقوله)وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون(على أحد تأويلات، وري أن العرب جعلتها حشوا في قول الشاعر أنشده أبو عمر بن العلاء:

أبي جوده لا البخل واستعجلت به)

نعم(من فتى لا يمنع الجود قائله وفي رواية بنصب)البخل(، وأن العرب فسروا البيت بمعنى أبي جوده البخل.

والمعنى: على هذا الوجه أم المعلل هو تبليغ هذا الخبر إلى أهل الكتاب ليعلموا أن فضل الله أعطي غيرهم فلا يتبجحوا بأنهم على فضل لا ينقص عن فضل غيرهم إذ كان لغيرهم فضل وهو الموافق لتفسير مجاهد وقتادة.

وعندي: أنه لا يعطي معنى لأن إخبار القرآن بأن للمسلمين أجرين لا يصدق به أهل الكتاب فلا يستقر به علمهم بأنهم لا فضل له فكيف يعلل إخبار الله به بأنه يزيل علم أهل الكتاب بفضل أنفسهم فيعلمون أنهم لا فضل لهم.

وذهب أبو مسلم الأصفهاني وتبعه جماعة إلى أن)لا(نافية، وقرره الفخر بأن ضمير)يقدرون(عائد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به أي على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة وأصله أن لا تقدروا وإذا انتفى علم أهل الكتاب بأن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين لا يقدرون على شيء من فضل الله ثبت ضد ذلك في علمهم أي كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين يقدرون على فضل الله، ويكون) يقدرون(مستعارا لمعنى: ينالون، وأن الفضل بيد الله، فهو الذي فضلهم، فيكون ذلك كناية عن انتفاء الفضل عن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ويرد على هذا التفسير ما ورد الذين قبله لأن علم أهل الكتاب لا يحصل بأخبار القرآن لأنهم يكذبون به.

صفحة : 4322

وأنا أرى أن دعوى زيادة)لا(لا داعي إليها، وأن بقائها على أصل معناها وهو النفي متعين، وتجعل اللام للعاقبة، أي أعطيناكم هذا الفضل وحرم منه أهل الكتاب فبقي أهل الكتاب في جهلهم وغرورهم بأن لهم الفضل المستمر ولا يحصل لهم علم بانتفاء أن يكونوا يملكون فضل الله ولا أن الله قد أعطى الفضل قوما آخرين وحرمهم إياه فينسون أن الفضل بيد الله، وليس أحد يستحقه بالذات.

وبهذا الغرور استمروا على التمسك بدينهم القديم، ومعلوم أن لام العاقبة أصلها التعليل المجازي كما علمته في تفسير قوله تعالى) فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا(في سورة القصص.

وقوله)أهل الكتاب(يجوز أن يكون صادقا على اليهود خاصة إن جعل التعليل تعليلا لمجموع قوله)فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم(وقوله)يؤتكم كفلين من رحمته(. ويجوز أن يكون صادقا على اليهود والنصارى إذ جعل لام التعليل علة لقوله)يؤتكم كفلين من رحمته(.

و)أن(من قوله)أن لا يقدرون(مخففة من)أن(واسمها ضمير شأن محذوف.

والمعنى: لا تكترثوا بعدم علم أهل الكتاب بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله وبأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، أي لا تكترثوا بجهلهم المركب في استمرارهم على الاغترار بأن لهم منزلة عند الله تعالى فإن الله عالم بذلك وهو خلقهم فهم لا يقلعون عنه، وهذا مثل قوله تعالى)ختم الله على قلوبهم(في سورة البقرة.

وجملة)والله ذو الفضل العظيم(تذييل يعم الفضل الذي آتاه الله أهل الكتاب المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وغيره من الفضل.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المجادلة

سميت هذه السورة في كتب التفسير وفي المصاحف وكتب السنة)سورة المجادلة(بكسر الدال أو بفتحه كما سيأتي. وتسمى)سورة قد سمع(وهذا الاسم مشتهر في الكتاتيب في تونس، وسميت في مصحف أبي بن كعب)سورة الظهار(.

ووجه تسميتها)سورة المجادلة(لأنها افتتحت بقضية مجادلة امرأة أوس بن الصامت لدى النبي صلى الله عليه وسلم في شأن مظاهرة زوجها.

ولم يذكر المفسرون ولا شاركوا كتب السنة ضبطه بكسر الدال أو فتحها. وذكر الخفاجي في حاشية البيضاوي عن الكشف أن كسر الدال هو المعروف ولم أدر ما أراد الخفاجي بالكشف الذي عزا إليه هذا ، فكشف القزويني على الكشاف لا يوجد فيه ذلك، ولا في تفسير المسمى الكشف والبيان للثعلبي. فلعل الخفاجي رأى ذلك في الكشف الذي ينقل عنه الطيبي في مواضع تقريرات لكلام الكشاف وهو غير معروف في عداد شروح الكشاف، وكسر الدال أظهر لأن السورة افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال، وهي التي ذكرها الله بقوله)التي تجادلك في زوجها(. ورأيت في نسخة من حاشية محمد الهمذاني على الكشاف المسماة توضيح المشكلات، بخط مؤلفها جعل علامة كسرة تحت دال المجادلة. وأما فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل) تجادلك(كما عبر عنها بالتحاور في قوله تعالى)والله يسمع تحاوركما(.

وهذه السورة مدنية قال ابن عطية بالإجماع. وفي تفسير القرطبي عن عطاء: أن العشر الأولى منها مدني وباقيها مكي. وفيه عن الكلبي أنها مدنية إلا قوله تعالى)وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم(الآية نزلت بمكة.

وهي السورة المائة وثلاث من عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة المنافقين وقبل سورة التحريم.

والذي يظهر أن سورة المجادلة نزلت قبل سورة الأحزاب لأن الله تعالى قال في سورة الأحزاب)وما جعل أزواجكم اللاء تظهرون منهن أمهاتكم(، وذلك يقتضي أن تكون هذه الآية نزلت بعد إبطال حكم الظهار بما في سورة المجادلة لأن قوله)ما جعل(يقتضي إبطال التحريم بالمظاهرة. وإنما أبطل بآية سورة المجادلة. وقال السخاوي: نزلت سورة المجادلة بعد سورة المنافقين وقبل سورة الحجرات.

وآيها في عد أهل المدينة وأهل مكة إحدى وعشرون، وفي عد أهل الشام والبصرة والكوفة إثنتان وعشرون.

أغراض هاته السورة

الحكم في قضية مظاهرة أوس بن الصامت من زوجه خولة.

وإبطال ما كان في الجاهلية من تحريم المرأة إذا ظاهر منها زوجها وإن عمله المخالف لما أراده الله وأنه من أوهامهم وزورهم

التي كبتهم الله بإبطالها. وتخلص من ذلك إلى ضلالات المنافقين ومنها مناجاتهم بمرأى المؤمنين ليغيضوهم ويحزنوهم.

صفحة : 4323

ومنها موالاتهم اليهود. وحلفهم على الكذب.
وتخلل ذلك التعرض بآداب مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم.
وشرع التصدق قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم.
والثناء على المؤمنين في مجافاتهم اليهود والمشركين.
وأن الله ورسوله وحزبهما هم الغالبون.
)قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير[1](افتتحت آيات أحكام الظهار بذكر سبب نزولها تنويها بالمرأة التي وجهت شكواها إلى الله تعالى بأنها لم تقصر في طلب العدل في حقها وفي بنيها. ولم ترض بعنجهية زوجها وابتداره إلى ما ينثر عقد عائلته دون تبصر ولا روية، وتعليما لنساء الأمة الإسلامية، ورجالها واجب الذود عن مصالحها.
تلك هي قضية المرأة خولة أو خويلة مصغرا أو جميلة بنت مالك بنت ثعلبة أو بنت دليج)مصغرا(العوفية. وربما قالوا: الخزرجية، وهي من بني عوف بن مالك بن الخزرج. من بطون الأنصار مع زوجها أوس بن الصامت الخزرجي أخي عبادة بن الصامت.
قيل: إن سبب حدوث هذه القضية أن زوجها رآها وهي تصلي وكانت حسنة الجسم، فلما سلمت أرادها فأبت فغضب وكان قد ساء خلقه فقال لها: أنت علي كظهر أمي.
قال ابن عباس وكان هذا في الجاهلية تحريما للمرأة مؤبدا أي وعمل به المسلمون في المدينة بعلم من النبي صلى الله عليه وسلم وإقراره الناس عليه فاستقر مشروعا فجاءت خولة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرت له ذلك، فقال لها: حرمت عليه، فقالت للرسول صلى الله عليه وسلم: إن لي صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا، فقال ما عندي في أمرك شيء، فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقا. وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إلي فقال: حرمت عليه. فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي. كلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمت عليه هتفت وشكت إلى الله، فأنزل الله هذه الآيات.
وهذا الحديث رواه داود في كتاب الظهار مجملا بسند صحيح. وأما تفصيل قصته فمن روايات أهل التفسير وأسباب النزول يزيد بعضها

على بعض، وقد استقصاها الطبري بأسانيده عن ابن عباس وقتادة وأبي العالية ومحمد بن كعب القرظي وكلها متفقة على أن المرأة المجادلة هي خولة أو خويلة أو جميلة، وعلى أن زوجها أوس بن الصامت.

وروى الترمذي وأبو داود حديثا في الظهار في قصة أخرى منسوبة إلى سلمة بن صخر البياضي تشبه قصة خولة أنه ظاهر من امرأته ظهارا موقنا برمضان ثم غلبته نفسه فوطئها واستفتى في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر القصة، إلا أنهما لم يذكرا أن الآية نزلت في ذلك.

وإنما نسب ابن عطية إلى النقاش أن الآية نزلت بسبب قصة سلمة ولا يعرف هذا لغيره. وأحسب أن ذلك اختلاط بين القصتين وكيف يصح ذلك وصريح الآية أن السائلة امرأة والذي في حديث سلمة بن صخر أنه هو السائل.

و)قد(أصله حرف تحقيق للخبر، فهو من حروف توكيد الخبر ولكن الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يخامره تردد في أن الله يعلم ما قالته المرأة التي جادلت في زوجها. فتعين أن حرف)قد(هنا مستعمل في التوقع، أي الإشعار بحصول ما يتوقعه السامع. قال في الكشاف لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجادلة كان يتوقعان أن يسمع الله لمجادلتها وشكواها وينزل في ذلك ما يفرج عنها اه.

ومعنى التوقع الذي يؤذن به حرف)قد(في مثل هذا يؤول إلى تنزيل الذي يتوقع حصوله أمر لشدة استشرافه له منزلة المتردد الطالب فتحقيق الخبر من تخريج الكلام على مختلف مقتضى الظاهر لنكتة كما قالوا في تأكيد الخبر ب)إن(في قوله تعالى)ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون(إنه جعل غير السائل كالسائل حيث قدم إليه ما يلوح أليه بالخبر فيستشرف له استشراف الطالب المتردد. ولهذا جزم الرضي في شرح الكافية بأن)قد(لا بد فيها من معنى التحقيق. ثم يضاف إليه بعض المواضع معان أخرى.

والسماع في قوله)سمع(معناه الاستجابة للمطلوب وقبوله بقرينة دخول)قد(التوقعية عليه فإن المتوقع هو استجابة شكواها.

وقد استحضرت المرأة بعنوان الصلة تنويها بمجادلتها وشكواها لأنها دلت على توكلها الصادق على رحمة ربها بها وبأبنائها وبزوجها.

والمجادلة: الاحتجاج والاستدلال، وتقدمت في قوله)يجادلونك في الحق بعد ما تبين(في سورة الأنفال.
والاشتكاء مبالغة في الشكوى وهي ذكر ما آذاه، يقال: شكى وتشكى واشتكى وأكثرها مبالغة: اشتكى والأكثر أن تكون الشكاية لقصد طلب إزالة الضر الذي يشتكي منه بحكم أو نصر أو إشارة بحيلة خلاص.
وتعلق فعل التجادل بالكون في زوجها على نية مضاف معلوم من المقام في مثل هذا أي في شأن زوجها وقضيته كقوله تعالى) يجادلنا في قوم لوط(وقوله)ولا تخاطبني في الذين ظلموا(وهو من المسألة الملقبة في أصول الفقه بإضافة التحليل والتحريم إلى الأعيان في نحو)حرمت عليكم الميتة(. والتحاور تفاعل من حار، إذا أجاب فالتحاور حصول الجواب من جانبين فاقتضت مراجعة بين شخصين.
والسماع في قوله)والله يسمع تحاوركما(مستعمل في معناه الحقيقي المناسب لصفات الله إذ لا صارف يصرف عن الحقيقة. وكون الله تعالى عالما بما جرى من المحاورة معلوم لا يراد من الإخبار به إفادة الحكم، فتعين صرف الخبر إلى إرادة الاعتناء بذلك التحاور والتنويه به وبعظيم منزلته لاشتماله على ترقب النبي صلى الله عليه وسلم ما ينزله عليه وحي، وترقب المرأة الرحمة، وإلا فإن المسلمين يعلمون أن الله عالم بتحاورهما.
وجملة)والله يسمع تحاوركما(في موضع الحال من ضمير) تجادلك(. وجيء بصيغة المضارع لاستحضار مقارنة علم الله لتحاورهما زيادة في التنويه بشأن ذلك التحاور.
وجملة)الله سميع بصير(تذييل لجملة)والله يسمع تحاوركما(أي أن الله عالم بكل صوت وبكل مرئي. ومن ذلك محاورة المجادلة ووقوعها عند النبي صلى الله عليه وسلم. وتكرير اسم الجلالة في موضع إضماره ثلاث مرات لتربية المهابة وإثارة تعظيم منته تعالى ودواعي شكره.
)الذين يظهرون منكم من نسائكم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا ألآئي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور[2](تتنزل جملة)الذين يظهرون منكم من نسائكم(وما يتم أحكامها منزلة البيان لجملة)قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها(الآية لأن فيها مخرجا مما بحق بالمجادلة من ضر بظهار زوجها، وإبطالا له، ولها أيضا موقع الاستئناف البياني لجملة)قد سمع الله(فإن قوله)قد سمع الله(يثير سؤالا في النفس أن تقول: فماذا نشأ عن استجابة الله لشكوى المجادلة فيجاب بما فيه المخرج لها منه.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب)يظهرون(بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء مفتوحتين بدون ألف بعد الظاء على أن أصله: يتظهرون، فأدغمت التاء في الظاء لقرب مخرجيهما، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف يظاهرون بفتح الياء وتشديد الظاء والألف بعدها على أن أصله: يتظاهرون، فأدغمت التاء كما تقدم، وقرأ عاصم)يظاهرون(بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء على أنه مضارع ظاهر.

ولم يأت مصدره إلا على وزن الفعال ووزن المفاعلة. يقال: صدر منه ظهار ومظاهرة، ولم يقولوا في مصدره بوزن التظهر فقرأ نافع قد استغنى فيها عن مصدره بمصدر مرادفه.

ومعناه أن يقول الرجل لزوجه: أنت علي كظهر أمي. وكان هذا قولا يقولونه في الجاهلية يريدون به تأبيد تحريم نكاحا وبت عصمته. وهو مشتق من الظهر ضد البطن لأن الذي يقول لامرأته أنت علي كظهر أمي يريد ذلك أنه حرمها على نفسه. كما أن أمه حرام عليه، فإسناد تركيب التشبيه إلى ضمير المرأة على تقدير حالة من حالاتها، وهي حالة الاستمتاع المعروف، سلكوا في هذا التحريم مسلك الاستعارة المكنية بتشبيه الزوجة حين يقربها زوجها بالراحلة، وإثبات الظهر لها تخيل للاستعارة، ثم تشبيه ظهر زوجته بظهر أمه، أي في حالة من أحواله، وهي حالة الاستمتاع المعروف. وجعل المشبه ذات الزوجة. والمقصود أخص أحوال الزوجة وهو حال قربانها فآل إلى إضافة الأحكام إلى الأعيان.

فالتقدير: قربانك كقربان ظهر أمي، أي اعتلائها الخاص. ففي هذه الصيغة حدث ومجيء حروف لفظ ظهر في صيغة ظهار أو مظاهرة يشير إلى صيغة التحريم التي هي)أنت علي كظهر أمي(إيماء إلى تلك الصيغة على نحو ما يستعمل في النحت وليس هو من النحت لأن النحت يشتمل على حروف من عدة كلمات.

صفحة : 4325

قال المفسرون وأهل اللغة كان الظهار طلاقا في الجاهلية يقتضي تأبيد التحريم.

وأحسب أنه كان طلاقا عند أهل يثرب وما حولها لكثرة مخالطتهم اليهود ولا أحسب أنه كان معروفا عند العرب في مكة وتهامة ونجد وغيرها ولم أقف على ذلك في كلامهم. وحسب أن لم يذكر في القرآن إلا في المدني هنا وفي سورة الأحزاب.

والذي يلوح لي أن أهل يثرب ابتدعوا هذه الصيغة للمبالغة في التحريم، فإنهم كانوا قبل الإسلام ممتزجين باليهود متخلقين بعوائلهم وكان اليهود يمنعون أن يأتي الرجل امرأته من جهة خلفها كما تقدم في قوله تعالى)فأتوا حرثكم أنى شئتم(الصيغة تغليظا من التحريم وهي أنها كأمه، بل كظهر أمه. فجاءت صيغة شنيعة فضيعة.

وخذوا من صيغة أنت علي كظهر أمي أصرح الفاظها وأخصها بغرضها وهو لفظ ظهر فاشتقوا منه الفعل بزناة متعددة، يقول: ظاهر من امرأته، وظهر مثل ضاعف وضعف، ويدخلون عليهما تاء المطاوعة.

فيقولون: تظاهر منها وتظهر، وليس هذا من قبيل النحت نحو: بسمل، وهلل، لعدم وجود حرف من الكلمات الموجودة في الجملة كلها.

والخطاب في قوله)منكم(يجوز أن يكون للمسلمين، فيكون ذكر هذا الوصف لتعميم بيانا لمدلول الصلة من قوله)الذين يظهرون(لئلا يتوهم إرادة معين للصلة.

و)من(بيانية كشأنها بعد الأسماء المبهمة فعلم أن هذا الحكم تشريع عام لكل مظاهر. وليس خصوصية لخولة ولا لأمثالها من النساء ذوات الخصاصة وكثرة الأولاد.

وأما)من(في قوله)من نسائهم(فابتدائية متعلقة ب)يظهرون(بتضمنه معنى البعد إذ هو كان طلاقا والطلاق يبعد أحد الزوجين عن الآخر، فاجتلب له حرف الابتداء. كما يقال: خرج من البلد.

وقد تبين أن المتعارف في صيغة الظهار أن تشتمل على ما يدل على الزوجة والظهر والأم دون التفات إلى ما يربط هذه الكلمات الثلاثة من دون الربط من أفعال وحروف نحو: أنت علي كظهر أمي، وأنت مني مثل ظهر أمي أو كوني لي كظهر أمي، أو نحو ذلك.

فأما إذا فقد بعض الألفاظ الثلاثة أو جميعها. نحو: وجهك علي كظهر أمي. أو كجنب أمي، أو كظهر جدتي، أو ابنتي، من كل كلام يفيد تشبيه الزوجة، أو إلحاقها بإحدى النساء من محارمه بقصد تحريم قربانها، فذلك كله من الظهار في أشهر أقوال مالك وأقوال أصحابه وجمهور الفقهاء، ولا ينتقل إلى صيغة الطلاق أو التحريم لأن الله أراد التوسعة على الناس وعدم المؤاخذة.

ولم يشر القرآن إلى اسم الظهر ولا إلى اسم الأم إلا مراعاة للصيغة المتعارفة بين الناس يومئذ بحيث لا ينتقل الحكم من الظهار إلى صيغة الطلاق إلا إذا تجرد عن تلك الكلمات الثلاث تجردا واضحا.

والصور عديدة وليست الإحاطة بها مفيدة، وذلك من مجال الفتوى وليس من مهيع التفسير.
وجملة)ما هن أمهاتهم(. خبر عن)الذين(، أي ليس أزواجهم أمهات لهم كقول أحدهم: أنت علي كظهر أمي، أي لا تصير الوزج لذلك أما لقائل تلك المقالة.
وهذا تمهيد لإبطال أثر صيغة الظهار في تحريم الزوجة، بما يشير إلى أن الأمومة حقيقية ثابتة لا تصنع بالقول إذ القول لا يبدل حقائق الأشياء، كما قال تعالى في سورة الأحزاب)ذلكم قولكم بأفواهكم(ولذلك أعقب هنا بقوله)إن أمهاتهم إلا اللاء ولدنهم(أي فليست الزوجات المظاهر منهن بصائرات أمهات بذلك الظهار لانعدام حقيقة الأمومة منهن إذ هن لم يلدن القائلين: أنت علي كظهر أمي، فلا يحرمن عليهم، فالقصر في الآية حقيقي، أي فالتحريم بالظهار أمر باطل لا يقتضيه سبب يؤثر إيجاده.
وجملة)إن أمهاتهم(الخ واقعة موقع التعليل لجملة)ما هن أمهاتهم(، وهو تعليل للمقصود من هذا الكلام. أعني إبطال التحريم بلفظ الظهار، إذ كونهن غير أمهاتهم ضروري لا يحتاج إلى التعليل.
وزيد صنيعهم ذما كقوله)وأنهم ليقولون منكرا من القول وزورا(توبيخا لهم على صنيعهم، أي هو مع كونه لا يوجب تحريم المرأة هو قول منكر، أي فبيح لما فيه من تعريض حرمة الأم بتخيلات شنيعة تخطر بمخيلة السامع عندما يسمع قول المظاهر: أنت علي كظهر أمي. وهي حالة يستلزمها ذكر الظهر في قوله: كظهر أمي.

صفحة : 4326

وأحسب أن الفكر الذي أملى صيغة الظهار على أول من نطق بها كان مليئا بالغضب الذي يبعث على بذيء الكلام مثل قولهم: امصص بظر أمك في المشاتمة، وهو أيضا قول زور لأنه كذب إذ لم يحرمها الله. وقد قال تعالى في سورة الأحزاب)وما جعل زواجكم اللاء تظهرون مهن أمهاتكم(.
وتأكيد الخبر ب)إن(واللام، للاهتمام بأيقاظ الناس لشناعته إذ كانوا قد اعتادوه فنزلوا منزلة من يتردد في كونه منكرا أو زورا، وفي هذا دلالة على أن الظهار لم يكن مشروعا في شرع قديم ولا في شريعة الإسلام، وأنه شيء وضعه أهل الجاهلية كما نبه عليه عدة مع تكذيب أكاذيب الجاهلية في قوله تعالى)ما جعل الله لرجلا من

قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاء تظهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم(. وقد تقدم في سورة الأحزاب.

وبعد هذا التوبيخ عطف عليه جملة)وإن الله لعفو(كناية عن عدم مؤاخذتهم بما صدر منهم من الظهار قبل هذه الآية، إذ كان عذرهم أن ذلك قول تابعوا فيه أسلافهم وجرى على ألسنتهم دون تفكر في مدلولاته. وأما بعد نزول هذه الآية فمذهب المالكية: أن حكم إيقاعه الحرمة كما صرح به ابن راشد القفصي في اللباب لقوله بعده) وتلك حدود الله(إن إيقاع الظهار معصيته، ولكونه معصية فسر ابن عطية قوله تعالى)وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا(. وبذلك فسر القرطبي قوله تعالى)وتلك حدود الله(. وقال ابن الفرس: هو حرام لا يحل إيقاعه. ودل على تحريمه ثلاثة أشياء: أحدها: تكذيب الله تعالى من فعل ذلك.

الثاني: أنه سماه منكرا وزورا، والزور الكذب وهو محرم بإجماع.

الثالث: إخباره تعالى عنه بأنه يعفو عمه ويغفر ولا يعفى ويغفر لا على المذنبين.

وأقوال فقهاء الحنفية تدل على أن الظهار معصية ولم يصفه أحد من المالكية ولا الحنفية بأنه كبيرة. ولا حجة في وصفه في الآية بزور، لأن الكذب لا يكون كبيرة إلا إذا أفضى إلى مضرة.

وعد السبكي في جمع الجوامع الظهار من جملة الكبائر وسلمه المحلي. والكاتبون قالوا بأن الله سماه زورا والزور كبيرة فكون الظهار كبيرة قول الشافعية، وفيه نظر فإنهم يعدوا الكذب على الإطلاق كبيرة. وإنما عدوا شهادة الزور كبيرة.

وأعقب)لعفو(بقوله)غفور(فقوله)وإن الله لعفو غفور(في معنى: إن الله عفا عنها وغفر لهم لأنه عفو غفور، يغفر هذا وما هو أشد.

والعفو: الكثير العفو، والعفو عدم المؤاخذة بالفعل أي عفو عن قولهم: الذي هو منكر وزور.

والغفور: الكثير الغفران والغفران الصفح عن فاعل فعل من شأنه أن يعاقبه عليه، فذكر وصف)غفور(بعد وصف)عفو(تتميم لتمجيد الله إذ لا ذنب في المظاهرة حيث لم يسبق فيها نهي، ومع ما فيه من مقابلة شيئين وهما)منكرا(و)زورا(، بشيئين هما)عفو غفور(.

وتأكيد الخبر في قوله تعالى)وإن الله لعفو غفور(لمشاكلة تأكيد مقابله في قوله)وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا(.

وقوله)وإن الله لعفو غفور(يدل على أن المظاهرة بعد نزول هذه الآية منهي عنها وسنذكر ذلك.

وقد أوما قوله تعالى)وأن الله لغفور رحيم(إلى أن مراد الله في هذا الحكم التوسعة عل الناس، فعلمنا أن مقصد الشريعة الإسلامية أن تدور أحكام الظهار على محور التخفيف والتوسعة، فعلى هذا

الاعتبار يجب أن يجري الفقهاء فيما يفتون. ولذلك لا ينبغي أن تلاحظ فيه قاعدة الأخذ بالأحوط ولا قاعدة سد الذريعة، بل يجب أن نسير وراء ما أضاء لنا قوله تعالى)وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور(.

وقد قال مالك في المدونة: لا يقبل المظاهر ولا يباشر ولا ينظر إلى صدر ولا إلى شعر وقال الباجي في المنتقى: فمن أصابنا من حمل ذلك على التحريم ومنهم من حمله على الكراهية لئلا يدعوه إلى الجماع. وبه قال الشافعي وعبد الملك.

قلت: وهذا هو الوجه لأن القرآن ذكر المسيس وهو حقيقة شرعية في الجماع. وقال ما لك لو تظاهر على أربع نسوة بلفظ واحد في مجلس واحد لم تجب عليه إلا كفارة واحدة عند مالك قولا واحدا. وعند أبي حنيفة والشافعي في أحد قوليهما.

والمقصود من هذه الآية إبطال تحريم المرأة التي يظاهر منها زوجها. وتحميق أهل الجاهلية الذين جعلوا الظهار محرما على المظاهر زوجه التي ظاهر منها.

صفحة : 4327

وجعل الله الكفارة فدية لذلك وزجرا ليكف الناس عن هذا القول.

ومن هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم من قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق أي من جرى ذلك عن لسانه بعد أن حرم الله الميسر.

)والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير[3](عطف على جملة)الذين يظهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم(أعيد المبتدأ فيها للاهتمام بالحكم والتصريح بأصحابه وكان مقتضى الكلام أن يقال: فإن يعودوا لما قالوا فتحرير رقبة، فيكون عطفا على جملة الخبر من قوله)ما هن أمهاتكم(.

و)ثم(عاطفة جملة)يعودون(على جملة)يظهرون(، وهي للتراخي الرتبي تعريضا بالتخطئة لهم بأن عادوا إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية بعد أن انقطع ذلك بالإسلام. وذلك عقل بفعل)يعودون(ما يدل على قولهم لفظ الظهار.

والعود: الرجوع إلى شيء تركه وفارقه صاحبه. وأصله: الرجوع إلى المكان الذي غادره، وهو هنا عود مجازي.

ومعنى)يعودون لما قالوا(يحتمل أنهم يعودون لما نطقوا به من الظهار. وهذا يقتضي أن المظاهر لا يكون مظاهرا إلا إذا صدر منه لفظ الظهار مرة ثانية بعد أولى. وبهذا فسر الفراء. وروي عن علي بن طلحة عن ابن عباس بحيث يكون ما يصدر منه مرة أولى معفوا عنه. غير أن الحديث الصحيح في قضية المجادلة يدفع هذا الظاهر لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال الأوس بن الصامت: أعتق رقبة كما سيأتي من حديث أبي داود فتعين أن التفكير واجب على المظاهر من أول مرة ينطلق فيها بلفظ الظهار.

ويتحمل أن يراد أنهم يريدون العود إلى أزواجهم، أي لا يحبون الفراق ويرمون العود إلى المعاشرة. وهذا تأويل أتفق عليه الفقهاء عدا داود الظاهري وبكير بن الأشج وأبا العالية. وفي الموطأ قال مالك في قول الله عز وجل)والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودوا لما قالوا(قال سمعت: أن تفسير ذلك فقد وجبت عليه الكفارة وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها فلا كفارة عليه.

وأقوال أبي حنيفة والشافعي والليث تحوم حول هذا المعنى على اختلاف في التعبير لا نطيل به.

وعليه فقد استعمل فعل يعودون في إرادة العودة كما استعمل فعل مستعمل في معنى إرادة العود والعزم عليه لا على العود بالفعل لأنه لو كان عودا بالفعل لم يكن لاشتراط التفكير قبل المسيس معنى، فانتظم من هذا معنى: ثم يريدون العود إلى ما حرموا على أنفسهم فعليهم كفارة قبل أن يعودوا إليه على نحو قوله تعالى)إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم(أي إذا أرتم القيام، وقوله)فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم(، وقول النبي صلى الله عليه وسلم إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله .

وتلك هي قضية سبب النزول لأن المرأة ما جاءت مجادلة إلا لأنها علمت أن زوجها المظاهر منها لم يرد فراقها كما يدل عليه الحديث المروي في ذلك كتاب أبي داود عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة قالت: ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكو إليه ورسول الله يجادلني ويقول: اتقي الله. فإنه ابن عمك؟ فما برحت حتى نزل القرآن. فقال: يعتق رقبة. قات: لا يجد. قال: فيصوم شهرين متتابعين. قالت: إنه شيخ كبير ما به من صيام. قال: فليطعم ستين مسكينا. قالت: ما عنده شيء يتصدق به. فأتى ساعتئذ بعرق من تمر قلت: يا رسول الله فإني أعينه بعرق آخر. قال: قد أحسنت اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكينا

وارجعي إلى أبن عمك. قال أبو داود في هذا: إنها كفرت عنه من غير أن تستأمره.

صفحة : 4328

والمراد)بما قالوا(ما قالوا بلفظ الظهار وهو ما حرموه على أنفسهم من الاستمتاع المفاد من لفظ: أنت علي كظهر أمي، لأن: أنت علي. في معنى: قربانك ونحوه علي كمثله من ظهر أمي. ومنه قوله تعالى)ونرثه ما يقول(، أي مالا وولدا في قوله تعالى)وقال لأوتين مالا وولدا(، وقوله)قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم(أي قولكم حتى يأتينا بقربان تأكله النار. ففعل القول في هذا وأمثاله ناصب لمفرد لوقعه في خلال جملة مقولة، وإيثار التعبير عن المعنى الذي وقع التحريم له. فلفظ الظهار بالموصول وصلته هذه إيجاز وتنزيه للكلام عن التصريح به. فالمعنى ثم يرمون أن يرجعوا للاستمتاع لأزواجهم بعد أن حرموا على أنفسهم.

وفهم من قوله)ثم يعودون لما قالوا(أن من لم يرد العود إلى امرأته لا يخلوا حاله: فإما أن يريد طلاقها فله أن يوقع عليها طلاقا آخر لأن الله أبطل أن يكون الظهار طلاقا، وإما أن لا يريد طلاقا ولا عودا. فهذا قد صار ممتنعا من معاشرة زوجه مضرا بها فله حكم الإيلاء الذي في قوله تعالى)للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر(الآية. وقد كانوا يجعلون الظهار إيلاء كما في قصة سلمة بنت صخر البياضي. ثم الزرقي في كتاب أبي داود قال: كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيري فلما دخل شهر رمضان خفت أن أصيب من امرأتي شيئا يتابع بي بتحية في أوله مضمونة ثم مثناة فوقية ثم ألف ثم تحتية، والظاهر أنها مكسورة. والتتابع الوقوع في الشر فالباء في قوله)بي(زائدة للتأكيد حتى أصبح، فظاهرت منها حتى ينسلخ شهر رمضان . الحديث.

واللام في قوله)لما قالوا(بمعنى)إلى(كقوله تعالى)بأن ربك أوحى لها(ونظيره قوله)ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه(. وأحسب أن أصل اللام هو التعليل، وهو أنها في مثل هذه المواضع إن كان الفعل الذي تعلقت به ليس فيه معنى المجيء حملت اللام فيه على معنى التعليل وهو الأصل نحو)بأن ربك أوحى لها(، وما يقع فح حرف)إلى(من ذلك مجاز بتنزيل من يفعل الفعل لأجله منزلة من يجيء الجائي إليه، وإن كان الفعل الذي تعلقت به اللام فيه معنى المجيء مثل فعل العود فإن تعلق اللام به يشير إلى إرادة معنى في ذلك الفعل بتمجز أو تضمين يناسبه حرف التعليل نحو قوله

تعالى)كما يجزى لأجل مسمى(، أي جريه المستمر لقصده أجلا يبلغه. ومنه قوله تعالى)ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه(أي عاودوا فعله ومنه ما في هذه الآية.

وفي الكشاف في قوله تعالى)كل يجري لأجل مسمى(في سورة الزمر أنه ليس مثل قوله تعالى)كل يجري إلى أجل مسمى(في سورة لقمان أي أنه ليس من تعاقب الحرفين ولا يسلك هذه الطريقة إلا ضيق العطن، ولكن المعنيين أعني الاستعلاء والتخصيص كلاهما ملائم لصحة الغرض لأن قوله)إلى أجل(معناه يبلغه، وقوله)لأجل(يريد لإدراك أجل تجعل الجري مختصا بالإدراك اه.

فيكون التقدير على هذا الوجه ثم يريدون العود لأجل ما قالوا، أي لأجل رغبتهم في أزواجهم، فيصير متعلق فعل)يعودون(مقدرا يدل عليه الكلام، أي يعودون لما تركوه من العصمة، ويصير الفعل في معنى: يندمون على الفراق.

وتحصل من هذا أن كفارة الظهار شرعت إذا قصد المظاهر الاستمرار على معاشرة زوجه، تحلة ما قصده من التحريم، وتأديبا له على هذا القصد الفاسد والقول الشنيع.

وبهذا يكون محمل قوله)من قبل أن يتماسا(على أنه من قبل أن يمس زوجه مس استمتاع قبل أن يكفر وهو كناية عن الجماع في اصطلاح القرآن، كما قال)وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن(.

ولذلك جعلت الكفارة عتق رقبة لأنه يفتدي بتلك الرقبة رقبة زوجه.

وقد جعلها الله تعالى موعظة بقوله)ذلكم توعظون به(. واسم الإشارة في قوله)ذلكم(عائد إلى تحرير رقبة. والوعظ: التذكير بالخير والتحذير من الشر بترغيب أو ترهيب، أي فرض الكفارة تنبيه لكم لتتفادوا مسيس المرأة التي طلقت أو تستمر على مفارقتها مع الرغبة في العود إلى معاشرتها لئلا تعودوا إلى الظهار. ولم يسم الله ذلك كفارة هنا وسماها النبي صلى الله عليه وسلم كفارة كما في حديث سلمة بن صخر البياضي في جامع الترمذي وإنما الكفارة من نوع العقوبة في أحد قولين عن مالك وهو قول الشافعي حكاه عنه أبن العربي في الأحكام.

صفحة : 4329

فالمظاهر ممنوع من الاستمتاع بزوجته المظاهر منها، أي ممنوع من علائق الزوجية، وذلك يقتضي تعطيل العصمة ما لم يكفر لأنه ألزم نفسه ذلك فإن استمتع بها قبل الكفارة كلها فليتب إلى الله

وليستغفر وتتعين عليه الكفارة ولا تتعدد الكفارة بسبب الاستمتاع قبل التذكير لأنه سبب واحد فلا يضر تكرر مسببه، وإنما جعلت الكفارة زجرا ولذلك لم يكن وطأ المظاهر امرأته قبل الكفارة زنى. وقد روى أبو داود والترمذي حديث سلمة بن صخر البياضي أنه ظاهر من امرأته ثم وقع عليها قبل أن يكفر فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بكفارة واحدة، وهو قول جمهور العلماء. وعن مجاهد وعبد الرحمن بن مهدي أن عليه كفارتين.

وتفاصيل أحكام الظهار في صيغته وغير ذلك مفصلة في كتف الفقه.

وقوله)والله بما تعملون خبير(تذييل لجملة)ذلكم توعظون به(، أي والله عليم بجميع ما تعلمونه من هذا التفكير وغيره.

)فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا(رخصة لمن لم يجد عتق رقبة أن ينتقل إلى صيام شهرين متتابعين لأنه لما لم يجد رقبة يعتاض بفكها عن فك عصمة الزوجة نقل إلى كفارة فيها مشقة النفس بالصبر على لذة الطعام والشراب ليدفع ما التزمه بالظهار من مشقة الصبر على ابتعاد حليلته فكان الصوم درجة ثانية قريبة من درجة تحرير الرقبة في المناسبة.

وأعيد قيد)من قبل أن يتماسا(للدلالة على أنه لا يكون المس إلا بعد انقضاء الصيام فلا يضن أن مجرد شروعه في الصيام كاف في العود إلى الاستمتاع.

)فمن لم يستطيع(، أي لعجزه أو ضعفه رخص الله أن ينتقل إلى إطعام ستين مسكينا عوضا عن الصيام فالإطعام درجة ثالثة يدفع عن ستين مسكينا ألم الجوع عوضا عما كان التزامه على نفسه من مشقة الابتعاد عن لذاته، وإنما حددت بستين مسكينا إلحاقا لهذا بكفارة فطر يوم من رمضان عمدا بجامع أن كليهما كفارة عن صيام فكانت الكفارة متناسبة مع المكفر عنه مرتبة ترتيبا مناسبا.

وقد أجمل مقدار الطعام في الآية اكتفاء بتسميته إطعاما في حمل على ما يقصده الناس من الطعام وهو الشبع الواحد كما هو المتعرف في فعل طعم. فحمله علماؤنا على ما به شبع الجائع فيقدر في كل قوم بحسب ما به شبع معتاد الجائعين. وعن مالك رحمه الله في ذلك روايتان إحداهما أنه مد واحد لكل مسكين بمد النبي صلى الله عليه وسلم والثانية أنه مدان أو ما يقرب من المدين وهو مد بمد هشام بن إسماعيل المخزومي أمير المدينة وقدره مدان إلا ثلث مد قال: أشهب: قلت لمالك: أيختلف الشبع عندنا وعندكم؟ قال: نعم الشبع عندنا مد بمد النبي صلى الله عليه

وسلم والشبع عندكم أكثر أي لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لأهل المدينة بالبركة . وقوله هذا يقتضي أن يكون الإطعام في المدينة مدا بمد النبي صلى الله عليه وسلم مثل كفارة الفطر في رمضان فكيف جعله مالك مقدرا بمدين أو بمد وثلثين، وقال: لو أطعم مدا ونصف مد أجزأه، فتعين أن تضعيف المقدار في الإطعام مراعى فيه معنى العقوبة على ما صنع، وإلا فلا دليل عليه من نص ولا قياس. قال أبو الحسن القابسي إنما أخذ أهل المدينة بمد هشام في كفارة الظهار تغليظا على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكرا من القول وزورا فهذا مما ثبت بعمل أهل المدينة.

وقدر أبو حنيفة الشبع بمدين بمد النبي صلى الله عليه وسلم فلعله راعى الشبع في معظم الأقطار غير المدينة، وقدره الشافعي بمد واحد لكل مسكين قياسا على ما ثبت في السنة في كفارة الإفطار وكفارة اليمين.

ولم يذكر مع الإطعام قيد)من قبل أن يتماسا(اكتفاء بذكره مع تحرير الرقبة وصيام الشهرين ولأنه بدل عن الصيام ومجزأ لمثل أيام الصيام. هذا قول جمهور الفقهاء.

وعن أبي حنيفة أن الإطعام لا يشترط فيه وقوعه من قبل أن يتماسا.

ثم أن وقع المسيس قبل الكفارة أو قبل إتمامها لم يترتب على ذلك إلا أنه آثم إذ لا يمكن أن يترتب عليه أثر آخر، وهذا ما بينه حديث سلمة بن صخر الذي شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه وقع على امرأته بعد أن ظاهر منها، فأمره بأن لا يعود إلى مثل ذلك حتى يكفر. وهذا قول جمهور الفقهاء، وقال مجاهد عليه كفارتان.

صفحة : 4330

وصريح الآية أن تتابع الصيام شرط في التكفير وعليه فلو أفطر في خلاله دون عذر وجب عليه إعادته.

ولا يمس امرأته حتى يتم الشهران متتابعين فإن مسها في خلال الشهرين أثم ووجب عليه إعادة الشهرين. وقال الشافعي: إذا كان الوطء ليلا لم يبطل التتابع لأن الليل ليس محلا للصوم، وهذا هو الجاري على القياس وعلى مقتضى حديث سلمة بن صخر.

وأما كونه آثما بالمسيس قبل تمام الكفارة فمسألة أخرى فمن العجب قول أبي بكر ابن العربي في كلام الشافعي أنه كلام من

لم يذق طعم الفقه لأن الوطء الواقع في خلال الصوم ليس بالمحل المأذون فيه بالكفارة فإنه وطء تعد فلا بد من الامتثال للأمر بصوم لا يكون في أثنائه وطء اه.

والمسكين: الشديد الفقر، وتقدم في سورة براءة.

والظاهر إن كان قادرا على بعض خصال الكفارة وأبى أن يكفر انقلب ظهاره إيلاء. فإن لم ترض المرأة بالبقاء على ذلك فله أجل الإيلاء فإن انقضى الأجل طلقت عليه امرأته إن طلبت الطلاق. وإن كان عاجزا عن خصال الكفارة كلها كان العاجز عن الوطء بعد وقوعه منه فتبقى العصمة بين المتظاهر وامرأته ولا يقربها حتى يكفر.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكفارة سلمة بن صخر من أموال بيت المال فحق على ولاة الأمور أن يدفعوا عن العاجز كفارة ظهاره فإن تعذر ذلك فالظاهر أن الكفارة ساقطة عنه، وأنه يعود إلى مسيس امرأته، وتبقى الكفارة ذنبا عليه في ذمته لأن الله أبطل طلاق الظهار.

)ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم[4](الإشارة إلى ما ذكر من الأحكام، أي ذلك المذكور لتؤمنوا بالله ورسوله، أي لتؤمنوا إيمانا كاملا بالامتثال لما أمركم الله ورسوله فلا تشوبوا أعمال الإيمان بأعمال أهل الجاهلية، وهذا زيادة في تشنيع الظهار. وتحذير للمسلمين من إيقاعه فيما بعد، أو ذلك النقل من حرج الفراق بسبب قول الظهار إلى الرخصة في عدم الاعتداد به وفي الإخلاص منه بالكفارة، لتيسير الإيمان عليكم فهذا في معنى قوله تعالى)وما جعل عليكم في الدين من حرج(.

و)لتؤمنوا(خبر عن اسم الإشارة، واللام للتعليل. ولما كان المشار إليه هو صيام شهرين أو إطعام ستين مسكينا عوضا عن تحرير رقبة كان ما علل به تحرير رقبة منسحبا على الصيام والإطعام، وما علل به الصيام والإطعام منسحبا على تحرير رقبة، فأفاد أن كلا من تحرير رقبة وصيام شهرين وإطعام ستين مسكينا مشتمل على كلتا العلتين وهما الموعظة والإيمان بالله ورسوله.

والإشارة في)وتلك حدود الله(إلى ما أشير إليه)بذلك(، وجيء له باسم الإشارة التأنيث نظرا للإخبار عنه بلفظ)حدود(إذ هو جمع يجوز تأنيث إشارته كما يجوز تأنيث ضميره ومثله قوله تعالى)تلك حدود الله فلا تعدوها(في سورة البقرة.

وجملة)وللكافرين عذاب أليم(تتميم لجملة)ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله(، أي ذلك الحكم وهو إبطال التحريم بالظهار حكم الإسلام. وأما ما كانوا عليه فهو من آثار الجاهلية فهو ستة قوم لهم عذاب أليم على الكفر وما تولد منه من الأباطيل، فالظهار شرع الجاهلية.

وهذا كقوله تعالى)إنما النسيء زيادة في الكفر(، لأنه وضعه المشركون ولم يكن من الحنيفية.
)إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم(لما جرى ذكر الكافرين وجرى ذكر الكافرين وجرى ذكر حدود الله وكان في المدينة منافقون من المشركين نقل الكلام إلى تهديدهم وإيقاظ المسلمين للاحتزاز منهم.
والمحادة: المشاقة والمعاداة، وقد أوثر هذا الفعل هنا لوقوع الكلام عقب ذكر حدود الله، فإن المحادة مشتقة من الحد لأن كل واحد من المعتادين كأنه في حد مخالف لحد الآخر، مثل ما قيل أن العداوة مشتقة عدوة الوادي لأن كلا من المعتاديين يشبه من هو من الآخر في عدوة أخرى.
وقيل: اشتقت المشاقة من الشقة لأن كلا من المتخالفين كأنه في شقة غير شقة الآخر.
والمراد بهم الذين يحادون رسول الله صلى الله عليه وسلم المرسل بدين الله فمحادته محادة لله.

صفحة : 4331

والكبت: الخزي والإذلال وفعل)كتبوا(مستعمل في الوعيد أي سيكبتون، فعبر عنه بالمضي تنبيها على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في خبره مثل)أتي أمر الله(ولأنه مؤيد بتنظيره بما وقع لأمثالهم. وقرينة ذلك تأكيد الخبر ب)أن(لأن الكلام لو كان إخبارا عن كبت وقع لم يكن ثم مقتضى لتأكيد الخبر إذ لا ينازع أحد فيما وقع، ويزيد ذلك وضوحا قوله)كما كبت الذين من قبلهم(يعني الذين حادوا الله في غزوة الخندق. وتقدم ذكرها في سورة الأحزاب. وما كان من المنافقين فيها فالمراد بصلة)من قبلهم(من كان من قبلهم من أهل النفاق وهم يعرفونهم.
)وقد أنزلنا آيات بينات(معترضة بين جملة)إن الذين يحادون الله ورسوله(وجملة)وللكافرين عذاب مهين(أي لا عذر لهم في محادة الله ورسوله فإن مع الرسول صلى الله عليه وسلم آيات القرآن بينه على صدقه.
)وللكافرين عذاب مهين[5](عطف على جملة)كتبوا كما كتب الذين من قبلهم(، أي لهم بعد الكبت عذاب مهين في الآخرة.
وتعريف)الكافرين(تعريف الجنس ليستغرق كل الكافرين.
ووصف عذابهم بالمهين لمناسبة وعيدهم بالكبت الذي هو الذل والإهانة.

)يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصيه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد[6](ويجوز أن يكون)يوم(ظرفا متعلقا بالكون المقدر في خبر المبتدأ من)للكافرين عذاب مهين(.

ويجوز أن يكون متعلقا ب)مهين(، ويجوز أن يكون منصوبا على المفعول به لفعل تقديره: اذكر تنويها بذلك اليوم وتهويلا عليهم وهذا كثير في أسماء الزمان التي وقعت في القرآن. وقد تقدم في قوله تعالى)وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة(في سورة البقرة.

وضمير الجمع عائد إلى)الذين يحادون الله ورسوله(و)الذين من قبلهم(. ولذلك أتي بلفظ المشمول وهو)جميعا(حالا من الضمير.

وقوله)فينبئهم بما عملوا(تهديد بفضح نفاقهم يوم البعث. وفيه كناية عن الجزاء على أعمالهم.

وجملة)أحصاه الله ونسوه(في موضع الحال من)ما عملوا(.

والمقصود من الحال هو ما عطف عليه من قوله)ونسوه(لأن ذلك محل العبرة. وبه تكون الحالة مؤسسة لا مؤكدة لعاملها، وهو)ينبئهم(، أي علمه الله علما مفصلا من الآن. وهم نسوه، وذلك تسجيا عليهم بأنهم متهاونون بعظيم الأمر وذلك من الغرور، أي نسو في الدنيا بله الآخرة فإذا أنبئوا به عجبوا قال تعالى)ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا(.

وجملة)والله على كل شيء شهيد(تذييل. والشهيد: العالم بالأمور المشاهدة.

)ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم[7](استئناف ابتدائي هو تخلص من قوله تعالى)أحصاه الله ونسوه(إلى ذكر علم الله بأحوال المنافقين وأحلافهم اليهود. فكان المنافقون يناجي بعضهم بعض ليري للمسلمين مودة بعض المنافقين لبعض فإن المنافقين بتناجيهم يظهرون أنهم طائفة أمرها واحد وكلمتها واحدة، وهم وإن كانوا يظهرون الإسلام يحبون أن بدرت من أحدهم بادرة تنم بنفاقه، فلا يقدم المؤمنون على أذاه لعلمهم بأن له بطانة تدافع عنه.وكانوا إذا مر بهم المسلمون نظروا إليهم فحسب المارون لعل حدثا حدث من مصيبة، وكان المسلمون يومئذ على توقع حرب مع المشركين في كل حين فيتوهمون أن من مناجاة المتناجين حديث عن قرب العدو أو عن هزيمة للمسلمين في السريا التي يخرجون فيها، فنزلت هذه

الآيات لإشعار المنافقين بعلم الله بماذا يتناجون، وأنه مطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على دخيلتهم ليكفوا عن الكيد للمسلمين.
فهذه الآية تمهيد لقوله تعالى)ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى(الآية.

صفحة : 4332

و)ألم تر(من الرؤية العلمية لأن علم الله لا يرى وسد المصدر مسد المفعول. والتقدير: ألم تر الله عالما(.
و)ما في السماوات وما في الأرض(يعم المبصرات والمسموعات فهو أعلم من قوله)والله على كل شيء شهيد(لاختصاصه بعلم المشاهدات لأن الغرض المفتتح به هذه الجملة وهو علم المسموعات.
وجملة)ما يكون من نجوى ثلاثة(إلا آخرها بدل البعض من الكل فإن معنى قوله)إلا هو رابعهم(. وقوله)إلا هو سادسهم(وقوله)إلا هو معهم(، أنه مطلع على ما يتناجون فيه فكأنه تعالى نجي معهم.
و)ما(نافية. و)يكون(مضارع)كان(التامة، و)من(زائدة في النفي لقصد العموم، و)نجوى(في معنى فاعل)يكون(.
وقرأ الجمهور)يكون(بياء الغائب لأن تأنيث)نجوى(غير تحقيقي، فيجوز فيه جرى فعله على أصل التذكير ولا سيما وقد فصل بينه وبين فاعله بحرف)من(الزائدة. وقرأه أبو جعفر بتاء المؤنث رعيا لصورة تأنيث لفظه.
والنجوى: أسم مصدر ناجاه، إذا ساره. و)ثلاثة(مضاف إليه)نجوى(. أي ما يكون تناجي ثلاثة من الناس إلا الله مطلع عليهم كرابع لهم، ولا خمسة إلا كسادس لهم، ولا أدنى ولا أكثر إلا هو كواحد منهم. وضمائر الغيبة عائدة إلى)ثلاثة(وإلى)خمسة(وإلى)ذلك(و)أكثر(.
والمقصود من هذا الخبر والإنذار والوعيد.
وتخصيص عددي الثلاثة والخمسة بالذكر لأن بعض المتناجين الذين نزلت الآية بسببهم كانوا حلفا بعضها من ثلاثة وبعضها من خمسة. وقال الفراء: المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود.
وفي الكشاف عن ابن عباس نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو بن عمير من ثقيف وصفوان بن أمية السلمي حليف بني أسد كانوا يتحدثون فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضا ولا يعلم بعضا. وقال الثالث: إن كان يعلم بعضا فهو يعلم كله.اه. ولم أر هذا في غير الكشاف ولا مناسبة لهذا بالوعيد في قوله تعالى)ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة(فإن أولئك الثلاثة

كانوا مسلمين وعدوا في الصحابة وكأن هذا تخليط من الراوي بين سبب نزول آية)وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم(في سورة فصلت. كما في صحيح البخاري وبين هذه الآية. وركبت أسماء ثلاثة آخرين كانوا بالمدينة لأن الآية مدنية فآية النجوى فإنما هي في تناجي المنافقين أو فيهم وفي اليهود عن ابن عباس.

والاستثناء في)إلا هو رابعهم( )إلا هو سادسهم( )إلا هو معهم(مفرع من أكوان وأحوال دل عليها قوله تعالى)ما يكون(والجمل التي بعد حرف استثناء في مواضع أحوال. والتقدير: ما يكون في نجوى ثلاثة في حال من علم غيرهم بهم واطلاعه عليهم إلا حالة الله مطلع عليهم.

وتكرير حرف النفي في المعطوفات على المنفي أسلوب عربي وخاصة حيث كان مع كل من المعاطيف استثناء.

وقرأ الجمهور)ولا أكثر(بنصب)أكثر(عطفا على لفظ)نجوى(. وقرأه يعقوب بالرفع عطفا على محل)نجوى(لأنه مجرور بحرف جر زائد. و)أينما(مركب من)أين(التي هي ظرف مكان) وما(الزائدة. ???وأضيف)أين(إلى جملة)كانوا(، أي في أي مكان كانوا فيه، ونظيره قوله)وهو معكم أينما كنتم(في سورة الحديد.

و)ثم(للتراخي الرتبي لأن إنباءهم بما تكلموا وما عملوه في الدنيا في يوم القيامة أدل على سعة علم الله من علمه بحديثهم في الدنيا لأن معظم علم العالمين يعتريه النسيان في مثل ذلك الزمان من الطول وكثرة تدبير الأمور في الدنيا والآخرة.

وفي هذا وعيد لهم بأن نجواهم إثم عظيم فنهي عنه ويشمل هذا تحذير من يشاركهم.

وجملة)إن الله بكل شيء عليم(تذييل لجملة)ثم ينبئهم بما عملوا(فأغنت)إن(غناء فاء السببية كقول بشار:

إن ذاك النجاح في التبكير وتأكيد الجملة ب)إن(للاهتمام به وإلا فإن المخاطب لا يتردد في ذلك. وهذا التعريض بالوعيد يدل على أن النهي عن التناجي كان سابقا على نزول هذه الآية والآيات بعدها.

)ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودن لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول(

إن كانت هذه الآية والآيتان اللتان بعدها نزلت مع الآية التي قبلها حسبما يقتضيه ظاهر ترتيب التلاوة كان قوله تعالى)نهوا عن النجوى(مؤذنا بأنه سبق نهي عن النجوى قبل نزول هذه الآيات، وهو ظاهر قول مجاهد وقتادة نزلت في قوم من اليهود والمنافقين

نهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التناجي بحضرة المؤمنين فلم ينتهوا، فنزلت فتكون الآيات الأربع نزلت لتوبيخهم وهو ما اعتمدناه آنفا.

وإذا كانت نزلت بعد الآية التي قبلها بفترة كان المراد النهي الذي أشار إليه قوله تعالى)ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة(كما تقدم، بأن لم ينتهوا عن النجوى بعد أن سمعوا الوعيد عليها بقوله تعالى)ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة(، فالمراد ب)الذين نهوا عن النجوى(هم الذين عنوا بقوله)ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم(الآية.

و)ثم(في قوله)ثم يعودون(للتراخي الرتبي لأن عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنه أعظم من ابتداء النجوى لأن ابتداءها كان إثما لما اشتملت عليه نجواهم من نوايا سيئة نحو النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين فأما عودتهم إلى النجوى بعد أن نهوا عنها فقد زادوا به تمردا على النبي صلى الله عليه وسلم ومشاقة للمسلمين.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا اقتضاه استمرار المنافقين على نجواهم.

والاستفهام في قوله)ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى(تعجيبي مراد به توبيخهم حين يسمعونه.

والرؤية بصرية بقرينة تعديتها بحرف)إلى(.

والتعريف في النجوى تعريف العهد لأن سياق الكلام من نوع خاص من النجوى. وهي النجوى التي تحزن الذين آمنوا كما ينبئ عنه قوله تعالى)إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين منوا(.

ويجوز أن يكون النهي عن جنس النجوى في أول الأمر يعم كل نجوى بمرأى من الناس سدا للذريعة، قال الباجي في المنتقى: روي عن النهي عن تناجي اثنين أو أكثر دون واحد أنه كان في بدء الإسلام فلما فشا الإسلام وآمن الناس زال هذا الحكم لزوال سببه.

قال ابن العربي في أحكام القرآن عند قوله تعالى)لا خير في كثير من نجواهم(الآية في سورة النساء. إن الله تعالى أمر عباده بأمرين عظيمين: أحدعما الإخلاص وهو أن يستوي ظاهر المرء وباطنه، والثاني النصيحةلكتاب الله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فالنجوى خلاف هذين الأصلين وبعد هذا فلم يكن بد للخلق من أمر يختصون به في أنفسهم ويخص به بعضهم بعضا فرخص ذلك بصفة الأمر بالمعروف والصدقة وإصلاح ذات البين اه.

وفي الموطأ حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا كان ثلاثة فلا يتناجى إثنان دون واحد . زاد في رواية مسلم إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه .

واختلف في محمل هذا النهي على التحريم أو على الكراهة وجمهور المالكية على أنه للتحريم قال ابن العربي في القبس فإن كان قوله مخافة أن يحزنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فقد انحسم التأويل، وإن كان من قول الراوي فهو أولى من تأويل غيره. وقال ابن قاسم: سمعت مالكا يقول: لا يتناجى أربعة دون واحد. وأما تناجي جماعة دون جماعة فإنه أيضا مكروه أو محرم اه. وحكى النووي الإجماع على جواز تناجي جماعة دون جماعة واحتج له ابن التين بحديث ابن مسعود قال قأتيته يعني النبي صلى الله عليه وسلم وهو في ملأ فساررته. وحديث عائشة قصة فاطمة دال على الجواز.

وقال ابن عبد البر: لا يجوز لأحد أن يدخل على المتناجين في حال تناجيهما.

وألحق بالتناجي أن يتكلم رجلان بلغة لا يعرفها ثالث معهما.

والقول في استعمال)ثم يعودون لما نهوا عنه(في معناه المجازي وتعديته باللام نظير القول في قوله تعالى)ثم يعودون لما قالوا(.

وكذلك القول في موقع)ثم(عاطفة الجملة.

وصيغة المضارع في)يعودون(دالة على التجدد، أي يكررون العدد بحيث يريدون بذلك العصيان وقلة الاكتراث بالنهي فإنهم لو عادوا إلى النجوى مرة أو مرتين لاحتمل حالهم أنهم نسوا.

و)ما نهوا عنه(هو النجوى، فعدل عن الإتيان بضمير النجوى، فعدل عن الإتيان بضمير النجوى إلى الموصول وصلته لما تؤذن به الصلة من التعليل لما بعدها من الوعيد بقوله)حسبهم جهنم(على ما في الصلة من التسجيل على سفههم.

صفحة : 4334

وقرأ الجمهور)يتناجون(بصيغة التفاعل من ناجي المزيد. وقرأه حمزة ورويس ويعقوب وينتجون بصيغة الافتعال من نجا الثلاثي المجرد أي سار غيره، والافتعال يرد بمعنى المفاعلة مثل اختصموا واقتتلوا.

والإثم: المعصية وهو ما يشتمل عليه تناجيهم من كلام لكفر وذم المسلمين.

والعدوان بضم العين: الظلم وهو ما يدبرونه من الكيد للمسلمين.

ومعصية الرسول مخالفة ما يأمرهم به ومن جملة ذلك أنه نهاهم عن النجوى وهم يعودون لها.

والياء للملابسة، أي يتناجون ملابسين الإثم والعدوان ومعصية الرسول وهذه الملابسة متفاوتة. فملابسة الإثم والعدوان ملابسة المتناجي في شأنه لفعل المناجين. وملابسة معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ملابسة المقارنة للفعل، لأن نجواهم بعد أن نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عنها معصية وفي قوله)نهوا عن النجوى(وقوله)ومعصية الرسول(دلالة على أنهم منافقون لا يهود لأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان ينهى اليهود عن أحوالهم. وهذا يرد قول من تأول الآية على اليهود وهو قول مجاهد وقتادة، بل الحق ما في ابن عطية عن ابن عباس أنها نزلت في المنافقين.

)وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير[8](بعد أن ذكر حالهم في اختلاء بعضهم ببعض ذكر حال نياتهم الخبيثة عند الحضور في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم يتتبعون سوء نياتهم من كلمات يتبادر منها للسامعين أنها صالحة فكانوا إذا دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم يخفتون لفظ السلام عليكم لأنه شعار الإسلام ولما فيه من معنى جمع السلامة يعدلون عن ذلك ويقولون: أنعم صباحا، وهي تحية العرب في الجاهلية لأنهم لا يحبوا أن يتركوا عوائد الجاهلية. نقله ابن عطية عن ابن عباس.

فمعنى)بما لم يحيك به الله(، بغير لفظ السلام، فإن الله حياه بذلك بخصوصه في قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما(. وحياه به في عموم الأنبياء بقوله)وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى(. وتحية الله هي التحية الكاملة.

وليس المراد من هذه الآية ما ورد في حديث: أن اليهود كانوا إذا حيوا النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: السام عليك، وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرد عليهم بقوله)وعليكم(. فإن ذلك وارد في قوم معروف أنهم من اليهود. وما ذكر أول هذه الآية لا يليق حمله على أحوال اليهود كما علمت آنفا ولو حمل ضمير) جاءوك(على اليهود لزم عليه تشتيت الضمائر.

أما هذه الآية ففي أحوال المنافقين، وهذا مثل ما كان بعضهم يقول للنبي صلى الله عليه وسلم)راعنا(تعلموها من اليهود وهم يريدون التوجيه بالرعونة فأنزل الله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم(ولم يرد منه نهي اليهود.

ومعنى)يقولون في أنفسهم(يقول بعضهم لبعض على نحو قوله تعالى)فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم(. وقوله)ظن المؤمنون

والمؤمنات بأنفسهم خيرا(، أي ظن بعضهم ببعض خيرا، أي يقول بعضهم لبعض.
ويجوز أن يكون المراد ب)أنفسهم(مجامعهم كقوله تعالى)وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا(، أي قل لهم خاليا بهم سترا عليهم من الافتضاح. وتقدم في سورة النساء و)لولا(للتحضيض، أي هلا يعذبنا الله بسبب كلامنا الذي نتناجى به من ذم النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك، أي يقولون ما معناه لو كان محمدا نبيا لعذبنا الله بما نقوله من السوء فيه ومن الذم وهو ما لخصه الله من قولهم بكلمة)لولا يعذبنا الله(فإن)لولا(للتحضيض مستعملة كناية عن جحد نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، أي لو كان نبيا لغضب الله علينا فلعذبنا الآن بسبب قولنا له.

صفحة : 4335

وهذا خاطر من خواطر أهل الضلالة المتأصلة فيهم، وهي توهمهم أن شأن الله تعالى كشأن البشر في إسراع الانتقام والاهتزاز مما لا يرضاه ومن المعاندة. وفي الحديث لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، يدعون له ندا وهو يرزقهم على أنهم لجحودهم بالبعث والجزاء يحسبون أن عقاب الله تعالى يظهر في الدنيا .
وهذا من الغرور قال تعالى)وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين(، ولذلك قال تعالى ردا على كلامهم) حسبهم جهنم(أي كافيهم من العذاب جهنم فإنه عذاب.
وأصل)يصلونها(يصلون بها، فضمن معنى يذوقونها أو يحسونها وقد تكرر هذا الاستعمال في القرآن.
وقوله)فبئس المصير(تفريع على الوعيد بشأن ذم جهنم.
)يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون[9]
(خطاب للمنافقين الذين يظهرون الإيمان فعاملهم الله بما أظهروه وناداهم بوصف الذين آمنوا كما قال)من الذين قالوا آمنا بأفواههم(ولم تؤمن قلوبهم(ومنه ما حكاه الله عن المشركين) وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الكتاب أنك لمجنون(أي يا أيها الذي نزل عليه الذكر بزعمه، ونبههم إلى تدارك حالهم بالإقلاع عن آثار النفاق على عادة القرآن من تعقيب التخويف بالترغيب. فالجملة استئناف ابتدائي.
ذلك أن المنافقين كانوا يعملون بعمل أهل الإيمان إذا لقوا الذين آمنوا فإذا رجعوا إلى قومهم غلب عليهم الكفر فكانوا في بعض

أحوالهم مقاربين الإيمان بسبب مخالطتهم للمؤمنين. ولذلك ضرب الله لهم مثلا بالنور في قوله تعالى)مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم(ثم قوله)كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا(. وهذا هو المناسب لقوله تعالى) فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول(، ويكون قوله)وتناجوا بالبر والتقوى(تنبيها على ما يجب عليهم إن كانوا متناجين لا محالة.

ويجوز أن تكون خطابا للمؤمنين الخلص بأن وجه الله الخطاب إليهم تعليما لهم بما يحسن من التناجي وما يقبح منه بمناسبة ذم تناجي المنافقين فلذلك ابتدئ بالنهي عن مثل تناجي المنافقين وإن كان لا يصدر مثله من المؤمنين تعريضا بالمنافقين، مثل قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم(، ويكون المقصود من الكلام هو قوله)وتناجوا بالبر والتقوى(تعليما للمؤمنين.

وقرأ الجمهور)فلا تتناجوا(بصيغة التفاعل. وقرأه رويس عن يعقوب وحده)فلا تنتجوا(بوزن تنتهوا.

والمر من قوله)وتناجوا بالبر(مستعمل في الإباحة كما اقتضاه قوله تعالى)إذا تناجيتم(.

والإثم والعدوان ومعصية الرسول تقدمت. وأما البر فهو ضد الإثم والعدوان وهو يعم أفعال الخير المأمور بها في الدين.

والتقوى: الامتثال، وتقدمت في قوله تعالى)هدى للمتقين(في سورة البقرة.

وفي قوله)الذي إليه تحشرون(تذكير بيوم الجزاء. فالمعنى: الذي إليه تحشرون فيجازيكم.

)إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون[10](تسلية للمؤمنين وتأنيس لنفوسهم يزال به ما يلحقهم من الحزن لمشاهدة نجوى المنافقين لاختلاف مذاهب نفوسهم إذا رأوا المتناجين في عديد الظنون والتخوفات كما تقدم. فالجملة استئناف ابتدائي اقتضته مناسبة النهي عن النجوى، على أنها قد تكون تعليلا لتأكيد النهي عن النجوى.

والتعريف في)النجوى(تعريف العهد لا محالة. أي نجوى المنافقين الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

والحصر المستفاد من)إنما(قصر موصوف على صفة و)من(ابتدائية، أي قصر النجوى على الكون من الشيطان، أي جائية لأن الأغراض التي يتناجون فيها من أكبر ما يوسوس الشيطان من أهل الضلالة بأن يفعلوه ليحزن الذين آمنوا بما يتطرقهم من خواطر الشر بالنجوى، وهذه العلة ليست قيدا في الحصر فإن للشيطان عللا أخرى مثل إلقاء المتناجين في الضلالة، والاستعانة بهم على إلقاء الفتنة، وغير ذلك من الأغراض الشيطانية.

وقد خصت هذه العلة بالذكر لأن المقصود تسلية المؤمنين وتصبرهم على أذى المنافقين ولذلك عقب بقوله)وليس بضارهم شيئا(ليطمئن المؤمنون بحفظ الله إياهم من ضر الشيطان. وهذا نحو قوله تعالى)إن عبادي ليس لك عليهم سلطان(.

وقرأ نافع وحده)ليحزن(بضم الياء وكسر الزاي فيكون)الذين آمنوا(مفعولا. وقرأه الباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن فيكون)الذين آمنوا(فاعلا وهما لغتان.

وجملة)وليس بضارهم(الخ معترضة.

وضمير الرفع المستتر في قوله)بضارهم(عائد إلى)الشيطان(.

والمعنى: أن الشيطان لا يضر المؤمنين بالنجوى أكثر من أن يحزنهم. فهذا كقوله تعالى)لن يضروكم إلا أذى(أو عائد إلى النجوى بتاويله بالتناجي، أي ليس التناجي بضار المؤمنين لأن أكثره ناشئ عن إيهام حصول ما يتقونه في الغزوات.

وعلى كلا التقديرين فالاستثناء بقوله)إلا بإذن الله(استثناء من أحوال. والباء للسببية، أي إلا في حال أن يكون الله قدر شيئا من المضرة من هزيمة أو قتل. والمراد بالإذن أمر التكوين.

وانتصب)شيئا(على المفعول المطلق، أي شيئا من الضر.

ووقوع)شيئا(وهو ذكره في سياق النفي يفيد عموم نفي كل ضر من الشيطان، أي انتفى كل شيء من ضر الشيطان عن المؤمنين، فيشمل ضر النجوى وضر غيرها، والاستثناء في قوله تعالى)إلا بإذن الله(من عموم)شيئا(الواقع في سياق النفي، أي لا ضرا ملابسا لإذن الله في أن يسلط عليهم الشيطان ضره فيه، أي ضر وسوسته.

وأستعير الإذن لما جعله الله في أصل الخلقة من تأثر النفوس بما يسول إليها. وهو معنى قوله تعالى)إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين(فإذا خلى الله بين الوسوسة وبين العبد يكون اقتراب العبد م المعاصي الظاهرة والباطنة في كل حالة يبتعد فيها المؤمن عن مراقبة الأمر والنهي الشرعيين. وهذا الضر هو المعبر عنه بالسلطان في قوله تعالى في شأن الشيطان)إن عبادي

ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين(أي فلك عليه سلطان. وهذه التصاريف الإلهية جارية على وفق حكمة الله تعالى وما يعلمه من أقوال عباده وسرائرهم وهو يعلم السر وأخفى.
ولهذا ذيل بقوله)وعلى الله فليتوكل المؤمنون(لأنهم إذا توكلوا على الله توكلا حقا بأن استفرغوا وسعهم في التحرز من كيد الشيطان واستعانوا بالله على تيسير ذلك لهم فإن الله يحفظهم من كيد الشيطان قال تعالى)ومن يتوكل على الله فهو حسبه(.
ويجوز أن يكون عموم)شيئا(مرادا به الخصوص، أي ليس بضارهم شيئا مما يوهمه تناجي المنافقين من هزيمة أو قتل إلا بتقدير الله حصول هزيمة أو قتل.
والمعنى: أن التناجي يوهم الذين آمنوا ما ليس واقعا فأعلمهم الله أن لا يحزنوا بالنجوى لأن الأمور تجري على ما قدره الله بنفس الآمر حتى تأتيهم الأخبار الصادقة.
وتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى)وعلى الله فليتوكل المؤمنون(للاهتمام بمدلول هذا المتعلق.
)يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير[11](فصل بين آيات الأحكام المتعلقة بالنجوى بهذه الآية مراعاة لاتحاد الموضوع بين مضمون هذه الآية ومضمون التي بعدها في أنهما يجمعهما غرض التأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، تلك المراعاة أولى من مراعاة اتحاد سياق الأحكام.

صفحة : 4337

ففي هذه الآية أدب في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، والآية التي بعدها تتعلق بالأدب في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخر تلك عن آيات النجوى العامة إيذانا بفضلها دون النجوى التي تضمنتها الآيات السابقة، فاتحاد الجنس في نجوى هو ومسوغ الانتقال من النوع الأول إلى النوع الثاني، والإيماء إلى تميزها بالفضل هو الذي اقتضى الفصل بين النوعين بآية أدب المجلس النبوي.
وأيا قد كان للمنافقين نية مكر في قضية المجلس كما كان لهم نية مكر في النجوى، وهذا مما أنشأ مناسبة الانتقال من الكلام على النجوى إلى ذكر التفسح في المجلس النبوي الشريف.

روي عن مقاتل أنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم في الصفة، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجاء ناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس قد سبقوا في المجلس فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر فقال لمن حوله: هم يا فلان بعدد الواقفين من أهل بدر فشق ذلك على الذين أقيموا، وغمز المنافقون وقالوا: ما أنصف هؤلاء، وقد أحبوا القرب من نبييهم فسبقوا إلى مجلسه فانزل الله هذه الآية تطييبا لخاطر الذين أقيموا، وتعليما للأمة بواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منها، وواجب الاعتراف بمزينة أهل المزايا، قال الله تعالى)ولا تتمنوا ما فضل الله بعضكم على بعض(، وقال)لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله بالحسنى(.

والخطاب ب)يا أيها الذين آمنوا(خطاب لجميع المؤمنين يعم من حضروا المجلس الذي وقعت فيه حادثة سبب النزول وغيرهم ممن عسى أن يحضر مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم.

وابتدئت الآية بالأمر بالتفسح لأن إقامة الذين أقيموا إنما كانت لطلب التفسيح فإناطة الحكم إيماء إلى علة الحكم.

والتفسح: التوسع وهو تفعل من فسح له بفتح السين مخففة إذ أو جاء له فسحة في مكان وفسح المكان من باب كرم إذ صار فصيحا. ومادة التفعل هنا للتكلف، أي يكلف أن يجعل فسحة في المكان وذلك بمضايقة من الجلاس.

وتعريف)المجلس(يجوز أن يكون تعريف المهد، وهو مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، أي إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم لكم ذلك لأن أمره لا يكون إلا لمراعاة حق راجح إلى غيره والمجلس مكان الجلوس. وكان مجلس النبي صلى الله عليه وسلم بمسجده لأكثر أن يكون جلوسه المكان المسمى بالروضة وهو ما بين منبر النبي صلى الله عليه وسلم وبيته.

ويجوز أن يكون تعريف)المجلس(تعريف الجنس. وقوله)يفسح الله لكم(مجزوم في جواب قوله)فافسحوا(، وهو وعد بالجزاء على الامتثال لأمر التفسح من جنس الفعل إذ جعلت توسعة الله على الممتثل جزاء على امتثاله الذي هو إفساحه لغيره، فضمير) لكم(عائد على الذين آمنوا باعتبار أن الذين يفسحون هم من جملة المؤمنين لأن الحكم مشاع بين جميع الأمة وإنما الجزاء للذين تعاق بهم الأمر تعلقا إلزاميا.

وحذف متعلق)يفسح الله لكم(ليعلم كل ما يتطلب الناس الإفساح فيه بحقيقته ومجازه في الدنيا والآخرة من مكان أو رزق أو جنة

عرضها السماوات والأرض على حسب النيات، وتقديره الجزاء موكول إلى إرادة الله تعالى.
وحذف فاعل القول لظهوره، أي إذ قال لكم الرسول: تفسحوا فافسحوا، فإن الله يثيبكم على ذلك.

صفحة : 4338

فالآية لا تدل إلا على الأمر بالتفسح إذ أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولكن يستفاد منها أن تفسح المؤمنين بعضهم لبعض في المجالس محمود مأمور به وجوبا أو ندبا لأنه من المكارمة والإرفاق.فهو من مكملات واجب التحاب بين المسلمين وإن كان فيه كلفة على صاحب البقعة يضايقه فيها غيره. فهي كلفة غير معتبرة إذا قوبلت بمصلحة التحاب وفوائده، وذلك ما لم يفض إلى شدة مضايقة أو ومضرة أو إلى تفويت مصلحة من سماع أو نحوه مثل مجالس العلم والحديث وصفوف الصلاة. وذلك قياس على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم في أنه مجلس خير. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أحبكم إلي ألينكم مناكب في الصلاة . قال مالك ما أرى الحكم إلا يطرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر . يريد أن هذا الحكم وإن نزل في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فهو شامل لمجالس المسلمين من مجالس الخير لأن هذا أدب ومؤاساة، فليس فيه قرينة الخصوصية بالمجالس النبوية، وأراد مالك ب)نحوها(كل مجلس فيه أمر مهم في شؤون الدين فمن حق المسلمين أن يحصروا على إعانة بعضهم بعضا على حضوره. وهذا قياس على مجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وعلته هي التعاون على المصالح.
وأفهم لفظ التفسح أنه تجنب للمضايقة والمراصة بحيث يفوت المقصود من حضور ذلك المجلس أو يحصل ألم للجالسين.
وقد أرخص مالك في التخلف عن دعوة الوليمة إذ كثر الزحام فيها.
وقرأ الجمهور)في المجلس(وقرأه عاصم بصيغة الجمع)في المجالس(وعلى كلتا القراءتين يجوز كون اللام للعهد وكونها للجنس وأن يكون مجالس النبي صلى الله عليه وسلم كلما تكررت وأما يشمل جميع مجالس المسلمين وعلى كلتا القراءتين يصح الأمر في قوله تعالى)فافسحوا(للوجوب أو للندب.
وقوله)وإذا قيل انشزوا فانشزوا(الآية عطف على)إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس(.

و)انشزوا(أمر من نشز إذا نهض من مكانه يقال: نشز ينشز من باب قعد وضرب إذا ارتفع لأن النهوض ارتفاع من المكان الذي استقر فيه ونشوز المرأة من زوجها مجازا عن بعدها عن مضجعها. والنشوز: أخص من التفسيح من وجه فهو من عطف الأخص: من وجه أعم منه على الأعم منه للاهتمام بالمعطوف لأن القيام من المجلس أقوى من التفسيح من قعود. فذكر النشوز لئلا يتوهم وأن التفسيح المأمور به تفسيح من قعود ولاسيما وقد كان سبب النزول بنشوز، وهو المقصود من نزول الآية على ذلك القول. ومن المفسرين من فسر النشوز بمطلق القيام من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم سواء كان لأجل التفسيح أو لغير ذلك مما يؤمر بالقيام لأجله. روي عن ابن عباس وقتادة والحسن إذا قيل انشزوا إلى الخير وإلى الصلاة فانشزوا .

وقال ابن زيد: إذا قيل انشزوا عن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتفعوا فإن للنبي صلى الله عليه وسلم حوائج، وكانوا إذا كانوا في بيته أحب كل واحد منهم أن يكون آخر عهده برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب النزول لا يخصص العام ولا يقيد المطلق.

وهذا الحكم إذا عسر التفسيح واشتد الزحام والتراص فإن لأصحاب المقاعد الحق المستقر في أن يستمروا قاعدين لا يقام أحد لغيره وذلك إذا كان المقوم لأجله أولى بالمكان من الذي أقيم له بسبب من أسباب الأولية كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة نفر لإعطاء مقاعدهم للبدريين. ومنه أولوية طلبة العلم بمجالس الدرس، وأولوية الناس في مقاعد المساجد بالسبق، ونحو ذلك، فإن لم يكن أحد أولى من غيره فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يقيم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه.

وللرجل أن يرسل إلى المسجد ببساطه أو طنفسته أو سجادته لتبسط له في مكان من المسجد حتى يأتي فيجلس عليها فإن ذلك حوز لذلك المكان في ذلك الوقت. وكان ابن سيرين يرسل غلامه إلى المسجد يوم الجمعة فيجلس له فيه فإذا جاء ابن سيرين قام الغلام له منه.

وفي الموطأ عن مالك بن أبي عامر قال كنت أرى طنفسة لعقيل بن أبي طالب يوم الجمعة تطرح إلى جدار المسجد الغربي فإذا غشي الطنفسة كلها ظل الجدار خرج عمر بن الخطاب فصلى الجمعة. فالطنفسة ونحوها حوز المكان لصاحب البساط.

فيجوز لأحد أن يأمر أحدا يبكر إلى المسجد فيأخذ مكانا يقعد فيه حتى إذا جاء الذي أرسل ترك له البقعة لأن ذلك من قبيل النيابة في حوز الحق.

وقرأ ابن نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر)انشزوا فانشزوا(بضم الشين فيهما. وقرأه الباقون بكسر الشين. وهما لغتان في مضارع نشز.

وقوله)يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات(جواب الأمر لقوله)فانشزوا(فقد أجمع القراء على جزم فعل)يرفع(فهو جواب الأمر بهذا. وعد بالجزاء على الامتثال للأمر الشرعي فيما فيه أمر أو لما يقتضي الأمر من علة يقاس بها على المأمور به أمثاله مما فيه علة الحكم كما تقدم في قوله تعالى) فافسحوا(.

ولما كان النشوز ارتفاعا عن المكان الذي كان به كان جزاؤه من جنسه.

وتنكير)درجات(للإشارة إلى أنواعها من درجات الدنيا ودرجات الآخرة.

وضمير)منكم(خطاب للذين نودوا ب)يا أيها الذين آمنوا(.

و)من(تبعيضية، أي يرفع الله درجات الذين امتثلوا. وقرينة هذا التقدير هي جعل الفعل جزاء للأمر فإن الجزاء مسبب عما رتب عليه بقوله)منكم(صفة للذين آمنوا(. أي الذين آمنوا من المؤمنين والتغاير بين معنى الوصف ومعنى الموصوف بتغاير المقدر وإن كان لفظ الوصف والموصوف مترادفين في الظاهر. فآل الكلام إلى تقدير: يرفع الله الذين استجابوا للأمر بالنشوز إذا كانوا من المؤمنين، أي دون من يضمه المجلس من المنافقين. فكان مقتضى الظاهر أن يقال: يرفع الله الناشزين منكم فاستحضروا بالموصول بصلة الإيمان لما تؤذن به الصلة من الإيماء إلى علة رفع الدرجات لأجل امتثالهم أمر القائل)انشزوا(وهو الرسول صلى الله عليه وسلم إن كان لإيمانهم وأن ذلك الامتثال من إيمانهم ليس لنفاق أو لصاحبه امتعاض.

وعطف الذين أوتوا العلم منهم عطف الخاص على العام لأن غشيان مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو لطلب العلم من مواعظه وتعليمه، أي والذين أوتوا العلم منكم أيها المؤمنون، لأن الذين أوتوا العلم قد يكون الأمر لأحد بالقيام من المجلس لأجلهم، أي لأجل إجلاسهم، أي لأجل إجلاسهم، وذلك رفع لدرجاتهم في الدنيا، ولأنهم إذا تمكنوا من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم كان تمكنهم أجمع للفهم وأنفى للملل، وذلك أدعى لإطالتهم

الجلوس وازديادهم التلقي وتوفير مستنبطات أفهامهم فيما يلقى إليهم من العلم، فإقامة الجالسين في المجلس لأجل إجلاس الذين أوتوا العلم من رفع درجاتهم في الدنيا.

ولعل البدريين الذين نزلت الآية بسبب قصتهم كانوا من الصحابة الذين أوتوا العلم.

ويجوز أن بعضا من الذين أمروا بالقيام كان من أهل العلم فأقيم لأجل رجحان فضيلة البدريين عليه، فيكون في الوعد للذي أقيم من مكانه برفع الدرجات استئناس له بأن الله رافع درجته.

هذا تأويل نظم الآية الذي اقتضاه قوة إيجازه. وقد ذهب المفسرون في الإفصاح عن استفادة المعنى من هذا النظم البديع مذاهب كثيرة وما سلكناه أوضح منها.

وانتصب)درجات(على أنه ظرف مكان يتعلق ب)يرفع(أي يرفع الله الذين آمنوا رفعا كائنا في درجات.

ويجوز أن يكون نائبا عن المفعول المطلق ل)يرفع(لأنها درجات من الرفع، أي مرافع.

والدرجات مستعارة للكرامة فإن لكان الرفع في الآية رفعا مجازيا، وهو التفضيل والكرامة وجيء للاستراحة بترشيحها بكون الرفع درجات. وهذا الترشيح هو أيضا استعارة مثل الترشيح في قوله تعالى)ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه(وهذا أحسن الترشيح. وقد تقدم نظيره في قوله تعالى في سورة الأنعام)نرفع درجات من نشاء(.

وقال عبد الله بن مسعود وجماعة من أهل التفسير: إن قوله) والذين أوتوا العلم درجات(كلام مستأنف وتم الكلام عند قوله) منكم(قال ابن عطية: ونصب بفعل مضمر ولعله يعني: نصب) درجات(بفعل هو الخبر عن المبتدأ، والتقدير: جعلهم.

وجملة)والله بما تعملون خبير(تذييل، أي الله عليم بأعمالكم ومختلف نياتكم من الامتثال كقول النبي صلى الله عليه وسلم لا يكلم أحد في سبيل الله. والله أعلم بمن يكلم في سبيله الحديث.

)يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم[12](

صفحة : 4340

استئناف ابتدائي عاد به إلى ذكر بعض أحوال النجوى وهو من أحوالها المحمودة. والمناسبة هي قوله تعالى)وتناجوا بالبر والتقوى(. فهذه الصدقة شرعها الله تعالى وجعل سببها مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فذكرت عقب آي النجوى لاستيفاء أنواع النجوى

من محمود ومذموم. وقد اختلف المتقدمون في سبب نزول هذه الآية، وحكمة مشروعية صدقة المناجاة. فنقلت عن أبن عباس وقتادة وجابر بن زيد وزيد بن أسلم ومقاتل أقوال في سبب نزولها متخالفة، ولا أحسبهم يريدون منها إلا حكاية أحوال للنجوى كانت شائعة، فلما نزل حكم صدقة النجوى أقل الناس من النجوى. وكانت عبارات الأقدمين تجري على التسامح فيطلقون على أمثاله الأحكام وجزئيات الكليات اسم أسباب النزول، كما ذكرناها في المقدمة الخامسة من مقدمات هذا التفسير، وأمسك مجاهد فلم يذكره لهذه الآية سببا واقتصر على قوله: نهو عن مناجاة الرسول حتى يتصدقوا.

والذي يظهر لي: أن هذه الصدقة شرعها الله وفرضها على من يجد ما يتصدق به قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسقطها عن الذين لا يجدون ما يتصدقون به. وجعل سببها ووقتها هو وقت توجههم إلى مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان المسلمون حريصين على سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمور الدين كل يوم فشرع اله لهم هذه الصدقة كل يوم لنفع الفقراء نفعا يوميا، وكان الفقراء أيامئذ كثيرين بالمدينة منهم أهل الصفة ومعظم المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم.

والأظهر أن هذه الصدقة شرعت بعد الزكاة فتكون لحكمة إغناء الفقراء يوما فيوما لأن الزكاة تدفع في رؤوس السنين وفي معين الفصول فلعل ما يصل إلى الفقراء منها يستنفدونه قبل حلول وقت الزكاة القابلة.

وعن أبن عباس: أن صدقة المناجاة شرعت قبل شرع الزكاة ونسخت بوجوب الزكاة، وظاهر قوله في الآية التي بعدها)فأقيموا الصلاة وأوتوا الزكاة(أن الزكاة حينئذ شرع مفرد معلوم، ولعل ما نقل عن أبن عباس إن صح عنه أراد أنها نسخت بالاكتفاء بالزكاة.

وقد تعددت أخبار مختلفة الأسانيد تتضمن أن هذه الآية لم يدم العمل بها إلا زمنا قليلا، قيل: إنه عشرة أيام. وعن الكلبي قال: كان ساعة من نهار، أي أنها لم يدم العمل بها طويلا إن كان الأمر مرادا به الوجوب وإلا فإن ندب لك ذلك لم ينقطع في حياة النبي صلى الله عليه وسلم لتكون نفس المؤمن أزكى عند ملاقاة النبي مثل استحباب تجديد الوضوء لكل صلاة.

وتظافرت كلمات المتقدمين على أن حكم الأمر في قوله) فقدموا بين نجواكم صدقة(قد نسخه قوله)فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم(الآية. وهذا مؤذن بأن الأمر فيها للوجوب. وفي تفسير القرطبي وأحكام أبن الفرس حكاية أقوال في سبب نزول هذه الآية تحوم حول كون هذه الصدقة شرعت لصرف أصناف من الناس عن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم إذ كانوا قد ألحفوا في مناجاته

دون داع يدعوهم فلا ينثلج لها صدر العالم لضعفها سندا ومعنى، ومنافاتها مقصد الشريعة. وأقرب ما روي عن خبر تقرير هذه الصدقة. ما في جامع الترمذي عن على بن عقلمة الأنماري عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت)يا أيها الذين آمنوا فقدموا بين نجواكم صدقة(قال لي النبي صلى الله عليه وسلم ما ترى دينارا؟ قلت: لا يطيقونه، قال فنصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه. قال: فكم؟ قلت: شعيرة قال الترمذي: أي وزن شعيرة من ذهب. قال: إنك لزهيد فنزلت)أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقة(الآية. قال فبي خفف الله عن هذه الأمة . قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من هذا الوجه اه.

قلت: علي بن علقمة الأنماري قال البخاري: في حديثه نظر، ووثقه ابن حبان. وقال ابن الفرس: صححوا عن علي قال: ما عمل بها أحد غيري . وساق حديثا.

ومحمل قول علي فبي خفف الله عن هذه الأمة ، أنه أراد التخفيف في مقدار الصدقة من دينار إلى زنة شعيرة من ذهب وهي جزء من اثنين وسبعين جزءا من الدينار.

وفعل)ناجيتم(مستعمل في معنى إرادة الفعل كقوله)يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم(الآية. وقوله تعالى)فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من لشيطان الرجيم(.

والقرينة قوله)فقدموا بين يدي نجواكم(.

صفحة : 4341

والجمهور على أن الأمر في قوله)فقدموا(للوجوب، واختاره الفخر ورجحه بأنه الأصل في صيغة الأمر، وبقوله)فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم(فإن ذلك لا يقال إلا فيما بفقده يزول الوجوب. ويناسب أن يكون هذا هو قول من قال: إن هذه الصدقة نسخت بفرض الزكاة، وهو عن ابن عباس. وقال فريق: الأمر للندب وهو يناسب قول من قال: إن فرض الزكاة كان سابقا على نزول هذه الآية فإن شرع الزكاة أبطل كل حق كان واجبا في المال.

و)بين يدي نجواكم(معناه: قبل نجواكم بقليل، وهي استعارة تمثيلية جرت مجرى المثل للقرب من الشيء قبيل الوصول إليه. شبهت هيئة قرب الشيء من آخر بهيئة وصول الشخص بين يدي من يرد هو عليه تشبيه معقول بمحسوس.

ويستعمل في قرب الزمان بتشبيه الزمان بالمكان كما هنا وهو كقوله تعالى)يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم(. وقد تقدم في سورة البقرة.
والإشارة ب)ذلك خير لكم(إلى التقديم المفهوم من)قدموا(على ط طريقة قوله)اعدلوا هو أقرب للتقوى(.
وقوله)ذلك خير لكم وأطهر(تعريف بحكمة الأمر بالصدقة قبل نجوى الرسول صلى الله عليه وسلم ليرغب فيها الراغبون.
و)خير(يجوز أن يكون اسم تفضيل، أصله: أخير وهو المزاوج لقوله)وأطهر(أي ذلك أشد خيرية لكم من أن تناجوا الرسول صلى الله عليه وسلم بدون تقديم صدقة، وإن كان في كل خير. كقوله:)وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم(.
ويجوز أن يكون اسما على وزن فعل وهو مقابل الشر، أي تقديم الصدقة قبل النجوى فيه خير لكم وهو تحصيل رضى الله تعالى في حين إقبالهم على رسوله صلى الله عليه وسلم فيحصل من الانتفاع بالمناجاة ما لا يحصل مثله بدون تقديم الصدقة.
وأما)أطهر(فهو اسم تفضيل لا محالة، أي أطهر لكم بمعنى: أشد طهرا، والطهر هنا معنوي، وهو طهر النفس وزكاؤها لأن المتصدق تتوجه إليه أنوار ربانية من رضى الله عنه فتكون نفسه زكية كما قال تعالى)تطهركم وتزكيكم بها(. ومنه سميت الصدقة زكاة.
وصفة هذه الصدقة أنها كانت تعطى للفقير حين يعمد المسلم إلى الذهاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليناجيه.
وعذر الله العاجزين عن تقديم الصدقة بقوله)فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم(أي فإن لم تجدوا ما تتصدقون به قبل النجوى غفر الله لكم المغفرة التي كانت تحصل لكم لو تصدقتم لأن من نوى أن يفعل الخير لو قدر عليه كان له أجر على نيته.
وأما استفادة أن غير الواجد لا حرج عليه في النجوى بدون صدقة فحاصلة بدلالة الفحوى لأنه لا يترك مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن إرادة مناجاته الرسول صلى الله عليه وسلم ليست عبثا بل لتحصيل علم من أمور الدين.
وأما قوله)رحيم(فهو في مقابلة ما فات غير الواجد ما يتصدق به من تزكية النفس إشعارا بأن رحمة الله تنفعه.
واتفق العلماء على أن حكم هذه الآية منسوخ.
)أأشفقتم أن تقدموا بين نجواكم صدقات فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون[13](نزلت هذه الآية عقب التي قبلها: والمشهور عند جمع من سلف المفسرين أنها نزلت بعد عشرة أيام من التي قبلها. وذلك أن بعض المسلمين القادرين على تقديم الصدقة قبل النجوى

شق عليهم ذلك فأمسكوا عن مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم فأسقط الله وجوب هذه الصدقة، وقد قيل لم يعمل بهذه الآية غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولعل غيره لم يحتج إلى مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم واقتصد مما كان يناجيه لأدنى موجب.

فالخطاب لطائفة من المؤمنين قادرين على تقديم الصدقة قبل المناجاة وشق عليهم ذلك أو ثقل عليهم.

والإشفاق توقع حصول ما لا يبتغيه ومفعول)آشفقتم(هو)أن تقدموا(أي من أن تقدموا، أي أأشفقتم عاقبة ذلك وهو الفقر.

قال المفسرون على أن هذه الآية ناسخة للتي قبلها فسقط وجوب تقديم الصدقة لمن يريد مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم وروي ذلك عن ابن عباس واستبعده ابن عطية.

والاستفهام مستعمل في اللوم على تجهم تلك الصدقة مع ما فيها من فوائد لنفع الفقراء.

صفحة : 4342

ثم تجاوز الله عنهم رحمة بهم بقوله تعالى)فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة(الآية. وقد علم من الاستفهام التوبيخي أي بعضا لم يفعل ذلك.

و)إذا(ظرفية مفيدة للتعليل، أي فحين لم تفعلوا فأقيموا الصلاة.

وفاء)فإذا لم تفعلوا(لتفريع ما بعدها على الاستفهام التوبيخي.

وجملة)وتاب الله عليكم(معترضة، والواو اعتراضية. وما تتعلق به) إذ(محذوف دل عليه قوله)وتاب الله عليكم(تقديره: خففنا عنكم وأعفيناكم من أن تقدموا صدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وفاء)فأقيموا الصلاة(عاطفة على الكلام المقدر وحافظوا على التكاليف الأخرى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله. أي فذلك لا تسامح فيه قيل لهم ذلك لئلا يحسبوا أنهم كلما ثقل عليهم فعل ما كلفوا به يعفون منه.

وإذ قد كانت الزكاة المفروضة سابقة على الأمر بصدقة النجوى على الأصح كان فعل)آتوا(مستعملا في طلب الدوام مثل فعل) فأقيموا(.

واعلم أنه يكثر وقوع الفاء بعد)إذ(ومتعلقها كقوله تعالى)وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم(في سورة الأحقاف.)وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف(في سورة الكهف.

وجملة)والله خبير بما تعملون(تذييل لجملة)فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة(وهو كناية عن التحذير من التفريط في طاعة الله ورسوله.
)ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون[14] أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون[15](هذه حالة أخرى من أحوال أهل النفاق هي توليهم اليهود مع أنهم ليسوا من أهل ملتهم لأن المنافقين من أهل الشرك.
والجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لأنها عود إلى الغرض الذي سبقت فيه آيات)إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا(بعد أن فصل بمستطردات كثيرة بعده.
والقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود وقد عرفوا بما يرادف هذا الوصف في القرآن في قوله)غير المغضوب عليهم(.
والاستفهام تعجبي مثل قوله)ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى(.
ووجه التعجيب من حالهم أنهم تولوا قوما من غير جنسهم وليسوا في دينهم ما حملهم على توليهم إلا اشتراك الفريقين في عداوة الإسلام والمسلمين.
وضمير)ما هم(يحتمل أن يعود إلى)الذين تولوا(وهم المنافقون فيكون جملة)ما هم منكم ولا منهم(حالا من)الذين تولوا(، أي ما هم مسلمين ولا يهود.ويجوز أن يعود الضمير إلى)قوما(،قوما ليسوا مسلمين ولا مشركين بل هم يهود.
وكذلك ضمير ولا منهم يحتمل الأمرين على التعاكس وكلا الاحتمالين واقع، ومراد على طريقة الكلام الموجه تكثيرا للمعاني مع الإيجاز فيفيد التعجب من حال المنافقين أن يتولوا قوما أجانب عنهم على قوم هم أيضا أجانب عنهم، على أنهم إن كان يفرق بينهم وبين اليهود اختلاف الدين واختلاف النسب لأن المنافقين من أهل يثرب عرب ويفيد بالاحتمال الآخر الإخبار عن المنافقين بأن إسلامهم ليس صادقا، أي ما هم منكم أيها المسلمون، وهو المقصود، ويكون قوله)ولا منهم(على هذا الاحتمال احتراسا وتتميما لحكاية حالهم، وعلى هذا الاحتمال يكون ذم المنافقين أشد لأنه يدل على حماقتهم إذ جعلوا لهم أولياء من ليسوا على دينهم فهم لا يوثق بولايتهم وأضمروا بغض المسلمين فلم يصادفوا الدين الحق.
)ويحلفون على الكذب(عطف على)تولوا(وجيء به مضارعا للدلالة على تجدده ولاستحضار الحالة العجيبة في حين حلفهم على الكذب للتنصل مما فعلوه، والكذب الخبر المخالف للواقع وهي الأخبار التي يخبرون بها عن أنفسهم في نفي ما يصدر منهم في جانب المسلمين.

)وهم يعلمون(جملة في موضع الحال، وذلك أدخل في التعجيب لأنه أشنع من الحلم على الكذب لعدم التثبت في المحلوف عليه.
وأشار هذا إلى ما كان يحلفه المنافقون والنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين إذا كشف لهم بعض مكائدهم، ومن ذلك قول الله تعالى فيهم)ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم(، وقوله) يخلقون بالله لكم ليرضوكم(وقوله)يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر(.

صفحة : 4343

قال السدي ومقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل بنون فباء موحدة فمثناة فوقية كان أحدهما وهو عبد الله بن نبتل يجالس النبي صلى الله عليه وسلم، ويرفع أخباره إلى اليهود ويسب النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بلغ خبره أو اطلعه الله عليه جاء فاعتذر وأقسم إنه ما فعل.
وجملة)إنهم ساء ما كانوا يعملون(تعليل لإعداد العذاب لهم، أي أنهم عملوا فيما مضى أعمالا سيئة متطاولة متكررة كما يؤذن بها المضارع من قوله)يعملون(.
وبين)يعملون(، و)يعلمون(الجناس المقلوب قلب بعض.
)اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين[16]
(جملة مستأنفة استئنافا بيانيا عن جملة)ويحلفون على الكذب وهم يعلمون(، لأن ذلك يثير سؤال سائل أن يقول ما ألجأهم إلى الحلف على الكذب، فأجيب بأن ذلك لقضاء مآربهم وزيادة مكرهم. ويجوز أن تجعل الجملة خبرا ثانيا لأن في قوله)إنهم ساء ما كانوا يعملون(وتكون داخلة في التعليل.
والجنة: الوقاية والسترة، من جن، إذا أستتر، أي وقاية من شعور المسلمين بهم ليتمكنوا من صد كثير ممن يريد الدخول في الإسلام عن الدخول فيه لأنهم يختلقون أكذوبات ينسبونها إلى الإسلام وذلك معنى التفريع بالفاء في قوله تعالى)فصدوا عن سبيل الله(.
و)صدوا(يجوز أن يكون متعديا، وحذف مفعوله لظهوره، أي فصدوا الناس عن سبيل الله،أي الإسلام بالتنبيط وإلصاق التهم والنقائص بالدين. ويجوز أن يكون الفعل قاصرا، أي فصدوا هم عن سبيل الله ومجيء فعل)صدوا عن سبيل الله(ماضيا مفرعا على)اتخذوا أيمانهم جنة(مع أن إيمانهم حصلت بعد أن صدوا عن سبيل الله على كلا المعنيين مراعى فيه التفريغ الثاني وهو)فلهم عذاب مهين(.

وفرع عليه)فلهم عذاب مهين(ليعلم إنما اتخذوا من إيمانهم جنة سبب من أسباب العذاب يقتضي مضاعفة العذاب. وقد وصف العذاب أول مرة بشديد وهو الذي يجازون به على توليهم قوما غضب الله عليهم وحلفهم على الكذب.

ووصف عذابهم ثانيا ب)مهين(لأنه جزاء على صدهم الناس عن سبيل الله. وهذا معنى شديد العذاب لأجل عظيم الجرم كقوله تعالى)الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب(.

فكان العذاب مناسبا للمقصدين في كفرهم وهو عذاب واحد فيه الوصفان. وكرر ذكره إبلاغا في الإنذار والوعيد فإنه مقام تكرير مع تحسينه باختلاف الوصفين.

)لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[17](مناسب لقوله)اتخذوا أيمانهم جنة(فكما لم تقهم أيمانهم العذاب لم تغن عنهم أموالهم ولا أنصارهم شيئا يوم القيامة.

وكان المنافقون من أهل الثراء بالمدينة، وكان ثراؤهم من أسباب إعراضهم عن قبول الأسباب إعراضهم عن قبول الإسلام لأنهم كانوا أهل سيادة فلم يرضوا أن يصيروا في طبقة عموم الناس. وكان عبد الله بن أبي بن سلول مهيأ لأن يملكوه على المدينة قبيل إسلام الأنصار، فكانوا يفخرون على المسلمين بوفرة الأموال وكثرة العشائر وذلك في السنة الأولى من الهجرة، ومن ذلك قول عبد الله بن أبي بن سلول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل يريد بالأعز فريقه وبالأذل فريق المسلمين فآذنهم الله بأن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم مما توعهم الله به من المذلة في الدنيا والعذاب في الآخرة قال تعالى)لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا(. وإذ لم تغن عنهم من الله في الدنيا فإنها أجدر بأن لا تغني عنهم من عذاب الآخرة شيئا، أي شيئا قليلا من الإغناء.

وعن مقاتل: أنهم قالوا: إن محمد يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقيقنا إذن. فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت هذه الآية.

وإقحام حرف النفي في المعطوف على المنفي لتوكيد انتفاء الإغناء.

ومعنى)من الله(من بأس الله أو من عذابه. وحذف مثل هذا كبير في الكلام. وتقديره ظاهر. ويلقب هذا الاستعمال عند علماء أصول الفقه بإضافة الحكم إلى الأعيان على إرادة أشهر أحوالها نحو)حرمت عليكم الميتة(، أي أكلها.

وجملة)لن نغني عنهم أموالهم(الخ خبر ثالث أو ثان عن)إن(في قوله تعالى)أنهم ساء ما كانوا يعملون(.

وجملة)أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون(في موضع العلة لجملة)لم تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا(، أي لأنهم أصحاب النار، أي حق عليهم أنهم أصاحب النار. وصاحب الشيء ملازمه فلا يفارقه. إذ قد تقرر في قوله)أعد الله لهم عذابا شديدا(ومن قوله)فلهم عذاب مهين(أنهم لا محيص لهم عن النار، فكيف تغنى عنهم أموالهم وأولادهم شيئا من عذاب النار. وهذا كقوله تعالى)أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار(أي ما أنت تنقذه من النار. فإن اسم الإشارة في مثل هذا الموقع ينبه على أن المشار ليه صار جديرا بما يرد بعد اسم الإشارة من جل الأخبار التي أخبر بها عنه قبل اسم الإشارة كما تقدم في قوله تعالى) أولئك على هدى من ربهم(في سورة البقرة.

)يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون[18](هذا متصل بقوله) ويحلفون على الكذب(إلى قوله)اتخذوا إيمانهم جنة(وتقدم الكلام على نظير قوله)يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا(. كما سبق آنفا في هذه السورة، أي اذكر يوم يبعثهم الله.

وحلفهم لله في الآخرة إشارة إلى ما حكاه الله عنهم في قوله) ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين(.

والتشبيه في قوله)كما يحلفون لكم(كما في صفة الحلف، وهي قولهم: إنهم غير مشركين، وفي كونه حلفا على الكذب، وهم يعلمون، ولذلك سماه تعالى فتنة في آية الأنعام. قوله تعالى)ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين(.

ومعنى)ويحسبون أنهم على شيء(يضنون يومئذ أن حلفهم يفيدهم تصديقهم عند الله فيحسبون أنهم حصلوا شيئا عظيما، أي نافعا.

و)على(للاستعلاء المجازي وهو شدة التلبس بالوصف ونحوه كقوله)أولئك على هدى من ربهم(في سورة البقرة.

وحذفت صفة)شيء(لظهور معناها من المقام، أي على شيء نافع كقوله تعالى)قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل(. وقول النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الكهان)ليسوا بشيء(.

وهذا يقتضي توغلهم في النفاق ومرونتهم عليه وأنه باق في أرواحهم بعد بعثهم لأن نفوسهم خرجت من عالم الدنيا متخلقة به، بين النفوس إنما تكتسب تزكية أو خبثا في عالم التكليف. وحكمة إيجاد النفوس في الدنيا هي تزكيتها وتصفية اكدارها لتخلص إلى عالم الخلود طاهرة، فإن هي سلكت مسلك التزكية تخلصت إلى عالم الخلود زكية ويزيده الله زكاه وارتياضا يوم البعث. وإن غمست مدة الحياة في حمأة النقائص وصلصال الرذائل جاءت يوم القيامة على ما كانت عليه تشويها لحالها. لتكون مهزلة لأهل المحشر. وقد تبقى في النفوس الزكية خلائق لا تنافي الفضيلة ولا تناقض عالم الحقيقة مثل الشهوات المباحة ولقاء الأحبة قال تعالى)الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوا إلا المتقين يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون(. وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن رجلا من أهل الجنة يستأذن ربه أن يزرع، فيقول الله: أو لست فيما شئت قال: بلا ولكن أحب أزرع، فأسرع وبذر فيبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال. وكان رجل من أهل البادية عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لا نجد هذا إلا قرشيا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم إقرارا لما فهمه الأعرابي.

صفحة : 4345

وفي حديث جابر بن عبد الله عن مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يبعث كل عبد على ما مات عليه . قال عياض في الإكمال هو عام في كل حالة مات عليها المرء. قال السيوطي: يبعث الزمار بمزماره. وشارب الخمر بقدحه اه. قلت: ثم تتجلى لهم الحقائق على ما هي عليه إذ تصير العلوم على الحقيقة.
وختم هذا الكلام بقوله تعالى)ألا أنهم هم الكاذبون(وهو تذييل جامع لحال كذبهم الذي ذكره الله بقوله)ويحلفون على الكذب(. فالمراد أن كذبهم عليكم لا يماثله كذب، حتى قصرت صفة الكاذب عليهم بضمير الفصل في قوله)ألا أنهم هم الكاذبون(وهو قصر ادعائي للمبالغة لعدم الاعتداد بكذب غيرهم. وأكد ذلك بحرف التوكيد توكيدا لمفاد الحصر الادعائي، هو أن كذب غيرهم كلا كذب في جانب كذبهم، وبأداة الاستفتاح المقتضية استماله السمع لخبرهم لتحقيق تمكن صفة الكذب منهم حتى أنهم يلازمهم يوم البعث.

)استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون[19](استئناف بياني لأن ما سيق من وصفهم بانحصار صفة الكذب فيهم يثير سؤال السامع أن يطلب السبب الذي بلغ بهم إلى هذه الحال الفظيع فيجاب بأنه استحواذ الشيطان عليهم وامتلاكه زمام أنفسهم يصرفها كيف يريد وهل يرضى الشيطان إلا بأشد الفساد والغواية.

والاستحواذ: الاستيلاء والغلب، وهو استفعال من حاذ حوذا، إذا حاط شيئا وصرفه كيف يريد يقال: حاذ العير إذا جمعها وساقها غالبا لها. فاشتقوا منه استفعل للذي يستولي بتدبير ومعالجة، ولذلك لا يقال استحواذ إلا في استيلاء العاقل لأنه يتطلب وسائل استيلاء. ومثله استولى. والسين والتاء للمبالغة في الغلب مثلها في: استجاب.

والأحوذي: القاهر للأمور الصعبة. وقالت عائشة كان عمر أحوذيا نسيج وحده .

وكان حق استحوذ أن يقلب عينه ألفا لأن أصلها واو متحركة إثر ساكن صحيح وهو غير اسم تعجب ولا مضاعف اللام ولا معتل اللام فحقها أن تنقل حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها فرارا من ثقل الحركة على حرف العلة مع إمكان الاحتفاظ بتلك الحركة بنقلها إلى الحرف قبلها الخالي من الحركة فيبقى حرف العلة ساكنا سكونا ميتا إثر حركة فيقلب مدة مجانسة للحركة التي قبلها مثل يقوم ويبين وأقام، فحق استحوذ أن يقال فيه: استحاذ ولكن الفصيح فيه تصحيحه على خلاف غالب بابه وهو تصحيح سماعي، وله نظائر قليلة منها استنوق الجمل، وأعول، إذا رفع صوته. وأغيمت السماء واستغيل الصبي، إذا شرب الغيل وهو لبن الحامل. وقال أبو زيد التصحيح هو لغة لبعض العرب مطردة في هذا الباب كله. وحكى المفسرون أن عمر بن الخطاب قرأ)استحاذ عليهم الشيطان(. وقال الجوهري: تصحيح هذا الباب كله مطرد. وقال في التسهيل: يطرد تصحيح هذا الباب في كل فعل أهمل ثلاثيه مثل استنوق الجمل واستسيست الشاة إذا صارت كالتيس.

وتقدم الكلام على الاستحواذ عند قوله تعالى)قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين(في سورة النساء، فضم هذا إلى ذاك.

والنسيان مراد منه لازمه وهو الإضاعة وترك المنسي، لقوله تعالى)كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى(.

والذكر يطلق على نطق اللسان باسم أو كلام ويطلق على التذكر بالعقل. وقد يخص هذا الثاني بضم الذال وهو هنا مستعمل في صريحه وكنايته، مستعمل في لازمه وهو العبادة والطاعة لأن المعنى أنه أنساهم توحيد الله بكلمة الشهادة والتوجه إليه بالعبادة. والذي لا يتذكر شيئا لا يتوجه إلى واجباته.

وجملة)أولئك حزب الشيطان(نتيجة وفذلكة لقول)استحوذ عليهم الشيطان(فإن الاستحواذ يقتضي أنه صيرهم من أتباعه.
واسم الإشارة لزيادة تمييزهم لئلا يتردد في أنهم حزب الشيطان.

صفحة : 4346

وجملة)ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون(واقعة موقع التفرع والتسبب على جملة)أولئك حزب الشيطان(، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: فإن حزب الشيطان هم الخاسرون، فلذلك عدل عن ذلك إلى حرف الاستفتاح تنبيها على أهمية مضمونها وأنه مما يحق العناية باستحضاره في الأذهان مبالغة في التحذير من الاندماج فيهم، والتلبس بمثل أحوالهم المذكورة آنفا. وزيد هذا التحذير اهتماما بتأكيد الخبر بحرف)إن(وبصيغة القصر، إذ لا يتردد أحد في أن حزب الشيطان خاسرون فإن ذلك من القضايا المسلمة بين البشر، فلذلك لم تكن هذه المؤكدات لرد الإنكار لتحذير المسلمين أن تغرهم حبائل الشيطان وتروق في أنظارهم بزة المنافقين وتخدعهم أيمانهم الكاذبة.
وإظهار كلمة)حزب الشيطان(دون ضميرهم لزيادة التصريح ولتكون الجملة صالحة للتمثل بها مستقلة بدلالتها.
وضمير الفصل أفاد القصر، وهو قصر ادعائي للمبالغة في مقدار خسرانهم وأنهم لا خسران أشد منه فكأن كل خسران غيره عدم فيدعى أن وصف الخاسر مقصور عليهم.
وحزب المرء: أنصاره وجنده ومن يواليه.
)إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين[20] كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز[21](موقع هذه الآية بعد ما ذكر من أحوال المنافقين يشبه موقع آية)إن الذين يحادون الله ورسوله(المتقدم ذكرهم المشركون المعلنون بالمحادة. وأما المحادن المذكورون في هذه الآية فهم المسرون للمحادة المتظاهرون بالموالاة، وهم المنافقون، فالجملة استئناف بياني بينت شيئا من الخسران الذي قضى به على حزب الشيطان الذين هم في مقدمته. وبهذا تكتسب هذه الجملة معنى بدل البعض من مضمون جملة)ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون(، لأن الخسران يكون في الدنيا والآخرة، وخسران الدنيا أنواع أشدها على الناس المذلة والهزيمة، والمعنى: أن حزب الشيطان في الأذلين المغلوبين.
واستحضارهم بصلة)الذين يحادون الله ورسوله(إظهار في مقام الإضمار فمقتضى الظاهر أن يقال: إنهم في الأذلين فأخرج الكلام

على خلاف مقتضى الظاهر إلى الموصولية لإفادة مدلول الصلة أنهم أعداء الله تعالى ورسولهصلى الله عليه وسلم وإفادة الموصول تعليل الحكم الوارد بعده وهو كونهم أذلين لأنهم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم أعداء الله القادر على كل شيء فعدوه لا يكون عزيزا.

ومفاد حرف الظرفية أنهم كائنون في زمرة القوم الموصوفين بأنهم أذلوا، أي شديدو المذلة ليتصورهم السامع في كل جماعة يرى أنهم أذلون، فيكون هذا النظم أبلغ من أن يقال أولئك هم الأذلون.

واسم الإشارة تنبيه على أن الإشارة إليهم جديرون بما بعد اسم الإشارة من الحكم بسبب الوصف الذي قبل اسم الإشارة مثل) أولئك على هدى من ربهم(.

وتقدم الكلام على)يحادون الله ورسوله(في أوائل هذه السورة.

وجملة)كتب الله لأغلبن(علة لجملة)أولئك في الأذلين(أي لأن الله أراد أن يكون رسوله صلى الله عليه وسلم غالبا لأعدائه وذلك من آثار قدرة الله التي لا يغليها شيء وقد كتب لجميع رسله الغلبة على أعدائهم، فغلبتهم من غلبة الله إذ قدرة الله تتعلق بالأشياء على وفق إرادة الله لا يغيرها شيء، والإرادة تجري على وفق العلم ومجموع توارد العلم والإرادة والقدرة على الموجود هو المسمى بالقضاء. وهو المعبر عنه هنا ب)كتب الله(لأن الكتابة استعيرت لمعنى: قضى الله ذلك وأراد وقوعه في الوقت الذي علمه وأراده فهو محقق الوقوع لا يتخلف مثل الأمر الذي يراد ضبطه وعدم الإخلال به فإنه يكتب لكي لا ينسى ولا ينقص منه شيء ولا يجحد التراضي عليه.

فثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم الغلبة لشمول ما كتبه الله لرسله إياه وهذا إثبات لغلبة رسوله أقوى من يحادونه بطريق برهاني.

فجملة)لأغلبن(مصوغة صيغة القول ترشيحا لاستعارة)كتب(إلى معنى قضى وقدر. والمعنى: قضى مدلول هذه الجملة، أي قضى بالغلبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فكأن هذه الجملة هي المكتوبة من الله. والمراد: الغلبة بالقوة لأن الكلام مسوق مساق التهديد. وأما الغلبة بالحجة فأمر معلوم.

وجملة)إن الله قوي عزيز(تعليل لجملة)لأغلبن(لأن الذي يغالب الغالب مغلوب. قال حسان:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها
وليغلبن مغالـب الـغـلاب)لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم(كان للمنافقين قرابة بكثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان نفاقهم لا يخفى على بعضهم، فحذر الله المؤمنين الخالصين من موادة من يعادي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
ورويت ثمانية أقوال متفاوتة قوة أسانيد أقصاها القرطبي في نزول هذه الآية وليس يلزم أن يكون للآية سبب نزول فإن ظاهرها أنها متصلة المعنى بما قبلها وما بعدها من ذم المنافقين وموالاتهم اليهود، فما ذكر فيها من قصص لسبب نزولها فإنما هو أمثلة لمقتضى حكمها.
وافتتاح الكلام ب)لا تجد قوما(يثير تشويقا إلى معرفة حال هؤلاء القوم وما سيساق في شأنهم من حكم.
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. والمقصود منه أمره بإبلاغ المسلمين أن موادة من يعلم أنه محاد الله ورسوله هي مما ينافي الإيمان ليكف عنها من عسى أن يكون متلبسا بها. فالكلام من قبل الكناية عن السعي في نفي وجدان قوم هذه صفتهم، من قبيل قولهم: لا أرينك ها هنا، أي لا تحضر هنا.
ومنه قوله تعالى)قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض(أراد بما لا يكون، لأن ما لا يعلمه الله لا يجوز أن يكون موجودا، وكانت هذه عادة المؤمنين قبل الهجرة أيام كانوا بمكة. وقد نقلت أخبار من شواهد ذلك متفاوتة القوة ولكن كان الكفر أيامئذ مكشوفا والعداوة بين المؤمنين والمشركين واضحة. فلما انتقل المسلمون إلى المدينة كان الكفر مستورا في المنافقين فكان التحرز من موادتهم أجدر وأحذر.
والموادة أصلها: حصول المودة في جانبين. والنهي هنا إنما هو عن مودة المؤمن الكافرين لا عن مقابلة الكافر المؤمنين بالمودة، وإنما جيء بصيغة المفاعلة هنا اعتبارا بأن شأن الود أن يجلب ودا من المودود للواد.
وإما أن تكون المفاعلة كناية عن كون الود صادقا لأن الواد الصادق يقابله المودود بمثله. ويعرف ذلك بشواهد المعاملة، وقرينة الكناية توجيه نفي وجدان الموصوف بذلك إلى القوم الذين يؤمنون بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولذلك لم يقل الله هنا)إلا أن تتقوا منهم تقاة(، لأن المودة من أحوال القلب فلا تتصور معها التقية، بخلاف قوله)لا يتخذ المؤمنين الكافرون أولياء من دون المؤمنين(إلى قوله)إلا أن تتقوا منهم تقاة(.

وقوله)ولو كانوا آباءهم(إلى آخره مبالغة في نهاية الأحوال التي قد تقدم فيها المرء على الترخص فيما نهي عنه بعلة قرب القرابة.
ثم أن الذي يحاد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إن كان متجاهرا بذلك معلنا به، أو متجاهرا بسوء معاملة المسلمين لأجل إسلامهم لا لموجب عداوة دنيوية، فالواجب على المسلمين إظهار عداوته، قال تعالى)إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون(ولم يرخص في معاملتهم بالحسنى إلا لاتقاء شرهم إن كان لهم بأس قال تعالى)لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تقوا منهم تقاة(.
وأما م عدا هذا الصنف فهو الكافر الممسك شره عن المسلمين، قال تعالى)لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين(.
ومن هذا الصنف أهل الذمة وقد بين شهاب الدين القرافي في الفرق التاسع عشر بعد المائة مسائل الفرق بين البر والمودة وبهذا تعلم أن هذه الآية ليست منسوخة بآية)لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين(وأن لكل منهما حالتها.
ف)لو(وصلية وتقدم بيان معنى)لو(الوصلية عند قوله تعالى)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(في سورة آل عمران ورتبت أصناف القرابة في هذه الآية على طريقة التدلي من الأقوى إلى من دونه لئلا يتوهم أن النهي خاص بمن تقوى فيه ظنة النصيحة له والائتمار بأمره.

صفحة : 4348

وعشيرة الرجل قبيلته الذين يجتمع معهم في جد غير بعيد وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن أهل الإيمان الكامل لا يوادون من فيه معنى من محادة الله ورسول صلى الله عليه وسلم بخرق سياج شريعته عمدا. والاستخفاف بحرمات الإسلام، وهؤلاء مثل أهل الظلم والعدوان في الأعمال من كل ما يؤذن بقلة اكتراث مرتكبه بالدين وينبيء عن ضعف احترامه للدين مثل المتجاهرين بالكبائر والفواحش الساخرين من الزواجر والمواعظ، ومثل أهل الزيغ والضلال في الاعتقاد ممن يؤذن حالهم بالإعراض عن أدلة الاعتقاد الحق، وإيثار الهوى النفسي والعصبية على أدلة الاعتقاد الإسلامي الحق. فعن

الثوري أنه قال: كانوا يرون تنزيل هذه الآية على من يصحب سلاطين الجور. وعن مالك: لا تجالس القدرية وعادهم في الله لقوله تعالى)لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله(.

وقال فقهاؤنا: يجوز أو يجب هجران ذو البدعة الضالة أو الانغماس في الكبائر إذا لم يقبل الموعظة.

وهذا كله من إعطاء بعض أحكام المعنى الذي فيه حكم شرعي أو وعيد لمعنى آخر فيه وصف من نوع المعنى ذي الحكم الثابت. وهذا يرجع إلى أنواع من الشبه في مسالك العلة للقياس فإن الأشياء متفاوتة في الشبه.

وقد استدل أئمة الأصول على حجية الإجماع بقوله تعالى)ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم(مع أن مهيع الآية المحتج بها إنما هو الخروج عن الإسلام ولكنهم رأوا الخروج مراتب متفاوتة فمخالفة إجماع المسلمين كلهم فيه شبه اتباع غير سبيل المؤمنين.

)أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[22](الإشارة إلى القوم الموصوفين بأنهم)يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم(.

والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لأن الأوصاف السابقة ووقوعها عقب ما وصف به المنافقون من محادة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم سابقا وآنفا، وما توعدهم الله به أنه أعد لهم عذابا شديدا ولهم عذاب مهين، وأنهم حزب الشيطان، وأنهم الخاسرون، مما يستشرف بعده السامع إلى ما سيخبر به عن المتصفين بضد ذلك. وهم المؤمنون الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وكتابة الإيمان في القلوب نظير قوله)كتب الله لأغلبن أنا ورسلي(. وهي التقدير الثابت الذي لا تتخلف آثاره، أي هم المؤمنون حقا الذين زين الله الإيمان في قلوبهم فاتبعوا كماله وسلكوا شعبه.

والتأكيد: التقوية والنصر. وتقدم بيانه عند قوله تعالى)وأيدناه بروح القدس(في سورة البقرة، أي أن تأييد الله إياهم قد حصل وتقرر بالإتيان بفعل المضي للدلالة على الحصول وعلى التحقق والدوام فهو مستعمل في معنييه.

والروح هنا: ما به كمال نوع الشيء من عمل أو غيره وروح من الله: عنايته ولطفه. ومعاني الروح في قوله تعالى)ويسألونك عن

الروح(في سورة الإسراء، ووعدهم بأنه يدخلهم في المستقبل الجنات خالدين فيها.
ورضي الله عنهم حاصل من الماضي ومحقق الدوام فهو مثل الماضي في قوله)وأيدهم(، ورضاهم عن ربهم كذلك حاصل في الدنيا بثباتهم على الدين ومعاداة أعدائه، وحاصل في المستقبل بنوال رضا الله عنهم ونوال نعيم الخلود.
وأما تحويل التعبير إلى المضارع في قوله)ويدخلهم جنات(فلأنه الأصل في الاستقبال. وقد استغني عن إفادة التحقيق بما تقدمه من قوله تعالى)أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه(.
وقوله)أولئك حزب الله(إلى آخره كالقول في)أولئك حزب الشيطان(. وحرف التنبيه يحصل منه تنبيه المسلمين إلى فضلهم. وتنبيه من يسمع ذلك من المنافقين إلى ما حبا الله به المسلمين من خير الدنيا والآخرة لعل المنافقون يغبطونهم فيخلصون الإسلام.
وشتان بين الحزبين. فالخسران لحزب الشيطان، والفلاح لحزب الله تعالى.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الحشر

صفحة : 4349

اشتهرت تسمية هذه السورة)سورة الحشر(. وبهذا الاسم دعاها النبي صلى الله عليه وسلم.
روي الترمذي عن معقل بن يسار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح ثلاث مراد أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر الحديث، أي الآيات التي أولها)هو الله لا أله إلا هو عالم الغيب والشهادة(إلى آخر السورة.
وفي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير قال: قلت لأن عباس سورة الحشر قال)قل بني النضير(، أي سورة بني النضير فابن جبير سماها باسمها المشهور. وأبن عباس يسميها سورة بني النضير. ولعله لم يبلغه تسمية النبي صلى الله عليه وسلم إياها)سورة الحشر(لأن ظاهر كلامه أنه يرى تسميتها سورة بني النضير(لقوله أن جبير قل بني النضير .
وتأول أبن حجر كلام أبن عباس على أنه كره تسميتها ب)الحشر(لئلا يظن أن المراد بالحشر يوم القيامة. وهذا تأويل بعيد.

وأحسن من هذا أن أبن عباس أراد أن لها اسمين، وأن الأمر في قوله: قل، للتخيير.
فأما وجه تسميتها)الحشر(فلوقوع لفظ)الحشر(فيها. ولكونها ذكر فيها حشر بني النضير من ديارهم أي من قريتهم المسماة الزهرة قريبا من المدينة. فخرجوا إلى بلاد الشام إلى أريحا وأذرعات، وبعض بيوتهم خرجوا إلى خيبر، وبعض بيوتهم خرجوا إلى الحيرة.
وأما وجه تسميتها سورة بني النضير فلأن قصة بني النضير ذكرت فيها.
وهي مدينة بالاتفاق.
وهي الثامنة والتسعون في عداد نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة البينة وقبل سورة النصر.
وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من بلادهم سنة أربع من الهجرة.
وعدد آيها أربع وعشرون باتفاق العادين.

أغراض هذه السورة
وفق الاتفاق على أنها نزلت في شأن بني النضير ولم يعينوا ما هو الغرض الذي نزلت فيه. ويظهر أن المقصد منها حكم أموال بني النضير بعد الانتصار عليهم، كما سنبينه في تفسير الآية الأولى منها.
وقد اشتملت إلى أن ما في السماوات وما في الأرض دال على تنزيه الله، وكون في السماوات والأرض ملكه، وأنه الغالب المدبر.
وعلى ذكر نعمة الله على ما يسر من إجلاء بني النضير مع ما كانوا عليه من المنعة والحصون والعدة. وتلك آية من آيات تأييد رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلبته على أعدائه.
وذكر ما أجراه المسلمون من إتلاف أموال بني النضير وأحكام ذلك في أموالهم وتعيين مستحقيه من المسلمين.
وتعظيم شأن المهاجرين والأنصار والذين يجيئون بعدهم من المؤمنين.
وكشف دخائل المنافقين ومواعيدهم لبني النضير أن ينصروهم وكيف كذبوا وأنحى على بني النضير والمنافقين بالجبن وتفرق الكلمة وتنظير حال تغرير المنافقين لليهود بتغرير الشيطان للذين يكفرون بالله، وتنصله من ذلك يوم القيامة فكان عاقبة الجميع الخلود في النار.
ثم خطاب المؤمنين بالأمر بالتقوى والحذر من أحوال أصحاب النار والتذكير بتفاوت حال الفريقين.
وبيان عظمة القرآن وجلالته واقتضائه خشوع أهله.

وتخلل ذلك إيماء إلى حكمة شرائع انتقال الأموال بين المسلمين بالوجوه التي نظمها الإسلام بحيث لا تشق على أصحاب الأموال.
والآمر باتباع ما يشرعه الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.
وختمت بصفات عظيمة من الصفات الإلهية وأنه يسبح له ما في السماوات والأرض تزكيه لحال المؤمنين وتعريضا بالكافرين.
)سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم[1](
افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح ما في السماوات والأرض لله تعالى تذكير للمؤمنين بتسبيحهم لله تسبيح شكر ما أنالهم من فتح بلاد بني النضير فكأنه قالوا سبحوا لله كما سبح له ما في السماوات والأرض.
وتعريض بأولئك الذين نزلت السورة فيهم بأنهم أصابهم ما أصابه لتكبرهم عن تسبيح الله حق تسبيحه بتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم إذ أعرضوا عن النظر في دلائل رسالته أو كابروا في معرفتها.

صفحة : 4350

والقول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في أول سورة الحديد، إلا أن التي في أول سورة الحديد فيها)ما في السماوات والأرض(وها هنا قال)ما في السماوات وما في الأرض(لأن فاتحة سورة الحديد تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات فجمع ذلك كله في اسم واحد هو)ما(الموصولة التي صلتها قوله)في السماوات والأرض(. وأما فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمن الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية وهي خذلان بني النضير فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم، وهي)ما(الموصولة الثانية التي صلتها)في الأرض(، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن كما سيأتي في مواضعها. وأوثر الأخبار عن)سبح ما في السماوات وما في الأرض(بفعل المضي لأن المخبر عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج أهل النضير.
)هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا(يجوز أن تجعل جملة)هو الذي أخرج الذين كفروا(إلى آخرها استئنافا ابتدائيا لقصد إجراء هذا التمجيد

على اسم الجلالة لما يتضمنه من باهر تقديره، ولما يؤذن به ذلك من التعريض بوجوب شكره على ذلك الإخراج العجيب.
يجوز أن تجعل علة لما تضمنه الخبر عن تسبيح ما في السماوات وما في والأرض من التذكير للمؤمنين والتعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين هم فريقان مما في الأرض فإن القصة التي تضمنها فاتحة السورة من أهم أحوالهما.
ويجوز أن تفعل مبينة لجملة)وهو العزيز الحكيم(لأن هذا التسخير العظيم من آثار عزه وحكمته.
وعلى كل الوجوه فهو تذكير بنعمة الله على المسلمين وإيماء إلى أن يشكروا الله على ذلك وتمهيد المقصود من السورة وهو قسمة أموال أبن النضير.
وتعريف جزأي الجملة بالضمير والموصول يفيد قصر صفة إخراج الذين كفروا من ديارهم عليه تعالى وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بسعي المؤمنين في ذلك الإخراج ومعالجتهم بعض أسبابه كتخريب ديار بني النضير.
ولذلك فجملة)ما ظننتم أن يخرجوا(تتنزل منزلة التعليل لجملة القصر.
وجملة)وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم(عطف على العلة، أي وهم ظنوا أهل المسلمين لا يغلبونهم. وإنما لم يقل: وظنوا أن لا يخرجوا. مع أن الكلام على خروجهم، من قوله تعالى)وهو الذي أخرج الذين كفروا(فعدل عنه إلى)وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم(أي مانعتهم من إخراجهم استغناء عن ذكر المظنون بذكر علة الظن. والتقدير: وظنوا أن لا يخرجوا لأنهم تمنعهم حصونهم، أي ظنوا ظنا قويا معتمدين على حصونهم.
والمراد ب)الذين كفروا من أهل الكتاب(بنو النضير)بوزن أمير(وهم قبيلة من اليهود استوطنوا بلاد العرب هم وبنو عمهم قريظة، ويهود خيبر، وكلهم من ذرية هارون عليه السلام وكان يقال لبني النضير وبني قريظة: الكاهنان لأن كل فريق منها من ذرية هارون وهو كائن الملة الإسرائيلية. والكهانة: حفظ أمور الديانة بيده ويد أعقابه.
وقصة استيطانهم بلاد العرب أن موسى عليه السلام كان أرسل طائفة من أسلافهم لقتال العماليق المجاورين للشام وأرض العرب فقصروا في قتالهم وتوفي موسى تقريبا من ذلك. فلما عملوا بوفاة موسى رجعوا على أعقابهم إلى ديار إسرائيل في أريحا لهم قومهم: أنتم عصيتم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا، فخرجوا إلى جزيرة العرب وأقاموا لأنفسهم قرى حول يثرب)المدينة(وبنوا لأنفسهم حصونا وقرية سموها الزهرة. وكانت حصونهم خمسة سيأتي ذكر أسمائهما

في آخر تفسير الآية، وصاروا أهل زرع وأموال. وكان فيهم أهل الثراء مثل السموأل بن عاديا، وكعب بن الأشرف، وأبن أبي الحقيق، وكان بينهم وبين الأوس والخزرج حلف ومعاملة، فكان من بطون أولئك اليهود بنو النضير وقريظة وخيبر.

صفحة : 4351

ووسموا ب)الذين كفروا(لأنهم كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم تسجيلا عليهم بهذا الوصف الذميم وقد وصفوا ب)الذين كفروا(في قوله تعالى)ولما جائهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين(إلى قوله)عذاب مهين(في سورة البقرة.

وعليه فحرف)من(في قوله)من أهل الكتاب(بيانية لأن المراد بأهل الكتاب هنا خصوص اليهود أي الذين كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهم أهل الكتاب وأراد بهم اليهود، فوصفوا ب)من أهل الكتاب(لئلا يظن أن المراد ب)الذين كفروا(المشركون بمكة أو بقية المشركين بالمدينة فيظن أن الكلام وعيد.

وتفصيل القصة التي أشارت إليها الآية على ما ذكر جمهور أهل التفسير. أن بني النضير لما هاجر المسلمون إلى المدينة جاءوا فصالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يكونوا عليه ولا له، ويقال: أن مصالحتهم كانت عقب وقعة بدر لما غلب المسلمون المشركين لأنهم توسموا أن لا تهزم لهم راية، فلما غلب المسلمون يوم أحد نكثوا عهدهم وراموا مصالحة المشركين بمكة، إذ كانوا قد قعدوا عن نصرتهم يوم بدر كدأب اليهود في موالاة القوي فخرج كعب بن الأشرف وهو سيد بني النضير في أربعين راكبا فحالفوا المشركين عند الكعبة على أن يكونوا عونا لهم على مقاتلة المسلمين، فلما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك أمر محمد بن مسلمة أن يقتل كعب بن الأشرف فقتله غيلة في حصنه في قصة مذكورة في كتب السنة والسير.

وذكر ابن إسحاق سببا آخر وهو أنه لما انقضت وقعة بئر معونة في صفر سنة أربع كان عمرو بن أمية الضمري أسيرا عند المشركين فأطلقه عامر بن الطفيل. فلما كان راجعا إلى المدينة أقبل رجلان من بني عامر وكان لقومهما عقد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلا مع عمرو بن أمية، فلما ناما عدا عليهما فقتلهما وهو يحسب أنه يثأر بهما من بني عامر الذين قتلوا أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ببئر معونة، ولما قدم عمرو ابن أمية أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد قتلت قتيلين ولآدينهما، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين إذ كان بين بني النضير وبين بني عامر حلف، وأضمر بنو النضير الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلعه الله عليه فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتهيؤ لحربهم.

ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالسير إليهم في ربيع الأول في سنة أربع من الهجرة فسار إليهم هو والمسلمون وأمرهم بأن يخرجوا من قريتهم فامتنعوا وتنادوا إلى الحرب ودس إليهم عبد الله بن أبي بن سلول أن لا يخرجوا من قريتهم وقال: إن قاتلكم المسلمون فنحن معكم لننصرنكم وإن أخرجتم لنخرجن معكم فدربوا على الأزقة أي سدوا منافذ بعضها لبعض ليكون كل درب منها صالحا للمدافعة وحصنوها، ووعدهم أن معه ألفين من قومه وغيرهم، وإن معهم قريظة وحلفاءهم من غطفان من العرب فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم وانتظروا عبد الله بن أبي بن سلول وقريظة وغطفان أن يقدموا إليهم ليردوا عنهم جيش المسلمين فلما رأوا أنهم لم ينجدوهم قذف الله في قلوبهم الرعب فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم الصلح فأبى إلا الجلاء عن ديارهم وتشارطوا على أن يخرجوا ويحمل كل ثلاثة أبيات منهم حمل بعير مما شاؤوا من متاعهم، فجعلوا يخربون بيوتهم ليحملوا معهم ما ينتفعون به من الخشب والأبواب.

فخرجوا فمنهم من لحق بخيبر، وقليل منهم لحقوا ببلاد الشام في مدن أريحا وأذرعات من أرض الشام وخرج قليل منهم إلىالحيرة.

واللام في قوله)لأول الحشر(لام التوقيت وهي التي تدخل على أول الزمان المجعول ظرفا لعمل مثل قوله تعالى)يقول يا ليتني قدمت لحياتي(أي من وقت حياتي. وقولهم: كتب ليوم كذا. وهي بمعنى عند . فالمعنى أنه أخرجهم عند مبدإ الحشر المقدر لهم، وهذا إيماء إلى أن الله قدر أن يخرجوا من جميع ديارهم في بلاد العرب. وهذا التقدير أمر به النبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي. فالتعريف في)الحشر(تعريف العهد.

والحشر: جمع ناس في مكان قال تعالى)وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم(.
والمراد به هنا: حشر يهود جزيرة العرب إلى أرض غيرها، أي جمعهم للخروج، وهو بهذا المعنى يرادف الجلاء إذا كان الجلاء لجماعة عظيمة تجمع من متفرق ديار البلاد.
وليس المراد به: حشر يوم القيامة إذ لا مناسبة له هنا ولا يلائم ذكر لفظ)أول(لأن أول كل شيء إنما يكون متحد النوع مع ما أضيف هو إليه.
وعن الحسن: أنه حمل الآية على حشر القيامة وركبوا على ذلك أوهاما في أن حشر القيامة يكون بأرض الشام وقد سبق أن ابن عباس احترز من هذا حين سمى هذه السورة سورة بني النضير وفي جعل هذا الإخراج وقتا لأول الحشر إيذان بأن حشرهم يتعاقب حتى يكمل إخراج جميع اليهود وذلك ما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته إذ قال لا يبقى دينان في جزيرة العرب . وقد أنفذه عمر بن الخطاب حين أجلى اليهود من جميع بلاد العرب.
وقيل: وصف الحشر بالأول لأنه أول جلاء أصاب بني النضير، فإن اليهود أجلوا من فلسطين مرتين مرة في زمن بختنصر ومرة في زمن طيطس سلطان الروم وسلم بنو النضير ومن معهم من الجلاء لأنهم كانوا في بلاد العرب. فكان أول جلاء أصابهم جلاء بني النضير.
)وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله(أي كان ظن المسلمين وظن أهل الكتاب متواردين على تعذر إخراج بني النضير من قريتهم بسبب حصانة حصونهم.
وكان اليهود يتخذون حصونا يأوون إليها عندما يغزوهم العدو مثل حصون خيبر.
وكان لبني النضير ستة حصون أسماؤها: الكتيبة بضم الكاف وفتح المثناة الفوقية والوطيح بفتح الواو وكسر الطاء والسلالم بضم السين والنطاة بفتح النون وفتح الطاء بعدها ألف وبها تأنيث آخره والوخدة بفتح الواو وسكون الخاء المعجمة ودال مهملة وشق بفتح الشين المعجمة وتشديد القاف .
ونظم جملة)وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم(على هذا النظم دون أن يقال: وظنوا أن حصونهم مانعتهم ليكون الابتداء بضميرهم لأنه سيعقبه إسناد)مانعتهم(إليه فيكون الابتداء بضميرهم مشيرا إلى اغترارهم بأنفسهم أنهم في عزة ومنعة، وأن منعة حصونهم هي من شؤون عزتهم.
وفي تقديم)مانعتهم(وهو وصف على)حصونهم(هو اسم والاسم بحسب الظاهر أولى بأن يجعل بمرتبة المبتدأ ويجعل الوصف خبرا

عنه، فعدل عن ذلك إشارة إلى أهمية منعة الحصون عند ظنهم فهي بمحل التقديم في استحضار ظنهم، ولا عبرة بجواز جعل حصونهم فاعلا باسم الفاعل وهو مانعتهم بناء على أنه معتمد على مسند إليه لأن محامل الكلام البليغ تجري على وجوه التصرف في دقائق المعاني فيصير الجائز مرجوحا. قال المرزوقي في شرح باب النسب قول الشاعر وهو منسوب إلى ذي الرمة في غير ديوان الحماسة:

فإن لم يكن إلا معرج ساعة قليلا

فإني نافع لي قليلهـا يجوز أن يكون قليلها مبتدأ و نافع خبر مقدم عليه أي لقصد الاهتمام . والجملة في موضع خبر إن والتقدير: إني قليلها نافع لي.

)فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار[2] (تفريع على مجموع جملتي)ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله(اللتين هما تعليل للقصر في قوله تعالى)هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب(.

وتركيب)فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا(تمثيل، مثل شأن الله حين يسر أسباب استسلامهم بعد أن صمموا على الدفاع وكانوا أهل عدة وعدة ولم يطل حصارهم بحال من أخذ حذره من عدوه وأحكم حراسته من جهاته فأتاه عدوه من جهة لم يكن قد أقام حراسة فيها. وهذا يشبه التمثيل الذي في قوله تعالى)والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمئان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده(.

والاحتساب: مبالغة في الحسبان، أي الظن أي من مكان لم يظنوه لأنهم قصروا استعدادهم على التحصن والمنعة ولم يعلموا أن قوة الله فوق قوتهم.

صفحة : 4353

والقذف: الرمي باليد بقوة. واستعير للحصول على العاجل، أي حصل الرعب في قلوبهم دفعة دون سابق تأمل ولا حصول سبب للرعب ولذلك لم يؤت بفعل القذف في آية آل عمران)سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب(.

والمعنى: وجعل الله الرعب في قلوبهم فأسرعوا بالاستسلام. وقذف الرعب في قلوبهم هو حال من إتيان الله إياهم من حيث لم

يحتسبوا فتخصيصه بالذكر للتعجيب من صنع الله، وعطفه على) أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا(عطف خاص على عام للاهتمام.
والرعب: شدة الخوف والفزع. وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: نصرت بالرعب ، أي برعب أعداء الدين.
وجملة)يخربون بيوتهم(حال من الضمير المضاف إليه)قلوبهم(لأن المضاف جزء من المضاف إليه فلا يمنع مجيء الحال منه.
والمقصود التعجيب من اختلال أمورهم فإنهم وإن خربوا بيوتهم باحتيارهم لكن داعي التخريب قهري.
والإخراب والتخريب: إسقاط البناء ونقضه.
والخراب: تهدم البناء.
وقرأ الجمهور)يخربون(بسكون الخاء وتخفيف الراء المكسورة مضارع: أخرب. وقرأه أبو عمرو وحده بفتح الخاء وتشديد الراء المكسورة مضارع: خرب. وهما بمعنى واحد. قال سيبويه: إن أفعلت وفعلت يتعاقبان نحو أخربته وخربته، وأفرحته وفرحته. يريد في أصل المعنى. وقد تقدم ما ذكر من الفرق بين: أنزل ونزل في المقدمة الأولى من مقدمات هذا التفسير.
وأشارت الآية إلى ما كان من تخريب بني النضير بيوتهم ليأخذوا منها ما يصلح من أخشاب وأبواب مما يحملونه معهم ليبنوا به منازلهم في مهاجرهم، وما كان من تخريب المؤمنين بقية تلك البيوت كلما حلوا بقعة تركها بنو النضير.
وقوله)بأيديهم(هو تخريبهم البيوت بأيديهم، حقيقة في الفعل وما في تعلق به، وأما تخريبهم بيوتهم بأيدي المؤمنين فهو مجاز عقلي في إسناد التخريب الذي خربه المؤمنون إلى بني النضير باعتبار أنهم سببوا تخريب المؤمنين لما تركه بنو النضير.
فعطف)أيدي المؤمنين(على)بأيديهم(بحيث يصير متعلقا بفعل) يخربون(استعمال دقيق لأن تخريب المؤمنين ديار بني النضير لما وجدوها خاوية تخريب حقيقي يتعلق المجرور به حقيقة.
فالمعنى: ويسببون خراب بيوتهم بأيدي المؤمنين فوقع إسناد فعل) يخربون(على الحقيقة ووقع تعلق وتعليق)وأيدي المؤمنين(به على اعتبار المجاز العقلي، فالمجاز في التعليق الثاني.
وأما معنى التخريب فهو حقيقي بالنسبة لكلا المتعلقين فإن المعنى الحقيقي فيهما هو العبرة التي نبه عليها قوله تعالى) فاعتبروا يا أولي الأبصار(، أي اعتبروا بأن كان تخريب بيوتهم بفعل وكانت آلات التخريب من آلاتهم وآلات عدوهم.
والاعتبار: النظر في دلالة الأشياء على لوازمها وعواقبها وأسبابها. وهو افتعال من العبرة، وهي الموعظة. وقول القاموس: هي العجب قصور.

وتقدم في قوله تعالى)لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب(في سورة يوسف.
والخطاب في قوله)يا أولي الأبصار(موجه إلى غير معين. ونودي أولوا الأبصار بهذه الصلة ليشير إلى أن العبرة بحال بني النضير واضحة مكشوفة لكل ذي بصر ممن شاهد ذلك، ولكل ذي بصر يرى مواقع ديارهم بعدهم، فتكون له عبرة قدرة الله تعالى على إخراجهم وتسليط المسلمين عليهم من غير قتال. وفي انتصار الحق على الباطل وانتصار أهل اليقين على المذبذبين.
وقد احتج بهذه الآية بعض علماء الأصول لإثبات حجية القياس بناء على أنه من الاعتبار.
)ولولا أن كتب الله عليهم الجلآء لعذبهم في الدنيا(جملة معترضة ناشئة عن جملة)هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب(.
فالواو اعتراضية، أي أخرجهم الله من قريتهم عقابا لهم على كفرهم وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم كما قال)ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله(ولو لم يعاقبهم الله بالجلاء لعاقبهم بالقتل والأسر لأنهم استحقوا العقاب. فلو لم يقذف في قلوبهم الرعب حتى استسلموا لعاقبهم بجوع الحصار وفتح ديارهم عنوة فعذبوا قتلا وأسرا.
والمراد بالتعذيب: الألم المحسوس بالأبدان بالقتل والجرح والأسر والإهانة وإلا فإن الإخراج من الديار نكبة ومصيبة لكنها لا تدرك بالحس وإنما تدرك بالوجدان.

صفحة : 4354

و)لولا(حرف امتناع لوجود، تفيد امتناع جوابها لآجل وجود شرطها، أي وجود تقدير الله جلاءهم سبب لانتفاء تعذيب الله إياهم في الدنيا بعذاب آخر.
وإنما قدر الله لهم الجلاء دون التعذيب في الدنيا لمصلحة اقتضتها حكمته، وهي أن يأخذ المسلمون أرضهم وديارهم وحوائطهم دون إتلاف من نفوس المسلمين مما لا يخلو منه القتال لأن الله أراد استبقاء قوة المسلمين لما يستقبل من الفتوح، فليس تقدير الجلاء لهم القصد اللطف بهم وكرامتهم وإن كانوا قد آثروه على الحرب.
ومعنى)كتب الله عليهم(قدر لهم تقديرا كالكتابة في تحقيق مضمونه وكان مظهر هذا التقدير الإلهي ما تلاحق بهم من النكبات من جلاء النضير ثم فتح قريظة ثم فتح خيبر.
والجلاء: الخروج من الوطن بنية عدم العود، قال زهير:

فإن الحق مقطعة ثلاث يمين أو نفار أو جلاء واعلم أن)أن(الواقعة بعد)لولا(هنا مصدرية لأن) أن(الساكنة النون إذا لم تقع بعد فعل علم يقين أو ظن ولا بعد ما فيه معنى القول، فهي مصدرية وليست مخففة من الثقيلة.

)ولهم في الآخرة عذاب النار[3](عطف على جملة)لولا أن كتب الله عليهم(الآية، أو على جملة)هو الذي أخرج الذين كفروا(الآيات، وليس عطفا على جواب)لولا(فإن عذاب النار حاق عليهم وليس منتفيا. والمقصود الاحتراس من توهم أن الجلاء بدل من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.

)ذلك بأنهم شآقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب[4](الإشارة إلى جميع ما ذكر من إخراج الذين كفروا من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم، وتخريب بيوتهم، وإعداد العذاب لهم في الآخرة.

والباء للسببية وهي جارة للمصدر المنسبك من)أن(وجملتها.

والمشاقة: المخاصمة والعداوة قال تعالى)ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم(وقد تقدم نظيره في أول الأنفال.

والمشاقة كالمحادة مشتقة من الاسم. وهو الشق، كما اشتقت المحادة من الحد، كما تقدم في أول سورة المجادلة. وتقدم في سورة النساء)وإن خفتم شقاق بينهما(.

وقد كان بنو النضير ناصبوا المسلمين العداء بعد أن سكنوا المدينة وأضروا المنافقين وعاهدوا مشركي أهل مكة كما علمت آنفا.

وجملة)ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب(تذييل، أي شديد العقاب لكل من يشاققه من هؤلاء وغيرهم.

وعطف اسم الرسول صلى الله عليه وسلم على اسم الجلالة في الجملة الأولى لقصر تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلموا أن طاعته طاعة لله لأنه إنما يدعو إلى ما أمره الله بتبليغه ولم يعطف اسم الرسول صلى الله عليه وسلم في الجملة الثانية استغناء بما علم من الجملة الأولى.

وأدغم القافان في)يشاق(لأن الإدغام والإظهار من مثله جائزان في العربية. وقرئ بهما في قوله تعالى)ومن يرتدد منكم عن دينه(في سورة العقود. والفك لغة الحجاز. والإدغام لغة بقية العرب.

وجملة)فإن الله شديد العقاب(دليل جواب)من(الشرطية إذ التقدير: ومن يشاقق الله فالله معاقبهم إنه شديد العقاب.

)ما قطعتم من لينة أو تركتموها قآئمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين[5](استئناف ابتدائي أفضى به إلى المقصد عن السورة عن أحكام أموال بني النضير وإشارة الآية إلى ما حدث في حصار بني النضير وذلك أنهم قبل أن يستسلموا اعتصموا بحصونهم

فحاصرهم المسلمون وكانت حوائطهم خارج قريتهم وكانت الحوائط تسمى البويرة بضم الباء الموحدة وفتح الواو وهي تصغير بؤر بهمزة مضمومة بعد الباء فخففت واوا عمد بعض المسلمين إلى قطع بعض نخيل النضير قيل بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم وقيل بدون أمره ولكنه لم يغيره عليهم. فقيل كان ذلك ليوسعوا مكانا لمعسكرهم، وقيل لتخويف بني النضير ونكايتهم، وأمسك بعض الجيش عن قطع النخيل وقالوا: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقد ذكر أن النخلات التي قطعت ست نخلات أو نخلتان. فقالت اليهود: يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر، وهل وجدت فيما أنزل عليك إباحة الفساد في الأرض فأنزل الله هذه الآية.

صفحة : 4355

والمعنى: أن ما قطعوا من النخل أريد به مصلحة إلجاء العدو إلى الاستسلام وإلقاء الرعب في قلوبهم وإذلالهم بأن يروا أكرم أموالهم عرضة للإتلاف بأيدي المسلمين، وأن ما أبقي لم يقطع في بقائه مصلحة لأنه آيل إلى المسلمين فيما أفاء الله عليهم فكان في كلا القطع والإبقاء مصلحة فتعارض المصلحتان فكان حكم الله تخيير المسلمين. والتصرف في وجوه المصالح يكون تابعا لاختلاف الأحوال، فجعل الله القطع والإبقاء كليهما بإذنه، أي مرضيا عنده، فأطلق الإذن على الرضى على سبيل الكناية، أو أطلق إذن الله على إذن رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن بذلك ابتداء، ثم أمر بالكف عنه.
وكلام الأئمة غير واضح في إذن النبي صلى الله عليه وسلم فيه ابتداء وأظهر أقوالهم قول مجاهد: إن القطع والامتناع منه كان اختلافا بين المسلمين، وأن الآية نزلت بتصديق من نهي عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم. وفي ذلك قال حسان ابن ثابت يتورك على المشركين بمكة إذ غلب المسلمون بني النضير أحلافهم ويتورك على بني النضير إذ لم ينصرهم أحلافهم المشركون من قريش:

تفاقد معشر نصروا قريشا وليس لهم ببلدتهم نصـير
وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

يريد سراة أهل مكة وكلهم من بني لؤي بن غالب بن فهر، وفهر هو قريش أي لم ينقذوا أحلافهم لهوانهم عليهم.

وأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يومئذ مشرك:

أدام الله ذلك من صـنـيع وحرق في نواحيها السعير

ستعلم أينا منـهـا بـنـزه وتعلم أي أرضينا تضـير يريد أن التحريق وقع بنواحي مدينتكم فلا يضير إلا أرضكم ولا يضير أرضنا، فقوله: أدام الله ذلك من صنيع، تهكم.

ومن هذه الآية أخذ المحققون من الفقهاء أن تحريق دار العدو وتخريبها وقطع ثمارها جائز إذا دعت إليه المصلحة المتعينة وهو قول مالك. وإتلاف بعض المال لإنقاذ باقيه مصلحة وقوله)من لينة(بيان لما في قوله)ما قطعتم(.

واللينة: النخلة ذات الثمر الطيب تطلق اسم اللينة على كل نخلة غير العجوة والبرمني في قول الجمهور أهل المدينة وأئمة اللغة. وتمر اللينة يسمى اللون.

وإيثار)لينة(على نخلة لأنه أخف ولذلك لم يرد لفظ نخلة مفردا في القرآن، وإنما ورد النخل اسم جمع.

قال أهل اللغة ياء لينة أصلها واو انقلبت ياء لوقوعها إثر كسرة ولم يذكروا سبب كسر أوله ويقال: لونة وهو ظاهر.

وفي كتب السيرة يذكر أن بعض نخل بني النضير أحرقه المسلمون وقد تضمن ذلك شعر حسان ولم يذكر القرآن الحرق فلعل خبر الحرق مما أرجف به فتناقله بعض الرواة، وجرى عليه شعر حسان وشعر أبي سفيان بن الحارث، أو أن النخلات التي قطعت أحرقها الجيش للطبخ أو للدفء.

وجيء بالحال في قوله)قائمة على أصولها(لتصوير هيئتها وحسنها. وفيه إيماء إلى أن ترك القطع أولى. وضمير)أصولها(عائد إلى)ما(الموصولة في قوله تعالى)ما قطعتم(لأن مدلول)ما(هنا جمع وليس عائد إلى)لينة(لأن اللينة ليس لها عدة أصول بل لكل لينة أصل واحد.

وتعلق)على أصولها(ب)قائمة(. والمقصود: زيادة تصوير حسنها. والأصول: القواعد. والمراد هنا: سوق النخل قال تعالى:)أصلها ثابت وفرعها في السماء(. ووصفها بأنها)قائمة على أصولها(هو بتقدير: قائمة فروعها على أصولها لظهور أن أصل النخلة بعضها.

والفاء من قوله)فبإذن الله(مزيدة في خبر المبتدأ لأنه اسم موصول، واسم الموصول يعامل معاملة الشرط كثيرا إذا ضمن معنى التسبب، وقد قرئ بالفاء وبدونها قوله تعالى)وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم(في سورة الشورى.

وعطف)وليخزي الفاسقين(من عطف العلة على السبب وهو)فبإذن الله(لأن السبب في معنى العلة، ونظيره قوله تعالى)

وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين(الآية في آل عمران.
والمعنى: فقطع ما قطعتم من النخل وترك ما تركتم لأن الله أذن للمسلمين به لصلاح لهم فيه، وليخزي الفاسقين، أي ليهين بني النضير فيروا كرائم أموالهم بعضها مخضود وبعضها بأيدي أعدائهم. فذلك عزة للمؤمنين وخزي للكافرين والمراد ب)الفاسقين(هنا: يهود النضير.

صفحة : 4356

وعدل عن الإتيان بضميرهم كما أتي بضمائرهم من قبل ومن بعد إلى التعبير عنهم بوصف)الفاسقين(لأن الوصف المشتق يؤذن بسبب ما اشتق منه في ثبوت الحكم، أي ليجزيهم لأجل الفسق.
والفسق: الكفر.
)وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير[6](يجوز أن يكون عطفا على جملة)ما قطعتم من لينة(الآية فتكون امتنانا وتكملة لمصارف أموال بني النضير.
ويجوز أن تكون عطفا على مجموع ما تقدم عطف القصة على القصة والغرض على الغرض للانتقال إلى التعريف بمصير موال بني النضير لئلا يختلف رجال المسلمين في قسمته. ولبيان أن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في قسمة أموال بني النضير هو عدل إن كانت الآية نزلت بعد القسمة وما صدق)ما أفاء الله(هو ما تركوه من الأرض والنخل والنقض والحطب.
والفيء معروف في اصطلاح الغزاة ففعل أفاء أعطى الفيء، فالفيء في الحروب والغارات ما يظفر به الجيش من متاع عدوهم وهو أعم من الغنيمة ولم يتحقق أئمة اللغة في أصل اشتقاقه فيكون الفيء بقتال ويكون بدون قتال وأما الغنيمة فهي ما أخذ بقتال.
وضمير منهم(عائد إلى)الذين كفروا من أهل الكتاب(الواقع في أول السورة وهم بنو النضير. وقيل: أريد به الكفار، وأنه نزل في فيء فدك فهذا بعيد ومخالف للآثار.
وقوله)فما أوجفتم عليه(خبر عن)ما(الموصولة قرن بالفاء لأن الموصول كالشرط لتضمنه معنى التسبب كما تقدم آنفا في قوله) فبإذن الله(.

وهو بصريحه امتنان على المسلمين بأن الله ساق لهم أموال بني النضير دون قتال، مثل قوله تعالى)وكفى الله المؤمنين القتال(، ويفيد مع ذلك كناية بأن يقصد بالإخبار عنه بأنهم لم يوجفوا عليه لازم الخبر وهو أنه ليس لهم سبب حق فيه. والمعنى: فما هو من حقكم، أو لا تسألوا قسمته لأنكم لم تنالوه بقتالكم ولكن الله أعطاه رسوله صلى الله عليه وسلم نعمة منه بلا مشقة ولا نصب.

والإيجاف: نوع من سير الخيل. وهو سير سريع بإيقاع وأريد به الركض للإغارة لأنه يكون سريعا.

والركاب: اسم جمع للإبل التي تركب. والمعنى: ما أغرتم عليه بخيل ولا إبل.

وحرف)على(في قوله تعالى)فما أوجفتم عليه(للتعليل، وليس لتعدية)أوجفتم(لأن معنى الإيجاف لا يتعدى إلى الفيء بحرف الجر، أو متعلق بمحذوف وهو مصدر)أوجفتم(، أي إيجافا لأجله.

و)من(في قوله)من خيل(زائدة داخلة على النكرة في سياق النفي ومدخول)من(في معنى المفعول به ل)أوجفتم(أي ما سقتم خيلا ولا ركابا.

وقوله)ولكن الله يسلط رسله على من يشاء(استدراك على النفي الذي في قوله تعالى)فما أوجفتم عليه(لرفع توهم أنه لا حق فيه لأحد. والمراد: أن الله سلط عليه رسوله صلى الله عليه وسلم. فالرسول أحق به. وهذا التركيب يفيد قصرا معنويا كأنه قيل: فما سلطكم الله عليهم ولكن سلط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم.

وفي قوله تعالى)ولكن الله يسلط رسله على من يشاء(إيجاز حذف لأن التقدير: ولكن الله سلط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم. والله يسلط رسله على من يشاء وكان هذا بمنزلة التذييل لعمومه وهو دال على المقدر.

وعموم)من يشاء(لشمول أنه يسلط رسله على مقاتلين ويسلطهم على غير المقاتلين.

والمعنى: وما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم إنما هو بتسليط الله رسوله صلى الله عليه وسلم، وإلقاء الرعب في قلوبهم والله يسلط رسله على من يشاء. فأغنى التذييل عن المحذوف، أي فلا حق لكم فيه فيكون من مال الله يتصرف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمور من بعده.

فتكون الآية تبيينا لما وقع في قسمة فيء بني النضير. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقسمه على جميع الغزاة ولكن قسمه على المهاجرين سواء كانوا ممن غزوا معه أم لم يغزوا إذ لم يكن للمهاجرين أموال. فأراد أن يكفيهم ويكفي الأنصار ما منحوه المهاجرين من النخيل. ولم يعط منه الأنصار إلا ثلاثة لشدة حاجتهم وهم أبو دجانة)سماك ابن خزينة(، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة. وأعطى سعد بن معاذ سيف أبي الحقيق، وكل ذلك تصرف باجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله جعل تلك الأموال له.

فإن كانت الآية نزلت بعد أن قسمت أموال النضير كانت بيانا بأن ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم حق، أمره الله به، أو جعله إليه، وإن كانت نزلت قبل القسمة، إذ روي أن سبب نزولها أن الجيش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تخميس أموال بني النضير مثل غنائم بدر فنزلت هذه الآية، وكانت الآية تشريعا لاستحقاق هذه الأموال.

قال أبو بكر بن العربي لا خلاف بين العلماء أن الآية الأولى خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي هذه الآية الأولى من الآيتين المذكورتين في هذه السورة خاصة بأموال بني النضير، وعلى أنها خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء. وبذلك قال عمر بن الخطاب بمحضر عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وسعد، وهو قول مالك فيما روى عنه ابن القاسم وابن وهب. قال: كانت أموال بني النضير صافية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفقوا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخمسها. واختلف في القياس عليها كل مال لم يوجف عليه،قال ابن عطية: قال بعض العلماء وكذلك كل ما فتح الله على الأئمة مما لم يوجف عليه فهو لهم خاصة اه. وسيأتي تفسير ذلك في الآية بعدها.

)ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا تكون دولة بين الأغنياء منكم(جمهور العلماء جعلوا هذه الآية ابتداء كلام، أي على الاستئناف الابتدائي، وأنها قصد منها حكم غير الحكم الذي تضمنته الآية التي قبلها. ومن هؤلاء مالك وهو قول الحنفية فجعلوا مضمون الآية التي قبلها أموال بني النضير خاصة، وجعلوا الآية الثانية هذه إخبارا عن حكم الأفياء التي حصلت عند فتح قرى أخرى بعد غزوة بني النضير. مثل قريضة سنة خمس، وفدك سنة سبع، ونحوهما فعينته هذه الآية للأصناف المذكورة فيها ولا حق في ذلك لأهل الجيش أيضا وهذا الذي يجري على وفاق كلام عمر بن الخطاب في قضائه بين العباس وعلي فيما بأيديهما من أموال بني النضير على

احتمال فيه، وهو الذي يقتضيه تغيير أسلوب التعبير بقوله هنا)ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى(بعد أن قال التي في قبلها) وما أفاء الله على رسوله منهم(فإن ضمير)منهم(راجع ل)الذين كفروا من أهل الكتاب(وهم بنو النضير لا محالة. وعلى هذا القول يجوز أن تكون هذه الآية نزلت بعد مدة فإن فتح القرى وقع بعد فتح النضير بنحو سنتين.

ومن العلماء من جعل هذه الآية كلمة وبيانا للآية التي قبلها، أي بيانا للإجماع الواقع في قوله تعالى)فما أوجفتم عليه من خيل(الآية، لأن الآية التي قبلها اقتصرت على الإعلام بأن أهل الجيش لا حق لهم فيه، ولم تبين مستحقه وأشعر قوله)ولكن الله يسلط رسله على من يشاء(أنه مال لله تعالى يضعه حيث يشاء على يد رسوله صلى الله عليه وسلم فقد بين الله له مستحقيه من غير أهل الجيش. فموقع هذه الآية من التي قبلها موقع عطف البيان. ولذلك فصلت.

وممن قال بهذا الشافعي وعليه جرى تفسير صاحب الكشاف. ومقتضى هذا أن تكون أموال بني النضير مما يخمس ولم يرو أحد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسها بل ثبت ضده، وعلى هذا يكون حكم أموال بني النضير حكما خاصا، أو تكون هذه الآية ناسخة للآية التي قبلها إن كانت نزلت بعدها بمدة.

صفحة : 4358

قال ابن الفرس: آية)ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى(. وهذه الآية من المشكلات إذا نظرت مع الآية التي قبلها ومع آية الغنيمة من سورة الأنفال. ولا خلاف في أن قوله تعالى)وما أفاء الله على رسوله منهم(الآية إنما نزلت فيما صار لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أموال الكفار بغير إيجاف، وبذلك فسرها عمر ولم يخالفه أحد.

وأما آية الأنفال فلا خلاف أنها نزلت فيما صار من أموال الكفار بإيجاف، وأما الآية الثانية من الحشر فاختلف أهل العلم فيها فمنهم من أضافها إلى التي قبلها، ومنهم من أضافها إلى آية الأنفال وأنهما نزلتا بحكمين مختلفين في الغنيمة الموجف عليها، وأن آية الأنفال، نسخت آية الحشر.

ومنهم من قال: إنها نزلت في معنى ثالث غير المعنيين المذكورين في الآيتين: واختلف الذاهبون إلى هذا: فقيل نزلت في خراج الأرض والجزية دون بقية الأموال وقيل نزلت في حكم الأرض خاصة دون

سائر أموال الكفار فتكون تخصيصا لآية الأنفال وإلى هذا ذهب مالك. والآية عند أهل هذه المقالة غير منسوخة. ومنهم من ذهب إلى تخيير الإمام اه.

والتعريف في قوله تعالى)من أهل القرى(تعريف العهد وهي قرى معروفة عدت منها قريظة، وفدك، وقرى عرينة، والينبع، ووادي القرى، والصفراء، فتحت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، واختلف الناس في فتحها أكان عنوة أو صلحا أو فيئا. والأكثر على أن فدك كانت مثل النضير.

ولا يختص جعله للرسول بخصوص ذات الرسول صلى الله عليه وسلم بل مثله فيه أئمة المسلمين.

وتقييد الفيء بفيء القرى جرى على الغالب لأن الغالب أن لا تفتح إلا القرى لأن أهلها يحاصرون فيستسلمون ويعطون بأيديهم إذا اشتد عليهم الحصار، فأما النازلون بالبوادي فلا يغلبون إلا بعد إيجاف وقتال فليس لقيد)من أهل القرى(مفهوم عندنا، وقد اختلف الفقهاء في حكم الفيء الذي يحصل للمسلمين بدون إيجاف. فمذهب مالك أنه لا يخمس وإنما تخمس الغنائم وهي ما غنمه المسلمون بإيجاف وقتال.

وذهب أبو حنيفة إلى التفصيل بين الأموال غير الأرضين وبين الأرضين. فأما غير الأرضين فهو مخمس، وأما الأرضون فالخيار فيها للإمام بما يراه أصلح إن شاء قسمها وخمس أهلها فهم أرقاء، وإن شاء تركها على ملك أهلها وجعل خراجا عليها وعلى أنفسهم.

وذهب الشافعي: إلى أن جميع أموال الحرب مخمسة وحمل حكم هاته الآية على حكم آية سورة الأنفال بالتخصيص أو بالنسخ.

وهذه الآية اقتضت أن صنفا مما أفاء الله على المسلمين لم يجعل الله فيه نصيبا للغزاة وبذلك تحصل معارضة بين مقتضاها وبين قصر آية الأنفال التي لم تجعل لمن ذكروا في هذه الآية إلا الخمس فقال جمع من العلماء: إن آية الأنفال نسخت حكم هذه الآية. وقال جمع: هذه الآية نسخت آية الأنفال. وقال قتادة: كانت الغنائم في صدر الإسلام لهؤلاء الأصناف الخمسة ثم نسخ ذلك بآية الأنفال، بذلك قال زيد بن رومان: قال القرطبي ونحوه عن مالك اه. على أن سورة الأنفال سابقة في النزول على سورة الحشر لأن الأنفال نزلت في غنائم بدر وسورة الحشر نزلت بعدها بسنتين.

إلا أن يقول قائل: إن آية الأنفال نزلت بعد آية الحشر تجديدا لما شرعه الله من التخميس في غنائم بدر، أي فتكون آية الحشر ناسخة لما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة مغانم بدر،ثم نسخت آية الأنفال آية الحشر فيكون إلحاقها بسورة الأنفال بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم. وقال القرطبي: قيل إن

سورة الحشر نزلت بعد الأنفال، واتفقوا على أن تخميس الغنائم هو الذي استقر عليه العمل، أب بفعل النبي صلى الله عليه وسلم، وبالإجماع.
وليس يبعد عندي أن تكون القرى التي عنتها آية الحشر فتحت بحالة مترددة بين مجرد الفيء وبين الغنيمة، فشرع لها حكم خاص بها، وإذ قد كانت حالتها غير منضبطة تعذر أن نقيس عليها ونسخ حكمها واستقر الأمر على انحصار الفتوح في حالتين: حالة الفيء المجرد وما ليس مجرد فيء. وسقط حكم آية الحشر بالنسخ أو بالإجماع. والإجماع على مخالفة حكم النص يعتبر ناسخا لأنه يتضمن ناسخا. وعن معمر أنه قال: بلغني أن هذه الآية أي آية)ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى(نزلت في أرض الخراج والجزية.

صفحة : 4359

ومن العلماء من حملها على أرض الكفار إذا أخذت عنوة مثل سواد العراق دون ما كان من أموالهم غير أرض. كل ذلك من الحيرة في الجمع بين هذه الآية وآية سورة الأنفال مع أمها متقدمة على هذه مع ما روي عن عمر في قضية حكمه بين العباس وعلي، ومع ما فعله عمر في سواد العراق، وقد عرفت موقع الكل.
وستعرف وجه ما فعله عمر في سواد العراق عند الكلام على قوله تعالى)والذين جاءوا من بعدهم(.
ومن العلماء من جعل محمل هذه الآية على الغنائم كلها بناء على تفسيرهم الفيء بما يرادف الغنيمة. وزعموا أنها منسوخة بآية النفال.
وتقدم ما هو المراد من ذكر اسم الله تعالى في عداد من لهم المغانم والفيء والأصناف المذكورة في هذه الآية تقدم بيانا في سورة الأنفال.
و)كيلا يكون دولة(الخ تعليل لما اقتضاه لام التمليك من جعله ملكا لأصناف كثيرة الأفراد، أي جعلناه مقسوما على هؤلاء لأجل أن لا يكون الفيء دولة بين الأغنياء من المسلمين، ي لئلا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهل الحاجة نصيب منه.
والمقصود من ذلك. إبطال ما كان معتادا بين العرب قبل الإسلام من استئثار قائد الجيش بأمور من المغانم وهي: المرباع، والصفايا، وما صالح عليه عدوه دون قتال، والنشيطة والفضول.
قال عبد الله بن غنمة الضبي يخاطب بسطام بن قيس سيد بني شيبان وقائدهم في أيامهم:

لك المرباع منه والصـفـايا وحكمك والنشيطة والفضول فالمرباع: ربع المغانم كان يستأثر به قائد الجيش.

والصفايا: النفيس من المغانم الذي لا نظير له فتعذر قسمته، كان يستأثر به قائد الجيش، وأما حكمه فهو ما أعطاه العدو من المال إذا نزلوا على حكم أمير الجيش.

والنشيطة: ما يصيبه الجيش في طريقه من مال عدوهم قبل أن يصلوا إلى موضع القتال.

والفضول: ما يبقى بعد قسمة المغانم مما لا يقبل القسمة على رؤوس الغزاة مثل بعير وفرس.

وقد أبطل الإسلام ذلك كله فجعل الفيء مصروفا إلى ستة مصارف راجعة فوائدها إلى عموم المسلمين لسد حاجاتهم العامة والخاصة، فإن ما هو لله وللرسول صلى الله عليه وسلم إنما يجعله الله لما يأمر به رسوله صلى الله عليه وسلم وجعل الخمس من المغانم كذلك لتلك المصارف.

وقد بدأ من هذا التعليل أن من مقاصد الشريعة أن يكون المال دولة بين الأمة الإسلامية على نظام محكم في انتقاله من كل مال لم يسبق عليه ملك لأحد مثل الموات، والفيء، واللقطات، والركاز، أو كان جزءا معينا مثل: الزكاة، والكفارات، وتخميس المغانم، والخراج، والمواريث، وعقود المعاملات التي بين جانبي مال وعمل مثل: القراض، والمغارسة، والمساقاة، وفي الأموال التي يظفر بها الظافر بدون عمل وسعي مثل: الفيء والركائز، وما ألقاه البحر، وقد بينت ذلك في الكتاب الذي سميته مقاصد الشريعة الإسلامية .

والدولة بضم الدال: ما يتداوله المتداولون. والتداول: التعاقب في التصرف في شيء. وخصها الاستعمال بتداول الأموال.

والدولة بفتح الدال: النوبة في الغلبة والملك. ولذلك أجمع القراء المشهورون على قراءتها في هذه الآية بضم الدال.

وقرأ الجمهور)كي لا يكون دولة(بنصب)دولة(على أنه خبر) يكون(. واسم)يكون(ضمير عائد إلى ما أفاء الله وقرأه هشام عن ابن عامر، وأبو جعفر برفع)دولة(على أن)يكون(تامة و)دولة(فاعله.

وقرأ الجمهور)يكون(بتحتية في أوله. وقرأه أبو جعفر)تكون(بمثناة فوقية جريا على تأنيث فاعله. واختلف الرواة عن هشام فبعضهم روى عنه موافقة أبي جعفر في تاء)تكون(وبعضهم روى عنه موافقة الجمهور في الياء.

والخطاب في قوله تعالى)بين الأغنياء منكم(للمسلمين لأنهم الذين خوطبوا في ابتداء السورة بقوله)ما ظننتم أن يخرجوا(ثم قوله)ما قطعتم من لينة(وما بعده. وجعله ابن عطية خطاب للأنصار لأن المهاجرين لم يكن لهم في ذلك الوقت غنى.
والمراد ب)الأغنياء(الذين هم مظنة الغنى، وهم الغزاة لأنهم أغنياء بالمغانم والأنفال.
)وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب [7](

صفحة : 4360

اعتراض ذيل به حكم فيء بني النضير إذ هو أمر بالأخذ بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ومما جاءت به هذه الآيات في شأن فيء النضير،والواو اعتراضية، والقصد من هذا التذييل إزالة ما في نفوس بعض الجيش من حزازة حرمانهم مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أرض النضير.
والأيتاء مستعار لتبليغ الأمر إليهم جعل تشريعه وتبليغه كإيتاء شيء بأيديهم كما قال تعالى)خذوا ما آتيناكم بقوة(واستعير الأخذ أيضا لقبول الأمر والرضى به.
وقرينة ذلك مقابلته بقوله تعالى)وما نهاكم عنه فانتهوا(وهو تتميم لنوعي التشريع. وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم من قول وفعل فيندرج فيها جميع أدلة السنة. وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله الواشمات والمستوشمات ... الحديث. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعرب فجاءته فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال لها: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت)وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا(.
وعطف على هذا الأمر تحذير من المخالفة فأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعطف الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيات يدل على أن التقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي.
والمعنى: واتقوا عقاب الله لأن الله شديد العقاب، أي لمن خالف أمره واقتحم نهيه.

)للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون[8] (بدل مما يصلح أن يكون بدر منه من أسماء الأصناف المتقدمة التي دخلت عليها اللام مباشرة وعطفا قوله)ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل(بدل بعض من كل.

وأول فائدة في هذا البدل التنبيه على أن ما أفاء الله على المسلمين من أهل القرى المعنية في الآية لا يجري قسمه على ما جرى عليه قسم أموال بني النضير التي اقتصر في قسمها على المهاجرين وثلاثة من الأنصار ورابع منهم، فكأنه قيل: ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل للفقراء منهم لا مطلقا يدخل في ذلك المهاجرون والأنصار والذين آمنوا بعدهم.

وأعيد اللام مع البدل لربطه بالمبدل منه لانفصال ما بينهما بطول الكلام من تعليل وتذييل وتحذير. ولإفادة التأكيد.

وكثير ما يقترن البدل العامل في المبدل منه على وجه التأكيد اللفظي، وتقدم في قوله تعالى)تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا(في سورة العقود. فبقى احتمال أن يكون قيدا)لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل(، فيتعين أن يكون قوله)للفقراء(إلى آخره مسوقا لتقييد استحقاق هؤلاء الأصناف وشأن القيود الواردة بعد مفردات أن ترجع إلى جميع ما قبلها، فيقتضي هذا أن يشترط الفقر في كل صنف من هذه الأصناف الأربعة، لأن مطلقها قد قيد بقيد عقب إطلاق، والكلام بأواخره فليس يجري الاختلاف في حمل المطلق على المقيد، ولا تجري الصور الأربعة في حمل المطلق على المفيد من اتحاد حكمهما وجنسهما. ولذلك قال مالك وأبو حنيفة: لا يعطي ذوو القربى إلا إذا كانوا فقراء لأنه عوض لهم عما حرموه من الزكاة. وقال الشافعي وكثير من الفقهاء: يشترط الفقر فيما عدا ذوي القربى لأنه حق لهم لأجل القرابة للنبي صلى الله عليه وسلم. قال إمام الحرمين: أغلظ الشافعي الرد على مذهب أبي حنيفة بأن الله علق الاستحقاق بالقرابة ولم يشترط الحاجة، فاشتراطها وعدم اعتبار القرابة يضاره ويحاده.

قلت: هذا محل النزاع فإن الله ذكر وصف اليتامى ووصف ابن السبيل ولم يشترط الحاجة.

واعتذر إمام الحرمين للحنفية بأن الصدقات لما حرمت على ذوي القربى كانت فائدة وذكرهم في خمس الفيء والمغانم أنه لا يمنع صرفه إليهم امتناع صرف الصدقات، ثم قال: لا تغتر بالاعتذار فإن الآية نص على ثبوت الاستحقاق تشريفا اهم فمن علله بالحاجاة فوت هذا المعنى اه.

وعند التأمل تجد أن هذا الرد مدخول، والبحث فيه يطول. ومحله مسائل الفقه والأصول.

صفحة : 4361

ومن العلماء والمفسرين من جعل جملة للفقراء والمهاجرين ابتدائية على حذف المبتدأ. والتقدير ما أفاء الله على رسوله للمهاجرين الفقراء إلى آخر ما عطف عليه فتكون هذه مصارف أخرى للفيء، ومنهم من جعلها بحذف حرف العطف على طريقة التعداد كأنه قيل: فلله وللرسول، إلى آخره، ثم قيل للفقراء المهاجرين. فعلى هذين القولين ينتفي كونها قيد للجملة التي قبلها، وتنفتح طرائف أخرى في حمل المطلق على المقيد، والاختلاف في شروطها الحمل، وهي طرائف واضحة للمتأمل، وعلى الوجه الأول يكون المعول.
ووصف المهاجرين بالذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم تنبيها على أن إعطاءهم مراعى جبر ما نكبوا به من ضياع الأموال والديار، ومراعى فيه إخلاصهم الإيمان وأنهم مكررون نصر دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فذيل بقوله)أولئك هم الصادقون(.واسم الإشارة لتعظيم شأنهم وللتنبيه على أن استحقاقهم وصف الصادقين لأجل ما سبق اسم الإشارة من الصفات وهي أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم وابتغاؤهم فضلا من الله ورضوانا ونصرهم الله ورسوله فإن الأعمال الخالصة فيما عملت لأجله يشهد للإخلاص فيها ما يلحق عاملها من مشاق وأذى وإضرار، فيستطيع أن يخلص منها لو ترك ما عمله لأجلها أو قصر فيه.
وجملة)هم الصادقون(مفيدة القصر لأجل ضمير الفصل وهو قصر ادعائي للمبالغة في وصفهم بالصدق الكامل كأن صدق غيرهم ليس صدقا في جانب صدقهم.
وموقع قوله)أولئك هم الصادقون(كموقع قوله)وأولئك هم المفلحون(في سورة البقرة.
)والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[9](الأظهر أن)الذين(عطف على)المهاجرين(أي والذين تبؤوا الدار هم الأنصار.

والدر تطلق على البلاد، وأصلها موضع القبيلة من الأرض. وأطلقت على القرية قال تعالى في ذكر ثمود)فأصبحوا في دارهم جاثمين(، أي في مدينتهم وهي حجر ثمود.

والتعريف هنا للعهد لأن امراد بالدار: يثرب والمعنى الذين هم أصحاب الدار. هذا توطئة لقوله)يحبون من هاجر إليهم(.
والتبوء: اتخاذ المباءة وهي البقعة التي يبوء إليها صاحبها، أي يرجع إليها بعد انتشاره في أعماله. وفي موقع قوله)والإيمان(غموض إذ لا يصح أن يكون مفعول لفعل تبؤوا، فتأوله المفسرون على وجهين: أحدهما أن يجعل الكلام استعارة مكنية بتشبيه الإيمان بالمنزل وجعل إثبات التبؤ تخييلا فيكون فعل تبوأوا مستعملا في حقيقته ومجازه.
وجمهور المفسرين جعلوا المعطوف عاملا مقدرا يدل عليه الكلام، وتقديره: واخلصوا الإيمان على نحو قول الراجز الذي لا يعرف:
علفتها تبنا وماء باردا وقول عبد الله بن الزبعرى:
يا ليت زوجك قد غدا متقلدا سيفا
ورمحـا أي وممسكا رمحا وهو الذي درج عليه الكشاف. وقيل الواو للمعية.
و)الإيمان(مفعول معه.
وعندي أن هذا أحسن الوجوه، وإن قل قائلوه. والجمهور يجعلون النصب على المفعول معه سماعيا فهو عندهم قليل الاستعمال فتجنبوا تخرج آيات القران عليه حتى ادعى ابن هشام في مغني اللبيب أنه غير واقع في القرآن بيقين. وتأويل قوله تعالى)فأجعلوا أمركم وشركاءكم(، ذلك لأن البصرين يشترطون أن يكون العامل في المفعول معه هو العامل في الاسم الذي صاحبه ولا يرون واو المعية ناصبة المفعول معه خلافا للكوفيين والأخفش فإن الواو عندهم بمعنى مع . وقال عبد القاهر: منصوب بالواو.
والحق عدم التزام أن يكون المفعول معه معمولا للفعل، ألا ترى صحة قول القائل: إستوى الماء والخشبة. وقولهم: سرت والنيل، وهو يفيد الثناء عليهم بأن دار الهجرة دارهم آووا إليها المهاجرين لأنها دار مؤمنين لا يماثلها يومئذ غيرها.
وبذلك يتضح أن متعلق)من قبلهم(فعل)تبوءوا(بمفرده، وأن المجرور المتعلق به قيد فيه دون ما ذكر بعد الواو لأن الواو ليست واو عطف فلذلك لا تكون قائمة مقام الفعل السابق لأن واو في معنى ظرف فلا يعلق بها مجرور.

وفي ذكر الدار وهي المدينة مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة بحيث جعل تبؤهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان ولعل هذا هو الذي عناه مالك رحمة الله فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من لآفاق. فقال: إن المدينة تبوئت بالإيمان والهجرة وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف ثم قرأ)والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم(الآية.

وجملة)يحبون من هاجر إليهم(حال من الذين تبوءوا، وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإسلام إذ أحبوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم.

ومن آثار هذه المحبة ما ثبت في الصحيح من خبر سعد بن الربيع مع عبد الرحمان بن عوف إذ عرض سعد عليه أن يقاسمه ماله وأن ينزل له عن إحدى زوجتيه، وقد أسكنوا المهاجرين معهم في بيوتهم ومنحوهم من نحيلهم، وحسبك الأخوة التي آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار.

وقوله)ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا(أريد بالوجدان الإدراك العقلي، وكنى بانتفاء وجدان الحاجة من انتفاء وجودها لأنها لو كانت موجودة لأدركوها في نفوسهم وهذا من باب قول الشاعر:

ولا ترى الضب بها ينجحر والحاجة في الأصل: اسم مصدر الحوج وهو الاحتياج، أي الافتقار إلى شيء، وتطلق على الأمر المحتاج إليه من إطلاق المصدر على اسم المفعول، وهي هنا مجاز في المأرب والمراد، وإطلاق الحاجة إلى المأرب مجاز مشهور ساوى الحقيقة كقوله تعالى)ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم(، أي لتبلغوا في السفر عليها المأرب الذي تسافرون لأجله، وكقوله تعالى)إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها(أي مأربا مهما وقول النابغة:

أيام تخبرني نعم وأخبرها ما أكتم

الناس من حاجي وإسراري وعليه فتكون)من(في قوله)مما أوتوا(ابتدائية، أي مأربا أو رغبة ناشئة من فيء أعطيه المهاجرون. والصدور مراد بها النفوس جمع الصدر وهو الباطن الذي فيه االحواس الباطنة وذلك كإطلاق القلب على ذلك.

وما أوتوا هو فيء بني النضير.

وضمير)صدورهم(عائد إلى)الذين تبوؤا الدار(وضمير)أوتوا(عائد إلى)من هاجر إليهم(، لأن من هاجر جماعة من المهاجرين فروعي في ضمير معنى)من(بدون لفظها. وهذان الضميران وإن كانا ضميري غيبة وكانا مقتربين فالسامع يرد كل ضمير إلى معاده

بحسب السياق مثل ما في قوله تعالى)وعمروها أكثر مما عمروها(في سورة الروم. وقول عباس بن مرداس يذكر انتصار المسلمين مع قومه بني سليم على هوازن:

عدنا ولولا نحن أحدق جمعهم
بالمسليمن وأحرزوا ما جمعوا أي أحرز جيش هوازن ما جمعه جيش المسلمين .

والمعنى: أنهم لا يخامر نفوسهم تشوف إلى أخذ شيء مما أوتيه المهاجرون من فيء بني النضير.

ويجوز وجه آخر بان يحمل لفظ حاجة على استعماله الحقيقي اسم مصدر الاحتياج فإن الحاجة بهذا المعنى يصح وقوعها في الصدور لأنها من الوجدانيات والانفعالات. ومعنى نفي وجدان الاحتياج في صدورهم أنهم لفرط حبهم للمهاجرين صاروا لا يخامر نفوسهم أنهم مفتقرون إلى شيء ما يؤتاه المهاجرون، أي فهم أغنياء عما يؤتاه المهاجرون فلا تستشرف نفوسهم إلى شيء مما يؤتاه المهاجرون بله أن يتطلبوه.

وتكون من في قوله تعالى)مما أوتوا(للتعليل، أي حاجة لأجل ما أوتيه المهاجرون، أو ابتدائية، أي حاجة ناشئة عما أوتيه المهاجرون فيفيد انتفاء وجدان الحاجة في نفوسهم وانتفاء أسباب ذلك الوجدان ومناشئه المعتادة في الناس تبعا للمنافسة والغبطة، وقد دل انتفاء أسباب الحاجة على متعلق حاجة المحذوف إذ التقدير: ولا يجدون في نفوسهم حاجة لشيء أوتيه المهاجرون.

والايثار: ترجيح شيء على غيره بمكرمة أو منفعة.

والمعنى: يؤثرون على أنفسهم في ذلك اختيارا منهم وهذا أعلى درجة مما أفاده قوله)ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا(فلذلك عقب به ولم يذكر مفعول)يؤثرون(لدلالة قوله)مما أوتوا(عليه.

ومن إيثارهم المهاجرين ما روي في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الأنصار ليقطع لهم قطائع بنخل البحرين فقالوا: لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها.

وإما إيثار الواحد منهم على غيره منهم فما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أصابني الجهد. فأرسل في نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال التبي صلى الله عليه وسلم: ألا رجل يضيف هذا الليلة

رحمه الله فقام رجل من الأنصار هو أبو طلحة فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله لا تدخريه شيئا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. فإذا دخل الضيف فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج تري أنك تصلحينه فأطفئيه وأريه أنا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف.

وذكرت قصص من هذا القبيل في التفاسير، قيل نزلت هذه الآية في قصة أبي طلحة وقيل غير ذلك.

وجملة)ولو كان بهم خصاصة(في موضع الحال.

و)لو(وصلية وهي التي تدل على مجرد تعليق جوابها بشرط يفيد حالة لا يظن حصول الجواب عند حصولها. والتقدير: لو كان بهم خصاصة لآثروا على أنفسهم فيعلم أن إيثارهم في الأحوال التي دون ذلك بالأحرى دون إفادة الامتناع. وقد بينا ذلك عند قوله تعالى)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(في سورة آل عمران.

والخصاصة: شدة الاحتياج.

وتذكير فعل)كان(لأجل كون تأنيث الخصاصة ليس حقيقيا، ولأنه فصل بين)كان(واسمها بالمجرور. والباء للملابسة.

وجملة)ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(تذييل، والواو اعتراضية، فإن التذييل من قبيل الاعتراض في آخر الكلام على الرأي الصحيح. وتذييل الكلام بذكر فضل من يوقون شح أنفسهم بعد قوله)ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة(يشير إلأ أن إيثارهم على أنفسهم حتى في حالة الخصاصة هو سلامة من شح الأنفس فكانه قيل لسلامتهم من شح الأنفس)ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(.

والشح بضم الشين وكسرها: غريزة في النفس بمتع ما هو لها، وهو قريب من معنى البخل. وقال الطيبي: الفرق بين الشح والبخل عسير جدا وقد أشار في الكشاف إلى الفرق بينهما بما يقتضي أن البخل أثر الشح وهو أن يمنع أحد ما يراد منه بدله وقد قال تعال)وأحضرت الأنفس لشح(أي جعل الشح حاضرا معها لا يفارقها، وأضيف في هذه الآية إلى النفس لذلك فهو غريزة لا تسلم منها نفس.

وفي الحديث في بيان أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى . ولكن النفوس تتفاوت في هذا المقدار فإذا غلب عليها بمنع المعروف والخير فذلك مذموم ويتفاوت ذمه بتفاوت ما يمنعه. قال وقد أحسن وصفه من قال، لم أقف على قايله:

يمارس نفسا بين جنبيه كـزة إذا هم

بالمعروف قالت له مهلا فمن وقي شح نفسه، أي وقي من أن يكون الشح المذموم خلقا له، لأنه إذا وقي هذا الخلق سلم من كل مواقع ذمه. فإن وقي من بعضه كان له من الفلاح بمقدار ما وقيه.

واسم الإشارة لتعظيم هذا الصنف من الناس.

وصيغة القصر المؤداة بضمير الفصل للمبالغة لكثرة الفلاح الذي يترتب على وقاية شح النفس حتى كان جنس المفلح مقصور على ذلك الموقى.

ومن المفسرين من جعل)والذين تبوءوا الدار(ابتداء كلام للثناء على الأنصار بمناسبة الثناء على المهاجرين وهؤلاء لم يجعلوا للأنصار حظا في ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى وقصروا قوله)ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى(على قرى خاصة هي: قريظة. وفدك، وخيبر. والنفع، وعرينة، ووادي القرى، ورووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أفاء الله عليه فيئها قال للأنصار: إن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه؟ فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة، فنزلت آية)ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى(الآية.

ومنهم من قصر هذه الآية على فيء بني النضير وكل ذلك خروج عن مهيع انتظام آي هذه السورة بعضها مع بعض وتفكيك لنظم الكلام وتناسبه مع وهن الأخبار التي رووها في ذلك فلا ينبغي التعويل عليه. وعلى هذا التفسير يكون عطف)والذين تبوءوا الدار(عطف جملة على جملة، واسم الموصول مبتدأ وجملة)يحبون من هلجر إليهم(خبرا عن المبتدإ.

) والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم[10](عطف على)والذين تبوءوا الدار(على التفسيرين المتقدمين؛ فأما على رأي من جعلوا)والذين تبوءوا الدار(معطوفا على)للفقراء المهاجرين(جعلوا)الذين جاءوا من بعدهم(فريقا من أهل القرى، وهو غير المهاجرين والأنصار بل هو من جاء إلى الإسلام بعد المهاجرين والأنصار، فضمير)من بعدهم(عائد إلى مجموع الفريقين.

والمجيء مستعمل للطرو والمصير إلى حالة تماثل حالهم، وهي حالة الإسلام، فكانهم أتوا إلأى مكان لإقامتهم، وهذا فريق ثالث

وهؤلاء هم الذين ذكروا في قوله تعالى بعد ذكر المهاجرين والأنصار)والذين اتبعوهم بإحسان(أي اتبعوهم في الإيمان.
وإنما صيغ)جاءوا(بصيغة الماضي تغليبا لأن من العرب وغيرهم من أسلموا بعد الهجرة مثل غفارة، ومزينة، وأسلم ومثل عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، فكأنه قيل: الذين جاؤوا ويجيئون، بدلالة لحن الخطاب. والمقصود من هذا: زيادة دفع إيهام أن يختص المهاجرون بما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من أهل القرى كما اختصهم النبي صلى الله عليه وسلم بفيء بني النضير.
وقد شملت هذه الآية كل من يوجد من المسلمين أبد الدهر وعلى هذا جرى فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. زوي البخاري من طريق مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال عمر لولا آخر المسلمين ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها أي الفاتحين كما قسم النبي صلى الله عليه وسلم خيبر.
وذكر القرطبي: أن عمر دعا المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه وقال لهم: تثبتوا الأمر وتدبروه ثم اغدوا علي فلما غدو عليه قال: قد مررت بالآيات التي في سورة الحشر وتلا)ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى(إلى قوله)أولئك هم الصادقون(. قال: ما هي لهؤلاء فقط وتلا)والذين جاءوا من بعدهم(إلى قوله)رؤف رحيم(ثم قال: ما بقى من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك اه.
وهذا ظاهر في الفيء، وأما ما فتح عنوة فمسألة أخرى ولعمر بن الخطاب في عدم قسمته سواد العراق بين الجيش الفاتحين له عمل آخر، وهو ليس غرضنا. ومحله كتب الفقه والحديث.
والقريق من المفسرين الذين جعلوا قوله تعالى)والذين تبوءوا الدار والإيمان(كلاما مستأنفا، وجعل)يحبون من هاجر إليهم(خبرا عن اسم الموصول، جعلوا قوله)والذين جاءوا من بعدهم(كذلك مستأنفا.
ومن الذين جعلوا قوله)والذين تبوءوا(معطوفا على)للفقراء المهاجرين(من جعل قوله)والذين جاءوا من بعدهم(مستأنفا. ونسبه ابن الفرس في أحكام القرآن إلى الشافعي. ورأى أن الفيء إذا كان أرضا فهو إلى تخيير الإمام وليس يتعين صرفه للأصناف المذكورة في فيء بني النضير.
وجملة)يقولون ربنا اغفر لنا(على التفسير المختار في موضع الحال من)الذين جاءوا من بعدهم(.
والغل بكسر الغين: الحسد والبغض، أي سألوا الله أن يطهر نفوسهم من الغل والحسد للمؤمنين السابقين على ما أعطوه من فضيلة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وما فضل به بعضهم من

الهجرة وبعضهم من النصرة، فبين الله للذين جاؤوا من بعدهم ما يكسبهم فضيلة ليست للمهاجرين والأنصار، وهي فضيلة الدعاء لهم بالمغفرة وانطواء ضمائرهم على محبتهم وانتفاء البغض لهم.
والمراد أنهم يضمرون ما يدعون الله به لهم في نفوسهم ويرضوا أنفسهم عليه.
وقد دلت الآية على أن حقا على المسلمين أن يذكروا سلفهم بخير، وأن حقا عليهم محبة المهاجرين والأنصار وتعطيمهم، قال مالك: من كان يبغض أحدا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو كان قلبه عليه غل فليس له حق في فيء المسلمين، ثم قرأ) والذين جاءوا من بعدهم(الآية.
فلعله أخذ بمفهوم الحال من قوله تعالى)يقولون ربنا اغفر لنا(الآية، فإن المقصد من الثناء عليهم بذلك أن يضمروا مضمونه في نفوسهم فإذا أضمروا خلافه وأعلنوا بما ينافي ذلك فقد تخلف فيهم هذا الوصف، فإن الفيء عطية أعطاها الله تلك الأصناف ولم يكتسبوها بحق قتال، فاشترط الله عليهم في استحقاقها أن يكونوا محبين لسلفهم غير حاسدين لهم.

صفحة : 4365

وهو يعني إلا ما كان من شنآن بين شخصين لأسباب عادية أو شرعية مثل ما كان بين العباس وعلي حين تحاكما إلى عمر، فقال العباس: اقض بيني وبين هذا الظالم الخائن الغادر. ومثل إقامة عمر حد القذف على أبي بكرة.
وأما ما جرى بين عائشة وعلي من النزاع والقتال وبين علي ومعاوية من القتال فإنما كان انتصارا للحق في كلا رأيي الجانبين وليس ذلك لغل أو تنقص، فهو كضرب القاضي أحدا تأديبا له فوجب إمساك غيرهم من التحزب لهم بعدهم فإنه وإن ساغ ذلك لآحادهم لتكافئ درجاتهم أو تقاربها. والظن بهم زوال الحزازات من قلوبهم بانقضاء تلك الحوادث، لا يسوغ ذلك للأذناب من بعدهم الذين ليسوا منهم في عير ولا نفير، وإنما هي مسحة من حمية الجاهلية نخرت عضد الأمة المحمدية.
)ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون[11](أعقب ذكر ما حل ببني النضير وما اتصل به من بيان أسبابه، ثم بيان مصارف فيئهم وفيء ما يفتح من القرى بعد ذلك، بذكر أحوال المنافقين مع بني

النضير وتغريرهم بالوعود الكاذبة ليعلم المسلمون أن النفاق سجية في أولئك لا يتخلون عنه ولو في جانب قوم هم الذين يودون أن يظهروا على المسلمين.

والجملة استئناف ابتدائي والاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المنافقين فبني على نفي العلم بحالهم كناية عن التحريض على ايقاع هذا العلم كأنه يقول تأمل الذين نافقوا في حال مقالتهم لإخوانهم ولا تترك النظر في ذلك فإنه حال عجيب، وقد تقدم تفصيل معنى:)ألم تر(إلى كذا عند قوله تعالى)ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم(في سورة البقرة.

وجملة)يقولون(في موضع المفعول الثاني. والتقدير: ألم ترهم قائلين. وجيء بالفعل المضارع لقصد تكرر ذلك منهم، أي يقولون ذلك مؤكدينه ومكررينه لا على سبيل البداء أو الخاطر المعدول عنه.

و)الذين نافقوا(المخبر عنهم هنا هم فريق من بني عوف من الخزرج من المنافقين سمى منهم عبد الله بن أبي بن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيضي، ووديعة بن أبي قوتل، أو ابن قوقل، وسويد لم ينسب وداعس لم ينسب ، بعثوا إلى بني النضير حين حاصر جيش المسلمين بني النضير يقلون لهم: أثبتوا في معاقلكم فإنا معكم.

والمراد بإخوانهم بنو النضير وإنما وصفهم بالإخوة لهم لأنهم كانوا متحدين في الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وليست هذه أخوة النسب فإن بني النضير من اليهود، والمنافقين الذين بعثوا إليهم من بني عوف من عرب المدينة وأصلهم من الأزد.

وفي وصف إخوانهم ب)الذين كفروا(إيماء إلى أن جانب الأخوة بينهم هو الكفر إلا أن كفر المنافقين كفر الشرك وكفر إخوانهم كفر أهل الكتاب وهو الكفر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولام لئن أخرجتم موطئة للقسم، أي قالوا لهم كلاما مؤكدا بالقسم.

وإنما وعدوهم بالخروج معهم ليطمئنوا لنصرتهم فهو كناية عن النصر وإلا فإنهم لا يرضون أن يفارقوا بلادهم.

وجملة)ولا نطيع فيكم أحدا(معطوفة على جملة)لئن أخرجتم(فهي من المقول لا من المقسم عليه، وقد أعربت عن المؤكد لأن بني النضير يعلمون أن المنافقين لا يطيعون الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فكان المنافقون في غنية عن تحقيق هذا الخبر.

ومعنى)فيكم(في شأنكم، ويعرف هذا بقرينة المقام، أي في ضركم إذ لا يخطر بالبال أنهم لا يطيعون من يدعوهم إلى موالاة إخوانهم، ويقدر المضاف في مثل هذا بما يناسب المقام. ونظيره

قوله تعالى)فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم(، أي في الموالاة لهم. ومعنى)لننصرنكم(لنعيننكم في القتال. والنصر يطلق على الإعانة على المعادي. وقد أعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم كاذبون في ذلك بعد ما اعلمه بما اقسموا عليه تطمينا لخاطره لأن الآية نزلت بعد إجلاء بني النضير وقبل غزو قريضة لئلا يتوجي الرسول صلى الله عليه وسلم خيفة من بأس المنافقين، وسمى الله الخبر شهادة لأنه خبر عن يقين بمنزلة الشهادة التي لا يتجازف المخبر في شأنها.

صفحة : 4366

)لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم(بيان لجملة)والله يشهد إنهم لكاذبون(.
واللام موطئة للقسم وهذا تأكيد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أنهم لن يضروه شيئا لكيلا يعبأ بما بلغه من مقالتهم.
وضمير)أخرجوا(و)قوتلوا(عائدان إلى)الذين كفروا من أهل الكتاب(، أي الذين لم يخرجوا ولما يقاتلوا وهم قريظة وخيبر، أما بنو النضير فقد أخرجوا قبل نزول هذه السورة فهم غير معنيين بهذا الخبر المستقبل. والمعنى: لئن أخرج بقية اليهود في المستقبل لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا في المستقبل لا ينصرونهم. وقد سلك في هذا البيان طريق الإطناب. فإن قوله)والله يشهد إنهم لكاذبون(جمع ما في هاتين الجملتين فجاء بيانه بطريقة الإطناب لزيادة تقرير كذبهم.
)ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون[12](ارتقاء في تكذيبهم على ما وعدوا به إخوانهم، والواو واو الحال وليست واو العطف.
وفعل نصروهم إرادة وقوع الفعل بقرينة قوله)ليولن الأدبار ثم لا ينصرون(فيكون إطلاق الفعل على إرادته مثل قوله تعالى)إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم(الآية وقوله)فإذا قرات القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم(.
وقوله تعالى)للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر(، أي يريدون العود إلى ما امتنعوا منه بالإيلاء. والمعنى: أنه لو فرض أنهم أرادوا نصرهم فإن أمثالهم لا يترقب منهم الثبات في الوغى فلو أرادوا نصرهم وتجهزوا معهم لفروا عند الكريهة وهذا كقوله تعالى) لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولاوضعوا خلالكم(.
ويجوز أن يكون أطلق النصر على الإعانة بالرجال والعتاد وهو من معنى النصر.

و)ثم(في قوله)ثم لا ينصرون(للتراخي الرتبي كما هو شأنها في عطف الجمل فإن انتفاء النصر أعظم رتبة في تأسيس أهل الكتاب من الانتفاع بغعانة المنافقين فهو أقوى من انهزام المنافقين إذا جاؤوا لإعانة أهل الكتاب في القتال.

والنصر هنا بمعنى: الغلب.

وضمير)لا ينصرون(عائد إلى الذين كفروا من أهل الكتاب إذ الكلام جار على وعد المنافقين بنصر أهل الكتاب.

والمقصود تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم.

)لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون[13](لما كان المقصود من ذكر وهن المنافقين في القتال تشديد نفس النبي صلى الله عليه وسلم وأنفس المؤمنين حتى لا يرهبوهم ولا يخشوا مساندتهم لأهل حرب المسلمين أحلاف المنافقين قريظة وخيبر أعقب ذلك بإعلام المؤمنين بأن المنافقين وأحلافهم يخشون المسلمين خشية شديدة وصفت شدتها بأنها أشد من خشيتهم الله تعالى ، فإن خشية جميع الخلق من الله أعظم خشية فإذا بلغت الخشية في قلب أحد أن تكون أعظم من خشية الله فذلك منتهى الخشية.

والمقصود تشديد نفوس المسلمين ليعلموا أن عدوهم مرهب منهم، وذلك مما يريد المسلمين إقداما في محاربتهم إذ ليس سياق الكلام للتسجيل على المنافقين واليهود قلة رهبتهم لله بل إعلام المسلمين بأنهم أرهب لهم من كل أعظم الرهبات.

والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين.

والصدور مراد بها: النفوس والضمائر لأن محل أجهزتها في الصدور.

والرهبة: مصدر رهب، أي خاف.

وقوله)في صدورهم(ل)رهبة(فهي رهبة أولئك.

وضمير)صدورهم(عائد إلى)الذين نافقوا(و)الذين كفروا من أهل الكتاب(إذ ليس اسم أحد الفريقين أولى بعود الضمير إليه مع صلاحية الضمير لكليهما، ولأن المقصودين بالقتال هم يهود قريظة وخيبر وأما المنافقون فكانوا أعوانا لهم.

وإسناد أشد إلى ضمير المسلمين المخاطبين إسناد سببي كأنه قيل: لرهبتكم في صدورهم أشد من رهبة فيها. فالرهبة في معنى المصدر المضاف إلى مفعوله، وكل مصدر لفعل متعد يحتمل أن يضاف إلى فاعله أو إلى مفعوله، ولذلك فسره الزمخشري بأشد مرهوبية.

و)من الله(هو المفضل عليه، وهو على حذف مضاف، أي من رهبة الله، أي من رهبتهم الله كما قال النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتـي
على وعل في ذي المطارة عاقل أي على مخافة وعل.

صفحة : 4367

وهذا تركيب غريب النسج بديعه. والمألوف في أداء مثل هذا المعنى أن يقال: لرهبتهم منكم في صدورهم أشد من رهبتهم من الله، فحول عن هذا النسج إلى النسج الذي حبك عليه في الآية، ليتأتى الابتداء بضمير المسلمين اهتماما به وليكون متعلق الرهبة ذوات المسلمين لتوقع بطشهم وليأتي التمييز المحول عن الفاعل لما فيه من خصوصية الإجمال مع التفصيل كما تقرر في خصوصية قوله تعالى)واشتعل الرأس شيبا(دون: واشتعل شيب رأسي. وليتأتى حذف المضاف في تركيب)من الله(، إذ التقدير: من رهبة الله لأن حذفه لا يحسن إلا إذا كان موقعه متصلا بلفظ)رهبة(، إذ لا يحسن أن يقال: لرهبتهم أشد من الله. وانظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى)إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية(في سورة النساء.

فاليهود والمنافقون من شأنهم أن يخشوا الله. أما اليهود فلأنهم أهل دين فهم يخافون الله ويحذرون عقاب الدنيا وعقاب الآخرة. وأما المنافقون فهم مشركون وهم يعترفون بأن الله تعالى هو الإله الأعظم، وأنه أولى الموجودات بأن يخشى لأنه رب الجميع وهم لا يثبتون البعث والجزاء فخشيتهم الله قاصرة على خشية عذاب الدنيا من خسف وقحط واستئصال ونحو ذلك وليس وراء ذلك خشية. وهذا بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بأن الله أوقع الرعب منهم في نفوس عدوهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر .

ووجه وصف الرهبة بأنها في صدورهم الإشارة إلى أنها رهبة جد خفية، أي أنهم يتظاهرون بالاستعداد لحرب المسلمين ويتطاولون بالشجاعة ليرهبهم المسلمون وما هم بتلك المثابة فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على دخيلتهم فليس قوله)في صدورهم(وصفا كاشفا.

وإذ قد حصلت البشارة من الخبر عن الرعب الذي في قلوبهم ثني عنان الكلام إلى مذمة هؤلاء الأعداء من جراء كونهم أخوف للناس منهم لله تعالى بأن ذلك من قلة فقه نفوسهم، ولو فقهوا لكانوا أخوف لله منهم للناس فنظروا فيما يخلصهم من عقاب التفريط في النظر في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فعلموا

صدقه فنجوا من عواقب كفرهم به في الدنيا والآخرة فكانت رهبتهم من المسلمين هذه الرهبة مصيبة عليهم وفائدة للمسلمين.
فالجملة معترضة بين البيان ومبينه.
والإشارة بذلك إلى المذكور من قوله)لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله(واجتلاب اسم الإشارة ليتميز الأمر المحكوم عليه أتم تمييز لغرابته.
والباء للسببية والمجرور خبر عن اسم الإشارة، أي سبب ذلك المذكور وهو انتفاء فقاهتهم.
وإقحام لفظ)قوم(لما يؤذن به من أن عدم فقه أنفسهم أمر عرفوا به جميعا وصار من مقومات قوميتهم لا يخلو عنه أحد منهم، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى:)إن في اختلاف الليل والنهار(إلى قوله)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة.
والفقه: فهم المعاني الخفية، وقد تقدم عند قوله تعالى)فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا(في سورة النساء، وقوله)انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون(في سورة الأنعام، ذلك أنهم تبعوا دواعي الخوف المشاهد وذهلوا عن الخوف المغيب غن أبصارهم، وهو خوف الله فكان ذلك من قلة فهمهم للخفيات.
)لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر(هذه الجملة بدل اشتمال من جملة)لأنتم أشد رهبة في صدروهم من الله(، لأن شدة الرهبة من المسلمين تشتمل على شدة التحصن لقتالهم إياهم، أي لا يقدرون على قتالكم إلا في هاته الاحوال والضمير المرفوع في)يقاتلونكم(عائد إلى)الذين كفروا من أهل الكتاب(.
وقوله)جميعا(يجوز أن يكون بمعنى كلهم كقوله تعالى:)إلى الله مرجعكم جميعا(فيكون للشمول، أي كلهم لا يقاتلونكم اليهود والمنافقون إلا في قرى محصنة الخ.
ويجوز أن يكون بمعنى مجتمعين، أي لا يقاتلونكم جيوشا كشأن جيوش المتحالفين فإن ذلك قتال من لا يقبعون في قراهم فيكون النفي منصبا إلى هذا القيد، أي لا يجتمعون على قتالكم اجتماع الجيوش، أي لا يهاجمونكم ولكن يقاتلون قتال دفاع في قراهم.

واستثناء)إلا في قرى(على الوجه الأول في)جميعا(استثناء حقيقي من عموم الأحوال، أي لا يقاتلونكم كلهم في حال من الأحوال إلا في حال الكون في قرى محصنة الخ. وهو على الوجه

الثاني في)جميعا(استثناء منقطع لأن القتال في القرى ووراء الجدر ليس من أحوال قتال الجيوش المتساندين.
وعلى كلا الاحتمالين فالكرم يفيد أنهم لا يقاتلون إلا متفرقين كل فريق في قريتهم، وإلا خائفين متترسين.
والمعنى: لا يهاجمونكم، وإن هاجمتموهم لا يبرزون إليكم ولكنهم يدافعونكم في قرى محصنة أو يقاتلونكم من وراء جدر، أي في الحصون والمعاقل ومن وراء الأسوار، وهذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة إذ ما حورب قوم في عقر دارهم إلا ذلوا كما قال علي رضي الله عنه: وهذا إطلاع لهم على تطمين للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ودخائل الأعداء.
و)الجدر(بضمتين في قراءة الجمهور جمع جدار. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو)جدار(على الإفراد، والمراد الجنس تساوي الجمع.
و)محصنة(ممنوعة ممن يريد أخذها بأسوار أو خنادق.
وقرى بالقصر جمع قرية، ووزنه وقصره على غير قياس لأن ما كان على زنة فعلة معتل اللام مثل قرية يجمع على فعال بكسر الفاء ممدودا مثل: رطوة وركاء، وشكوة وشكاء. ولم يسمع القصر إلا في كوة بفتح الكاف لغة وكوى، وقرية وقرى ولذلك قال الفراء: قرى شاذ، يريد خارج عن القياس.
)بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون[14](استئناف بياني لأن الإخبار عن أهل الكتاب وأنصارهم بأنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة المفيد أنهم لا يتفقون على جيش واحد متساندين فيه مما يثير في نفس السامع أن يسأل عن موجب ذلك مع أنهم متفقون على عداوة المسلمين. فيجاب بأن بينهم بأسا شديدا وتدابرا، فهم لا يتفقون.
وافتتحت الجملة ب)بأسهم(للاهتمام بالأخبار عنه بأنه بينهم، أي متسلط من بعضهم على بعض وليس بأسهم على المسلمين، وفي تهكم.
ومعنى بينهم: أن مجال البأس في محيطهم فما في بأسهم من إضرار فهو منعكس إليهم، وهذا التركيب نظير قوله تعالى)رحماء بينهم(.
وجملة)تحسبهم جميعا(إلى آخرها استئناف عن جملة)بأسهم بينهم شديد(. لأنه قد يسأل السائل: كيف ذلك ونحن نراهم متفقين؟ فأجيب بأن ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد وهم في بواطنهم مختلفون فآراؤهم غير متفقة لا إلفة بينهم لأن بينهم إحنا وعداوات فلا يتعاضدون.
والخطاب لغير معين لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحسب ذلك. وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم. وفي

الآية تربية للمسلمين ليحذروا من التخالف والتدابر ويعلموا أن الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر يرون رأيا متماثلا في أصول مصالحهما المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقض أصول مصالحها، ولا تفرق جامعتها، وأنه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات.

والقلوب: العقول والأفكار، وإطلاق القلب على العقل كثير في اللغة.

وشتى: جمع شتيت بمعنى مفارق بوزن فعلى مثل قتيل وقتلى، شبهت العقول المختلفة مقاصدها بالجماعات المتفرقين في جهات في أنها لا تتلاقى في مكان واحد، والمعنى: أنهم لا يتفقون على حرب المسلمين.

وقوله)ذلك(إشارة إلى ما ذكر من أن بأسهم بينهم ومن تشتت قلوبهم أي ذلك مسبب على عدم عقلهم إذ انساقوا إلأى إرضاء خواطر الأحقاد والتشفي بين أفرادهم وأهملوا النظر في عواقب الأمور واتباع المصالح فأضاعوا مصالح قومهم.

ولذلك أقحم لفظ القوم في قوله بأنهم قوم لا يعقلون إيماء إلى أن ذلك من آثار ضعف عقولهم حتى صارت عقولهم كالمعدومة فالمراد: أنهم لا يعقلون المعقل الصحيح.

وأوثر هنا)لا يعقلون(. وفي الآية التي قبلها)لا يفقهون(لأن معرفة مآل التشتت في الرأي وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفت في ساعد الأمة معرفة)مشهورة(بين العقلاء قال أحد بني نبهان يخاطب قومه إذ أزمعوا على حرب بعضهم:

وأن الحزامة أن تصرفوا لحي سوانا صدور الأسل.

صفحة : 4369

فإهمالهم سلوك ذلك جعلهم سواء مع من لا عقول لهم فكانت هذه الحالة شقوة لهم حصلت منها سعادة للمسلمين.

وقد تقدم غير مرة أن إسناد الحكم إلى عنوان قوم يؤذن بأن ذلك الحكم كالجبلة المقومة للقومية وقد ذكرته آنفا.

)كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم[15](خبر مبتدأ محذوف دل عليه هذا الخبر، فالتقدير: مثلهم كمثل الذين من قبلهم قريبا، أي حال أهل الكتاب الموعود بنصر المنافقين كحال الذين من قبلهم قريبا.

والمراد: أن حالهم المركبة من التظاهر بالبأس مع إضمار الخوف من المسلمين، ومن التفرق بينهم وبين إخوانهم من أهل الكتاب، ومن خذلان المنافقين إياهم عند الحاجة، ومن أنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر، كحال الذين كانوا من قبلهم في زمن قريب وهم بنو النضير فإنهم أظهروا الاستعداد للحرب وأبوا الجلاء، فلم يحاربوا إلا في قريتهم إذ حصنوها وقبعوا فيها حتى أعياهم الحصار فاضطروا إلى الجلاء ولم ينفعهم المنافقون ولا إخوانهم من أهل الكتاب.

وعن مجاهد أن)الذين من قبلهم(المشركون يوم بدر.

و)من(زائدة لتأكيد ارتباط الظرف بعامله.

وانتصب)قريبا(على الظرفية متعلقا بالكون المضمر في قوله) كمثل(، أي كحال كائن قريب، أو انتصب على الحال من)الذين(أي القوم القريب منهم، كقوله)وما قوم لوط منكم ببعيد(.

والوبال أصله: وخامة المرعى المستلذ به للماشية يقال: كلأ وبيل، إذا كان مرعى خضرا)حلوا(تهش إليه الإبل فيحبطها ويمرضها أو يقتلها، فشبهوا في إقدامهم على حرب المسلمين مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبل ترامت على مرعى وبيل فهلكت وأثبت الذوق على طريقة المكنية وتخييلها، فكان ذكر)ذاقوا(مع)وبال(إشارة إلى هذه الاستعارة.

و)أمرهم(شأنهم وما دبروه وحسبوا له حسابه وذلك أنهم أوقعوا أنفسهم في الجلاء وترك الديار وما فيها، أي ذاقوا سوء أعمالهم في الدنيا.

وضمير)ولهم عذاب أليم(عائد إلى)الذين من قبلهم(أي زيادة على ما ذاقوه من عذاب الدنيا بالجلاء وما فيه من مشقة على الانفس والأجساد لهم عذاب أليم في الآخرة على الكفر.

)كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين[16] فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين[17](هذا مثل آخر لممثل آخر، وليس مثلا منضما إلى المثل الذي قبله لأنه لو كان ذلك لكان معطوفا عليه بالواو، أو ب)أو(كقوله تعالى)أو كصيب من السماء(.

والوجه: أن هذا المثل متصل بقوله)ولهم عذاب أليم(كما يفصح عنه قوله في آخره)فكان عاقبتهما أنهما في النار(الآية، أي مقلهم في تسبيبهم لأنفسهم عذاب الآخرة كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بأن يكفر ثم يتركه ويترأ منه فلا ينتفع أحدهما بصاحبه ويقعان معا في النار.

فجملة)كمثل الشيطان(حال من ضمير)ولهم عذاب أليم(أي في الآخرة.

والتعريف في)الشيطان(تعريف الجنس وكذلك تعريف)الإنسان(. والمراد به الإنسان الكافر.

ولم ترد في الآخرة حادثة معينة من وسوسة الشيطان لإنسان معين في الدنيا، وكيف يكون ذلك والله تعالى يقول :)فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين(، وهل يتكلم الشيطان مع الناس في الدنيا فإن ظاهرة قوله)قال إني بريء منك(أنه يقوله للإنسان، وإما احتمال أن يقوله في نفسه فهو احتمال بعيد. فالحق: أن قول الشيطان هذا هو ما في آية)وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتون من قبل(في سورة إبراهيم.

وقد حكى ابن عباس وغيرهما من السلف في هذه الآية قصة راهب بحكاية مختلفة جعلت كأنها المراد من الإنسان في هذه الآية. ذكرها ابن جرير والقرطبي وضعف ابن عطية أسانيدها فلئن كانوا ذكروا القصة فإنما أرادوا أنها تصلح مثالا لما يقع من الشيطان للإنسان كما مال إليه ابن كثير.

صفحة : 4370

فالمعنى: إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر فلما كفر ووافى القيامة على الكفر قال الشيطان يوم القيامة: إني بريء منك، أي قال كل شيطان لقرينه من الإنس إني بريء منك طمعا في أن يكون ذلك منجيه من العذاب.

ففي الآية إيجاز حذف حذف فيها معطوفات مقدرة بعد شرط) لما(هي داخلة في الشرط إذ التقدير: فلما كفر واستمر على الكفر وجاء يوم الحشر واعتذر بأن الشيطان أضله قال الشيطان: إني بريء منك الخ. وهذه المقدرات مأخوذة من آيات أخرى مثل آية سورة إبراهيم وآية سورة ق.)قال قرينه ربنا ما أطغيته(الآية. وظاهر أن هذه المحاجة لا تقع إلا في يوم الجزاء وبعد موت الكافرعلى الكفر دون من أسلموا.

وقول)فكان عاقبتها أنهما خالدين فيها(من تمام المثل. أي كان عاقبة المثل بهما خسرانهما معا. وكذلك تكون عاقبة الفريقين الممثلين أنهما خائبان فيما دبرا وكادا للمسلمين.

وجملة)وذلك جزاء الظالمين(تذييل، والإشارة الى ما يدل عليه) فكان عاقبتهما أنهما في النار(من معنى، فكانت عاقبتهما سوأى

والعلقبة السوأى جزاء جميع الظالمين المعتدين على الله والمسلمين، فكما كانت عاقبة الكافر وشيطانه عاقبة سوء كذلك لكون عاقبة الممثلين بهما وقد اشتركا في ظلم أهل الخير والهدى.

)يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون[18](انتقال من الامتنان على المسلمين بما يسر من فتح قرية بني النضير بدون قتال، وما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم منهم، ووصف ما جرى من خيبتهم وخيبة أملهم في نصرة المنافقين، ومن الإيذان بأن عاقبة أهل القرى الباقية كعاقبة أسلافهم. وكذلك موقف أنصارهم معهم الى الأمر بتقوى الله شكرا له على ما منح وما وعد من صادق الوعد فإن الشكر جزاء العبد عن نعمة ربه إذ لا يستطيع جزاء غير ذلك فأقبل على خطاب الذين آمنوا بالأمر بتقوى الله.

ولما كان ما تضمنته السورة من تأييد الله إياهم وفيض نعمه عليهم كان من منافع الدنيا، أعقبه بتذكيرهم بالإعداد للآخرة بقوله) ولتنظر نفس ما قدمت لغد(أي لتتأمل كل نفس فيما قدمته للآخرة.

وجملة)ولتنظر نفس ما قدمت لغد(عطف أمر على أمر آخر. وهي معترضة بين جملة)اتقوا الله(وجملة)إن الله خبير بما تعملون(. وذكر)نفس(إظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر: وانظروا ما قدمتم، فعدل عن الإظهار لقصد العموم أي لتنظروا وتنظر كل نفس.

وتنكير)نفس(بفيد العموم في سياق الأمر، أي لتنظر كل نفس، فإن الأمر والدعاء ونحوهما كالشرط تكون النكرة في سياقها مثل ما هي في سياق النفي كقوله تعالى)وإن أحد من المشركين استجارك فأجره(وكقول الحريري:

يا أهل ذا المغنى وقيتم ضرا أي كل ضر وإنما لما يعرف بلام التعريف على العموم لئلا يتوهم نفس معهودة.

واطلق)غد(على الزمن المستقبل مجازا لتقريب الزمن المتقبل من البعيد لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغد، لأن الغد هو اليوم الموالي لليوم الذي فيه المتكلم فهو أقرب أزمنة المستقبل كما قال قراد بن أجدع:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدا لناظـره قـريب وهذا المجاز شائع في كلام العرب في لفظ غد وأخواته قال زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم ما في غد عم

يريد باليوم بالزمن الحاضر، وبالأمس الزمن الماضي، وبالغد الزمن المستقبل.

وتنكير غد للتعظيم والتهويل، أي لغد لا يعرف كنهه.
واللام في قوله)لغد(لام العلة، أي ما قدمته لأجل يوم القيامة، أي لأجل الانتفاع به.
والتقديم: مستعار للعمل الذي يعمل لتحصيل فائدته في زمن آت شبه قصد الانتفاع به في المستقبل بتقديم من يحل في المنزل قبل ورود السائرين اليه من جيش أو سفر ليهيء لهم ما يصلح أمرهم، ومنه مقدمة الجيش وتقديم الرائد قبل القافلة. قال تعالى:) وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله(ويقال في ضده: أخر، إذا ترك عمل شيء قال تعالى:)علمت نفس ما قدمت وأخرت(.

صفحة : 4371

وإعادة)واتقو الله(ليبني عليه)إن الله خبير بما تعملون(فيحصل الربط بين التعليل والمعلل إذ وقع بينهما فصل)ولتنظر نفس ما قدمت لغد(وإنما أعيد بطريق العطف لزيادة التأكيد فإن التوكيد اللفظي يؤتى به تارة معطوفا كقوله تعالى:)أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى(وقوله)كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون(. وقول عدي بن زيد.
وألفى قولها ومينا .
وذلك أن في العطف إيهام أن يكون التوكيد يجعل كالتأسيس لزيادة الاهتمام بالمؤكد.
فجملة)إن الله خبير بما تعملون(تعليل للجث على تقوى الله وموقع)إن(فيها موقع التعليل.
ويجوز أن يكون)اتقوا الله(المذكور أولا مراد به التقوى بمعنى الخوف من الله وهي الباعثة على العمل ولذلك أردف بقوله) ولتنظر نفس ما قدمت لغد(ويكون)اتقوا الله(المذكور ثانيا مراد به الدوام على التقوى الأولى، أي ودوموا على التقوى على حد قوله تعالى:)يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله(ولذلك أردف بقوله) إن الله خبير بما تعملوت(أي بمقدار اجتهادكم في التقوى، وأردف بقوله)ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأساهم أنفسهم(أي أهملوا التقوى بعد أن تقلدوها كما سيأتي أنهم المنافقون فإنهم تقلدوا الإسلام وأضاعوه قال تعالى:)نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون(. وفي قوله)إن الله خبير بما تعملون(إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار، فتكون الجملة مستقلة بدلالتها أتم استقلال مجرى الأمثال ولتربية المهابة في نفس المخاطبين.

)ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنسياهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون[19](بعد أن أمر المؤمنين بتقوى الله وإعداد العدة للآخرة أعقبه بهذا النهي تحذيرا عن الإعراض عن الدين والتغافل عن التقوى، وذلك يفضي الى الفسوق. وجيء في النهي بنهيهم عن حالة قوم تحققت فيهم هذه الصلة ليكون النهي عن إضاعة التقوى مصورا في صورة محسوسة قوم تحققت فيهم تلك الصلة وهم الذين أعرضوا عن التقوى.

وهذا الإعراض مراتب قد تنتهي إلى الكفر الذي تلبس به اليهود وإلى النفاق الذي تلبس به فريق ممن أظهروا الإسلام في أول سني الهجرة، وظاهر الموصول أنه لطائفة معهودة فيحتمل أن يراد ب)الذين نسوا الله(المنافقين لأنهم كانوا مشركين ولم يهتدوا للتوحيد بهدى الإسلام فعبر عن النفاق بنسيان الله لانه جهل بصفات الله من التوحيد والكمال. وعبر عنهم بالفاسقين قوله تعالى:)نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون(في سورة براءة، فتكون هذه الآية ناظرة إلى تلك.

ويحتمل أن يكون المراد بهم اليهود لأنهم أضاعوا دينهم ولم يقبلوا رسالة عيسى عليه السلام وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

فالمعنى: نسوا دين الله وميثاقه الذي واثقهم به، قال تعالى) وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم(.

وقد أطلق نسيانهم على الترك والإعراض عن عمد أي فنسوا دلائل توحيد الله ودلائل صفاته ودلائل صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وفهم كتابه فالكلام بتقدير حذف مضاف أو مضافين.

ومعنى)أنساهم أنفسهم(أن الله لم يخلق في مداركهم التفطن لفهم الهدي الإسلامي فيعلموا بما ينجيهم من عذاب الآخرة ولما فيه صلاحهم قي الدنيا، إذ خذلهم بذبذبة آرائهم فأصبح اليهود في قبضة المسلمين يخرجونهم من ديارهم، وأصبح المنافقون ملموزين بين اليهود بالغدر ونقض العهد وبين المسلمين بالاحتقار واللعن.

وأشعر فاء التسبب بأن إنساء الله إياهم أنفسهم مسبب على نسيانهم دين الله، أي لما أعرضوا عن الهدى بكسبهم وارادتهم عاقبهم الله بأن خلق فيهم نسيان أنفسهم.

وإظهار اسم الجلالة في قوله تعالى)كالذين نسوا الله(دون أن يقال: نسوه لاستفظاع هذا النسيان فعلق باسم الله الذين خلقهم وأرشدهم.

والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله)أولئك هم الفاسقون(قصر ادعائي للمبالغة في وصفهم بشدة الفسق حتى كأن فسق غيرهم ليس بفسق في جانب فسقهم.

واسم الإشارة للتشهير بهم بهذا الوصف.
والفسق: الخروج من المكان الموضوع للشيء فهو صفة ذم غالبا لأنه مفارقة للمكان اللائق بالشيء، ومنه قيل: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، فالفاسقون هم الآتون بفواحش السيئات ومساوي الأعمال وأعظمها الإشراك.

صفحة : 4372

وجملة)أولئك هم الفاسقون(مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان الإبهام الذي أفاده قوله)فأنساهم أنفسهم(كأن السامع سأل: ماذا كان إثر إنساء الله إياهم أنفسهم؟ فأجيب بأنهم بلغوا بسبب ذلك منتهى الفسق في الأعمال السيئة حتى حق عليهم أن يقال: إنه لا فسق بعد فسقهم.
)لا يستوي اصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون[20](تذييل لجملة)يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد(الخ. لأنه جامع لخلاصة عاقبة الحالين: حال التقوى والاستعداد للآخرة، وحال نسيان ذلك وإهماله، ولكلا الفريقين عاقبة عمله. ويشمل الفريقين وأمثالهم.
والجملة أيضا فذلكة لما قبلها من حال المتقين والذين نسوا الله ونسوا أنفسهم لأن ذكر مثل هذا الكلام بعد ذكر أحوال المتحدث عنه يكون في الغالب للتعريض بذلك المتحدث عنه كقولك عندما ترى أحدا يؤذي الناس المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، فمعنى الآية كناية عن كون المؤمنين هم أصحاب الجنة، وكون الذين نسوا الله هم أهل النار فتضمنت الآية وعدا للمتقين ووعيدا للفاسقين.
والمراد من نفي الاستواء في مثل هذا الكناية عن البون بين الشيئين.
وتعيين المفضل من الشيئين موكول إلى فهم السامع من قرينة المقام كما في قول السموأل:
فليس سواء عالم وجهول وقول أبي حزام غالب بن الحارث العكلي:
وأعلم أن تسليما وتركا للا متشابهان
ولا سواء ومنه قوله تعالى)ليسوا سواء(بعد قوله)ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم(الآية. وقيل قوله)من أهل أمة قائمة(. وقد يردف بما يدل على جهة التفضيل كما في قوله تعالى)لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين

أنفقوا من بعد وقاتلوا(. وقوله هنا)أصحاب الجنة هم الفائزون(، وتقدم في قوله تعالى)لا يستوي القاعدون من المؤمنين(الآية في سورة النساء.

وأما من ذهب من علماء الأصول إلى تعميم نحو)لا يستوون(من قوله تعالى)أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون(فاستدلوا به على أن الفاسق لا يلي ولاية النكاح، وهو استدلال الشافعية فليس ذلك بمرضي، وقد أباه الحنفية ووافقهم تاج الدين السبكي في غير جمع الجوامع.

والقصر المستفاد من ضمير الفصل في قوله تعالى)أصحاب الجنة هم الفائزون(قصر ادعائي لأن فوزهم أبدي فوز غيرهم ببعض أمور الدنيا كالعدم.

)لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون[21](لما حذر المسلمين من الوقوع في مهواة نسيان الله التي وقع فيها الفاسقون وتوعد الذين نسوا الله بالنار، وبين حالهم بأن الشيطان سول لهم الكفر. وكان القرآن دالا على مسالك الخير ومحذرا من مسالك الشر، وما وقع الفاسقون في الهلكة إلا من جراء إهمالهم التدبر فيه، وذلك من نسيانهم الله تعالى انتقل الكلام إلى التنويه بالقرآن وهديه البين الذي لا يصرف الناس عنه إلا أهواءهم ومكابرتهم، وكان إعراضهم عنه أصل استمرار ضلالهم وشركهم، ضرب لهم هذا المثل تعجيبا من تصلبهم في الضلال.

وفي هذا الانتقال إيذان بانتهاء السورة لأنه انتقال بعد طول الكلام في غرض فتح قرى اليهود وما ينال المنافقين من جرائه من خسران في الدنيا والآخرة.

و)هذا القرآن(إشارة إلى المقدار الذي نزل منه، وهو ما عرفوه وتلوه وسمعوا تلاوته.

وفائدة الإتيان باسم إشارة القريب التعريض لهم بأن القرآن غير بعيد عنهم. وأنه في متناولهم ولا كلفة عليهم في تدبره ولكنهم قصدوا الإعراض عنه.

وهذا مثل ساقه الله تعالى كما دل عليه قوله)وتلك الأمثال(الخ. وقد ضرب هذا مثلا لقسوة الذين نسوا الله وانتفاء تأثرهم بقوارع القرآن.

والمراد بالجبل: حقيقته، لأن الكلام فرض وتقدير كما هو مقتضى) لو(أن تجيء في الشروط المفروضة.

فالجبل: مثال لأشد الأشياء صلابة وقلة تأثر بما يقرعه. وإنزل القرآن مستعار للخطاب به. عبر عنه بالإنزال على طريقة التبعية

تشبيها لشرف الشيء بعلو المكان، ولإبلاغه للغير بإنزال الشيء من علو.

صفحة : 4373

والمعنى: لو كان المخاطب بالقرآن جبلا، وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثرا ناشئا من خشية لله خشية تؤثرها فيه معاني القرآن.
والمعنى: لو كان الجبل في موضع هؤلاء الذين نسوا الله وأعرضوا عن فهم القرآن ولم يتعظوا بمواعظه لاتعظ الجبل وتصدع صخره وتربه من شدة تأثره بخشية الله.
وضرب التصدع مثلا لشدة الانفعال والتأثر لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدع إذ لا يحصل ذلك لها بسهولة.
والخشوع: التطأطؤ والركوع، أي لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.
والتصدع: التشقق، أي لتزلزل وتشقق من خوفه الله تعالى.
والخطاب في)لرأيته(لغير معين فيعم كل من يسمع هذا الكلام والرؤية بصرية، وهي منفية لوقوعها جوابا لحرف)لو(الامتناعية.
والمعنى: لو كان كذلك لرأيت الجبل في حالة الخشوع والتصدع.
وجملة)وتلك الأمثال نضربها للناس(تذييل لأن ما قبلها سيق مساق المثل فذيل بأن الأمثال التي يضربها الله في كلامه مثل المثل أراد منها أن يتفكروا فإن لم يتفكروا بها فقد سحل عليهم عنادهم ومكابرتهم، فالإشارة بتلك إلى مجموع ما مر على أسماعهم من الأمثال الكثيرة، وتقدير الكلام: ضربنا هذا مثلا، وتلك الأمثال نضربها للناس.
وضرب المثل سوقه، أطلق عليه الضرب بمعنى الوضع كما يقال: ضرب بيتا، وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى)إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما(في سورة البقرة.
)هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم[22](لما تكرر في هذه السورة ذكر اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرة منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر، أو صفاته العلية. وكان ما تضمنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرفه وحكمته.
وكان ما حوته السورة الاعتبار بعظيم قدرة الله إذ أيد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ونصرهم على بني النضير ذلك النصر الخارق للعادة، وذكر ما حل بالمنافقين أنصارهم وأن ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وذلك بالثناء على المؤمنين بالله ورسوله صلى

الله عليه وسلم الذين نصروا الدين، ثم الأمر بطاعة الله والاستعداد ليمو الجزاء، والتحذير من الذين أعرضوا عن كتاب الله ومن سوء عاقبتهم، وختم ذلك بالتذكير بالقرآن الدال على الخير، والمعرف بعظمة الله المقتضية شدة خشيته عقب ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته. وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته، ولذلك ذكر في هذه الآيات الخواتم للسورة من صفاته تعالى ما هو مختلف التعلق والآثار للفريقين حظ ما يليق به منها.

وفي غضون ذلك كله دلائل على بطلان إشراكهم ب? أصنامهم. وسنذكر مراجع هذه الأسماء إلى ما اشتملت عليه السورة فيما يأتي.

فضمير الغيبة الواقع في أول الجملة عائد إلى اسم الجلالة في قوله تعالى)يأيها الذين آمنوا اتقوا الله(، و)هو(مبتدأ واسم الجلالة خبر عنه)الذي(صفة لاسم الجلالة.

وكان مقتضى الظاهر الاقتصار على الضمير دون ذكر اسم الجلالة لأن المقصود الإخبار عن الضمير ب)الذي لا إله إلا هو(وبما بعد ذلك من الصفات العليا، فالجمع بين الضمير وما يساوي معادة اعتبار بأن اسم الجلالة يجمع صفات الكمال لأن أصله الإله ومدلول الإله يقتضي جمع صفات الكمال.

صفحة : 4374

ويجوز أن يجعل الضمير ضمير الشأن ويكون الكلام استئنافا قصد منه تعليم المسلمين هذه الصفات ليتبصروا فيها وللرد على المشركين إشراكهم بصاحب هذه الصفات معه أصنافا ليس لواحد منها سيء من مثل هذه الصفات، ولذلك ختمة طائفة منها بجملة) سبحان الله عما يشركون(، لتكون خاتما لهذه السورة الجليلة التي تضمنت منه عظيمة، وهي منه الفتح الواقع والقتح الميسر في المستقبل، لا جرم أنه حقيق بأن يعرفوا جلائل صفاته التي لتعلقانها آثار في الأحوال الحاصلة والتي ستحصل من هذه الفتوح وليعلم المشركون والكافرون من اليهود أنهم ما تعاقبت هزائمهم إلا من جراء كفرهم. ولما كان شأن هذه الصفات عظيما ناسب أن تفتتح الجملة بضمير الشأن، فيكون اسم الجلالة مبتدأ والذي لا إله إلا هو

خبر. والجملة خبر عن ضمير الشأن فيكون اسم الجلالة مبتدأ والذي لا إله إلا هو خبر والجنلة خبرا عن ضمير الشأن.
وابتدئ في هذه الصفات العلية بصفة الوحانية وهي مدلول)الذي لا إله إلا هو(وهي الأصل فيما يتبعها من الصفات. ولذلك كثر في القرآن ذكرها عقب اسم الجلالة كما في آية الكرسي. وفاتحة آل عمران.
وثني بصفة عالم الغيب لأنها التي تقتضيها صفة الإلهية إذ علم الله هو العلم الواجب وهي تقتضي جمع الصفات إذ لا تتقوم حقيقة العلم الواجب إلا بالصفات السلبية، وإذ هو يقتضي الصفات المعنوية، وإنما من متعلقات علمه أمور الغيب لأنه فارق به علم الله تعالى علم غيره، وذكر معه علم الشهادة للاحتراس توهم أنه يعلم الحقائق العالية الكلية فقط كما ذهب إليه فريق من الفلاسفة الأقدمين ولأن التعريف في)الغيب والشهادة(للاستغراق. أي كل غيب وشهادة، وذلك مما لا يشاركه فيه غيره. وهو علم الغيب والشهادة، أي الغائب عن إحساس الناس والمشاهد لهم. فالمقصود فيها بمعنى اسم الفاعل، أي عالم ما ظهر وما غاب عنهم من كل غائب يتعلق به العلم على ما هو عليه.
والتعريف في الغيب والشهادة للاستغراق الحقيقي.
وفي ذكر الغيب إيماء إلى ضلال الذين قصروا أنفسهم على المشاهدات وكفروا بالمغيبات من البعث والجزاء وإرسال الرسل، أما ذكر علم الشهادة فتتميم على أن المشركين يتوهمون الله لا يطلع على ما يخفونه. قال تعالى)وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم(إلى قوله)من الخاسرين(.
وضمير)هو الرحمان الرحيم(ضمير فصل يفيد قصر الرحمة عليه تعالى لعدم الاعتداد برحمة غيره لقصورها قال تعالى)ورحمتي وسعت كل شيء(. وقال النبي صلى الله عليه وسلم جعل الله الرحمة في مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه . وقد تقدم الكلام على) الرحمان والرحيم(في سورة الفاتحة.
ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة أن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته ويهمل المعاندين إلى عقاب الآخرة، فهو رحمان بهم في الدنيا، وقد كثر إتباع اسم الجلالة بصفتي) الرحمان الرحيم(في القرآن كما في الفاتحة.
)هو الله لا إله إلا هو الملك القدوس السلم المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر(القول في ضمير)هو(كالقول في نظيره في

الجملة الأولى. وهذا تكرير للاستئناف لأن المقام مقام عظيم وهو من مقامات التكرير، وفيه اهتمام بصفة الوحدانية.
و)الملك(: الحاكم في الناس، على الإطلاق إلا الله تعالى وأما وصف غيره بالملك فهو بالإضافة إلى طائفة معينة من الناس. وعقب وصفا الرحمة بوصف)الملك(للإشارة إلى أن رحمته فضل وأنه مطلق التصرف كما وقع في سورة الفاتحة.
و)القدوس(بضم القاف في الأفصح، وقد تفتح القاف قال ابن جني: فعول في الصفة قليل، وإنما هو في الأسماء مثل تنور وسفود وعبود. وذكر سيبويه السبوح بالفتح، وقال ثعلب لم يرد فعول بضم أوله إلا القدوس والسبوح. وزاد غيره الذروح، وهو ذباب أحمر متقطع الحمرة بسواد يشبه الزبور. ويسمى في اصطلاح الأطباء ذباب الهند. وما عداهما مفتوح مثل سفود وكلوب. وتنور وسمور وشبوط صنف من الحوت وكأنه يريد أن سبوح وقدوس صارا اسمين.

صفحة : 4375

وعقب ب)القدوس(وصف)الملك(للاحتراس إشارة إلى أنه منزه عن نقائض الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائض النفوس.
و)السلام(مصدر بمعنى المسالمة وصف الله تعالى به على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة في الوصف، أي ذو السلام، أي السلامة، وهي أنه تعالى سالم الخلق من الظلم والجور. وفي الحديث إن الله هو السلام ومنه السلام. وبهذا ظهر تعقيب وصف) الملك(بوصف)السلام(فإنه بعد أن عقب ب)القدوس(للدلالة على نزاهة ذاته، عقب ب)السلام(للدلالة على العدل في معاملته الخلق، وهذا احتراس أيضا.و)المؤمن(اسم فاعل نن آمن الذي همزته للتعدية، أي جعل غيره آمنا.
فالله هو الذي جعل الأمان في غالب أحوال الموجودات، إذ خلق نظام المخلوقات بعيدا عن الأخطار والمصاءب، وإنما تعرض للمخلوقات للمصائب بعوارض تتركب من تقارن مصالح، فيرجع أقواها ويدحض أدناها، وقد تأتي من جراء أفعال الناس.
وذكر وصف)المؤمن(عقب الأوصاف التي قبله إتمام للاحتراس من توهم وصفه تعالى ب)الملك(أنه كالملوك المعروفين بالنقائص. فأفيد أولا نزاهة ذاته بوصف)القدوس(، ونزاهة تصرفاته المغية عن الغدر

والكيد بوصف)المؤمن(، ونزاهة تصرفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف)السلام(.

و)المهيمن(: الرقيب بلغة قريش، والحافظ في لغة بقية العرب.

واختلف في اشتقاقه فقيل مشتق من أمن الداخل عليه همزة التعدية فصار ءامن وأن وزن الوصف مؤيمن قلبت همزته هاء، ولعل موجب القلب إرادة نقله من الوصف إلى الاسمية بقطع النظر عن معنى الأمن، بحيث صار كالاسم الجامد. وصار معناه: رقب: ألا ترى أنه لم يبق فيه معنى إلا من الذي في المؤمن لما صار اسما للرقيب والشاهد ، وهو قلب نادر مثل قلب همزته: أراق إلى الهاء فقالوا: هراق، وقد وضعه الجوهري في فصل الهمزة من باب النون ووزنه مفعلل اسم فاعل من آمن مثل مدحرج، فتصريفه مؤآمن بهمزتين بعد الميم الأولى المزيدة، فأبدلت الهمزة الأولى هاء كما أبدلت همزة آراق فقالوا: هراق.

وقيل: أصله هيمن بمعنى: رقب، كذا في لسان العرب وعليه فالهاء أصلية ووزنه مفيعل. وذكره صاحب القاموس في فصل الهاء من باب النون ولم يذكره في فصل الهمزة منه. وذكره الجوهري في فصل الهمزة وفصل الهاء من باب النون مصرحا بأن هاءه أصلها همزة. وعدل الراغب وصاحب الأساس عن ذكره. وذلك يشعر بأنهما يريان هاءه مبدلة من الهمزة وأنه مندرج في معاني الأمن وفي المقصد الأسنى في شرح الأسماء الحسنى للغزالي)المهيمن(في حق الله: القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم، وإنما قيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه. والإشراف، أي الذي هو الاطلاع يرجع إلى العلم، والاستيلاء يرجع إلى كمال القدرة، والحفظ يرجع إلى الفعل. والجامع بين هذه المعاني اسمه المهيمن ولن يجتمع على ذلك الكمال والإطلاق إلا الله تتعالى، ولذلك قيل: أنه من أسماء الله تعالى في الكتب القديمة اه. وفي هذا التعريف بهذا التفصيل نظر ولعله جرى من حجة الإسلام مجرى الاعتبار بالصفة لا تفسير مدلولها.

وتعقيب)المؤمن(ب)المهيمن(لدفع توهم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة غيره، فأعلموا أن تأمينه لحكمته مع أنه رقيب مطلع على أحوال خلقه فتأمينه إياهم رحمة بهم.

و)العزيز(الذي لا يغلب ولا يذله أحد، ولذلك فسر بالغالب.

و)الجبار(: القاهر المكره غيره على الانفعال بفعله، فالله جبار كل مخلوق على الافعال لما كونه عليه لا تستطيع مخلوق اجتيازه ما حده له في خلقته فلا يستطيع الإنسان الطيران ولا يستطيع ذوات الأربع المشي على رجلين فقط، وكذلك هو جبار للموجودات على قبول ما أراده بها وما تعلقت به قدرته عليها.

وإذا وصف الإنسان بالجبار كان وصف ذم لأنه يشعر بأنه يحمل غيره على هواه ولذلك قال تعالى)إن تريد أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين(. فالجبار من أمثلة المبالغة لأنه مشتق من أجبره، وأمثله المبالغة تشتق من المزيد بقلة مثل الحكيم بمعنى المحكم. قال الفراء: لم اسمع فعالا في أفعل إلا جبارا ودراكا. وكان القياس يقال: المجبر والمدرك، وقيل: الجبار معناه المصلح من جبر الكسر، إذ أصلحه، فاشتقاقه لا نذرة فيه.

صفحة : 4376

و)المتكبر(: الشديد الكبرياء، أي العظمة والجلالة. وأصل صيغة التفعل أن تدل على التكلف لكنها استعملت هنا في لازم التكلف وهو القوة لأن الفعل الصادر عن تأنق وتكلف يكون أتقن.
ويقال: فلان يتظلم على الناس، أي يكثر ظلمهم.
ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث عقب صفة)المهيمن(أن جميع ما ذكره آنفا من الصفات لا يؤذن إلا باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم وأن صفة)المهيمن(تؤذن بأمر مشترك فعقبت بصفة)العزيز(ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء. واتبعت بصفة)الجبار(الدالة على أنه مسخر المخلوقات لإرادته ثم صفة) المتكبر(الدالة على أنه ذو الكبرياء يصغر كل شيء دون كبريائه فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت قبلها في جانب الإطماع.
)سبحان الله عما يشركون[23](ذيلت هذه الصفات بتنزيه الله تعالى عن أن يكون له شركاء بأن أشرك به المشركون. فضمير) يشركون(عائد إلى معلوم من المقام وهم المشركون الذين لم يزل القرآن يقرعهم بالمواعظ.
)هو الله الخالق البارئ المصور(القول في ضمير)هو(المفتتح به وفي تكرير الجملة كالقول في التي سبقها فإن كان ضمير الغيبة شأن فالجملة بعده خبر عنه.
وجملة)الله الخالق(تفيد قصرا بطريق تعريف جزأي الجملة هو الخالق لا شركاؤهم. وهذا إبطال لإلهية ما لا يخلق. قال تعالى) والذين تعون من دون اللهلا يخلقون شيئا وهم يخلقون(، وقال) أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون(، وإن كان عائدا على اسم الجلالة المتقدم فاسم الجلالة بعده خبر عنه و)الخالق(صفة.
والخالق: اسم فاعل من الخلق، وأصل الخلق في اللغة إيجاد شيء على صورة مخصوصة. وقد تقدم عند قوله تعالى حكاية عن عيسى

عليه السلام)إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير(الآية في سورة آل عمران. ويطلق الخلق على معنى أخص من إيجاد الصور وهو ايجاد ما لم يكن موجودا. كقوله تعالى)ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام(. وهذا هو المعنى الغالب من اطلاق اسم الله تعالى)الخالق(.

قال في الكشاف المقدر لما يوجده . ونقل عنه في بيان مراده بذلك أنه قال لما كانت إحداثات الله مقدرة بمقادير الحكمة عبر عن إحداثه بالخلق اه. يشير إلى أن الخالق في صفة الله بمعنى المحدث الأشياء عن عدم، وبهذا يكون الخلق أعم من التصوير. ويكون ذكر)الباري(و)المصور(بعد)الخالق(تنبيها على أحوال خاصة في الخلق. قال تعالى)ولقد خلقناكم ثم صورناكم(على أحد التأويلين.

وقال الراغب: الخلق التقدير المستقيم واستعمل في إياع الشيء من غير أصل ولا احتذاء اه.

وقال أبو بكر ابن العربي في عارضة الأحوذي على سنن الترمذي:)الخالق(: المخرج الأشياء من العدم إلى الوجود المقدر لها على صفاتها فخلط بين المعنين ثم قال: فالخالق عام، والباريء أخص منه، والمصور أخص من الأخص وهذا قريب من كلام صاحب الكشاف. وقال الغزالي في المقصد الأسني: الخالق الباريء المصور قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى تقدير أولا وإلى الايجاد على وفق التقدير ثانيا وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثا. والله خالق من حيث أنه مقدر وبارئ من حيث إنه مخترع موجود، ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب اه. فجعل المعاني متلازمة وجعل الفرق بينها بالاعتبار، ولا أحسبه ينطبق على مواقع استعمال هذه الأسماء.

و)البارئ(اسم فاعل من برأ مهموزا. قال في الكشاف المميز لما يوجده بعضه من بعض بالأشكال المختلفة اه. وهو مغاير لمعنى الخالق بالخصوص. وفي الحديث)من شر ما خلق وذرأ وبرأ(. ومن كلام علي رضي الله عنه: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، فيكون اسم البريئة غير خاص بالناس في قوله تعالى)أولئك هم شر البريئة( )أولئك هم خير البريئة(. وقال الراغب: البريئة: الخلق.

وقال ابن العربي في العارضة:)الباريء(: خالق الناس من البرى مقصورا وهو التراب خاصا بخلق جنس الإنسان، وعليه يكون اسم البريئة خاصا بالبشر في قوله تعالى)أولئك هم شر البريئة( )أولئك هم خير البريئة(.

وفسره ابن عطية بمعنى الخالق. وكذبك صاحب القاموس. وفسره الغزالي بانه الموجود المخترع، وقد علمت أنه غير منطبق فأحسن تفسير له ما في الكشاف.

و)المصور(: مكون الصور لجميع المخلوقات ذوات الصور المرئية.

وإنما ذكرت هذه الصفات متتابعة لأن من مجموعها يحصل تصور الإبداع الإلهي للإنسان فابتدئ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي ثم بالبرء الذي هو تكوين جسم الإنسان ثم بالتصور الذي هو إعطاء الصورة الحسنة، كما أشار إليه قوله تعالى)الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة(،)الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء(.

ووجه ذكرها عقب الصفات المتقدمة، أي هذه الصفات الثلاث أريد منها الإشارة إلى تصرفه في البشر بالإيجاد على كيفية البديعة ليثير داعية شكرهم على ذلك. ولذلك عقبت بجملة)يسبح له ما في السماوات والأرض(.

واعلم أن وجه إرجاع هذه الصفات الحسنى إلى ما يناسبها مما اشتملت عليه السورة ينقسم إلى ثلاثة أقسام ولكنها ذكرت في الآية بحسب تناسب مواقع بعضها عقب بعض من تنظير أو احتراس أو تتميم كما علمته آنفا.

القسم الأول يتعلق بما يناسب أحوال المشركين وأحلافهم اليهود المتألبين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بالحرب والكيد والأذى، وأنصارهم من المنافقين المخادعين للمسلمين.

وإلى هذا القسم تنضوي صفة)لا إله إلا هو(وهذه الصفة هي الأصل في التهيؤ للتدبر والنظر في بقية الصفات، فإن الإشراك أصل الضلالات، والمشركون هم الذين يغرون اليهود، والمنافقون بين يهود ومشركين تستروا بإظهار الإسلام، فالشرك هو الذي صد الناس عن الوصول إلى مسالك الهدى، قال تعالى)وما زادوهم غير تتبيب(.

وصفة)عالم الغيب(فإن من أصول الشرك إنكار الغيب الذي من آثاره إنكار البعث والجزاء، وعلى الاسترسال في الغي وإعمال السيئات وإنكار الوحي والرسالة. وهذا ناظر إلى قوله تعالى)ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله(الآية.

وكذلك ذكر صفات الملك، والعزيز، والجبار، والمتكبر، لأنها تناسب ما أنزله ببني النضير من الرعب والخزي والبطشة.

القسم الثاني متعلق بما اجتناه المؤمنون من ثمرة النصر في قصة بني النضير، وتلك صفات: السلام المؤمن لقوله)فما أوجفتم

عليه من خيل ولا ركاب، أي لم يتجشم المسلمون للغنى مشقة ولا أذى ولا قتالا.
وكذلك صفتا الرحمان الرحيم لمناسبتهما لإعطاء حظ في الفيء للضعفاء.
القسم الثالث متعلق بما يشترك فيه الفريقان المذكوران في هذه السورة فيأخذ كل فريق حظه منها، وهي صفات: القدوس، المهيمن، الخالق، البارىء، المصور.
)له الأسماء الحسنى(تذييل لما عدد من صفات الله تعالى، أي له جميع الأسماء الحسنى التي بعضها الصفات المذكورة آنفا.
والمراد بالأسماء الصفات، عبر عنها بالأسماء لأنه متصف بها على ألسنة خلقه ولكونها بالغة منتهى حقائقها بالنسبة لوصفه تعالى بها فصارت كالاعلام على ذاته تعالى.
والمقصود: أن له مدلولات الأسماء الحسنى كما في قوله تعالى) ثم عرضهم على الملائكة(بعد قوله)وعلم آدم الأسماء كلها(، أي عرض المسميات على الملائكة.
وقد تقدم قوله تعالى)ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها(في سورة الأعراف.
)يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم[24](جملة)يسبح له(الخ في موضع الحال من ضمير)له الأسماء الحسنى(يعني أن اتصافه بالصفات الحسنى يضطر ما في السماوات والأرض من العقلاء على تعظيمه بالتسبيح والتنزيه عن النقائص فكل صنف يبعثه علمه ببعض أسماء الله على أن ينزهه ويسبحه بقصد أو بغير قصد. فالدهري أو الطبائعي إذا نوه بنظام الكائنات وأعجب بانتساقها فإنما يسبح في الواقع للفاعل المختار وإن كان هو يدعوه دهرا أو طبيعة، وهذا إذا حمل التسبيح على معناه الحقيقي وهو التنزيه بالقول، فأما إن حمل على ما يشمل المعنيين الحقيقي والمجازي من دلالة على التنويه ولو بلسان الحال. فالمعنى: أن ما ثبت له من صفات الخلق والإمداد والقهر تدل عليه شواهد المخلوقات وانتظام وجودها.
وجملة)وهو العزيز الحكيم(عطف على جملة الحال وأوثر هاتان الصفتان لشدة مناسبتهما لنظام الخلق.
وفي هذه الآية رد العجز على الصدر لأن صدر السورة مماثل لآخرها.

روى الترمذي بسند حسن عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر)هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب(إلى آخر السورة، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات ذلك اليوم مات شهيدا. ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة . فهذه فضيلة لهذه الآيات أخروية.

وروى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال: قرات على خلف راوي حمزة فلما بلغت هذه الآية)لو أنزلنا هذا القرآن على جبل(إلى آخر السورة قال: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على الاعمش. فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك فإني قرأت على يحيى بن وثاب، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على علقمة والأسود فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على رأسك فإنا قرانا على عبد الله فلما بلغنا هذه الآية قال: ضعا أيديكما على رؤوسكما، فإني قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم فلما بلغت هذه الآية قال لي: ضع يدك على رأسك فإن جبريل لما نزل بها إلي قال: ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السام. والسام الموت.

قلت: هذا حديث أغر مسلسل إلى جبريل عليه السلام.

وأخرج الديلمي عن علي وابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله تعالى)لو أنزلنا هذا القرآن(إلى آخر السورة: هي رقية الصداع، فهذه مزية لهذه الآيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الممتحنة

عرفت هذه السورة في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف ب)سورة الممتحنة(. قال القرطبي: والمشهور على الألسنة النطق في كلمة)الممتحنة(بكسر الحاء وهو الذي جزم به السهيلي.

ووجه التسمية أنها جاءت فيها آية امتحان إيمان النساء اللاتي يأتين من مكة مهاجرات إلى المدينة وهي آية)يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن(إلى قوله)بعصم الكوافر(. فوصف الناس تلك الآية بالممتحنة لأنها شرعت الامتحان. وأضيفت السورة إلى تلك الآية.

وقال السهيلي: أسند الامتحان إلى السورة مجازا كما قيل لسورة براءة الفاضحة. يعني أن ذلك الوصف مجاز عقلي.

وروي بفتح الحاء على اسم المفعول قال ابن حجر: وهو المشهور أي المرأة الممتحنة على أن التعريف تعريف العهد والمعهود أول امرأة امتحنت في إيمانها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط

امرأة عبد الرحمان بن عوف. كما سميت سورة قد سمع الله) سورة المجادلة(بكسر الدال.
ولك أن تجعل التعريف تعريف الجنس، أي النساء الممتحنة.
قال في الإتقان: وتسمى)سورة الامتحان(،)وسورة المودة(، وعزا ذلك إلى كتاب جمال القراء لعلي السخاوي ولم يذكر سنده.
وهذه السورة مدنية بالاتفاق.
واتفق أهل العدد على عد آيها ثلاث عشرة آية. وآياتها طوال.
واتفقوا على أن الآية الأولى نزلت في شأن كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين من أهل مكة.
روى البخاري من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار يبلغ به إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة ثم قال: قال عمرو بن دينار: نزلت فيه)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(قال سفيان: هذا في حديث الناس لا أدري في الحديث أو قول عمرو. حفظته من عمرو وما تركت منه حرفا اه.
وفي صحيح مسلم وليس في حديث أبي بكر وزهير من الخمسة الذين روى عنهم مسلم يروون عن سفيان بن عيينة ذكر الآية. وجعلها إسحاق أي بن إبراهيم أحد من روى عنهم مسلم هذا الحديث في روايته من تلاوة سفيان اه. ولم يتعرض مسلم لرواية عمرو الناقد وابن أبي عمر عن سفيان فلعلهما لم يذكرا شيئا في ذلك.

صفحة : 4379

واختلفوا في آن كتابة إليهم أكان عند تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديبية وهو قول قتادة ودرج عليه ابن عطية وهو مقتضى رواية الحارث عن علي بن أبي طالب عند الطبري، قال: لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتي مكة أفشى في الناس أنه يريد خيبر وأسر إلى ناس من أصحابه منهم حاطب بن أبي بلتعة أنه يريد مكة. فكتب حاطب إلى أهل مكة... إلى آخره، فإن قوله: أفشى، أنه يريد خيبر يدل على أن إرادته مكة إنما هي إرادة عمر الحديبية لا غزو مكة لأن خيبر فتحت قبل فتح مكة. ويؤيد هذا ما رواه الطبري أن المرأة التي أرسل معها حاطب كتابه كان مجيئها المدينة بعد غزوة بدر بسنتين: وقال ابن عطية: نزلت هذه السورة سنة ست.

وقال جماعة: كان كتاب حاطب إلى أهل مكة عند تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة، وهو ظاهر صنيع جمهور أهل السير وصنيع البخاري في كتاب المغازي من صحيحه في ترتيبه للغزوات، ودرج عليه معظم المفسرين.

ومعظم الروايات ليس فيها تعيين ما قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم من تجهزه إلى مكة أهو لأجل العمرة أم لأجل الفتح فإن كان الأصح الأول وهو الذي نختاره كانت السورة جميعها نازلة في مدة متقاربة فإن امتحان أم كلثوم بنت عقبة كان عقب صلح الحديبية. ويكون نزول السورة مرتبا على ترتيب آياتها وهو الأصل في السور.

وعلى القول الثاني يكون صدور السورة نازلا بعد آيات الامتحان وما بعدها حتى قال بعضهم: إن أول السورة نزل بمكة بعد الفتح، وهذا قول غريب لا ينبغي التعويل عليه.

وهذه السورة قد عدت الثانية والتسعين في تعداد نزول السور. عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة العقود وقبل سورة النساء.

أغراض هذه السورة

اشتملت من الأغراض على تحذير المؤمنين من اتخاذ المشركين أولياء مع أنهم كفروا بالدين الحق وأخروجهم من بلادهم.

وإعلامهم بأن اتخاذهم أولياء ضلال وأنهم لو تمكنوا من المؤمنين لأساؤوا إليهم بالفعل والقول، وأن ما بينهم وبين المشركين من أواصر القرابة لا يعتد به تجاه العداوة في الدين، وضرب لهم مثلا في ذلك قطيعة إبراهيم لأبيه وقومه.

وأردف ذلك باستئناس المؤمنين برجاء أن تحصل مودة بينهم وبين الذين أمرهم الله بمعاداتهم أي هذه معاداة غير دائمة.

وأردف بالرخصة في حسن معاملة الكفرة الذين لم يقاتلوا المسلمين قتال عداوة في دين ولا أخرجوهم من ديارهم. وهذه الأحكام إلى نهاية الآية التاسعة.

وحكم المؤمنات اللاء يأتين مهاجرات واختبار صدق إيمانهن وأن يحفظن من الرجوع إلى دار الشرك ويعوض أزواجهن المشركون ما أعطوهن من المهور ويقع التراد كذلك مع المشركين.

ومبايعة المؤمنات المهاجرات ليعرف التزامهن لأحكام الشريعة الإسلامية. وهي الآية الثانية عشرة.

وتحريم تزوج المسلمين المشركات وهذا في الآيتين العاشرة والحادية عشرة.

والنهي عن موالاة اليهود وأنهم أشبهوا المشركين وهي الآية الثالثة عشرة.

)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهدا في سبيلي وابتغاء مرضاتي(اتفق المفسرون وثبت في صحيح الأحاديث أن هذه الآية نزلت في قضية الكتاب الذي كتب به حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى من قريش. وكان حاطب من المهاجرين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل بدر.

صفحة : 4380

وحاصل القصة مأخوذة مما في صحيح الآثار ومشهور السيرة: أن رسول الله كان قد تجهز قاصدا مكة. قيل لأجل العمرة عام الحديبية، وهو الأصح، وقيل لأجل فتح مكة وهو لا يستقيم، أيامئذ من مكة إلى المدينة امرأة تسمى سارة مولا' لأبي عمرو بن صيفي بن هاشم بن عبد مناف وكانت على دين الشرك فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة وقد ذهب الموالي تعني من قتل من مواليها يوم بدر . وقد اشتدت بي الحاجة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني فحث رسول الله صلى الله عليه وسلم بني المطلب وبني المطلب على إعطائها، فكسوها وأعطوها وحملوها، وجاءها حاطب بن أبي بلتعة فأعطاها كتابا لتبلغه إلى من كتب إليهم من أهل مكة يخبرهم بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج إليهم، وآجرها على إبلاغه فخرجت، وأوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك، فبعث عليا والزبير والمقداد وأبا مرثد الغنوي، وكانوا فرسانا. وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها. فخرجوا تتعادى بهم خيلهم حتى بلغوا روضة خاخ فإذا هم بالمرأة. فقالوا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقالوا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب يعنون أنهم يجردونها فأخرجته من عقاصها، وفي رواية من حجرتها. فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا صاحب هذا ما هذا؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله. فإني كنت امرأ ملصقا في قريش وكان لمن كان معك من المهاجرين قرابات يحمون بها أهليهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي يريد أمه وأخوته ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق،

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنه قد شهد بدرا وما يدريك ربك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .وقال: لا تقولوا لحاطب إلا خيرا فأنزل الله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(الآيات.

والظاهر أن المرأة جاءت متجسسة إذ ورد في بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمن يوم الفتح أربعة منهم هذه المرأة لكن هذا يعارضه ما جاء في رواية القصة من قول النبي صلى الله عليه وسلم: خذوا منها الكتاب وخلو سبيلها .

وقد وجه الخطاب بالنهي إلى جميع المؤمنين تحذيرا من إتيان فعل حاطب.

والعدو: ذو العداوة، وهو فعول بمعنى فاعل من: عدا يعدو، مثل عفو. وأصله مصدر. على وزن فعول مثل قبول ونحوه من مصادر قليلة. ولكنه على زنة المصادر عومل معاملة المصدر فاستوى في الصف به المذكر والمؤنث والواحد والمثنى والجمع. قال تعالى) فإنهم عدو لي(، وتقدم عند قوله تعالى)فإن كان من قوم عدولكم(في سورة النساء.

والمعنى: لا تتخذوا أعدائي وأعداءكم أولياء. والمراد العداوة في الدين فإن المؤمنين لم يبدأوهم بالعداوة وإنما أبدى المشركون عداوة المؤمنين انتصارا لشركهم فعدوا من خرجوا عن الشرك أعداء لهم. وقد كان مشركو العرب متفاوتين في مناورتة المسلمين فإن خزاعة كانوا مشركين وكانوا موالين النبي صلى الله عليه وسلم.

فمعنى إضافة عدو إلى ياء المتكلم على تقدير: عدو ديني، أو رسولي.

والاتخاذ: افتعال من الأخذ صيغ الافتعال للمبالغة في الأخذ المجازي فأطلق على التلبس والملازمة. وقد تقدم في قوله تعالى)يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم(في سورة النساء. ولذلك لزمه ذكر حال بعد مفعوله لتدل على تعيين جانب المعاملة من خير أو شر. فعومل هذا الفعل معاملة صير. واعتبرت الحال التي بعده بمنزلة المفعول الثاني للزوم ذكرها وهل المفعول الثاني للزوم ذكرها وهل المفعول الثاني من باب ظن وأخواته إلا حال في المعنى، وقد تقدم عند قوله تعالى)أتتخذ أصناما آلهة(في سورة الأنعام.

وجملة)تلقون إليهم بالمودة(في موضع الحال من ضمير)لا تتخذوا(، أو في موضع الصفة ل)أولياء(أو بيان لمعنى أتخاذهم أولياء.

ويجوز أن تكون جملة في موضع الحال من ضمير)لا تتخذوا(لأن جعلها حالا يتوصل منه إلى التعجيب من إلقائهم إليهم بالمودة.

والإلقاء حقيقته رمي ما في اليد على الأرض. واستعير ليقاع الشيء بدون تدبر في موقعه، أي تصرفون إليهم مودتكم بغير تأمل. قال تعالى)فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون(في سورة النحل.
والباء في)بالمودة(لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله. وأصل الكلام: تلقون إليهم المودة، كقوله تعالى)ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة(وقوله)وامسحوا برؤوسكم(وذلك تصوير لقوة مودتهم لهم.
وزيد في تصوير هذه الحالة بجملة الحال التي بعدها وهي)وقد كفروا بما جاءكم من الحق(وهي حال من ضمير)إليهم(أو من) عدوي(.
)وما جاءكم من الحق(هو القرآن والدين فذكر بطريق الموصولية ليشمل كل ما أتاهم به الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الإيجاز مع ما في الصلة من الإيذان بتشنيع كفرهم بأنه كفر بما ليس من شأنه أن يكفر به طلاب الهدى فإن الحق محبوب مرغوب.
وتعدية جاء إلى ضمير المخاطبين وهم الذين آمنوا لأنهم الذين انتفعوا بذلك الحق وتقبلوه فكأنه جاء إليهم لا إلى غيرهم وإلا فإنه جاء لدعوة الذين آمنوا والمشركين فقبله الذين آمنوا ونبذه المشركون.
وفيه إيماء إلى أن كفر الكافرين به ناشئ عن حسدهم الذين آمنوا قبلهم.
وفي ذلك أيضا إلهاب القلوب المؤمنين ليحذروا من موالاة المشركين.
وجملة)يخرجون الرسول وإياكم(حال من ضمير)كفروا(، أي لم كتفوا بكفرهم بما جاء من الحق فتلبسوا معه بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم وإخراجكم من بلدكم لأن تؤمنوا بالله ربكم، أي هو اعتداء حملهم عليه أنكم آمنتم بالله ربكم. وأن ذلك لا عذر لهم فيه لأن إيمانكم لا يضيرهم. ولذلك أجري على اسم الجلالة وصف ربكم على حد قوله تعالى)قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد(ثم قال)لكم دينكم ولي دين(.
وحكيت هذه الحالة بصيغة المضارع لتصوير الحالة لأن الجملة لما وقعت حالا من ضمير)وقد كفروا(كان إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في تلك الحالة عملا فظيعا، فأريد استحضار صورة ذلك الإخراج العظيم فظاعة اعتلالهم له.

والإخراج أريد به: الحمل على الخروج بإتيان أسباب الخروج من تضييق على المسلمين وأذى لهم.
وأسند الإخراج إلى ضمير العدو كلهم لأن جميعهم كانوا راضين بما يصدر من بعضهم من أذى المسلمين. وربما أغروا به سفهاءهم، ولذلك فالإخراج مجاز في أسبابه، وإسناده إلى المشركين إسناد حقيقي.
وهذه الصفات بمجموعها لا تنطبق إلا على المشركين من أهل مكة ومجموعها هو عليه النهي عن موادتهم.
وجيء بصيغة المضارع في قوله تعالى)أن تؤمنوا(لإفادة استمرار إيمان المؤمنين وفيه إيماء إلى الثناء على المؤمنين بثباتهم على دينهم، وأنهم لم يصدهم عنه ما سبب لهم الخروج من بلادهم.
وقوله)إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي(شرط ذيل به النهي من قوله)لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(. وهذا مقام يستعمل في مثله الشرط بمنزلة التتميم لما قبله دون قصد تعليق ما قبله بمضمون فعل الشرط، أي لا يقصد أنه إذا انتفى فعل الشرط انتفى ما علق عليه كما هو الشأن في الشروط بل يقصد تأكيد الكلام الذي قبله بمضمون فعل الشرط فيكون كالتعليل لما قبله، وإنما يؤتى به في صورة الشرط مع ثقة المتكلم بحصول مضمون فعل الشرط بحيث لا يتوقع من السامع أن يحصل منه غير مضمون فعل الشرط فتكون صيغة الشرط مرادا بها التحذير بطريق المجاز المرسل في المركب لأن معنى الشرط يلزمه التردد غالبا. ولهذا يؤتى بمثل هذا الشرط إذا كان المتكلم واثقا بحصول مضمونه متحققا صحة ما يقوله قبل الشرط. كما ذكر في الكشاف في قوله تعالى)إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا إن كنا أول المؤمنين(في سورة الشعراء، في قراءة من قرأ)إن كنا أول المؤمنين(بكسر همزة)إن(وهي قراءة شاذة فتكون)إن(شرطية مع أنهم متحققون أنهم أول المؤمنين فطمعوا في مغفرة خطاياهم لتحققهم أنهم أول المؤمنين، فيكون الشرط في مثله بمنزلة التعليل وتكون أداة الشرط مثل إذ أو لام التعليل.

صفحة : 4382

وقد يأتي بمثل هذا الشرط من يظهر وجوب العمل على مقتضى ما حصل من فعل الشرط وأن لا يخالف مقتضاه كقوله تعالى) واعلموا إنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه(إلى قوله)إن كنتم

آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا(، أي فإيمانكم ويقينكم مما أنزلنا يوجبان أن ترضوا بصرف الغنيمة للأصناف المعينة من عند الله.

ومنه كثير في القرآن إذا تتبعت مواقعه.

ويغلب أن يكون فعل الشرط في مثله فعل كون إيذانا بأن الشرط محقق الحصول.

وما وقع في هذه السورة من هذا القبيل فالمقصود استقرار النهي عن أتخاذ عدو الله أولياء وعقب بفرض شرطه موثوق بأن الذين نهوا متلبسون بمضمون فعل الشرط بلا ريب، فكان ذكر الشرط مما يزيد تأكيد الانكفاف.

ولذلك يجاء بمثل هذا الشرط في آخر الكلام إذ هو يشبه التتميم والتذييل، وهذا من دقائق الاستعمال في الكلام البليغ.

قال في الكشاف في قوله تعالى)إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها(في سورة الفرقان و لولا في مثل هذا الكلام جار من حيث المعنى لا من حيث الصنعة مجرى التقييد للحكم المطلق. وقال هنا)إن كنتم خرجتم(متعلق ب)لا تتخذوا(وقول النحويين في مثله على أنه شرط جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه. اه. يعني أن فرقا بين كلام النحويين وبين ما اختاره هو من جعله متعلقا ب)لا تتخذوا(فإنه جعل جواب الشرط غير منوي. قلت: فينبغي أن يعد كلامه من فروق استعمال الشروط مثل فروق الخبر وفروق الحال المبوب لكليهما في كتاب دلائل الإعجاز. وكلام النحاة جرى على غالب أحوال الشروط التي تتأخر عن جوابها نحو: اقبل شفاعة فلان إن شفع عندك، وينبغي أن يتطلب لتقديم ما يدل على الجواب المحذوف إذا حذف نكتة في غير ما جرى على استعمال الشرط بمنزلة التذييل والتتميم.

وأداة الشرط في مثله تشبه)إن(الوصلية و)لو(الوصلية، ولذلك قال في الكشاف هنا: إن جملة)إن كنتم خرجتم(متعلقة ب)لا تتخذوا(يعني تعلق الحال بعاملها، أي والحال حال خروجكم في سبيل الله وابتغائكم مرضاته بناء على أن شرط)إن(. و)لو(الوصليتين يعتبر حالا. ولا يعكر عليه أن شرطهما يقترن بواو الحال لأن ابن جني والزمخشري سوغا خلو الحال في مثله عن الواو والاستعمال يشهد لهما.

والمعنى: لا يقع منكم اتخاذ عدوي وعدوكم أولياء ومودتهم، مع أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وأخرجوكم لأجل إيمانكم. إن كنتم خرجتم من بلادكم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، فكيف توالون من أخرجوكم وكان إخراجهم إياكم لأجلي وأنا ربكم.

والمراد بالخروج في قوله تعالى)أن كنتم خرجتم(الخروج من مكة مهاجرة إلى المدينة. فالخطاب خاص بالمهاجرين على طريقة

تخصيص العموم في قوله تعالى)يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(روعي في هذا التخصيص قرينة سبب نزول الآية على حادث حاطب بن أبي بلتعة.
و)جهادا(، و)ابتغاء مرضاتي(مصدران منصوبان على المفعول لأجله.
)تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم(يجوز أن تكون الجملة بيانا لجملة)تلقون إليهم بالمودة(، أو بدل استمال منها فإن الإسرار إليهم بالمودة مما اشتمل عليه الإلقاء إليهم بالمودة. والخبر مستعمل في التوبيخ والتعجيب، فالتوبيخ مستفاد من إيقاع الخبر عقب النهي المتقدم، والتعجيب مستفاد من تعثيبه بجملة)وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم(، أي كيف تظنون أن إسراركم إليهم يخفى علينا ولا نطلع عليه رسولنا.
والإسرار: التحدث والإخبار سرا.
ومفعول)تسرون(يجوز أن يكون محذوفا يدل عليه السياق، أي تخبرونهم أحوال المسلمين سرا.
وجيء بصيغة المضارع لتصوير حالة الإسرار إليه تفظيعا لها.
والباء في)بالمودة(للسببية، أي تخبرونهم سرا بسبب المودة أي بسبب طلب المودة لهم كما هو في قضية كتاب حاطب.
ويجوز أن يكون)بالمودة(في محل المفعول لفعل)تسرون(والباء زائدة لتأكيد المفعولية كالباء في قوله تعالى)وامسحوا برؤوسكم(.
وجملة)وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم(في موضع الحال من ضمير)تسرون(أو معترضة، والواو اعتراضية.
وهذا مناط التعجيب من فعل المعرض به وهو حاطب بن أبي بلتعة. وتقديم الإخفاء لأنه المناسب لقوله)وأنا أعلم(. ولموافقته للقصة.

صفحة : 4383

و)أعلم(اسم تفضيل والمفضل عليه معلوم من قوله)تسرون إليهم(فالتقدير: أعلم منهم ومنكم بما أخفيتم وما أعلنتم.
والباء متعلقة باسم التفضيل وهي بمعنى المصاحبة.
)ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل[1](عطف على جملة النهي في قوله تعالى)لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(، عطف على النهي التوعد على عدم الانتهاء بان من لم ينته عما نهي عنه هو ضال عن الهدى.

وضمير الغيبة في)يفعله(عائد إلى الاتخاذ المفهوم من فعل)لا تتخذوا عدوي(أي ومن يفعل ذلك بعد هذا النهي والتحذير فهو قد ضل عن سواء السبيل.

و)سواء السبيل(مستعار لأعمال الصلاح والهدى لشبهها بالطريق المستوي الذي يبلغ من سلكه إلى بغيته ويقع من انحرف عنه في هلكة. والمراد به هنا ضل عن الإسلام وضل عن الرشد.

و)من(شرطية الفعل بعدها مستقبل وهو وعيد للذين يفعلون مثل ما فعل حاطب بعد أن بلغهم النهي والتحذير والتوبيخ والتفظيع لعمله.

)إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون[2](تفيد هذه الجملة معنى التعليل لمفاد قوله تعالى)فقد ضل سواء السبيل(باعتبار بعض ما أفادته الجملة، وهو الضلال عن الرشد، فإنه قد يخفى ويظن أن في تطلب مودة العدو فائدة، كما هو حال المنافقين المحكي في قوله تعالى)الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين(، فقد يظن أن موالاتهم من الدهاء والحزم رجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة، فبين الله لهم خطأ هذا الظن، وأنهم إن استفادوا من مودتهم إياهم إطلاعا على قوتهم فتأهبوا لهم وظفروا بهم لم يكونوا ليرقبوا فيهم إلا ولا ذمة، وأنهم لو أخذوهم وتمكنوا منهم لكانوا أعداء لهم لأن الذي أضمر العداوة زمنا يعسر أن ينقلب ودودا، وذلك لشدة الحنق على ما لقوا من المسلمين من إبطال دين الشرك وتحقير أهله وأصنامهم.

وفعل)يكونوا(مشعر بأن عداوتهم قديمة وأنها تستمر.

والبسط: مستعار للإكثار لما شاع من تشبيه الكثير بالواسع والطويل، وتشبيه ضده وهو القبض بضد ذلك، فبسط اليد الإكثار من عملها.

والمراد به هنا: عمل اليد الذي يضر مثل الضرب والتقييد والطعن، وعمل اللسان الذي يؤذي مثل الشتم والتهكم, ودل على ذلك قوله)بالسوء(، فهو متعلق ب)يبسطوا(الذي مفعوله)أيديهم وألسنتهم(.

وجملة)وودوا لو تكفرون(حال من ضمير)يكونوا(، والواو واو الحال، أي وهم قد ردوا من الآن أن تكفروا فكيف لو يأسرونكم أليس أهم شيء عندهم حينئذ أن يردوكم كفارا، فجملة الحال دليل على معطوف مقدر على جواب الشرط كأنه قيل: إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء إلى آخره، ويردوكم كفارا، وليست جملة)وودوا لو تكفرون(معطوفة على جملة الجواب، لأن محبتهم أن يكفر المسلمون محبة غير مقيدة بالشرط، ولذلك وقع فعل)ودوا(ماضيا

ولم يقع مضارعا مثل الأفعال الثلاثة قبله)يثقفوكم، ويكونوا لكم أعداء، ويبسطوا(ليعلم أنه ليس معطوفا على جواب الشرط.
وهذا الوجه أحسن مما في كتاب الإيضاح للقزويني في بحث تقييد المسند بالشرط، إذ استظهر أن يكون)وودوا لو تكفرون(عطفا على جملة)إن يثقفوكم(.
ونظره بجملة)ثم لا ينصرون(من قوله تعالى)وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون(في آل عمران. فإن المعطوف ب)ثم(فيها عطف على مجموع الشرط وفعله وجوابه لا على جملة فعل الشرط.
و)لو(هنا مصدرية ففعل)تكفرون(مؤول بمصدر، أي ودوا كفركم.
)لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير[3](تخلص من تبيين سوء عاقبة موالاة أعداء الدين في الحياة الدنيا، إلى بيان سوء عاقبة تلك الموالاة في الآخرة، ومناسبة حسن التخلص قوله)وودوا لو تكفرون(الدال على معنى: أن ودادتهم كفركم من قبل أن يثقفوكم تنقلب إلى أن يكرهوكم على الكفر حين يثقفوكم، فلا تنفعكم ذوو أرحامكم مثل الأمهات والإخوة الأشقاء، وللأم، ولا أولادكم، ولا تدفع عنكم عذاب الآخرة إن كانوا قد نفعوكم في الدنيا بصلة ذوي الأرحام ونصرة الأولاد.

صفحة : 4384

فجملة)لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم(إلى آخرها مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن سؤال مفروض ممن يسمع جملة)وودوا لو تكفرون(، أي من حق ذلك أن يسأل عن آثاره لخطر أمرها.
وإذا كان ناشئا عن كلام جرى مجرى التعليل لجملة)فقد ضل سواء السبيل(، فهو أيضا مفيد تعليلا ثانيا بحسب المعنى، ولولا إرادة الاستئناف البياني لجاءت هذه الجملة معطوفة بالواو على التي قبلها، وزاد ذلك حسنا أن ما صدر من حاطب ابن أبي بلعتة مما عد عليه هو موالاة للعدو، وأنه اعتذر بأنه أراد أن يتخذ عند المشركين يدا يحمون بها قرابته أي أمه وإخوته . ولذلك ابتدئ في نفي النفع بذكر الأرحام لموافقة قصة حاطب لأن الأم ذات رحم والإخوة أبناؤها هم إخوته من رحمه.
وأما عطف)ولا أولادكم(فتتميم لشمول النهي قوما لهم أبناء في مكة.
والمراد بالأرحام: ذوو الأرحام على حذف مضاف لظهور القرينة.

و)يوم القيامة(ظرف يتنازعه كل من فعل)لن تنفعكم(، وفعل) يفصل بينكم(. إذ لا يلزم تقدم العاملين على المعمول المتنازع فيه إذا كان ظرفا لأن الظروف تتقدم على عواملها وأن أبيت هذا التنازع فقل هو ظرف)تنفعكم(واجعل ل)يفصل بينكم(ظرفا محذوفا دل عليه المذكور.

والفصل هنا: التفريق، وليس المراد به القضاء. والمعنى: يوم القيامة يفرق بينكم وبين ذوي أرحامكم وأولادكم فريق في الجنة وفريق في السعير، قال تعالى)يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه(.

والمعنى: أنهم لا ينفعونكم يوم القيامة فما لكم ترفضون حق الله مراعاة لهم وهم يفرون منكم يوم اشتداد الهول، خطأ رأيهم في موالاة المفار أولا بما يرجع إلى حال من والوه. ثم خطاه ثانيا بما يرجع إلى حال من استعملوا الموالاة لأجلهم، وهو تقسيم حاصر إشارة إلى أن ما أقدم عليه حاطب من أي جهة نظر إليه يكون خطأ وباطلا.

وقرأ الجمهور)يفصل بينكم(ببناء)يفصل(للمجهول مخففا. وقرأه عاصم ويعقوب)يفصل(بالبناء الفاعل، وفاعله ضمير عائد إلى الله لعلمه من المقام، وقرأه حمزة والكسائي وخلف)يفصل(مشدد الصاد مكسورة مبنيا للفاعل مبالغة في الفصل، والفاعل ضمير يعود إلى الله المعلوم من المقام.

وقرأه ابن عامر)يفصل(بضم التحتية وتشديد الصاد مفتوحة مبنيا للنائب من فصل المشدد.

وجملة)والله بما تعملون بصير(وعيد ووعد.

)قد كانت لكم إسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده(صدر هذه الآية يفيد تأكيدا لمضمون جملة)إن يثقفوكم(وجملة)لن تنفعكم أرحامكم(، لأنها بما تضمنته من أن الموجه إليهم التوبيخ خالفوا الأسوة الحسنة تقوي إثبات الخطأ المستوجب للتوبيخ.

ذلك أنه بعد الفراغ من بيان خطأ من يوالي عدو الله بما يجر إلى أصحابه من مضار في الدنيا وفر الآخرة تحذيرا لهم من ذلك، انتقل إلى تمثيل الحالة الصالحة بمثال من فعل أهل الإيمان الصادق والاستقامة القويمة وناهيك بها أسوة.

وافتتاح الكلام بكلمتي)قد كانت(لتأكيد الخبر، فإن قد مع فعل الكون يراد بهما التعريض بالإنكار على المخاطب ولومه في الإعراض عن العمل بما تضمنه الخبر كقول عمر لابن عباس يوم طعنه غلام المغيرة: قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر هؤلاء الأعلاج بالمدينة

، ومن قوله تعالى)لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك(توبيخا على ما كان منهم في الدنيا من إنكار للبعث، وقوله تعالى)وقد كانوا يدعون إلى السجود وهو سالمون(وقوله)لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر(.
ويتعلق)لكم(بفعل)كان(، أو هو ظرف مستقر وقع موقع الحال من)إسوة حسنة(.
وإبراهيم عليه السلام مثل في اليقين بالله والغضب له، عرف ذلك العرب واليهود والنصارى من الأمم، وشاع بين الأمم المجاورة من الكنعانيين والأراميين، ولعله بلغ إلى الهند. وقد قيل: إن اسم برهما معبود البراهة من الهنود محرف عن اسم إبراهيم وهو احتمال.

صفحة : 4385

وعطف)والذين معه(ليتم التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم صلى الله عليه وسلم بحال إبراهيم عليه السلام والذين معه، أي أن يكون المسلمون تابعين لرضى رسولهم صلى الله عليه وسلم كما كان الذين مع إبراهيم عليه السلام.
والمراد ب)الذين معه(الذين آمنوا به واتبعوا هديه وهم زوجه سارة وابن أخيه لوط ولم يكن لإبراهيم أبناء، فضمير)إذ قالوا(عائد إلى إبراهيم والذين معه فهم ثلاثة.
و)إذ(ظرف زمان بمعنى حين، أي الأسوة فيه وفيهم في ذلك الزمن.
والمراد بالزمن: الأحوال الكائنة فيه، وهو ما تبينه الجملة المضاف إليها الظرف وهي جملة)قالوا لقومهم إنا برءآء منكم(الخ.
والإسوة بكسر الهمزة وضمها: القدوة التي يقتدى بها في فعل ما. فوصفت في الآية ب)حسنة(وصفا للمدح لأن كونها حسنة قد علم من سياق ما قبله وما بعده.
وقرأ الجمهور)إسوة(بكسر الهمزة، وقرأه عاصم بضمها. وتقدمت في قوله تعالى)لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة(في سورة الأحزاب.
وحرف)في(مستعار لقوة الملابسة إذ جعل تلبس إبراهيم والذين معه بكونهم أسوة حسنة، بمنزلة تلبس الظرف بالمظروف في شدة التمكن من الوصف. ولذلك كان المعنى: قد كان لكم إبراهيم والذين معه أسوة في حين قولهم لقومهم. فليس قوله)إسوة حسنة في إبراهيم(من قبيل التجريد مثل قول أبي خالد العتابي. وفي الرحمان للضعفاء كاف.

لأن الأسوة هنا هي قول إبراهيم والذين معه لا أنفسهم.
و)برءاء(بهمزتين بوزن فعلاء جمع بريء مثل كريم وكرماء.
وبريء فعيل بمعنى فاعل من بريء إذا خلا منه سواء بعد ملابسته أو بدون ملابسة.
والمراد هنا التبرؤ من مخاطبتهم وملابستهم..وعطف عليه)وما تعبدون من الأصنام التي تعبدونها من دون الله والمراد برآء من عبادتها.
وجملة)كفرنا بكم(وما عطف عليها بيان لمعنى جملة)إنا برآء(.
وضمير)بكم(عائد إلى مجموع الخاطبين من قومهم مع ما يعبدونه من دون الله، ويفسر الكفر بما يناسب المعطوف، أي كفرنا بجميعكم فكفرهم بالقوم غير بما يعبده قومهم.
وعطف عليه)وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا(ويا معناه: ظهر ونشأ، أي أحثنا معكم العداوة ظاهرة لا مواربة فيها، أي ليست عداوة في القلب خاصة بل هي عداوة واضحة علانية بالقول والقلب. وهو اقصى ما يستطيعه أمثالهم من درجات تغيير المنكر وهو التغيير باللسان إذ ليسوا بمستطيعين تغيير ما عليه قومهم باليد لقلتهم وضعفهم بين قومهم.
والعداوة المعاملة بالسوء والاعتداء.
و)البغضاء(: نفرة النفس، والكراهية وقد تطلق إحداهما في موضع الأخرى إذا افترقنا، فذكرهما معا هنا مقصود به حصول الحالتين في أنفسهم: حالة المعاملة بالعدوان، وحالة النفرة والكراهية، أي نسيء معاملتكم ونضمر لكم الكراهية حتى يؤمنوا بالله وحده دون إشراك.
والمراد بقولهم هذا لقومهم أنهم قالوه مقال الصادق في قوله، فالائتساء بهم في ذلك القول والعمل بما يترجم عليه القول مما في النفوس، فالمؤتسى به أنهم كاشفوا قومهم بالمنافرة، وصرحوا لهم بالبغضاء لأجل كفرهم بالله ولم يصانعوهم ويغضوا عن كفرهم لاكتساب مودتهم كما فعل الموبخ بهذه الآية.
)إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء(الأظهر أن هذه الجملة معترضة بين جمل حكاية مقال إبراهيم والذين معه وجملة)لقد كان لكم فيهم إسوة حسنة(، والاستثناء منقطع إذ ليس هذا القول من جنس قولهم)إنا برآء منكم(الخ، فإن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك رفق بأبيه وهو يغاير التبرؤ منه، فكان الاستثناء في معنى الاستدراك عن قوله)إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم(الشامل لمقالة إبراهيم معهم لاختلاف جنسي القولين.

قال في الكشاف في قوله تعالى)قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط(في سورة الشعراء. أنه استثناء منقطع من) قوم(لأن القوم موصوفون بالإجرام فاختلف لذلك الجنسان اه. فجعل اختلاف جنسي المستثنى والمستثنى منه موجبا اعتبار الاستثناء منقطعا. وفائدة الاستدراك هنا التعريض بخطإ حاطب ابن أبي بلتعة، أي إن كنتم معتذرين فليكم عذركم في مواصلة أعداء الله بأن تودوا لهم مغفرة كفرهم باستدعاء سبب المغفرة وهو أن يهديهم الله إلى الدين الحق كما قال إبراهيم لأبيه)لاستغفرن لك(، ولا يكون ذلك بمصانعة لا يفهمون منها أنهم منكم بمحل المودة والعناية فيزدادوا تعنتا في كفرهم.

وحكاية قول إبراهيم لأبيه)وما أملك لك من الله من شيء(إكمال لجملة ما قاله إبراهيم لأبيه وإن كان المقصود من الاستثناء مجرد وعده بالاستغفار له فبني عليه ما هو من بقية كلامه لما فيه من الدلالة على أن الاستغفار له قد لا يقبله الله.

والوا في)وما أملك لك من الله من شيء(يجوز أن يكون للحال أو للعطف. والمعنى متقارب، ومعنى الحال أوضح وهو تذييل.

ومعنى الملك في قوله)وما أملك(القدرة، وتقدم في قوله تعالى)قل فمن يملك من الله شيئا(في سورة العقود.

و)من شيء(عام للمغفرة المسؤولة وغيرها مما يريده الله به.

)ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير[4](الأظهر أن يكون هذا من كلام إبراهيم وقومه وجملة)إلا قول إبراهيم(إلى آخرها معترضة بين أجزاء القول فهو مما أمر المسلمون أن يأتسوا به، وبه يكون الكلام شديد الاتصال مع قوله)لقد كان لكم فيهم إسوة حسنة(.

ويحتمل أن يكون تعليما للمؤمنين أن يقولوا هذا الكلام ويستحضروا معانيه ليجري عملهم بمقتضاه فهو على تقدير أمر بقول محذوف والمقصود من القول العمل بالقول فإن الكلام يجدد المعنى في نفس المتكلم به ويذكر السامع من غفلته. وهذا تتميم لما أوصاهم به من مقاطعة الكفار بعد التحريض على الائتساء بإبراهيم ومن معه.

فعلى المعنى الأول يكون حكاية لما قاله إبراهيم وقومه بما يفيد حاصل معانيه فقد يكون هو معنى ما حكاه الله عن إبراهيم من قوله)الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين(.

فإن التوكل على الله في أمور الحياة بسؤاله النجاح في ما يصلح أعمال العبد في مساعيه وأعظمه النجاح في دينه وما فيه قوام عيشه ثم ما فيه دفع الضر. وقد جمعها قول إبراهيم هناك)فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين(. وهذا جمعه قوله هنا)عليك توكلنا( )والذي يميتني ثم يحيين(جمعه قوله) وإليك المصير(فإن المصير مصيران مصير بعد الحياة ومصير بعد البعث.

وقوله)والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي(فإن وسيلة الطمع هو التوبة وقد تضمنه قوله)وإليك أنبنا(.

وعلى المعنى الثاني هو تعليم للمؤمنين أن يصرفوا توجههم إلى الله بإرضائه ولا يلتفتوا إلى ما لا يرضاه وإن حسبوا أنهم ينتفعون به فإن رضى الله مقدم على ما دونه.

والقول في معنى التوكل تقدم عند قوله تعالى)فإذا عزمت فتوكل على الله(في سورة آل عمران.

والإنابة: التوبة، وتقدمت عند قوله تعالى)إن إبراهيم لحليم أواه منيب(في سورة هود، وعند قوله)منيبين إليه(في سورة الروم.

وتقديم المجرور على هذه الأفعال لإفادة القصر، وهو قصر بعضه ادعائي وبعضه حقيقي كما تصرف إليه القرينة.

وإعادة النداء بقولهم)ربنا(إظهار للتضرع مع كل دعوة من الدعوات الثلاث.

)ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا(الفتنة: اضطراب الحال وفساده، وهو اسم مصدر فتجيء بمعنى المصدر كقوله تعالى)والفتنة أشد من القتل(، وتجيء وصفا للمفتون والفاتن.

ومعنى جعلهم فتنة للذين كفروا: جعلهم مفتونين يفتنهم الذين كفروا، فيصدق ذلك بأن يتسلط عليهم الذين كفروا فيفتنون كما قال تعالى)إن الذين فتنوا المؤمنين(الخ. ويصدق أيضا بأن تحتل أمور دينهم بسبب الذين كفروا، أي بمحبتهم والتقرب نتهم كقوله تعالى حكاية عن دعاء موسى)إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء(.

صفحة : 4387

وعلى الوجهين فالفتنة من إطلاق المصدر على اسم المفعول. وتقدم في قوله تعالى)ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين(في سورة يونس.

واللام في)للذين كفروا(على الوجهين للملك، أي مفتونين مسخرين لهم.
ويجوز عندي أن تكون)فتنة(مصدرا بمعنى اسم الفاعل، أي لا تجعلنا فاتنين، أي سبب فتنة للذين كفروا، فيكون كتابة عن معنى لا تغلب الذين كفروا علينا واصرف عنا ما يكون به اختلال أمرنا وسوء الأحوال كيلا يكون شيء من ذلك فاتنا الذين كفروا، أي مقويا فتنتهم فيفتتنوا في دينهم، أي يزدادوا كفرا وهو فتنة في الدين، أي فيظنوا أنا على الباطل وأنهم على الحق، وقد تطلق الفتنة على ما يفضي إلى غور في الدين كما في قوله تعالى)بل هي فتنة(في سورة الزمر وقوله)وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين(في سورة الأنبياء.
واللام على هذا الوجه لام التبليغ وهذه معان جمة أفادتها الآية.
)واغفر لنا ربنا(أعقبوا دعواتهم التي تعود إلى إصلاح دينهم في الحياة الدنيا بطلب ما يصلح أمورهم في الحياة الآخرة وما يوجب رضى الله عنهم في الدنيا فإن رضاه يفضي إلى عنايته بهم بتيسير أمورهم في الحياتين. وللإشعار بالمغايرة بين الدعوتين عطفت هذه الواو ولم تعطف التي قبلها.
)إنك أنت العزيز الحكيم[5](تعليل للدعوات كلها فإن التوكل والإنابة والمصير تناسب صفة)العزيز(إذ مثله يعامل نمثل ذلك، وطلب أن لا يجعلهم فتنة باختلاف معانيه يناسب صفة)الحكيم(، وكذلك طلب المغفرة لأنهم لما ابتهلوا إليه أن لا يجعلهم فتنة الكافرين وأن يغفر لهم رأوا أن حكمته تناسبها إجابة دعائهم لما فيه من صلاحهم وقد جاؤوا سائلينه.
)لقد كان لكم فيهم إسوة حسنة لمن يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله الغني الحميد[6](تكرير قوله آنفا)قد كانت لكم إسوة حسنة في إبراهيم(الخ، أعيد لتأكيد التحريض والحث على عدم إضاعة الائتساء بهم، وليبنى عليه قوله)لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر(الخ.
وقرن هذا التأكيد بلام القسم مبالغة في التأكيد. وإنما لم تتصل بفعل)كان(تاء تأنيث مع أن اسمها مؤنث اللفظ لأن تأنيث أسوة غير حقيقي، ولوقوع الفصل بين الفعل ومرفوعه بالجار والمجرور.
والإسوة هي التي تقدم ذكرها واختلاف القراء في همزتها في قوله)قد كانت لكم إسوة حسنة(.
وقوله)لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر(بدل من ضمير الخطاب في قوله)لكم(وهو شامل لجميع المخاطبين، لأن المخاطبين بضمير)لكم(المؤمنون في قوله تعالى)يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(فليس ذكر)لمن كان يرجوا الله واليوم

الآخر(تخصيصا لبعض المؤمنين ولكنه ذكر للتذكير بأن الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي تأسيهم بالمؤمنين السابقين وهم إبراهيم والذين معه.
وأعيد حرف الجر العامل في المبدل منه لتأكيد أن الإيمان يستلزم ذلك.
والقصد هو زيادة الحث على الائساء بإبراهيم ومن معه، وليترتب عليه قوله)ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد(، وهذا تحذير من العود لما نهو عنه.
ففعل)يتول(مضارع تولى، فيجوز أن يكون ماضيه بمعنى إعراض، أي من لا يرجو الله واليوم الآخر ويعرض عن نهي الله فإن الله غني عن امتثاله. ويجوز عندي أن يكون ماضيه من التولي بمعنى اتخاذ الولي، أي من يتخذ عدو الله أولياء فإن الله غني عن ولايته كما في قوله تعالى)ومن يتولهم منكم فإنه منهم(في سورة العقود.
وضمير الفصل في قوله)هو الغني(توكيد للحصر الذي أفاده تعريف الجزأين، وهو حصر ادعائي لعدم الاعتداد بغنى غيره ولا بحمده، أي هو الغني عن المتولين لأن النهي عما نهوا عنه إنما لفائدتهم لا يفيد الله شيئا فهو الغني عن كل شيء.
واتباع)الغني(بوصف)الحميد(تتميم، أي الحميد لمن يمتثل أمره ولا يعرض عنه أو الحميد لمن لا يتخذ عدوه وليا على نحو قوله تعالى)إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم(.
)عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم[7](

صفحة : 4388

اعتراض وهو استئناف متصل بما قبله من أول السورة خوطب به المؤمنون تسلية لهم على ما نهوا عنه من مواصلة أقربائهم، بأن يرجوا من الله أن يجعل قطيعتهم آيلة إلى مودة بأن يسلم المشركون من قرابة المؤمنين وقد حقق الله ذلك يوم فتح مكة بإسلام أبي سفيان والحارث ابن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام.
قال ابن عباس: كان من هذه المودة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان، تزوجها بعد وفاة زوجها عبد الله بن جحش بأرض الحبشة بعد أن تنصر زوجها فلما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم لانت عريكة أبي سفيان وصرح بفضل النبي

صلى الله عليه وسلم فقال: ذلك الفحل لا يقدع أنفه روي بدال بعد القاف يقال: قدع أنفه. إذا ضرب أنفه بالرمح وهذا تمثيل، وكانوا إذا نزا فحل غير كريم على ناقة كريمة دفعوه عنها بضرب أنفه بالرمح لئلا يكون نتاجها هجينا. وإذا تقدم أن هذه السورة نزلت عام فتح مكة وكان تزوج النبي صلى الله عليه وسلم أم حبيبة في مدة مهاجرتها بالحبشة وتلك قبل فتح مكة كما صرح به ابن عطية وغيره. يعني فتكون آية)عسى الله أن يجعل بينكم(الخ نزلت أول السورة ثم ألحقت بالسورة.

وإما أن يكون كلام ابن عباس على وجه المثال لحصول المودة بعد بعض المشركين، وحصول مثل تلك المودة يهئ صاحبه إلى الإسلام واستبعد ابن عطية صحة ما روي عن ابن عباس.

و)عسى(فعل مقاربة وهو مستعمل هنا في رجاء المسلمين ذلك من الله أو مستعملة في الوعد مجردة عن الرجاء. قال في الكشاف: كما يقول الملك في بعض الحوائج عسى أو لعل فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك.

وضمير)منهم(عائد إلى العدو من قوله)لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(وجملة)والله قدير(تذييل. والمعنى: أنه شديد القدرة على أن يغير الأحوال فيصير المشركون مؤمنين صادقين وتصيرون أوداء لهم.

وعطف على التذييل جملة)والله غفور رحيم(، أي يغفر لمن أنابوا إليه ويرحمهم فلا عجب أن يصيروا أوداء لكم كما تصيرون أوداء لهم.

)لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين[8]

(استئناف هو منطوق لمفهوم الأوصاف التي وصف بها العدو في قوله تعالى)وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم(وقوله)إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء(، المسوقة مساق التعليل للنهي عن اتخاذ عدو الله أولياء، استثنى الله أقواما من المشركين غير مضمرين العداوة للمسلمين وكان دينهم شديد المنافرة مع دين الإسلام.

فإن نظرنا إلى وصف العدو من قوله)لا تتخذوا عدوي وعدوكم(وحملناه على حالة معاداة من خالفهم في الدين ونظرنا مع ذلك إلى وصف)يخرجون الرسول وإياكم(، كان مضمون قوله)لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين(إلى آخره، بيانا لمعنى العداوة المجعولة علة للنهي عن الموالاة وكان المعنى أن مناط النهي هو مجموع الصفات المذكورة لكل صفة على حيالها.

وإن نظرنا إلى أن وصف العدو هو عدو الدين، أي مخالفة في نفسه مع ضمينة وصف)وقد كفروا بما جاءكم من الحق(، كان

مضمون)لا ينهاكم الله(إلى آخره تخصيصا للنهي بخصوص أعداء الدين الذين لم يقاتلوا المسلمين لأجل الدين ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم.

صفحة : 4389

وأياما كان فهذه الجملة قد أخرجت من حكم النهي القوم الذين لم يقاتلوا في الدين ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم. واتصال هذه الآية بالآيات التي قبلها يجعل الاعتبارين سواء فدخل في حكم الآية أصناف وهم حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم مثل خزاعة، وبني الحارث بن كعب عبد مناة بن كنامة، ومزينة كان هؤلاء كلهم مظاهرين النبي صلى الله عليه وسلم ويحبون ظهوره على قريش، ومثل النساء والصبيان من المشركين، وقد جاءت قتيلة بالتصغير ويقال لها: قتلة، مكبرا بنت عبد العزي من بني عامر بن لؤي من قريش وهي أم أسماء بنت أبي بكر الصديق إلى المدينة زائرة ابنتها وقتيلة يومئذ مشركة في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كفار قريش بعد صلح الحديبية وهي المدة التي نزلت فيها هذه السورة فسألت أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتصل أمها؟ قال: نعم صلي أمك، وقد قيل: إن هذه الآية نزلت في شأنها.

وقوله)أن تبروهم(بدل اشتمال من)الذين لم يقاتلوكم في الدين(الخ، لأن وجود ضمير الموصول في المبدل وهو الضمير المنصوب في)أن تبروهم(يجعل بر المسلمين بهم مما تشتمل عليه أحوالهم. فدخل في الذين لم يقاتلوكم المسلمين في الدين نفر من بني هاشم منهم العباس بن عبد المطلب، والذين شملتهم أحكام هذه الآية كلهم قد قيل إنهم سبب نزولها وإنما هو شمول وما هو بسبب نزول.

ولبر: حسن المعاملة والإكرام. وهو يتعدى بحرف الجر، يقال: بر به، فتعديته هنا بنفسه على نزع الخافض.

والقسط: العدل. وضمن تقسطوا معنى تفضلوا فعدي ب)إلى(وكان حقه أن يعدى باللام. على أن اللام و)إلى(يتعاقبان كثيرا في الكلام، أي أن تعاملوهم بمثل ما يعاملونكم به من التقرب، فإن أحد يمثل ما عامل به من العدل.

وجملة و)إن الله يحب المقسطين(تذييل، أي يحب كل مقسط فيدخل الذين يقسطون للذين حالفوهم في الدين إذا كانوا مع المخالفة محسنين معاملتهم.

وعن أبي وهب قال سألت ابن زيد عن قوله تعالى)لا ينهاكم الله(الآية قال: نسخها القتال، قال الطبري لا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ، لأن بر المؤمنين بمن بينه وبينه قرابة من أهل الحرب أو بمن لا قرابة بينه وبينه محرم إذا لم يكن في ذلك دلالة على عورة لأهل الإسلام. اه.

ويؤخذ من هذه الآية جواز معاملة أهل الذمة بلإحسان وجواز الاحتفاء بأعيانهم.

)إنما ينههيكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتتولهم فأولئك هم الظالمون[9](فذلك لما تقدم وحصر الآية المتقدمة. وهي تؤذن بانتهاء الغرض المسوق له الكلام من أوله.

والقصر المستفاد من جملة)إنما ينهاكم الله(إلى آخرها قصر قلب لرد اعتقاد من ظن أو شك في جواز صلة المشركين على الإطلاق. والذين تحققت فيهم هذه الصفات يوم نزول الآية هم مشركوا أهل مكة، و)أن تولوهم(بدل اشتمال من)الذين قاتلوكم(.

)ومن يتولهم(شرط وجيء في جواب الشرط باسم الإشارة لتمييز المشار إليهم زيادة في إيضاح الحكم.

والمظاهرة: المعاونة. وذلك لأن أهل مكة فريقان منهم من يأتي بالأسباب التي لا يحتمل المسلمون معها البقاء بمكة، ومنهم من بعين على ذلك ويغري عليه.

والقصر المستفاد من قوله)فأولئك هم الظالمون(قصر ادعائي، أي أن ظلمهم لشده ووقوعه بعد النهي الشديد والتنبيه على الأخطاء والعصيان ظلوا لا يغفر لأنه اعتداء على حقوق الله وحقوق المسلمين وعلى حق الظالم نفسه.

)يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن(لا خلاف في أن هذه الآيات آخر السورة نزلت عقب صلح الحديبية وقد علمن أنا رجحنا أن أول السورة نزلت قبل هذه وأن كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين كان عند تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم للحديبية.

صفحة : 4390

ومناسبة ورود هذه الآية بعد ما قبلها، أي النهي عن موالاة المشركين يتطرق إلى ما بين المسلمين والمشركين من عقود

النكاح والمصاهرة فقد يكون المسلم زوجا لمشركة وتكون المسلمة زوجا لمشرك فتحدث في ذلك حوادث لا يستغني المسلمون عن معرفة حكم الشريعة في مثلها.

وقد حدث عقب الصلح الذي انعقد بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين في الحديبية سنة ست مجيء أبي جندل بن عمرو يوسف في الحديد وكان مسلما موثقا في القيود عند أبيه بمكة فانفلت وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الحديبية وكان من شروط الصلح أن من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه فرده النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هاربة من زوجها عمرو بن العاص، وجاءت سبيعة الأسلمية مهاجرة هاربة من زوجها صيفي بن الراهب أو مسافر المخزومي، وجاءت أميمة بنت بشر هاربة من زوجها ثابت بن الشمراخ وقيل: حسان بن الدحداح. وطلبهن أزواجهن فجاء بعضهم إلى المدينة جاء زوج سبيعة الأسلمية يطلب ردها إليه وقال: إن طينة الكتاب الذي بيننا وبينك لم تجف بعد، فنزلت هذه الآية فأبى النبي صلى الله عليه وسلم أن يردها إليه ولم يرد واحدة إليهم وبقيت بالمدينة فتزوج أم كلثوم بنت عقبة زيد بن حارثة. وتزوج سبيعة سهل بن حنيف وتزوج أميمة سهل بن حنيف.

وجاءت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم مسلمة ولحق بها زوجها أبو العص بن الربيع بن عبد العزي بعد سنين مشركا ثم اسلم في المدينة فردها النبي صلى الله عليه وسلم إليه.

وقد اختلف: هل كان النهي في شأن المؤمنات المهاجرات أن يرجعوهن إلى الكفار نسخا لما تضمنته شرط الصلح الذي بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين أو كان الصلح غير مصرح بإرجاع النساء لأن الصيغة صيغة جمع المذكر فاعتبر مجملا وكان النهي الذي في هذه الآية بيانا لذلك المجمل. وقد قيل: إن الصلح صرح فيه بأن من جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم من غير إذن وله من رجل أو امرأة يرد إلى وليه. فإذا صح ذلك كان صريحا وكانت الآية ناسخة لما فعله النبي صلى الله عليه وسلم.

والذي في سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام خلي من هذا التصريح ولذلك كان لفظ الصلح محتملا لإرادة الرجال لأن الضمائر التي اشتمل عليها ضمائرتذكير.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للذين سألوه إرجاع النساء المؤمنات وطلبوا تنفيذ شروط الصلح: إنما الشرط في الرجال لا في النساء فكانت هذه الآية تشريعا للمسلمين فيما

يفعلونه إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات وإيذانا للمشركين بأن شرطهم غير نص وشأن شروط الصلح الصراحة لعظم أمر المصالحات والحقوق المترتبة عليها، وقد أذهل الله المشركين عن الاحتياط في شرطهم ليكون ذلك رحمة بالنساء المهاجرات إذ جعل لهن مخرجا وتأييدا لرسوله صلى الله عليه وسلم كما في الآية التي بعدها لقصد أن يشترك من يمكنه الاطلاع من المؤمنين على صدق إيمان المؤمنات المهاجرات تعاونا على إظهار الحق، ولأن ما فيها من التكليف يرجع كثير منه إلى أحوال المؤمنين مع نسائهم.

والامتحان: الأخبار. والمراد اختبار إيمانهن.

وجملة)الله أعلم بإيمانهن(معترضة، أي أن الله يعلم سرائرهن ولكن عليكم أن تختبروا ذلك بما تستطيعون من الدلائل.

ولذلك فرع ما قبل الاعتراض قوله)فإن علمتموهن مؤمنات(الخ، أي إن حصل لكم العلم بأنهن مؤمنات غير كاذبات في دعواهن.

وهذا الالتحاق هو الذي سمي المبايعة في قوله في الآية الآتية)يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله(الآية.

صفحة : 4391

وفي صحيح البخاري عن عائشة أن رسول الله كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية يقول الله)يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك(إلى قوله)غفور رحيم(وزاد ابن عباس فقال: كانت الممتحنة أن تستحلف أنها ما خرجت بغضا لزوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل منا، ولا بجريرة جرتها بل حبا لله ولرسوله والدار الآخرة، فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك أعطى النبي صلى الله عليه وسلم زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر عمر بن الخطاب بتولي تحليفهن فإذا تبين إيمان المرأة لم يردها النبي صلى الله عليه وسلم إلى دار الكفر كما هو صريح الآية.)فلا ترجعوهن إلى الكفار ولا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن(.

وموقع قوله)لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن(موقع البيان والتفصيل للنهي في قوله)فلا ترجعوهن إلى الكفار(تحقيقا لوجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر.

وإذا قد كان المخاطب بذلك النهي جميع المؤمنين كما هو مقتضى قوله)يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات(إلى آخره، تعين أن يقوم بتنفيذ من إليه تنفيذ أمور المسلمين العامة في كل مكان

وكل زمان وهم ولاة الأمور من أمراء وقضاة إذ لا يمكن أن يقوم المسلمون بما خوطبوا به مثل هذه الأمور العامة إلا على هذا الوجه ولكن على كل فرد من المسلمين التزام العمل به في خاصة نفسه والتزام الامتثال لما يقرره ولاة الأمور.

وإذا كان محمل لفظ الحل وما تصرف منه كلام الشارع منصرفا إلى معنى الإباحة الشرعية وهي الجواز وضد التحريم.

ومن الواضح أن الكفار لا تتوجه إليهم خطابات التكليف بأمور الإسلام إذ هم خارجون عنه فمطالبتهم بالتكاليف الإسلامية لا يتعلق به قصد الشريعة، ولذلك تعد المسألة الملقبة في علم الأصول بمسألة: خطاب الكفار بالفروع، مسألة لا طائل تحتها ولا ينبغي الاشتغال بها بله التفريع عليها.

وإذ قد علق حكم نفي حل المرأة الذي هو معنى حرمة دوام عصمتها على ضمير الكفار في قوله تعالى)ولا هن حل لهم(. ولم يكن الكفار صالحين للتكليف بهذا التحريم فقد تعين تأويل هذا التحريم بالنسبة إلى كونه على الكافرين، وذلك بإرجاع وصف الحل المنفي إلى النساء في كلتا الجملتين وإبداء وجه الإتيان بالجملتين ووجه التعاكس في ترتيب أجزائهما. وذلك أن نقول: إن رجوع المرأة المؤمنة إلى الكافر يقع على صورتين: إحداهما: أن ترجع المرأة المؤمنة إلى زوجها في بلاد الكفر، وذلك ما ألح الكفار في طلبه لما جاءت بعض المؤمنات مهاجرات.

والثانية: أن ترجع إلى زوجها في بلاد الإسلام بأن يخلي بينها وبين زوجها الكافر يقيم معها في بلاد الإسلام إذا جاء يطلبها ومنع من تسلمها. وكلتا الصورتين غير حلال للمرأة المسلمة فلا يجيزها ولاة الأمور، وقد عبر عن الصورة الأولى بجملة)لا هن حل لهم(إذ جعل فيها وصف حل خبرا عن ضمير النساء وأدخلت اللام على ضمير الرجال، وهي لام تعدية الحل وأصلها لام الملك فأفاد أن لا يملك الرجال الكفار عصمة أزواجهم المؤمنات وذلك يستلزم أن بقاء النساء المؤمنات في عصمة أزواجهن الكافرين غير حلال، أي لم يحللهن الإسلام لهم.

وقدم)لا هن حل لهم(لأنه راجع إلى الصورة الأكثر أهمية عند المشركين إذ كانوا يسألون إرجاع النساء إليهم ويرسلون الوسائط في ذلك بقصد الرد عليهم بهذا.

وجيء في الجملة الأولى بالصفة المشبهة وهي)حل(المفيدة لثبوت الوصف إذ كان الرجال الكافرون يظنون أن العصمة التي لهم على أواجهم المؤمنات مثبتة أنهن حل لهم.

وعبر عن الثانية بجملة)ولا هم يحلون لهن(فعكس الإخبار بالحل إذ جعل خبرا عن ضمير الرجال، وعدي الفعل إلى المحلل باللام

داخلة على ضمير النساء فأفاد أنهن لا يحل لهن أواجهن الكافرون ولو بقى الزوج في بلاد الإسلام.
ولهذا ذكرت الجملة الثانية)ولا يحلون لهن(كالتتمة لحكم الجملة الأولى، وجيء في الجملة الثانية بالمسند فعلا مضارعا لدلالته على التجدد لإفادة نفي الطماعية في التحليل ولو بتجدده في الحال بعقد جديد أو اتفاق جديد على البقاء في دار الإسلام خلافا لأبي حنيفة إذ قال: إن موجب الفرقة هو اختلاف الدارين لا اختلاف الدين.

صفحة : 4392

ويجوز في الآية وجه آخر وهو أن يكون المراد تأكيد نفي الحال فبعد أن قال:)لا هن حل لهم(وهو الأصل كما علمت آنفا أكد بجملة)ولا هم يحلون لهن(أي أن انتفاء الحل حاصل من كل جهة كما بقال: لست منك ولست مني.
ونظيره قوله تعالى)هن لباس لكم وأنتم لباس لهن(في سورة البقرة تأكيدا لشدة التلبس والاتصال من كل جهة.
وفي الكلام محسن العكس من المحسنات البديعية مع تغيير يسير بين)حل(و)يحلون(اقتضاه المقام، وإنما يوفر حظ التحسين بمقدار ما يسمح له به مقتضى حال البلاغة.
)وآتوهم ما أنفقوا(المراد ب)ما أنفقوا(ما أعطوه من المهور، والعدول عن إطلاق اسم المهور والأجور على ما دفعه المشركون لنسائهم اللاء من لطائف القرآن لأن أولئك النساء أصبحن غير زوجات.
فألغي إطلاق اسم المهور على ما يدفع لهم.
وقد سمى الله بعد ذلك ما يعطيه المسلمون لهن أجورا بقوله تعالى)ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن(.
والمكلف بإرجاع مهور الأزواج المشركين إليهم هم ولاة أمور المسلمين مما بين أيديهم من أموال المسلمين العامة.
)ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن(وإنما قال تعالى)ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن(للتنبيه على خصوص قوله)إذا آتيتموهن أجورهن(لئلا يظن أن ما دفع للزوج السابق مسقط استحقاق المرأة المهر ممن يروم تزويجها ومعلوم أن نكاحها بعد استبرائها بثلاثة أقراء.
)ولا تمسكوا بعصم الكوافر(نهى الله المسلمين عن إبقاء النساء الكوافر في عصمتهم وهن النساء اللاء لم يخرجن مع أزواجهن لكفرهن فلما نزلت هذه الآية طلق المسلمون من كان لهم من

أزواج بمكة، فطلق عمر امرأتين له بقيتا بمكة مشركتين، وهما: قريبة بنت أبي أمية، وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية.
والمراد بالكوافر: المشركات. وهن موضوع هذه التشريعات لأنها في حالة واقعة فلا تشمل الآية النهي عن بقاء المرأة المسلمة في عصمة زوج مشرك وإنما يؤخذ حكم ذلك بالقياس.
قال ابن عطية: رأيت لأبي علي الفارسي إنه قال: سمعت الفقيه أبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى)ولا تمسكوا بعصم الكوافر أنه في الرجال والنسوان ، فقلت له: النحويون لا يرونه إلا في النساء لأن كوافر جمع كافرة، فقال: وآيش يمنع من هذا، أليس الناس يقولون: طائفة كافرة، وفرقة كافرة، فبت وقلت: هذا تأييد اه. وجواب أبي الحسن الكرخي غير مستقيم لأنه يمنع منه ضمير الذكور في قوله)ولا تمسكوا(فهم الرجال المؤمنون والكوافر نساؤهم. ومن العجيب قول أبي علي: فبهت وقلت... الخ. وقرأ الجمهور)ولا تمسكوا(بضم التاء وسكون الميم وكسر السين مخففة. وقرأ أبو عمرو بضم التاء وفتح الميم وتشديد السين مكسورة مضارع مسك بمعنى أمسك.
)وسئلوا ما أنفقتم وليسئلوا ما أنفقوا(عطف على قوله)وآتوهم ما أنفقوا(وهو تتميم لحكمه، أي كما تعطونهم مهور أزواجهم اللاء فررن منهم مسلمات، فكذلك إذا فرت إليهم امرأة مسلم كافرة ولا قدرة لكم على إرجاعها إليكم تسألون المشركين إرجاع مهرها إلى زوجها المسلم الذي فرت منه وهذا إنصاف بين الفريقين، والأمر للإباحة.

صفحة : 4393

وقوله)وليسألوا ما أنفقوا(تكملة لقوله)واسألوا ما أنفقتم(لإفادة أن معنى واو العطف هنا على المعية بالقرينة لأن قوله)وليسألوا ما أنفقوا(لو أريد حكنة بمفرده لكان مغنيا عند قوله)وآتوهم ما أنفقوا(، فلما ككر عقب قوله)وسئلوا ما أنفقتم(علمنا أن المراد جمع مضمون الجملتين، أي إذا أعطوا ما عليهم أعطوهم ما عليكم وإلا فلا. فالواو مفيدة معنى المعية هنا بالقرينة. وينبغي أن يحمل عليه ما قاله بعض الحنفية من أن معنى واو العطف المعية. قال إمام الحرمين في البرهان في معاني الواو: اشتهر من مذهب الشافعي أنها للترتيب وعند بعض الحنفية أنها للمعية. وقد زل الفريقان اه. وقد أشار إليه في مغني اللبيب ولم يرده. وقال المازري في شرح البرهان: وأما قولهم: لا تأكل السمك وتشرب

اللبن ، فإن المراد النهي عن تناول السمك وتناول اللبن فيكون الإعراب مختلفا فإذا قال: وتشرب اللبن بفتح الباء كان نهيا عن الجمع ويكون الانتصاب بمعنى تقدير حرف أن اه. وهو يرمي إلى أن هذا المحمل يحتاج إلى قرينة.

فأفاد قوله)ولسألوا ما أنفقوا(أنهم إن أبوا من دفع مهور نساء المسلمين يفرون إليهم كان ذلك مخولا للمؤمنين أن لا يعطوهم مهور من فروا من أزواجهم إلى المسلمين، كما يقال في الفقه خيرته تنفي ضروه.

)ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم[10](أي هذا حكم الله، وهو عدل بين الفريقين إذ ليس لأحد أن يأخذ بأحد جانبيه ويترك الآخر. قال الزهري: لولا العهد لأمسك النساء ولم يرد إلى أزواجهم صداق. وجملة)يحكم بينكم(يجوز كونها حالا من اسم الجلالة أو حالا من)حكم الله(مع تقدير ضمير يربط الجملة بصاحب الحال تقديره: يحكمه بينكم، وأن تكون استئنافا.

وقوله)والله عليم حكيم(تذييل يشير إلى أن هذا حكم يقتضيه علم الله بحاجات عباده وتقتضيه حكمته إذ أعطى كل ذي حق حقه.

وقد كانت هذه الأحكام التي غي هذه الآيات من التراد في المهور شرعا في أحوال مخصوصة اقتضاها اختلاط الأمر بين أهل الشرك والمؤمنين وما كان من عهد المهادنة بين المسلمين والمشركين في أوائل أمر الإسلام خاصا بذلك الزمان بإجماع أهل العلم، قاله ابن العربي والقرطبي وأبو بكر الجصاص.

)وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون[11](عطف على جملة)واسألوا ما أنفقتم(فإنها لما ترتب على نزولها إباء المشركين من أن يردوا إلى أزواج النساء اللاء بقين على الكفر بمكة واللاء فررن من المدينة والتحقن بأهل الكفر بمكة مهورهم التي كانوا أعطوها نساءهم، عقبت بهذه الآية لتشريع رد تلك المهور من أموال المسلمين فيما بينهم.

روي أن المسلمين كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمنته هذه الآية من التراد بين الفريقين في قوله تعالى)واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا(.

فامتنع المشركون من دفع مهور النساء اللاتي ذهبت إليهم فنزل قوله تعالى)وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار(الآية.

وأصل الفوت: المفارقة والمباعدة، والتفاوت: المتباعد. والفوت هنا مستعار لضياع الحق كقول رويشد بن كثير الطائي أو عمرو بن معد يكرب:

إن تذنبوا ثم تأتيني بقيتكـم فما علي
بذنب منكم فوت أي فلا ضياع علي بما أذنتم، أي فإنا كمن لم يضع له حق.
والمعنى: إن فرت بعض أزواجكم ولحقت بالكفار وحصل التعاقب بينكم وبين الكفار فعقبتم على أزواج الكفار وعقب الكفار على أزواجكم وأبى الكفار من دفع مهور بعض النساء اللاء ذهبن إليهم، فادفعوا أنتم لمن حرمه الكفار مهر امرأته، أي ما هو حقه، واحتجزوا بذلك على الكفار. وهذا يقتضي أنه إن أعطي جميع المؤمنين مهور من فاتهم من نسائهم وبقي للمشركين فضل يرده المسلمون إلى الكفار. وهذا تفسير الزهري في رواية يونس عنه وهو أظهر ما فسرت به الآية.
وعن ابن عباس والجمهور: الذين فاتهم أزواجهم إلى الكفار يعطون مهور نسائهم من مغانم المسلمين. وهذا يقتضي أن تكون الآية منسوخة بآية سورة براءة)كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله(.

صفحة : 4394

والوجه أن لا يصار إلى الإعطاء من الغنائم إلا إذا لم يكن في ذمم المسلمين شيء من مهور نساء المشركين اللاء أتين إلى بلاد الإسلام وصرن أزواجا للمسلمين.
والكلام إيجاز حذف شديد دل عليه مجموع الألفاظ وموضع الكلام عقب قوله تعالى)وإن فاتكم شيء من أزواجكم(.
ولفظ)شيء(هنا مراد به: بعض)من أزواجكم(بيان ل)شيء(، وأريد ب)شيء(تحقير الزوجات اللاء أبين الإسلام، فإن المراد قد فاتت ذاتها عن زوجها فلا انتفاع له بها.
وضمن فعل)فاتكم(معنى الفرار فعدي بحرف إلى أي فررن إلى الكفار.
و)عاقبتم(صيغة تفاعل من العقبة بضم العين وسكون القاف وهي النوبة، أي مصير أحد إلى حال كان فيها غيره. وأصلها في ركوب الرواحل والدواب أن يركب أحد عقبة وآخر عقبة شبه ما حكم به على الفريقين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك في بعض الأحوال ومن أداء أولئك مهور نساء هؤلاء في أحوال أخرى مماثلة بمركوب يتعاقبون فيه.
ففعل)ذهبت(مجاز مثل فعل)فاتكم(في معنى عدم القدرة عليهن.

والخطاب في قوله)وإن فاتكم شيء من أزواجكم(وفي قوله) فآتوا(خطاب للمؤمنين والذين ذهبت أزواجهم هم أيضا من المؤمنين.
والمعنى: فليعط المؤمنون لإخوانهم الذين ذهبت أزواجهم ما يماثل ما كانوا أعطوه من المهور لزوجاتهم.
والذي يتولى الإعطاء هنا هو كما قررنا في قوله)وآتوهم ما أنفقوا(أي يدفع ذلك من أموال المسلمين كالغنائم والأخماس ونحوها كما بينته السنة، أعطى النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب، وعياض بن أبي شداد الفهري، وشماس بن عثمان، وهشام بن العاص، مهور نسائهم اللاحقات بالمشركين من الغنائم.
وأفاد لفظ)مثل(أن يكون المهر المعطى مساويا لما كان أعطاه زوج المرأة من قبل لا نقص فيه.
وأشارت الآية إلى نسوة من نساء المهاجرين لم يسلمن وهن ثمان نساء: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد، وفاطمة بنت أبي أمية ويقال: قريبة وهي أخت أم سلمة كانت تحت عمر بن الخطاب، وأم كلثوم بنت جرول كانت تحت عمر، وبروع بفتح الباء على الأصح والمحدثون يكسرونها(بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان وشبهة بنت غيلان. وعبدة بنت عبد العزى كانت تحت هشام بن العاص، وقيل تحت عمرو بن عبد. وهند بنت أبي جهل كانت تحت هشام بن العاص، وأروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كانت تحت طلحة بن عبيد الله، وكان قد هاجر وبقيت زوجه مشركة بمكة فلما نزلت الآية طلقها طلحة بن عبيد الله.
وقد تقدم أن عمر طلق زوجتيه قريبة وأمجرول، فلم تكونا ممن لحقن بالمشركين، وإنما بقيتا بمكة إلى أن طلقهما عمر. وأحسب أن جميعهن إنما طلقهن أزواجهن عند نزول قوله تعالى)ولا تمسكوا بعصم الكوافر(.
والتذييل بقوله)واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون(تحريض للمسلمين على الوفاء بما أمرهم الله وأن لا يصدهم عن الوفاء ببعضه معاملة المشركين لهم بالجور وقلة النصفة، فأمر بأن يؤدي المسلمون لإخوانهم مهور النساء اللاء فارقوهن ولم يرض المشركون بإعطائهم مهورهن ولذلك اتبع اسم الجلالة بوصف)الذي أنتم به مؤمنون(لأن الإيمان يبعث على التقوى والمشركون لما لم يؤمنوا بما أمر الله انتفى منهم وازع الإنصاف، أي فلا تكونوا مثلهم.
والجملة الاسمية في الصلة للدلالة على ثبات إيمانهم.
)يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم[12](

هذه تكملة لامتحان النساء المتقدم ذكره في قوله تعالى)يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن(الآية. وبيان لتفصيل آثاره. فكأنه يقول: فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار وبينوا لهن شرائع الإسلام. وآية الامتحان عقب صلح الحديبية في شأن من هاجرن من مكة إلى المدينة بعد الصلح وهن: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وسبيعة الأسلمية، وأميمة بنت بشر، وزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا صحة للأخبار التي تقول: إن الآية نزلت في فتح مكة ومنشؤها التخليط في الحوادث واشتباه المكرر بالأنف.

روى البخاري ومسلم عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر من المؤمنات بهذه الآية)يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك(إلى قوله)غفور رحيم(فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله: قد بايعتك.

والمقتضى لهذه البيعة بين الامتحان أنهن دخلن في الإسلام بعد أن استقرت أحكام الدين في مدة سنين لم يشهدن فيها ما شهده الرجال من اتساع التشريع آنا فآنا، ولهذا ابتدئت هذه البيعة بالنساء المهاجرات كما يؤذن به قوله)إذا جاءك المؤمنات(، أي قدمن عليك من مكة فهي على وزان قوله)يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات(. قال ابن عطية: كانت هذه البيعة ثاني يوم الفتح على جبل الصفا.

وأجرى النبي صلى الله عليه وسلم هذه البيعة على نساء الأنصار أيضا. روى البخاري عن أم عطية قالت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا)أن لا يشركن بالله شيئا(الحديث.

وفيه عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الخطبة فنزل نبي الله فكأني أنظر إليه حين يجلس الرجال بيده ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال)يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن(حتى فرغ من الآية كلها. ثم قال حين فرغ: أنتن على ذلك فقالت امرأة منهن واحدة لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله. قال: فتصدقن .

وأجرى هذه المبايعة على الرجال أيضا. ففي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرفوا، وقرأ آية النساء أي النازلة بخطاب النساء في سورة الممتحنة فمن

وفى منكم فأجره على الله. ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له. ومن أصاب منها شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شار عذبه وإن شاء غفر له .

واستمر العمل بهذه المبايعة إلى يوم فتح مكة وقد أسلم أهلها رجالا ونساء فجلس ثاني يوم الفتح على الصفا يأخذ البيعة من الرجال على ما في هذه الآية، وجلس عمر بن الخطاب يأخذ البيعة من النساء على ذلك، وممن بايعته من النساء يومئذ هند بنت عتبة زوج أبي سفيان وكبشة بنت رافع.

وجملة)يبايعنك(يجوز أن تكون حالا من)المؤمنات(على معنى: يردن المبايعة وهي المذكورة في هذه الآية. وجواب)إذا( )فبايعهن(.

ويجوز أن تكون جملة)يبايعنك(جواب)إذا(.

ومعنى)إذا جاءك المؤمنات(، أي الداخلات في جماعة المؤمنين على الجملة والإجمال، لا يعلمن أصول الإسلام وبينه بقوله) يبايعنك(فهو خير مراد به الأمر، أي فليبايعنك وتكون جملة)فبايعهن(تفريعا لجملة)يبايعنك(وليبنى عليها قوله)واستغفر لهن الله(.

وقد شملت الآية التخلي عن خصال في الجاهلية وكانت السرقة فيهن أكثر منها في الرجال. قال الأعرابي لما ولدت زوجه بنتا: والله ما هي بنعم الولد بزها بكاء ونصرها سرقة.

والمراد بقتل الأولاد أمران: أحدهما الوأد الذي كان يفعله أهل الجاهلية ببناتهم، وثانيهما إسقاط الأجنة وهو الإجهاض.

وأسند القتل إلى النساء وإن كان بعضه يفعله الرجال لأن النساء كن يرضين به أو يسكتن عليه.

والبهتان: الخبر المكذوب الذي لا شبهة لكاذبه فيه لأنه يبهت من ينقل عنه.

والافتراء: اختلاق الكذب، أي لا يختلقن أخبارا بأشياء لم تقع.

وقوله)بين أيديهن وأرجلهن(يتعلق ب)يأتين(، وهذا من الكلام الجامع لمعان كثيرة باختلاف محامله من حقيقة ومجاز وكناية، فالبهتان حقيقته: الإخبار بالكذب وهو مصدر. ويطلق المصدر على اسم المفعول كالخلق بمعنى المخلوق.

وحقيقة بين الأيدي والأرجل: أن يكون الكذب حاصلا في مكان يتوسط الأيدي والأرجل فإن كان البهتان على حقيقته وهو الخبر الكاذب كان افتراؤه بين أيديهن وأرجلهن أنه كذب مواجهة في وجه

المكذوب عليه كقولها: يا فلانة زنيت مع فلان، أو سرقت حلي فلانة. لتبهتها في ملأ من الناس، أو أنت بنت زنى، أو نحو ذلك.

وإن كان اليهتان بمعنى المكذوب كان معنى افترائه بين أيديهن وأرجلهن كناية عن ادعاء الحمل بأن تشرب ما ينفخ بطنها فتوهم زوجها أنها حامل ثم تظهر الطلق وتأتي بولد تلتقطه وتنسبه إلى زوجها لئلا يطلقها، أو لئلا يرثه عصبته، فهي تعظم بطنها وهو بين يديها، ثم إذا وصل إبان إظهار الطلق وضعت الطفل بين رجليها وتحدثت وتحدث الناس بذلك فهو مبهوت عليه. فالافتراء هو ادعاؤها ذلك تأكيدا لمعنى البهتان.

وإن كان البهتان مستعارا للباطل الشبيه بالخبر البهتان، كان)بين أيديهن وأرجلهن(محتملا للكناية عن تمكين المرأة نفسها من غير زوجها يقبلها أو يجسها، فذلك بين يديها أو يزني بها، وذلك بين أرجلها.

وفسره أبو مسلم الأصفهاني بالسحر إذ تعالج أموره بيديها، وهي جالسة تضع أشياء السحر بين رجليها.

ولا يمنع من هذه المحامل أن النبي صلى الله عليه وسلم بايع الرجال بمثلها. وبعض هذه المحامل لا يتصور في الرجال إذ يؤخذ لكل صنف ما يصلح له منها.

وبعد تخصيص هذه المنهيات بالذكر لخطر شأنها عمم النهي بقوله)ولا يعصينك في معروف(والمعروف هو ما لا تنكره النفوس. والمراد هنا المعروف في الدين، فالتقييد به إما لمجرد الكشف فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يامر إلا بالمعروف، وإما لقصد التوسعة عليهن في أمر لا يتعلق بالدين كما فعلت بريرة إذ لم تقبل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في إرجاعها زوجها مغيثا إذ بانت منه بسبب عتقها وهو رقيق.

وقد روى في الصحيح عن أم عطية أن النبي صلى الله عليه وسلم نهاهن في هذه المبايعة عن النياحة فقبضت امرأة يدها وقالت: اسعدتني فلانة أريد أن أجزيها. فما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فانطلقت ورجعت فبايعها. وإنما هذا مثال لبعض المعروف الذي يأمرهن به النبي صلى الله عليه وسلم تركه فاش فيهن.

وورد في أخبار أنه نهاهن عن تبرج الجاهلية وعن أن يحدثن الرجال الذين ليسوا بمحرم فقال عبد الرحمان بن عوف يا نبي الله إن لنا أضيافا وإنا تغيب، قال رسول الله: ليس أولئك عنيت. وعن ابن عباس: نهاهن عن تمزيق الثياب وخدش الوجوه وتقطيع الشعور والدعاء بالوسل والثبور، أي من شؤون النياحة في الجاهلية.

وروى الطبري بسنده إلى ابن عباس لما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم البيعة على النساء كانت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان جالسة مع النساء متنكرة خوفا من رسول الله أن يقتص منها على شقها بطن حمزة وأخراجها كبده يوم أحد. فلما قال: على أن لا يشركن بالله شيئا، قالت هند: وكيف نطمع أن يقبل منا شيئا لم يقبله من الرجال. فلما قال: ولا يسرقن. قالت هند: والله إني لأصيب من مال أبي سفيان هنات فما أدري أتحل لي أم لا؟ فقال: أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفها فدعاها فأتته فعاذت به، وقالت: فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال: ولا يزنين. فقالت: أو تزني الحرة. قال: ولا يقتلن أولادهن. فقالت هند: ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا فأنتم وهم أعلم. تريد أن المسلمين قتلوا ابنها حنظلة بن أبي سفيان يوم بدر. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: ولا يأتين ببهتان يفترينه. فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. فقال: ولا يعصينك في معروف. فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

فقوله)ولا يعصينك في معروف(جامع لكل ما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر به مما يرجع إلى واجبات الإسلام. وفي الحديث عن أم عطية قالت: كان من ذلك: أن لا ننوح. قالت: فقلت يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بد أن أسعدهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا آل فلان، وهذه رخصة خاصة بأم عطية وبمن سمتهم. وفي يوم معين.

صفحة : 4397

وقوله)فبايعهن(جواب)إذا(تفريع على)يبايعنك(، أي فأقبل منهن ما بايعنك عليه لأن البيعة عنده من جانبين ولذلك صيغت لها صيغة المفاعلة.

)واستغفر لهن الله(، أي فيما فرط منهن في الجاهلية مما خص بالنهي في شروط البيعة وغير ذلك. ولذلك حذف المفعول الثاني لفعل)استغفر(.

)يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور[13](بعد أن استقصت السورة إرشاد المسلمين إلى ما يجب في المعاملة مع المشركين، جاء في خاتمتها الإرشاد إلى المعاملة مع قوم ليسوا دون

المشركين في وجوب الحذر منهم وهم اليهود، فالمراد بهم غير المشركين إذ شبه يأسهم من الآخرة ييأس الكفار، فتعين أن هؤلاء غير المشركين لئلا يكون من تشبيه الشيء بنفسه.

وقد نعتهم الله بأنهم قوم غضب الله عليهم، وهذه صفة تكرر في القرآن إلحاقها باليهود كما جاء في سورة الفاتحة أنهم المغضوب عليهم. فتكون هذه الآية مثل قوله تعالى)يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء(في سورة العقود.

ذلك أن يهود خيبر كانوا يومئذ بجوار المسلمين من أهل المدينة. وذكر الواحدي في أسباب النزول: أنها نزلت في ناس من فقراء المسلمين يعملون عند اليهود ويواصلونهم ليصيبوا بذلك من ثمارهم، وربما أخبروا اليهود بأحوال المسلمين عن غفلة وقلة حذر فنبههم الله إلى أن لا يتولوهم.

واليأس: عدم توقع الشيء فإذا علق بذات كان دالا على عدم توقع وجودها. وإذ قد كان اليهود لا ينكرون الدار الآخرة كان معنى يأسهم من الآخرة محتملا أن يراد به الإعراض عن العمل للآخرة فكأنهم في إهمال الاستعداد لها آيسون منها، وهذا في معنى قوله تعالى في شأنهم)أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون(في سورة البقرة.

وتشبيه إعراضهم هذا بيأس الكفار من أصحاب القبور وجهه شدة الإعراض وعدم التفكر في الأمر، شبه إعراضهم عن العمل لنفع الآخرة بيأس الكفار من حياة الموتى والبعث وفيه تشنيع المشبه، ومن أصحاب القبور على هذا الوجه متعلق ب)يئسوا(. والكفار: المشركون.

ويجوز أن يكون)من أصحاب القبور(بيانا للكفار، أي الكفار الذين هلكوا ورأوا أن لا حظ لهم في خير الآخرة فشبه إعراض اليهود عن الآخرة بيأس الكفار من نعيم الآخرة، ووجه الشبه تحقق عدم الانتفاع بالآخرة. والمعنى كيأس المفار الأموات، أي يأسا من الآخرة.

والمشبه به معلوم للمسلمين بالاعتقاد فالكلام من تشبيه المحسزس بالمعقول.

وفي استعارة اليأس للإعراض ضرب من المشاكلة أيضا.

ويحتمل أن يكون يأسهم من الآخرة أطلق على حرمانهم من نعيم الحياة الآخرة. فالمعنى: قد أيأسناهم من الآخرة على نحو قوله تعالى)والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي(في سورة العنكبوت.

ومن المفسرين الأولين من حمل هذه الآية على معنى التأكيد لما في أول السورة من قوله)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي

وعدوكم أولياء(فالقوم الذين غضب الله عليهم هم المشركون فإنهم وصفوا بالعدو لله والعدو مغضوب عليه ونسب هذا إلى ابن عباس. وجعل يأسهم من الآخرة هو إنكارهم البعث.
وجعل تشبيه يأسهم من الآخرة بيأس المفار من أصحاب القبور أن يأس الكفار الأحياء كيأس الأموات من الكفار، أي كيأس أسلافهم الذين هم في القبور إذ كانوا في مدة حياتهم آيسين من الآخرة فتكون)من(بيانية صفة للكفار، وليست متعلقة بفعل)يئس(فليس في لفظ)المفار(إظهار في مقام الإضمار وإلا لزم أن يشبه الشيء بنفسه كما قد توهم.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الصف
اشتهرت هذه السورة باسم)سورة الصف(وكذلك سميت في عصر الصحابة.
روى ابن أبي حاتم سنده إلى عبد الله بن سلام أن ناسا قالوا: لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى أن قال فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر حتى جمعهم ونزلت فيهم)سورة سبح لله الصف(الحديث، رواه ابن كثير، وبذلك عنونت في صحيح البخاري وفي جامع الترمذي، وكذلك كتب اسمها في المصاحف وفي كتب التفسير.

صفحة : 4398

ووجه التسمية وقوع لفظ)صفا(فيها وهو صف القتال، فالتعريف باللام تعريف العهد.
وذكر السيوطي في الإتقان: أنها تسمى)سورة الحواريين(ولم يسنده. وقال الآلوسي تسمى)سورة عيسى(ولم أقف على نسبته لقائل. وأصله للطبرسي فلعله أخذ من حديث رواه في فضلها عن أبي بن كعب بلفظ)سورة عيسى(. وهو حديث موسوم بأنه موضوع. والطبرسي يكثر من تخريج الأحاديث الموضوعة. فتسميتها)سورة الحواريين(لذكر الحواريين فيها. ولعلها أول سورة نزلت ذكر فيها لفظ الحواريين.
وإذا ثبت تسميتها)سورة عيسى(فلما فيها من ذكر) عيسى(مرتين.
وهي مدنية عند الجمهور كما يشهد لذلك حديث عبد الله بن سلام. وعن ابن عباس ومجاهد وعطاء أنها مكية ودرج عليه في

الكشاف والفخر. وقال ابن عطية: الأصح أنها مدنية ويشبه أن يكون فيها المكي.

واختلف في سبب نزولها وهل نزلت متتابعة أو متفرقة متلاحقة.

وفي جامع الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله تعالى)سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون(قال عبد الله بن سلام فقرأها علينا رسول الله. وأخرجه الحاكم وأحمد في مسنده وابن أبي حاتم والدرامي بزيادة فقرأها علينا رسول الله حتى ختمها أو فقراها كلها.

فهذا يقتضي أنهم قيل لهم: لم تقولون ما لا تفعلون قبل أن يخلفوا ما وعدوا به فيكون الاستفهام مستعملا مجازا في التحذير من عدم الوفاء بما نذروه ووعدوا به.

وعن علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون(قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله أن أحب الأعمال: إيمان به وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم. فأنزل الله سبحانه وتعالى)يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون(.

ومثله عن أبي صالح أن السورة نزلت بعد أن أمروا بالجهاد بآيات غير هذه السورة. وبعد أن وعدوا بالانتداب للجهاد ثم تقاعدوا عنه وكرهوه. وهذا المروي عن ابن عباس وهو أوضح وأوفق بنظم الآية، والاستفهام فيه للتوبيخ واللوم وهو المناسب لقوله بعده)كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون(.

وعن مقاتل بن حيان: قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به فدلهم الله فقال:)إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا(، فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا مدبرين فأنزل الله)يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون(. ونسب الواحدي مثل هذا للمفسرين وهو يقتضي أن صدر الآية نزل بعد آخرها.

وعن الكلبي: أنهم قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها فنزلت)هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم(الآية. فابتلوا يوم أحد فنزلت)يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون(تعيرهم بترك الوفاء. وهو يقتضي أن معظم السورة قبل نزول الآية التي في أولها.

وهي السورة الثامنة والمائة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح. وكان نزولها بعد وقعة أحد.
وعدد آيها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد.

أغراضها
أول أغراضها التحذير من إخلاف الوعد والالتزام بواجبات الدين.
والتحريض على الجهاد في سبيل الله والثبات فيه، وصدق الإيمان.
والثبات في نصرة الدين.
والائتساء بالصادقين مثل الحواريين.
والتحذير من أذى الرسول صلى الله عليه وسلم تعريضا باليهود مثل كعب بن الأشرف.
وضرب المثل لذلك بفعل اليهود مع موسى وعيسى عليهما السلام.
والتعريض بالمنافقين.

والوعد على إخلاص الإيمان والجهاد بحسن مثوبة الآخرة والنصر والفتح.
)سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم[1](

مناسبة هذه الفاتحة لما بعدها من السورة بيان أن الكافرين محقوقون بان تقاتلوهم لأنهم شذوا عن جميع المخلوقات فلم يسبحوا الله ولم يصفوه بصفات الكمال إذ جعلوا له شركاء في الإلهية. وفيه تعريض بالذين أخلفوا ما وعدوا بأنهم لم يؤدوا حق تسبيح الله، لأن الله مستحق لأن يوفى بعهده في الحياة الدنيا وأن الله ناصر الذين آمنوا على عدوهم.
وتقدم الكلام على نظير قوله)سبح لله(إلى)الحكيم(في أول سورة الحشر وسورة الحديد.
وفي إجراء وصف)العزيز(عليه تعالى هنا إيماء إلى أنه الغالب لعدوه فما كان لكم أن ترهبوا أعداءه فتفروا منهم عند اللقاء.
وإجراء صفة)الحكيم(إن حملت على معنى المتصف بالحكمة أن الموصوف بالحكمة لا يأمركم بجهاد العدو عبثا ولا يخليهم يغلبونكم. وإن حملت على معنى المحكم للأمور فكذلك.
)يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون[2] كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون[3](ناداهم بوصف الإيمان تعريضا بأن الإيمان

من شأنه أن يزغ المؤمن عن أن يخالف فعله قوله في الوعد بالخير.
واللام لتعليل المستفهم عنه وهو الشيء المبهم الذي هو مدلول ما الاستفهامية لأنها تدل على أمر مبهم يطلب تعيينه.
والتقدير: تقولون ما لا تفعلون لأي سبب أو لأية علة.
وتتعلق اللام بفعل)تقولون(المجرور مع حرف الجر لصدارة الاستفهام.
والاستفهام عن العلة مستعمل هنا في إنكار أن يكون سبب ذلك مرضيا لله تعالى، أي أن ما يدعوهم إلى ذلك هو أمر منكر وذلك كناية عن اللوم والتحذير من ذلك كما في قوله تعالى)قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل(في سورة البقرة.
فيجوز أن يكون القول الذي قالوه وعدا وعدوه ولم يفوا به. ويجوز أن يكون خبرا أخبروا به عن أنفسهم لم يطابق الواقع. وقد مضى استيفاء ذلك في الكلام على صدر السورة.
وهذا كناية عن تحذيرهم من الوقوع في مثل ما فعلوه يوم أحد بطريق الرمز، وكناية عن اللوم على ما فعلوه يوم أحد بطريق التلويح.
وتعقيب الآية بقوله)إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا(إلخ. يؤذن بأن اللوم على وعد يتعلق بالجهاد في سبيل الله. وبذلك يلتئم معنى الآية مع حديث الترمذي في سبب النزول وتندحض روايات أخرى رويت في سبب نزولها ذكرها في الكشاف.
وفيه تعريض بالمنافقين إذ يظهرون الإيمان بأقوالهم وهم لا يعملون أعمال أهل الإيمان بالقلب ولا بالجسد. قال ابن زيد: هو قول المنافقين للمؤمنين نحن منكم ومعكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك.
وجملة)كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون(بيان لجملة)لم تقولون ما لا تفعلون(تصريحا بالمعنى المكنى عنه بها.
وهو خبر عن كون قولهم)ما لا تفعلون(أمرا كبيرا في جنس المقت.
والكبر: مستعار للشدة لأن الكبير فيه كثرة وشدة في نوعه.
و)أن تقولوا(فاعل)كبر(.
والمقت: البغض الشديد. وهو هنا بمعنى اسم المفعول.
وانتصب)مقتا(على التمييز لجهة الكبر. وهو تمييز نسبة.
والتقدير: كبر ممقوتا قولكم ما لا تفعلونه.
ونظم هذا الكلام بطريقة الإجمال ثم التفصيل بالتمييز لتهويل هذا الأمر في قلوب السامعين لكون الكثير منهم بمظنة التهاون في الحيطة منه حتى وقعوا فيما وقعوا يوم أحد. ففيه وعيد على تجدد

مثله، وزيد المقصود اهتماما بأن وصف المقت بأنه عند الله، أي مقت لا تسامح فيه.
وعدا عن جعل فاعل)كبر(ضمير القول بأن يقتصر على)كبر مقتا عند الله(أو يقال: كبر ذلك مقتا، لقصد زيادة التهويل بإعادة لفظه، ولإفادة التأكيد.
و)ما(في قوله)ما لا تفعلون(في الموضعين موصولة، وهي بمعنى لام العهد، أي الفعل الذي وعدتم أن تفعلوه وهو أحب الأعمال إلى الله أو الجهاد. فاقتضت الآية أن الوعد في مثل هذا يجب الوفاء به لأن الموعود به طاعة فالوعد به من قبيل النذر المقصود منه القربة فيجب الوفاء به.
)إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص[4](هذا جواب على تمنيهم معرفة أحب الأعمال إلى الله كما في حديث عبد الله بن سلام عند الترمذي المتقدم وما قبله توطئة له على أسلوب الخطب ومقدماتها.

صفحة : 4400

والصف: عدد من أشياء متجانبة منتظمة الأماكن، فيطلق على صف المصلين، وصف الملائكة، وصف الجيش في ميدان القتال بالجيش إذا حضر القتال كان صفا من رجالة أو فرسان ثم يقع تقدم بعضهم إلى بعض فرادى أو زرافات.
فالصف هنا: كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبر.
وأما حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرق وكر وفر. وانتصب)صفا(على الحال بتأويل: صافين، أو مصفوفين.
والمرصوص: المتلاصق بعضه ببعض. والتشبيه في الثبات وعدم الانفلات وهو الذي اقتضاه التوبيخ السابق في قوله)لم تقولون ما لا تفعلون(.
)وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين[5](موقع هذه الآية هنا خفي المناسبة. فيجوز أن تكون الجملة معترضة استئنافا ابتدائيا انتقل به من النهي عن عدم الوفاء بما وعدوا الله عليه إلى التعريض بقوم آذوا النبي صلى الله عليه وسلم بالقول أو بالعصيان أو نحو ذلك، فيكون الكلام موجها إلى المنافقين، فقد وسموا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى)إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا

والآخرة(الآية. وقوله تعالى)والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم(وقوله)ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن(.

وعلى هذا الوجه فهو اقتضاب نقل به الكلام من الغرض الذي قبله لتمامه إلى هذا الغرض، أو تكون مناسبة وقعه في هذا الموقع حدوث سبب اقتضى نزوله من أذى قد حدث لم يطلع عليه المفسرون ورواة الأخبار وأسباب النزول.

والواو على هذا الوجه عطف غرض على غرض. وهو المسمى بعطف قصة على قصة.

ويجوز أن يكون من تتمة الكلام الذي قبلها ضرب الله مثلا للمسلمين لتحذيرهم من إتيان ما يؤذي رسوله صلى الله عليه وسلم ويسوؤه من الخروج عن جادة الكمال الذيني مثل عدم الوفاء بوعدهم في الإتيان بأحب الأعمال إلى الله تعالى. وأسفقهم من أن يكون ذلك سببا للزيغ والضلال كما حدث لقوم موسى لما آذوه.

وعلى هذا الوجه فالمراد بأذى قوم موسى إياه: عدم توخي طاعته ورضاه، فيكون ذلك مشيرا إلى ما حكاه الله عنه من قوله)يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين(، إلى قوله)قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون(. فإن قولهم ذلك استخفاف يدل لذلك قوله عقبه)قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين(.

وقد يكون وصفهم في هذه الآية بقوله)والله لا يهدي القوم الفاسقين(ناظرا إلى وصفهم بذلك مرتين في آية سورة العقود في قوله)فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين(وقوله)فلا تأس على القوم الفاسقين(.

فيكون المقصود الأهم من القصة هو ما تفرع على ذكرها من قوله)فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم(. ويناسب أن تكون هذه الآية تحذيرا من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعبرة بما عرض لهم من الهزيمة يوم أحد لما خالفوا أمره من عدم ثبات الرماة في مكانهم.

وقد تشابهت القصتان في أن القوم فروا يوم أحد كافر قوم موسى يوم أريحا، وفي أن الرماة الذين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يبرحوا مكانهم)ولو تخطفنا الطير(وأن ينضحوا عن الجيش بالنبال خشية أن يأتيه العدو من خلفه لم يفعلوا ما أمرهم به وعصوا أمر أميرهم عبد الله بن جبير وفارقوا موقفهم طلبا للغنيمة فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين يوم أحد.

والواو على هذا الوجه عطف تحذير مأخوذ من قوله)فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم(على النهي الذي في قوله)لم تقولون ما لا تفعلون(الآية.
ويتبع ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما حصل من مخالفة الرماة حتى تسببوا في هزيمة الناس.
و)إذ(متعلقة بفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة في القرآن، أي اذكر لهم أيضا وقت قول موسى لقومه أو اذكر لهم مع هذا النهي وقت قول موسى لقومه.
وابتداء كلام موسى عليه السلام ب)يا قوم(تعريض بأن شأن قوم الرسول أن يطيعوه بله أن لا يؤذوه. ففي النداء بوصف)قوم(تمهيد للإنكار في قوله)لم تؤذونني(.

صفحة : 4401

والاستفهام للإنكار، أي إنكار أن يكون للإذاية سبب كما تقدم في قوله تعالى)لم تقولون ما لا تفعلون(.
وقد جاءت جملة الحال من قوله)وقد تعلمون أني رسول الله(مصادفة المحل من الترقي في الإنكار.
و)من(لتحقيق معنى الحالية، أي وعلمكم برسالتي عن الله أمر محقق لما شاهدوه من دلائل رسالته، وكما أكد علمهم ب)قد(أكد حصول المعلوم ب)أن(المفتوحة، فحصل تأكيدان للرسالة. والمعنى: فكيف لا يجري أمركم على وفق هذا العلم.
والإتيان بعد)قد(بالمضارع هنا للدلالة على أن علمهم بذلك مجدد بتجدد الآيات والوحي، وذلك أجدى بدوام امتثاله لأنه لو جيء بفعل المضي لما دل على أكثر من حصول ذلك العلم فيما مضى. ولعله قد طرأ عليه ما يبطله، وهذا كالمضارع في قوله تعالى)قد يعلم الله المعوقين منكم(في سورة الأحزاب.
والزيغ: الميل عن الحق، أي لما خالفوا ما أمرهم رسولهم جعل الله في قلوبهم زيغا، أي تمكن الزيغ من نفوسهم فلم ينفكوا عن الضلال.
وجملة)والله لا يهدي القوم الفاسقين(تذييل، أي وهذه سنة الله في الناس فكان قوم موسى الذين آذوه من أهل ذلك العموم.
وذكر وصف)الفاسقين(جاريا على لفظ)القوم(للإيماء إلى الفسوق الذي دخل في مقومات قوميتهم. كما تقدم عند قوله تعالى)إن في خلق السماوات والأرض(إلى قوله)لآيات لقوم يعقلون(في البقرة.

فالمعنى: الذين كان الفسوق عن الحق سجية لهم لا يلطف الله بهم ولا يعتني بهم عناية خاصة تسوقهم إلى الهدى، وإنما هو طوع الأسباب والمناسبات.

)وإذ قال عيسى أبن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين[6](عطف على جملة)وإذ قال موسى لقومه(فعلى الوجه الأول في موقع التي قبلها فموقع هذه مساو له.

وأما على الوجه الثاني في الآية السابقة فإن هذه مسوقة مساق التتميم لقصة موسى بذكر مثال آخر لقوم حادوا عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم من غير إفادة تحذير للمخاطبين من المسلمين، وللتخلص إلى ذكر أخبار عيسى بالرسول الذي يجيء بعده.

ونادى عيسى قومه بعنوان)بني إسرائيل(دون)يا قوم(لأن بني إسرائيل بعد موسى اشتهروا بعنوان)بني إسرائيل(ولم يطلق عليهم عنوان: قوم موسى، إلا في مدة حياة موسى خاصة فإنهم إنما صاروا أمة وقوما بسببه وشريعته.

فأما عيسى فإنما كان مرسلا بتأييد شريعة موسى، والتذكير بها وتغيير بعض أحكامها، ولأن عيسى حين خاطبهم لم يكونوا قد اتبعوه ولا صدقوه فلم يكونوا قوما له خالصين.

وتقدم القول في معنى)مصدقا لما بين يدي من التوراة(في أوائل سورة آل عمران وفي أثناء سورة العقود.

والمقصود من تنبيههم على هذا التصديق حين ابتداءهم بالدعوة تقريب إجابتهم واستنزال طائرهم لشدة تمسكهم بالتوراة واعتقادهم أن أحكامها لا تقبل النسخ، وأنها دائمة. ولذلك لما ابتداءهم بهذه الدعوة لم يرد عليها ما حكى عنه في سورة آل عمران من قوله) ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم(، فيحمل ما هنالك على أنه خطاب واقع بعد أول الدعوة فإن الله لم يوح إليه أول مرة بنسخ بعض أحكام التوراة ثم أوحاه إليه بعد ذلك. فحينئذ أخبرهم بما أوحى إليه.

وكذلك شأن التشريع أن يلقى إلى الأمة تدريجا كما في حديث عائشة في صحيح البخاري أنها قالت: إنما أنزل أول ما أنزل منه أي القرآن سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو أنزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نترك الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا: لقالوا: لا ندع الزنى أبدا. لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم

وإني لجارية ألعب)بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر(، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده اه .
فمعنى قوله)مصدقا لما بين يدي من التوراة(في كلتا الآيتين هو التصديق بمعنى التقرير والأعمال على وجه الجملة، أي أعمال مجموعها وجمهرة أحكامها ولا ينافي ذلك أنه قد تغير بعض أحكامها بوحي من الله في أحوال قليلة.

صفحة : 4402

والتبشير: الإخبار بحادث يسر، وأطلق هنا على الإخبار بأمر عظيم النفع لهم لأنه يلزمه السرور الحق فإن مجيء الرسول إلى الناس نعمة عظيمة.
ووجه إيثار هذا اللفظ الإشارة إلى ما وقع في الإنجيل من وصف رسالة الرسول الموعود به بأنها بشارة الملكوت.
وإنما أخبرهم بمجيء رسول من بعده لأن بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسول من الله يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم وهذا الانتظار ديدنهم، وهم موعودون لهذا المخلص لهم على لسان أنبيائهم بعد موسى. فكان وعد عيسى به كوعد من سبقه من أنبيائهم، وفاتحهم به في أول الدعوة اعتناء بهذه الوصية.
وفي الابتداء بها تنبيه على أن ليس عيسى هو المخلص المنتظر وأن المنتظر رسول يأتي من بعده وهو محمد صلى الله عليه وسلم.
ولعظم شأن هذا الرسول الموعود به أراد الله أن يقيم للأمم التي يظهر فيها علامات ودلائل ليتبينوا بها شخصه فيكون انطباقها فاتحة لإقبالهم على تلقي دعوته، وإنما يعرفها حق معرفتها الراسخون في الدين من أهل الكتاب لأنهم الذين يرجع إليهم الدهماء من أهل ملتهم قال تعالى)الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون(. وقال)قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب(.
وقد وصف الله بعض صفات هذا الرسول لموسى عليه السلام في قوله تعالى حكاية عن إجابته دعاء موسى)ورحمتي وسعت كل شيء فسأكبتها للذين يتقون(إلى قوله)الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

فلما أراد الله تعالى إعداد البشر لقبول رسالة هذا الرسول العظيم الموعود به صلى الله عليه وسلم استودعهم أشراطه وعلاماته على لسان كل رسول أرسله إلى الناس. قال تعالى)وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لنؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون(أي أأخذتم إصري من أممكم على الإيمان بالرسول الذي يجيء مصدقا للرسل. وقوله)فاشهدوا(، أي على أممكم وسيجيء من حكاية كلام عيسى في الإنجيل ما يشرح هذه الشهادة.

وقال تعالى في خصوص ما لقنه إبراهيم عليه السلام)ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة(الآية.

وأوصى به عيسى عليه السلام في هذه الآية وصية جامعة لما تقدمها من وصايا الأنبياء وأجملها إجمالا على طريق الرمز. وهو أسلوب من أساليب أهل الحكمة والرسالة في غير بيان الشريعة قال السهرودي قي تلك حكمة الإشراق وكلمات الأولين مرموزة فقال قطب الدين الشيرازي في شرحه: كانوا يرمزون في كلامهم إما تشحيذا للخاطر باستكداد الفكر أو تشبيها بالباري تعلى وأصحاب النواميس فيما أتوا به من الكتب المنزلة المرموزة لتكون أقرب إلى فهم الجمهور فينتفع الخواص بباطنها والعوام بظاهرها. اه ، أي ليتوسمها أهل العلم من أهل الكتاب فيتحصل لهم من مجموع تفصيلها شمائل الرسول الموعود به ولا يلتبس عليهم بغيره ممن يدعي ذلك كذبا. أو يدعيه له طائفة من الناس كذبا أو اشتباها.

ولا يحمل قوله)أسمه أحمد(على ما يتبادر من لفظ اسم من أنه العلم المجهول للدلالة على ذات معينة لتميزه من بين من لا يشاركها في ذلك الاسم لأن هذا الحمل يمنع منه وأنه ليس بمطابق للواقع لأن الرسول الموعود به لم يدعه الناس أحمد فلم يكن أحد يدعوا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم باسم أحمد لا قبل نبوءته ولا بعدها ولا يعرف ذلك.

وأما ما وقع في الموطأ والصحيحين عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب فتأويله أنه أطلق الأسماء على ما يشمل الاسم العلم والصفة الخاصة به على طريقة التغليب. وقد رويت له أسماء غيرها استقصاها أبو بكر ابن العربي في العارضة والقبس.

فالذي نوقن به أن محمل قوله اسمه أحمد يجري على جميع ما تحمله جزءا هذه الجملة من المعاني.
فأما لفظ اسم استعماله في كلام العرب ثلاثة استعمالات:
أحدها: أن يكون بمعنى المسمى. قال أبو عبيدة: الاسم المسمى. ونسب ثعلب إلى سيبويه أن الاسم غير المسمى أي إذا أطلق لفظ اسم في الكلام فالمعنى به مسمى ذلك الاسم لكن جزم ابن السيد البطليوسي في كتابه الذي جعله في معاني الاسم هل هو عين المسمى، أنه وقع في بعض مواضع من كتاب سيبويه أن الاسم هو المسمى، ووقع في بعضها أنه غير المسمى، فحمله ابن السيد البطليوسي على أنهما إطلاقان، وليس ذلك باختلاف في كلام سيبويه، وتوقف أبو العباس ثعلب في ذلك فقال: ليس لي فيه قول. ولما في هذا الاستعمال من الاحتمال بطل الاستدلال به.
الاستعمال الثاني: أن يكون الاسم بمعنى شهرة في الخير وأنشد ثعلب:
لأعظمها قدرا وأكرمها أبـا وأحسنها
وجها وأعلنها سمى سمى لغة في اسم.
الاستعمال الثالث: أن يطلق على لفظ جعل دالا على ذات لتميز من كثير من أمثالها، وهذا هو العلم.
ونحن نجري على أصلنا في حمل ألفاظ القرآن على جميع المعاني التي يسمح بها الاستعمال الفصيح كما في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير، فنحمل الاسم في قوله)اسمه أحمد(ما يجمع بين هذه الاستعمالات الثلاثة، أي مسماة أحمد، وذكره أحمد، وعلمه أحمد، ولنحمل لفظ أحمد على ما لا يأباه واحد من استعمالات اسم الثلاثة إذا قرن به وهو أن أحمد اسم تفضيل يجوز أن يكون مسلوب المفاضلة معنيا به القوة فيم هو مشتق منه، أي الحمد وهو الثناء، فيكون أحمد هنا مستعملا في قوة مفعولية الحمد، أي حمد الناس إياه، وهذا مثل قولهم. العود أحمد ، أي محمود كثيرا. فالوصف ب)أحمد(بالنسبة للمعنى الأول في اسم أن مسمى هذا الرسول ونفسه موصوفة بأقوى ما يحمد عليه محمود فيشمل ذلك جميع صفات الكمال النفسانية والخلقية والخلقية والنسبية والقومية وغير ذلك مما هو معدود من الكمالات الذاتية والغرضية.
ويصح اعتبار)احمد(تفضيلا حقيقيا في كلام عيسى عليه السلام، أي مسماه أحمد مني، أي أفضل، أي في رسالته وشريعته. وعبارات الإنجيل تشعر بهذا التفضيل ففي إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع

عشر وأنا أطلب من الأب أي من ربنا فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. ثم قال: وأما الفارقليط الروح القدس الذي سيرسله الأب)الله(فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم ، أي في جملة ما يعلمكم أن يذكركم بكل ما قلته لكم. وهذا يفيد تفضيله على عيسى بفضيلة دوام شريعته المعبر عنها بقول الإنجيل ليثبت معكم إلى الأبد وبفضيلة عموم شرعه للأحكام المعبر عنه بقوله)يعلمكم كل شيء(.

والوصف ب)أحمد(على المعنى الثاني في الاسم. أن سمعته وذكره في جيله والأجيال بعده موصوف بأنه أشد ذكر محمود وسمعة محمودة.وهذا معنى قوله في الحديث أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة وأن الله يبعثه مقاما محمودا.

ووصف)أحمد(بالنسبة إلى المعنى الثالث في الاسم رمز إلى أنه اسمه العلم يكون بمعنى: أحمد، فإن لفظ محمد اسم مفعول من حمد اسم مفعول من حمد المضاعف الدال على كثرة حمد الحامدين إياه كما قالوا: فلان ممدح، إذا تكرر مدحه من مادحين كثيرين.

فاسم)محمد(يفيد معنى: المحمود حمدا كثيرا ورمز إليه بأحمد.

وهذه الكلمة الجامعة التي أوحى الله بها إلى عيسى عليه السلام أراد الله بها أن تكون شعارا لجماع صفات الرسول الموعود به صلى الله عليه وسلم، صيغت بأقصى صيغة تدل على ذلك إجمالا بحسب ما تسمح اللغة بجمعه من معاني. ووكل تفصيلها إلى ما يظهر من شمائله قبل بعثته وبعدها ليتوسمها المتوسمون ويتدبر مطاويها الراسخون عند المشاهدة والتجربة.

جاء في إنجيل متي في الإصحاح الرابع والعشرين قول عيسى ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرا ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يكون المنتهى ، ومعنى يكرز يدعو وينبيء، ومعنى يصير إلى المنتهى يتأخر إلى قرب الساعة.

صفحة : 4404

وفي الإنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم آخر يثبت معكم إلى الأبد . و فارقليط كلمة رومية، أي بوانية تطلق بمعنى المدافع أو المسلي، أي الذي يأتي بما يدفع الأحزان والمصائب، أي يأتي

رحمة، أي رسول مبشر، وكلمة آخر صريحة في أنه رسول مثل عيسى.
وفي الصحاح الرابع عشر والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل الذي أرسلني وبهذا كلمتكم وأنا عندكم أي مدة وجودي بينكم ، وأما الفارقليط الروح القدسي الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته ، ومعنى باسمي أي بصفة الرسالة لا أتكلم معكم كثيرا لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء ولكن ليفهم العالم أني أحب الأب وكما أوصاني الأب أفعل .
وفي الإصحاح الخامس عشر منه ومتى جاء الفارقليط الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي .

وفي هذه الأخبار إثبات أن هذا الرسول المبشر به تعم رسالته جميع الأمم في جميع الأرض، وأنه الخاتم، وأن لشريعة ملكا لقول إنجيل متي هو يكرز ببشارة الملكوت والملكوت هو الملك، وأن تعاليمه تتعلق بجميع الأشياء العارضة للناس، أي شريعته تتعلق أحكامها بجميع الأحوال البشرية، وجميعها مما تشمله الكلمة التي جاءت على لسان عيسى عليه السلام وهي كلمة اسمه أحمد فكانت من الرموز الإلهية ولكونها مرادة لذلك ذكرها الله تعالى في القرآن تذكيرا وإعلانا.
وذكر القرآن تبشير بمحمد عليهما الصلاة والسلام في خلال المقصود الذي هو تنظير ما أوذي به موسى من قومه وما أوذي به عيسى من قومه إدماجا يؤيد به النبي صلى الله عليه وسلم ويثبت فؤاده ويزيده تسلية. وفيها تخلص إلى أن ما لقيه من قومه نظير ما لقيه عيسى من بني إسرائيل.
وقوله)فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين(هو مناط الأذى.
فإن المتبادر أن يعود ضمير الرفع في قوله)جاءهم(إلى عيسى، وأن يعود ضمير النصب إلى الذين خاطبهم عيسى. والتقدير: فكذبوه، فلما جاءهم بالمعجزات قالوا هذا سحر أو هو ساحر.
ويحتمل أن يكون ضمير الرفع عائدا إلى رسول يأتي من بعدي. وضمير النصب عائدا إلى لفظ بني إسرائيل، أي بني إسرائيل غير الذين دعاهم عيسى عليه السلام من باب: عندي درهم ونصفه، أي نصف ما يسمى بدرهم، أي فلما جاءهم الرسول الذي دعاه عيسى باسم أحمد بالبينات، أي دلائل انطباق الصفات الموعود بها قالوا هذا سحر أو هذا ساحر مبين فيكون هذا التركيب مبين من قبيل الكلام الموجه.

وحصل أذاهم بهذا القول لكلا الرسولين.
فالجملة على هذا الاحتمال تحمل على أنها اعتراض بين المتعاطفات وممهدة للتخلص إلى مذمة المشركين وغيرهم ممن لم يقبل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم.
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بفتح الياء من قوله)بعدي(. وقرأه الباقون بسكونها. قال في الكشاف: واختار الخليل وسيبويه الفتح.
وقرأ الجمهور)هذا سحر(بكسر السين. وقرأه حمزة والكسائي وخلف)هذا ساحر(فعلى الأولى الإشارة للبنات، وعلى الثانية الإشارة إلى عيسى أو إلى الرسول.
)ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين[7](كانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم مماثلة دعوة عيسى عليه السلام وكان جواب الذين دعاهم إلى الإسلام من أهل الكتابين والمشركين مماثلا لجواب الذين دعاهم عليه السلام. فلما أدمج في حكاية دعوة عيسى بشارته برسول يأتي من بعده ناسب أن ينقل الكلام إلى ما قابل به قوم الرسول الموعود رسولهم فلذلك ذكر في دعوة هذا الرسول دين الإسلام فوصفوا بأنهم أظلم الناس تشنيعا لحالهم.
فالمراد من هذا الاستفهام هم الذين كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك عطف هذا الكلام بالواو ودون الفاء لأنه ليس مفرعا على دعوة عيسى عليه السلام.
وقد شمل هذا التشنيع جميع الذين كذبوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتابين والمشركين.
والمقصود الأول هم أهل الكتاب، وسيأتي عند قوله تعالى)يريدون ليطفئوا نور الله(إلى قوله)ولو كره المشركون(فهما فريقان.

صفحة : 4405

والاستفهام ب)من أظلم(إنكار، أي لا أحد أظلم من هؤلاء فالمكذبون من قبلهم، إما أن يكونوا أظلم منهم وإما أن يساووهم على كل حال، فالكلام مبالغة.
وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم ظلموا الرسول صلى الله عليه وسلم بنسبته إلى ما ليس فيه إذ قالوا: هو ساحر، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخوا لها النجاة، فيعرضوا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم على النظر الصحيح حتى يعلموا صدقه، وظلموا ربهم إذ نسبوا ما جاءهم من هديه وحجج رسوله صلى الله عليه وسلم إلى

ما ليس منه فسموا الآيات والحجج سحرا، وظلموا الناس بحملهم على التكذيب وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل مثبتة صدق رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وكمل لهم هذا الظلم بقوله تعالى)والله لا يهدي القوم الظالمين(، فيعلم أنه ظلم مستمر.

وقد كان لجملة الحال)وهو يدعى إلى الإسلام(موقع متين هنا، أي فعلوا ذلك في حين أن الرسول يدعوهم إلى ما فيه خيرهم فعاضوا الشكر بالكفر.

وإنما جعل افتراؤهم الكذب على الله لأنهم كذبوا رسولا يخبرهم أنه مرسل من الله فكانت حرمة هذه النسبة تقتضي أن يقبلوا على التأمل والتدبر فيما دعاهم إليه ليصلوا إلى التصديق، فلما بادروها بالإعراض وانتحلوا للداعي صفات النقص كانوا قد نسبوا ذلك إلى الله دون توقير.

فأما أهل الكتاب فجحدوا الصفات الموصوفة في كتابهم كما قال تعالى فيهم)ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله(في سورة البقرة. وذلك افتراء.

وأما المشركون فإنهم افتروا على الله إذ قالوا)ما أنزل الله على بشر من شيء(.

واسم)الإسلام(علم للدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وسلم، وهو جامع لما فيه خير الدنيا والآخرة فكان ذكر هذا الاسم في الجملة الحالية زيادة في تشنيع حال الذين أعرضوا عنه، أي وهو يدعى إلى ما فيه خيره وبذلك حق عليه وصف)أظلم(.

وجملة)والله لا يهدي القوم الظالمين(تأييس لهم من الإقلاع عن هذا الظلم، أي أن الذين بلغوا هذا المبلغ من الظلم لا طمع في صلاحهم لتمكن الكفر منهم حتى خالط سجاياهم وتقوم مع قوميتهم، ولذلك أقحم لفظ القوم للدلالة على أن الظلم بلغ حد أن صار من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى)لآيات لقوم يعقلون(في سورة البقرة. وتقدم غير مرة.

وهذا يعم المخبر عنهم وأمثالهم الذين افتروا على عيسى، ففيها معنى التذييل.

وأسند نفي هديهم إلى الله تعالى لأن سبب انتفاء هذا الهدي عنهم أثر من آثار تكوين عقولهم ومداركهم على المكابرة بأسباب التكوين التي أودعها الله في نظام تكون الكائنات وتطورها من ارتباط المسببات بأسبابها مع التنبيه على أن الله لا يتدارك أكثرهم بعنايته، فمغير فيهم بعض القوى المانعة لهم من الهدى غضبا عليهم إذ لم يخلفوا بدعوة تستحق التبصر بسبب نسبتها إلى جانب الله تعالى حتى يتميز لهم الصدق من الكذب والحق من الباطل.

)يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون[8](استئناف بياني ناشئ عن الإخبار عنهم بأنهم افتروا على الله الكذب في حال أنهم يدعون إلى الإسلام لأنه يثير سؤال سائل عما دعاهم إلى هذا الافتراء. فأجيب بأنهم يريدون أن يخفوا الإسلام عن الناس ويعوقوا انتشاره ومثلت حالتهم بحالة نفر يبتغون الظلام للتلصص أو غيره مما يراد فيه الاختفاء.

فلاحت له ذبالة مصباح تضيء للناس، فكرهوا ذلك وخشوا أن يشع نوره على الناس فتفتضح ترهاتهم، فعمدوا إلى إطفائه بالنفخ عليه فلم ينطفيء، فالكلام تمثيل دال على حالة الممثل لهم. والتقدير: يريدون عوق ظهور الإسلام كمثل قوم يريدون إطفاء النور، فهذا تشبيه الهيئة بالهيئة تشبيه المعقول بالمحسوس.

صفحة : 4406

ثم إن ما تضمنه من المحاسن أنه قابل لتفرقة التشبيه على أجزاء الهيئة، فاليهود في حال إرادتهم عوق الإسلام عن الظهور مشبهون بقوم يريدون إطفاء نور. الإسلام فشبه بمصباح. والمشركون مثلهم وقد مثل حال أهل الكتاب بنظير هذا التمثيل في قوله تعالى)وقالت اليهود عزير ابن الله(إلى قوله)يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره(الآية في سورة براءة، ووصفهم القرآن بأنه سحر ونحو ذلك من تمويهاتهم، فشبه بنفخ النافخين على المصباح فكان لذكر)بأفواههم(وقع عظيم في هذا التمثيل لأن الإطفاء قد يكون بغير الأفواه مثل المروحة والكير، وهم أرادوا إبطال آيات القرآن بزعم أنها من أقوال السحر.

وإضافة نور إلى اسم الجلالة إضافة تشريف، أي نورا أوقده الله، أي أوجده وقدره فما ظنكم بكماله.

واللام من قوله)ليطفئوا(تسمى اللام الزائدة، وتفيد التأكيد. وأصلها لام التعليل، ذكرت علة فعل الإرادة عوضا عن مفعوله بتنزيل المفعول منزلة العلة.

والتقدير: يريدون إطفاء نور الله ليطفئوا. ويكثر وقوع هذا اللام بعد مادة الإرادة ومادة الأمر. وقد سماها بعض أهل العربية: لام أن لأن معنى أن المصدرية ملازم لها. وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى)يريد الله ليبين لكم(في سورة النساء. فلذلك قيل: إن هذه اللام بعد فعل الإرادة مزيدة للتأكيد.

وجملة)والله متم نوره(معطوفة على جملة)يريدون(وهي إخبار بأنهم لا يبلغون مرادهم وأن هذا الدين سيتم، أي يبلغ تمام الانتشار.

وفي الحديث والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

والجملة الاسمية تفيد ثبوت هذا الإتمام. والتمام: هو حصول جميع ما للشيء من كيفية أو كمية، فتمام النور: حصول أقوى شعاعة وإتمامه إمداد آلته بما يقوى شعاعه كزيادة الزيت في المصباح وإزالة ما يغشاه.

وجملة)ولو كره الكافرون(حالية و)لو(وصلية، وهي تدل على أن مضمون شرطها أجدر ما يظن أن لا يحصل عند حصوله مضمون الجواب. ولذلك يقدر المعربون قبله ما يدل على تقدير حصول الشرط. فيقولون هذا إذا لم يكن كذا بل وإن كان كذا، وهو تقدير معنى لا تقدير حذف لأن مثل ذلك المحذوف لا يطرد في كل موقع فإنه لا يستقيم في مثل قوله تعالى)وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين(، إذ لا يقال: إذا كنا كاذبين، بل ولو كنا صادقين. وكذلك ما في هذه الآية لأن المعنى: والله متم نوره على فرض كراهة الكافرين، ولما كانت كراهة الكافرين إتمام هذا النور محققة كان سياقها في صورة الأمر المفروض تهكما. وتقدم استعمال)لو(هذه عند قوله تعالى)فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به(في سورة آل عمران.

وإنما كانت كراهية الكافرين ظهور نور الله حالة يظن انتفاء تمام النور معها، لأن تلك الكراهية تبعثهم على أن يتألبوا على إحداث العراقيل وتضليل المتصدين للاهتداء وصرفهم عنه بوجود المكر والخديعة والكيد والإضرار.

وشمل لفظ)الكافرون(جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم.

ولكن غلب اصطلاح القرآن على تخصيص وصف الكافرين بأهل الكتاب ومقابلتهم بالمشركين أو الظالمين ويتجه على هذا أن يكون الاهتمام بذكر هؤلاء بعد)لو(الوصلية لأن المقام لإبطال مرادهم إطفاء نور الله فإتمام الله نوره إبطال لمرادهم إطفاءه. وسيرد بعد هذا ما يبطل مراد غيرهم من المعاندين وهم المشركون.

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم)متم نوره(بتنوين)متم(ونصب)نوره(. وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص وخلف بدون تنوين وجر)نوره(على إضافة اسم الفاعل على مفعوله وكلاهما فصيح.

)هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[9](

هذا زيادة تحد للمشركين وأحلافهم من أهل الكتاب فيه تقوية لمضمون قوله)والله متم نوره ولو كره الكافرون(، وفيه معنى التعليل للجملة التي قبله. فقد أفاد تعريف الجزأين في قوله)هو الذي أرسل رسوله(قصرا إضافيا لقلب زعم الكافرين أن محمدا صلى الله عليه وسلم أتى من قبل نفسه، أي الله لا غيره أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق. وأن شيئا تولى الله فعله لا يستطيع أحد أن يزيله.

وتعليل ذلك بقوله)ليظهره على الدين كله(إعلام بأن الله أراد ظهور هذا الدين وانتشاره كيلا يطمعوا أن يناله ما نال دين عيسى عليه السلام من القمع والخفت في أول أمره واستمر زمانا طويلا حتى تنصر قسطنطين سلطان الروم، فلما أخبر الله بأنه أراد إظهار دين الإسلام على جميع الأديان علم أن أمره لا يزال في ازدياد حتى يتم المراد.

والإظهار: النصر ويطلق على التفضيل والإعلاء المعنوي.

والتعريف في قوله)على الدين(تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي ليعلي هذا الدين الحق على جميع الأديان وينصر أهله على أهل الأديان الأخرى الذين يتعرضون لأهل الإسلام.

ويظهر أن لفظ)الدين(مستعمل في كلا معنييه: المعنى الحقيقي وهو الشريعة. والمعنى المجازي وهو أهل الدين كما تقول: دخلت قرية كذا وأكرمتني، فإظهار الدين على الأديان بكونه أعلى منها تشريعا وآدابا، وأصلح بجميع الناس لا يخص أمة دون أخرى ولا جيلا دون جيل.

وإظهار أهله على أهل الأديان بنصر أهله على الذين يشاقونهم في مدة ظهوره حتى يتم أمره ويستغني عمن ينصره.

وقد تم وعد الله وظهر هذا الدين وملك أهله أمما كثيرة ثم عرضت عوارض من تفريط المسلمين في إقامة الدين على وجهه فغلبت عليهم أمم، فأما الدين فلم يزل عاليا مشهودا له من علماء الأمم المتصفين بأنه أفضل دين للبشر.

وخص المشركون بالذكر هنا إتماما للذين يكرهون إتمام هذا النور، وظهور هذا الذين على جميع الأديان. ويعلم أن غير المشركين يكرهون ظهور هذا الذين لأنهم أرادوا إطفاء نور الدين لأنهم يكرهون ظهور هذا الدين فحصل في الكلام احتباك.

)يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم[10] تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون[11] يغفر لكم ذنوبكم

ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم[12](هذا تخلص إلى الغرض الذي افتتحت به السورة من قوله)يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون(إلى قوله)كأنهم بنيان مرصوص(. فبعد أن ضربت لهم الأمثال، وانتقل الكلام من مجال إلى مجال، أعيد خطابهم هنا بمثل ما خوطبوا به بقوله)يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون(، أي هل أدلكم على أحب العمل إلى الله لتعملوا به كما طلبتم إذ قلتم لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به فجاءت السورة في أسلوب الخطابة.

والظاهر أن الضمير المستتر في)أدلكم(عائد إلى الله تعالى لأن ظاهر الخطاب أنه موجه من الله تعالى إلى المؤمنين. ويجوز أن يجعل الضمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم على تقدير قول محذوف وعلى اختلاف الاحتمال يختلف موقع قوله الآتي)وبشر المؤمنين(.

والاستفهام مستعمل في العرض مجازا لأن العارض قد يسأل المعروض عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض كما يقال: هل لك في كذا؟ أو هل لك إلى كذا؟ والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض، وهو دلالته إياهم على تجارة نافعة. وألفاظ الاستفهام تخرج عنه إلى معان كثيرة هي من ملازمات الاستفهام كما نبه عليه السكاكي في المفتاح، وهي غير منحصرة فيما ذكره.

وجيء بفعل)أدلكم(لإفادة ما يذكر بعده من الأشياء التي لا يهتدي إليها بسهولة.

وأطلق على العمل الصالح لفظ التجارة على سبيل الاستعارة لمشابهة العمل الصالح التجارة في طلب النفع من ذلك العمل ومزاولته والكد فيه، وقد تقدم في قوله تعالى)فما ربحت تجارتهم(في سورة البقرة.

ووصف التجارية بأنها تنجي من عذاب أليم، تجريد للاستعارة لقصد الصراحة بهذه الفائدة لأهميتها وليس الإنجاء من العذاب من شأن التجارة فهو من مناسبات المعنى الحقيقي للعمل الصالح.

وجملة)تؤمنون بالله ورسوله(مستأنفة استئنافا بيانيا لأن ذكر الدلالة مجمل والتشويق الذي سبقها مما يشير في أنفس السامعين التساؤل عن هذا الذي تدلنا عليه وعن هذه التجارة.

وإذ قد كان الخطاب لقوم مؤمنين فإن فعل)تؤمنون بالله(مع) وتجاهدون(مراد به تجمعون بين الإيمان بالله ورسوله وبين الجهاد في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم تنويها بشأن الجهاد. وفي التعبير بالمضارع إفادة الأمر بالدوام على الإيمان وتجديده في كل آن، وذلك تعريض بالمنافقين وتحذير من التغافل عن ملازمة الإيمان وشؤونه.

وأما)تجاهدون(فإنه لإرادة تجدد الجهاد إذا استنفروا إليه.

ومجيء)يغفر(مجزوما تنبيه على أن)تؤمنون( )وتجاهدون(وإن جاءا في صيغة الخبر فالمراد الأمر لأن الجزم إنما يكون في جواب الطلب لا في جواب الخبر. قال المبرد والزمخشري.

وقال الفراء: جزم)يغفر(لأنه جواب)هل أدلكم(، أي لأن متعلق) أدلكم(هو التجارة المفسرة بالإيمان والجهاد، فكأنه قيل: هل تنجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم ذنوبكم.

وإنما جيء بالفعلين الأولين على لفظ الخبر للإيذان بوجوب الامتثال حتى يفرض المأمور كأنه سمع الأمر وأمتثله.

وقرأ الجمهور)تنجيكم(بسكون النون وتخفيف الجيم. وقرأه ابن عامر بفتح النون وتشديد الجيم، يقال: أنجاه ونجاه.

والإشارة ب)ذلكم(إلى الإيمان والجهاد بتأويل: المذكور: خير.

و)خير(هذا ليس اسم تفضيل الذي أصله أخير ووزنه: أفعل، بل هو اسم لضد الشر ووزنه: فعل.

وجمع قوله)خير(ما هو خير الدنيا وخير الآخرة.

وقوله)إن كنتم تعلمون(تعريض لهم بالعتاب على توليهم يوم أحد بعد أن قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فتدبوا إلى الجهاد فكان ما كان منهم يوم أحد، كما تقدم في أول السورة، فنزلوا منزلة من يشك في عملهم بأنه خير لعدم جريهم على موجب العلم.

والمساكن الطيبة: هي القصور التي في الجنة، قال تعالى)ويجعل لك قصورا(.

وإنما خصت المساكن بالذكر هنا لأن في الجهاد مفارقة مساكنهم، فوعدوا على تلك المفارقة المؤقتة بمساكن أبدية. قال تعالى)قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم(إلى قوله) ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله(الآية.

)وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب(عطف على جملة)يغفر لكم( )ويدخلكم(عطف الاسمية على الفعلية. وجيء بالاسمية لإفادة الثبوت والتحقق. ف)أخرى(مبتدأ خبره محذوف دل عليه قوله)

لكم(من قوله)يغفر لكم(. والتقدير: أخرى لكم، ولك أن تجعل الخبر قوله)نصر من الله(.
وجيء به وصفا مؤنثا بتأويل نعمة، أو فضيلة، أو حصله مما يؤذن به قوله)يغفر لكم ذنوبكم(إلى آخره من معنى النعمة والخصلة كقوله تعالى)وأخرى لم تقدروا عليها(في سورة الفتح.
ووصف)أخرى(بجملة)تحبونها(إشارة إلى الامتنان عليهم بإعطائهم ما يحبون في الحياة الدنيا قبل إعطاء نعيم الآخرة. وهذا نظير قوله تعالى)فلنولينك قبلة ترضاها(.
و)نصر من الله(بدل من أخرى، ويجوز أن يكون خبرا عن أخرى. والمراد به النصر العظيم، وهو نصر فتح مكة فإنه كان نصرا على أشد أعدائهم الذين فتنوهم وآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وألبوا عليهم العرب والأحزاب. وراموا تشويه سمعتهم، وقد انضم إليه نصر الدين بإسلام أولئك الذين كانوا من قبل أئمة الكفر ومساعير الفتنة، فأصبحوا مؤمنين إخوانا وصدق الله وعده بقوله)عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة(وقوله)واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا(.
وذكر اسم الجلالة يجوز أن يكون إظهارا في مقام الإضمار على احتمال أن يكون ضمير التكلم في قوله)هل أدلكم(كلاما من الله تعالى، ويجوز أن يكون جاريا على مقتضى الظاهر إن كان الخطاب أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بتقدير)قل(.
ووصف الفتح ب)قريب(تعجيل بالسمرة.
وهذه الآية من معجزات القرآن الراجعة إلى الإخبار بالغيب.
)وبشر المؤمنين[13](

صفحة : 4409

يجوز أن تكون عطفا على مجموع الكلام الذي قبلها ابتداء من قوله)يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة(على احتمال أن ما قبلها كلام صادر من جانب الله تعالى، عطف غرض على غرض فيكون الأمر من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يبشر المؤمنين. ولا يتأتى في هذه الجملة فرض عطف الإنشاء على الإخبار إذ ليس عطف جملة على جملة بل جملة على مجموع جمل على نحو ما اختاره الزمخشري عند تفسير قوله تعالى)وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات(الآية في أوائل سورة البقرة وما بينه من كلام السيد الشريف في حاشية الكشاف.
وأما على احتمال أن يكون قوله)يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم(إلى آخره مسوقا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن

يقول)هل أدلكم على تجارة(بتقدير قول محذوف، أي قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم، إلى آخره، فيكون الأمر في)وبشر(التفاتا من قبيل التجريد. والمعنى: وابشر المؤمنين.

وقد تقدم القول في عطف الإنشاء على الإخبار عند قوله تعالى) وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار(في أوائل سورة البقرة.

والذي استقر عليه رأيي الآن أن الاختلاف بين الجملتين بالخبرية والإنشائية اختلاف لفظي لا يؤثر بين الجملتين اتصالا ولا انقطاعا لأن الاتصال والانقطاع أمران معنويان وتابعان للأغراض فالعبرة بالمناسبة المعنوية دون الصيغة اللفظية وفي هذا مقنع حيث فاتني التعرض لهذا الوجه عند تفسير آية سورة البقرة.

)يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارا لله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين[14](هذا خطاب آخر للمؤمنين تكملة لما تضمنه الخطاب بقوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة(إلى قوله)وتجاهدون في سبيل الله(الآية الذي هو المقصود من ذلك الخطاب، فجاء هذا الخطاب الثاني تذكيرا بأسوة عظيمة من أحوال المخلصين من المؤمنين السابقين وهم أصحاب عيسى عليه السلام مع قلة عددهم وضعفهم.

فأمر الله المؤمنين بنصر الدين وهو نصر غير النصر الذي بالجهاد لأن ذلك تقدم التحريض عليه في قوله)وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم(الآية ووعدهم عليه بأن ينصرهم الله، فهذا النصر المأمور به هنا نصر دين الله الذي آمنوا به بأن يبثوه ويثبتوا على الأخذ به دون اكتراث بما يلاقونه من أذى من المشركين وأهل الكتاب، قال تعالى)لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور(. وهذا هو الذي شبه بنصر الحواريين دين الله الذي جاء به عيسى عليه السلام، فإن عيسى لم يجاهد من عاندوه، ولا كان الحواريون ممن جاهدوا ولكنه صبر وصبروا حتى أظهر الله دين النصرانية وانتشر في الأرض ثم دب إليه التغيير حتى جاء الإسلام منسخة من أصله.

والأنصار: جمع نصير، وهو الناصر الشديد النصر.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر)كونوا أنصارا لله(بتنوين)أنصارا(وقرن اسم الجلالة باللام الجارة فيكون) أنصارا(مرادا به دلالة اسم الفاعل المفيد للإحداث، أي محدثين

النصر، واللام للأجل، أي لأجل الله، أي ناصرين له كما قال تعالى) فلا ناصر لهم(.
وقرأه الباقون بإضافة)أنصار(إلى اسم الجلالة بدون لام على اعتبار أنصار كاللقب على نحو قوله)من أنصاري(.
والتشبيه بدعوة عيسى ابن مريم للحواريين وجواب الحواريين تشبيه تمثيل، أي كونوا عند ما يدعوكم محمد صلى الله عليه وسلم إلى نصر الله كحالة قول عيسى ابن مريم للحواريين واستجابتهم له.
والتشبيه لقصد التنظير والتأسي فقد صدق الحواريون وعدهم وثبتوا على الدين ولم تزعزعهم الفتن والتعذيب.

صفحة : 4410

و)ما(مصدرية، أي كقول عيسى وقول الحواريين. وفيه حذف مضاف تقديره: لكون قول عيسى وقول الحواريين. فالتشبيه بمجموع الأمرين قول عيسى وجواب الحواريين لأن جواب الحواريين بمنزلة الكلام المفرع على دعوة عيسى وإنما تحذف الفاء في مثله من المقاولات والمحاورات للاختصار، كما تقدم في قوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة.
وقول عيسى)من أنصاري إلى الله(استفهام لاختبار انتدابهم إلى نصر دين الله معه نظير قول طرفه:
إذا القوم قالوا من فتى خلت إنني
عنيت فلم أكسل ولم أتـبـلـد وإضافة)أنصار(إلى ياء المتكلم وهو عيسى باعتبارهم أنصار دعوته.
و)إلى الله(متعلق ب)أنصاري(. ومعنى)إلى(الانتهاء المجازي، أي متوجهين إلى الله، شبه دعاؤهم إلى الدين وتعليمهم الناس ما يرضاه الله لهم بسعي ساعتين إلى الله لينصروه كما يسعى المستنجد بهم إلى مكان مستنجدهم لينصره على من غلبه.
ففي حرف)إلى(استعارة تبعية، ولذلك كان الجواب المحكي عن الحواريين مطابقا للاستفهام إذ قالوا: نحن أنصار الله، أي نحن ننصر الله على من حاده وشاقه، أي ننصر دينه.
والحواريون: جمع حواري بفتح الحاء وتخفيف الواو وهي كلمة معربة عن الحبشية حواريا وهو الصاحب الصفي، وليست عربية الأصل ولا مشتقة من مادة عربية، وقد عدها الضحاك في جملة الألفاظ المعربة لكنه قال: إنها نبطية. ومعنى الحواري الغسال، كذا في الإتقان.

والحواريون: اسم أطلقه القرآن على أصحاب عيسى الاثنى عشر، ولا شك أنه كان معروفا عند نصارى العرب أخذوه من نصارى الحبشة. ولا يعرف هذا الاسم في الأناجيل.

وقد سمي النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام حواريه على التشبيه بأحد الحواريين فقال: لكل نبي حواري وحواري الزبير . وقد تقدم ذكر الحواريين في قوله تعالى)قال الحواريون نحن أنصار الله(في سورة آل عمران.

واعلم أن مقالة عيسى عليه السلام المحكية في هذه الآية غير مقالته المحكية في آية آل عمران فإن تلك موجهة إلى جماعة بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر لما دعاهم إلى الإيمان به.

أما مقالته المحكية هنا فهي موجهة للذين آمنوا به طالبا منهم نصرته لقوله تعالى)كما قال عيسى ابن مرين للحواريين(الآية، فلذلك تعين اختلاف مقتضى الكلامين المتماثلين. وعلى حسب اختلاف المقامين يجرى اختلاف اعتبار الخصوصيات في الكلامين وإن كانا متشابهين فقد جعلنا هنالك إضافة)أنصار الله(إضافة لفظية وبذلك لم يكن قولهم)نحن أنصار الله(مفيدا للقصر لانعدام تعريف المسند. فأما هنا فالأظهر أن كلمة)أنصار الله(اعتبرت لقبا للحواريين غرفوا أنفسهم به وخلعوه على أنفسهم فلذلك أرادوا الاستدلال به على أنهم أحق الناس بتحقيق معناه، ولذلك تكون إضافة)أنصار(إلى اسم الجلالة هنا إضافة معنوية مفيدة تعريفا فصارت جملة)نحن أنصار الله(هنا مشتملة على صيغة قصر على خلاف نظيرتها التي في سورة آل عمران.

ففي حكاية جواب الحواريين هنا خصوصية صيغة القصر بتعريف المسند إليه والمسند. وخصوصية التعريف بالإضافة. فكان إيجازا في حكاية جوابهم بأنهم أجابوا بالانتداب إلى نصر الرسول ويجعل أنفسهم محقوقين بهذا النصر لأنهم محضوا أنفسهم لنصر الدين وعرفوا بذلك وبحصر نصر الذين فيهم حصرا يفيد المبالغة في تمحضهم له حتى كأنه لا ناصر للدين غيرهم مع قلتهم وإفادته التعريض بكفر بقية قومهم من بني إسرائيل.

وفرع على قول الحوارين)نحن أنصار(الأخبار بأن بني إسرائيل افترقوا طائفتين طائفة آمنت بعيسى وما جاء به، وطائفة كفرت بذلك وهو التفريع يقتضي كلاما مقدرا وهو فنصروا الله بالدعوة والمصابرة عليها فاستجاب بعض بني إسرائيل وكفر بعض وإنما استجاب لهم من بني إسرائيل عدد قليل فقد جاء في إنجيل لوقا أن أتباع عيسى كانوا أكثر من سبعين.

والمقصود من قوله)فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة(التوطئة لقوله)فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا

ظاهرين(والتأييد النصر والتقوية، أيد الله أهل النصرانية بكثير ممن اتبع النصرانية بدعوة الحواريين وأتباعهم مثل بولس.

صفحة : 4411

وإنما قال)فأيدنا الذين آمنوا(ولم يقل: فأيدناهم لأن التأييد كان لمجموع المؤمنين بعيسى لا لكل فرد منهم إذ قد قتل من أتباعه خلق كثير ومثل بهم والقوا إلى السباع في المشاهد العامة تفترسهم، وكان ممن قتل من الحواريين الحواري الأكبر الذي سماه عيسى بطرس، أي الصخرة في ثباته في الله.
ويزعمون أن جثته في الكنيسة العظمى في رومة المعروفة بكنيسة القديس بطرس والحكم على المجموع في مثل هذا شائع كما تقول: نصر الله المسلمين يوم بدر مع أن منهم من قتل. والمقصود نصر الدين.
والمقصود من هذا الخبر وعد المسلمين الذين أمروا أن يكونوا أنصار الله بأن الله مؤيدهم على عدوهم.
والعدو يطلق على الواحد والجمع، قال تعالى)وهم لكم عدو(وتقدم عند قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء(في سورة الممتحنة.
والظاهر هو : الغالب، يقال: ظهر عليه، أي غلبه، وظهر به أي غلب بسببه، أي بإعانته وأصل فعله مشتق من الاسم الجامد. وهو الظهر الذي هو العمود الوسط من جسد الإنسان، والدواب لأن بالظهر قوة الحيوان. وهذا مثل فعل عضد مشتقا من العضد. و أيد مشتقا من اليد ومن تصاريفه ظاهر عليه واستظهر وظهير له قال تعالى) والملائكة بعد ذلك ظهير(. فمعنى)ظاهرين(أنهم منصورون لأن عاقبة النصر كانت لهم فتمكنوا من الحكم في اليهود الكافرين بعيسى ومزقوهم كل ممزق.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الجمعة
سميت هذه السورة عند الصحابة وفي كتب السنة والتفاسير) سورة الجمعة(ولا يعرف لها اسم غير ذلك. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: كنا جلوسا عند النبي فأنزلت عليه سورة الجمعة الحديث. وسيأتي عند تفسير قوله تعالى)وآخرين منهم لما يلحقوا بهم(.
ووجه تسميتها وقوه لفظ)الجمعة(فيها وهو اسم لليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام.

وقال ثعلب: إن قريشا كانت تجتمع فيه عند قصي بدار الندوة. ولا يقتضي في ذلك أنهم سموا ذلك اليوم الجمعة.

ولم أر في كلام العرب قبل الإسلام ما يثبت أن اسم الجمعة أطلقوه على هذا اليوم.

وقد أطلق اسم)الجمعة(على الصلاة المشروعة فيه على حذف المضاف لكثرة الاستعمال. وفي حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل ، ووقع في كلام عائشة كان الناس ينتابون الجمعة من منازلهم والعوالي الخ.

وفي كلام أنس كنا نقيل بعد الجمعة ، ومن كلام ابن عمر كان رسول الله لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف ، أي من المسجد . ومن كلام سهل بن سعد ما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة . فيحتمل أن يكون لفظ الجمعة الذي في اسم هذه السورة معنيا به صلاة الجمعة لأن في هذه السورة أحكاما لصلاة الجمعة. ويحتمل أن يراد به يوم الجمعة لوقوع لفظ يوم الجمعة في السورة في آية صلاة الجمعة.

وهي مدنية بالاتفاق.

ويظهر أنها نزلت سنة ست وهي سنة خيبر، فظاهر حديث أبي هريرة الذي أشرنا إليه آنفا أن هذه السورة نزلت بعد فتح خيبر لأن أبا هريرة أسلم يوم خيبر .

وظاهره أنها نزلت دفعة واحدة فتكون قصية ورود العير من الشام هي سبب نزول السورة وسيأتي ذكر ذلك.

وكان فرض صلاة الجمعة متقدما على وقت نزول السورة فإن النبي صلى الله عليه وسلم فرضها في خطبة خطب بها للناس وصلاها في أول يوم جمعة بعد يوم الهجرة في دار لبني سالم بن عوف. وثبت أن أهل المدينة صلوها قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة كما سيأتي. فكان فرضها ثابتا بالسنة قولا وفعلا. وما ذكر في هذه السورة من قوله)إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله(ورد مورد التأكيد لحضور صلاة الجمعة وترك البيع، والتحذير من الانصراف عند الصلاة قبل تمامها كما سيأتي.

وقد عدت هذه السورة السادسة بعد المائة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن.

وظاهر حديث أبي هريرة يقتضي أن هذه السورة أنزلت دفعة واحدة غير منجمة.

وعدت آيها إحدى عشرة آية باتفاق العادين من قراء الأمصار.

أغراضها
أول أغراضها ما نزلت لأجله وهو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة والأمر بترك ما يشغل عنها في وقت أدائها. وقدم لذلك: التنويه بجلال الله تعالى.

صفحة : 4412

والتنويه بالرسول صلى الله عليه وسلم. وأنه رسول إلى العرب ومن سيلحق بهم.
وأن رسالته لهم فضل من الله.

وفي هذا توطئة لذم اليهود لأنهم حسدوا المسلمين على تشريفهم بهذا الدين.
ومن جملة ما حسدوهم عليه ونقموه أن جعل يوم الجمعة اليوم الفاضل في الأسبوع بعد أن كان يوم السبت وهو المعروف في تلك البلاد.
وإبطال زعمهم أنهم أولياء الله.
وتوبيخ قوم انصرفوا عنها لمجيء عير تجارة من الشام.
)يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم[1](افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعة استهلال لأن الغرض الأول من السورة التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصا على الابتياع من عير وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة.
وللتنبيه على أن أهل السماوات والأرض يجددون تسبيح الله ولا يفترون عنه أوثر المضارع في قوله)يسبح(.
ومعاني هذه الآية تقدمت مفرقة في أوائل سورة الحديد وسورة الحسر.
سوى أن هذه السورة جاء فيها فعل التسبيح مضارعا وجيء به في سواها ماضيا لمناسبة فيها وهي: أن الغرض منها التنويه بصلاة الجمعة والتنديد على نفر قطعوا عن صلاتهم وخرجوا لتجارة أو لهو فمناسب أن يحكى تسبيح أهل السماوات والأرض بما فيه دلالة على استمرار تسبيحهم وتجدده تعريضا بالذين لم يتموا صلاة الجمعة.
ومعاني صفات الله تعالى المذكورة هنا تقدمت في خواتم سورة الحشر.

ومناسبة الجمع بين هذه الصفات هنا أن العظيم لا ينصرف عن مجلسه من كان عنده إلا عند انقضاض مجلسه أو إيذانه بانصرافهم.
والقدوس: المنزه عن النقص وهو يرغب في حضرته. والعزيز: يعتز الملتفون حوله. فمفارقتهم حضرته تفريط في العزة. وكذلك الحكيم إذا فارق أحد حضرته فاته في كل آن شيء من الحكمة كما فات الذين انفضوا إلى العير ما خطب به النبي صلى الله عليه وسلم إذ تركوه قائما في الخطبة.
)هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[2]
(استئناف بياني ناشئ عن إجراء الصفات المذكورة آنفا على اسم الجلالة إذ يتساءل السامع عن وجه تخصيص تلك الصفات بالذكر من بين صفات الله تعالى فكأن الحال مقتضيا أن يبين شيء عظيم من تعلق تلك الصفات بأحوال خلقه تعالى إذ بعث فيهم رسولا يطهر نفوسهم ويزكيهم ويعلمهم. فصفة)الملك(تعلقت بأن يدبر أمر عباده ويصلح شؤونهم، وصفة)القدوس(تعلقت بأن يزكي نفوسهم، وصفة)العزيز(اقتضت أن يلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم ويخرجهم من ذلة الضلال فينالوا عزة العلم وشرفه، وصفة)الحكيم(اقتضت أن يعلمهم الحكمة والشريعة.
وابتداء الجملة بضمير اسم الجلالة لتكون جملة اسمية فتفيد تقوية هذا الحكم وتأكيده، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم مبعوث من الله لا محالة.
و)في(من قوله)في الأميين(للظرفية، أي ظرفية الجماعة ولأحد أفرادها. ويفهم من الظرفية معنى الملازمة، أي رسولا لا يفارقهم فليس مارا بهم كما يمر المرسل بمقالة أو بمالكة يبلغها إلى القوم ويغادرهم.
والمعنى: أن الله أقام رسوله للناس بين العرب يدعوهم وينشر رسالته إلى جميع الناس من بلاد العرب فإن دلائل عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم معلومة من مواضع أخرى من القرآن كما في سورة الأعراف)قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا(وفي سورة سبأ)وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا(.
والمراد ب)الأميين(: العرب لأن وصف الأمية غالب على الأمة العربية يومئذ. ووصف الرسول ب)منهم(، أي لم يكن غريبا عنهم كما بعث لوطا إلى أهل سلوم ولا كما بعث يونس إلى أهل نينوى، وبعث اليأس إلى أهل صيدا من الكنعانيين الذين يعبدون بعل، ف)من(تبعيضية، أي رسولا من العرب.

وهذه منة موجهة للعرب ليشكروا نعمة الله على لطفه بهم، فإن كون رسول القوم منهم نعمة زائدة على نعمة الإرشاد والهدي، وهذا استجابة لدعوة إبراهيم إذ قال)ربنا وابعث فيهم رسولا منهم(فتذكيرهم بهذه النعمة استنزال لطائر نفوسهم وعنادهم.
وفيه تورك عليهم إذ أعرضوا عن سماع القرآن فإن كون الرسول منهم وكتابه بلغتهم هو أعون على تلقي الإرشاد منه إذ ينطلق بلسانهم وبحملهم على ما يصلح أخلاقهم ليكونوا حملة هذا الدين إلى غيرهم.
والأميين: صفة لموصوف محذوف دل عليه صيغة جمع العقلاء، أي في الناس الأميين. وصيغة جمع المذكور في كلام الشارع تشمل النساء بطريقة التغليب الاصطلاحي، أي في الأميين والأميات فإن أدلة الشريعة قائمة على أنها تعم الرجال والنساء إلا في أحكام معلومة.
والأميون: الذين لا يقرؤون الكتابة ولا يكتبون، وهو جمع أمي نسبة إلى الأمة، يعنون بها أمة العرب لأنهم لا يكتبون إلا نادرا، فغلبت هذا التشبيه في الإطلاق عند العرب حتى صارت تطلق على من لا يكتب ولو من غيرهم قال تعالى في ذكر بني إسرائيل)ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني(وقد تقدم في سورة البقرة.
وأوثر التعبير به هنا توركا على اليهود لأنهم كانوا يقصدون به الغض من العرب ومن النبي صلى الله عليه وسلم جهلا منهم فيقولون: هو رسول الأميين وليس رسولا إلينا. وقد قال ابن صياد للنبي صلى الله عليه وسلم لما قال له)أتشهد أني رسول الله(. أشهد أنك رسول الأميين. وكان ابن صياد متدينا باليهودية لأن أهله كانوا حلفاء لليهود.
وكان اليهود ينتقصون المسلمين بأنهم أميون قال تعالى)ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل(فتحدى الله اليهود بأنه بعث رسولا إلى الأميين وبأن الرسول أمي، وأعلمهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء كما في آخر الآية وأن فضل الله ليس خاصا باليهود ولا يغيرهم وقد قال تعالى من قبل لموسى)ونريد أن تمن على الذين استضعفوا في الأرض فتجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض(.
ووصف الرسول بأنه منهم، أي من الأميين شامل لمماثلته لهم في الأمية وفي القومية. وهذا من إيجاز القرآن البديع.
وفي وصف الرسول الأمي بأنه يتلو على الأميين آيات الله، أي وحيه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب، أي يلقنهم إياه كما كانت الرسل

تلقن الأمم الكتاب باكتابة، ويعلمهم الحكمة التي علمتها الرسل السابقون أممهم في كل هذه الأوصاف تحد بمعجزة الأمية في هذا الرسول صلى الله عليه وسلم، أي هو مع كونه أمي قد أتى أمته بجميع الفوائد التي أتى بها الرسل غير الأميين أممهم ولم ينقص عنهم شيئا، فتمحضت الأمية للكون معجزة حصل من صاحبها أفضل مما حصل من الرسل الكاتبين مثل موسى.

وفي وصف الأمي بالتلاوة وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس ضرب من محسن الطباق لأن المتعارف أن هذه مضادة للأمية.

وابتدئ بالتلاوة لأن أول تبليغ الدعوة بإبلاغ الوحي، وثني بالتزكية لأن ابتداء الدعوة بالتطهير من الرجي المعنوي وهو الشرك، وما يعلق به من مساوي الأعمال والطباع.

وعقب بذكر تعليمهم الكتاب لأن الكتاب بعد إبلاغه إليهم تبين لهم مقاصده ومعانيه كما قال تعالى)فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه(، وقال)لتبين للناس ما نزل إليهم(، وتعليم الحكمة هو غاية ذلك كله لأن من تدبر القرآن وعمل به وفهم خفاياه نال الحكمة قال تعالى)واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به(ونظيرها قوله)لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين(في سورة آل عمران.

وجملة)وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين(في موضع الحال من الأميين، أي ليست نعمة إرسال هذا الرسول إليهم قاصرة على رفع النقائص عنهم وعلى تحليتهم بكمال علم آيات الله وزكاة أنفسهم وتعليمهم الكتاب والحكمة بل هي أجل من ذلك إذ كانت منقذة لهم من ضلال مبين كانوا فيه وهو ضلال الإشراك بالله. وإنما كان ضلالا مبينا لأنه أفحش ضلال وقد قامت على شناعته الدلائل القاطعة، أي فأخرجهم من الضلال المبين إلى أفضل الهدى، فهؤلاء هم المسلمون الذين نفروا إسلامهم في وقت نزول هذه السورة.

صفحة : 4414

و)إن(مخففة من الثقيلة وهي مهملة عن العمل في اسمها وخبرها. وقد سد مسدها فعل كان كما هو غالب استعمال) إن(المخففة. واللام في قوله)لفي ضلال مبين(تسمى اللام الفارقة، أي التي تفيد الفرق بين)إن(النافية و)إن(المخففة من الثقيلة وما هي إلا اللام التي أصلها أن تقترن بخبر)إن(إذ الأصل: وإنهم لفي

ضلال مبين، لكن ذكر اللام مع المخففة واجب غالبا لئلا تلتبس بالنافية، إلا إذا أمن اللبس.
)وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم[2](لا يجوز أن يكون)وآخرين(عطفا على)الأميين(لأن آخرين يقتضي المغايرة لما يقابله فيقتضي أنه صادق على غير الأميين، أي غير العرب والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن بين غير العرب فتعين أن لا يعطف)وآخرين(على)الأميين(لئلا يتعلق بفعل)بعث(مجرور القي ولا على الضمير في قوله)منهم(كذلك.
فهو إما معطوف على الضمير في)عليهم(من قوله)يتلو عليهم(والتقدير: يتلو على آخرين وإذا كان يتلو عليهم فقد علم أنه مرسل إليهم لأن تلاوة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تكون إلا تلاوة تبليغ لما أوحى به إليه.
وإما أن يجعل)وآخرين(مفعولا معه. والواو للمعية ويتنازعه الأفعال الثلاثة وهي)يتلو، ويزكي، ويعلم(. والتقدير: يتلو على الأميين آياتنا ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة مع آخرين.
وجملة)وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين(معترضة بين المعطوف والمعطوف عليها أو بين الضمائر والمفعول معه.
و)آخرين(: جمع آخر وهو المغاير في وصف مما دل عليه السياق. وإذ قد جعل)آخرين(هنا مقابلا للأميين كان مرادا به آخرون غير الأميين، أي من غير العرب المعنيين بالأميين.
فلو حملنا المغايرة على المغايرة بالزمان أو المكان، أي مغايرين للذين بعث فيهم الرسول، وجعلنا قوله)منهم(بمعنى أنهم من الأميين، وقلنا: أريد وآخرين من العرب غير الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم فيهم، أي عربا آخرين غير أهل مكة، وهم بقية قبائل العرب ناكده ما روى البخاري ومسلم والترمذي يزيد أخرهم على الأولين عن أبي هريرة قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ)وآخرين منهم لما يلحقوا بهم(قال له رجل: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا، وفينا سلمان الفارسي ووضع رسول الله يده على سلمان وقال: لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء؟ وهذا وارد مورد التفسير لقوله تعالى)وآخرين(.
والذي يلوح أنه تفسير بالجزئي على وجه المثال ليفيد أن)آخرين(صادق على أمم كثيرة منها أمة فارس، وأما شموله لقبائل العرب فهو بالأولى لأنهم مما شملهم لفظ الأميين.
ثم بنا أن ننظر إلى تأويل قوله تعالى)منهم(. قلنا أن نجعل)من(تبعيضية كما هو المتبادر من معانيها فنجعل الضمير المجرور ب)من(عائدا إلى ما عاد إليه ضمير)كانوا(من قوله)وإن كانوا من

قبل لفي ضلال مبين(، فالمعنى: وآخرين من الضالين يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم الكتاب والحكمة ولنا أن نجعل)من(اتصالية كالتي في قوله تعالى)لست منهم في شيء(? والمعنى: وآخرين يتصلون بهم ويصيرون في جملتهم، ويكون قوله)منهم(موضع الحال، وهذا الوجه يناسب قوله تعالى)لما يلحقوا بهم(لأن اللحوق هو معنى الاتصال.

وموضع جملة)لما يلحقوا بهم(موضع الحال، وينشأ عن هذا المعنى إيماء إلى أن الأمم التي تدخل في الإسلام بعد المسلمين الأولين يصيرون مثلهم، وينشأ منه أيضا رمز إلى أنهم يتعربون لفهم الدين والنطق بالقرآن فكم من معان جليلة حوتها هذه الآية سكت عنها أهل التفسير.

وهذه بشارة غيبية بأن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ستبلغ أمما ليسوا من العرب وهم فارس. والأرمن. والأكراد. والبربر. والسودان. والروم. والترك. والتتار. والمغول. والصين. والهنود، وغيرهم وهذا من معجزات القرآن من صنف الإخبار بالمغيبات.

وفي الآية دلالة على عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لجميع الأمم.

صفحة : 4415

والنفي ب)لما(يقتضي أن المنفي بها مستمر الانتفاء إلى زمن التكلم فيشعر بأنه مترقب الثبوت كقوله تعالى)ولما يدخل الإيمان في قلوبهم(، أي وسيدخل كما في الكشاف، والمعنى: أن آخرين هم في وقت نزول هذه الآية لم يدخلوا في الإسلام ولم يلتحقوا بمن أسلم من العرب وسيدخلون في أزمان أخرى.

واعلم أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء الإيماء إلى مثال مما يشمله قوله تعالى) وآخرين منهم(لأنه لم يصرح في جواب سؤال السائل بلفظ يقتضي انحصار المراد ب)آخرين(في قوم سلمان. وعن عكرمة: هم التابعون. وعن مجاهد: هم الناس كلهم الذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم. وقال ابن عمر: هم أهل اليمن.

وقوله)وهو العزيز الحكيم(تذييل للتعجيب من هذا التقدير الإلهي لانتشار هذا الدين في جميع الأمم. فإن العزيز لا يغلب قدرته شيء. والحكيم تأتي أفعاله عن قدر محكم.

)ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[4] (الإشارة إلى جميع المذكور من إرسال محمد صلى الله عليه

وسلم بالآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة والإنقاذ من الضلال ومن إفاضة هذه الكمالات على الأميين الذين لم تكن لهم سابقة علم ولا كتاب، ومن لحاق أمم آخرين في هذا الخبر فزال اختصاص اليهود بالكتاب والشريعة، وهذا أجدع لأنفهم إذا حالوا أن يجيء رسول أمي بشريعة إلى أمة أمية فضلا عن أن نلتحق بأمية أمم عظيمة كانوا أمكن في المعارف والسلطان.

وقال)قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم(يختص به. وهذا تمهيد ومقدمة لقوله تعالى)مثل الذين حملوا التوراة(الآيات.

)مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين[5](بعد أن تبين أنه تعالى آتى فضله قوما أميين أعقبه بأنه قد آتى فضله أهل الكتاب فلم ينتفع به هؤلاء الذين قد اقتنعوا من العلم بأن يحملوا التوراة دون فهم وهم يحسبون أن ادخار أسفار التوراة وانتقالها من بيت إلى بيت كاف في التبجح بها وتحقير من لم تكن التوراة بأيديهم، فالمراد اليهود الذين قاوموا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين.

وقد ضرب الله لهؤلاء مثلا بحال حمار يحمل أسفارا لا حظ له منها إلا الحمل دون علم ولا فهم.

ذلك أن علم اليهود بما في التوراة أدخلوا فيه ما صيره مخلوطا بأخطاء وضلالات ومتبعا فيه هوى نفوسهم وما لا يعدو نفعهم الدنيوي ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس وقد كتموا ما في كتبهم من العهد باتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال فهذا وجه ارتباط هذه الآية بالآيات التي قبلها، وبذلك كانت هي كالتتمة لما قبلها. وقال في الكشاف عن بعضهم: افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب. والعرب لا كتاب لهم. فأبطل الله ذلك بشبههم بالحمار يحمل أسفارا.

ومعنى)حملوا(: عهد بها إليهم وكلفوا بما فيها فلم يفوا بما كلفوا، يقال: حملت فلانا أمر كذا فاحتمله، قال تعالى)إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا(سورة الأحزاب.

وإطلاق الحمل وما تصرف منه على هذا المعنى استعارة، بتشبيه إيكال، الأمر بحمل الجمل على ظهر الدابة، وبذلك كان تمثيل حالهم بحال الحمار يحمل أسفارا تمثيلا للمعنى المجازي بالمعنى الحقيقي. وهو من لطائف القرآن.

و)ثم(للتراخي الرتبي فإن عدم وفائهم بما عهد إليهم أعجب من تحملهم إياه. وجملة)يحمل أسفارا(في موضع الحال من الحمار أو في موضع الصفة لأن تعريف الحمار هنا تعريف جنس فهو معرفة لفظا نكرة معنى، فصح في الجملة اعتبار الحالية والوصف.

وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف، ولذلك ذيل بذم حالهم)بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله(.

و)بئس(فعل ذم، أي ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيبا بآيات الله وهي القرآن.

صفحة : 4416

و)مثل القوم(، فاعل)بئس(. وأفنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم لحصول العلم بأن المذموم هو حال القوم المكذبين فلم يسلك في هذا التركيب طريق الإيهام على شرط التفسير لأنه قد سبقه ما بينه بالمثل المذكور قبله في قوله)كمثل الحمار يحمل أسفارا(. فصار إعادة لفظ المثل ثقيلا في الكلام أكثر من ثلاث مرات. وهذا من تفننات القرآن. و)الذين كذبوا(صفة) القوم(.

وجملة)والله لا يهدي القوم الظالمين(تذييل إخبارا عنهم بأن سوء حالهم لا يرجى لهم منه انفكاك لأن الله حرمهم اللطف والعناية بإنقاذهم لظلمهم بالاعتداء على الرسول صلى الله عليه وسلم بالتكذيب دون نظر، وعلى آيات الله بالجحد دون تدبر.

قال في الكشاف: وعن بعضهم قد أبطل الله قول اليهود في ثلاث ، أي آيات من هذه السورة: افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم في قوله)فتمنوا الموت إن كنتم صادقين(. وبأنهم أهل الكتاب والعرب لا كتاب لهم، فشبههم بالحمار يحمل أسفارا، وبالسبت وأنه ليس للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة.

)قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين[6](أعقب تمثيل حال جهلهم بالتوراة بذكر زعم من آثار جهلهم بها إبطالا لمفخرة مزعومة عندهم أنهم أولياء الله وبقية الناس ليسوا مثلهم. وذلك أصل كانوا يجعلونه حجة على أن شؤونهم أفضل من شؤون غيرهم. ومن ذلك أنهم كانوا يفتخرون بأن الله جعل لهم السبت أفضل أيام الأسبوع وأنه ليس للأميين مثله فلما جعل الله الجمعة للمسلمين اغتاظوا، وفي

الكشاف افتخر اليهود بالسبت وأنه للمسلمين مثله فشرع الله لهم الجمعة .
وافتتح بفعل)قل(للاهتمام.
و)الذين هادوا(: هم الذين كانوا يهودا، وتقدم وجه تسمية اليهود يهودا عند قوله تعالى)إن الذين آمنوا والذين هادوا(في سورة البقرة. ويجوز أن يكون)هادوا(بمعنى تابوا لقول موسى عليه السلام بعد أن أخذتهم الرجفة:)إنا هدنا إليك(كما تقدم في سورة الأعراف. وأشهر وصف بني إسرائيل في القرآن بأنهم هود جمع هائد مثل قعود جمع قاعد. وأصل هود هوود وقد تنوسي منه هذا المعنى وصار علما بالغلبة على بني إسرائيل فنودوا به هنا بهذا الاعتبار لأن المقام ليس مقام ثناء عليهم أو هو تهكم.
وجيء ب)إن(الشرطية التي الأصل فيها عدم الجزم بوقوع الشرط مع أن الشرط هنا محقق الوقوع إذ قد اشتهروا بهذا الزعم وحكاه القرآن عنهم في سورة العقود)وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه(للإشارة إلى أن زعمهم هذا لما كان باطلا بالدلائل كان بمنزلة الشيء الذي يفرض وقوعه كما يفرض المستبعد وكأنه ليس واقعا على طريقة قوله تعالى)أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين(ويفيد ذلك توبيخا بطريق الكناية.
والمعنى: إن كنتم صادقين في زعمكم فتمنوا الموت. وهذا إلجاء لهم حتى يلزمهم ثبوت شكهم فيما زعموه.
والأمر في قوله)فتمنوا(مستعمل في التعجيز: كناية عن التكذيب مثل قوله تعالى)قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين(.
ووجه الملازمة بين الشرط وجوابه أن الموت رجوع الإنسان بروحه إلى حياة أبدية تظهر فيها آثار رضى الله عن العبد أو غضبه ليجزيه على حسب فعله.
والنتيجة الحاصلة من هذا الشرط تحصل أنهم مثل جميع الناس في الحياتين الدنيا والآخرة وآثارهما، واختلاف أحوال أهلهما، فيعلم من ذلك أنهم ليسوا أفضل من الناس. وهذا ما دل عليه قوله تعالى)وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق(.
وبهذا يندفع ما قد يعرض للناظر في هذه الآية من المعارضة بينها وبين ما جاء في الأخبار الصحيحة من النهي عن تمني الموت. وما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالت عائشة: إنا نكرة الموت فقال لها ليس ذلك الحديث. وما روي عنه أنه قال: أرسل ملك الموت إلى موسى فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت(إلى قوله)قال موسى فالآن(.

ذلك أن شأن المؤمنين أن يكونوا بين الرجاء والخوف من الله، وليسوا يتوهمون أن الفوز مضمون لهم كما توهم اليهود.

صفحة : 4417

فما تضمنته هذه الآية حكاية عن حال اليهود الموجودين يومئذ، وهم عامة غلبت عليهم الأوقام والغرور بعد انقراض علمائهم، فهو حكاية عن مجموع قوم. وأما الأخبار التي أوردناها فوصف لأحوال معينة وأشخاص معينين فلا تعارض مع اختلاف الأحوال والأزمان، فلو حصل لأحد يقين بالتعجيل إلى النعيم لتمنى الموت إلا أن تكون حياته لتأييد الدين كحياة الأنبياء.

فعلى الأول يحمل حال عمير بن الحمام في قوله:

جريا إلى الله بغير زاد وحال جعفر بن أبي طالب يوم موته وقد اقتحم صف المشركين:

يا حبذا الجنة واقترابها وقول عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمان مغـفـرة وضربة

ذات فزغ تقذف الزبدا المتقدمة في سورة البقرة لأن الشهادة مضمونه الجزاء الأحسن والمغفرة التامة.

وعلى الثاني يحمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة في تأويل قوله)من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه(إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله. وقول موسى عليه السلام لملك الموت:)فالآن(.

)ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين[7]

(اعتراض بين جملتي القولين قصد به تحيهم لإقامة الحجة عليهم أنهم ليسوا أولياء لله.

وليس المقصود من هذا معذرة لهم من عدم تمنيهم الموت وإنما المقصود زيادة الكشف عن بطلان قولهم)نحن أبناء الله وأحباؤه(وإثبات أنهم في شك من ذلك كما دل عليه استدلال القرآن عليهم يتحققهم أن الله يعذبهم بذنوبهم في قوله تعالى) وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم(. وقد مر ذلك في تفسير سورة العقود.

والباء في)بما قدمت أيديهم(سببية متعلقة بفعل)يتمنونه(المنفي فما قدمت أيديهم هو سبب انتفاء تمنيهم الموت ألقى في نفوسهم الخوف مما قدمت أيديهم فكان سبب صرفهم عن تمتي الموت لتقدم الحجة عليهم.

و)ما(موصولة وعائدة الصلة محذوف وحذفه أغلبي في أمثاله.

والأيدي مجاز في اكتساب الأعمال لأن اليد يلزمها الاكتساب غالبا. وما صدق)ما قدمته أيديهم(سيئاتهم ومعاصيهم بقرينة المقام.
وتقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة وما ذكرته هنا أتم مما هنالك فأجمع بينهما.
والتقديم: أصله جعل الشيء مقدما، أي سابقا غيره في مكان يقعوه فيه غيره. واستعير هنا لما سلف من العمل تشبيها له بشيء يسبقه المرء إلى مكان قبل وصوله إليه.
وجملة)والله عليم بالظالمين(، أي عليم بأحوالهم وبأحوال أمثالهم من الظالمين فشمل لفظ الظالمين اليهود فإنهم من الظالمين. وقد تقدم معنى ظلمهم في الآية قبلها. وقد وصف اليهود بالظالمين في آيات كثيرة، وتقدم عند قوله تعالى)ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله(والمقصود أن أحجامهم عن تمني الموت لما في نفوسهم من خوف العقاب على ما فعلوه في الدنيا، فكني بعلم الله بأحوالهم عن عدم انفلاتهم من الجزاء عليها ففي هذا وعيد لهم.
)قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون[8](تصريح بما اقتضاه التذييل من الوعيد وعدم الانفلات من الجزاء عن أعمالهم ولو بعد زمان وقوعها لأن طول الزمان لا يؤثر في علم الله نسيانا، إذ هو عالم الغيب والشهادة. وموقع هذه الجملة موقع بدل الاشتمال من جملة)فتمنوا الموت إن كنتم صادقين(، وإعادة فعل)قل(من قبيل إعادة العامل في المبدل منه كقوله تعالى)تكون لنا عيدا لأولنا وأخرنا(في سورة العقود.
ووصف)الموت(ب)الذي تفرون منه(للتنبيه على أن هلعهم من الموت خطأ كقول علقمة:
إن الذين ترونـهـم إخـوانـكـم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا وأطلق الفرار على شدة الحذر على وجه الاستعارة.
واقتران خبر)إن(بالفاء في قوله)فإنه ملاقيكم(لأن اسم) إن(نعت باسم الموصول والموصول كثيرا ما يعامل معاملة الشرط فعومل اسم)إن(المنعوت بالموصول معاملة نعته.
وإعادة)إن(الأولى لزيادة التأكيد كقول جرير:
إن الخليفة إن الله سـربـلـه سربال ملك به تزجى الخواتيم

وتقدم عند قوله تعالى)إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا(في سورة الكهف. وفي سورة الحج أيضا.

والإنباء بما كانوا يعملون كناية عن الحساب عليه، وهو تعريض بالوعيد.

)يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون[9] فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون[10](هذه الآيات هي المقصود من السورة وما قبلها مقدمات وتوطئات لها كما ذكرناه آنفا. وقد تقدم ما حكاه الكشاف من أن اليهود افتخروا على المسلمين بالسبت فشرع الله للمسلمين الجمعة. فهذا وجه اتصال هذه الآية بالآيات الأربع التي قبلها فكن لهذه الآية تمهيدا وتوطئة. واللام في قوله)للصلاة(لام التعليل، أي نادى مناد لأجل الصلاة من يوم الجمعة، فعلم أن النداء هنا هو أذان الصلاة.

والجمعة بضم الجيم وضم الميم في لغة جمهور العرب وهو لغة أهل الحجاز. وبنو عقيل بسكون الميم.

والتعريف في)الصلاة(تعريف العهد وهي الصلاة المعروفة الخاصة بيوم الجمعة. وقد ثبتت شرعا بالتواتر ثم تقررت بهذه الآية فصار دليل وجوبها في الكتاب والسنة المتواترة وإجماع الأمة.

وكانت صلاة الجمعة مشروعة من أول أيام الهجرة. روي عن ابن سيرين أن الأنصار جمعوا الجمعة قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قالوا: إن اليهود يوما يجتمعون فيه وللنصارى يوم مثل ذلك فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوما لنا نذكر الله ونصلي فيه. وقالوا: أن لليهود السبت وللنصارى الأحد فاجعلوه يوم العروبة. فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين وذكرهم.

وروى البيهقي عن الزهري أن مصعب بن عمير كان أول من جمع الجمعة بالمدينة قبل أن يقدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتعين أن يكون ذلك قد علم به النبي صلى الله عليه وسلم ولعلهم بلغهم عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث فضل يوم الجمعة وأنه يوم المسلمين.

فمشروعية صلاة الجمعة والتجميع فيه إجابة من الله تعالى رغبة المسلمين مثل أجابته رغبة النبي صلى الله عليه وسلم استقبال الكعبة المذكورة في قوله تعالى)قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام(.

وأما أول جمعة جمعها النبي صلى الله عليه وسلم فقال أهل السير: كانت في اليوم الخامس للهجرة لأن رسول الله قدم المدينة

يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول فأقام بقباء ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة فأدركه وقت الجمعة في بطن واد لبني سالم بن عوف كان لهم فيه مسجد، فجمع بهم في ذلك المسجد، وخطب فيه أول خطبة خطبها بالمدينة وهي طويلة ذكر نصها القرطبي في تفسيره.

وقولهم)فأدركه وقت الجمعة(، يدل على أن صلاة الجمعة كانت مشروعة يومئذ وأن النبي صلى الله عليه وسلم كان عازما أن يصليها بالمدينة فضاق عليه الوقت فأداها في مسجد بني سالم، ثم صلى الجمعة القابلة في مسجده بالمدينة وكانت جمعة المسجد النبوي بالمدينة الثانية بالأخبار الصحيحة.

وأول جمعة جمعت في مسجد من مساجد بلاد الإسلام بعد المدينة كانت في مسجد جؤاثاء من بلاد البحرين وهي مدينة الخط قرية لعبد القيس. ولما ارتدت العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثبت أهل جؤاثاء على الإسلام.

وتقرر أن يوم الجمعة اليوم السابع من أيام الأسبوع في الإسلام وهو الذي كان يسمى في الجاهلية عروبة. قال بعض الأئمة: ولا تدخل عليه اللام. قال السهيلي: معنى العروبة الراحة فيما بلغني عن بعض أهل العلم اه. قلت وذلك مروي عن ثعلب، وهو قبل يوم السبت وقد كان يوم السبت عيد الأسبوع عند اليهود وهو آخر أيام الأسبوع. وقد فرضت عليهم الراحة فيه عن الشغل بنص التوراة فكانوا يبتدئون عدد أيام الأسبوع من يوم الأحد وهو الموالي للسبت وتبعهم العرب في ذلك لأسباب غير معروفة ولذلك سمي العرب القدماء يوم الأحد أول .

فأيام الأسبوع عند العرب في القديم هي: أول، أهون جبار، كغراب وكتاب ، دبار كذلك ، مؤيس مهموزا ، عروبة، شيار بشين معجمة مكسورة بعدها تحتية مخففة .

صفحة : 4419

ثم أحدثوا أسماء لهذه الأيام هي: الأحد، الاثنين، الثلاثاء بفتح المثلثة الأولى وبضمها ، الأربعاء بكسر الهمزة وكسر الموحدة ، الخميس، عروبة أو الجمعة في قول بعضهم السبت. وأصل السبت: القطع، سمي سبتا عند الإسرائيليين لأنهم يقطعون فيه العمل، وشاع ذلك الاسم عند العرب .

وسموا الأيام الأربعة بعده بأسماء مشتقة عن أسماء العدد على ترتيبها وليس في التوراة ذكر أسماء للأيام. وفي سفر التكوين منها

ذكرت أيام بدء الخلق بأعدادها أول وثان الخ، وأن الله لم يخلق شيئا في اليوم الذي بعد اليوم السادس. وسمته التوراة سبتا، قال السهيلي: قيل أول من سمى يوم عروبة الجمعة كعب بن لؤي جد أبي قصي. وكان قريش يجتمعون فيه إلى كعب قال: وفي قول بعضهم. لم يسم يوم عروبة يوم الجمعة إلا مذ جاء الإسلام.

جعل الله يوم الجمعة للمسلمين عيد الأسبوع فشرع لهم اجتماع أهل البلد في المسجد وسماع الخطبة ليعلموا ما يهمهم في إقامة شؤون دينهم وإصلاحهم.

قال القفال: لما جعل الله الناس أشرف العالم السفلي لم يخف عظم المنة وجلالة قدر موهبته لهم فأمرهم بالسكر على هذه الكرامة في يوم من الأيام السبعة ليكون في اجتماعهم في ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله به عليهم. ولكل أهل ملة معروفة يوم من الأسبوع معظم، فلليهود يوم السبت وللنصارى الأحد وللمسلمين يوم الجمعة. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: نحن الآخرون ، أي آخر الدنيا السابقون يوم القيامة يوم القيامة يتعلق ب السابقون . بيد أنهم أي اليهود والنصارى أوتوا الكتاب من قبلنا ثم كان هذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه، فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد.

ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر وتعظيم نعمة احتج فيه إلى الاجتماع الذي تقع به شهرته فجمعت الجماعات لذلك، واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيرا بالنعمة وحثا على استدامتها. ولما كان مدار التعظيم إنما هو على الصلاة جعلت الصلاة لهذا اليوم وسط النهار ليتم الاجتماع ولم تجز هذه الصلاة إلا في مسجد واحد ليكون أدعى الاجتماع اه. كلام القفال. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: والنصارى بعد غد، إشارة إلى ما عمله النصارى بعد المسيح وبعد الحواريين من تعويض يوم السبت بيوم الأحد لأنهم زعموا أن يوم الأحد فيه قام عيسى من قبره. فعوضوا الأحد عن يوم السبت بأمر من قسطنطين سلطان الروم في سنة 321 المسيحي. وصار دينا لهم بأمر أحبارهم.

وصلاة الجمعة هي صلاة ظهر يوم الجمعة، وليست صلاة زائدة على الصلوات الخمس فأسقط من صلاة الظهر ركعتان لأجل الخطبتين. روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: وإنما قصرت الجمعة لأجل الخطبة.

وأحسب أن ذلك تخفيف على الناس إذ وجبت عليهم خطبتان مع الصلاة فكانت كل خطبة بمنزلة ركعة وهذا سبب الجلوس بين الخطبتين للإيماء إلى أنهما قائمتان مقام الركعتين ولذلك كان الجلوس خفيفا. غير أن الخطبتين لم تعطيا أحكام الركعتين فلا يضر

فوات إحداهما أو فواتهما معا ولا يجب على المسبوق تعويضهما ولا سجود لنقصهما عند جمهور فقهاء الأمصار، روي عن عطاء ومجاهد وطاووس: أن من فاتته الخطبة يوم الجمعة صلى أربعا صلاة الظهر. وعن عطاء: أن من أدرك ركعة من صلاة الجمعة أضاف إليها ثلاث ركعات وهو أراد أن فاتته الخطبة وركعة من صلاة الجمعة.

وجعلت القراءة في الصلاة جهرا مع أن شأن صلوات النهار إسرار القراءة لفائدة إسماع الناس سورا من القرآن كما أسمعوا الخطبة فكانت صلاة إرشاد لأهل البلد في يوم من كل أسبوع.

والإجماع على أن صلاة الجمعة قائمة مقام صلاة الظهر في يوم الجمعة فمن صلاها لا يصلي معها ظهرا فأما من لم يصلها لعذر أو لغيره فيجب عليه أن يصلي الظهر. ورأيت في الجامع الأموي في دمشق قام إمام يصلي بجماعة ظهرا بعد الفراغ من صلاة الجمعة وذلك بدعة.

وإنما اختلف الأئمة في أصل الفرض في وقت الظهر يوم الجمعة فقال مالك والشافعي في آخر قوليه وأحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة: صلاة الجمعة المعروفة فرض وقت الزوال في يوم الجمعة وصلاة الظهر في ذلك اليوم لا تكون إلا بدلا عن صلاة الجمعة، أي لمن لم يصل الجمعة لعذر ونحوه.

صفحة : 4420

وقال أبو حنيفة والشافعي في أول قوليه المرجوع عنه وأبو يوسف ومحمد في رواية: الفرض بالأصل هو الظهر وصلاة الجمعة بدل عن الظهر، وهو الذي صححه فقهاء الحنفية.

وقال محمد في رواية عنه: الفرض إحدى الصلاتين من غير تعيين والتعيين للمكلف فأشبه الواجب المخبر لأن الواجب المخير لا يأثم فيه فاعل أحد الأمرين وتارك الجمعة بدون عذر آثم .

قالوا: تظهر فائدة الخلاف في حر مقيم صلى الظهر في أول الوقت؛ فقال أبو حنيفة وأصحابه: له صلاة الظهر مطلقا حتى لو خرج بعد أن صلى الظهر أو لم يخرج لم يبطل فرضه، لكن عند أبي حنيفة يبطل ظهره بمجرد السعي مطلقا وعند صاحبيه لا يبطل ظهره إلا إذا أدرك الجمعة.

وقال مالك والشافعي: لا يجوز أن يصلي الظهر يوم الجمعة سواء أدرك الجمعة أم لا، خرج إليها أم لا يعني فإن أدرك الجمعة فالأمر ظاهر وإن لم يدركها وجب عليه أن يصلي ظهرا آخر.

والنداء للصلاة: الأذان المعروف وهو أذان الظهر ورد في الصحيح عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر. قال السائب بن يزيد: فلما كان عثمان وكثر الناس بالمدينة زاد أذانا على الزوراء الزوراء موضع بسوق المدينة . وربما وصف في بعض الروايات بالأذان الثاني. ومعنى كونه ثانيا أنه أذان مكرر للأذان الأصلي فهو ثان في المشروعية ولا يريد أنه يؤذن به بعد الفراغ من الأذان الذي يؤذن به وقت جلوس الإمام على المنير، أي يؤذن به في باب المسجد، إذ لم يكن للناس يومئذ صومعة، وربما وقع في بعض الروايات وصفه بالنداء الثالث وإنما يعني بذلك أنه ثالث بضميمه الأذان الأول. ولا يراد أن الناس يؤذنون أذانين في المسجد وإنما زاده عثمان ليسمع النداء من في أطراف المدينة، وربما سموه الأذان الأول.

والذي يظهر من تحقيق الروايات أن هذا الأذان الثاني يؤذن به عقب الأذان الأول، لأن المقصود حضور الناس للصلاة في وقت واحد ووقع في بعض عبارات الروايات والرواة أنه كان يؤذن بأذان الزوراء أولا ثم يخرج الإمام فيؤذن بالأذان بين يديه.

قال ابن العربي في العارضة: لما كثر الناس في زمن عثمان زاد النداء على الزوراء ليشعر الناس بالوقت فيأخذوا بالإقبال إلى الجمعة ثم يخرج عثمان فإذا جلس على المنبر أذن الثاني الذي كان أولا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخطب. ثم يؤذن الثالث يعني به الإقامة اه.

وقال في الأحكام: وسماه في الحديث أي حديث السائب بن يزيد ثالث لأنه إضافة إلى الإقامة فجعله ثالث الإقامة، أي لأنه أحدث بعد أن كانت الإقامة مشروعة وسمى الإقامة أذانا مشاكلة أو لأنها إيذان بالدخول في الصلاة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: بين كل أذانين صلاة لمن شاء يعني بين الأذان والإقامة، فتوهم الناس أنه أذان أصلي فجعلوا الأذانات ثلاثة فكان وهما. ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وهما على وهم اه. فتوهم كثير من أهل الأمصار أن الأذان لصلاة الجمعة ثلاث مرات لهذا تراهم يؤذنون في جوامع تونس ثلاثة أذانات وهو بدعة.

قال ابن العربي في العارضة: فأما بالمغرب أي بلاد المغرب فيؤذن ثلاثة من المؤذنين لجهل المفتين في الرسالة: وهذا الأذان الثاني أحدثه بنو أمية فوصفه بالثاني وهو التحقيق، ولكنه نسبة إلى بني أمية لعدم ثبوت أن الذي زاده عثمان، ورواه البخاري وأهل السنن عن السائب بن يزيد ولم يره مسلم ولا مالك في الموطأ.

والسبب في نسبته إلى بني أمية: أن علي بن أبي طالب لما كان بالكوفة لم يؤذن الجمعة إلا أذانا واحدا كما كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وألغي الأذان الذي جعله عثمان بالمدينة. فلعل الذي أرجع الأذان الثاني بعض خلفاء بني أمية قال مالك في المجموعة: إن هشام بن عبد الملك أحدث أذانا ثانيا بين يديه في المسجد.

واعلم أن النداء الذي نيط به الأمر بالسعي قي هذه الآية هو النداء الأول، وما كان النداء الثاني إلا تبليغا للأذان لمن كان بعيد فيجب على من سمعه السعي إلى الجمعة للعلم بأنه قد نودي للجمعة.

والسعي: أصله الاشتداد في المشي. وأطلق هنا على المشي بحرص التأخر مجازا.

صفحة : 4421

وذكر الله فسر بالصلاة وفسر بالخطبة، بهذا فسره سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير. قال أبو بكر بن العربي والصحيح أنه الجميع أوله الخطبة .

قلت: وإيثار ذر الله هنا دون أن يقول: إلى الصلاة، كما قال فإذا قضيت الصلاة لتتأتى إرادة الأمرين الخطبة والصلاة. وفيه دليل على وجوب الخطبة في صلاة الجمعة وشرطيته على الجملة. وتفصيل أحكام التخلف عن الخطبة ليست مساوية للتخلف عن الصلاة إلا في أصل حرمة التخلف عن حضور الخطبة بغير عذر.

وفي حديث الموطأ فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر ولا شك أن الإمام إذا خرج ابتداء بالخطبة فكانت الخطبة من الذكر وفي ذلك تفسير للفظ الذكر في هذه الآية. وإنما نهوا عن البيع لأنه الذي يشغلهم ولأن سبب نزول الآية كان لترك فريق منهم الجمعة إقبالا على عير تجارة وردت كما سيأتي في قوله تعالى)وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها(.

ومثل البيع كما يشغل عن السعي إلى الجمعة، وبعد كون البيع وما قيس عليه منها فقد اختلف في نسخ العقود التي انعقدت وقت الجمعة. وهو مبني على الخلاف في اقتضاء النهي فساد المنهي عنه، ومذهب مالك أن النهي يقتضي الفساد إلا لدليل. وقول مالك في المدونة: إن البيع الواقع في وقت صلاة الجمعة بين من تجب عليهم الجمعة يفسخ. وقال الشافعي: لا يفسخ. وجعله كالصلاة في الأرض المغصوبة وهو قول أبي حنيفة أيضا.

وأما النكاح المعقود في وقت الجمعة: ففي العتيبة عن ابن القاسم: لا يفسخ. ولعله اقتصر على ما ورد النهي عنه في القرآن ولم ير القياس موجبا لفسخ المقيس. وكذلك قال أئمة المالكية: لا تفسخ الشركة والهبة والصدقة الواقعة في وقت الجمعة وعللوا ذلك بندرة وقوع أمثالها بخلاف البيع.

وخطاب الآية جميع المؤمنين فدل على أن الجمعة واجبة على الأعيان. وشذ قوم قالوا: إنها واجبة على الكفاية قال ابن الفرس: ونسب إلى بعض الشافعية وخطاب القرآن الذين آمنوا عام خصصته السنة بعدم وجوب الجمعة على النساء والعبيد والمسافر إذا حل بقرية الجمعة ومن لا يستطيع السعي إليها.

و)من(في قوله)من يوم الجمعة(تبعيضية فإن يوم الجمعة زمان تقع فيه أعمال منها الصلاة المعهودة فيه، فنزل ما يقع في الزمان بمنزلة أجزاء الشيء.

ويجوز كون)من(للظرفية مثل التي في قوله تعالى)أروني ماذا خلقوا من الأرض(، أي فيها من المخلوقات الأرضية.

والإشارة ب)ذلكم(إلى المذكور، أي ما ذكر من أمر بالسعي إليها، وأمر بترك البيع حينئذ، لأي ذلك خير لكم مما يحصل لكم من البيوعات. فلفظ)خير(اسم تفضيل أصله: أخير، حذفت همزته لكثرة الاستعمال.

والمفضل عليه محذوف لدلالة الكلام عليه.

والمفضل: الصلاة، أي ثوابها.

والمفضل عليه: منافع البيع للبائع والمشتري.

وإنما أعقب بقوله تعالى)فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله(تنبيها على أن لهم سعة من النهار يجعلونها للبيع ونحوه من ابتغاء أسباب المعاش فلا يأخذوا ذلك من وقت الصلاة، وذكر الله، والأمر في)فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله(للإباحة.

والمراد ب)فضل الله(: اكتساب المال والرزق.

وأما قوله)واذكروا الله كثيرا(فهو احتراس من الانصباب في أشغال الدنيا انصبابا ينسي ذكر الله، أو يشغل عن الصلوات فإن الفلاح في الإقبال على مرضاة الله تعالى.

)وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين[11](عطف على جملة)إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله(الآية. عطف التوبيخ على ترك المأمور به بعد ذكر الأمر وسلكت في المعطوفة طريقة الالتفاف لخطاب إيذانا بأنهم أحرياء أن يصرف

للخطاب عنهم فحرموا من الحضور. وأخبر عنهم بحال الغائبين، وفيه تعريض بالتوبيخ.
ومقتضى الظاهر أن يقال: وإذا رأيتم تجارة أو لهوا فلا تنفضوا إليها. ومن مقتضيات تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر هنا أن يكون هذا التوبيخ غير شامل لجميع المؤمنين فإن نفرا منهم بقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حين خطبته ولم يخرجوا للتجارة ولا للهو.

صفحة : 4422

وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله قال: بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير من الشام تحمل طعاما فانفتل الناس إليها حتى لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم . وفي رواية وفيهم أبو بكر وعمر، فأنزل الله فيهم هذه الآية التي في الجمعة) وإذا رأوا تجارة أو لهوا انقضوا إليها وتركوك قائما(اه. وقد ذكروا في روايات أخرى أنه بقي مع النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمان بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وبلال، وعبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبد الله، فهؤلاء أربعة عشر. وذكر الدارقطني في حديث جابر: أنه قال ليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أربعون رجلا .
وعن مجاهد ومقاتل: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقدم دحية بن خليفة الكلبي بتجارة فتلقاه أهله بالدفوف فخرج الناس . وفي رواية أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بتجارة من زيت الشام . وفي رواية وطعام وغير ذلك فخرج الناس من المسجد خشية أن يسبقوا إلى ذلك . وقال جابر بن عبد الله: كانت الجواري إذا نكحن يمررن بالمزامير والطبل فانفضوا إليها ، فلذلك قال الله تعالى)وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما(، فقد قيل إن ذلك تكرر منهم ثلاث مرات، فلا شك أن خروجهم كان تارة لأجل مجيء العير وتارة لحضور اللهو.
وروي أن العير نزلت بموضع يقال له: أحجار الزيت فتوهم الراوي فقال: بتجارة الزيت.
وضمير)إليها(عائد إلى التجارة لأنها أهم عندهم من اللهو ولأن الحدث الذي نزلت الآية عنده هو مجيء عير دحية من الشام.

واكتفى به عن ضمير اللهو كما في قول قيس بن الخطيم، أو عمرو بن الحارث بن امرئ القيس:

نحن بما عندنا وأنـت بـمـا عندك

راض والرأي مختلف ولعل التقسيم الذي أفادته)أو(في قوله)أو لهوا(تقسيم لأحوال المنفضين إذ يكون بعضهم من ذوي العائلات خرجوا ليمتاروا لأهلهم، وبعضهم من الشباب لا همة لهم في الميرة ولكن أحبوا حضور اللهو.

و)إذا(ظرف للزمان الماضي مجرد عن معنى الشرط لأن هذا الانفضاض مضى. وليس المراد أنهم سيعودون إليه بعد ما نزل هذا التوبيخ وما قبله من الأمر والتحريض. ومثله قوله تعالى)وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به(وقوله)ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا(الآية.

والانقضاض: مطاوع فضه إذا فرقه، وغلب إطلاقه على غير معنى المطاوعة، أي بمعنى مطلق كما تفرق. قال تعالى)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا(.

وقوله)أو لهوا(فيه للتقسيم، أي منهم من انفض لأجل التجارة، ومنهم من انفض لأجل اللهو، وتأنيث الضمير في قوله)إليها(تغليب للفظ تجارة لأن التجارة كانت الداعي الأقوى لانفضاضهم.

وجملة)وتركوك قائما(تفظيع لفعلهم إذ فرطوا في سماع وعظ النبي صلى الله عليه وسلم، أي تركوك قائما على المنبر. وذلك في خطبة الجمعة، والظاهر أنها جملة حالية، أي تركوك في حال الموعظة والإرشاد فأضاعوا علما عظيما بانفضاضهم إلى التجارة واللهو. وهذه الآية تدل على وجوب حضور الخطبة في صلاة الجمعة إذ لم يقل: وتركوا الصلاة.

وأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعظهم بأن ما عند الله من الثواب على حضور الجمعة خير من فائدة التجارة ولذة اللهو. وكذلك ما أعد الله من الرزق للذين يؤثرون طاعة الله على ما يشغل عنها من وسائل الارتزاق جزاء لهم على إيثارهم جزاء في الدنيا قبل جزاء الآخرة، فرب رزق لم ينتفع به الحريص عليه وإن كان كثيرا، ورب رزق قليل ينتفع به صاحبه ويعود عليه بصلاح، قال تعالى)من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون(. وقال حكاية عن خطاب نوع قومه)فقت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا(.

وذيل الكلام بقوله)والله خير الرازقين(لأن الله يرزق الرزق لمن يرضى عنه سليما من الأكدار والآثام، ولأنه يرزق خير الدنيا وخير الآخرة، ليس غير الله قادرا على ذلك، والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله وهو العالم بالسرا بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المنافقون

سميت هذه السورة في كتب السنة وكتب التفسير)سورة المنافقين(اعتبارا بذكر أحوالهم وصفاتهم فيها.

ووقع هذا الاسم في حديث زيد بن أرقم عند الترمذي قوله)فلما أصبحنا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المنافقين(. وسيأتي قريبا، وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين .

ووقع في صحيح البخاري وبعض كتب التفسير تسميتها)سورة المنافقون(على حكاية اللفظ الواقع في أولها وكذلك ثبت في كثير من المصاحف المغربية والمشرقية.

وهي مدنية بالاتفاق.

واتفق العادون على عد آيها إحدى عشرة آية.

وقد عدت الثانية بعد المائة في عداد نزول السور عند جابر بن زيد. نزلت بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة.

والصحيح أنها نزلت في غزوة بني المصطلق ووقع في جامع الترمذي عن محمد بن كعب القرظي أنها نزلت في غزوة تبوك . ووقع فيه أيضا عن سفيان: أن ذلك في غزوة بني المصطلق وغزوة بني المصطلق سنة خمس، وغزوة تبوك سنة تسع .

ورجح أهل المغازي وابن العربي في العارضة وابن كثير: أنها نزلت في غزوة بني المصطلق وهو الأظهر. لأن قول عبد الله بن أبي بن سلول: ليخرجن الأعز منها الأذل ، يناسب الوقت الذي لم يضعف فيه شأن المنافقين وكان أمرهم كل يوم في ضعف وكانت غزوة تبوك في آخر سني النبوة وقد ضعف أمر المنافقين.

وسبب نزولها ما روي عن زيد بن أرقم أنه قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا جهنيا حليفا للأنصار فقال الجهني: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين: فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما بال دعوى الجاهلية، قالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال دعوها فإنها منتنة أي اتركوا

دعوة الجاهلية: يآل كذا فسمع هذا الخبر عبد الله بن أبي فقال: أقد فعلوها أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، قال زيد بن أرقم: فسمعت ذلك فأخبرت به عمي فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فدعاني فحدثته فأرسل رسول الله إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذبت رسول الله وصدقه فأصابني هم لم يصبني مثله فقال عمي ما أردت إلا أن كذبك رسول الله، وفي رواية: إلى أن كذبك، فلما أصبحنا قرأ رسول الله سورة المنافقين وقال لي: إن الله قد صدقك .

وفي رواية للترمذي في هذا الحديث: أن المهاجري أعرابي وأن الأنصاري من أصحاب عبد الله بن أبي، وأن المهاجري ضرب الأنصاري على رأسه بخشبة فشجه، وأن عبد الله بن أبي قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله يعني الأعراب، وذكر أهل السير أن المهاجري من غفار اسمه جهجاه أجير لعمر بن الخطاب. وأن الأنصاري جهني اسمه سنان حليف لبن أبي، ثم يحتمل أن تكون الحادثة واحدة. واضطرب الراوي عن زيد بن أرقم في صفتها؛ ويجوز أن يكون قد حصل حادثتان في غزاة واحدة.

وذكر الواحدي في أسباب النزول: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إلى عبد الله بن أبي وقال له: أنت صاحب هذا الكلام الذي بلغني، فقال عبد الله بن أبي: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من هذا وإن زيدا لكاذب.

والظاهر أن المقالة الأولى قالها ابن أبي في سورة غضب تهييجا لقومه ثم خشي انكشاف نفاقه فأنكرها.

وأما المقالة الثانية فإنما أدرجها زيد بن أرقم في حديثه وإنما قالها ابن أبي في سورة الناصح كما سيأتي في تفسير حكايتها.

وعلى الأصح فهي قد نزلت قبل سورة الأحزاب، وعلى القول بأنها نزلت في غزوة تبوك تكون نزلت مع سورة براءة أو قبلها بقليل وهو بعيد.

أغراضها

صفحة : 4424

فضح أحوال المنافقين بعد كثير من دخائلهم وتولد بعضها عن بعض من كذب، وخيس بعهد الله، واضطراب في العقيدة، ومن

سفالة نفوس في أجسام تغر وتعجب، ومن تصميم على الإعراض عن طلب الحق والهدى، وعلى صد الناس عنه، وكان كل قسم من آيات السورة المفتتح ب إذا خص بغرض من هذه الأغراض. وقد علمت أن ذلك جرت إليه الإشارة إلى تكذيب عبد الله بن أبي بن سلول فيما حلف عليه من التنصل مما قاله.

وختمت بموعظة المؤمنين وحثهم على الإنفاق والادخار للآخرة قبل حلول الأجل.

)إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون[1](لما كان نزول هذه السورة عقب خصومة المهاجرين والأنصارى ومقالة عبد بن أبي في شأن المهاجرين. تعين أن الغرض من هذه الآية التعريض بكذب عبد الله بن أبي وبنفاقه فصيغ الكلام بصيغة تعم المنافقين لتجنب التصريح بالمقصود على طريقة قول النبي صلى الله عليه وسلم ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله ومراده مولى بريرة لما أراد أن يبيعها لعائشة أم المؤمنين واشترط أن يكون الولاء له، وابتدئ بتكذيب من أريد تكذيبه في ادعائه الإيمان بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن ذلك هو المقصود إشعارا بأن الله أطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دخائلهم، وهو تمهيد لما بعده من قوله)والله يشهد إن المنافقين لكاذبون(، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن المنافقين قالوا: نشهد إنك لرسول الله.

فيجوز أن يكون قولهم)نشهد إنك لرسول الله(محكيا بالمعنى لأنهم يقولون عبارات كثيرة تفيد معنى أنهم يشهدون بأنه رسول الله مثل نطقهم بكلمة الشهادة.

ويجوز أن يكونوا توطؤوا على هذه الكلمة كلما أعلن أحدهم الإسلام. وهذا أليق بحكاية كلامهم بكلمة)قالوا(دون نحو: زعموا.

و)إذا(ظرف للزمان الماضي بقرينة جعل جملتيها ماصيتي، والظرف متعلق بفعل)قالوا(وهو جواب)إذا(.

فالمعنى: إنك تعلم أنهم يقولون نشهد إنك لرسول الله.

و)نشهد(خبر مؤكد لأن الشهادة الإخبار عن أمر مقطوع به إذ هي مشتقة من المشاهدة أي المعاينة. والمعاينة أقوى طرق العلم، ولذلك كثر استعمال: أشهد ونحوه من أفعال اليقين في معنى القسم. وكثر أن يجاب بمثل ما يجاب به القسم قاله أبن عطيه. ومعنى ذلك: أن قوله)نشهد(ليس إنشاء. وبعض المفسرين جعله صيغة يمين. وروي عن أبي حنيفة.

والمقصود من قوله)والله يشهد إن المنافقين لكاذبون(إعلام النبي صلى الله عليه وسلم وإعلام المسلمين بطائفة مبهمة شأنهم النفاق

ليتوسموهم ويختبروا أحوالهم وقد يتلقى النبي صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي تعيينهم أو تعيين بعضهم.
والمنافقون جمع منافق وهو الذي يظهر الإيمان ويسر الكفر وقد مضى القول فيه مفصلا في سورة آل عمران.
وجملة)إنك لرسول الله(بيان لجملة)نشهد(.
وجملة)والله يعلم إنك لرسوله(معترضة بين الجملتين المتعاطفتين وهذا الاعتراض لدفع إيهام من يسمع جملة)والله يشهد إن المنافقين لكاذبون(أنه تكذيب لجملة)إنك لرسول الله(فإن المسلمين كانوا يومئذ محفوفين بفئام من المنافقين مبثوثين بينهم هجيراهم فتنة المسلمين فكان المقام مقتضيا دفع الإيهام وهذا من الاحتراس.
وعلق فعل)يعلم(عن العمل لوجود)إن(في أول الجملة وقد عدوا إن التي في خبرها لم ابتداء من المعلقات لأفعال القلب عن العمل بناء على أن لام الابتداء هي في الحقيقة لام جواب القسم وأن حقها أن تقع قبل)إن(ولكنها زحلقت في الكلام كراهية اجتماع مؤكدين متصلين، وأخذ ذلك من كلام سيبويه.
وجملة)والله يشهد إن المنافقين لكاذبون(عطف على جملة)قالوا نشهد(.
وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوي الحكم.
وجيء بفعل)يشهد(في الإخبار عن تكذيب الله تعالى إياهم للمشاكلة حتى يكون إبطال خبرهم مساويا لإخبارهم.

صفحة : 4425

والكذب: مخالفة ما يفيده الخبر للواقع في الخارج، أي الوجود فمعنى كون المنافقين كاذبون هنا انهم كاذبون في إخبارهم عن أنفسهم بأنهم يشهدون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله لأن خبرهم ذلك مخالف لما في أنفسهم فهم لا يشهدون به ولا يوافق قولهم ما في نفوسهم. وبهذا بطل احتجاج النظام بظاهر هذه الآية على رأيه أن الكذب مخالفة الخبر لاعتقاد المخبر لأنه غفل عن قوله تعالى)قالوا نشهد(. وقد أشار إلى هذا الرد القزويني في تلخيص المفتاح وفي الإيضاح.
وجملة)إن المنافقين لكاذبون(مبينة لجملة)يشهد(مثل سابقتها.
)اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون[2](استئناف بياني لأن تكذيب الله تعالى إياهم في قولهم للنبي صلى الله عليه وسلم)نشهد إنك لرسول الله(، يثير في

أنفس السامعين سؤالا عن أيمانهم لدى النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم مؤمنون به وأنهم لا يضمرون بغضه فأخبر الله عنهم بأنهم اتخذوا أيمانهم تقية يتقون بها وقد وصفهم الله بالحلف بالأيمان الكاذبة في آيات كثيرة من القرآن.

والجنة: ما يستتر به ويتقى ومنه سميت الدرع جنة.

والمعنى: جعلوا أيمانهم كالجنة يتقي بها ما يلحق من أذى. فلما شبهت الأيمان بالجنة على طريقة التشبيه البليغ، أتبع ذلك بتشبيه الحلف باتخاذ الجنة، إي استعمالها، ففي)اتخذوا(استعارة تبعية، وليس هذا خاصا بحلف عبد الله بن أبي أنه ما قال)لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل(، كما تقدم في ذكر سبب نزولها، بل هو أعم، ولذلك فالوجه حمل ضمائر الجمع في قوله)اتخذوا أيمانهم(الآية على حقيقتها، أي اتخذ المنافقون كلهم أيمانهم جنة، أي كانت تلك تقيتهم، أي تلك شنشنة معروفة فيهم.

)فصدوا عن سبيل الله(تفريع لصدهم عن سبيل الله على الحلف الكاذب لأن اليمين الفاجرة من كبائر الإثم لما فيها من الاستخفاف بجانب الله تعالى ولأنهم لما حلفوا على الكذب ظنوا أنهم قد آمنوا اتهام المسلمين إياهم بالنفاق فاستمروا على الكفر والمكر بالمسلمين وذلك صد عن سبيل الله، أي إعراض عن الأعمال التي أمر الله بسلوكها.

وفعل)صدوا(هنا قاصر الذي قياس مضارعة يصد بكسر الصاد.

وجملة)إنهم ساء ما كانوا يعملون(تذييل لتفظيع حالهم عن السامع. وساء من أفعال الذم تلحق ببئس على تقدير تحويل صيغة فعلها عن فعل المفتوح العين إلى فعل المضمومها لقصد إفادة الذم مع إفادة التعجب بسبب ذلك التحويل كما نبه عليه صاحب الكشاف وأشار إليه صاحب التسهيل.

)ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون[3]

(جملة في موضع العلة لمصمون جملة)اتخذوا أيمانهم جنة(.

والإشارة إلى مضمون قوله)إنهم ساء ما كانوا يعملون(، أي سبب إقدامهم على الأعمال السيئة المتعجب من سوئها، هو استخفافهم بالأيمان ومراجعتهم الكفر مرة بعد أخرى، فرسخ الكفر في نفوسهم فتجرأت أنفسهم على الجرائم وضربت بها، حتى صارت قلوبهم كالمطبوع عليها أن لا يخلص إليها الخير.

فقوله)بأنهم آمنوا(خبر عن اسم الإشارة. ومعنى الباء السببية. و)ثم(للتراخي الرتبي فإن إبطال الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح. وأن كفرهم أرسخ فيهم من إظهار أيمانهم.

ويجوز أن يراد مع ذلك التراخي في الزمن وهو المهلة.

فإسناد فعل)آمنوا(إليهم مع الإخبار عنهم قبل ذلك بأنهم كاذبون في قولهم)نشهد إنك لرسول الله(مستعمل في حقيقته ومجازة فإن مراتب المنافقين متفاوتة في النفاق وشدة الكفر فمنهم من آمنوا لما سمعوا آيات القرآن أو لاحت لهم أنوار من النبي صلى الله عليه وسلم لم تثبت في قلوبهم.

ثم رجعوا إلى الكفر للوم أصحابهم عليهم أو لإلقائهم الشك في نفوسهم قال ابن عطية: وقد كان هذا موجود. فقلت: ولعل الذين تابوا وحسن إسلامهم من هذا الفريق. فهؤلاء إسناد الإيمان إليهم حقيقة.

ومنهم من خالجهم خاطر الإيمان فيرددوا وقاربوا أن يؤمنوا ثم نكصوا على أعقابهم فشابه أول حالهم المؤمنين حين خطور الإيمان في قلوبهم.

صفحة : 4426

ومنهم من أظهروا الإيمان كذبا وهذا هو الفريق الأكثر. وليس ما أظهروه في سيء من الإيمان وقد قال الله تعالى في مثلهم) وكفروا بعد إسلامهم(مسماة إسلاما ولم يسمه إيمانا. ومنهم الذين قال الله تعالى فيهم)قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا(. وإطلاق الإيمان على مثل هذا الفريق مجاز بعلاقة الصورة وهو كإسناد فعل)يحذر(في قوله تعالى)يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة(الآية، في سورة براءة.

وعلى هذا الاعتبار يجوز أن يكون)ثم(مستعملا في معنييه الأصلي والمجازي على ما يناسب محمل فعل)آمنوا(.

ولو حمل المنافقون على واحد معين وهو عبد الله بن أبي جاز أن يكون ابن أبي آمن ثم كفر فيكون إسناد)آمنوا(حقيقة وتكون) ثم(للتراخي في الزمان.

وتفريع)فهم لا يفقهون(على قوله)آمنوا ثم كفروا(، فصار كفرهم بع الإيمان على الوجوه السابقة سببا في سوء أعمالهم بمقتضى باء السببية، وسببا في انتفاء إدراكهم الحقائق النظرية بمقتضى فاء التفريع.

والفقه: فهم للحقائق الخفية.

والمعنى: أنهم لا يدركون دلائل الإيمان حتى يعلموا أحقيته.

)وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة(هذا انتقال إلى وضح بعض أحوالهم التي لا يبرزونها إذا جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولكنها تبرز من

مشاهدتهم، فكان الوضح الأول مفتتحا ب)إذا جاءك المنافقون(وهذا الوضح مفتتحا ب)إذا رأيتهم(.

فجملة)وإذا رأيتهم(معطوفة على جملة)فهم لا يفقهون(واقعة موقع الاحتراس والتتميم لدفع إيهام من يغره ظاهر صورهم.

واتبع انتفاء فقه عقولهم بالتنبيه على عدم الاغترار بحسن صورهم فإنها أجسام خالية عن كمال الأنفس كقول حسان ولعله أخذه من هذه الآية:

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ
جسم البغال وأحلام العصافير

وتفيد مع الاحتراس تنبيها على دخائلهم بحيث لو حذف حرف العطف من الجملتين لصح وقوعهما موقع الاستئناف الابتدائي. ولكن أوثر العطف للتنبيه على أن هاتين صفتان تحسبان كمالا وهما نقيصتان لعدم تناسقهما مع ما شأنه أن يكون كمالا. فإن جمال النفس كجمال الخلقة إنما يحصل بالتناسب بين المحاسن وإلا فربما انقلب الحسن موجب نقص.

فالخطاب في هذه الآية لغير معين يشمل كل من يراهم ممن يظن أن تغره صورهم فلا يدخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله قد أطعمه على أحوالهم وأوقفه على تعيينهم فهو كالخطاب الذي في قوله في سورة الكهف)لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا(.

والظاهر أن المراد بضمير الجمع واحد معين أو عدد محدود إذ يبعد أن يكون جميع المنافقين أحاسن الصور. وعن ابن عباس كان ابن أبي جسيما صحيحا صبيحا ذلق اللسان. وقال الكلبي: المراد ابن أبي والجد بن قيس ومعتب بن قشير كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة. وقال في الكشاف: وقوم من المنافقين في مثل صفة ابن أبي رؤساء المدينة.

وأجسام: جمع جسم بكسر الجيم وسكون السين وهو ما يقصد بالإشارة إليه أو ما له طول وعرض وعمق. وتقدم في قوله تعالى) وزاده بسطة في العلم والجسم(في سورة البقرة. وجملة)وإن يقولوا تسمع لقولهم(معترضة بين جملة)وإذا رأيتهم(الخ وبين جملة)كأنهم خشب مسندة(.

والمراد بالسماع في قوله)تسمع لقولهم(الإصغاء إليهم لحسن إبانتهم وفصاحة كلامهم مع تغريرهم بحلاوة معانيهم تمويه حالهم على المسلمين.

فاللام في قوله)لقولهم(لتضمين)تسمع(معنى: تصغ أيها السامع، إذ ليس في الإخبار بالسماع للقول فائدة لولا أنه ضمن معنى الإصغاء لوعي كلامهم.

وجملة)كأنهم خشب مسندة(مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا عن سؤال ينشأ عن وصف حسن أجسامهم وذلاقة كلامهم، فإنه في صورة مدح فلا يناسب ما قبله من ذمهم فيترقب السامع ما يرد بعد هذا الوصف.
ويجوز أن تكون الجملة حالا من ضميري الغيبة في قوله)رأيتهم تعجبك أجسامهم(.
ومعناه أن حسن صورهم لا نفع فيه لأنفسهم ولا للمسلمين.

صفحة : 4427

و)خشب(بضم الخاء وضم الشين جمع خشبة بفتح الخاء وفتح الشين وهو جمع نادر لم يحفظ إلا في ثمرة، وقيل ثمر جمع ثمار الذي هو جمع ثمرة فيكون ثمر جمع جمع. فيكون خشب على مثال جمع الجمع وإن لم يسمع بدنه.
وقرأه الجمهور بضمتين. وقرأه قنبل عن ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بضمة فسكون.
والمسندة التي سندت إلى حائط أو نحوه، أي أميلت إليه فهي غليظة طويلة قوية لكنها غير منتفع بها في سقف ولا مشدود بها جدار. شبهوا بالخشب المسندة تشبيه التمثيل في حسن المرأى وعدم الجدوى، أفيد بها أن أجسامهم المعجب بها ومقالهم المصغى إليه خاليان عن النفع كخلو الخشب المسندة عن الفائدة، فإذا رأيتموهم حسبتموهم أرباب لب وشجاعة وعلم ودراية. وإذا اختبرتموهم وجدتموهم على خلاف ذلك فلا تحتفلوا بهم.
)يحسبون كل صيحة عليهم(هذه الجملة بمنزلة بدل البعض من مضمون جملة)كأنهم خشب مسندة(، أي من مخالفة باطنهم المشوه للظاهر المموه، أي هم أهل جبن في صورة شجعان.
وهذا من جملة ما فضحته هذه السورة من دخائلهم ومطاوي نفوسهم كما تقدم في الآيات السابقة وإن اختلفت مواقعها من تفنن أساليب النظم، فهي مشتركة في التنبيه على أسرارهم.
والصيحة: المرة من الصياح، أي هم لسوء ما يضمرونه للمسلمين من العداوة لا يزالون يتوجسون خيفة من أن ينكشف أمرهم عند المسلمين فهم في خوف وهلع إذا سمعوا صيحة في خصومة أو أنشدت ضالة خشوا أن يكون ذلك غارة من المسلمين عليهم للإيقاع بهم.
و كل هنا مستعمل في معنى الأكثر لأنهم إنما يتوجسون خوفا من صيحات لا يعلمون أسبابها كما استعمله النابغة في قوله:

بها كل ذيال وخنساء تـرعـوي إلى
كل رجاف من الرمل فارد وقوله)عليهم(ظرف مستقر هو المفعول الثاني لفعل)يحسبون(وليس متعلقا ب)صيحة(.
)هم العدو فأحذرهم(يجوز أن تكون استئنافا بيانيا ناشئا عن جملة)يحسبون كل صيحة عليهم(لأن تلك الجملة لغرابة معناها تثير سؤالا عن سبب هلعهم وتخوفهم من كل ما يتخيل منه بأس المسلمين فيجاب بأن ذلك لأنهم أعداء ألداء للمسلمين ينظرون للمسلمين بمرآة نفوسهم فكما هم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتمنون الوقيعة بهم في حين يظهرون لهم المودة كذلك يظنون بالمسلمين التربص بهم وإضمار البطش بهم على نحو ما قال أبو الطيب:
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدق ما يعتاده من تـوهـم ويجوز أن تكون الجملة بمنزلة العلة لجملة)يحسبون كل صيحة عليهم(على هذا المعنى أيضا.
ويجوز أن تكون استئنافا ابتدائيا لذكر حالة من أحوالهم تهم المسلمين معرفتها ليترتب عليها تفريع)فأحذرهم(وعلى كل التقادير فنظم الكلام واف بالغرض من فضح دخائلهم.
والتعريف في)العدو(تعريف الجنس الدال على معين كمال حقيقة العدو فيهم، لأن أعدى الأعادي العدو المتظاهر بالموالاة وهو مداح وتحت ضلوعه الداء الدوي. وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم.
والعدو: اسم يقع على الواحد والجمع. والمراد: الحذر من الاغترار بظواهرهم الخلابة لئلا يخلص المسلمون إليهم بسرهم ولا يتقبلوا نصائحهم خشية المكائد.
والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليبلغه المسلمين فيحذروهم.
)قاتلهم الله أنى يؤفكون[4](تذييل فإنه جمع على الإجمال ما يغني عن تعداد مذامهم كقوله)أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم(، مسوق للتعجيب من حال توغلهم في الضلالة والجهالة بعدولهم عن الحق.
فافتتح التعجيب منهم بجملة اصلها دعاء بالإهلاك والاستئصال ولكنها غلب استعمالها في التعجب أو التعجيب من سوء الحال الذي جره صاحبه لنفسه فإن كثيرا من الكلم التي هي دعاء بسوء تستعمل في التعجيب من فعل أو قول مكروه مثل قولهم: ثكلته أمه، وويل أمه. وتربت يمينه. واستعمال ذلك في التعجب مجاز مرسل للملازمة بين بلوغ الحال في السوء وبين الدعاء على صاحبه بالهلاك وبين التعجب من سوء الحال. فهي ملازمة بمرتبتين كناية رمزية.

و)أنى(هنا اسم استفهام عن المكان. وأصل)أنى(ظرف مكان وكثر تضمينه معنى الاستفهام في استعمالاته، وقد يكون للمكان المجازي فيفسر بمعنى)كيف(كقوله تعالى)قلتم أنى هذا(في سورة آل عمران، وفي قوله)أنى لهم الذكرى(في سورة الدخان. ومنه قوله هنا)أنى يؤفكون(، والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب على وجه المجاز المرسل لأن الأمر العجيب من شأنه أن يستفهم عن حال حصوله. فالاستفهام عنه من لوازم أعجوبته. فجملة)أنى يؤفكون(، والاستفهام هنا مستعمل في التعجيب على وجه المجاز المرسل لأن الأمر العجيب من شأنه أن يستفهم عن حال حصوله. فالاستفهام عنه من لوازم أعجوبته. فجملة)أنى يؤفكون(بيان للتعجيب الإجمالي المفاد بجملة)قاتلهم الله(.

و)يؤفكون(يصرفون يقال: أفكه، إذا صرفه وأبعده، والمراد: صرفهم عن الهدى، أي كيف أمكن لهم أن يصرفوا أنفسهم عن الهدى، أو كيف أمكن لمضليهم أن يصرفوهم عن الهدى مع وضوح دلائله.

وتقدم نظير الآية في سورة براءة.

)وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون[5](هذا حالهم في العناد ومجافاة الرسول صلى الله عليه وسلم والإعراض عن التفكر في الآخرة، بله الاستعداد للفوز فيها.

و)تعالوا(طلب من المخاطب بالحضور عند الطالب، وأصله فعل أمر من التعالي، وهو تكلف العلو، أي الصعود، وتنوسي ذلك وصار لمجرد طلب الحضور، فلزم حالة واحدة فصار اسم فعل، وتقدم عند قوله تعالى)قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم(الآية في سورة الأنعام.

وهذا الطلب يجعل)تعالوا(مشعر بأن هذه حالة من أحوال انفرادهم في جماعتهم فهي ثالث الأغراض من بيان مختلف أنواع تلك الأحوال، وقد ابتدأت ب)إذا(كما ابتدئ الغرضان السابقان ب)إذا( )إذا جاءك المنافقون(. و)إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم(.

والقائل لهم ذلك أن يكون بعض المسلمين وعظوهم ونصحوهم، ويحتمل أنه بعض منهم اهتدى وأراد الإنابة.

قيل المقول له هو عبد الله بن أبي بن سلول على نحو ما تقدم من الوجوه في ذكر المنافقين بصيغة الجمع عند قوله)إذا جاءك المنافقون(وما بعده.

والمعنى: اذهبوا إلى رسول الله وسلوه الاستغفار لكم. وهذا يدل دلالة اقتضاء على أن المراد تربوا من النفاق وأخلصوا الإيمان وسلوا

رسول الله ليستغفر لكم ما فرط منكم، فكان الذي قال لهم ذلك مطلعا على نفاقهم وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة)وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا آنؤمن كما آمن السفهاء(.
وليس المراد من الاستغفار الصفح عن قول عبد الله بن أبي) ليخرجن الأعز منها الأذل(. لأن ابن أبي ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبرأ من أن يكون قال ذلك ولأنه لا يلتئم مع قوله تعالى)لن يغفر الله لهم(.
ولي الرؤوس: إمالتها إلى جانب غير وجاه المتكلم. إعراضا عن كلامه، أي أبوا أن يستغفروا لأنهم ثابتون على النفاق، أو لأنهم غير راجعين فيما قالوه من كلام بذيء في جانب المسلمين، أو لئلا يلزموا بالاعتراف بما نسب إليهم من النفاق.
وقرأ الجمهور)لووا(بتشديد الواو الأولى مضاعف لوى للدلالة على الكثرة فيقتضي كثرة اللي منهم، أي لوى جمع كثير منهم رؤوسهم، وقرأ نافع وروح عن يعقوب بتخفيف الواو الأولى اكتفاء بإسناد الفعل إلى ضمير الجماعة.
والخطاب في)ورأيتهم(لغير معين، أي ورأيتهم يا من يراهم حينئذ.
وجملة)وهم مستكبرون(في موضع الحال من ضمير يصدون، أي يصدون صد المتكبر عن طلب الاستغفار.
)سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم(جملة معترضة بين حكاية أحوالهم نشأت لمناسبة قوله)وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم(الخ.
واعلم أن تركيب: سواء عليه أكذا أم كذا، ونحوه مما جرى مجرى المثل فيلزم هذه الكلمات مع ما يناسبها من ضمائر المخبر عنه. ومدلوله استواء الأمرين لدى المجرور بحرف)على(، ولذلك يعقب بجملة تبين جهة الاستواء كجملة)لن يغفر الله لهم(. وجملة)لا يؤمنون(في سورة البقرة. وقوله)وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون(في سورة يس وأما ما ينسب إلى بثينة في رثاء جميل بن معمر من قولها:

سواء علينا يا جميل بن معمر إذا
مت بأساء الحياة ولينها فلا أحسبه صحيح الرواية.
وسواء اسم بمعنى مساو يعامل معاملة الجامد في الغالب فلا يتغير خبره نقول: هما سواء، وهم سواء. وشذ قوله: سواءين.
و)على(من قوله)عليهم(بمعنى تمكن الوصف: سواء فيهم.

وهمزة)استغفرت لهم(أصلها همزة استفهام بمعنى: سواء عندهم سؤال السائل عن وقوع الاستغفار لهم وسؤال السائل عن عدم وقوعه. وهو استفهام مجازي مستعمل كناية عن قلة الاعتناء بكلا الحالين بقرينة لفظ سواء ولذلك يسمى النحاة هذه الهمزة التسوية. وتقدم عند قوله تعالى)إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم(في سورة البقرة، أي سواء عندهم استغفارك لهم وعدمه. ف)على(للاستعلاء المجازي الذي هو التمكن والتلبس فتؤول إلى معنى عند كما تقول سواء علي أرضيت أم غضب. وقوله تعالى) قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين(في سورة الشعراء.

وجملة)لن يغفر الله لهم(معترضة بين جملة)سواء عليهم(وجملة)هم الذين يقولون(وهي وعيد لهم وجزاء على استخفافهم بالاستغفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

)لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين[6](جملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا عن حال من أحوالهم.

وجملة)إن الله لا يهدي القوم الفاسقين(تعليل لانتفاء مغفرة الله لهم بأن الله غضب عليهم فحرمهم اللطف والعناية.

)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا(هذا أيضا من مقالاتهم في مجامعهم وجماعتهم يقولونها لإخوانه الذين كانوا ينفقون على فقراء المسلمين تظاهرا بالإسلام كأنهم يقول بعضهم لبعض تظاهر الإسلام بغير الإنفاق مثل قولهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله وذلك عقبت بها. وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن قائل هذه المقالة عبد الله بن أبي سلول كما تقدم في طالعة تفسير هذه السورة فإسناد هذا القول إلى ضمير المنافقين لأنهم تقبلوه منه إذ هو رأس المنافقين أو فشا هذا القول بين المنافقين فأخذوا يبثونه في المسلمين.

وموقع الجملة الاستئناف الابتدائي المعرب عن مكرهم وسوء طواياهم انتقالا من وصف إعراضهم عند التقرب من الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى وصف لون آخر مكن كفرهم وهو الكيد للدين في صورة النصيحة.

وافتتحت الجملة بضميرهم الظاهر دون الاكتفاء بالمستتر في) يقولون(معاملة لهم بنقيض مقصودهم فإنهم ستروا كيدهم بإظهار قصد النصيحة ففضح الله أمرهم بمزيد التصريح، أي قد علمت أنكم تقولون هذا. وفي إظهار الضمير أيضا تعريض بالتوبيخ كقوله تعالى) أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار(. وليكون للجملة الاسمية إفادة ثبات الخبر، وليكون الإتيان بالموصول مشعرا بأنهم عرفوا بهذه الصلة.

وصيغة المضارع في)يقولون(يشعر بأن في هذه المقالة تتكرر منهم لقصد إفشائها.

و)من عند رسول الله(من كانوا في رعايته مثل أهل الصفة ومن كانوا يلحقون بالمدينة من الأعراب كان يمنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المطلق. روي البخاري عن زيد بن أرقم قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر أصاب الناس فيه شدة فقال عبد الله بن أبي: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله وهذا كلام مكر لأن ظاهره قصد الرفق برسول الله صلى الله عليه وسلم من كلفة إنفاق الأعراب الذين ألموا به في غزوة بني المصطلق، وباطنه إرادة إبعاد الأعراب عن تلقي الهدى النبوي وعن أن يتقوى بهم المسلمون أو تفرق فقراء المهاجرين لتضعف بتفرقهم بعض قوة المسلمين. وروايات حديث زيد مختلط'.

وقوله)رسول الله(يظهر أنه صدر من عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين بهذا اللفظ إذا كانوا قالوا ذلك جهرا في ملإ المسلمين إذ هم يتظاهرون ساعتئذ بالإسلام.

و)حتى(مستعملة في التعليل بطريقة المجاز المرسل لأن معنى) حتى(انتهاء الفعل المذكور قبلها وغاية الفعل ينتهي الفاعل عن الفعل إذا بلغها، فهي سبب للانتهاء وعلة له، وليس المراد فإذا نفضوا فأنفقوا عليهم.

والانفاض: التفرق والابتعاد.

)ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون[7](

صفحة : 4430

عطف على جملة)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله(إبطال لمكر المنافقين فيما قصدوه من قولهم المتظاهرين بأنهم قصدوا به نصح المسلمين، أي لو تمشت حيلتهم على المسلمين فأمسكوا هم وبعض المسلمين عن إنفاق الأعراب ومن يأوون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العفاة، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقطع عنهم الإنفاق وذلك دأبه كما دل عليه حديث عمر بن الخطاب أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما عندي شيء ولكن ابتع علي فإذا جاءني شيء قضيته. فقال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي صلى الله عليه وسلم قول عمر. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا. فتبسم رسول الله

صلى الله عليه وسلم وعرف في وجهه البشر لقول الأنصاري ثم قال: بهذا أمرت . رواه الترمذي في كتاب الشمائل.
وهذا جواب من باب طريقة النقض لكلامهم في مصطلح آداب البحث.
وخزائن جمع خزانة بكسر الخاء. وهي البيت الذي نخزن فيه الطعام قال تعالى)قال اجعلني على خزائن الأرض(تقدم في سورة يوسف. وتطلق على الصندوق الكبير الذي يخزن فيه المال على سبيل التوسع وعلى بيوت الكتب وصناديقها، ومن هذا ما جاء في حديث الصرف من الموطأ حتى يحضر خازني من الغابة .
وخزائن السماوات مقار أسباب حصول الأرزاق من غيوث رسمية وأشعة الشمس والرياح الصالحة فيأتي ذلك بتوفير الثمار والحبوب وخصب المرعى وتزايد النتاج. وأما خزائن الأرض فيما فيها من أهربه ومطامير وأندر، ومن كنوز الأحوال وما يفتح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من البلاد وما يفي عليه من أهل القرى.
واللام في)لله(للملك أي التصرف في ذلك ملك لله تعالى. ولما كان الإنفاق على فقراء المسلمين مما يعين على ظهور الذين الذي أرسل الله به رسوله صلى الله عليه وسلم كان الإخبار بأن الخزائن لله كناية عن تيسير الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حصول ما ينفق منه كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم لما قال الأنصاري ولا تخش من ذي العرش إقلالا بهذا أمرت . وذلك بما سيره الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من زكوات المسلمين وغنائم الغزوات، وما فتح الله عليه من البلاد بخيراتها، وما أفاء الله عليه بغير قتال.
وتقديم المجرور من قوله)ولله خزائن السماوات والأرض(لإفادة قصر القلب وهو قلب للازم قولهم لا لصريحه لأن المنافقين لما قالوا)لا تنفقوا على من عند رسول الله(حسبوا أنهم إذا قطعوا الإنفاق على من عند رسول الله لا يجد الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينفق منه عليهم فأعلم الله رسوله مباشرة وأعلمهم تبعا بأن ما عند الله من الرزق أعظم وأوسع.
واستدراك قوله)ولكن المنافقين لا يفقهون(لرفع ما يتوهم من أنهم حين قالوا)لا تنفقوا على من عند رسول الله(كانوا قالوه عن بصيرة ويقين بأن انقطاع إنفاقهم على الذين يلوذون برسول الله صلى الله عليه وسلم يقعط رزقهم فينفضون عنه بناء على أن القدرة على الإنفاق منحصرة فيهم لأنهم أهل الأحوال وقد غفلوا عن تعدد أسباب الغنى وأسباب الفقر.
والمعنى: أنهم لا يدركون دقائق المدركات وخفاياها.

ومفعول (يفقهون(محذوف، أي لا يفقهون ذلك وهو مضمون)لله خزائن السماوات والأرض(، أو نزل الفعل منزلة اللازم مبالغة في انتفاء فقه الأشياء عنهم في كل حال.
)يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون[8](استئناف ثان على أسلوب التعداد والتكرير ولذلك لم يعطف. ومثله يكثر في مقام التوبيخ. وهذا وصف لخبث نواياهم إذ أرادوا التهديد وإفساد إخلاص الأنصار وأخوتهم مع المهاجرين بإلقاء هذا الخاطر في نفوس الأنصار بذرا للفتنة والتفرقة وانتهاز لخصومة طفيفة حدثت بين شخصين من موالي الفريقين، وهذا القول المحكي هنا صدر من عبد الله بن أبي بن سلول حين كسع حليف المهاجرين حليف الأنصار كما تقدم في ذكر سبب نزول هذه السورة، وعند قوله تعالى)هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله(، فإسناد القول إلى ضمير المنافقين هنا كإسناده هناك.

صفحة : 4431

وصيغة المضارع في حكاية هذه المقالة لاستحضار الحالة العجيبة كقوله تعالى)يجادلنا في قوم لوط(. والمدينة هي مدينتهم المعهودة وهي يثرب.
والأعز: القوي العزة وهو الذي لا يقهر ولا يغلب على تفاوت في مقدار العزة إذ هي من الأمور النسبية. والعزة تحصل بوفرة العدد وسعة المال والعدة، وأراد ب)الأعز(فريق الأنصار فإنهم أهل المدينة وأهل الأموال وهم أكثر عددا من المهاجرين فأراد ليخرجن الأنصار من مدينتهم من جاءها من المهاجرين.
وقد أبطل الله كلامهم بقوله)ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين(وهو جواب بالطريقة التي تسمي القول بالموجب في علم الجدل وهي مما يسمى بالتسليم الجدلي في علم آداب البحث.
والمعنى: إن كان الأعز يخرج الأذل فإن المؤمنين هم الفريق الأعز. وعزتهم بكون الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم وبتأييد الله رسوله صلى الله عليه وسلم وأولياءه لأن عزة الله هي العزة الحق المطلقة، وعزة غيره ناقصة، فلا جرم أن أولياء الله هم الذين لا يفقهون إذا أراد الله نصرهم ووعدهم به. فإن كان إخراج من المدينة فإنما يخرج منها أنتم يا أهل النفاق.

وتقديم المسند على المسند إليه في)ولله العزة(لقصد القصر وهو قصر قلب، أي العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لا لكم كما تحسبون.
وإعادة اللام في قوله)ولرسوله(مع أن حرف العطف مغن عنها لتأكيد عزة الرسول صلى الله عليه وسلم وأنها بسبب عزة الله ووعده إياه، وإعادة اللام أيضا في قوله)وللمؤمنين(للتأكيد أيضا إذ قد تخفى عزتهم وأكثرهم في حال قلة وحاجة.
والقول في الاستدراك بقوله)ولكن المنافقين لا يعلمون(نظير القول آنفا في قوله)ولكن المنافقين لا يفقهون(.
وعدل عن الإضمار في قوله)ولكن المنافقين لا يعلمون(. وقد سبق اسمهم في نظيرها قبلها لتكون الجملة مستقلة الدلالة بذاتها فتسير سير المثل.
وإنما نفي عنهم هنا العلم تجهيلا بسوء التأمل في أمارات الظهور والانحطاط فلم يفطنوا للإقبال الذي في أحوال المسلمين وازدياد سلطانهم يوما فيوما وتناقص من أعدائهم فإن ذلك أمر مشاهد فكيف يظن المنافقون أن عزتهم أقوى من غزة قبائل العرب الذين يسقطون بأيدي المسلمين كلما عزوهم من يوم بدر فما بعده.
)يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون[9](انتقال من كشف أحوال المنافقين المسوق للحذر منهم والتحذير من صفاتهم. إلى الإقبال على خطاب المؤمنين بينهم عما شانه أن يشغل عن التذكر لما أمر الله ونهى، ثم الأمر بالإنفاق في سبل الخير في سبيل الله ومصالح المسلمين وجماعتهم وإسعاف آحادهم، لئلا يستهويهم قول المنافقين)لا تنفقوا على من عند رسول الله(والمبادرة إلى ذلك قبل إتيان الموت الذي لا يدري وقت حلوله حين تمنى أن يكون قد تأخر أجله ليزيد من العمل الصالح فلا ينفعه التمني وهو تمهيد لقوله بعده) وأنفقوا مما رزقناكم(، فالمناسبة لهذا الانتقال هو حكاية مقال المنافقين ولذلك قدم ذكر الأقوال على ذكر الأولاد لأنها أهم بحسب السياق.
ونودي المخاطبون بطريق الموصول لما تؤذن به الصلة من التهمم لامتثال النهي.
وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالا يلهي عن ذكر الله لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد. ولأنها كما تشغل عن ذكر الله بصرف الوقت في كسبها ونمائها، تشغل عن ذكره أيضا بالتذكير لكنزها بحيث ينسى ذكر ما دعا الله إليه من إنفاقها.

وأما ذكر الأولاد فهو إدماج لأن الاشتغال بالأولاد والشفقة عليهم وتدبير شؤونهم وقضاء الأوقات في التأنس بهم من شأنه أن ينسي عن تذكر أمر الله ونهيه في أوقات كثيرة فالشغل بهذين أكثر من الشغل بغيرهما.

صفحة : 4432

وصيغ الكلام في قالب توجيه النهي عن الإلهاء عن الذكر، إلى الأموال والأولاد والمراد نهي أصحابها، وهو استعمال معروف وقرينته هنا قوله)ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون(. وأصله مجاز عقلي مبالغة في نهي أصحابها عن الاشتغال بسببها عن ذكر الله، فنزل سبب الإلهاء منزلة اللاهي للملابسة بينهما وهو كثير في القرآن وغيره كقوله)يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان(وقولهم لا أعرفنك تفعل كذا.

و)لا(في قوله)ولا أولادكم(نافية عاطفة)أولادكم(على)أموالكم(، والمعطوف عليه مدخول)لا(الناهية لأن النهي يتضمن النفي إذ هو طلب عدم الفعل ف)لا(الناهية أصلها)لا(النافية أشربت معنى النهي عند قصد النهي فجزمت الفعل حملا على مضادة معنى لام الأمر فأكد النهي عن الاشتغال بالأولاد بحرف النفي ليكون للاشتغال بالأولاد حظ مثل حظ الأموال.

و)ذكر الله(مستعمل في معنييه الحقيقي والمجازي. فيشمل الذكر باللسان كالصلاة وتلاوة القرآن، والتذكر بالعقل كالتدبر في صفاته واستحضار امتثاله قال عمر بن الخطاب: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه .

وفيه أن الاشتغال بالأموال والأولاد الذي لا يلهي عن ذكر الله ليس بمذموم وله مراتب.

وقوله)ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون(، دليل على قول علماء أصول الفقه النهي اقتضاء كف عن فعل .

والإشارة)بذلك(إلى اللهو عن ذكر الله بسبب الأموال والأولاد، أي ومن يله عن ذكر الله، أي يترك ذكر الله الذي أوجبه مثل الصلاة في الوقت ويترك تذكر الله، أي مراعاة أوامره ونواهيه.

ومتى كان اللهو عن ذكر الله بالاشتغال بغير الأموال وغير الأولاد كان أولى بحكم النهي والوعيد عليه.

وأفاد ضمير الفصل في قوله)فأولئك هم الخاسرون(قصر صفة الخاسر على الذين يفعلون الذي نهوا عنه، وهو قصر ادعائي

للمبالغة في اتصافهم بالخسران كأن خسران غيرهم لا يعد خسرانا بالنسبة إلى خسرانهم.
والإشارة إليهم ب)أولئك(للتنبيه على أنهم استحقوا ما بعد اسم الإشارة بسبب ما ذكر قبل اسم الإشارة، أعني اللهو عن ذكر الله.
)وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين[10]
(هذا إبطال ونقض لكيد المنافقين حين قالوا)لا تنفقوا على من عند رسول الله(، وهو يعم الإنفاق على الملتفين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم والإنفاق على غيرهم فكانت الجملة كالتذييل.
وفعل)أنفقوا(مستعمل في الطلب الشامل للواجب والمستحب فإن مدلول صيغة: افعل، مطلق الطلب، وهو القدر المشترك بين الوجوب والندب.
وفي قوله)مما رزقناكم(إشارة إلى أن الإنفاق المأمور به شكر الله على ما رزق المنفق فإن الشكر صرف العبد ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، ويعرف ذلك من تلقاء الشريعة.
و)من(للتبعيض، أي بعض ما رزقناكم، وهذه توسعة من الله على عباده، وهذا البعض منه هو معين المقدار مثل مقادير الزكاة وصدقة الفطر. ومنه ما يتعين بسد الخلة الواجب سدها مع طاقة المنفق كنفقات الحج والجهاد والرباط ونفقات العيال الواجبة ونفقات مصالح المسلمين الضرورية والحاجية، ومنه ما يتعين بتعين سببه كالكفارات، ومنه ما وكل للناس تعيينه مما ليس بواجب من الإنفاق ذلك موكول إلى رغبات الناس في نوال الثواب فإن ذلك باب عظيم من القربى من رضى الله تعالى، وفي الحديث الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار .
وقد ذكر الله المؤمنين بما في الإنفاق من الخير بأن عليهم أن يكثروا منه ما داموا مقتدرين قبل الفوت، أي قبل تعذر الإنفاق والإتيان بالأعمال الصالحة، وذلك حين يحس المرء بحالة تؤذن بقرب الموت ويغلب على قواه فيسأل الله أن يؤخر موته ويشفيه ليأتي بكثير مما فرط فيه من الحسنات طمعا أن يستجاب له فإن كان في أجله تأخير فلعل الله أن يستجيب له فإن لم يكن في الأجل تأخير أو لم يقدر الله له الاستجابة فإنه خير كثير.
و)لولا(حرف تحضيض، والتحضيض الطلب الحثيث المضطر إليه، ويستعمل)لولا(للعرض أيضا والتوبيخ والتنديم والتمني على المجاز أو الكناية، وتقدم عند قوله تعالى)فلولا كانت قرية آمنت(في سورة يونس.

وحق الفعل بعدها أن يكون مضارعا وإنما جاء ماضيا هنا لتأكيد إيقاعه في دعاء الداعي حتى كأنه قد تحقق مثل)أتى أمر الله(وقرينة ذلك ترتيب فعلي)فأصدق وأكن من الصالحين(عليه.
والمعنى: فيسأل المؤمن ربه سؤالا حثيثا أن يحقق تأخير موته إلى أجل يستدرك فيه ما اشتغل عنه من إنفاق وعمل صالح.
ووصف الأجل ب)قريب(تمهيد لتحصيل الاستجابة بناء على متعارف الناس أن الأمر اليسير أرجى لأن يستجيبه المسؤول فيغلب ذلك على شعورهم حين يسألون الله تنساق بذلك نفوسهم إلى ما عرفوا، ولذلك ورد في الحديث لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت وليعزم المسألة فإنه لا مكره له . تنبيها على هذا التوهم فالقرآن حكى عن الناس ما هو الغالب على أقوالهم.
وانتصب فعل)فأصدق(على إضمار)أن(المصدرية إضمارا واجبا في جواب الطلب.
وأما قوله)وأكن(فقد اختلف فيه القراء.
فأما الجمهور فقرأوه مجزوما بسكون آخره على اعتباره جوابا للطلب مباشرة لعدم وجود فاء السببية فيه، واعتبار الواو عاطفة جملة على جملة وليست عاطفة مفردا على مفرد. وذلك لقصد تضمين الكلام معنى الشرط زيادة على معنى التسبب فيغني الجزم عن فعل شرط. فتقديره: إن تؤخرني إلى أجل قريب أكن من الصالحين، جمعا بين التسبب المفاد بالفاء. والتعليق الشرطي المفاد بجزم الفعل.
وإذا قد كان الفعل الأول هو المؤثر في الفعلين الوقع أحدهما بعد فاء السببية والآخر بعد الواو العاطفة عليه. فقد أفاد الكلام التسبب والتعليق في كلا الفعلين وذلك يرجع إلى محسن الاحتباك. فكأنه قيل: لولا أخرتني إلى أجل قريب فاصدق وأكون من الصالحين. إن تؤخرني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين.
ومن لطائف هذا الاستعمال أن هذا السائل بعد أن حث سؤاله أعقبه بأن الأمر ممكن فقال: إن تؤخزني إلى أجل قريب أصدق وأكن من الصالحين. وهو من بدائع الاستعمال القرآني لقصد الإيجاز وتوفير المعاني.
ووجه أبو علي الفارسي والزجاج قراءة الجمهور بجعل)وأكن(معطوفا على محل)فأصدق(. وقرأه أبو عمرو وحده من بين العشرة)وأكون(بالنصب والقراءة رواية متواترة وإن كانت مخالفة لرسم المصاحف المتواترة. وقيل: إنها يوافقها رسم مصحف أبي بن كعب ومصحف ابن مسعود.

وقرأ بذلك الحسن والأعمش وابن محيض من القراءات غير المشهورة. ورويت عن مالك بن دينار وابن جيبر وأبي رجاء. تلك أقل شهرة.

واعتذر أبو عمر عن مخالفة قراءته للمصحف بأن الواو حذفت في الخط اختصارا يريد انهم حذفوا صورة إشباع الضمة وهو الواو اعتمادا على نطق القارئ كما تحذف الألف اختصارا بكثرة في المصاحف. وقال القراء العرب: قد تسقط الواو في بعض الهجاء كما أسقطوا الألف من سليمان وأشباهه، أي كما أسقطوا الواو الثانية من داوود وبكثرة يكتبونه داود. قال الفراء: ورأيت في مصاحب عبد الله فقولا نقلا بغير واو، وكل هذا لا حاجة إليه لأن القرآن متلقى بالتواتر لا بهجاء المصاحف وإنما المصاحف معينة على حفظه.

)ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها(اعتراض في آخر الكلام فالواو اعتراضية تذكيرا للمؤمنين بالأجل لكل روح عند حلولها في جسدها حين يؤمر الملك الذي ينفخ الروح يكتب أجله وعمله ورزقه وشقي أو سعيد. فالأجل هو المدة المعينة لحياته لا يؤخر عن أمده فإذا حضر الموت كان دعاء المؤمن الله بتأخير أجله من الدعاء الذي استجاب لأن الله قدر الآجال.

وهذا سر عظيم لا يعلم حكمه تحديده إلا الله تعالى.

والنفس: الروح، سميت نفسا أخذا من النفس بفتح الفاء وهو الهواء الذي يخرج من الأنف والفم من كل حيوان ذي رئة، فسميت النفس لأن النفس يتولد منها، كما سمي مرادف النفس روحا لأنه مأخوذ الروح بفتح الراء لأن الروح به. قال أبو بكر بن الأنباري.

و)أجلها(الوقت المحدد لبقائها في الهيكل الإنساني.

ويجوز أن يراد بالنفس الذات، أي شخص الإنسان وهو من معاني النفس. كما في قوله تعالى)أن النفس بالنفس(وأجلها الوقت المعين مقداره لبقاء الحياة.

و)لن(لتأكيد نفي التأخير، وعموم)نفسا(في سياق النفي يعم نفوس المؤمنين وغيرهم.

ومجيء الأجل حلول الوقت المحدد للاتصال بين الروح والجسد وهو ما علمه الله من طاقة البدن للبقاء حيا بحسب قواه وسلامته من العوارض المهلكة.

وهذا إرشاد من الله للمؤمنين ليكونوا على استعداد للموت في كل وقت، فلا يؤخروا ما يهمهم عمله سؤال ثوابه فما من أحد

يؤخر العمل الذي يسره أن يعمله وينال ثوابه إلا وهو معرض لأن يأتيه الموت عن قريب أو يفاجئه، فعليه بالتحرز الشديد من هذا التفريط في كل وقت وحال، فربما تعذر عليه التدارك بفجأة الفوات، أو وهن المقدرة فإنه إن كان لم تطاوعه نفسه على العمل لصالح قبل الفوات فكيف يتمنى تأخير الأجل المحتوم.

)والله خبير بما تعملون[11](عطف على جملة)لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم(. أو تذييل والواو اعتراضية.

ويفيد بناء الخبر على الجملة الاسمية تحقيق علم الله بما يعمله المؤمنون. ولما كان المؤمنون لا يخامرهم شك في ذلك كان التحقيق والتقوي راجعا إلى لازم الخبر وهو الوعد والوعيد والمقام هنا مقامهما لأن الإنفاق المأمور به منه الواجب المندوب. وفعلهما يستحق الوعد. وترك أولهما يستحق الوعيد.

وإيثار وصف)خبير(دون: عليم، لما تؤذن به مادة)خبير(من العلم بالأمور الخفية ليفيد أنه تعالى عليم بما ظهر من الأعمال وما بطن مثل أعمال القلب التي هي العزائم والنيات، وإيقاع هذه الجملة بعد ذكر ما يقطعه الموت من ازدياد الأعمال الصالحة إيماء إلى أن ما عسى أن يقطعه الموت من العزم على العمل إذا كان وقته المعين له شرعا ممتدا كالعمر للحج على المستطيع لمن لم يتوقع طرو مانع. وكالوقت المختار للصلوات، أن حيلولة الموت دون إتمامه لا يرزئ المؤمن ثوابه لأن المؤمن إذا اعتاد حزبا أو عزم على عمل صالح ثم عرض له ما منعه منه أن الله يعطيه أجره.

ومن هذا القبيل: أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة كما في الحديث الصحيح.

وقرأ الجمهور)بما تعملون(بالمثناة الفوقية. وقرأه أبو بكر عن عاصم بالمثناة التحتية فيكون ضمير الغيبة عائدا إلى)نفسا(الواقع في سياق النفي لأنه عام فله حكم الجمع في المعنى.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التغابن

سميت هذه السورة)سورة التغابن(ولا تعرف بغير هذا الاسم ولم ترد تسميتها بذلك في خبر مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى ما ذكره ابن عطية عن الثعلبي عن ابن عمر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من مولود إلا وفي تشابيك مكتوب خمس آيات فاتحة سورة التغابن . والظاهر أن منتهى هذه الآيات قوله تعالى)والله عليم بذات الصدور(فتأمله. ورواه القرطبي عن ابن عمر ولم ينسبه إلى التعليق فلعله أخذه من تفسير ابن عطية.

ووجه التسمية وقوع لفظ)التغابن(فيها ولم يقع في غيرها من القرآن.
وهي مدنية في قول الجمهور وعن الضحاك هي مكية. وروى الترمذي عن عكرمة عن ابن عباس أن تلك الآيات نزلت في رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا الهجرة فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث. وقال مجاهد: نزلت في شأن عوف الأشجعي كما سيأتي.
وهي معدودة السابعة والمائة في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الجمعة وقبل سورة الصف بناء على أنها مدنية.
وعدد آيها ثمان عشرة.

أغراضها
واشتملت هذه السورة على التذكير بأن من في السماء ومن في الأرض يسبحون لله، أي تنزهونه عن النقائض تسبيحا متجددا.
وأن الملك لله وحده فهو الحقيق بأفراده بالحمد لأنه خالق الناس كلهم فآمن بوحدانيته ناس وكفر ناس ولم يشكروا نعمة إذ خلقهم في أحسن صورة وتحذيرهم من إنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.
وإنذارهم على ذلك ليعتبروا بما حل بالأمم الذين كذبوا رسلهم وجحدوا بيناتهم تكبرا أن يهتدوا بإرشاد بشر مثلهم.
والإعلام بأن الله عليم بالظاهر والخفي في السماوات والأرض فلا يجري أمر في العالم إلا على ما اقتضته حكمته.
وأنحى عليهم إنكار البعث وبين لهم عدم استحالته وهددهم بأنهم يلقون حين يبعثون جزاء أعمالهم فإن أرادوا النجاة فليؤمنوا بالله وحده وليصدقوا رسوله صلى الله عليه وسلم والكتاب الذي جاء به ويؤمنوا بالبعث فإنهم إن آمنوا كفرت عنهم سيئاتهم وإلا فجزاؤهم النار خالدين فيها.
ثم تثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من ضر أهل الكفر بهم فليتوكلوا على الله في أمورهم.

صفحة : 4435

وتحذير المؤمنين من بعض قرابتهم الذين تغلغل الإشراك في نفوسهم تحذيرا من أن يثبطوهم عن الإيمان والهجرة.
وعرض لهم بالصبر على أموالهم التي صادرها المشركون.

وأمرهم بإنفاق المال في وجوه الخير التي يرضون بها ربهم وبتقوى الله والسمع له والطاعة.

)يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير[1](لما كان جل ما اشتملت عليه هذه السورة إبطال إشراك المشركين وزجرهم عن دين الإشراك بأسره وعن تفاريعه التي أعظمها إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيب القرآن وتلك أصول ضلالهم ابتدئت السورة بالإعلان بضلالهم وكفرانهم المنعم عليهم، فإن ما في السماوات والأرض يسبح لله تعالى عن النقائص: إما بلسان المقال مثل الملائكة والمؤمنين أو بلسان الحال مثل عبادة المطيعين من المخلوقات المدركة كالملائكة والمؤمنين، وإما بلسان الحال مثل دلالة حال الاحتياج إلى الإيجاد والإمداد كحاجة الحيوان إلى الرزق وحاجة الشجرة إلى المطر وما يشهد به حال جميع تلك الكائنات من أنها مربوبة لله تعالى ومسخرة لما أراده منها، وكل تلك المخلوقات لم تنقض دلالة حالها بنفائض كفر مقالها فلم يخرج عن هذا التسبيح إلا أهل الضلال من الإنس والشياطين فإنهم حجبوا بشهادة حالهم لما غشوها به من صرح الكفر.

فالمعنى: يسبح لله ما في السماوات والأرض وأنتم بخلاف ذلك.

وهذا يفيد ابتداء تقرير تنزيه الله تعالى وقوة سلطانه ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويكون لهم تعليما وامتنانا ويفيد ثانيا بطريق الكناية تعريضا بالمشركين الذين لم ينزهوه ولا وقروه فنسبوا إليه شركاء.

وجيء بفعل التسبيح مضارعا للدلالة على تجدد ذلك التسبيح ودوامه وقد سبق نظيره في فاتحة سورة الجمعة.

وجيء به في فواتح سور: الحديد، والحشر، والصف بصيغة الماضي للدلالة على أن التسبيح قد استقر في قديم الأزمان. فحصل من هذا التفنن في وفاتح هذه السور كلا المعنيين زيادة على ما بيناه من المناسبة الخاصة بسورة الجمعة، وما في هاته السورة من المناسبة بين تجدد التسبيح والأمر بالعفو عن ذوي القربى والأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة والسمع والطاعة لكي لا يكتفي المؤمنون بحصول إيمانهم ليجتهدوا في تعزيزه بالأعمال الصالحة.

وإعادة)ما(الموصولة في قوله)وما في الأرض(لقصد التوكيد اللفظي.

وجملة)له الملك(استئناف واقع موقع التعليل والتسبب لمضمون تسبيح لله ما في السماوات وما في الأرض فإن ملابسة جميع الموجودات لدلائل تنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن النقائض لا مقتضى لها إلا انفراده بتملكها وإيجادها وما فيها من الاحتياج إليه وتصرفه فيها تصرف المالك المتفرد في ملكه.

وفي هذه الجملة تنويه بإقبال أهل السماوات والأرض على تسبيح الله وتجديد ذلك التسبيح.
فتقديم المسند على المسند إليه لإفادة تخصيصه بالمسند إليه، أي قصر تعلق لام الاستحقاق بالملك عليه تعالى فلا ملك لغيره وهو قصر ادعائي مبني على عدم الاعتداد بما لغير الله من ملك لنقصه وعدم خلوه عن الحاجة إلى غيره من هو له بخلاف ملكه تعالى فهو الملك المطلق الداخل في سلطانه كل ذي ملك.
وجملة)وله الحمد(مضمونها سبب لتسبيح الله ما في السماوات وما في الأرض، إذ التسبيح من الحمد، فلا جرم أن كان حمد ذوي الإدراك مختصا به تعالى إذ هو الموصوف بالجميل الاختياري المطلق فهو الحقيق بالحمد والتسبيح.
فهذا القصر ادعائي لعدم الاعتداد بحمد غيره لنقصان كمالاتهم وإذا أريد بالحمد ما يشمل الشكر أو يفضي إليه كما في الحديث الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده وهو مقتضى المقام من تسفيه أحلام المشركين في عبادتهم غيره فالشكر أيضا مقصور عليه تعالى لأنه المنعم الحق بنعم لا قبل لغيره بإسدائها، وهو المفيض على المنعمين ما ينعمون به في الظاهر، قال تعالى)وما بكم من نعمة فمن الله(كما تقدم في تفسير أول سورة الفاتحة.
وجملة)وهو على كل شيء قدير(معطوفة على اللتين قبلها وهي بمنزلة التذييل لهما والتبيين لوجه القصرين فيهما، فإن التقدير على كل شيء هو صاحب الملك الحق وهو المختص بالحمد الحق.
وفي هذا التذييل وعد للشاكرين ووعيد وترهيب للمشركين.

صفحة : 4436

والاقتصار على ذكر وصف)قدير(هنا لأن المخلوقات التي تسبح الله دالة على صفة القدرة أولا لأن من يشاهد المخلوقات يعلم أن خالقها قادر.
)هو الذي خلقكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير[2]
(هذا تقرير لما أفاده قوله)يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض(، وتخلص للمقصود منه على وجه التصريح بأن الذين أشركوا بالله قد كفروا بنعمته وبخلقهم زيادة على جحدهم دلائل تنزهه تعالى عن النقص الذي اعتقدوه له. ولذلك قدم)فمنكم كافر(على) ومنكم مؤمن(لأن الشق الأول هو المقصود بهذا الكلام تعريضا وتصريحا.

وأفاد تعريف الجزأين من جملة)هو الذي خلقكم(قصر صفة الخالقية على الله تعالى، وهو قصر حقيقي قصد به الإشارة بالكناية بالرد على المشركين إذ عمدوا إلى عبادة أصنام يعلمون أنها لم تخلقهم فما كانت مستحقة لأن تعبد، لأن العبادة شكر. قال تعالى) أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون(.

والخطاب في قوله)خلقكم(لجميع الناس الذين يدعوهم القرآن بقرينة قوله)فمنكم كافر ومنكم مؤمن(، فإن الناس لا يعدون هذين القسمين.

والفاء في)فمنكم كافر(عاطفة على جملة)هو الذي خلقكم(وليست عاطفة على فعل)خلقكم(وهي للتفريع في الوقوع دون تسبب.

ونظيره قوله)وجعلنا في ذريتهما النبوءة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون(ومثل هذا التفريع يستتبع التعجيب من جري أحوال بعض الناس على غير ما يقتضيه الطبع)وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون(فجملة)فمنكم كافر(هي المقصود من التفريع، وهو تفريع في الحصول. وقدم ذكر الكافر لأنه الأهم في هذا المقام كما يشير إليه قوله تعالى في)ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل(.

وجملة)ومنكم مؤمن(تتميم وتنويه بشأن أهل الإيمان ومضادة حالهم لحال أهل الكفر ومقابلة الحال بالحال.

وقوله)والله بما تعملون بصير(تتميم واحتراس واستطراد، فهو تتميم لما يكمل المقصود من تقسيمهم إلى فريقين لإبداء الفرق بين الفريقين في الخير والشر وهو عليم بذلك وعليم بأنه يقع وليس الله مغلوبا على وقوعه ولكن حكمته وعلمه اقتضيا ذلك. ودون تفصيل هذا تطويل نخصه بتأليف في معنى القدر وجريان أعمال الناس في الدنيا إن شاء الله. وتقتصر هنا على أن نقول: خلق الله الناس وأودع فيهم العقول التي تتوصل بالنظر السليم من التقصير وشوائب الهوى وغشاوات العناد إلى معرفة الله على الوصف اللائق به وخلق فيهم القدرة على الأعمال الصالحة وغيرها المسماة عند الأشعري بالكسب وعند المعتزلة بقدرة العبد والخلاف في التعبير . وأرشدهم إلى الصلاح وحذرهم من الفساد، والله عالم بما يكتسبه كل أحد ولو شاء لصرف مقترف الفساد عن فعله ولكنه أوجد نظما مرتبطا بعضها ببعض ومنتشرة فقضت حكمته بالحفاظ على تلك النظم الكثيرة بأن لا يعوق سيرها في طرائقها ولا يعطل عملها لأجل إصلاح أشخاص هم جزء من كل لأن النظم العامة أعم فالحفاظ على اطرادها أصلح وأرجح، فلا تتنازل إرادة الله وقدرته إلى التدخل فيما سمي بالكسب على أصولنا أو بالقدوة الحادثة على أصول المعتزلة، بل جعل بحكمته بين الخلق والكسب حاجزا هو

نظام تكوين الإنسان بما فيه من إرادة وإدراك وقدرة، وقد أشار إلى هذا قوله)والله بما تعملون بصير(أي هو بصير به من قبل أن تعملوه، وبعد أن عملتموه.

فالبصير: أريد به العالم علم انكشاف لا يقبل الخفاء فهو كعلم المشاهدة وهذا إطلاق شائع في القرآن لا سيما إذا أفردت صفة) بصير(بالذكر ولم تذكر معها صفة)سميع(.

واصطلح بعض المتكلمين على أن صفة البصيرة: العالم بالمرئيات. وقال بعضهم: هي تعلق العلم الإلهي بالأمور عند وقوعها. والحق أنها استعمالات مختلفة. وبهذا يتضح وجه الجمع بين ما يبدو من تعارض بين آيات القرآن وإخبار من السنة فاجعلوه مثالا يحتذى، وقولوا هكذا. هكذا.

وهو احتراس من أن يتوهم من تقسيمهم إلى فريقين أن ذلك رضى بالحالين كما حكي عن المشركين)وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم(.

وهو استطراد بطريق الكناية به عن الوعد والوعيد.

وشمل قوله)بما تعملون(أعمال القلوب كالإيمان وهي المقصود ابتداء هنا.

)خلق السماوات والأرض(

استئناف بياني ناشئ عن قوله)فمنكم كافر ومنكم مؤمن(يبين أن انقسامهم إلى قسمي الكافرين والمؤمنين نشأ عن حياد فريق من الناس عن الحق الذي أقيم عليه خلق السماوات والأرض لأن الحق أن يؤمن الناس بوجود خالقهم، وبأنه واحد وأن يفردوه بالعبادة فذلك الذي أراده الله من خلقهم، قال تعالى)وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون(. وقال)فأقم وجهك للذين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله(فمن حاد عن الإيمان ومال إلى الكفر فقد حاد عن الحق والفطرة.

) بالحق(وقوله)بالحق(معترض بين جملة)خلق السماوات والأرض(وجملة)وصوركم(.

وفي قوله)بالحق(إيماء إلى إثبات البعث والجزاء لأن قوله بالحق متعلق بفعل)خلق(تعلق الملابسة المفاد بالباء، أي خلقا ملابسا للحق، والحق ضد الباطل، ألا ترى إلى قوله تعالى)إن في خلق السماوات والأرض(إلى قوله)ربنا ما خلقت هذا باطلا(. والباطل ما صدقه هنالك هو العبث لقوله تعالى)وما خلقنا السماوات والأرض

وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق(فتعين أن ما صدق الحق في قوله)خلق السماوات والأرض بالحق(أنه ضد العبث والإهمال.
والمراد ب)خلق السماوات والأرض(خلق ذواتهن وخلق ما فيهن من المخلوقات كما أنبأ عنه قوله)وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق(، أي ما خلقناهما وما بينهما إلا بالحق، فكذلك يكون التقدير في الآية من هذه السورة.
وملابسة الحق لخلق السماوات والأرض يلزم أن تكون ملابسة عامة مطردة لأنه لو اختلت ملابسة حال من أحوال مخلوقات السماوات للحق لكان ناقضا لمعنى ملابسة خلقها للحق، فكان نفي البعث للجزاء على أعمال المخلوقات موجبا اختلال تلك الملابسة في بعض الأحوال. وتخلف الجزاء عن الأعمال في الدنيا مشاهد إذ كثيرا ما نرى الصالحين في كرب ونرى أهل الفساد في نعمة، فلو كانت هذه الحياة الدنيا قصارى حياة المكلفين لكان كثير من أهل الصلاح غير لاق جزاء على صلاحه. وانقلب أكثر أهل الفساد متمتعا بإرضاء خباثة نفسه ونوال مشتهياته، فكان خلق كلا هذين الفريقين غير ملابس للحق، بالمعنى المراد.
ولزيادة الإيقاظ لهذا الإيماء عطف عليه قوله)وإليه المصير(وكل ذلك توطئة إلى ما سبقه من قوله تعالى)زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا(الآية.
وفي قوله)بالحق(رمز إلى الجزاء وهو وعيد ووعد.
وفي قوله)خلق السماوات(إلى آخره إظهار أيضا لعظمة الله في ملكوته.
)وصوركم فأحسن صوركم(إدماج امتنان على الناس بأنهم مع ما خلقوا عليه من ملابسة الحق على وجه الإجمال وذلك من الكمال وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية فقد خلقوا في أحسن تقويم إذ كانت صورة الإنسان مستوفية الحسن متماثلة فيه لا يعتورها من فظاعة بعض أجزائها ونقصان الانتفاع بها ما يناكد محاسن سائرها بخلاف محاسن أحاسن الحيوان من الدواب والطير والحيتان من مشي على أربع مع انتكاس الرأس غالبا، أو زحف، أو نقز في المشي في البعض.
ولا تعتور الإنسان نقائص في صورته إلا من عوارض تعرض في مدة تكوينه من صدمات لبطون الأمهات، أو علل تحل بهن، أو بالأجنة أو من عوارض تعرض له في مدة حياته فتشوه بعض محاسن الصور. فلا يعد ذلك من أصل تصوير الإنسان على أن ذلك مع ندرته لا يعد فظاعة ولكنه نقص نسبي في المحاسن فقد جمع بين الإيماء إلى ما اقتضته الحكمة قد نبههم إلى ما اقتضاه الإنعام. وفيه إشارة إلى دليل إمكان البعث كما قال)أفعيينا بالخلق الأول(،

وقال)أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم(.
)وإليه المصير[3](عطف على جملة)وصوركم(لأن التصوير يقتضي الإيجاد فأعقب بالتذكير بأن بعد هذا الإيجاد فناء ثم بعثا للجزاء.
والمصير مصدر ميمي لفعل صار بمعنى رجع وانتهى، ولذلك يعدى بحرف الانتهاء، أي ومرجعكم إليه يعني بعد الموت وهو مصير الحشر للجزاء.
وتقديم)إليه(على)المصير(للرعاية على الفاصلة مع إفادة الاهتمام بتعلق ذلك المصير بتصرف الله المحض. وليس مرادا بالتقديم قصر لأن المشركين لا يصدقون بهذا المصير من أصله بله أن يدعوا أنه مصير إلى غيره حتى يرد عليهم بالقصر.

صفحة : 4438

وهذه الجملة أشد ارتباطا بجملة)خلق السماوات والأرض بالحق(منها بجملة)وصوركم فأحسن صوركم(كما يظهر بالتأمل.
)يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور[4](كانوا ينفون الحشر بعلة أنه إذا تفرقت أجزاء الجسد لا يمكن جمعها ولا يحاط بها.)وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد(فكان قوله تعالى)يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون(دحضا لشبهتهم، أي أن الذي يعلم ما في السماوات والأرض لا يعجزه تفرق أجزاء البدن إذا أراد جمعها. والذي يعلم السر في نفس الإنسان، والسر أدق وأخفى من ذرات الأجساد المتفرقة، لا تخفى عليه مواقع تلك الأجزاء الدقيقة ولذلك قال تعالى)أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه(.
فالمقصود هو قوله)ويعلم ما تسرون(كما يقتضيه الاقتصار عليه في تذييله بقوله)والله عليم بذات الصدور(ولم يذكر أنه عليم بأعمال الجوارح، ولأن الخطاب للمشركين في مكة على الراجح. وذلك قبل ظهور المنافقين فلم يكن قوله)ويعلم ما تسرون وما تعلنون(تهديد على ما يبطنه الناس من الكفر.
وأما عطف)وما تعلنون(فتتميم للتذكير بعموم تعلق علمه تعالى بالأعمال.
وقد تضمن قوله)ويعلم ما تسرون وما تعلنون(وعيدا ووعدا ناظرين إلى قوله)فمنكم كافر ومنكم مؤمن(فكانت الجملة لذلك شديدة الاتصال بجملة)هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن(.

وإعادة فعل)يعلم(للتنبيه على العناية بهذا التعلق الخاص للعلم الإلهي بعد ذكر تعلقه العام في قوله)يعلم ما في السماوات والأرض(تنبيها على الوعيد والوعد بوجه خاص.

وجملة)والله عليم بذات الصدور(تذييل لجملة)ويعلم ما تسرون(لأنه يعلم ما سيره جميع الناس من المخاطبين وغيرهم.

و)ذات الصدور(صفة لموصوف محذوف نزلت منزلة موصوفها، أي صاحبات الصدور، أي المكتومة فيها.

والتقدير: بالنوايا والخواطر ذات الصدور كقوله)وحملناه على ذات ألواح(وتقدم بيانه عند قوله تعالى)إنه عليم بذات الصدور(في سورة الأنفال.

) ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم[5](انتقال من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي في قوله)والله بما تعملون بصير(، إلى قوله)وإليه المصير(، وقوله) ويعلم ما تسرون وما تعلنون(، إلى تعريض أوضح منه بطريق الإيماء إلى وعيد لعذاب دنيوي وأخروي معا فأن ما يسمى في باب الكناية بالإيمان أقل لازم من العريض والرمز فهو أقرب إلى التصريح. وهذا الإيماء بضرب المثل بحال أمم تلقوا رسلهم بمثل ما تلقى به المشركون محمد صلى الله عليه وسلم تحذيرا لهم من أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك، فالجملة ابتدائية لأنها عد لصنف ثان من أصناف كفرهم وهو إنكار الرسالة.

فالخطاب لخصوص الفريق الكافر بقرينة قوله)الذين كفروا من قبل(فهذا الخطاب موجه للمشركين الذين حالهم كحال من لم يبلغهم نبأ الذين كفروا مثل كفرهم، مثل عاد وثمود ومدين وقوم إبراهيم.

والاستفهام تقريري، والتقريري يؤتى معه بالجملة منفية توسعة على المقرر إن كان يريد الإنكار حتى إذا أقر لم يستطع بعد إقراره إنكارا لأنه قد أعذر له من قبل بتلقينه النفي وقد تقدم غير مرة.

وحذف ما أضيف إليه قبل ونوي معناه، والتقدير: من قبلكم، أي في الكفر بقرينة قوله)فمنكم كافر(. والكافرون يعلمون أنهم المقصود لأنهم مقدمون على الكفر ومستمرون عليه.

والوبال: السوء وما يكره.

والأمر: الشأن والحال.

والذوق مجاز في مطلق الإحساس والوجدان، شبه ما حل بهم من العذاب بشيء ذي طعم كريه يذوقه من حل به ويبتلعه لأن الذوق باللسان أشد من اللمس باليد أو الجلد. والمعنى: أحسوا العذاب في الدنيا إحساسا مكنيا.

وقوله)ولهم عذاب أليم(مراد به عذاب الآخرة لأن العطف يقتضي المغايرة.
)ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد[6](

صفحة : 4439

ارتقاء في التعريض إلى ضرب منه قريب من الصريح. وهو المسمى في الكناية بالإشارة. كانت مقالة الذين من قبل مماثلة لمقالة المخاطبين فإذا كانت هي سبب ما ذاقوه من الوبال فيوشك أن يذوق مماثلوهم في المقالة مثل ذلك الوبال.
فاسم الإشارة عائد إلى المذكور من الوبال والعذاب الأليم.
فهذا عد لكفر آخر من وجوه كفرهم وهو تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم بالقرآن فإن القرآن بينة من البينات لأنه معجزة.
والباء للسببية في موقع العلة. والضمير الشأن لقصد تهويل ما يفسر الضمير، وهو جملة)كانت تأتيهم رسلهم بالبينات(إلى آخرها.
والاستفهام في)أبشر(استفهام إنكار وإبطال فهم أحالوا أن يكون بشر مثلهم يهدون بشرا أمثالهم، وهذا من جهلهم بمراتب النفوس البشرية ومن يصطفيه الله منها، ويخلقه مضطلعا بتبليغ رسالته إلى عباده. كما قال)وقالوا ما لهذا الرسول يأكل ويمشي في الأسواق(وجهلوا أنه لا يصلح لإرشاد الناس إلا من هو من نوعهم قال تعالى)قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا(ولما أحالوا أن يكون البشر أهلا لهداية بشر مثله جعلوا ذلك كافيا في إعراضهم من قبول القرآن والتدبر فيه.
والبشر: اسم جنس للإنسان يصدق على الواحد كما في قوله تعالى)قل إنما أنا بشر مثلكم(ويقال على الجمع كما هنا. وتقدم في قوله)وقلن حاش الله ما هذا بشرا(في سورة يوسف وفي سورة مريم عند قوله)فتمثل لها بشرا سويا(.
وتنكير)بشر(للنوعية لأن محط الإنكار على كونهم يهدونهم، وهو نوع البشرية.
وتقديم المسند إليه على الخبر لقصد تقوى الإنكار، وما قالوا ذلك حتى اعتقدوه فلذلك أقدموا على الكفر برسلهم إذ قد اعتقدوا استحالة إرسال الله إياهم فجزموا بكذبهم في دعوى الرسالة فلذلك فرع عليه)فكفروا وتولوا(.

والتولي أصله: الانصراف عن المكان الذي أنت فيه، وهو هنا مستعار للإعراض عن قبول دعوة رسلهم، وتقدم عند قوله تعالى) ثم توليتم من بعد ذلك(في سورة البقرة.
)واستغنى(غني فالسين والتاء للمبالغة كقوله)أما من استغنى(.
والمعنى: غني الله عن إيمانهم قال تعالى)إن تكفروا فإن الله غني عنكم(.
والواو واو الحال، أي والحال أن الله غني عنهم من زمن مضى فإن غني الله عن إيمانهم مقرر في الأزل.
ويجوز أن يراد: واستغنى الله عن إعادة دعوتهم لأن فيما أظهر لهم من البينات على أيدي رسلهم ما هو كاف لحصول التصديق بدعوة رسلهم لولا المكابرة فلذلك عجل لهم العذاب.
وعلى الوجهين متعلق)استغنى(محذوف دل عليه قوله)فكفروا(.
وقوله)ب البينات(والتقدير: واستغنى الله عن إيمانهم.
وجملة)والله غني حميد(تذييل، أي غني عن كل شيء فيما طلب منهم، حميد لمن امتثل وشكر.
)زعم الذين كفروا لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير[7](هذا ضرب ثالث من ضروب كفر المشركين المخاطبين بقوله)ألم يأتكم(الخ، وهو كفرهم بإنكارهم البعث والجزاء.
والجملة ابتدائية. وهذا الكلام موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بقرينة قوله)قل بلى(. وليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار ولا من الالتفات بل هو ابتداء غرض مخاطب به غير من كان الخطاب جاريا معهم.
وتتضمن الجملة تصريحا بإثبات البعث وذلك الذي أوتي إليه فيما مضى يفيد بالحق في قوله)خلق السماوات والأرض بالحق(وبقوله)يعلم ما في السماوات والأرض(كما علمته آنفا.
والزعم: القول الموسوم بمخالفة الواقع خطأ فمنه الكذب الذي لم يتعمد قائله أن يخالف الواقع في ظن سامعه. ويطلق على الخبر المستغرب المشكوك في وقوع ما أخبر به، وعن شريح: لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا أراد بالكنية الكناية . فبين الزعم والكذب عموم وخصوص وجهي.
وفي الحديث بئس مطية الرجل إلى الكذب زعموا ، أي قول الرجل زعموا كذا. وروي أهل الأدب أن الأعشى لما أنشد قيس بن معد يكرب: الكندي قوله في مدحه:

ونبئت قيسا ولم أبله كما زعموا
خير أهل اليمن غضب قيس وقال له وما هو إلا الزعم .

ولأجل ما يصاحب الزعم من توهم قائله صدق ما قاله الحق فعل زعم بأفعال الظن فنصب مفعولين. وليس كثيرا في كلامهم، ومنه قول أبي ذؤيب:

فإن تزعميني كنت أجهل فيكـم فإني

شريت الحلم بعدك بالجهل ومن شواهد النحو قول أبي أمية أوس الحنفي:

زعمتني شيخا ولست بشيخ إنما

الشيخ من يدب دبيبـا والأكثر أن يقع بعد فعل الزعم أن المفتوحة المشددة أو المخففة مثل التي في هذه الآية فيسد المصدر المنسبك مسد المفعولين. والتقدير: زعم الذين كفروا انتفاء بعثهم.

وتقدم الكلام على فعل الزعم في قوله تعالى)ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك(الآية في سورة النساء، وقوله) ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون(في سورة الأنعام وما ذكرته هنا أوفى.

والمراد ب)الذين كفروا(هنا المشركون من أهل مكة ومن على دينهم.

واجتلاب حرف)لن(لتأكيد النفي فكانوا موقنين بانتفاء البعث.

ولذلك جيء إبطال زعمهم مؤكدا بالقسم لينقض نفيهم بأشد منه، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم عن الله أن البعث واقع وخاطبهم بذلك تسجيلا عليهم أن لا يقولوا ما بلغناه ذلك.

وجملة)قل بلى(معترضة بين جملة)زعم الذين كفروا(وجملة) فآمنوا بالله ورسوله(.

وحرف)بلى(حرف جواب للإبطال خاص بجواب الكلام المنفي لإبطاله.

وجملة)ثم لتنبؤن بما علمتم(ارتقاء في الإبطال.

و)ثم(للتراخي الرتبي فإن إنباءهم بما عملوا أهم من إثبات البعث إذ هو العلة للبعث.

والإنباء: الإخبار، وإنباؤهم بما عملوا كناية عن محاسبتهم عليه وجزائهم عما عملوه، فإن الجزاء يستلزم علم المجازي بعمله الذي جوزي عليه فكان حصول الجزاء بمنزلة إخباره بما عمله كقوله تعالى)إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا(.

وهذا وعيد وتهديد بجزاء سيء لأن المقام دليل على أن عملهم سيء وهو تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وإنكار ما دعاهم إليه.

وجملة)وذلك على الله يسير(تذييل، والواو اعتراضية.

واسم الإشارة: إما عائد إلى البعث المفهوم من)لتبعثن(مثل قوله)اعدلوا هو أقرب للتقوى(أي العدل أقرب للتقوى، وإما عائد إلى معنى المذكور من مجموع)لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم(.

وأخبر عنه ب)يسير(دون أن يقال: واقع كما قال)وإن الدين لواقع(، لأن الكلام لرد إحالتهم البعث بعلة أن أجزاء الجسد تفرقت فيتعذر جمعها فذكروا بأن العسير في متعارف الناس لا يعسر على الله وقد قال في الآية الأخرى)وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه( )فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير[8](من جملة المأمور رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقوله.

والفاء فصيحة تفصح عن شرط مقدر، والتقدير: فإذا علمتم هذه الحجج وتذكرتم ما حل بنظرائكم من العقاب وما ستنبؤون به من أعمالكم فآمنوا بالله ورسوله والقرآن، أي بنصه.والمراد بالنور الذي أنزل الله القرآن، وصف بأنه نور على نور على طريقة الاستعارة لأنه أشبه النور في إيضاح المطلوب باستقامة حجته وبلاغه قال تعالى)وأنزلنا إليكم نورا مبينا(. وأشبه النور في الإرشاد إلى السلوك القويم وفي هذا الشبه الثاني تشاركه الكتب السماوية، قال تعالى)إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور(، وقرينة الاستعارة قوله) الذي أنزلناه(، لأنه من مناسبات المشبه لاشتهار القرآن بين الناس كلهم بالألقاب المشتقة من الإنزال والتنزيل عرف ذلك المسلمون والمعاندون. وهو إنزال مجازي أريد به تبليغ مراد الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم عند قوله تعالى)والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك(في سورة البقرة وفي آيات كثيرة.

وإنما جعل الإيمان بصدق القرآن داخلا في حيز فاء التفريع لأن ما قبل الفاء تضمن أنهم كذبوا بالقرآن من قوله)ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدينا(كما قال المشركون من أهل مكة والإيمان بالقرآن يشمل الإيمان بالبعث فكان قوله تعالى) والنور الذي أنزلناه(شاملا لما سبق الفاء من قوله)زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا(الخ.

وفي قوله)الذي أنزلنا(التفات من الغيبة إلى المتكلم لزيادة الترغيب في الإيمان بالقرآن تذكيرا بأنه منزل من الله لأن ضمير التكلم أشد دلالة على معاده من ضمير الغائب، ولتقوية داعي المأمور.

وجملة)والله بما تعملون خبير(تذييل لجملة)فآمنوا بالله ورسوله(يقتضي وعدا إن آمنوا ووعيدا إن لم يؤمنوا.

وفي ذكر اسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة جارية مجرى المثل والكلم الجوامع، ولأن الاسم الظاهر أقوى دلالة من الضمير لاستغنائه عن تطلب المعاد.وفيه من تربية المهابة ما في قول الخليفة أمير المؤمنين يأمركم بكذا .

والخبير: العليم، وجيء هنا بصفة)الخبير(دون: البصير، لأن ما يعلمونه منه محسوسات ومنه غير محسوسات كالمعتقدات، ومنها الإيمان بالبعث، فعلق بالوصف الدال على تعلق العلم الإلهي بالموجودات كلها، بخلاف قوله فيما تقدم وهو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير(فإن لكفر الكافرين وإيمان المؤمنين آثارا ظاهرة محسوسة فعلقت بالوصف الدال على تعلق العلم الإلهي بالمحسوسات.

)يوم يجمعكم ليوم الجمع(متعلق بفعل)لتنبؤن بما علمتم(الذي هو كناية عن)تجازون(على تكذيبكم بالبعث فيكون من تمام ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم ابتداء من قوله تعالى) قل بلى وربي لتبعثن(.

والضمير المستتر في)يجمعكم(عائد إلى اسم الجلالة في قوله) والله بما تعملون خبير(.

ومعنى)يجمعكم(يجمع المخاطبين والأمم من الناس كلهم، قال تعالى)هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين(.

ويجوز أن يراد الجمع الذي في قوله تعالى)أيحسب لإنسان أن لن نجمع عظامه(، وهذا زيادة تحقيق للبعث الذي أنكروه.

واللام في)ليوم الجمع(يجوز أن يكون للتعليل، أي يجمعكم لأجل اليوم المعروف بالجمع المخصوص. وهو الذي لأجل جمع الناس، أي يبعثكم لأجل أن يجمع الناس كلهم للحساب، فمعنى)الجمع(هذا غير معنى الذي في)يجمعكم(.

فليس هذا من تعليل الشيء بنفسه بل هو من قبيل التجنيس.

ويجوز أن يكون اللام بمعنى)في(على نحو ما قيل في قوله تعالى)لا يجليها لوقتها إلا هو(، وقوله)يا ليتني قدمت لحياتي(وقول العرب: مضى لسبيله، أي في طريقه وهو طريق الموت.

والأحسن عندي أن يكون اللام للتوقيت، وهي التي بمعنى) عند(كالتي في قولهم: كتب لكذا مضين مثلا، وقوله تعالى)أقم الصلاة لدلوك الشمس(. وهو استعمال يدل على شدة الاقتراب ولذلك فسروه بمعنى)عند(، ويفيد هنا: أنهم مجموعون في الأجل المعين دون تأخير ردا على قولهم)لن يبعثوا(، فيتعلق قوله)ليوم الجمع(بفعل)يجمعكم(.

ف)يوم الجمع(هو يوم الحشر. وفي الحديث)يجمع الله الأولين والآخرين(الخ. جعل المركب الإضافي لقبا ليوم الحشر، قال تعالى) وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير(.

وقرأ الجمهور)يجمعكم(بياء الغائب. وقرأ يعقوب بنون العظمة.

)ذلك يوم التغابن(اعتراض بين جملة)ثم لتنبؤن بما عملتم(بمتعلقها وبين جملة)ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا نكفر عنه سيئاته(اعتراضا يفيد تهويل هذا اليوم تعريضا بوعيد المشركين بالخسارة في ذلك اليوم: أي بسوء المنقلب.

والإتيان باسم الإشارة في مقام الضمير لقصد الاهتمام بتمييزه أكمل تمييز مع ما يفيد اسم إشارة البعيد من علو المرتبة على نحو ما تقدم في قوله)ذلك الكتاب(في سورة البقرة.

والتغابن: مصدر غابنة من باب المفاعلة الدالة على حصول الفعل من جانبين أو أكثر.

وحقيقة صيغة المفاعلة أن تدل على حصول الفعل الواحد من فاعلين فاكثر على وجه المشاركة في ذلك الفعل.

والغبن أن يعطى البائع ثمنا دون حق قيمته التي يعوض بها مثله.

فالغبن يؤول إلى خسارة البائع في بيعه، فلذلك يطلق الغبن على مطلق الخسران مجازا مرسلا كما في قول الأعشى:

لا يقبل الرشوة في حكمه ولا يبالي غبن الخاسـر فليست مادة التغابن في قوله)يوم التغابن(مستعملة في حقيقتها إذ لا تعارض حتى يكون فيه غبن بل هو مستعمل في معنى الخسران على وجه المجاز المرسل.

صفحة : 4442

وأما صيغة التفاعل فحملها جمهور المفسرين على حقيقتها من حصول الفعل من جانبين ففسروها أهل الجنة غبنوا أهل النار إذ أهل الجنة أخذوا الجنة وأهل جهنم أخذوا جهنم قاله مجاهد وقتادة والحسن. فحمل القرطبي وغيره كلام هؤلاء الأيمة على أن التغابن تمثيل لحال الفريقين بحال متبايعين أخذ أحدهما الثمن الوافي، وأخذ

الآخر الثمن المغبون، يعني وقول عقبه)ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا نكفر عنه سيئاته(، إلى قوله)وبئس المصير(قرينة على المراد من الجانبين وعلى كلا المعنيين يكون قوله)ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا(إلى قوله)وبئس المصير(تفصيلا للفريقين، فيكون في الآية مجازا وتشبيه ونمثيل، فالمجاز في مادة الغبن، والتمثيل في صيغة التغابن، وهو تشبيه مركب بمنزلة التشبيه البليغ إذ التقدير: ذلك يوم مثل التغابن.

وحمل قليل من المفسرين وهو ما فسر كلام الراغب في مفرداته وصرح ابن عطية صيغة التفاعل على معنى الكثرة وشدة الفعل كما في قولنا عافاك الله وتبارك الله فتكون استعارة، أي خسارة للكافرين إذ هم مناط الإنذار.

وهذا في معنى قوله تعالى)أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم(في سورة البقرة، وقوله)يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم(الآية في سورة الصف.

فصيغة التفاعل مستعملة مجازا في كثرة حصول الغبن للكثرة بفعل من يحصل من متعدد.

والكلام تهديد للمشركين بسوء حالتهم في يوم الجمع، إذ المعنى: ذلك يوم غبنكم الكثير الشديد بقرينة قوله قبله)فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا(. والغابن لهم هو الله تعالى.

ولولا قصد ذلك لما اقتصر على أن ذلك يوم تغابن فإن فيه ربحا عظيما للمؤمنين بالله ورسوله والقرآن، فوزان هذا القصر وزان قوله)فما ربحت تجارتهم(وقول النبي صلى الله عليه وسلم: إنما المفلس الذي يفلس يوم القيامة(.

وأفاد تعريف جزأي جملة)ذلك يوم التغابن(قصر المسند إليه أي قصر جنس يوم التغابن على يوم الجمعة المشار إليه باسم الإشارة، وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصرا ادعائيا، أي ذلك يوم الغبن لا أيام أسواقكم ولا غيرها، فإن عدم أهمية غبن الناس في الدنيا جعل غبن الدنيا كالعدم وجعل يوم القيامة منحصرا فيه جنس الغبن.

وأما لام التعريف في قوله)التغابن(فهي لام الجنس، ومن هذا المعنى قوله تعالى)قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة(. وقوله في ضده)يرجون تجارة لن تبور(. هذا هو المتعين في تفسير هذه الآية وأكثر المفسرين مر بها مرا. ولم يحتلب منها درا. وها أنا ذا كددت ثمادي، فعسى أن يقع للناظر كوقع القراح من الصادي، والله الهادي.

)ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا نكفر عنه سيئاته وندخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم[9]

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير[10](معطوفة على جملة)فآمنوا بالله ورسوله(وهو تفصيل لما أجمل في قوله)والله بما تعملون خبير(الذي هو تذييل.
و)من(شرطية والفعل بعدها مستقبل، أي من يؤمن من المشركين بعد هذه الموعظة نكفر عنه ما فرط من سيئاته.
والمراد بالسيئات: الكفر وما سبقه من الأعمال الفاسدة.
وتكفير السيئات: العفو عن المؤاخذة بها وهو مصدر كفر مبالغة في كفر. وغلب استعماله في العفو عما سلف من السيئات وأصله: استعارة الستر للإزالة مثل الغفران أيضا.
وانتصب)صالحا(على الصفة لمصدر وهو مفعول مطلق محذوف تقديره: عملا صالحا.
وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر)نكفر(و)ندخله(بنون العظمة على الالتفات من الغيبة إلى التكلم لأن مقام إقبال فناسبه ضمير المتكلم.
وقرأهما الباقون بياء الغيبة على مقتضى الظاهر لأن ضمير الجلالة يؤذن بعناية الله بهذا الفريق.
وجملة)ذلك الفوز العظيم(تذييل.
وقوله)والذين كفروا وكذبوا(، أي كفروا وكذبوا من قبل واستمروا على كفرهم وتكذيبهم فلم يستجيبوا لهذه الدعوة ثبت لهم أنهم أصحاب النار. ولذلك جيء في جانب الخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

صفحة : 4443

وجيء لهم باسم الإشارة لتميزهم تمييزا لا يلتبس معه غيرهم بهم مثل قوله)أولئك على هدى من ربهم(مع ما يفيده اسم الإشارة من أن استحقاقهم لملازمة النار ناشئ عن الكفر والتكذيب بآيات الله وهذا وعيد.
وجملة وبئس المصير اعتراض تذييلي لزيادة تهويل الوعيد.
)ما أصاب من مصيبة إلا بأذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم[11](استئناف انتقل إليه بعد أن توعد المشركون بما يحصل لهم من التغابن يوم يجمع الله الناس يوم الحساب.
ويشبه أن يكون استئنافا بيانيا لأن تهديد المشركين بيوم الحساب يثير في نفوس المؤمنين التساؤل عن الانتصاف من المشركين في الدنيا على ما يلقاه المسلمون من إضرارهم بمكة فإنهم لم يكفوا

عن أذى المسلمين وإصابتهم في أبدانهم وأموالهم والفتنة بينهم وبين أزواجهم وأبنائهم.
فالمراد: المصائب التي أصابت المسلمين من معاملة المشركين فأنبأهم الله بما يسليهم عن ذلك بأن الله عالم بما ينالهم. وقال القرطبي قيل سبب نزولها أن الكفار قالوا لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله عن المصائب .
واختصت المصيبة في استعمال اللغة بما يلحق الإنسان من شر وضر وإن كان أصل فعلها يقال كما يصيب الإنسان مطلقا ولكن غلب إطلاق فعل أصاب على لحاق السوء، وقد قيل في قوله)ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك(، أن إسناد الإصابة إلى الحسنة من قبيل المشاكلة.
وتأنيث المصيبة لتأويلها بالحادثة وتقدم عند قوله تعالى)أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها(في سورة آل عمران.
والإذن: أصله إجازة الفعل لمن يفعله وأطلق على إباحة الدخول إلى البيت وإزالة الحجاب لأنه مشتق من أذن له إذا سمع كلامه. وهو هنا مستعار لتكوين أسباب الحوادث. وهي الأسباب التي تفضي في نظام العادة إلى وقوع واقعات، وهي من آثار صنع الله في نظام هذا العالم من ربط المسببات بأسبابها مع علمه بما تفضي إليه تلك الأسباب فلما كان هو الذي أوجد الأسباب وأسباب أسبابها، وكان قد جعل ذلك كله أصولا وفروعا بعلمه وحكمته، أطلق على ذلك التقدير والتكوين لفظ الإذن، والمشابهة ظاهرة، وهذا في معنى قوله)ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها(.
ومقتضى هذه الاستعارة تقريب حقيقة التقلبات الدنيوية إلى عقول المسلمين باختصار العبارة لضيق المقام عن الإطناب في بيان العلل والأسباب، ولأن أكثر ذلك لا تبلغ إليه عقول الأمة بسهولة. والقصد من هذا تعليم المسلمين الصبر على ما يغلبهم من مصائب الحوادث لكيلا تفل عزائمهم ولا يهنوا ولا يلهيهم الحزن عن مهمات أمورهم وتدبير شؤونهم كما قال في سورة الحديد)لكيلا تأسوا على ما فاتكم(.
ولذلك أعقبه هنا بقوله)ومن يؤمن بالله يهد قلبه(، أي يهد قلبه عندما تصيبه مصيبة، فحذف هذا المتعلق لظهوره من السياق قال) ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس(.
والمعنى: أن المؤمن مرتاض بالأخلاق الإسلامية متبع لوصايا الله تعالى فهو مجاف لفساد الأخلاق من الجزع والهلع يتلقى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكر في أن الحياة لا تخلوا من عوارض

مؤلمة أو مكدرة. قال تعلى)وبشر الصابرين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون(، أي أصحاب الهدى الكامل لأنه هدى متلقى من التعاليم الإلهية الحق المعصومة من الخطل كقوله هنا)يهد قلبه(.

وهذا الخبر في قوله)ومن يؤمن بالله يهد قلبه(إيماء إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب لأنه يلزم من هدى الله قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلو المصائب فلذلك ذيل بجملة)والله بكل شيء عليم(فهو تذييل للجملة التي قبلها وارد على مراعاة جميع ما تضمنته من أن المصائب بإذن الله، ومن أن الله يهدي قلوب المؤمنين للثبات عند حلول المصائب ومن الأمر بالثبات والصبر عند المصائب، أي يعلم جميع ذلك.

وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب لأن فائدة علم الله التي تهم الناس هو التخلق ورجاء الثواب ورفع الدرجات.

صفحة : 4444

)وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين[12](عطف على جملة)ومن يؤمن بالله يهد قلبه(لأنها تضمنت أن المؤمنين متهيؤون لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعوانهم إليه من صالح الأعمال كما يدل عليه تذييل الكلام بقوله)وعلى الله فليتوكل المؤمنون(، ولأن طلب الطاعة فرع عن تحقق الإيمان كما في حديث معاذ أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: إنك ستأتي قوما أهل كتاب فأول ما تدعوهم إليه فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدفة الحديث.

وتفريع)فإن توليتم(تحذير من عصيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

والتولي مستعار للعصيان وعدم قبول دعوة الرسول.

وحقيقة التولي الانصراف عن المكان المستقر فيه واستعير التولي للعصيان تشنيعا له مبالغة في التحذير منه، ومثله قوله تعالى في خطاب المؤمنين)وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم(، وقال)يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون(.

والتعريف في قوله)رسولنا(بالإضافة لقصد تعظيم شأنه بأنه صلى الله عليه وسلم رسول رب العالمين. وهذا الضمير التفات من الغيبة إلى التكلم يفيد تشريف الرسول بعز الإضافة إلى المتكلم.

ومعنى الحصر قوله)فإنما على رسولنا البلاغ المبين(قصر الرسول صلى الله عليه وسلم على كون واجبه البلاغ، قصر موصوف على صفة فالرسول صلى الله عليه وسلم مقصور على لزوم البلاغ له لا يعدو ذلك إلى لزوم شيء آخر. وهو قصر قلب تنزيلا لهم في حالة العصيان المفروض منزلة من يعتقد أن الله لو شاء لألجأهم إلى العمل بما أمرهم به إلهابا لنفوسهم بالحث على الطاعة.

ووصف)البلاغ(ب)المبين(، أي الواضح عذر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ادعى ما أمر به على الوجه الأكمل قطعا للمعذر عن عدم امتثال ما أمر به.

وباعتبار مفهوم القصر جملة فإنما على رسولنا البلاغ المبين كانت جوابا للشرط دون حاجة إلى تقدير جواب تكون هذه الجملة دليلا عليه أو علة له.

)الله لا إله إلا هو(جملة معترضة بين جملة)وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول(وجملة)وعلى الله فليتوكل المؤمنون(.

واسم الجلالة مبتدأ وجملة)لا إله الله هو(خبر. وهذا تذكير للمؤمنين بما يعلمونه. أي من آمن بأن الله لا إله إلا هو كان حقا عليه أن يطيعه وأن لا يعبأ بما يصيبه في جانب طاعة الله من مصائب وأذى كما قال حبيب بن عدي:

لست أبالي حيت أقتل مسلـما على

أي جنب كان الله مصرعي ويجوز أن تكون جملة)الله لا إله إلا هو(في موقع العلي لجملة)وأطيعوا الله(، وتفيد أيضا تعليل جملة)وأطيعوا الرسول(لأن طاعة الرسول ترجع إلى طاعة الله قال تعالى)من يطع الرسول فقد أطاع الله(.

وافتتاح الجملة باسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار إذ لم يقل هو لا إله إلا هو لاستحضار عظمة الله تعالى بما يحويه اسم الجلالة من معاني الكمال، ولتكون الجملة مستقلة بنفسها فتكون جارية مجرى الأمثال والكلم الجوامع.

)وعلى الله فليتوكل المؤمنون[13](عطف على)وأطيعوا الله(فهو في معنى: وتوكلوا على الله، فإن المؤمنين يتوكلون على الله لا على غيره وأنتم مؤمنون فتوكلوا عليه.

وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي أن المؤمنين لا يتوكلون إلا على الله.

وجيء في ذلك بصيغة أمر المؤمنين بالتوكل على الله دون غيره ربطا على قلوبهم وتثبيتا لنفوسهم كيلا يأسفوا من إعراض المشركين وما يصيبهم منهم وأن ذلك لن يضرهم.
فإن المؤمنين لا يعتزون بهم ولا يتقوون بأمثالهم، لأن الله أمرهم أن لا يتوكلوا إلا عليه، وفيه إيذان بأنهم لا يخالفون أمر الله وذلك يغيظ الكافرين.
والإتيان باسم الجلالة في قوله)وعلى الله فليتوكل المؤمنون(إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة فتسير مسرى المثل، ولذلك كان إظهار لفظ)المؤمنون(ولم يقل: وعلى الله فليتوكلوا، ولما في)المؤمنون(من العموم الشامل للمخاطبين وغيرهم ليكون معنى التمثيل.

صفحة : 4445

)يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم[14]
(إقبال على خطاب المؤمنين بما يفيدهم كمالا ويجنبهم ما يفتنهم.
أخرج الترمذي عن ابن عباس أن رجلا سأله عن هذه الآية فقال: هؤلاء رجال من أهل مكة أسلموا وأرادوا أن يأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم، فلما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد مدة وجاء معهم أزواجهم وأولادهم ورأوا الناس قد فقهوا في الدين أي سبقوهم بالفقه في الدين لتأخر هؤلاء عن الهجرة فهموا أن يعاقبوهم على ما تسببوا لهم حتى سبقهم الناس إلى الفقه في الدين فأنزل الله هذه الآية أي حتى قوله)وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم(. وهو الذي اقتصر عليه الواحدي في أسباب النزول ومقتضاه أن الآية مدنية(.
وعن عطاء بن يسار وابن عباس أيضا أن هذه الآية نزلت بالمدينة في شأن عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه وقالوا: إلى من تدعنا، فيرق لهم فيقعد عن الغزو. وشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية في شأنهم. فهذه الآية مستأنفة استئنافا ابتدائيا ويكون موقعها هذا سبب نزولها صادف أن كان عقب ما نزل قبلها من هذه السورة.
والمناسبة بينها وبين الآية التي قبلها لأن كلتيهما تسلية على ما أصاب المؤمنين من غم من معاملة أعدائهم إياهم ومن انحراف بعض أزواجهم وأولادهم عليهم.

وإذا كانت السورة كلها مكية كما هو قول الضحاك كانت الآية ابتداء إقبال على تخصيص المؤمنين بالخطاب بعد قضاء حق الغرض الذي ابتدئت به السورة على عادة القرآن في تعقيب الأغراض بأضدادها من ترغيب أو ترهيب، وثناء أو ملام، أو نحو ذلك ليوفى الطرفان حقيهما، وكانت تنبيها للمسلمين لأحوال في عائلاتهم قد تخفى عليهم ليأخذوا حذرهم، وهذا هو المناسب لما قبل الهجرة كان المسلمون بمكة ممتزجين مع المشركين بوشائج النسب والصهر والولاء فلما ناصبهم المشركون العداء لمفارقتهم دينهم وأضمروا لهم الحقد وأصبحوا فريقين كان كل فريق غير خال من أفراد متفاوتين في المضادة تبعا للتفاوت في صلابة الدين، وفي أواصر القرابة والصهر، وقد بلغ العداء إلى نهاية طرفه فتندحض أمامه جميع الأواصر فيصبح الأشد قربا أشد مضرة على قريبه من مضرة البعيد.

فأيقظت هذه الآية المؤمنين لئلا يغرهم أهل قرابتهم فيما توهم من جانب غرورهم فيكون ضرهم أشد عليهم وفي هذا الإيقاظ مصلحة للدين وللمسلمين ولذلك قال تعالى)فاحذروهم(ولم يأمر بأن يضروهم، وأعقبه بقوله)وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم(، جمعا بين الحذر وبين المسالمة وذلك من الحزم.

و)من(تبعيضية. وتقديم خبر)إن(على اسمها للاهتمام بهذا الخبر ولما فيه من تشويق إلى الاسم ليتمكن مضمون هذا الخبر في الذهن أتم تمكن لما فيه من الغرابة والأهمية. وقد تقدم مثله عند قوله تعالى)ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر(في سورة البقرة.

وعدو وصف من العداوة بوزن فعول بمعنى فاعل فلذلك لزم حالة الإفراد والتذكير إذا كان وصفا، وقد مضى ذلك عند قوله تعالى) فإن كان من قوم عدو لكم(في سورة النساء. فأما إذا أريد منه معنى الاسمية فيطابق ما أجري عليه، قال تعالى)يكونوا لكم أعداء(.

والإخبار عن بعض الأزواج والأولاد بأنهم عدو يجوز أن يحمل على الحقيقة فإن بعضهم قد يضمر عداوة لزوجه وبعضهم لأبويه من جراء المعاملة بما لا يروق عنده مع خباثة في النفس وسوء تفكير فيصير عدوا لمن حقه أن يكون له صديقا، ويكثر أن تأتي هذه العداوة من اختلاف الدين ومن الانتماء إلى الأعداء.

ويجوز أن يكون على معنى التشبيه البليغ، أي كالعدو في المعاملة بما هو من شأن معاملة الأعداء كما قيل في المثل يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو لعدوه. وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه.

وعطف على قوله)فاحذروهم(جملة)وإن تعفوا وتصفحوا(إلى آخرها عطف الاحتراس لأنه إذا كان العفو مطلوبا محبوبا إلى الله تعالى وهو لا يكون إلا بعد حصول الذنب فإن عدم المؤاخذة على مجرد ظن العداوة أجدر بالطلب ففهم النهي عن معاملة الأزواج والأنباء معاملة الأعداء لأجل إيجاس العداوة، بل المقصود من التحذير التوقي وأخذ الحيطة لابتداء المؤاخذة، ولذلك قيل الحزم سوء الظن بالناس ، أي لكن دون أن يبنى على ذلك الظن معاملة من صدر منه ما ظننت به قال تعالى)إن بعض الظن إثم(وقال)أن تصيبوا قوما بجهالة فتصحبوا على ما فعلتم نادمين(.

والعفو: ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها. ولو مع توبيخ.

والصفح: الإعراض عن المذنب، أي ترك عقابه على ذنبه دون التوبيخ.

والغفر: ستر الذنب وعدم إشاعته.

والجمع بينها هنا إيماء إلى تراتب آثار هذه العداوة وما تقتضيه آثارها من هذه المعاملات الثلاث. وحذف متعلق الأفعال الثلاثة لظهور أن المراد من أولادكم وأزواجكم فيما يصدر منهم مما يؤذيكم، ويجوز أن يكون حذف المتعلق لإرادة عموم الترغيب في العفو.

وإنما يعفو المرء ويصفح ويغفر عن المذنب إذا كان ذنبه متعلقا بحق ذلك المرء وبهذه الأفعال المذكورة هنا مطلقة وفي أدلة الشريعة تقييدات لها.

وجملة)فإن الله غفور رحيم(دليل جواب الشرط المحذوف المؤذن بالترغيب في العفو والصفح والغفر فالتقدير وأن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم لأن الله غفور رحيم، أي للذين يغفرون ويرحمون، وجمع وصف رحيم الخصال الثلاث.

)إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم[15](تذييل لأن فيه تعميم أحوال الأولاد بعد أن ذكر حال خاص ببعضهم.

وأدمج فيه الأموال لأنها لم يشملها طلب الحذر ولا وصف العداوة. وقدم ذكر الأموال على الأولاد لأن الأموال لم يتقدم ذكرها بخلاف الأولاد.

ووجه إدماج الأموال هنا أن المسلمين كانوا قد أصيبوا في أموالهم من المشركين فغلبوهم على أموالهم ولم تذكر الأموال في الآية السابقة لأن الغرض هو التحذير من أشد الأشياء اتصالا بهم وهي أزواجهم وأولادهم. ولأن فتنة هؤلاء مضاعفة لأن الداعي إليها يكون من أنفسهم ومن مساعي الآخرين وتسويلهم. وجرد عن ذكر

الأزواج هنا اكتفاء لدلالة فتنة الأولاد عليهن بدلالة فحوى الخطاب، فإن فتنتهن أشد من فتنة الأولاد لأن جرأتهن على التسويل لأزواجهن ما يحاولنه منهم أشد من جرأة الأولاد.

والقصر المستفاد من)إنما(قصر موصوف على صفة، أي ليست أموالكم وأولادكم إلا فتنة. وهو قصر ادعائي للمبالغة في كثرة ملازمة هذه الصفة للموصوف إذ يندر أن تخلو أفراد هذين النوعين، وهما أموال المسلمين وأولادهم عن الاتصاف بالفتنة لمن يتلبس بهما.

والإخبار ب)فتنة(للمبالغة. والمراد: أنهم سبب فتنة سواء سعوا في فعل الفتن أم لم يسعوا. فإن الشغل بالمال والعناية بالأولاد فيه فتنة.

ففي هذه الآية من خصوصيات علم المعاني التذييل والإدماج، وكلاهما من الإطناب، والاكتفاء وهو من الإيجاز، وفيها الإخبار بالمصدر وهو)فتنة(، والإخبار به من المبالغة فهذه أربعة من المحسنات البديعية، وفيها القصر، وفيها التعليل، وهو من خصوصيات الفصل، وقد يعد من محسنات البديع أيضا فتلك ست خصوصيات.

وفصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنها اشتملت على التذييل والتعليل وكلاهما من مقتضيات الفصل.

والفتنة: اضطراب النفس وحيرتها من جراء أحوال لا تلائم من عرضت له، وتقدم عند قوله تعالى)والفتنة أشد من القتل(في سورة البقرة.

أخرج أبو داود عن بريدة قال:)إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة حتى جاء الحسن والحسين يعثران ويقومان فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر فأخذهما وجذبهما ثم قرأ إنما أموالكم وأولادكم فتنة . وقال رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ في خطبته .

وذكر ابن عطية: أن عمر قال لحذيفة: كيف أصبحت فقال: أصبحت أحب الفتنة وأكره الحق. فقال عمر: ما هذا؟ فقال: أحب ولدي وأكره الموت.

صفحة : 4447

وقوله)والله عنده أجر عظيم(عطف على جملة)إنما أموالكم وأولادكم فتنة(لأن قوله)عنده أجر عظيم(كناية عن الجزاء عن تلك الفتنة لمن يصابر نفسه على مراجعة ما تسوله من الانحراف عن مرضاة الله إن كان في ذلك تسويل. والأجر العظيم على إعطاء

حق المال والرأفة بالأولاد، أي والله يؤجركم عليها. لقول النبي صلى الله عليه وسلم من ابتلى من هذه البنات بشيء وكن له سترا من النار . وفي حديث آخر إن الصبر على سوء خلق الزوجة عبادة .

والأحاديث كثيرة في هذا المعنى منها ما رواه حذيفة فتنة الرجل في أهله وماله تكفرها الصلاة والصدقة.

)فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[16](فاء فصيحة وتفريع على ما تقدم، أي إذا علمتم هذا فاتقوا الله فيما يجب من التقوى في معاملة الأولاد والأزواج ومصارف في الأموال فلا يصدكم حب ذلك والشغل به عن الواجبات، ولا يخرجكم الغضب ونحوه عن حد العدل المأمور به، ولا حب المال عن أداء حقوق الأموال وعن طلبها من وجوه الحلال. فالأمر بالتقوى شامل للتحذير المتقدم وللترغيب في العفو كما تقدم ولما عدا ذلك.

والخطاب للمؤمنين.

وحذف متعلق)اتقوا(لقصد تعميم ما يتعلق بالتقوى من جميع الأحوال المذكورة وغيرها وبذلك يكون هذا الكلام كالتذييل لأن مضمونه أعم من مضمون ما قبله.

ولما كانت التقوى في شأن المذكورات وغيرها قد يعرض لصاحبها التقصير في إقامتها حرصا على إرضاء شهوة النفس في كثير من أحوال تلك الأشياء زيد تأكيد الأمر بالتقوى بقوله)ما استطعتم(.

)وما(مصدرية ظرفية، أي مدة استطاعتكم ليعم الأزمان كلها ويعم الأحوال تبعا لعموم الأزمان ويعم الاستطاعات، فلا يتخلوا عن التقوى في شيء من الأزمان. وجعلت الأزمان ظرفا للاستطاعة لئلا يقصروا بالتفريط في شيء يستطيعونه فيما أمروا بالتقوى في شأنه ما لم يخرج عن حد الاستطاعة إلى حد المشقة قال تعالى)يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر(.

فليس في قوله)ما استطعتم(تخفيف ولا تشديد ولكنه عدل. وإنصاف. ففيه ما عليهم وفيه ما لهم.

روى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فلقنني: فيما استطعت ، وعن ابن عمر كنا إذا بايعنا النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة يقول لنا)فيما استطعت(.

وعطف)واسمعوا وأطيعوا(على)اتقوا الله(من عطف الخاص على العام للاهتمام به، ولأن التقوى تتبادر في ترك المنهيات فإنها مشتقة من وقى. فتقوى الله أن يقي المرء نفسه مما نهاه الله عنه، ولما كان ترك المأمورات فيؤول إلى إتيان المنهيات، لأن ترك الأمر

منهي عنه إذ الأمر بالشيء نهي عن ضده. كان التصريح به بخصوصه اهتماما بكلا الأمرين لتحصل حقيقة التقوى الشرعية وهي اجتناب المنهيات وامتثال المأمورات.
والمراد: اسمعوا الله، أي أطيعوا بالسمع للرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته.
والأمر بالسمع أمر يتلقى الشريعة والإقبال على سماع مواعظ النبي صلى الله عليه وسلم وذلك وسيلة التقوى قال تعالى)فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه(.
وعطف عليه)وأطيعوا(: أي أطيعوا ما سمعتم من أمر ونهي.
وعطف)وأنفقوا(تخصيص بعد تخصيص فإن الإنفاق مما أمر الله به فهو من المأمورات.
وصيغة الأمر تشتمل واجب الإنفاق والمندوب ففيه التحريض على الإنفاق بمرتبتيه وهذا من الاهتمام بالنزاهة من فتنة المال التي ذكرت في قوله)إنما أموالكم وأولادكم فتنة(.
وانتصب)خيرا(على الصفة لمصدر محذوف دل عليه)أنفقوا(. والتقدير: إنفاقا خيرا لأنفسكم. هذا قول الكسائي والفراء فيكون) خير(اسم تفضيل. وأصله: أخير، وهو محذوف الهمزة لكثرة الاستعمال، أي الإنفاق خير لكم من الإمساك. وعن سيبويه أنه منصوب على أنه مفعول به لفعل مضمر دل عليه)أنفقوا(. والتقدير: ائتوا خيرا لأنفسكم.
وجملة)ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(تذييل.

صفحة : 4448

و)من(اسم شرط وهي من صيغ العموم: أي كل من يوق شح نفسه والعموم يدل على أن)من(مراد بها جنس لا شخص معين ولا طائفة، وهذا حب اقتضاه حرص أكثر الناس على حفظ المال وادخاره والإقلال من نفع الغير به وذلك الحرص يسمى الشح.
والمعنى: أن الإنفاق يقي صاحبه من الشح المنهي عنه فإذا يسر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به فقد وقي شح نفسه وذلك من الفلاح.
ولما كان ذلك فلاحا عظيما جيء في جانبه بصيغة الحصر بطريقة تعريف المسند، وهو قصر جنس المفلحين على جنس الذين وقوا شح أنفسهم، وهو قصر ادعائي للمبالغة في تحقق وصف المفلحين الذين وقوا شح أنفسهم نزل الآن فلاح غيرهم بمنزلة العدم.

وإضافة)شح(إلى النفس للإشارة إلى أن الشح من طباع النفس فإن النفوس شحيحة بالأشياء المحببة إليها قال تعالى)وأحضرت الأنفس الشح(.

وفي الحديث لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الصدقة قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى. وأن لا تدع حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان وتقدم نظير)ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون(في سورة الحشر.

)إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم[17] عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم[18](استئناف بياني ناشئ عن قوله)وأنفقوا خيرا لأنفسكم(، فإن مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة خير عظيم، وبهذا الموقع يعلم السامع أن القرض أطلق على الإنفاق المأمور به إطلاقا بالاستعارة، والمقصود الاعتناء بفضل الإنفاق المأمور به.

اهتماما مكررا فيعد أن جعل خيرا جعل سبب الفلاح وعرف بأنه قرض من العبد لربه وكفى بهذا ترغيبا وتلطفا في الطلب إذ جعل المنفق كأنه يعطي الله تعالى مالا وذلك من معنى الإحسان في معاملة العبد ربه وقد بينه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل إذ قال جبريل للنبي عليهما الصلاة والسلام: أخبرني عن الإحسان فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فمما ينضوي تحت معنى عبادة الله عبادة من يراه أن يستشعر العبد أن امتثال أمر ربه بالإنفاق المأمور به منه كأنه معاملة بين مقرض ومستقرض.

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى)من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة(في سورة البقرة.

وقرأ الجمهور)يضاعفه(بألف بعد الضاد وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب)يضعفه(بتشديد العين مضارع ضعف، وهما بمعنى واحد وهو لفظي الضعف.

والمضاعفة: إعطاء الضعف بكسر الضاد وهو مثل الشيء في الذات أو الصفة. وتصدق بمثل وبعده أمثال كما قال تعالى)أضعافا كثيرة(.

وجعل الإنفاق سبب للغفران كما قال النبي صلى الله عليه وسلم الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار .

والشكور: فعول بمعنى فاعل مبالغة، أي كثير الشكر وأطلق الشكر فيه على الجزاء بالخير على فعل الصالحات تشبيها لفعل المتفضل بالجزاء بشكر المنعم عليه على نعمة ولا نعمة على الله فيما يفعله عباده من الصالحات. فإنما نفعها لأنفسهم ولكن الله تفضل بذلك حثا

على صلاحهم فرتب لهم الثواب بالنعيم على تزكية أنفسهم، وتلطف لهم فسمي ذلك الثواب شكرا وجعل نفسه شاكرا.
وقد أومأ إلى هذا المقصد إتباع صفة)شكور(بصفة)حليم(تنبيها على أن ذلك من حلمه بعبادة دون حق لهم عليه سبحانه.
وأما وصف ب)عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم(فتتميم للتذكير بعظمة الله تعالى مع مناسبتها للترغيب والترهيب الذين اشتملت عليهما الآيات السابقة كلها لأن العالم بالأفعال ظاهرها وخفيها لا يفيت شيئا من الجزاء عليها بما رتب لها، ولأن العزيز لا يعجزه شيء.
و)الحكيم(: الموصوف بالحكمة لا يدع معاملة الناس بما يقتضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها ونوط الأمور بما يناسب حقائقها.
والحكيم فعيل بمعنى: المحكم، أي المتقن في صنعه ومعاملته وهما معا من صفاته تعالى فهو وصف جامع للمعنيين.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الطلاق

صفحة : 4449

سورة)يا أيها النبي إذا طلقتم النساء(الخ شاعت تسميتها في المصاحف وفي كتب التفسير وكتب السنة: سورة الطلاق ولم ترد تسميتها بهذا في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم موسوم بالقبول.
وذكر في الإتقان أن عبد الله بن مسعود سماها سورة النساء القصرى أخذا مما أخرجه البخاري وغيره عن مالك بن عامر قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فذكر عنده أن الحامل المتوفى عنها تعتد أقصى الأجلين أي أجل وضع الحمل إن كان أكثر من أربعة أشهر وعشر، وأجل الأربعة الأشهر وعشر فقال: أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون عليها الرخصة لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى)وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن(اه. وفي الاتقان عن الداودي إنكار أن تدعى هذه السورة بالقصرى للتنزه عن وصف القرآن بصفة نقص ورده ابن حجر بأن القصر أمر نسبي أي ليس مشعرا بنقص على الإطلاق. وابن مسعود وصفها بالقصرى احترازا عن السورة المشهورة باسم سورة النساء التي هي السورة الرابعة في المصحف التي أولها)يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة(. وأما قوله الطولى فهو صفة لموصوف محذوف أي بعد السورة الطولى يعني سورة البقرة لأنها أطول سور القرآن

ويتعين أن ذلك مراده لأن سورة البقرة هي التي ذكرت فيها عدة المتوفى عنها. وقد يتوهم أن سورة البقرة تسمى سورة النساء الطولى من مقابلتها بسورة النساء القصرى في كلام ابن مسعود. وليس كذلك كما تقدم في سورة النساء.

وهي مدنية بالاتفاق.

وعدد آيها اثنتا عشرة آية في عدد الأكثر. وعدها أهل البصرة إحدى عشرة آية.

وهي معدودة السادسة والتسعين في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد نزلت بعد سورة الإنسان وقبل سورة البينة.

وسبب نزولها ما رواه مسلم عن طريق ابن جريج عن أبي الزبير أنه سمع عبد الرحمان بن أيمن يسأل ابن عمر كيف ترى في الرجل طلق امرأته حائضا فقال طلق ابن عمر امرأته حائضا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: ليراجعها، فردها وقال: إذا طهرت فليطلق أو ليمسك. قال ابن عمر وقرأ النبي:)يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن(.

وظاهر قوله وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم الخ. إنها نزلت عليه ساعتئذ. ويحتمل أن تكون نزلت قبل هذه الحادثة. وقال الواحدي عن السدي: أنها نزلت في قضية طلاق ابن عمر وعن قتادة أنها نزلت بسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ولم يصح. وجزم أبو بكر بن العربي بأن شيئا من ذلك لم يصح وأن الأصح أن الآية نزلت بيانا لشرع مبتدإ.

أغراضها

الغرض من آيات هذه السورة تحديد أحكام الطلاق وما يعقبه من العدة والإرضاع والإنفاق والإسكان. تتميما للأحكام المذكورة في سورة البقرة.

والإيماء إلى حكمة شرع العدة والنهي عن الإضرار بالمطلقات والتضييق عليهن.

والإشهاد على التطليق وعلى المراجعة وإرضاع المطلقة ابنها بأجر على الله.

والأمر بالائتمار والتشاور بين الأبوين في شأن أولادهما.

وتخلل ذلك الأمر بالمحافظة الوعد بأن الله يؤيد من يتقي الله ويتبع حدوده ويجعل له من أمره يسرا ويكفر عنه سيئاته.

وأن الله وضع لكل شيء حكمه لا يعجزه تنفيذ أحكامه.

وأعقب ذلك بالموعظة بحال الأمم الذين عتوا عن أمر الله ورسله وهو حث للمسلمين على العمل بما أمرهم به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لئلا يحق عليهم وصف العتو عن الأمر.
وتشريف وحي الله تعالى بأنه منزل من السماوات وصادر عن علم الله وقدرته تعالى.
)يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن(توجيه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب من أساليب آيات التشريع المهتم به فلا يقتضي ذلك تخصيص ما يذكر بعده النبي صلى الله عليه وسلم مثل)يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال(لأن النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتولى تنفيذ الشريعة في أمته وتبيين أحوالها. فإن كان التشريع الوارد يشمله ويشمل الأمة جاء الخطاب مشتملا على ما يفيد ذلك مثل صيغة الجمع في قوله هنا) إذا طلقتم النساء(وإن كان التشريع خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم جاءت بما يقتضي ذلك نحو)يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك(.

صفحة : 4450

قال أبو بكر بن العربي: وهذا قولهم أن الخطاب له لفظا. والمعنى له وللمؤمنين، وإذا أراد الله الخطاب للمؤمنين لاطفه بقوله)يا أيها النبي(، وإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعا له قال)يا أيها الرسول(اه. ووجه الاهتمام بأحكام الطلاق والمراجعة والعدة سنذكره عند قوله تعالى)واتقوا الله ربكم(.
فالأحكام المذكورة في هذه السورة عامة للمسلمين فضمير الجمع في قوله)إذا طلقتم النساء(وما بعده من الضمائر مثله مراد بها هو وأمته. وتوجيه الخطاب إليه لأنه المبلغ للناس وإمام أمته وقدوتهم والمنفذ لأحكام الله فيهم فيما بينهم من المعاملات فالتقدير إذا طلقتم أيها المسلمون.
وظاهر كلمة)إذا(أنها للمستقبل وهذا يؤيد ما قاله أبو بكر بن العربي من أنها شرع مبتدأ قالوا إنه يجوز أن يكون المراد إذا طلقتم في المستقبل فلا تعودوا إلى مثل ما فعلتم ولكن طلقوهن لعدتهن، أي في أطهارهن كما سيأتي.
وتكرير فعل)فطلقوهن(لمزيد الاهتمام به فلم يقل إذا طلقتم النساء فلطهرهن وقد تقدم نظير ذلك عند قوله تعالى)وإذا بطشتم بطشتم جبارين(في سورة الشعراء، وقوله)وإذا مروا باللغو مروا كراما(في سورة الفرقان.

واللام في)لعدتهن(لام التوقيت وهي بمعنى عند مثل كتب ليوم كذا من شهر كذا. ومنه قوله تعالى)أقم الصلاة لدلوك الشمس(لا تحتمل هذه اللام غير ذلك من المعاني التي تأتي لها اللام. ولما كان مدخول اللام هنا غير زمان علم أن المراد الوقت المضاف إلى عدتهن أي وقت الطهر.

ومعنى التركيب أن عدة النساء جعلت وقتا لإيقاع طلاقهن فكني بالعدة عن الطهر لأن المطلقة تعتد بالإظهار.

وفائدة ذلك أن يكون إيماء إلى حكمه هذا التشريع وهي أن يكون الطلاق عند ابتداء العدة وإنما تبتدأ العدة بأول طهر من أطهار ثلاثة لدفع المضرة عن الطلقة بإطالة انتظار تزويجها لأن ما بين حيضها إذا طلقت فيه وبين طهرها أيام غير محسوبة في عدتها فكان أكثر المطلقين يقصدون بذلك إطالة مدة العدة ليوسعوا على أنفسهم زمن الارتياء للمراجعة قبل أن يبن منهم.

وفعل)طلقتم(مستعمل في معنى أردتم الطلاق وهو استعمال وارد ومنه قوله تعالى)يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم(الآية والقرينة ظاهرة.

والآية تدل على إباحة التطليق بدلالة الإشارة لأن القرآن لا يقدر حصول فعل محرم من دون أن يبين منعه.

والطلاق مباح لأنه قد يكون حاجيا لبعض الأزواج فإن الزوجين شخصان اعتشرا اعتشارا حديثا في الغالب لم تكن بينهما قبله صلة من نسب ولا جوار ولا تخلق بخلق متقارب أو متماثل فيكثر أن يحدث بينهما بعد التزوج تخالف في بعض نواحي المعاشرة قد يكون شديدا ويعسر تذليله، فيمل أحدهما ولا يوجد سبيل إلى إراحتهما من ذلك إلا التفرقة بينهما فأحله الله لأنه حاجي ولكنه ما أحله إلا لدفع الضر فلا ينبغي أن يجعل الإذن فيه ذريعة للنكاية من أحد الزوجين بالآخر. أو من ذوي قرابتهما، أو لقصد تبديل المذاق. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم:)أبغض الحلال إلى الله الطلاق(.

وتعليق)طلقتم(بإذا الشرطية مشعر بأن الطلاق خلاف الأصل في علاقة الزوجين التي قال الله فيها)ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة(.

صفحة : 4451

واختلف العلماء في أن النبي صلى الله عليه وسلم طلق وجزم به الخطابي في شرح سنن أبي داود ولم يثبت تطليق النبي صلى الله عليه وسلم بحديث صحيح والمروي في ذلك خبران، أولهما ما

رواه ابن ماجه عن سويد بن سعيد وعبد الله بن عامر بن زراره ومسروق بن المرزبان بسندهم إلى ابن عباس عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها. وفي هذا السند ضعف لأن سويد بن سعيد ضعيف نسبه ابن معين إلى الكذب وضعفه ابن المديني والنسائي وابن عدي. وقبله أحمد بن حنبل وأبو حاتم. وكذلك مسروق ابن المرزبان يضعف أيضا. وبقي عبد الله بن عامر بن زرارة لا متكلم فيه فيكون الحديث صحيحا لمنه غريب وهو لا يقبل فيما تتوفر الدواعي على روايته كهذا. وهذا الحديث غريب في مبدئه ومنتهاه لانفراده سعيد بن جبير بروايته عن ابن عباس، وانفراد ابن عباس بروايته عن عمر بن الخطاب مع عدم إخراج أهل الصحيح إياه فالأشبه أنه لم يقع طلاق النبي صلى الله عليه وسلم حفصة ولكن كانت قضية الإيلاء بسبب حفصة.

والمعروف في الصحيح عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه فقال الناس طلق رسول الله نساءه. قال عمر: فقلت يا رسول الله أطلقت نساءك، قال: لا آليت منهن شهرا . فلعل أحد رواة الحديث عن ابن عباس عبر عن الإيلاء بلفظ التطليق وعن الفيئة بلفظ راجع على أن ابن ماجة يضعف عند أهل النقد.

وثانيهما حديث الجونية أسماء أو أميمة بنت شراحيل الكندية في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجها وأنه لما دخل يبني بها قالت له: أعوذ بالله منك، فقال: قد عذت بمعاذ ألحقي بأهلك وأمر أبا أسيد الساعدي أن يكسوها ثوبين وأن يلحقها بأهلها، ولعلها أرادت إظهار شرفها والتظاهر بأنها لا ترغب في الرجال وهو خلق شائع في النساء.

والأشبه أن هذا طلاق وأنه كان على سبب سؤالها فهو مثل التخيير الذي قال الله تعالى فيه)يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا(في سورة الأحزاب. فلا يعارض ذلك قوله)أبغض الحلال إلى الله الطلاق(. إذ يكون قوله ذلك مخصوصا بالطلاق الذي يأتيه الزوج بداع من تلقاء نفسه لأن علة الكراهية هي ما يخلفه الطلاق من بغضاء المطلقة من يطلقها فلا يصدر من النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء تجنبا من أن تبغضه المطلقة فيكون ذلك وبالا عليها، فأما إذا سألته فقد انتفت الذريعة التي يجب سدها.

وعلم من قوله تعالى)لعدتهن(أنهن النساء الدخول بهن لأن غير المدخول بهن لا عدة لهن إجماعا بنص آية الأحزاب.

وهذه الآية حجة لمالك والشافعي والجمهور أن العدة بالإظهار لا بالحيض فإن الآية دلت على أن يكون إيقاع الطلاق عند مبدإ

الاعتداد فلو كان مبدأ الاعتداد هو الحيض لكانت الآية أمرا بإيقاع الطلاق في الحيض ولا خلاف في أن ذلك منهي عنه لحديث عمر في قضية طلاق ابنه عبد الله بن عمر زوجه وهي حائض. واتفق أهل العلم على الأخذ به فكيف يخالف مخالف في معنى القرء خلافا يفضي إلى إبطال حكم القضية في ابن عمر وقد كانت العدة مشروعة من قبل بآية سورة البقرة وآيات الأحزاب فلذلك كان نوط إيقاع الطلاق بالحال التي تكون بها العدة إحالة على أمر معلوم لهم.

وحكمة العدة تقدم بيانها.

) وأحصوا العدة(الإحصاء: معرفة العد وضبطه. وهو مشتق من الحصى وهي صغار الحجارة لأنهم كانوا إذا كثرت أعداد شيء جعلوا لكل معدود حصاة ثم عدوا ذلك الحصى قال تعالى)وأحصى كل شيء عددا(.

والمعنى: الأمر بضبط أيام العدة والإتيان على جميعها وعدم التساهل فيها لأن التساهل فيها ذريعة إلى أحد أمرين. إما التزويج قبل انتهائها فربما اختلط النسب، وإما تطويل المدة على المطلقة في أيام منعها من التزوج لأنها في مدة العدة لا تخلو من حاجة إلى من يقوم بها.

وأما فوات أمد المراجعة إذا كان المطلق قد ثاب إلى مراجعة امرأته.

والتعريف في العدة للعهد فإن الاعتداد مشروع من قبل كما علمته آنفا والكلام على تقدير مضاف لأن المحصى أيام العدة.

صفحة : 4452

والمخاطب بضمير أحصوا هم المخاطبون بضمير إذا طلقتم فيأخذ كل من يتعلق به هذا الحكم حظه من المطلق والمطلقة ومن يطلع على مخالفة ذلك من المسلمين وخاصة ولاة الأمور من الحكام وأهل الحسبة فإنهم الأولى بإقامة شرائع الله في الأمة وبخاصة إذا رأوا تفشي الاستخفاف بما قصدته الشريعة. وقد بينا ذلك في باب مقاصد القضاء من كتابي)مقاصد الشريعة(.

ففي العدة مصالح كثيرة وتحتها حقوق مختلفة اقتضتها تلك المصالح الكثيرة وأكثر تلك الحقوق للمطلق والمطلقة وهي تستتبع حقوقا للمسلمين وولاة أمورهم في المحافظة على تلك الحقوق وخاصة عند التحاكم.

) واتقوا الله ربكم(اعتراض بين جملة)وأحصوا العدة(وجملة)لا تخرجوهن من بيوتهن(. والواو اعتراضية.
وحذف متعلق اتقوا الله ليعم جميع ما يتقى الله فيه فيكون هذا من قبيل الاعتراض التذييلي وأول ما يقصد بأن يتقى الله فيه ما سيق الكلام لأجله.
فقوله)واتقوا الله ربكم(تحذير من التساهل في أحكام الطلاق والعدة. وذلك أن أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزنا وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن فتناسى الناس تلك الحقوق وغمصوها فلذلك كانت هذه الآيات شديدة اللهجة في التحدي، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله ولزيادة الحرص على التقوى اتبع اسم الجلالة بوصف ربكم للتذكير بأنه حقيق بأن يتقي غضبه.
)لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة(استئناف أو حال من ضمير أحصوا العدة، أي حالة كون العدة في بيوتهن، ويجوز أن تكون بدل اشتمال من مضمون جملة أحصوا العدة لأن مكثهن في بيوتهن في مدة العدة يحقق معنى إحصاء العدة.
ولكلا الوجهين جردت الجملة عن الاقتران بالواو وجوازا أو وجوبا.
وفي إضافة البيوت إلى ضمير النساء إيماء إلى أنهن مستحقات المكث في البيوت مدة العدة بمنزلة مالك الشيء وهذا ما يسمى في الفقه ملك الانتفاع دون العين ولأن بقاء المطلقات في البيوت اللاتي كن فيها أزواجا استصحاب لحال الزوجية إذ الزوجة هي المتصرفة في بيت زوجها ولذلك يدعوها العرب ربة البيت وللمطلقة حكم الزوجة ما دامت في العدة إلا في استمتاع المطلق.
وهذا الحكم سببه مركب من قصد المكارمة بين المطلق والمطلقة. وقصد الانضباط في على الاعتداد تكميلا لتحقق لحاق ما يظهر من حمل بأبيه المطلق حتى يبرأ النسب من كل شك.
وجملة)ولا يخرجن(عطف على جملة)لا تخرجوهن(وهو نهي لهن عن الخروج فإن المطلق قد يخرجها فترغب المطلقة في الخروج لأنها تستثقل البقاء في بيت زالت عنه سيادتها فنهاهن الله عن الخروج. فإذا كان البيت مكترى سكنته المطلقة زكراؤه على المطلق وإذا انتهى أمد كرائه فعلى المطلق تجديده إلى انتهاء عدة المطلقة.
وهذا الترتب بين الجملتين يشعر بالسببية وأن لكل امرأة معتدة حق السكنى في بيت زوجها مدة العدة لأنها معتدة لأجله أي لأجل حفظ نسبه وعرضه فهذا مقتضى الآية. ولذلك قال مالك وجمهور العلماء بوجوب السكنى للمطلقة المدخول بها سواء كان الطلاق رجعيا أو بائنا وقال ابن أبي ليلى: لا سكنى إلا للمطلقة الرجعية، وعلل وجوب الإسكان للمطلقة المدخول بها بعدة أمور: حفظ

النسب، وجبر خاطر المطلقة وحفظ عرضها. وسيجيء في هذه السورة قوله تعالى)أسكنوهن من حيث سكنتم(الآية. وتعلم أن ذلك تأكيدا لما في هذه الآية من وجوب الإسكان في العدة أعيد ليبين عليه قوله)من وجدكم(وما عطف عليه.

والاستثناء في قوله)إلا أن يأتين بفاحشة مبينة(يحتمل أن يرجع إلى الجملتين اللتين قبله كما هو الشأن فيه إذا ورد بعد جمل على أصح الأقوال لعلماء الأصول. ويحتمل أن يرجع إلى الأخيرة منهما وهو مقتضى كونه موافقا لضميرها إذ كان الضمير في كلتيهما ضمير النسوة. وهو استثناء من عموم الأحوال التي اقتضاها عموم الذوات في قوله)لا تخرجوهن( )ولا يخرجن(. فالمعنى: إلا أن يأتين بفاحشة فأخرجوهن أو ليخرجن، أي يباح لكم إخراجهن وليس لهن الامتناع من الخروج وكذلك عكسه.

والفاحشة: الفعلة الشديدة السوء بهذا غلب إطلاقها في عرف اللغة فتشمل الزنى كما في قوله تعالى)واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم(الآية في)سورة النساء(.

صفحة : 4453

وشمل غيره من الأعمال ذات الفساد كما في قوله)وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آبائنا(. وقوله تعالى)قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن(في سورة الأعراف. قال ابن عطية: قال بعض الناس الفاحشة متى وردت في القرآن معرفة فهي الزنى يريد أو ما يشبهه كما في قوله)أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين(ومتى وردت منكرة فهي المعاصي.

وقرأ الجمهور)مبينة(بكسر الياء التحتية، أي هي تبين لمن تبلغه أنها فاحشة عظيمة فإسناد التبيين إليها مجاز باستعارة التبيين للوضوح أو تبيين لولاة الأمور صدورها من المرأة فيكون إسناد التبيين إلى الفاحشة مجازا عقليا وإنما المبين ملابسها وهو الإقرار والشهادة فيحمل في كل حالة على ما يناسب معنى التبيين.

وقرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم مبينة بفتح التحتية، أي كانت فاحشة بينتها الحجة أو بينها الخارج ومحمل القراءتين واحد.

ووصفها بمبينة إما أن يراد به أنها واضحة في جنس الفواحش، أي هي فاحشة عظيمة وهذا المقام يشعر بأن عظمها هو عظم ما يأتيه النساء من أمثالها عرفا. وإما أن يراد به مبينة الثبوت للمدة التي تخرج.

وقد اختلفوا في المراد من الفاحشة هنا وفي معنى الخروج لأجلها فعن ابن مسعود وابن عباس والشعبي والحسن وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة وحماد والليث بن سعد وأبي يوسف: أن الفاحشة الزنى، قالوا ومعاد الاستثناء الإذن في إخراجهن، أي ليقام عليهن الحد.

وفسرت الفاحشة بالبذاء على الجيران والإحماء أو على الزوج بحيث أن بقاء أمثالهن في جوار أهل البيت يفضي إلى تكرر الخصام فيكون إخراجها من ارتكاب أخف الضررين ونسب هذا إلى أبي بن كعب لأنه قرأ إلا أن يفحشن عليكم بفتح التحتية وضم الحاء المهملة أي الاعتداء بكلام فاحش وروي ابن عباس أيضا واختاره الشافعي.

وفسرت الفاحشة بالمعصية من سرقة أو سب أو خروج من البيت فإن العدة بله الزنى ونسب إلى ابن عباس أيضا وابن عمر وقاله السدي وأبو جنيفة.

وعن قتادة الفاحشة: النشوز، أي إذا طلقها لأجل النشوز فلا سكنى لها.

وعن ابن عمر والسدي إرجاع الاستثناء إلى الجملة التي هو موال لها وهي جملة)ولا يخرجن(أي هم منهيات عن الخروج إلا أن يردن أن يأتين بفاحشة، ومعنى ذلك إرادة تفظيع خروجهن، أي إن أردن أن يأتين بفاحشة يخرجن وهذا بما يسمى تأكيد الشيء بما يشبه ضده كذا سماه السكاكي تسمية عند الأقدمين تأكيد المادح بما يشبه الذم ومنه قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن

فلول من قراع الكتائب فجعلت الآية خروجهن ريبة لهن وحذرت النساء منه بأسلوب خطابي بفتح الخاء فيكون هذا الاستثناء منعا لهن من الخروج على طريقة المبالغة في النهي.

ومحمل فعل)يأتين(على هذا الوجه أنه من يردن أن يأتين مثل) إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم(.

وقد ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتته فاطمة بنت قيس الفهرية فأخبرته أن زوجها أبا عمرو بن حفص أو أبا حفص بن عمرو وكان وجهه النبي صلى الله عليه وسلم مع علي إلى اليمن فأرسل إليها من اليمن بتطليقة صادفت آخر الثلاث فبانت منه، وأنه أرسل إلى بعض ذويه بأن ينفقوا عليها مدة العدة فقالوا لها مالك نفقة إلا أن تكون حاملا، وأنها رفعت أمرها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لا نفقة لك فاستأذنته في الانتقال فأذن لها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم. وفي رواية أنها قالت: أخاف أن يقتحم علي بالبناء للمجهول ، وفي رواية أنها كانت في

مكان وحش مخيف على ناحيتها فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم بالانتقال.
واختلف العلماء في انتقالها فقال جماعة هو رخصة لفاطمة بنت قيس لا تتجاوزها وكانت عائشة أم المؤمنين ترى ذلك، روى البخاري أن يحيى بن سعيد بن العاص طلق امرأته عمرة بنت عبد الرحمان بن الحكم وكان عمها مروان بن الحكم أمير المدينة يومئذ فانتقلها أبوها إليه فبلغ ذلك عائشة أم المؤمنين فأرسلت إلى مروان أن اتق الله وأرددها إلى بيتها فقال مروان أو ما بلغك شأن فاطمة بنت قيس قالت عائشة لا يضرك أن لا تذكر حديث فاطمة، فقال مروان إن كان بك الشر فحسبك ما بين هذين من الشر، ولعل عائشة اقتنعت بذلك إذ لم يرد أنها ردت عليه .

صفحة : 4454

وفي الصحيح عن عمر بن الخطاب أنه قال: لا ندع كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري أحفظت أم نسيت. وقالت عائشة: ليس لفاطمة بنت قيس خبر في ذكر هذا الحديث وعابت عليها أشد العيب. وقالت إن فاطمة كانت في مكان وحش مخيف على ناحيتها فرخص لها النبي صلى الله عليه وسلم بالانتقال. ويظهر من هذا أنه اختلاف في حقيقة العذر المسوغ للانتقال. قال مالك: وليس للمرأة أن تنتقل من موضع عدتها بغير عذر رواه الباجي في المنتقى.
وقال ابن العربي: إن الخروج للحدث والبذاء والحاجة إلى المعايش وخوف العودة من المسكن جائز بالسنة.
ومن العلماء من جوز الانتقال للضرورة وجعلوا ذلك محمل حديث فاطمة بنت قيس فإنها خيف عليها في مكان وحش وحدث بينها وبين أهل زوجها شر وبذاء قال سعيد بن المسيب تلك امرأة استطالت على أحمائها بلسانها أنها كانت لسنة فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تنتقل وهذا الاختلاف قريب من أن يكون اختلافا لفظيا لاتفاق الجميع عدا عمر بن الخطاب على أن انتقالها كان لعذر قبله النبي صلى الله عليه وسلم فتكون تلك القضية مخصصة للآية ويجري القياس عليها إذا تحققت علة القياس.
أما قول عمر بن الخطاب لا ندع كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة أحفظت أم نسيت. فهو دحض لرواية فاطمة ابنة قيس بشك له فيه فلا تكون معارضة لآية حتى يصار إلى الجمع بالتخصيص والترخيص. وقال ابن العربي: قيل إن عمر لم يخصص القرآن بخبر الواحد.

وأما تحديد منه خروج المعتدة من بيتها فلا خلاف في أن مبيتها في غير بيتها حرام. وأما خروجها نهارا لقضاء شؤون نفسها فجوزه مالك والليث بن سعد وأحمد للمعتدة مطلقا.

وقال الشافعي: المطلقة الرجعية لا تخرج ليلا ولا نهارا والميتوتة تخرج نهارا. وقال أبو حنيفة: تخرج المعتدة عدة الوفاة نهارا ولا تخرج غيرها، لا ليلا ولا نهارا.

وفي صحيح مسلم أن مروان بن الحكم أرسل إلى فاطمة بنت قيس يسألها عن حديثها فلما أبلغ إليه قال: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا عليها الناس. فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: فبيني وبينكم القرآن قال الله عز وجل:)لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا(. هذا لمن كان له رجعة فأي أمر يحدث بعد الثلاث فكيف تقولون لا نفقة لها إذا لم تكن حاملا فعلام تحسبونها فظنت أن ملازمة بيتها لاستقاء الصلة بينها وبين مفارقها وأنها ملزمة بذلك لأجل الإنفاق.

والذي تخلص لي أن حكمة السكنى للمطلقة أنها حفظ الأعراض فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها وقد يتسرب سوء الظن إليها فيكثر الاختلاف عليها ولا تجد ذا عصمة يذب عنها فلذلك شرعت لها السكنى ولا تخرج إلا لحاجياتها فهذه حكمة من قبيل المظنة فإذا طرأ على الأحوال ما أوقعها في المشقة أو أوقع الناس في مشقة من جرائها أخرجت من ذلك المسكن وجرى على مكثها في المسكن الذي تنتقل إليه ما يجري عليها في مسكن مطلقها لأن المظنة قد عارضتها مئنة. ومن الحكم أيضا في ذلك أن المطلقة قد لا تجد مسكنا لأن غالب النساء لم تكن لهن أموال وإنما هن عيال على الرجال فلما كانت المعتدة ممنوعة من التزوج كان إسكانها حقا على مفارقها استصحابا للحال حتى تحل للتزوج فتصير سكناها على من يتزوجها. ويزاد في المطلقة الرجعية قصد استبقاء الصلة بينها وبين مطلقها لعله أن يثوب إليه رشده فيراجعها فلا يحتاج في مراجعتها إلى إعادة التذاكر بينه وبينها أو بينه وبين أهلها. فهذا مجموع علل فإذا تخلفت واحدة منها لم يتخلف الحكم لأن الحكم المعلل بعلتين فأكثر لا يبطله سقوط بعضها بخلاف العلة المركبة إذا تخلف جزء منها.

) وتلك حدود الله(الواو اعتراضية والجملة معترضة بين جملة)ولا يخرجن(، وجملة)لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا(أريد بهذا الاعتراض المبادرة بالتنبيه إلى إقامة الأحكام المذكورة من أول

السورة إقامة لا تقصير فيها ولا خيرة لأحد في التسامح بها، وخاصة المطلقة والمطلق أن يحسبا أن ذلك من حقهما انفرادا أو اشتراكا.
والإشارة إلى الجمل المتقدمة باعتبار معانيها بتأويل القضايا.

صفحة : 4455

والحدود: جمع حد وهو ما يحد، أي يمنع من الاجتياز إلى ما ورائه للأماكن التي لا يحبون الاقتحام فيها إما مطلقا مثل حدود الحمى وإما لوجوب تغيير الحالة مثل حدود الحرم لمنع الصيد وحدود المواقيت للإحرام بالحج والعمرة.
والمعنى: أن هذه الأحكام مشابهة الحدود في المحافظة على ما تقتضيه في هذا.
ووجه الشبه إنما يراعي بما يسمح به عرف الكلام مثل قولهم) النحو في الكلام كالملح في الطعام(فإن وجه التشبيه أنه لا يصلح الكلام بدونه وليس ذلك بمقتض أن يكون الكثير من النحو في الكلام مفسدا ككثرة الملح في الطعام.
ووقوع حدود الله خبرا عن اسم الإشارة الذي أشير به إلى أشياء معينة يجعل إضافة حدود إلى اسم الجلالة مرادا منها تشريف المضاف وتعظيمه.
والمعنى: وتلك مما حد الله فلا تفيد تعريف الجمع بالإضافة عموما لصرف القرينة عن إفادة ذلك لظهور أن تلك الأشياء المعينة ليست جميع حدود الله.
)ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه(عطف على جملة،)وتلك حدود الله(.
فهو تتميم وهو المقصود من التذييل وإذ قد كان حدود الله جمعا معرفا بالإضافة كان مفيدا للعموم إذ لا صارف عن إرادة العموم بخلاف إضافة حدود الله السابق.
والمعنى: من يتعد شيئا من حدود الله فقد ظلم نفسه، وبهذا تعلم أن ليس في قوله)ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه(إظهار في مقام الإضمار لاختلاف هذين المركبين بالعموم والخصوص وجيء بهذا الإطناب لتهويل أمر هذا التعدي.
وأخبر عن متعديها بأنه ظلم نفسه للتخويف تحذيرا من تعدي هذه الحدود فإن ظلم النفس هو الجريرة عليها بما يعود بالإضرار وذلك منه ظلم لها في الدنيا بتعريض النفس لعواقب شيئة تنجر من مخالفة أحكام الذين لأن أحكامه صلاح للناس فمن فرط فيها فاتته المصالح المنطوية هي عليها.

قال)ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون(.

ومنه ظلم للنفس في الآخرة بتعريضها للعقاب المتوعد به على الإخلال بأحكام الدين قال تعالى:)أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين(فإن للمؤمنين حظا من هذا الوعيد بمقدار تفاوت ما بين الكفر ومجرد العصيان وجيء في هذا التحذير بمن الشرطية لإفادة عموم كل من تعدى حدود الله فيدخل في ذلك الذين يتعدون أحكام الطلاق وأحكام العدة في هذا العموم.

)لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا[1](هذه الجملة تعليل لجملة)فطلقوهن لعدتهن(وما ألحق بها مما هو إيضاح لها وتفصيل لأحوالها. ولذلك جاءت مفصولة عن الجمل التي قبلها.

ويجوز كونها بدلا من جملة)ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه(بدل اشتمال لأن ظلم النفس بعضه حاصل في الدنيا وهو مشتمل على إضاعة مصالح النفس عنها. وقد سلك في هذه الآية مسلك الترغيب في امتثال الأحكام المتقدمة بعد أن سلك في شانها مسلك الترهيب من مخالفتها.

فمن مصالح الاعتداد ما في مدة الاعتداد من التوسيع على الزوجين في مهلة النظر في مصير شأنهما بعد الطلاق، فقد يتضح لهما أو لأحدهما متاعب وأضرار من انفصام عروة المعاشرة بينهما فبعد ما أضجرهما من بعض خلقهما شيئا تافها بالنسبة لما لحقهما من أضرار الطلاق فيندم كلاهما أو أحدهما فيجدا من المدة ما يسع للسعي بينهما في إصلاح ذات بينهما.

والمقصود الإشارة إلى أهم ما في العدة من المصالح وهو ما يحدثه الله من أمر بعد الطلاق وتنكير أمر للتنويع.

أي أمرا موصوفا بصفة محذوفة، أي أمرا نافعا لهما.

وهذا الأمر هو تقليب القلوب من بغض إلى محبة، ومن غضب إلى رضى، ومن إيثار تحمل المخالفة في الأخلاق مع المعاشرة على تحمل آلام الفراق وخاصة إذا كان بين المتفارقين أبناء، أو من ظهور حمل بالمطلقة بعد أن لم يكن لها أولاد فيلز ظهوره أباه إلى مراجعة أمه المطلقة. على أن في الاعتداد والإسكان مصالح أخرى كما علمته آنفا.

والخطاب في قوله)لا تدري(لغير معين جار على طريقة القصد بالخطاب إلى كل من يصلح للخطاب ويهمه أمر الشيء المخاطب به من كل من قصر بصره إلى حالة الكراهية التي نشأ عليها الطلاق ولم يتدبر في عواقب الأمور ولا أحاط فكره بصور الأحوال المختلفة المتقلبة كما قال تعالى:)فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا(.

ولعل كلمة)لا تدري(تجري مجرى المثل فلا يراد مما فيها من علامة الخطاب ولا من صيغة الإفراد إلا الجري على الغالب في الخطاب وهو مبني على توجيه الخطاب لغير معين.

و)لعل(ومعمولاها سادة معلقة فعل)تدري(عن العمل.

)فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف(تفريع على جميع ما تقدم من أحكام العدة معطوف على جملة)وأحصوا العدة(لأن إحصاءها بحفظ مدتها واستيعاب أيامها فإذا انتهت المدة فقد أعذر الله لهما والزيادة عليها إضرار بأحدهما أو بكليهما وفائدة الآجال الوقوف عند انتهائها.

وبلوغ الأجل أصله انتهاء المدة المقدرة له كما يؤذن به معنى البلوغ الذي هو الوصول إلى المطلوب على تشبيه الأجل المعين بالمكان المسير إليه وشاع ذلك في الاستعمال فالمجاز في لفظ الأجل وتبعه المجاز في البلوغ وقد استعمل البلوغ في هذه الآية في مقاربة ذلك الانتهاء مبالغة في عدم التسامح فيه وهذا الاستعمال مجاز آخر لمشابهة مقاربة الشيء بالحصول فيه والتلبس به.

وقرينة المجاز هنا هو لفظ الأجل لأنه لا تتصور المراجعة بعد بلوغ الأجل لأن في ذلك رفع معنى التأجيل.

ومنه قوله تعالى)وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف(في سورة البقرة.

والإمساك: اعتزام المراجعة عبر عنه بالإمساك للإيماء إلى أن المطلقة الرجعية لها حكم الزوجة فيما عدا الاستمتاع فكأنه لما راجعها قد أمسكها أن لا تفارقه فكأنه لم يفارقها لأن الإمساك هو الضن بالشيء وعدم التفريط فيه ومنه قوله تعالى)أمسك عليك زوجك(وأنه إذا لم يراجعها فكأنه قد أعاد فراقها وقسا قلبه.

ومن أجل هذه النكتة جعل عدم الإمساك فراقا جديدا في قوله) أو فارقوهن بمعروف(.

والأمر في)فامسكوهن( )أو فارقوهن(للإباحة، وأو فيه للتخيير.

والباء في)بمعروف(للملابسة أي ملابسة كل من الإمساك والفراق للمعروف.

والمعروف: هو ما تعارفه الأزواج من حسن المعاملة في المعاشرة وفي الفراق.
فالمعروف في الإمساك: حسن اللقاء والاعتذار لها عما فرط والعود إلى حسن المعاشرة.
والمعروف في الفراق: كف اللسان عن غيبتها وإظهار الاستراحة منها.
والمعروف في الحالين من عمل الرجل لأنه هو المخاطب بالإمساك أو الفراق.
وأما المعروف الذي هو من عمل المرأة فمقرر من أدلة أخرى كقوله تعالى)ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف(.
وتقديم الإمساك أعني المراجعة على إمضاء المفارقة، إيماء إلى أنه أرضى لله تعالى وأوفق بمقاصد الشريعة مع ما تقدم من التعبير عن المراجعة بالإمساك، ففهم أن المراجعة مندوب إليها لأن أبغض الحلال إلى الله الطلاق.
ولما قيد أمر الإباحة من قوله)فامسكوهن( )أو فارقوهن(، بقيد بالمعروف، فهم منه أنه إن كان إمساك دون المعروف فهو غير مأذون فيه وهو الإمساك الذي كان يفعله أهل الجاهلية أن يطلق الرجل امرأته فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها أياما ثم طلقها بفعل ذلك ثلاثا ليطيل عليها من العدة فلا تتزوج عدة أشهر إضرار بها.
وقد تقدم هذا عند قوله تعالى)إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن(، إلى قوله)ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا(في سورة البقرة.
)وأشهدوا ذوي عدل منكم(ظاهر وقوع هذا الأمر بعد ذكر الإمساك أو الفراق، أنه راجع إلى كليهما لأن الإشهاد جعل تتمة للمأمور به في معنى الشرط للإمساك أو الفراق لأن هذا العطف يشبه القيد وإن لم يكن قيدا وشأن الشروط الواردة بعد جمل أن تعود إلى جميعها.

صفحة : 4457

وظاهر صيغة الأمر الدلالة على الوجوب فيتركب من هذين أن يكون الإشهاد على المراجعة وعلى بت الطلاق واجبا على الأزواج لأن الإشهاد يرفع أشكالا من النوازل وهو قول ابن عباس وأخذ به يحيى بن بكير من المالكية والشافعي في أحد قوليه وابن حنبل في أحد قوليه وروى عن عمران بن حصين وطاووس وإبراهيم وأبي قلابة وعطاء. وقال الجمهور الإشهاد المأمور به الإشهاد على المراجعة دون بت الطلاق.

أما مقتضى صيغة الأمر في قوله تعالى)وأشهدوا ذوي عدل(فقيل هو مستحب وهو قول أبي حنيفة والمشهور عن مالك فيما حكاه ابن القصار ولعل مستند هذا القول عدم جريان العمل بالتزامه بين المسلمين في عصر الصحابة وعصور أهل العلم، وقياسه على الإشهاد بالبيع فإنهم اتفقوا على عدم وجوبه وكلا هذين مدخول لأن دعوى العمل بترك الإشهاد دونها منع، ولأن قياس الطلاق والرجعة على البيع قد يقدح فيه بوجود فارق معتبر وهو خطر الطلاق والمراجعة وأهمية ما يترتب عليهما من الخصومات بين الانساب، وما في البيوعات مما يغني عن الإشهاد وهو التقايض في الاعواض. وقيل الأمر للوجوب المراجعة دون الفرقة وهو أحد قولي الشافعي وأحمد ونسبه إسماعيل بن حماد من فقهاء المالكية ببغداد إلى مالك وهو ظاهر مذهب ابن بكير.

واتفق الجميع على أن هذا الإشهاد ليس شرطا في صحة المراجعة أو المفارقة لأنه إنما شرع احتياطا لحقهما وتجنبا لنوازل الخصومات خوفا من أن يموت فتدعي أنها زوجة لم تطلق، أو أن تموت هي فيدعي هو ذلك، وكأنهم بنوه على أن الأمر لا يقتضي الفور، على أن جعل الشيء شرطا لغيره يحتاج إلى دليل خاص غير دليل الوجوب لأنه قد يتحقق الإثم بتركه ولا يبطل بتركه ما أمر بإيقاعه معه مثل الصلاة في الأرض المغصوبة. وبالثوب المغصوب. قال الموجبون للإشهاد لو راجع ولم يشهد أو بت الفراق ولم يشهد صحت مراجعته ومفارقته وعليه أن يشهد بعد ذلك.

قال يحي بن بكير: معنى الاستشهاد على المراجعة والمفارقة أن يشهد عند مراجعتها إن راجعها، وعند انقضاء عدتها إن لم يراجعها أنه قد كان طلقها وأن عدتها قد انقضت.

ولفقهاء الأمصار في صفة ما تقع المراجعة من صيغة بالقول ومن فعل ما هو من أفعال الأزواج، تفاصيل محلها كتب الفروع ولا يتعلق بالآية إلا ما جعله أهل العلم دليلا على المراجعة عند من جعله كذلك.

)وأقيموا الشهادة لله(عطف على)وأشهدوا ذوي عدل منكم(.

والخطاب موجه لكل من تتعلق به الشهادة من الشهود عليهم والشهود كل يأخذ بما هو حظه من هذين الخطابين. وليس هو من قبيل)يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك(لظهور التوزيع هناك باللفظ دون ما هنا فإنه بالمعنى فالكل مأمورون بإقامة الشهادة.

فتعريف الشهادة لاستغراق، أي كل شهادة وهو استغراق عرفي لأن المأمر به الشهادة الشرعية.

ومعنى إقامة الشهادة: إيقاعها مستقيمة لا عوج فيها فالإقامة مستعارة لإيقاع الشهادة على مستوفيها ما يجب فيها شرعا مما

دلت عليه أدلة الشريعة وهذه استعارة شائعة وتقدم عند قوله تعالى)وأقوم للشهادة(في سورة البقرة.
وقوله)لله(، أي لأجل الله وامتثال أمره لا لأجل المشهود له ولا لأجل المشهود عليه ولا لأجل منفعة الشاهد والإبقاء على راحته.
وتقدم بعض هذا عند قوله تعالى)ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا(في سورة البقرة.
)ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر(الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأحكام التي فيها موعظة للمسلمين من قوله) وأحصوا العدة، واتقوا الله ربكم(، إلى قوله)وأقيموا الشهادة لله(.
والوعظ: التحذير مما يضر والتذكير الملين للقلوب وقد تقدم عند قوله تعالى)يعظكم الله أن تعودوا لمثله(في سورة النور.
)ومن يتق الله يجعل له مخرجا[2] ويرزقه من حيث لا يحتسب(.
اعتراض بين جملة)وأقيموا لشهادة(وجملة)واللائي يئسن من المحيض(الآية، فأن تلك الأحكام لما اعتبرت موعظة بقوله)ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر(أعقب ذلك بقضية عامة، وهي أن تلك من تقوى الله تعالى وبما لتقوى الله من خير في الدنيا والآخرة على عادة القرآن من تعقيب الموعظة والترهيب بالبشارة والترغيب.

صفحة : 4458

ولما كان أمر الطلاق غير حال من حرج وغم يعرض للزوجين وأمر المراجعة لا يخلو في بعض أحواله من تحمل أحدهما لبعض الكره من الأحوال التي سببت الطلاق، أعلمهما الله بأنه وعد المتقين الواقفين عند حدوده أن يجعل لهم مخرجا من الضائقات شبه ما هم فيه من الحرج بالمكان المغلق على الحال فيه وشبه ما يمنحهم الله به من اللطف وإجراء الأمور على ما يلائم أحوالهم بجعل منفذ في المكان المغلق بتخلص منه المتضائق فيه.
ففي الكلام استعارة أن إحداهما ضمنية مطوية والأخرى صريحة وشمل المخرج ما يحف من اللطف بالمتقين في الآخرة أيضا بتخليصهم من أهوال الحساب والانتظار فالمخرج لهم في الآخرة هو الإسراع بهم إلى النعيم.
ولما كان من دواعي الفراق والخلاف بين الزوجين ما هو من التقتير في الإنفاق لضيق ذات اليد فكان الإحجام عن المراجعة عارضا كثيرا للناس بعد التطليق، أتبع الوعد بجعل المخرج للمتقين بالوعد بمخرج خاص وهو مخرج التوسعة في الرزق.

وقوله)من حيث لا يحتسب(احتراس لئلا يتوهم أحد أن طرق الرزق معطلة عليه فيستبعد ذلك فيمسك عن مراجعة المطلقة لأنه لا يستقبل مالا ينفق منه، فأعلمه الله أن هذا الرزق لطف من الله والله أعلم كيف يهئ له أسبابا غير مترقبة.

فمعنى من حيث لا يحتسب: من مكان لا يحتسب منه الرزق أي لا يظن أنه يرزق منه.

و)حيث(مستعملة مجازا في الأحوال والوجوه تشبيها للأحوال بالجهات لأنها لما جعلت مقارنة للرزق أشبهت المكان الذي يرد منه الوارد ولذلك كانت)من(هنا للابتداء المجازي تبعا لاستعارة حيث. ففي حرف)من(استعارة تبعية. وذكر الواحدي في أسباب النزول أنها نزلت في شأن عوف بن مالك الأشجعي إذ أسر المشركون ابنه سالما فأتى عوف النبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه ذلك وأن أمه جزعت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتق الله واصبر وأمره وزوجته أن يكثرا قولا لا حول ولا قوة إلا بالله فغفل المشركون عن الابن فساق عنزا كثيرة من عنز المشركين وجاء بها المدينة فنزلت الآية، فيجوز أن يكون نزولها في أثناء نزول هذه السورة فصادفت الغرضين، ويكون ذلك من قبيل معجزات القرآن.

)ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بلغ أمره(تكملة للتي قبلها فإن تقوى الله سبب تفريج الكرب والخلاص من المضائق، وملاحظة المسلم ذلك ويقينه بأن الله يدفع عنه ما يخطر بباله من الخواطر الشيطانية التي تثبطه عن التقوى ويحقق وعد اله إياه بأن يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وحسب: وصف بمعنى كاف. وأصله اسم مصدر أو مصدر.

وجملة)إن الله بالغ أمره(في موضع العلة لجملة)ومن يتوكل على الله فهو حسبه(، أي لا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله حين ترون أسباب ذلك مفقودة فإن الله إذا وعد وعدا فقد أراده وإذا أراد الله أمرا يسر أسبابه.

ولعل قوله)قد جعل الله لكل شيء قدرا(إشارة إلى هذا المعنى، أي علم الله أن يكفي من يتوكل عليه مهمة فقدر لذلك أسبابه كما قدر أسباب الأشياء كلها فلا تشكوا في إنجاز وعده فإنه إذا أراد أمرا يسر أسبابه من حيث لا يحتسب الناس وتصاريف الله تعالى خفية عجيبة.

ومعنى)بالغ أمره(: واصل إلى مراده. والبلوغ مجاز مشهور في الحصول على المراد. والأمر هنا بمعنى الشأن.

وعن عبد الله بن رافع لما نزل قوله تعالى)ومن يتوكل على الله فهو حسبه(قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أي بعضهم :

فنحن إذا توكلنا نرسل ما كان لنا ولا نحفظه فنزلت)إن الله بالغ أمره(، أي فيكم وعليكم اه.
وقرأ الجمهور)بالغ(بالتنوين و)أمره(بالنصب. وقرأه حفص عن عاصم)بالغ أمره(بإضافة)بالغ(إلى)أمره(.
)قد جعل الله لكل شيء قدرا[3](

صفحة : 4459

لهذه الجملة موقع تتجلى فيه صورة من صور إعجاز القرآن في ترتيب مواقع الجمل بعضها بعد بعض كما نبهت عليه في مواقع سلفت. فهذه الجملة لها موقع الاستئناف البياني ناشئ عما اشتملت عليه جمل)ومن يتق الله يجعل له مخرجا(، إلى قوله)إن الله بالغ أمره(لأن استعداد السامعين لليقين بما تضمنته تلك الجمل متفاوت فقد يستبعد بعض السامعين تحقق الوعد لأمثاله بما تضمنته تلك الجمل يعرضها على ارتباك أحواله، أو يتردد يقينه فيقول: أين أنا من تحصيل هذا، حين يتبع نظره فيرى بونا عن حصول الموعود بسبب انعدام وسائله لديه فيتملكه اليأس.
فهذا الاستئناف البياني وقع عقب الوعد تذكيرا بأن الله علم مواعيده وهيأ لها مقادير حصولها لأنه جعل لكل شيء قدرا.
ولها موقع التعليل لجملة)وأحصوا العدة(فإن العدة من الأشياء فلما أمر الله بإحصاء أمرها غلل ذلك بأن تقدير مدة العدة جعله الله، فلا يسوغ التهاون فيه.
ولها موقع التذييل لجملة)وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه(، أي الذي وضع تلك الحدود قد جعل لكل شيء قدرا لا يعدوه كما جعل الحدود.
ولها موقع التعليل لجملة)فإذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف(، لأن المعنى إذا بلغن القدر الذي جعله الله لمدة العدة فقد حصل المقصد الشرعي الذي أشار إليه قوله تعالى)لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا(فالمعنى: فإن لم يحدث الله أمر المراجعة فقد رفق بكم وحط عنكم امتداد العدة.
ولها موقع التعليل لجملة)وأقيموا الشهادة لله(فإن الله جعل الشهادة قدرا لرفع النزاع.
فهذه الجملة جزء آية وهي تحتوي على حقائق من الحكمة.
ومعنى)لكل شيء(لكل موجود، أي لكل حادث فالشيء الموجود سواء كان ذاتا أو معنى من المعاني قال تعالى)وكل شيء فعلوه في الزبر(. فعموم قوله)لكل شيء(صريح في أن ما وعد الله به يجعل له حين تكوينه قدرا.

قال الراغب في مفرداته: وذلك أن فعل الله ضربان: ضرب أوجده بالفعل، ومعنى إيجاده بالفعل أنه أبدعه كاملا دفعة لا تعتريه الزيادة والنقصان إلى أن يشاء أن يغنيه أو يبدله كالسماوات وما فيها. ومنها ما جعل أصوله موجودة بالفعل وأجزاءه بالصلاحية وقدره على وجه لا يتأتى منه غير ما قدره فيه كتقديره في النواة أن ينبت منها النخل دون أن ينبت منها تفاح أو زيتون. وتقديره نطفة الإنسان لأن يكون منها إنسان دون حيوان آخر. فتقدير الله على وجهين: أحدهما بالحكم منه أن تكون كذا أو لا يكون كذا: إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الإمكان. وعلى ذلك قوله)قد جعل الله لكل شيء قدرا(. والثاني بإعطاء القدرة عليه، وعلى ذلك قوله)فقدرنا فنعم القادرون(أو يكون من قبيل قوله)قد جعل الله لكل شيء قدرا(اه.

والقدر: مصدر قدره المتعدي إلى مفعول بتخفيف الدال الذي معناه وضع فيه بمقدار كمية ذاتية أو معنوية تجعل على حسب ما يتحمله المفعول. فقدر كل مفعول لفعل قدر ما تتحمله طاقته واستطاعته من أعمال، أو تتحمله مساحته من أشياء أو يتحمله وعيه لما يكد به ذهنه من مدارك وأفهام. ومن فروع هذا المعنى ما في قوله تعالى)لا يكلف الله نفسا إلا وسعها(في سورة البقرة. وقوله هنا) لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها(.

ومن جزئيات معنى القدر ما يسمى التقدير: مصدر قدر المضاعف إذا جعل شيئا أو أشياء على مقدار معين مناسب لما جعل لأجله كقوله تعالى)وقدر في السرد(في سورة سبأ.

)واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن(عطف على قوله)فطلقوهن لعدتهن(فإن العدة هنالك أريد بها الإقراء فأشعر ذلك أن تلك المعتدة ممن لها أقراء، فبقي بيان اعتداد المرأة التي تجاوزت سن المحيض أو التي لم تبلغ سن من تحيض وهي الصغيرة. وكلتاهما يصدق عليها أنها آيسة من المحيض، أي في ذلك الوقت.

والوقف على قوله)واللاء لم يحضن(، أي هن معطوفات على الآيسين.

صفحة : 4460

واليأس: عدم الأمل. والمأيوس منه في الآية يعلم من السياق من قوله)فطلقوهن لعدتهن(، أي يئسن من المحيض سواء كان اليأس منه بعد تعدده أو كان بعدم ظهوره، أي لم يكن انقطاعه لمرض أو

إرضاع. وهذا السن يختلف تحديده باختلاف الذوات والأقطار كما يختلف سن ابتداء الحيض كذلك. وقد اختلف في تحديد هذا السن بعدد السنين فقيل: ستون سنة، وقيل: خمس وخمسون، وترك الضبط بالسنين أولى وإنما هذا تقريب لإبان اليأس.

والمقصود من الآية بين وهي مخصصة لعموم قوله)والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء(من سورة البقرة. وقد نزلت سورة الطلاق بعد سورة البقرة.

وقد خفي مفاد الشرط من قوله)إن ارتبتم(وما هو متصل به. وجمهور أهل التفسير جعلوا هذا الشرط متصلا بالكلام الذي وقع هو في أثنائه، وإنه ليس متصلا بقوله)لا تخرجوهن من بيوتهن(في أول هذه السورة خلافا لشذوذ تأويل بعيد وتشتيت لشمل الكلام، ثم خفي المراد من هذا الشرط بقوله)إن ارتبتم(.

وللعلماء فيه طريقتان: الطريقة الأولى: مشى أصحابها إلى أن مرجع اليأس غير مرجع الارتياب باختلاف المتعلق، فروى أشهب عن مالك أن الله تعالى لما بين عدة ذوات القروء وذوات الحمل، أي في سورة البقرة، وبقيت اليائسة والتي لم تحض ارتاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في أمرهما فنزلت هذه الآية. ومثله مروي عن مجاهد، وروى الطبري حبرا عن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اعتداد هاتين اللتين لم تذكرا في سورة البقرة، فنزلت هذه الآية. فجعلوا حرف)إن(بمعنى إذ وأن الاتياب وقع في حكم العدة قبل نزول الآية، أي إذ ارتبتم في حكم ذلك فبيناه بهذه الآية قال ابن العربي: حديث أبي غير صحيح. وأنا أقول: رواه البيهقي في سنته والحاكم في المستدرك وصححه. والطبراني بسنده عن عمرو بن سالم أن أبيا قال: وليس في رواية الطبري ما يدل على إسناد الحديث.

وهو في رواية البيهقي بسنده إلى أبي عثمان عمر بن سالم الأنصاري عن أبي بن كعب وهو منقطع، لأن أبا عثمان لم يلق أبي بن كعب وأحسب أنه في مستدرك الحاكم كذلك لأن البيهقي رواه عن الحاكم فلا وجه لقول ابن العربي: هو غير صحيح. فإن رجال سنده ثقات.

وفي أسباب النزول للواحدي عن قتادة أن خلاد بن النعمان وأبيا سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فنزلت هذه الآية. وقيل: إن السائل معاذ بن جبل سأل عن عدة الآيسة.

فالريبة على هذه الطريقة تكون مرادا بها ما حصل من التردد في حكم هؤلاء المطلقات فتكون جملة الشرط معترضة بين المبتدإ وهو الموصول وبين خبره وهو جملة)فعدتهن ثلاثة أشهر(.

والفاء في)فعدتهن(داخلة على جملة الخبر لما في الموصول من معنى الشرط مثل قوله تعالى)واللذان يأتيهانها منكم فآذوهما(ومثله كثير في الكلام.
والارتياب على هذا قد وقع فيما مضى فتكون إن مستعملة في معنى اليقين بلا نكتة.
والطريقة الثانية: مشى أصحابها إلى أن مرجع اليأس ومرجع الاتياب واحد، وهو حالة المطلقة من المحيض، وهو عن عكرمة وقتادة وابن زيد وبه فسر يحيى بن بكير وإسماعيل بن هاد من المالكية ونسبه ابن لبابة من المالكية إلى داود الظاهري.
وهذا التفسير يمحض أن يكون المراد من الارتياب حصول الريب في حال المرأة.
وعلى هذا فجملة الشرط وجوابه خبر عن)اللاء يئسن(، أي إن ارتبن هن وارتبتم أنتم لأجل ارتيابهن، فيكون ضمير جمع الذكور المخاطبين تغليبا ويبقى الشرط على شرطيته. والارتياب مستقبل والفاء رابطة للجواب.
وهذا التفسير يقتضي أن يكون الاعتداد بثلاثة أشهر مشروطا بأن تحصل الريبة في يأسها من المحيض فاصطدم أصحابه بمفهوم الشرط الذي يقتضي أنه إن لم تحصل الريبة في يأسهن أنهن لا يعتددن بذلك أو لا يعتددن أصلا فنسب ابن لبابة من فقهاء المالكية إلى داود الظاهري أنه ذهب إلى سقوط العدة عن المرأة التي يوقن أنها يائسة.

صفحة : 4461

قلت ولا تعرف نسبة هذا إلى داود. فإن ابن حزم: لم يحكه عنه ولا حكاه أحد ممن تعرضوا لاختلاف الفقهاء، قال ابن لبابة: وهو شذوذ، وقال ابن لبابة: وأما ابن بكير وإسماعيل بن جماد، أي من فقهاء المالكية فجعلا المرأة المتيقن يأسها ملحقة بالمرتابة في العدة بطريق القياس يريد أن العدة لها حكمتان براءة الرحم، وانتظار المراجعة، وأما الذين لا يعتبرون مفهوم المخالفة فهم في سعة مما لزم الذين يعتبرونه.
وأصحاب هذا الطريق مختلفون في الوجهة وفي محمل الآية بحسبها: فقال عكرمة وابن زيد وقتادة: ليس على المرأة المرتاب في معودة الحيض إليها عدة أكثر من ثلاثة أشهر تعلقا بظاهر للآية ولعل علة ذلك عندهم أن ثلاثة الأشهر يتبين فيها أمر الحمل فإن لم يظهر حمل بعد انقضائها تمت عدة المرأة ، لأن الحمل بعد

سن اليأس نادر فإذا اعترتها ريبة الحمل انتقل النظر إلى حكم الشك في الحمل وتلك مسألة غير التي نزلت في شأنها الآية.
وقال الأكثرون من أهل العلم: إن المرتاب في]أسها نمكث تسعة أشهر أي أمد الحمل المعتاد فإن لم يظهر بها حمل ابتدأت الاعتداد بثلاثة أشهر فتكمل لها سنة كاملة. وأصل ذلك ما رواه سعيد بن المسيب من قضاء عمر بن الخطاب ولم يخالف أحد من الصحابة، وأخذ به مالك. وعن مالك في المدونة: تسعة أشهر للريبة والثلاثة الأشهر هي العدة. ولعلهم رأوا أن العدة بعد مضي التسعة الأشهر تعبد لأن ذلك هو الذي في القرآن وأما التسعة الأشهر فأوجبها عمر بن الخطاب لعله بالاجتهاد، وهو تقييد للإطلاق الذي في الآية.
وقال النخعي وسفيان الثوري وأبو حنيفة الشافعي: تعتد المرتاب في يأسها بالإقراء أي تنتظر الدم إلى أن يبلغ سن من لا يشبه أن تحيض ولو زادت مدة انتظارها على تسعة أشهر . فإذا بلغت سن اليأس دون ريبة اعتدت بثلاثة أشهر من يومئذ. ونحن نتأول له بأن تقدير الكلام: فعدتهن ثلاثة أشهر، أي بعد زوال الارتياب كما سنذكره، وهو مع ذلك يقتضي أن هذه الثلاثة الأشهر بعد مضي تسعة أشهر أو بعد مضي مدة تبلغ بها سن من لا يشبه أن تحيض تعبد، لأن انتفاء الحمل قد اتضح وانتظار المراجعة قد امتد. إلا أن نعتذر لهم بأن مدو الانتظار لا يتحفز في خلالها المطلق للرأي في أمر المراجعة لأنه في سعة الانتظار فيزاد في المدة لأجل ذلك، وفي تفسير القرطبي: قال عكرمة وقتادة: من الريبة المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض في أول الشهر مرارا، وفي الأشهر مرة أي بدون انضباط اه. ونقل الطبري مثل هذا الكلام عن الزهري وابن زيد، فيجب أن يصار إلى هذا الوجه في تفسير الآية. والمرأة إذا قاربت وقت اليأس لا ينقطع عنها الحيض دفعة واحدة بل تبقى عدة أشهر ينتابها الحيض غبا بدون انتظام ثم ينقطع تماما.
وقوله تعالى)واللاء لم يحضن(عطف على)واللاء يئسن(والتقدير: عدتهن ثلاثة أشهر. ويحسن الوقف على قوله)فعدتهن ثلاثة أشهر(.)وأولت الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن(معطوفة على جملة) وللاء لم يحضن(فهي إتمام العدة المجمل في قوله تعالى)وأحصوا العدة(وتقدير الكلام: وأولات الأحمال منهن، أي من المطلقات أجلهن أن يضعن حملهن.
فحصل بهذه الآية مع التي قبلها تفصيل لأحوال المطلقات وحصل أيضا منها بيان الإجمال الآية التي في سورة البقرة.

)وأولات(اسم جمع لذات بمعنى: صاحبة. وذات: مؤنث ذو، بمعنى: صاحب. ولا مفرد ل)أولات(من الفظه كما لا مفرد للفظ)أولوا(و)أولات(مثل ذوات كما أن أولو مثل ذوو. ويكتب)أولات(بواو بعد الهمزة في الرسم تبعا لكتابة لفظ)أولو(بواو بعد الهمزة لقصد التفرقة في الرسم بين أولى في حالة النصب والجر وبين حرف)إلى(. وليتهم قصروا كتابته بواو بعد الهمزة على لفظ أولي المذكر المنصوب أو المجرور وتركوا التكلف في غيرهما.

صفحة : 4462

وجعلت عدة المطلقة الحامل منهاة بوضع الحمل لأنه لا أدل على براءة الرحم منه، إذ الغرض الأول من العدة تحقق براءة الرحم من ولد للمطلق أو ظهور اشتغال الرحم بجنين له. وضم إلى ذلك غرض آخر وهو ترقب ندم المطلق وتمكينه من تدارك أمره بالمراجعة، فلما حصل الأهم ألغي ما عداه رعيا لحق المرأة في الانطلاق من حرج الانتظار، على أن الحمل قد يحصل بالقرب من الطلاق فألغي قصد الانتظار تعليلا بالغالب دون النادر، خلافا لمن قال في المتوفى عنها: عليها أقصى الأجلين وهو منسوب إلى علي بن أبي طالب وابن العباس.
وبهذا التفسير لا تتعارض هذه الآية مع آية عدة المتوفى عنها التي في سورة البقرة)والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا(لأن تلك في واد وهذه في واد، تلك شأن المتوفى عنهن وهذه في شأن المطلقات.
ولكن لما كان أجل أربعة أشهر وعشر للمتوفى عنها منحصرة حكمته في تحقق براءة رحم امرأة المتوفى من ولد له إذ لا فائدة فيه غير ذلك ولا يتوهم أن الشريعة جعلت ذلك لغرض الحزن على الزوج المتوفى للقطع بأن هذا مقصد جاهلي ، وقد دلت الشريعة في مواضع على إبطاله والنهي عنه في تصاريف كثيرة كما بيناه في تفسير قوله تعالى)والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن(الخ في سورة البقرة.
وقد علمنا أن وضع الحمل غاية لحصول هذا المقصد نجم من جهة المعنى أن المتوفى عنها الحامل إذا وضعت حملها تخرج من عدة وفاة زوجها ولا تقضي أربعة أشهر وعشرا كما أنها لو كان أمد حملها أكثر من أربعة أشهر وعشر لا تقتصر على الأربعة الأشهر وعشر إذ لا حكمة في ذلك.

من أجل ذلك كانت الآية دالة على أن عدة الحامل وضع حملها سواء كانت معتدة من طلاق أم كانت معتدة في وفاة.

ومن أجل ذلك قال جمهور أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم: إن عدة الحامل المتوفى عنها كعدتها من الطلاق وضع حملها غير أن أقوالهم تدل على أن بينهم من كانوا يرون في تعارض العمومين أن العام المتأخر منهما ينسخ العام الآخر وهي طريقة المتقدمين.

روى أهل الصحيح أن عبد الله بن مسعود لما بلغه أن علي بن أبي طالب قال في عدة الحامل المتوفى عنها: إن عليها أقصى الأجلين أي أجل وضع الحمل وأجل الأربعة الأشهر والعشر(قال ابن مسعود: لنزلت سورة النساء القصرى أي سورة الطلاق بعد الطولى أي بعد طولى السور وهي البقرة ، أي ليست بية سورة البقرة بناسخة لما في آية سورة الطلاق. ويعضدهم خبر سبيعة بنت الحارث الأسلمية توفى زوجها سعد بن خولة في حجة الوداع بمكة وتركها حاملا فوضعت بعد وفاته بخمس عشرة ليلة وقيل بأربعين ليلة. فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التزوج فقال لها: قد حللت فانكحي إن شئت . روته أم سلمة أم المؤمنين وقبله معظم الصحابة الذين بلغهم. وتلقاه الفقهاء بعدهم بالقبول ويشهد له بالمعنى والحكمة كما تقدم آنفا.

واختلف المتأخرون من أهل الأصول في وجه العمل في تعارض عمومين كل واحد منهما عام من وجه مثل هاتين الآيتين فالجمهور درجوا على ترجيح أحدهما بمرجح والحنفية جعلوا المتأخر من العمودين ناسخا للمتقدم. فقوله)وأولات الأحمال(لأن الموصول من صيغ العموم فيعم كل حامل معتدة سواء كانت في عدة الطلاق أو في عدة وفاة، وقوله)والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا(تعم كل امرأة تركها الميت سواء كانت حاملا أو غير حامل، لأن)أواجا(نكرة وقعت مفعول الصلة وهي)يذرون(المشتملة على ضمير الموصول الذي هو عام فمفعوله تبع له عمومه فيشمل المتوفى عنهن الحوامل وهن ممن شملهن عموم)أولات الأحمال(فتعارض العمومان كل من وجه، فآية)وأولات الأحمال(اقتضت أن الحوامل كلهن تنتهي عدتهن بالوضع وقد يكون الوضع قبل الأربعة الأشهر والعشر، وآية البقرة يقتضي عمومها أن المتوفى عنهن يتربصن أربعة أشهر وعشرا. وقد يتأخر هذا الأجل عن وضع الحمل.

فذهب الجمهور إلى ترجيح عموم)وأولات الأحمال(على عموم) ويذرون أزواجا(من وجوه.

أحدها أن عموم)وأولات الأحمال(حاصل بذات اللفظ لأن الموصل مع صلته من صيغ العموم، وأما قوله)ويذرون أزواجا(فإن)أزواجا(نكرة في سياق الإثبات فلا عموم لها في لفظها وإنما عرض لها العموم تبعا لعموم الموصول العامل فيها وما كان عمومه بالذات أرجح مما كان عمومه بالعرض.

وثانيها: أن الحكم في عموم)وأولات الأحمال(علق بمدلول صلة الموصول وهي مشتق، وتعليق الحكم بالمشتق يؤذن بتعليل ما اشتق منه بخلاف العموم الذي في سورة البقرة، فما كان عمومه معللا بالوصف أرجح في العمل مما عمومه غير معلل.

وثالثها: قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدة سبيعة الأسلمية.

وذهب الحنيفية إلى أن عموم)وأولات الأحمال(ناسخ لعموم قوله)ويذرون أواجا(في مقدار ما تعارضا فيه.

ومآل الرأيين واحد هو أن عدة الحامل وضع حملها سواء كانت معتدة من طلاق أم من وفاة زوجها.

والصحيح أن آية البقرة لم يرتفع حكمها وشذ القائلون بأن المتوفى عنها إن لم تكن حاملا ووضعت حملها يجب عليها عدة أربعة أشهر وعشر.

وقال قليل من أهل العلم بالجمع الآيتين بما يحقق العمل بهما معا فأوجبوا على الحامل المتوفى عنها زوجها الاعتداد بالأقصى من الأجلين أجل الأربعة الأشهر والعشر. وأجل وضع الحمل، وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس. وقصدهم من ذلك الاحتياط لأنه قد تأتى لهم هنا إذ كان التعارض في مقدار زمنين فأمكن العمل بأوسعهما الذي يتحقق فيه الآخر وزيادة فيصير معنى هذه الآية) أولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن(ما لم تكن في عدة وفاة ويكون معنى آية سورة البقرة وأزواج المتوفين يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ما لم تكن حوامل فيزدن تربصا إلى وضع الحمل. ولا يجوز تخصيص عموم)والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا(بما في آية)وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن(من خصوص بالنظر إلى الحوامل المتوفى عنهن، إذ لا يجوز أن تنتهي عدة الحامل المتوفى عنها التي مضت عليها أربعة أشهر وعشر قبل وضع حملها من عدة زوجها، وهي في حالة حمل لأن ذلك مقرر بطلانه من عدة أدلة في الشريعة لا خلاف فيها وإلى هذا ذهب ابن أبي ليلى.

وفي صحيح البخاري عن محمد بن سيرين قال: كنت في حلقة فيها عظم من الأنصار أي بالكوفة وفيهم عبد الرحمان بن أبي ليلى وكان أصحابه يعظونه فذكر آخر الأجلين، فحدثت حديث عبد الله بن عتبة في شأن سبيعة بنت الحارث فقال عبد الرحمان لكن عمه أي عم عتبة وهو عبد الله بن مسعود كان لا يقول ذلك أي لم يحدثنا به فقلت: إني إذن لجريء إن كذبت على رجل في جانب الكوفة وكان عبد الله بن عتبة ساكنا بظاهر الكوفة فخرجت فلقيت عامرا أو مالك بن عوف فقلت: كيف كان قول ابن مسعود في المتوفى عنها زوجها وهي حامل، فقال: قال ابن مسعود: أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى أي البقرة .

وفي البخاري عن أبي سلمة جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة فقال ابن عباس: آخر الأجلين. فقلت أنا وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي أي مع أبي سلمة فأرسل ابن عباس كريبا إلى أم سلمة يسألها فقالت: قتل كذا والتحقيق أنه مات حجة الوداع زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة فخطبت فأنكحها رسول الله. وقد قال بعضهم: إن ابن عباس رجع عن قوله. ولم يذكر رجوعه في حديث أبي سلمة.

)ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا[4] ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا[5](تكرير للموعظة وهو اعتراض. والقول فيه كالقول في قوله تعالى)ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب(. والمقصود موعظة الرجال والنساء على الأخذ بما في هذه الأحكام مما عسى أن يكون فيه مشقة على أحد بأن على كل أن يصبر لذلك امتثالا لأمر الله فإن الممتثل وهو مسمى المتقي يجعل الله له يسرا فيما لحقه من عسر.

والأمر: الشأن والحال. والمقصود: يجعل له من أمره العسير في نظره يسرا بقرينة جعل اليسر لأمره.

و من للابتداء المجازي المراد به المقارنة والملابسة.
واليسر: انتفاء الصعوبة، أي انتفاء المشاق والمكروهات.

والمقصود من هذا تحقيق الوعد باليسر فيما شأنه العسر لحث الأزواج على امتثال ما أمر الله به الزوج من الإنفاق في مدة العدة ومن المراجعة وترك منزله لأجل سكناها إذا كان لا يسعهما وما أمر المرأة من تربص أمد العدة وعدم الخروج ونحو ذلك.

والإشارة بقوله)ذلك أمر الله(إلى الأحكام المتقدمة من أول السورة. وهذه الجملة معترضة بين المتعاطفتين.

والأمر في قوله)أمر الله(: حكمه وما شرعه لكم كما قال)وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا(.

وإنزاله: إبلاغه إلى الناس بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم أطلق عليه الإنزال تشبيها لشرف معانيه وألفاظه بالشيء الرفيع لأن الشريف يتخيل رفيعا. وهو استعارة كثيرة في القرآن. ففي قوله) أنزله(استعارة مكنية.

والكلام كناية عن الحث على التهمم برعايته والعمل به وبعث الناس على التنافس في العلم به إذ قد اعتنى الله بالناس حيث أنزل إليهم ما فيه صلاحهم.

وأعيد التحريض على العمل بما أمر الله بالوعد بما هو أعظم من الأرزاق وتفريج الكرب وتيسر الصعوبات في الدنيا. وذلك هو تكفير للسيئات وتوفير الأجور.

والجملة معطوفة على الجملة المعترضة فلها حكم الاعتراض.

وجيء بالوعد من الشرط لتحقيق تعليق الجواب على شرطه.

)أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم(هذه الجملة وما ألحق بها من الجمل إلى قوله)وكأين من قرية عنت(الخ.

تشريع مستأنف فيه بيان لما أجمل في الآيات السابقة من قوله) لا تخرجوهن من بيوتهن(وقوله)أو فارقوهن بمعروف(، وقوله) وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن(فتتنزل هذه الجمل من اللاتي قبلها منزلة البيان لبعض، ويدل الاشتمال لبعض وكل ذلك مقتضى للفصل. وابتدئ ببيان ما في)لا تخرجوهن من بيوتهن(من إجمال.

والضمير المنصوب في)أسكنوهن(عائد إلى النساء المطلقات في قوله)إذا طلقتم(. وليس فيما تقدم من الكلام ما يصلح لأن يعود عليه هذا الضمير إلا لفظ النساء وإلا لفظ)أولات الأحمال(، ولكن لم يقل أحد بأن الإسكان خاص بالمعتدات الحوامل فإنه ينافي قوله تعالى)لا تخرجوهن(فتعين عود الضمير إلى النساء المطلقات كلهن، وبذلك يشمل المطلقة الرجعية والبائنة والحامل، لما علمته في أول السورة من إرادة الرجعية والبائنة من لفظ)إذا طلقتم النساء(.

وجمهور أهل العلم قائلون بوجوب السكنى لهن جميعا. قال أشهب: قال مالك يخرج عنها إذا طلقها وتبقى هي في المنزل. وروى ابن نافع قال مالك: فأما التي لم تبن فإنها زوجة يتوارثان والسكنى لهن لازمة لأزواجهن اه. يريد أنها مستغنى عن أخذ حكم سكناها من هذه الآية. ولا يريد أنها ميتثناة من حكم الآية. وقال قتادة وابن أبي ليلى وإسحاق وأبو ثور وأحمد بن حنبل: لا سكنى للمطلقة طلاقا بائنا. ومتمسكهم في ذلك ما روته فاطمة بنت قيس: أن زوجها طلقها ثلاثا وأن أخا زوجها منعها من السكنى والنفقة، وأنها رفعت أمرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: إنما السكنى والنفقة على من له عليها الرجعة . وهو حديث غريب لم يعرفه أحد إلا من رواية فاطمة بنت قيس. ولم يقبله عمر بن الخطاب. فقال: لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري لعلها نسيت أو شبه عليها. وأنكرته عائشة على فاطمة بنت قيس فيما ذكرته من أنه أذن لها في الانتقال إلى مكان غير الذي طلقت فيه كما تقدم.

وروي أن عمر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن للمطلقة البائنة سكنى . ورووا أن قتادة وابن أبي ليلى أخذا بقوله تعالى)لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا(إذ الأمر هو المراجعة، فقصرا الطلاق في قوله)إذا طلقتم النساء(، على الطلاق الرجعي لأن البائن لا تترقب بعده مراجعة وسبقها إلى هذا المأخذ فاطمة بنت قيس المذكورة.

صفحة : 4465

روى مسلم أن مروان بن الحكم أرسل إلى فاطمة بنت قيس يسألها عن الحديث فحدثته فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلا من المرأة سنأخذ بالعصمة التي وجدنا عليها الناس فبلغ قول مروان فاطمة بنت قيس فقالت: بيني وبينكم القرآن، قال الله عز وجل)لا تخرجوهن من بيوتهن(، إلى قوله)لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا(. قالت: هذا لمن كانت له رجعة فأي أمر يحدث بعد الثلاث اه.

ويرد على ذلك أن إحداث الأمر ليس قاصرا على المراجعة فإن من الأمر الذي يحدثه الله أن يرفق قلوبهما فيرغبا معا في إعادة المعاشرة بعقد جديد. وعلى تسليم اقتصار ذلك على إحداث أمر المراجعة فذكر هذه الحكمة لا يقتضي تخصيص عموم اللفظ الذي

قبلها إذ يكفي أن تكون حكمة لبعض أحوال العام. فالصواب أن حق السكنى للمطلقات كلهن، وهو قول جمهور العلماء.
وقوله)من حيث سكنتم(، أي في البيوت التي تسكنونها، أي لا يكلف المطلق بمكان للمطلقة غير بيته ولا يمنعها السكنى ببيته. وهذا تأكيد لقوله)لا تخرجوهن من بيوتهن(.
فإذا كان المسكن لا يسع مبيتين متفرقين خرج المطلق منه وبقيت المطلقة، كما تقدم فيما رواه أشهب عن مالك.
و)من(الواقعة في قوله)من حيث سكنتم(للتبعيض، أي في بعض ما سكنتم ويؤخذ منه أن المسكن صالح للتبعيض بحسب عرف السكنى مع تجنب التقارب في المبيت إن كانت غير رجعية، فيؤخذ منه أنه إن لم يسعهما خرج الزوج المطلق.
و)من(في قوله)من وجدكم(بدل مطابق، وهو بيان لقوله)من حيث سكنتم(فإن مسكن المرء هو وجده الذي وجده غالبا لمن لم يكن مقترا على نفسه.
والوجد: مثلث الواو هو الوسع والطاقة. وقرأه الجمهور بضم الواو. وقرأه روح عن يعقوب بكسرها.
)ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن(أتبع الأمر بإسكان المطلقات بنهي عن الإضرار بهن في شيء مدة العدة من ضيق محل أو تقتير في الإنفاق أو مراجعة يعقبها تطليق لتطويل العدة عليهن قصدا للكناية والتشفي كما تقدم عند قوله تعالى)ولا تتخذوا آيات الله هزؤا(في سورة البقرة. أو للإلجاء إلى افتدائها من مراجعته بخلع.
والضارة: الإضرار القوي فكأن المبالغة راجعة إلى النهي لا إلى المنهي عنه، أي هو نهي شديد كالمبالغة في قوله)وما ربك بظلام للعبيد(في أنها مبالغة في النفي ومثله كثير في القرآن.
والمراد بالتضييق: التضييق المجازي وهو الحرج والأذى.
واللام في)لتضيقوا عليهن(لتعليل الإضرار وهو قيد جرى على غالب ما يعرض للمطلقين من مقاصد أهل الجاهلية، كما تقرر في قوله تعالى)ولا تمسكوهن ضرار لتعتدوا(وإلا فإن الإضرار بالمطلقات منهي عنه وإن لم يكن لقصد التضييق عليهن.
)وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن(ضمير) كن(يعود إلى ما عاد إليه ضمير)أسكنوهن(كما هو شأن ترتيب الضمائر، وكما هو مقتضى عطف الجمل، وليس عائدا على خصوص النساء الساكنات لأن الضمير لا يصلح لأن يكون معادا لضمير آخر.
وظاهر نظم الآية يقتضي أن الحوامل مستحقات الإنفاق دون بعض المطلقات أخذا بمفهوم الشرط، وقد أخذ بذلك الشافعي والأوزاعي وابن أبي ليلى.

ولكن المفهوم معطل في المطلقات الرجعيات لأن إنفاقهن ثابت بأنهن زوجات. ولذلك قال مالك: إن ضمير (أسكنوهن(للمطلقات البوائن كما تقدم. ومن لم يأخذ بالمفهوم قالوا الآية تعرضت للحوامل تأكيدا للنفقة عليهن لأن مدة الحمل طويلة فربما سئم المطلق الإنفاق، فالمقصود من هذه الجملة هو الغاية التي بقوله) حتى يضعن حملهن(وجعلوا للمطلقة غير ذات الحمل الإنفاق. وبه أخذ أبو حنيفة والثوري. ونسب إلى عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

وهذا الذي يرجح هو هذا القول وليس للشرط مفهوم وإنما الشرط مسوق لاستيعاب الإنفاق جميع أمد الحمل.

) فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى[6](

صفحة : 4466

لما كان الحمل ينتهي بالوضع انتقل إلى بيان ما يجب لهن بعد الوضع فإنهن بالوضع يصرن بائنات فتنقطع أحكام الزوجية فكان السامع بحيث لا يدري هل يكون إرضاعها ولدها حقا عليها كما كان في زمن العصمة أو حقا على أبيه فيعطيها أجر إرضاعها كما كان يعطيها النفقة لأجل ذلك الولد حين كان حملا. وهذه الآية مخصصة لقوله في سورة البقرة) والوالدات يرضعن أولادهن(الآية.

وأفهم قوله)لكم(أن إرضاع الولد بعد الفراق حق على الأب وحده لأنه كالإنفاق والأم ترضع ولدها في العصمة تبعا لإنفاق أبيه عليها عند مالك خلافا لأبي حنيفة والشافعي، إذ قالا: لا يجب الإرضاع على الأم حتى في العصمة فلما انقطع إنفاق الأب عليها بالبينونة تمحضت إقامة غذاء ابنه عليه فإن أرادت أن ترضعه فهي أحق بذلك، ولها أجر الإرضاع وإن أبت فعليه أن يطلب ظئرا لابنه فإن كان الطفل غير قابل ثدي غير أمه وجب عليها إرضاعه ووجب على أبيه دفع أجرة رضاعه.

وقال أبو ثور: يجب إرضاع الابن على أمه ولو بعد البينونة. نقله عنه أبو بكر ابن العربي في الأحكام وهو عجيب. وهذه الآية أمامه.

والائتمار: التشاور والتداول في النظر. وأصله مطاوع أمره لأن المتشاورين يأمر أحدهما الآخر فيأتمر الآخر بما أمره. ومنه تسمية مجامع أصحاب الدعوة أو النحلة أو القصد الموحد مؤتمرا لأنه يقع الاستئمار فيه، أي التشاور وتداول الآراء.

وقوله)وأتمروا بينكم(خطاب للرجال والنساء الواقع بينهم الطلاق ليتشاوروا في أمر إرضاع الأم ولدها. وما يبذله الأب لها من الأجرة على ذلك.

وقيد الائتمار بالمعروف، أي ائتمرا ملابسا لما هو المعروف في مثل حالهم وقومهم، أي معتاد مقبول، فلا يشتط الأب في الشح ولا تشتط الأم في الحرص.

وقوله)وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى(عتاب وموعظة للأب والأم بأن ينزل كل منهما نفسه منزلة ما لو اجتلبت للطفل ظئر، فلا تسأل الأم أكثر من أجر أمثالها، ولا يشح الأب عما يبلغ أجر أمثال أم الطفل، ولا يسقط حق الأم إذا وجد الأب من يرضع له مجانا لأن الله قال)فسترضع له أخرى(وإنما يقال أرضعت له، إذا استؤجرت لذلك، كما يقال: استرضع أيضا، إذا آجر من يرضع له ولده. وتقدم في سورة البقرة قوله تعالى)وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم(الآية.

والتعاسر صدور العسر من الجانبين. وهو تفاعل من قولكم: عسرت فلانا، إذا أخذته على عسره، ويقال: تعاسر البيعان إذا لم يتفقا.

فمعنى)تعاسرتم(اشتد الخلاف بينكم ولم ترجعوا إلى وفاق، أي فلا يبقى الولد بدون رضاعة.

وسين الاستقبال مستعمل في معنى التأكيد، كقوله)قال سوف أستغفر لكم ربي(في سورة يوسف. وهذا المعنى ناشئ عن جعل علامة الاستقبال كناية عن تجدد ذلك الفعل في أزمنة المستقبل تحقيقا لتحصيله.

وهذا الخبر مستعمل كناية أيضا عن أمر الأب باستئجار ظئر للطفل بقرينة تعليق)له(. بقوله)فسترضع(.

فاجتمع فيه ثلاث كنايات: كناية عن موعظة الأب، وكناية عن موعظة الأم، وكناية عن أمر الأب بالاسترضاع لولده.

)لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتياه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتياها سيجعل الله بعد عسر يسرا[7] (تذييل لما سبق من أحكام الإنفاق على المعتدات والمرضعات بما يعم ذلك. ويعم كل إنفاق يطالب به المسلم من مفروض ومندوب، أي الإنفاق على قدر السعة.

والسعة: هي الجدة من المال أو الرزق.

والإنفاق: كفاية مؤونة الحياة من طعام ولباس وغير ذلك مما يحتاج إليه.

و)من(هنا ابتدائية لأن الإنفاق يصدر عن السعة في الاعتبار، وليست)من(هذه ك)من(التي في قوله تعالى)ومما رزقناهم

ينفقون(لأن النفقة هنا ليست بعضا من السعة، وهي هناك بعض الرزق فلذلك تكون)من(من قوله)فلينفق مما آتاه الله(تبعيضية.

صفحة : 4467

ومعنى)قدر عليه رزقه(جعل رزقه مقدورا، أي محدودا بقدر معين وذلك كناية عن التضييق. وضده)يرزقون فيها بغير حساب(، يقال: قدر عليه رزقه، إذا قتره، قال تعالى)الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر(وتقدم في سورة الرعد أي من كان في ضيق من المال فلينفق بما يسمح به رزقه بالنظر إلى الوفاء بالإنفاق ومراتبه في التقديم. وهذا مجمل هنا تفصيله في أدلة أخرى من الكتاب والسنة والاستنباط، قال النبي صلى الله عليه وسلم لهند بنت عتبة زوج أبي سفيان: خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف .
والمعروف: هو ما تعارفه الناس في معتاد تصرفاتهم ما لم تبطله الشريعة.
والرزق: اسم لما ينتفع به الإنسان في حاجاته من طعام ولباس ومتاع ومنزل. سواء كان أعيانا أو أثمانا. ويطلق الرزق كثيرا على الطعام كما في قوله تعالى)وجد عندها رزقا(.
ولم يختلف العلماء في أن النفقات لا تتحدد بمقادير معينة لاختلاف أحوال الناس والأزمان والبلاد. وإنما اختلفوا في التوسع في الإنفاق في مال المؤسر هل يقضي عليه بالتوسعة على من ينفق هو عليه ولا أحسب الخلاف في ذلك إلا اختلافا في أحوال الناس وعوائدهم ولا بد من اعتبار حال المنفق عليه ومعتاده، كالزوجة العالية القدر. وكل ذلك داخل تحت قول النبي صلى الله عليه وسلم لهند: ما يكفيك وولدك بالمعروف .
وجملة)لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها(تعليل لقوله)ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله(. لأن مضمون هذه الجملة قد تقرر بين المسلمين من قبل في قوله تعالى)لا يكلف الله نفسا إلا وسعها(في سورة البقرة، وهي قبل سورة الطلاق.
والمقصود منه إقناع المنفق عليه بأن لا يطلب من المنفق أكثر من مقدرته. ولهذا قال علماؤنا: لا يطلق على المعسر إذا كان يقدر على إشباع المنفق عليها وإكسائها بالمعروف ولو بشطف، أي دون ضر.
و)مما آتاه الله(يشمل المقدرة على الاكتساب فإذا كان من يجب عليه الإنفاق قادرا على الاكتساب لينفق من يجب عليه إنفاقه أو ليكمل له ما ضاق عنه ماله، يجبر على الاكتساب. وأما من لا قدرة

له على الاكتساب وليس له ما ينفق منه فنفقته أو نفقة من يجب عليه إنفاقه على مراتبها تكون على بيت مال المسلمين. وقد قال عمر بن الخطاب: وأن رب الصريمة ورب الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتيني ببينة يقول يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين، افتاركهم أينا ، رواه مالك في الموطأ.

وفي عجز الزوج عن إنفاق زوجه إذا طلبت الفراق لعدم النفقة خلاف. فمن الفقهاء من رأى ذلك موجبا للتفرقة بينهما بعد أجل رجاء يسر الزوج وقدر بشهرين، وهو قول مالك. ومنهم من لم ير التفريق بين الزوجين بذلك وهو قول أبي حنيفة، أي وتنفق من بيت مال المسلمين.

والذي يقتضيه النظر أنه إن كان بيت المال قائما فإن من واجبه نفقة الزوجين المعسرين وإن لم يتوصل إلى الإنفاق من بيت المال كان حقا أن يفرق القاضي بينهما ولا يترك المرأة وزوجها في احتياج. ومحل بسط ذلك في مسائل الفقه.

وجملة)سيجعل الله بعد عسر يسرا(تكملة للتذييل فإن قوله) لا يكلف اله نفسا إلا ما آتاها(يناسب مضمون جملة)لينفق ذو سعة من سعته(.

وقوله)سيجعل الله(الخ تناسب مضمون)ومن قدر عليه رزقه(الخ. وهذا الكلام خبر مستعمل في بعث الترجي وطرح اليأس عن المعسر من ذوي العيال. ومعناه: عسى أن يجعل الله بعد عسركم يسرا لكم فإن الله يجعل بعد عسر يسرا. وهذا الخبر لا يقتضي إلا أن من تصرفات الله أن يجعل بعد عسر قوم يسرا لهم، فمن كان في عسر رجا أن يكون ممن يشمله فضل الله، فيبدل عسره باليسر.

وليس في هذا الخبر وعد لكل معسر بأن يصير عسره يسرا. وقد يكون في المشاهدة ما يخالف ذلك فلا فائدة في التكلف بأن هذا وعد من الله للمسلمين الموحدين يومئذ بأن الله سيبدل عسرهم باليسر، أو وعد للمنفقين الذين يمتثلون لأمر الله ولا يشحون بشيء مما يسعه مالهم. وانظر قوله تعالى)فإن مع العسر يسرا(.

ومن بلاغة القرآن الإتيان ب)عسر ويسرا(نكرتين غير معرفين باللام لئلا يتوهم من التعريف معنى الاستغراق كما في قوله)فإن مع العسر يسرا(.

)وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا[8] فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا[9] أعد الله لهم عذابا شديدا(لما شرعت للمسلمين أحكام كثيرة من الطلاق ولواحقه، وكانت كلها تكاليف قد تحجم بعض الأنفس عن إيفاء حق الامتثال لها تكاسلا أو تقصيرا رغب في الامتثال لها بقوله)ومن يتق الله يجعل له مخرجا(وقوله)من يتق الله يجعل له من أمره يسرا(، وقوله)ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا(، وقوله)سيجعل الله بعد عسر يسرا(.

وحذر الله الناس في خلال ذلك من مخالفتها بقوله)وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه(، وقوله)ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر(أعقبها بتحذير عظيم من الوقوع في مخالفة أحكام الله ورسله لقلة العناية بمراقبتهم، لأن الصغير يثير الجليل، فذكر المسلمين وليسوا ممن يعتوا على أمر ربهم بما حل بأقوام من عقاب عظيم على قلة اكتراثهم بأمر الله ورسله لئلا يسلكوا سبيل التهاون بإقامة الشريعة، فيلقي بهم ذلك في مهواة الضلال.

وهذا الكلام مقدمة لما يأتي من قوله)فاتقوا الله يا أولي الألباب(الآيات فالجملة معطوفة على مجموع الجمل السابقة عطف غرض على غرض.

و)كأين(اسم لعدد كثير مبهم يفسره ما يميزه بعده من اسم مجرور بمن و)كأين(بمعنى كم الخبرية. وقد تقدم عند قوله تعالى)وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير(في آل عمران.

والمقصود من إفادة التكثير هنا تحقيق أن العذاب الذي نال أهل تلك القرى شيء ملازم لجزائهم على عتوهم عن أمر ربهم ورسله فلا يتوهم متوهم أن ذلك مصادفة في بعض القرى وأنها غير مطردة في جميعهم.

و)كأين(في موضع رفع على الابتداء، وهو مبني.

وجملة)عنت عن أمر ربها(في موضع الخبر ل)كأين(.

والمعنى: الإخبار بكثرة 1لك باعتبار ما فرع عليه من قوله) فحاسبناها(فالمفرع هو المقصود من الخبر.

والمراد بالقرية: أهلها على حد قوله)واسأل القرية التي كنا فيها(بقرينة قوله عقب ذلك)أعد الله لهم عذابا شديدا(إذ جيء بضمير جمع العقلاء.

وإنما أوثر لفظ القرية هنا دون الأمة ونحوها لأن في اجتلاب هذا اللفظ تعريضا بالمشركين من أهل مكة ومشايعة لهم بالنذارة ولذلك كثر في القرآن ذكر أهل القرى في التذكير بعذاب الله في نحو)وكم من قرية أهلكناها(.

وفيه تذكير للمسلمين بوعد الله بنصرهم ومحق عدوهم.
والعتو ويقال العتي: تجاوز الحد في الاستكبار والعناد. وضمن معنى الإعراض فعدي بحرف)عن(.
والمحاسبة مستعملة في الجزاء على الفعل بما يناسب شدته من شديد العقاب، تشبيها لتقدير الجزاء بإجراء الحساب بين المتعاملين، وهو الحساب في الدنيا، ولذلك جاء)حاسبناها(و)عذبناها(بصيغة الماضي.
والمعنى: فجازيناها على عتوها جزاء يكافئ طغيانها.
والعذاب النكر: هو عذاب الاستئصال بالغرق، والخسف، والرجم، ونحو ذلك.
وعطف العذاب على الحساب مؤذن بأنه غيره، فالحساب فيما لقوه قبل الاستئصال من المخوفات وأشراط الإنذار مثل القحط والوباء والعذاب هو ما توعدوا به.
ولك أن تجعل الحساب على حقيقته ويراد به حساب الآخرة. وشدته قوة المناقشة فيه والانتهار على كل سيئة يحاسبون عليها.
والعذاب: عذاب جهنم، ويكون الفعل الماضي مستعملا في معنى المستقبل تشبيها للمستقبل بالماضي في تحقق وقوعه مثل قوله) أتى أمر الله(، وقوله)ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار(.
والنكر بضمتين، وبضم فسكون: ما ينكره الرأي من فظاعة كيفيته إنكارا شديدا.
وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب)نكرا(بضمتين. وقرأه الباقون بسكون الكاف. وتقدم في سورة الكهف.
والفاء في قوله)فذاقت وبال أمرها(لتفريع)فحاسبناها( )وعذبناها(.
والذوق: هنا الإحساس مطلقا، وهو مجاز مرسل.
والوبيل: صفة مشبهة. يقال: وبل بالضم : المرعى، إذا كان كلأه وخيما ضارا لما يرعاه.
والأمر: الحال والشأن، وإضافة الوبال إلى الأمر من إضافة المسبب إلى السبب، أي ذاقوا الوبال الذي تسبب لهم فيه أمرهم وشأنهم الذي كانوا عليه.

صفحة : 4469

وعاقبة الأمر: آخره وأثره. وهو يشمل العاقبة في الدنيا والآخرة كما دل عليه قوله)أعد الله لهم عذابا شديدا(.

وشبهت عاقبتهم السوأى بخسارة التاجر في بيعه في أنهم لما عتوا حسبوا أنهم أرضوا أنفسهم بإعراضهم عن الرسل وانتصروا عليهم فما لبثوا أن صاروا بمذلة وكما يخسر التاجر في تجره.
وجيء بفعل)كان(بصيغة المضي لأن الحديث عن عاقبتها في الدنيا تغليبا. وفي كل ذلك تفظيع لما لحقهم مبالغة في التحذير مما وقعوا فيه.
وجملة)أعد الله لهم عذابا شديدا(بدل اشتمال من جملة)وكان عاقبة أمرها خسرا(أو بدل بعض من كل.
والمراد عذاب الآخرة لأن الإعداد التهيئة وإنما يهيأ الشيء الذي لم يحصل.
وإن جعلت الحساب والعذاب المذكورين آنفا حساب الآخرة وعذابها كما تقدم آنفا فجملة)أعد الله لهم عذابا شديدا(استئنافا لبيان أن ذلك متزايد غير مخفف منه كقوله)فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا(.
)فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا(هذا التفريع المقصود على التكاليف السابقة وخاصة على قوله)وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه(وهو نتيجة ما مهد له به من قوله) وكأين من قرية عنت عن أمر ربها ورسله(.
وفي نداء المؤمنين بوصف)أولي الألباب(إيماء إلى أن العقول الراجحة تدعو إلى تقوى الله لأنها كمال نفساني، ولأن فوائدها حقيقية دائمة، ولأن بها اجتناب المضار في الدنيا والآخرة، قال تعالى)ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون(، وقوله)أولي(معناه ذوي، وتقدم بيانه عند قوله)واللآء يئسن من المحيض(آنفا، و)الذين آمنوا(بدل من)أولي الألباب(. وهذا الاتباع يومئ إلى أن قبولهم الإيمان عنوان على رجاحة عقولهم.
والإتيان بصلة الموصول إشعار بأن الإيمان سبب للتقوى وجامع لمعظمها ولكن للتقوى درجات هي التي أمروا بأن يحيطوا بها.
)قد أنزل الله إليكم ذكرا[10] رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور(في هذه الجملة معنى العلة للأمر بالتقوى لأن إنزال الكتاب نفع عظيم لهم مستحق شكرهم عليه.
وتأكيد الخبر ب)قد(للاهتمام به وبعث النفوس على تصفح هذا الكتاب ومتابعة إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم.
والذكر: القرآن. وقد سمي بالذكر في آيات كثيرة لأنه يتضمن تذكير الناس بما هم في غفلة عنه من دلائل التوحيد وما يتفرع عنها من حسن السلوك، ثم تذكيرهم بما تضمنه من التكاليف وبيناه عند قوله تعالى)وقالوا يأيها الذي نزل عليه الذكر(في سورة الحجر. وأنزل

القرآن تبليغه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بواسطة الملك واستعير له الإنزال لأن الذكر مشبه بالشيء المرفوع في السماوات، كما تقدم في سورة الحجر وفي آيات كثيرة.
وجعل إنزال الذكر إلى المؤمنين لأنهم الذين انتفعوا به وعلموا بما فيه فخصصوا هنا من بين جميع الأمم لأن القرآن أنزل إلى الناس كلهم.
وقوله)رسولا(بدل من)ذكرا(بدل اشتمال لأن بين القرآن والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ملازمة وملابسة فإن الرسالة تحققت له عند نزول القرآن عليه، فقد أعمل فعل)أنزل(في)رسولا(تبعا لإعماله في المبدل منه باعتبار هذه المقارنة واشتمال مفهوم أحد الاسمين على مفهوم الآخر. وهذا كما أبدل)رسول من الله(من قوله)حتى تأتيهم البينة(في سورة البينة.
والرسول: هو محمد صلى الله عليه وسلم.
وأما تفسير الذكر بجبريل، وهو مروي عن الكلبي لتصحيح إبدال)رسولا(منه ففيه تكلفات لا داعي إليها فإنه لا محيص عن اعتبار بدل الاشتمال، ولا يستقيم وصف جبريل بأنه يتلو على الناس الآيات فإن معنى التلاوة بعيد من ذلك، وكذلك تفسير الذكر بجبريل.
ويجوز أن يكون)رسولا(مفعولا لفعل محذوف يدل عليه أنزل الله وتقديره: وأرسل إليكم رسولا، ويكون حذفه إيجازا إلا أن الوجه السابق أبلغ وأوجز.
وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم)مبينات(بفتح الياء. وقرأه الباقون بكسرها ومآل القراءتين واحد.

صفحة : 4470

وجعلت علة إنزال الذكر إخراج المؤمنين الصالحين من الظلمات إلى النور وإن كانت علة إنزاله إخراج جميع الناس من ظلمات الكفر وفساد الأعمال إلى نور الإيمان والأعمال الصالحات، نظرا لخصوص الفريق الذي انتفع بهذا الذكر اهتماما بشأنهم. وليس ذلك بدال على أن العلة مقصورة على هذا الفريق ولكنه مجرد تخصيص بالذكر. وقد تقدم نظير هذه الجملة في مواضع كثيرة منها أول سورة الأعراف.
)ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ندخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا[11](عطف على الأمر بالتقوى والتنويه بالمتقين والعناية بهم هذا الوعد على امتثالهم

بالنعيم الخالد بصيغة الشرط للدلالة على أن ذلك نعيم مقيد حصوله لراغبيه بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات.
و)صالحا(نعت لموصوف محذوف دل عليه)يعمل(أي عملا صالحا، وهو نكرة في سياق الشرط تفيد العموم كإفادته في سياق النفي. فالمعنى: ويعمل جميع الصالحات، أي المأمور بها أمرا جازما بقرينة استقراء أدلة الشريعة.
وتقدم نظير هذه الآية في مواضع كثيرة من القرآن.
وجملة)قد أحسن الله له رزقا(حال من الضمير المنصوب في) ندخله(ولذلك فذكر اسم الجلالة إظهار في مقام الإضمار لتكون الجملة مستقلة بنفسها.
والرزق: كل ما ينتفع به وتنكيره هنا للتعظيم، أي رزقا عظيما.
وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر)ندخله(بنون العظمة. وقرأه الباقون بالتحتية على أنه عائد إلى اسم الجلالة من قوله)ومن يؤمن بالله(وعلى قراءة نافع وابن عامر يكون فيه سكون الالتفات.
) الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما[12](اسم الجلالة خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو الله. وهذا من حذف المسند إليه لمتابعة الاستعمال كما سماه السكاكي، فإنه بعد أن جرى ذكر شؤون من عظيم شؤون الله تعالى ابتداء من قوله)واتقوا الله ربكم(إلى هنا، فقد تكرر اسم الجلالة وضميره والإسناد إليه زهاء ثلاثين مرة فاقتضى المقام عقب ذلك أن يزاد تعريف الناس بهذا العظيم، ولما صار البساط مليئا بذكر اسمه صح حذفه عند الإخبار عنه إيجازا وقد تقدم عند قوله تعالى)رب السماوات والأرض وما بينهما(في سورة مريم، وكذلك عند قوله) صم بكم عمي(، وقوله)مقام إبراهيم(في سورة البقرة.
فالجملة على هذا الوجه مستأنفة استئنافا ابتدائيا.
والموصول صفة لاسم الجلالة وقد ذكرت هذه الصلة لما فيها من الدلالة على عظيم قدرته تعالى، وعلى أن الناس وهم من جملة ما في الأرض عبيده، فعليهم أن يتقوه، ولا يتعدوا حدوده، ويحاسبوا أنفسهم على مدى طاعتهم إياه فإنه لا تخفى عليه خافية، وأنه قدير على إيصال الخير إليهم إن أطاعوه وعقابهم إن عصوه.
وفيه تنويه بالقرآن لأنه من جملة الأمر الذي يتنزل بين السماء والأرض.
والسبع السماوات تقدم القول فيها غير مرة، وهي سبع منفصل بعضها عن الآخر لقوله تعالى في سورة نوح)ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا(.

وقوله)ومن الأرض مثلهن(عطف على)سبع سماوات(وهو يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون المعطوف قوله)من الأرض(على أن يكون المعطوف لفظ الأرض ويكون حرف)من(مزيدا للتوكيد بناء على قول الكوفيين والأخفش أنه لا يشترط لزيادة)من(أن تقع في سياق النفي والنهي والاستفهام والشرط وهو الأحق بالقبول وإن لم يكن كثيرا في الكلام، وعدم الكثرة لا ينافي الفصاحة، والتقدير: وخلق الأرض، ويكون قوله)مثلهن(حالا من)الأرض(.

ومماثلة الأرض للسماوات في دلالة خلقها على عظيم قدرة الله تعالى، أي أن خلق الأرض ليس أضعف دلالة على القدرة من خلق السماوات لأن لكل منهما خصائص دالة على عظيم القدرة.

وهذا أظهر ما يؤول به الآية.

وفي إفراد لفظ)الأرض(دون أن يؤتى به جمعا كما أتي بلفظ السماوات إيذان بالاختلاف بين حاليهما.

الوجه الثاني: أن يكون المعطوف)مثلهن(ويكون قوله)ومن الأرض(بيانا للمثل فما صدق)مثلهن(هو)الأرض(. وتكون)من(بيانية وفيه تقديم البيان على المبين، وهو وارد غير نادر.

صفحة : 4471

فيجوز أن تكون مماثلة في الكروية، أي مثل واحدة من السماوات، أي مثل كوكب من الكواكب السبعة في كونها تسير حول الشمس مثل الكواكب فيكون ما في الآية من الإعجاز العلمي الذي قدمنا ذكره في المقدمة العاشرة.

وجمهور المفسرين جعلوا المماثلة في عدد السبع وقالوا: إن الأرض سبع طبقات فمنهم من قال هي سبع طبقات منبسطة تفرق بينها البحار. وهذا مروي عن ابن عباس من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، ومنهم من قال هي سبع طباق بعضها فوق بعض وهو قول الجمهور. وهذا يقرب من قول علماء طبقات الأرض الجيولوجيا ، من إثبات طبقات أرضية لكنها لا تصل إلى سبع طبقات.

وفي الكشاف قيل ما في القرآن آية تدل على أن الأرضين سبع إلا هذه اه. وقد علمت أنها لا دلالة فيها على ذلك.

وقال المازري في كتابة المعلم على صحيح مسلم عند قول النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الشفعة:)من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه من سبع أرضين يوم القيامة(.

كان شيخنا أبو محمد عبد الحميد كتب إلي بعد فراقي له هل وقع في الشرع عما يدل على كون الأرض سبعا، فكتبت إليه قول الله

تعالى)الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن(وذكرت له هذا الحديث فأعاد كتابه إلي يذكر فيه أن الآية محتملة هل مثلهن في الشكل والهيئة أو مثلهن في العدد. وأن الخبر من أخبار الآحاد، والقرآن إذا احتمل والخبر إذا لم يتواتر لم يصح القطع بذلك، والمسألة ليست من العمليات فيتمسك فيها بالظاهر وأخبار الآحاد، فأعدت إليه المجاوبة أحتج لبعد الاحتمال عن القرآن وبسطت القول في ذلك وترددت في آخر كتابي في احتمال ما قال. فقطع المجاوبة اه.

وأنت قد تبينت أن إفراد الأرض مشعر بأنها أرض واحدة وأن المماثلة في قوله)مثلهن(راجعة إلى المماثلة في الخلق العظيم، وأما الحديث فإنه في شأن من شؤون الآخرة وهي مخالفة للمتعارف، فيجوز أن يطوق الغاصب بالمقدار الذي غصبه مضاعفا سبع مرات في الغلظ والثقل، على أن عدد السبع يجوز أن يراد به المبالغة في المضاعفة. ولو كان المراد طبقات معلومة لقال: طوقه من السبع الأرضين بصيغة التعريف. كلام عبد الحميد أدخل في التحقيق من كلام المازري.

وعلى مجاراة تفسير الجمهور لقوله)ومن الأرض مثلهن(من المماثلة في عدد السبع، فيجوز أن يقال: إن السبع سبع قطع واسعة من سطح الأرض يفصل بينها البحار نسميها القارات ولكن لا نعني بهذه التسمية المعنى الاصطلاحي في كتب الجغرافيا القديمة أو الحديثة بل هي قارات طبيعية كان يتعذر وصول سكان بعضها إلى بعضها الآخر في الأزمان التي لم يكن فيها تنقل بحري وفيما بعدها مما كان ركوب البحر فيها مهولا. وهي أن آسيا مع أوروبا قارة، وإفريقيا قارة، وأستراليا قارة، وأميريكا الشمالية قارة، وأميريكا الجنوبية قارة، وجرولندة في الشمال، والقارة القطبية الجنوبية. ولا التفات إلى الأجزاء المتفرقة من الأرض في البحار، وتكون)من(تبعيضية لأن هذه القارات الاصطلاحية أجزاء من الأرض.

وقرأ الجميع)مثلهن(بالنصب. وقرأه عاصم في غير المتواتر بالرفع على أنه مبتدأ.

ومعنى)يتنزل الأمر بينهن(أمر الله بالتكوين أو بالتكليف يبلغ إلى الذين يأمرهم الله به من الملائكة ليبلغوه. أو لمن يأمرهم الله من الرسل ليبلغوه عنه، أو من الناس ليعلموا بما فيه، كل ذلك يقع فيما بين السماء والأرض.

واللام في قوله)لتعلموا(لام كي وهي متعلقة ب)خلق(.

والمعنى: أن مما أراده الله من خلقه السماوات والأرض، أن يعلم الناس قدرة الله على كل شيء وإحاطة علمه بكل شيء. لأن خلق تلك المخلوقات العظيمة وتسخيرها وتدبير نظامها في طول الدهر

يدل أفكار المتأملين على أن مبدعها يقدر على أمثالها فيستدلوا بذلك على أنه قدير على كل شيء لأن دلالتها على إبداع ما هو دونها ظاهرة، ودلالتها على ما هو أعظم منها وإن كانت غير مشاهدة، فقياس الغائب على الشاهد يدل على أن خالق أمثالها قادر على ما هو أعظم. وأيضا فإن تدبير تلك المخلوقات بمثل ذلك الإتقان المشاهد في نظامها، دليل على سعة علم مبدعها وأحاطته بدقائق ما هو دونها، وأن من كان علمه بتلك المثابة لا يظن بعلمه إلا الإحاطة بجميع الأشياء.

صفحة : 4472

فالعلم المراد من قوله)لتعلموا(صادق على علمين: علم يقيني مستند إلى أدلة يقينية مركبة من الدلالة الحسية والعقلية، وعلم ظني مستند إلى الأدلة الظنية والقرائن. وكلا العلمين موصل إلى الاستدلال في الاستدلال الخطابي بفتح الخاء .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التحريم

سورة)يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك(الخ سميت)سورة التحريم(في كتب السنة وكتب التفسير. ووقع في رواية أبي ذر الهروي لصحيح البخاري تسميتها باسم)سورة اللم تحرم(بتشديد اللام، وفي الإتقان وتسمى)سورة اللم تحرم(، وفي تفسير الكواشي أي بهمزة وصل وتشديد اللام مكسورة وبفتح الميم وضم التاء محققه وتشديد الراء مكسورة بعدها ميم على حكاية جملة)لم تحرم(وجعلها بمنزلة الاسم وإدخال لام تعريف العهد على ذلك اللفظ وإدغام اللامين.

وتسمى)سورة النبي(صلى الله عليه وسلم وقال الآلوسي: إن ابن الزبير سماها)سورة النساء(. قلت ولم أقف عليه ولم يذكر صاحب الإتقان هذين في أسمائها.

واتفق أهل العدد على أن عدة آيها اثنتا عشرة.

وهي مدنية. قال ابن عطية: بإجماع أهل العلم وتبعه القرطبي. وقال في الإتقان عن قتادة: إن أولها إلى تمام عشر آيات وما بعدها مكي، كما وقعت حكاية كلامه. ولعله أراد إلى عشر آيات، أي أن الآية العاشرة من المكي إذ من البعيد أن تكون الآية العاشرة مدنية والحادية عشر مكية.

وهي معدودة الخامسة بعد المائة في عداد نزول سور القرآن نزلت بعد سورة الحجرات وقبل سورة الجمعة.

ويدل قوله)قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم(أنها نزلت بعد سورة المائدة كما سيأتي.
وسبب نزولها حادثتان حدثتا بين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.
إحداهما: ما ثبت في الصحيح عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان شرب عسلا عند إحدى نسائه اختلف في أنها زينب بنت جحش، أو حفصة، أو أم سلمة، أو سودة بنت زمعة. والأصح أنها زينب. فعلمت بذلك عائشة فتواطأت هي وحفصه على أن أيتهما دخل عليها تقول له إني أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير والمغافير صمغ شجر العرفط وله رائحة مختمرة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه رائحة وإنما تواطأتا على ذلك غيرة منهما أن يحتبس عند زينب زمانا يشرب فيه عسلا. فدخل على حفصة فقالت له ذلك، فقال: بل شربت عسلا عند فلانة ولن أعود له، أراد بذلك استرضاء حفصة في هذا الشأن وأوصاها أن لا تخبر بذلك عائشة لأنه يكره غضبها فأخبرت حفصة عائشة فنزلت الآيات.
هذا أصح ما روي في سبب نزول هذه الآيات. والتحريم هو قوله:) ولن أعود له(لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا صدقا وكانت سودة تقول لقد حرمناه .
والثانية ما رواه ابن القاسم في المدونة عن مالك عن زيد بن أسلم قال: حرم رسول الله أم إبراهيم جاريته فقال والله أطؤك ثم قال: هي علي حرام فأنزل الله تعالى)يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك(.
وتفصيل هذا الخبر ما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن عمر قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم ولده مارية في بيت حفصة فوجدته حفصة معها، وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها. فقالت حفصة: تدخلها بيتي ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك. فقال لها: لا تذكري هذا لعائشة فهي علي حرام إن قربتها. قيل: فقالت له حفصة: كيف تحرم عليك وهي جاريتك فحلف لها أن لا يقربها فذكرته حفصة لعائشة فآلى أن لا يدخل على نسائه شهرا فأنزل الله تعالى)يا أيها النبي لما تحرم ما أحل الله لك(. وهو حديث ضعيف.

أغراض هذه السورة
ما تضمنه سبب نزولها أن أحدا لا يحرم على نفسه ما أحل الله له لإرضاء أحد إذ ليس ذلك بمصلحة له ولا للذي يسترضيه فلا ينبغي أن يجعل كالنذر إذ لا قربة فيه وما هو بطلاق لأن التي حرمها جارية ليست بزوجة، فإنما صلاح كل جانب فيما يعود بنفع

على نفسه أو ينفع به غيره نفعا مرضيا عند الله وتنبيه نساء النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن غيرة الله على نبيه أعظم من غيرتهن عليه وأسمى مقصدا.
وأن الله يطلعه على ما يخصه من الحادثات.

صفحة : 4473

وأن من حلف على يمين فرأى حنثها خيرا من برها أن يكفر عنها ويفعل الذي هو خير. وقد ورد التصريح بذلك في حديث وقد عبد القيس عن رواية أبي موسى الأشعري، وتقدم في سورة براءة.
وتعليم الأزواج أن لا يكثرن من مضايقة أزواجهن فإنها ربما أدت إلى الملال فالكراهية فالفراق.
وموعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضا ووعظ بعضهم بعضا.
وأتبع ذلك بوصف عذاب الآخرة ونعيمها وما يفضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيئاتها.
وذيل ذلك بضرب مثلين من صالحات النساء وضدهن لما في ذلك من العظمة لنساء المؤمنين ولأمهاتهم.
)يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم[1](افتتاح السورة بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء تنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبي صلى الله عليه وسلم والأمة ولأن سبب النزول كان من علائقه.
والاستفهام فيقوله)لم تحرم(مستعمل في معنى النفي، أي لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك ذلك أنه لما التزم عدم العود إلى ما صدر منه التزاما بيمين أو بدون يمين أراد الامتناع منه في المستقبل قاصدا بذلك تطمين أزواجه اللاء تمالأن عليه لفرط غيرتهن، أي ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهم، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام في بعض الأيام.
وهذا يومئ إلى ضبط ما يراعي من الغيرة وما لا يراعى.
وفعل)تحرم(مستعمل في معنى: تجعل ما أحل لك حراما، أي تحرمه على نفسك كقوله تعالى)إلا ما حرم إسرائيل على نفسه(وقرينته قوله هنا)ما أحل الله لك(.
وليس معنى التحريم هنا نسبة الفعل إلى كونه حراما كما في قوله تعالى)قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق(، وقوله)يحلونه عاما ويحرمونه عاما(، فإن التفعيل يأتي

بمعنى التصبير كما يقال: وسع هذا الباب ويأتي بمعنى إيجاد الشيء على حالة مثل ما يقال للخياط: وسع طوق الجبة.
ولا يخطر ببال أحد أن يتوهم منه أنك غيرت إباحته حراما على الناس أو عليك. ومن العجيب قول الكشاف: ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله لأن الله إنما أحله لمصلحة عرفها في إحلاله الخ.
وصيغة المضارع في قوله)لم تحرم(لأنه أوقع تحريما متجددا.
فجملة)تبتغي(حال من ضمير)تحرم(. فالتعجيب واقع على مضمون الجملتين مثل قوله)لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة(.
وفي الإتيان بالموصول في قوله)ما أحل الله لك(لما في الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم هو أن ما أحله الله لعبده ينبغي له أن يتمتع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضر أو مرض لأن تناوله شكر لله واعتراف بنعمته والحاجة إليه.
وفي قوله)تبتغي مرضاة أزواجك(عذر للنبي صلى الله عليه وسلم فيما فعله من أنه أراد به خيرا وهو جلب رضا الأزواج لأنه أهون على معاشرته مع الإشعار بأن مثل هذه المرضاة لا يعبأ بها لأن الغيرة نشأت عن مجرد معاكسة بعضهن بعضا وذلك مما يختل به حسن المعاشرة بينهن، فأنبأه الله أن هذا الاجتهاد معارض بأن تحريم ما أحل الله له يفضي إلى قطع كثير من أسباب شكر الله عند تناول نعمه وأن ذلك ينبغي إبطاله في سيرة الأمة.
وذيل بجملة)والله غفور رحيم(استئناسا للنبي صلى الله عليه وسلم من وحشة هذا الملام، أي والله غفور رحيم لك مثل قوله) عفا الله عنك لم أذنت لهم(.
)قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم[2](استئناف بياني بين الله به لنبيه صلى الله عليه وسلم أن له سعة في التحلل مما التزم تحريمه على نفسه، وذلك فيما شرع الله من كفارة اليمين فأفتاه الله بأن يأخذ برخصته في كفارة اليمين المشروعة للأمة كلها ومن آثار حكم هذه الآية ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس بعد أن استحملوه وحلف أن لا يحملهم إذ ليس عنده ما يحملهم عليه، فجاءه ذود من إبل الصدقة فقال لهم:)وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يميني وفعلت الذي هو خير(.

وافتتاح الخبر بحرف التحقيق لتنزيل النبي صلى الله عليه وسلم منزلة من لا يعلم أن الله فرض تحلة الأيمان بآية الكفارة بناء على

أنه لم يأخذ بالرخصة تعظيما للقسم. فأعلمه الله أن الأخذ بالكفارة لا تقصير عليه فيه فإن في الكفارة ما يكفي للوفاء بتعظيم اليمين بالله إلى شيء هذا قوله تعالى في قصة أيوب)وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تخث(كما ذكرناه في تفسيرها و)فرض(عين ومنه قوله تعالى)نصيبا مفروضا(. وقال: فرض له في العطاء والمغنى: قد بين الله لكن تحلة أيمانكم.

واعلم أنه إن كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصدر منه في تلك الحادثة إلا أنه التزم أن لا يعود لشرب شيئا عند بعض أزواجه في غير يوم نوبتها أو كان وعد أن يحرم مارية على نفسه بدون يمين على الرواية الأخرى. كان ذلك غير يمين فكان أمر الله إياه بأن يكفر عن يمينه إما لأن ذلك يجري مجرى اليمين لأنه إنما وعد لذلك تطمينا لخاطر أزواجه فهو التزام لهن فكان بذلك ملحقا باليمين وبذلك أخذ أبو حنيفة ولم يره مالك يمينا ولا نذرا فقال في الموطأ: ومعنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم)من نذر أن يعصي الله فلا يعضه(أن ينذر الرجل أن يمشي إلى الشام أو إلى مصر مما ليس لله في بطاعة إن كلم فلانا، فليس عليه في ذلك شيء إن هو كلمة لأنه ليس لله في هذه الأشياء طاعة فإن حلف فقال:)والله لا آكل هذا الطعام ولا ألبس هذا الثوب فإنما عليه كفارة يمين(اه.

وقد اختلف هل كفر النبي صلى الله عليه وسلم عن يمينه تلك.

فالتحلة على هذا التفسير عند مالك هي: جعل الله ملتزم مثل هذا في حل من التزام ما التزمه. أي موجب التحلل من يمينه.

وعند أبي حنيفة هي ما شرعه الله من الخروج من الأيمان بالكفارات وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم صدر منه يمين عند ذلك على أن لا يعود فتحلة اليمين هي الكفارة عند الجميع.

وجملة)والله مولاكم(تذييل لجملة)قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم(. والمولى: الولي، وهو الناصر ومتولي تدبير ما أضيف إليه، وهو هنا كناية عن الرؤوف والميسر، كقوله تعالى)يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر(.

وعطف عليها جملة)وهو العليم الحكيم(أي العليم بما يصلحكم فيحملكم على الصواب والرشد والسداد وهو الحكيم فيما يشرعه، أي يجري أحكامه على الحكمة. وهي إعطاء الأفعال ما تقتضيه حقائقها دون الأوهام والتخيلات.

واختلف فقهاء الإسلام فيمن حرم على نفسه شيئا مما أحل الله له على أقوال كثيرة أنهاها القرطبي إلى ثمانية عشر قولا وبعضها متداخل في بعض باختلاف الشروط والنيات فيؤول إلى سبعة.

أحدها: لا يلزمه شيء سواء كان المحرم زوجا أو غيرها. وهو قول الشعبي ومسروق وربيعة من التابعين وقاله أصبغ بن الفرج من أصحاب مالك.
الثاني: تجب كفارة مثل كفارة اليمين. وروى عن أبي بكر وعمر وابن مسعود وابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير، وبه قال الأوزاعي والشافعي في أحد قوليه. وهذا جار على ظاهر الآية من قوله)قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم(.
الثالث: لا يلزمه في غير الزوجة وأما الزوجة فقيل: إن كان دخل بها كان التحريم ثلاثا، وإن لم يدخل بها ينو فيما أراد وهو قول الحسن والحكم ومالك في المشهور. وقيل هي ثلاث تطليقات دخل بها أم لم يدخل. ونسب إلى علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبي هريرة. وقاله ابن أبي ليلى وهو عن عبد الملك بن الماجشون في المبسوط. وقيل طلقة بائنة. ونسب إلى زيد بن ثابت وحماد بن سليمان ونسبه ابن خويز منداد إلى مالك وهو غير المشهور عنه. وقيل طلقة رجعية في الزوجة مطلقا، ونسب إلى عمر بن الخطاب فيكون قيدا لما روي عنه في القول الثاني. وقاله الزهري وعبد العزيز بن أبي سلمة وابن الماحشون، وقال الشافعي يعني في أحد قوليه إن نوى الطلاق فعليه ما نوى من أعداده وإلا فهي واحدة رجعية. وقيل: هي ثلاث في المدخول بها وواحدة في التي لم يدخل بها دون تنوية.
الرابع: قال أبو حنيفة وأصحابه إن نوى بالحرام الظهار كان ما نوى فإن نوى الطلاق فواحدة بائنة إلا أن يكون نوى الثلاث. وإن لم ينو شيئا كانت يمينا وعليه كفارة فإن أباها كان موليا.

صفحة : 4475

وتحريم النبي صلى الله عليه وسلم سريته مارية على نفسه هو أيضا من قبيل تحريم أحد شيئا مما أحل الله له غير الزوجة لأن مارية لم تكن زوجة له بل هي مملوكته فحكم قوله)قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم(جار في قضية تحريم مارية بيمين أو بغير يمين بلا فرق. و)تحلة(تفعلة من حلل جعل الفعل حلالا. واصله تحللة فأدغم اللامان وهو مصدر سماعي لأن الهاء في آخره ليست بقياس إذ لم يحذف منه حرف حتى يعوض عنه الهاء مثل تزكية ولكنه كثير في الكلام مثل تعلة.
)وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من

أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير[3](هذا تذكير وموعظة بما جرى في خلال تينك الحادثتين ثني إليه عنان الكلام بعد أن قضي ما يهم من التشريع للنبي صلى الله عليه وسلم بما حرم على نفسه من جرائهما.

وهو معطوف على جملة)يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك(بتقدير واذكر.

وقد أعيد ما دلت عليه الآية السابقة ضمنا بما تضمنته هذه الآية بأسلوب آخر ليبنى عليه ما فيه من عبر ومواعظ وأدب، ومكارم وتنبيه وتحذير.

فاشتملت هذه الآيات على عشرين من معاني ذلك إحداها ما تضمنه قوله)إلى بعض أزواجه(.

الثاني: قوله)فلما نبأت به(.

الثالث:)وأظهره الله عليه(.

الرابع:)عرف بعضه(.

الخامس:)وأعرض عن بعض(.

السادس:)قالت من أنبأك هذا(.

السابع:)قال نبأني العليم الخبير(.

الثامن والتاسع والعاشر:)إن تتوبا إلى الله(إلى)فإن الله هو مولاه(.

الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر:)وجبريل وصالح والمؤمنين والملائكة(.

الرابع عشر والخامس عشر:)عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا(.

السادس عشر:)خيرا منكن(.

السابع عشر:)مسلمات(الخ.

الثامن عشر:)سائحات(.

التاسع عشر:)ثيبات وأبكارا(، ويتأتي بيانها عند تفسير كل آية منها.

العشرون: ما في ذكر حفصة أو غيرها بعنوان)بعض أزواجه(دون تسميته من الاكتفاء في الملام بذكر ما تستشعر به أنها المقصودة باللوم.

وإنما نبأها النبي صلى الله عليه وسلم بأنه علم إفشاءها الحديث بأمر من الله ليبني عليه الموعظة والتأديب فإن الله ما أطلعه على إفشائها إلا لغرض جليل.

والحديث هو ما حصل من اختلاء النبي صلى الله عليه وسلم بجاريته مارية وما دار بينه وبين حفصة وقوله لحفصة هي علي حرام ولا تخبري عائشة وكانتا متصافيتين وأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على أن حفصة أخبرت عائشة بما أسر إليها.

والواو عاطفة قصة على قصة لأن قصة إفشاء حفصة السر غير قصة تحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه بعض ما أحل له.

ولم يختلف أهل العلم في أن التي أسر إليها النبي صلى الله عليه وسلم الحديث هي حفصة ويأتي أن التي نبأتها حفصة هي عائشة. وفي الصحيح عن ابن عباس قال: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له حتى خرج حاجا فخرجت معه فلما رجع ببعض الطريق قلت: يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على رسول الله من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة وساق القصة بطولها.

وأصل إطلاق الحديث على الكلام مجاز لأنه مشتق من الحدثان فالذي حدث هو الفعل ونحوه شاع حتى صار حقيقة في الخبر عنه وصار إطلاقه على الحادثة هو المجاز فانقلب حال وضعه واستعماله.

و)أسر(أخبر بما يراد كتمانه عن غير المخبر أو سأله عدم إفشاء شيء وقع بينهما وإن لم يكن إخبارا وذلك إذا كان الخبر أو الفعل يراد عدم فشوه فيقوله صاحبه سرا والسر ضد الجهر، قال تعالى) ويعلم ما تسرون وما تعلنون(فصار)أسر(يطلق بمعنى الوصاية بعدم الإفشاء، أي عدم الإظهار قال تعالى)فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم(.

وأسر: فعل مشتق من السر فإن الهمزة فيه للجعل، أي جعله ذا سر، يقال: أسر في نفسه، إذا كنتم سره. ويقال: أسر إليه، إذا حدثه بسر فكأنه أنهاه إليه، ويقال: أسر له إذا أسر أمرا لأجله، وذلك في إضمار الشر غالبا وأسر بكذا، أي أخبر بخبر سر، إذا وضع شيئا خفيا. وفي المثل يسر حسوا في ارتغاء .

صفحة : 4476

و)بعض أزواجه(هي حفصة بنت عمر بن الخطاب. وعدل عن ذكر اسمها ترفعا عن أن يكون القصد معرفة الأعيان وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما غيها مما يجتنب مثله أو يقتدى به. وكذلك طي تعيين المنبأة بالحديث وهي عائشة.

وذكرت حفصة بعنوان أزواجه للإشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع سره في موضعه لأن أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجه. وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سره لأن واجب المرأة أن تحفظ سر زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله مما يحب حفظه.

وهذا المعنى الأول من المعاني التهذيبية التي ذكرناها آنفا.
ونبأ: بالتضعيف مرادف أنبأ بالهمز ومعناهما: أخبر، وقد جمعهما قوله)فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا. قال نبأني العليم الخبير(.
وقد قيل: السر أمانة، أي وإفشاؤه خيانة.
وفي حديث أم زرع من آدابهم العربية القديمة قالت الحادية عشرة: جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع لا تبث حديثنا تبثيثا ولا تنفث ميرثنا تنفيثا .
وكلام الحكماء والشعراء في السر وحفظه أكثر من أن يحصى.
وهو المعنى الثاني من المعاني التهذيبية التي ذكرناها.
ومعنى)و أظهره الله عليه(أطلعه عليه وهو مشتق من الظهور بمعنى التغلب.
استعير الإظهار إلى الإطلاع لأن اطلاع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على السر الذي بين حفصة وعائشة كان غلبة له عليهما فيما دبرتاه فشبهت الحالة الخاصة من تآمر حفصة وعائشة على معرفة سر النبي صلى الله عليه وسلم ومن علمه بذلك بحال من يغالب غيره فيغلبه الغير ويكشف أمره. فالإظهار هنا من الظهور بمعنى الانتصار. وليس هو من الظهور ضد الخفاء، لأنه لا يتعدى بحرف) على(.
وضمير)عليه(عائد على الإنباء المأخوذ من)نبأت به(أو على الحديث بتقدير مضاف يدل عليه قوله)نبأت به(تقديره: أظهره الله على إفشائه.
وهذا تنبيه إلى عناية الله برسوله صلى الله عليه وسلم وانتصاره له لأن إطلاعه على ما لا علم له به مما يهمه، عناية ونصح له.
وهذا حاصل المعنى الثالث من المعاني التي اشتملت عليها الآيات وذكرناها آنفا.
ومفعول)عرف(الأول محذوف لدلالة الكلام عليه، أي عرفها بعضه، أي بعض ما أطلعه الله عليه، وأعرض عن تعريفها ببعضه. والحديث يحتوي على أشياء: اختلاء النبي بسريته مارية، وتحريمها على نفسه، وتناوله العسل في بيت زينب، وتحريمه العودة إلى مثل ذلك، وربما قد تخلل ذلك كلام في وصف عثور حفصة على ذلك بغتة، أو في التطاول بأنها استطاعت أن تريهن من ميله إلى مارية. وإنما عرفها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ليوقفها على مخالفتها واجب الأدب من حفظ سر زوجها.
وهذا هو المعنى الرابع من المعاني التي سبقت إشارتي إليها.
وإعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه صلى الله عليه وسلم في

معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعض ما أفشته فتوقن أن الله يغار عليه.
قال سفيان: ما زال التغافل من فعل الكرام، وقال الحسن: ما استقصى كريم قط، وما زاد على المقصود يقلب العتاب من عتاب إلى تقريع.
وهذا المعنى الخامس من مقاصد ذكر هذا الحديث كما أشرنا إليه آنفا.
وقولها)من أنبأك هذا(يدل على ثقتها بأن عائشة لا تفشي سرها وعلمت أنه لا قبل للرسول صلى الله عليه وسلم بعلم ذلك إلا من قبل عائشة أو من طريق الوحي فرامت التحقق من أحد الاحتمالين.
والاستفهام حقيقي ولك أن تجعله للتعجيب من علمه بذلك.
وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سر زوجها زلة خلقية عظيمة حجبها عن مراعاتها شدة الصفاء لعائشة وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها، فلم تتمالك عن أن تبشر به خليلتها ونصيرتها ولو تذكرت لتبين لها أن مقتضى كتم سر زوجها أقوى من مقتضى إعلامها خليلتها فإن أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة وواجب الإخلاص لرسول الله أعلى من فضيلة الإخلاص للخلائل.
وهذا هو الأدب السادس من معاني الآداب التي اشتملت عليها القصة وأجملنا ذكرها آنفا.
وإيثار وصفي)العليم الخبير(هنا دون الاسم العلم لما فيهما من التذكير بما يجب أن يعلمه الناس من أحاطه الله تعالى علما وخبرا بكل شيء.
والعليم: القوي العلم وهو في أسمائه تعالى دال على أكمل العلم، أي العلم المحيط بكل معلوم.

صفحة : 4477

والخبير: أخص من العليم لأنه مشتق من خبير الشيء إذا أحاط بمعانيه ودخائله ولذلك يقال خبرته، أي بلوته وتطلعت بواطن أمره، قال ابن برحان بضم الموحدة وبجيم مشددة في شرح الأسماء: الفرق بين الخبر والعلم وسائر الأشياء الدالة على صفة العلم أن تتعرف حصول الفائدة من وجه وأضف ذلك إلى تلك الصفة وسم الفائدة بذلك الوجه الذي عنه حصلت فمتى حصلت من موضع الحضور سميت مشاهدة والمتصف بها هو الشاهد والشهيد. وكذلك إن حصلت من وجه سمع أو بصر فالمتصف بها سميع وبصير.
وكذلك إن حصلت من علم أو علامة فهو العلم والمتصف به العالم

والعليم، وإن حصلت عن استكشاف ظاهر المخبور عن باطنه ببلوى أو امتحان أو تجربة أو تبليغ فهو الخبر. والمسمى به الخبير اه. وقال الغزالي في المقصد الأسنى: العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبها خبيرا اه .

فيتضح أن اتباع وصف)العليم(بوصف)الخبير(إيماء إلى أن الله علم دخيلة المخاطبة وما قصدته من إفشاء السر للأخرى.

وقد حصل من هذا الجواب تعليمها بأن الله يطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على ما غاب إن شاء قال تعالى)عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحدا إلا من ارتضى من رسول(وتنبيها على ما أبطنته من الأمر.

وهو الأدب السابع مع آداب هذه الآيات.

واعلم أن نبأ وأنبأ مترادفان وهما بمعنى أخبر وأن حقهما التعدية إلى مفعول واحد لأجل ما فيهما من همزة تعدية أو تضعيف. وإن كان لم يسمع فعل مجرد لهما وهو مما أميت في كلامهم استغناء بفعل علم. والأكثر أن يتعديا إلى ما زاد على المفعول بحرف جر نحو: نبأت به. وقد يحذف حرف الجر فيعديان إلى مفعولين، كقوله هنا)من أنبأك هذا(أي بهذا، وقول الفرزدق:

نبئت عبد الله بالجو أصبحـت كراما

مواليها لآما ما صميمها حمله سيبويه على حذف الحرف.

وقد يضمنان معنى: اعلم، فيعديان إلى ثلاثة مفاعيل كقول النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي

إلي غرائب الأشعـار ولكثرة هذا الاستعمال ظن أنه معنى لهما وأغفل التضمين فنسب إلحاقهما ب)اعلم(إلى سيبويه والفارسي والجرجاني وألحق الفراء خبر وأخبر، وألحق الكوفيون حدث.

قال زكريا الأنصاري: لم تسمع تعديتها إلى ثلاثة في كلام العرب إلا إذا كانت مبنية إلى المجهول.

وقرأ الجمهور)عرف(بالتشديد. وقرأه الكسائي)عرف(بتخفيف الراء، أي علم بعضه وذلك كناية عن المجازاة، أي جازى عن بعضه التي أفشته باللوم أو بالطلاق على رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ولم يصح وقد يكنى عن التوعد بفعل العلم. ونحوه كقوله تعالى)أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم(. وقول العرب للمسيء: لأعرفن لك هذا. وقولك: لقد عرفت ما صنعت.

)إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير[4]

(التفات من ذكر القصتين إلى موعظة من تعلقت بهما فهو استئناف خطاب وجهة الله إلى حفصة وعائشة لأن إنباء النبي صلى

الله عليه وسلم بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها. وإذ قد كان ذلك إثما لأنه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سره ذكرها بواجب التوبة منه.

وخطاب التثنية عائد إلى المنبئة والمنأبة فأما المنبئة فمعادها مذكور في الكلام بقوله)إلى بعض أزواجه(.

وأما المنبأة فمعادها ضمني لأن فعل)نبأت(يقتضيه فأما المنبئة فأمرها بالتوبة ظاهر. وأما المذاع إليها فلأنها شريكة لها في تلقي الخبر السر ولأن المذيعة ما أذاعت به إليها إلا لعلمها بأنها ترغب في تطلع مثل ذلك فهاتان موعظتان لمذيع السر ومشاركة المذاع إليه في ذلك وكان عليها أن تنهاها عن ذلك أو أن تخبر زوجها بما أذاعته عنه ضرتها.

صفحة : 4478

وصغت: مالت، أي مالت إلى الخير وحق المعاشرة مع الزوج، ومنه سمي سماع الكلام إصغاء لأن المستمع يميل سمعه إلى من يكلمه، وتقدم عند قوله تعالى)ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة(في سورة الأنعام. وفيه إيماء إلى أن فيما فعلتاه انحرافا عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به وأن عليهما أن تتوبا مما صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما.

وهذان الأدبان الثامن والتاسع من الآداب التي اشتملت عليها هذه الآيات.

والتوبة: الندم على الذنب، والعزم على عدم العودة إليه وسيأتي الكلام عليها في هذه السورة.

وإذ كان المخاطب مثنى كانت صيغة الجمع في قلوب مستعملة في الاثنين طلبا لخفة اللفظ عند إضافته إلى ضمير المثنى كراهية اجتماع مثنيين فإن صيغة التثنية تقيلة لقلة دورانها في الكلام. فلما أمن اللبس ساغ التعبير بصيغة الجمع عن التثنية.

وهذا استعمال للعرب غير جار على القياس. وذلك في كل اسم مثنى أضيف إلى اسم مثنى فإن المضاف يصير جمعا كما في هذه الآية وقول خطام المجاشعي:

ومهمهين قـذفـين مـرتـين ظهراهما

مثل ظهور الترسين وأكثر استعمال العرب وأفصحه في ذلك أن يعبروا بلفظ الجمع مضافا إلى اسم المثنى لأن صيغة الجمع قد تطلق على الاثنين في الكلام فهما يتعاوران. ويقل أن يؤتى بلفظ

المفرد مضافا إلى الاسم المثنى. وقال ابن عصفور: هو مقصور على السماع.

وذكر له أبو حيان ساهدا قول الشاعر:

حمامة بطن الواديين تـرنـمـي سقاك

من الغر الغوادي مطيرها وفي التسهيل ترجيح التعبير عن المثنى المضاف إلى مثنى باسم مفرد، على التعبير عنه بلفظ المثنى. وقال أبو حيان في البحر المحيط إن ابن مالك غلط في ذلك. قلت: وزعم الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، أن قول القائل اشتر رأس كبشين يريد رأسي كبشين خطأ. قال: لأن ذلك لا يكون اه. وذلك يؤيد قول ابن عصفور بأن التعبير عن المضاف المثنى بلفظ الإفراد مقصور على السماع، أي فلا يصار إليه. وقيد الزمخشري في المفصل هذا التعبير بقيد أن لا يكون اللفظان متصلين. فقال: ويجعل الاثنان على لفظ جمع إذا كانا متصلين كقوله)فقد صغت قلوبكما(ولم يقولوا في المنفصلين: أفراسهما ولا غلمانهما. وقد جاء وضعت رحالهما . فخالف إطلاق ابن مالك في التسهيل وطريقة صاحب المفصل أظهر.

وقوله)وإن تظاهرا عليه(هو ضد)إن تتوبا(أي وإن تصرا على العود إلى تألبكما عليه فإن الله مولاه الخ.

والمظاهرة: التعاون، يقال: ظاهره، أي أيده وأعانه. قال تعالى)ولم يظاهروا عليكم أحدا(في سورة براءة. ولعل أفعال المظاهر ووصف ظهير كلها مشتقة من الاسم الجامد، وهو الظهر لأن المعين والمؤيد كأنه يشد ظهر من يعينه ولذلك لم يسمع لهذه الأفعال الفرعية والأوصاف المتفرعة عنها فعل مجرد. وقريب من هذا فعل عضد لأنهم قالوا: شد عضده.

وأصل)تظاهرا(تتظاهرا فقلبت التاء ظاء لقرب مخرجيها وأدغمت في ظاء الكلمة وهي قراءة الجمهور. وقرأه عاصم وحمزة والكسائي)تظاهرا(بتخفيف الظاء على حذف إحدى التاءين للتخفيف.

وصالح مفرد أريد به معنى الفريق الصالح أو الجنس الصالح من المؤمنين كقوله تعالى)فمنهم مهتد(. والمراد ب)صالح المؤمنين(المؤمنون الخالصون من النفاق والتردد.

وجملة)فإن الله هو مولاه(قائمة من مقام جواب الشرط معنى لأنها تفيد معنى يتولى جزاءكما على المظاهرة عليه، لأن الله مولاه. وفي هذا الحذف مجال تذهب فيه نفس السامع كل مذهب من التهويل.

وضمير الفصل في قوله)هو مولاه(يفيد القصر على تقدير حصول الشرط، أي إن تظاهرتما متناصرتين عليه فإن الله هو ناصره لا أنتما، أي وبطل نصركما الذي هو واجبكما إذ أخللتما به على هذا

التقدير. وفي هذا تعريف بأن الله ناصر رسوله صلى الله عليه وسلم لئلا يقع أحد من بعد في محلولة التقصير من نصره.
فهذا المعنى العاشر من معاني الموعظة والتأديب التي في هذه الآيات.
وعطف)وجبريل وصالح المؤمنين(في هذا المعنى تنويه بشأن رسول الوحي من الملائكة وشأن المؤمنين الصالحين. وفيه تعريض بأنهما تكونان على تقدير حصول هذا الشرط من غير الصالحين.
وهذان التنويهان هما المعنيان الحادي عشر والثاني عشر من المعاني التي سبقت إشارتي إليها.

صفحة : 4479

وقوله)والملائكة بعد ذلك ظهير(عطف جملة على التي قبلها، والمقصود منه تعظيم هذا النصر بوفرة الناصرين تنويها بمحبة أهل السماء للنبي صلى الله عليه وسلم وحسن ذكره بينهم فإن ذلك مما يزيد نصر الله إياه شأنا.
وفي الحديث إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في أهل السماء إن الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في أهل الأرض .
فالمراد بأهل الأرض فيه المؤمنون الصالحون منهم لأن الذي يحبه الله يحبه لصلاحه والصالح لا يحبه أهل الفساد والضلال. فهذه الآية تفسيرها ذلك الحديث.
وهذا المعنى الثالث عشر من معاني التعليم التي حوتها الآيات.
وقوله)بعد ذلك(اسم الإشارة فيه للمذكور، أي بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين.
وكلمة)بعد(هنا بمعنى مع فالبعدية هنا بعدية في الذكر كقوله) عتل بعد ذلك زنيم(.
وفائدة ذكر الملائكة بعد ذكر تأييد الله وجبريل وصالح والمؤمنين أن المذكورين قبلهم ظاهره آثار تأييدهم بوحي الله للنبي صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل ونصره إياه بواسطة المؤمنين فنبه الله المرأتين على تأييد آخر غير ظاهرة آثاره وهو تأييد الملائكة بالنصر في يوم بدر وغير النصر من الاستغفار في السماوات، فلا يتوهم أحد أن هذا يقتضي تفضيل نصرة الملائكة على نصرة جبريل بله نصرة الله تعالى.

و)ظهير(وصف بمعنى المظاهر، أي المؤيد وهو مشتق من الظهر،فهو فعيل بمعنى فمفاعل مثل حكيم بمعنى محكم كما تقدم آنفا في قوله)وإن تظاهرا عليه(، وفعيل الذي ليس بمعنى مفعول أصله أن يطابق موصوفه في الإيراد وغيره فإن كان هنا خبرا عن الملائكة كما هو الظاهر كان إفراده على تأويل جمع الملائكة بمعنى الفوج المظاهر أو هو من إجراء فعيل الذي بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول. كقوله تعالى) إن رحمة الله قريب من المحسنين(، وقوله)وكان الكافر على ربه ظهيرا(وقوله)وحسن أولئك رفيقا(، وإن كان خبرا عن جبريل كان)صالح المؤمنين والملائكة(عطفا على جبريل وكان قوله)بعد ذلك(حالا من الملائكة.

وفي الجمع بين)أظهره الله عليه(وبين)وإن تظاهره عليه(وبين) ظهير(تجنيسات.

)عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا[5](ليس هذا مما يتعلق بالشرط في قوله)وإن تظاهرا عليه(بل هو كلام مستأنف عدل به إلى تذكير جميع أزواجه بالحذر من أن يضيق صدره عن تحمل أمثال هذا الصنيع فيفارقهن لتقلع المتلبسة وتحذر غيرها من مثل فعلها.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا عقبت بها جملة)إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما(التي أفادت التحذير من عقاب في الآخرة إن لم تتوبا مما جرى منهما في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاد هذا الإيماء إلى التحذير من عقوبة دنيوية لهم يأمر الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم وهي عقوبة الطلاق عليه ما يحصل من المؤاخذة في الآخرة إن لم تتوبا، ولذلك فصلت عن التي قبلها لاختلاف الغرضين.

وفي قوله)عسى ربه إن طلقكن(إيجاز بحذف ما يترتب عليه إبدالهن من تقدير إن فارقكن. فالتقدير: عسى أن يطلقكن هو وإنما يطلق بإذن ربه أن يبدله ربه بأزواج خير منكن.

وفي هذا ما يشير إلى المعنى الرابع عشر والخامس عشر من معاني الموعظة والإرشاد التي ذكرناها آنفا.

و)عسى(هنا مستعملة في التحقيق وإيثارها هنا لأن هذا التبديل مجرد فرض وليس بالواقع لأنهن لا يظن بهن عدم الارعواء عما حذرن منه، وفي قوله)خيرا منكن(تذكير لهن بأنهن ما اكتسبن التفضيل على النساء إلا من فضل زوجهن عند الله وإجراء الأوصاف المفصلة بعد الوصف المجمل وهو)خيرا منكن(للتنبيه على أن أصول التفضيل موجودة فيهن فيكمل اللاء يتزوجهن النبي صلى الله عليه

وسلم فضل على بقية النساء بأنهن صرن أزواجا للنبي صلى الله عليه وسلم.

صفحة : 4480

وهذه الآية إلى قوله)خيرا منكن(نزلت موافقة لقول عمر لابنته حفصة رضي الله عنهما مثل هذا اللفظ وهذا من القرآن الذي نزل وفاقا لقول عمر أو رأيه تنويها بفضله. وقد وردت في حديث في الصحيحين واللفظ للبخاري عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت) واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى(، وقلت: يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله أية الحجاب. وبلغني معاتبة النبي بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتين أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن فأنزل الله)عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات(الآية.

وهي موعظة بأن يأذن الله له بطلاقهن وأنه تصير له أزواج خير منهن.

وهذا إشارة إلى المعنى السادس عشر من مواعظ هذه الآي.

وقرأ الجمهور)أن يبدله(بتسديد الدال مضارع بدل. وقرأه يعقوب بتخفيف مضارع أبدل.

والمسلمات: المتصفات بالإسلام. والمؤمنات: المصدقات في نفوسهن. والقانتات: القائمات بالطاعة أحسن قيام. وتقدم القنوت في قوله تعالى)وقوموا لله قانتين(في سورة البقرة. وقوله)ومن يقنت منكن لله ورسوله(في سورة الأحزاب.

وفي هذا الوصف إشعار بأنهن مطيعات لله ورسوله ففيه تعريض لما وقع من تقصير إحداهن في ذلك فعاتبها الله وأيقظها للتوبة.

والتائبات: المقلعات عن الذنب إذا وقعن فيه. وفيه تعريض بإعادة التحريض على التوبة من ذنبهما التي أمرتا بها بقوله)إن تتوبا إلى الله(.

والعابدات: المقبلات على عبادة الله وهذه الصفات تفيد الإشارة إلى فضل هذه التقوى وهو المعنى السابع عشر من معاني العبرة في هذه الآيات.

والسائحات: المهاجرات وإنما ذكر هذا الوصف لتنبههن على أنهن إن كن يمتن بالهجرة فإن المهاجرات غيرهن كثير، والمهاجرات أفضل من غيرهن، وهذه الصفة تشير إلى المعنى الثامن عشر من معاني الاعتبار في هذه الآي.

وهذه الصفات انتصبت على أنها نعوت ل)أزواجا(، ولم يعطف بعضها على بعض بالواو، لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن ولو عطفت بالواو لاحتمل أن تكون الواو للتقسيم، أي تقسيم الأزواج إلى من يثبت لهن بعض تلك الصفات دون بعض، ألا ترى أنه لما أريدت إفادة ثبوت إحدى صفتين دون أخرى من النعتين الواقعين بعد ذلك كيف عطف بالواو قوله) وأبكارا(لأن الثيبات لا يوصفن بأبكار. والأبكار لا يوصفن بالثيبات. قلت وفي قوله تعالى)مسلمات(، إلى قوله)سائحات(محسن الكلام المتزن إذ يلتئم من ذلك بيت من بحر الرمل التام:

فاعلتن فاعلتن فاعلتـن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلتن ووجه هذا التفصيل في الزوجات المقدرات لأن كلتا الصفتين محاسنها عند الرجال؛ فالثيب أرعى لواجبات الزوج وأميل مع أهوائه وأقوم على بيته وأحسن لعابا وأبهى زينة وأحلى غنجا.

والبكر أشد حياء وأكثر غرارة ودلا وفي ذلك مجلبة للنفس، والبكر لا تعرف رجلا قبل زوجها ففي نفوس الرجال خلق من التنافس في المرأة التي لم يسبق إليها غيرهم.

فما اعتزت واحدة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمزية إلا وقد أنبأها الله بأن سيبدله خيرا منها في تلك المزية أيضا.

وهذا هو المعنى التاسع عشر من معاني الموعظة والتأديب في هذه الآيات.

وتقديم وصف)ثيبات(لأن أكثر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تزوجهن كن ثيبات. ولعله إشارة إلى أن الملام الأشد موجه إلى حفصة قبل عائشة وكانت حفصة ممن تزوجهن ثيبات وعائشة هي التي تزوجها بكرا. وهذا التعريض أسلوب من أساليب التأديب كما قيل الحر تكفيه الإشارة .

وهذا هو المعنى العشرون من مغزى آداب هذه الآيات.

صفحة : 4481

ومن غرائب المسائل الأدبية المتعلقة بهذه الآية أن الواو في قوله تعالى)ثيبات وأبكار(زعمها ابن خالويه واوا لها استعمال خاص ولقبها بواو الثمانية بفتح المثلثة وتخفيف التحتية بعد النون وتبعه جماعة ذكروا منهم الحريري والثعلبي النيسابوري المفسر والقاضي الفاضل. أنهم استخرجوا من القرآن أن ما فيه معنى عدد ثمانية تدخل عليه واو ويظهر من الأمثلة التي مثلوا بها أنهم يعتبرون ما دل على أمر معدود بعدد كما فيه سواء كان وصفا مشتقا من عدد

ثمانية أو كان ذاتا ثامنة أو كان يشتمل على ثمانية سواء كان مفردا أو كان جملة. فقد مثلوا بقوله تعالى في سورة براء)التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر(. قالوا لم يعطف الصفات المسرودة بالواو إلا عند البلوغ إلى الصفة الثامنة وهي)الناهون عن المنكر(. وجعلوا من هذا القبيل آية سورة التحريم إذ لم يعطف من الصفات المبدوءة بقوله)مسلمات(إلا الثامنة وهي)وأبكارا(ومثلوا لما فيه بوصف ثامن بقوله تعالى)ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم(في سورة الكهف. فلم يعطف)رابعهم(ولا)سادسهم(وعطفت الجملة التي وقع فيها وصف الثامن بواو عطف الجمل. ومثلوا لما فيه كلمة ثمانية بقوله تعالى)سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوسا(في سورة الحاقة. ومثلوا لما يشتمل على ثمانية أسماء بقوله تعالى في سورة الزمر)وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوهم وفتحت أبوابها، قالوا جاءت جملة)وفتحت (هذه بالواو ولم تجيء أختها المذكورة قبلها وهي)وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها(. لأن أبواب الجنة ثمانية.

وترددت كلماتهم في أن هذه الواو من صنف الواو العاطفة يمتاز عن الصنف الآخر يلزم ذكره إذا كان في المعطوف معنى الثامن أو من صنف الواو الزائدة.

وذكر الدماميني في الحواشي الهندية على المغني أنه رأى في تفسير العماد الكندي قاضي الإسكندرية المتوفى في نحو عشرين وسبعمائة نسبة القول بإثبات واو الثمانية إلى عبد الله الكفيف المالقي النحوي الغرناطي من علماء غرناطة في مدة الأمير ابن حبوس بموحدة بعد الحاء المهملة وهو باديس بن حبوس صاحب غرناطة سنة 420.

وذكر السهيلي في الروض الأنف عند الكلام على نزول سورة الكهف أنه أفراد الكلام على الواو التي يسميها بعض الناس واو الثمانية بابا طويلا ولم يبد رأيه في إثباتها ولم أقف على الموضع الذي أفرد فيه الكلام عليها. ويظهر أنه غير موافق على إثبات هذا الاستعمال لها. ومن عجب الصدف ما اتفق في هذه الآيات الأربع من مثير شبهه للذين أثبتوا هذا المعنى في معاني الواو. ومن غريب الفطنة تنبه الذي أنبأ بهذا.

وذكر ابن المنير في الانتصاف أن شيخه ابن الحاجب ذكر له أن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب كان يعتقد أن الواو في قوله تعالى)وأبكارا(وهي الواو التي سماها بعض ضعفه النحاة واو الثمانية. وكان الفاضل يتبجح باستخراجها زائدة على المواضع الثلاثة المشهورة إلى أن ذكره يوما بحضيرة أبي الجود النحوي

المقري، فبين لهم أنه واهم في عدها من ذلك القبيل وأحال البيان على المعنى الذي ذكره الزمخشري في دعاء اللزوم إلى الإتيان بالواو هنا لامتناع اجتماع هذين الصنفين في موصوف واحد. فأنصفه الفاضل وقال: أرشدنا يا أبا الجود.

قلت: وأرى أن القاضي الفاضل تعجل التسليم لأبي الجود إذ كان له أن يقول: إنا لم نلتزم أن يكون المعدود الثامن مستقلا أو قسيما لغيره وإنما تتبعنا ما فيه إشعار بعدد ثمانية.

ونقل الطيبي والقزويني في حاشيتي الكشاف أنه روى عن صاحب الكشاف أنه قال: الواو تدخل في الثامن كقوله تعالى)وثامنهم كلبهم(، وقوله)وفتحت أبوابها(ويسمونه واو الثمانية وهي كذلك، وليس بشيء. قال الراوي عنه وقد قال لنا عند قراءة هذا الموضع: أنسيتم واو الثمانية عند جوابي هذا أي يلومهم على إهمالهم ذلك المعنى في تلك الآية أي هو جواب حسن وذلك خطأ محض لا يجوز أن يؤخذ به اه.

قلت: وهذا يخالف صريح كلامه في الكشاف فلعل الراوي لم يحسن تحرير مراد صاحب الكشاف، أو لعل صاحب الكشاف لم ير منافاة بين لزوم ذكر الواوين اقتضاء المقام ذكرها بأن المعطوف بها ثامن في الذكر فإن النكت لا تتزاحم فتأمل بتدقيق.

صفحة : 4482

وتقدم الكلام على واو الثمانية عند قوله تعالى)التائبون العابدون(الآية في سورة براءة. وعند قوله)ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم(في سورة الكهف، وتقدمت في سورة الزمر وفي سورة الحاقة.

)يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون[6](كانت موعظة نساء النبي صلى الله عليه وسلم مناسبة لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم وأن لا يصدهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم وإن كان في ذلك بعض الأذى.

وهذا نداء ثان موجه إلى المؤمنين بعد استيفاء المقصود من النداء الأول نداء النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى)يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك.

وجه الخطاب إلى المؤمنين ليأتنسوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في موعظة أهليهم.

وعبر عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار على سبيل المجاز لأن الموعظة سبب في تجنب ما يفضي إلى عذاب النار أو على سبيل الاستعارة بتشبيه الموعظة بالوقاية من النار على وجه المبالغة في الموعظة.

وتنكير)نار(للتعظيم وأجرى عليها وصف بجملة)وقودها الناس والحجارة(زيادة في التحذير لئلا يكونوا من وقود النار. وتذكرا بحال المشركين الذي في قوله تعالى)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(في سورة الأنبياء. وتفظيعا للنار إذ يكون الحجر عوضا لها عن الحطب.

ووصف النار بهذه الجملة لأن مضمون هذه الجملة قد تقرر في علم المسلمين من قبل نزول هذه الآية بما تقدم في سورة البقرة من قوله تعالى)فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين(وبما تقدمهما معا من قوله)إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم(في سورة الأنبياء.

والحجارة: جمع الحجر على غير قياس فإن قياسه أحجار فجمعوه على حجار بوزن فعال وألحقوا به هاء التأنيث كما قالوا: بكارة جمع بكر، ومهارة جمع مهر.

وزيد في تهويل النار بأن عليها ملائكة غلاظا شدادا وجملة)عليها ملائكة(إلى آخرها صفة ثانية.

ومعنى)عليها(أنهم موكلون بها. فالاستعلاء المفاد من حرف على مستعار للتمكن كما تقدم في قوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم(. وفي الحديث فلم يكن على بابه بوابون .

و)غلاظ(جمع غليظ وهو المتصف بالغلظة. وهي صفة مشبهة وفعلها مثل كرم. وهي هنا مستعارة لقساوة المعاملة كقوله تعالى)ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك(أي لو كنت قاسيا لما عاشروك .

و)شداد(: جمع شديد. والشدة بكسر الشين حقيقتها قوة العمل المؤذى والموصوف بها شديد. والمعنى: أنهم أقوياء في معاملة أهل النار الذين وكلوا بهم: يقال: اشتد فلان على فلان، أي أساء معاملته، ويقال: اشتدت الحرب، واشتدت البأساء. والشدة من أسماء البؤس والجوع والقحط.

وجملة)لا يعصون الله ما أمرهم(ثناء عليهم أعقب به وصفهم بأنهم غلاظ شداد تعديلا لما تقتضيانه من كراهية نفوس الناس إياهم، وهذا مؤذن بأنهم مأمورون بالغلظة والشدة في تعذيب أهل النار.

وأما قوله)ويفعلون ما يؤمرون(فهو تصريح بمفهوم)لا يعصون الله ما أمرهم(دعا إليه مقام الإطناب في الثناء عليهم، مع ما في

هذا التصريح من استحضار الصورة البديعة في امتثالهم لما يؤمرون به. وقد عطف هذا التأكيد عطفا يقتضي المغايرة تنويها بهذه الفضيلة لأن فعل المأمور أوضح في الطاعة من عدم العصيان واعتبار لمغايرة المعنيين وإن كان قالها واحد ولك أن تجعل مرجع)لا يعصون الله ما أمرهم(أنهم لا يعصون فيما يكلفون به من أعمالهم الخاصة بهم ومرجع)ويفعلون ما يؤمرون(إلى ما كلفوا بعمله في العصاة في جهنم.

)يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون[7](هو من قبل الملائكة الذين على النار. وذكر هذه المقالة هنا استطراد يفيد التنفير من جهنم بأنها دار أهل الكفر كما قال تعالى)فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين(، وإلا فإن سياق الآية تحذير للمؤمنين من الموبقات في النار.

صفحة : 4483

ومعنى)ما كنتم تعملون(مماثل)ما كنتم تعملون(، وأفادت إنما قصر الجزاء على مماثلة العمل المجرى عليه قصر قلب لتنزيلهم منزلة من اعتذر وطلب أن يكون جزاؤه أهون مما شاهده.

والاعتذار: افتعال مشتق من العذر. ومادة الافتعال فيه دالة على تكلف الفعل مثل الاكتساب والاختلاق، والعذر: الحجة التي تبرئ صاحبها من تبعة عمل ما. وليس لمادة الاعتذار فعل مجرد دال على إيجاد العذر وإنما الموجود عذر بمعنى قبل العذر، وقد تقدم عند قوله تعالى)وجاء المعذرون من الأعراب(في سورة براءة.

)يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار(أعيد خطاب المؤمنين وأعيد نداؤهم وهو نداء ثالث في هذه السورة. والذي قبله نداء للواعظين. وهذا نداء للموعوظين وهذا الأسلوب من أساليب الإعراض المهتم بها.

أمر المؤمنون بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها لأن ذلك من إصلاح أنفسهم بعد أن أمروا بأن يجنبوا أنفسهم وأهليهم ما يزج بهم في عذاب النار، لأن اتقاء النار يتحقق باجتناب ما يرمي بهم فيها، وقد يذهلون عما فرط من سيئاتهم فهدوا إلى سبيل التوبة التي يمحون بها ما فرط من سيئاتهم.

وهذا ناظر إلى ما ذكر من موعظة امرأتي النبي صلى الله عليه وسلم بقوله)إن تتوبا إلى الله(.

والتوبة: العزم على عدم العود إلى العصيان مع الندم على ما فرط منه فيما مضى. وتقدمت عند قوله تعالى)فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه(في سورة البقرة. وفي مواضع أخرى وخاصة عند قوله تعالى)إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة(في سورة النساء. وتعديتها بحرف إلى لأنها في معنى الرجوع لأن تاب أخو ثاب .

والنصوح: ذو النصح.

والنصح: الإخلاص في العمل. والقول، أي الصدق في إرادة النفع بذلك. ووصف التوبة بالنصوح مجاز جعلت التوبة التي لا تردد فيها ولا تخالطها نية العودة إلى العمل المتوب منه بمنزلة الناصح لغيره ففي نصوح استعارة وليس من المجاز العقلي إذ ليس المراد نصوحا صاحبها.

وإنما لم تلحق وصف)نصوح(هاء التأنيث المناسبة لتأنيث الموصوف به لأن فعولا بمعنى فاعل يلازم الإفراد والتذكير.

وقرأ الجمهور)نصوحا(بفتح النون على معنى الوصف كما علمت. وقرأه أبو بكر عن عاصم بضم النون على أنه مصدر نصح مثل: القعود من قعد. وزعم الأخفش أن الضم غي معروف والقراءة حجة عليه.

ومن شروط التوبة تدارك ما يمكن تداركه مما وقع التفريط فيه مثل المظالم للقادر على ردها. روي عن علي رضي الله عنه يجمع التوبة سنة أشياء: الندامة على الماضي من الذنوب، وإعادة الفرائض. ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي.

وتقوم مقام رد المظالم استحلال المظلوم حتى يعفو عنه.

ومن تمام التوبة تمكين التائب من نفسه أن ينفذ عليها الحدود كالقود والضرب. قال إمام الحرمين: هذا التمكين واجب خارج عن حقيقة التوبة لأن التائب إذا ندم ونوى أن لا يعود صحت توبته عند الله وكان منعه من تمكين نفسه معصية متجددة تستدعي توبة.

وهو كلام وجيه إذ التمكين من تنفيذ ذلك يشق على النفوس مشقة عظيمة فلها عذر في الإحجام عن التمكين منه.

وتصح التوبة من ذنب دون ذنب خلافا لأبي هاشم الجبائي المعتزلي، وذلك فيما عدا التوبة من الكفر.

وأما التوبة من الكفر بالإيمان فصحيحة في غفران إثم الكفر واو بقي متلبسا ببعض الكبائر بإجماع علماء الإسلام.

والذنوب التي تجب منها التوبة هي الكبائر ابتداء، وكذلك الصغائر وتمييز الكبائر من الصغائر مسألة أخرى محلها أصول الدين وأصول الفقه والفقه.
إلا أن الله تفضل على المسلمين فغفر الصغائر لمن أجتنب الكبائر، أخذ ذلك من قوله تعالى)الذين سيجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم(وقد مضى القول فيه في تفسير سورة النجم.

صفحة : 4484

ولو عاد التائب إلى بعض الذنوب أو جميعها ما عدا الكفر اختلف فيه علماء الأمة فالذي ذهب إليه أهل السنة أن التوبة تنتقض بالعودة إلى بعض الذنوب في خصوص الذنب المعود إليه ولا تنتقض فيما سواه. وأن العود معصية تجب التوبة منها. وقال المعتزلة، تنتقض بالعودة إلى بعض الذنوب فتعود إليه ذنوبه ووافقهم الباقلاني.
وليس في أدلة الكتاب والسنة ما يشهد لأحد الفريقين.
والرجاء المستفاد من فعل)عسى(مستعمل في الوعد الصادر عن المتفضل على طريقة الاستعارة وذلك النائب لا حق له في أن يعفى عنه ما اقترفه لأن العصيان قد حصل وإنما التوبة عزم على عدم العودة إلى الذنب ولكن ما لصاحبها من الندم والخوف الذي بعث على العزم دل على زكاء النفس فجعل الله جزاءه أن يمحو عنه ما سلف من الذنوب تفضلا من الله فلذلك معنى الرجاء المستفاد من)عسى(.
وقد أجمع علماء الإسلام على أن التوبة من الكفر بالإيمان مقبولة قطعا لكثرة أدلة الكتاب والسنة، واختلفوا في تعين قبول توبة العاصي من المؤمنين، فقال جمهور أهل السنة قبولها مرحو غير مقطوع وممن قال به الباقلاني وإمام الحرمين. وعن الأشعري أنه مقطوع به سمعا والمعتزلة مقطوع به عقلا.
وتكفير السيئات: غفرانها، وهو مبالغة في كفر المخفف المتعدي الذي هو مشتق من الكفر بفتح الكاف، أي الستر.
)يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير[8]( )يوم(ظرف متعلق ب)يدخلكم جنات(وهو تعليق تخلص إلى الثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه. وهو يوم القيامة وهذا الثناء عليهم بانتفاء خزي الله عنهم تعريض بأن الذين لم يؤمنوا معه يخزيهم الله يوم القيامة وذكر

النبي صلى الله عليه وسلم مع الذين آمنوا لتشريف المؤمنين ولا علاقة له بالتعريض.
والخزي: هو عذاب النار، وحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله)ولا تخزني يوم يبعثون(على أن انتفاء الخزي يومئذ يستلزم الكرامة إذ لا واسطة بينهما كما أشعر به قوله تعالى)فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز(.
وفي صلة)الذين آمنوا معه(إيذان بأن سبب انتفاء الخزي عنهم هو إيمانهم.
ومعية المؤمنين مع النبي صلى الله عليه وسلم صحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم.
و)مع(يجوز تعلقها بمحذوف حال من)الذين آمنوا(أي حال كونهم مع الشيء في انتفاء خزي الله عنهم فيكون عموم)الذين آمنوا(مخصوصا بغير الذين يتحقق فيهم خزي الكفر وهم الذين ارتدوا وماتوا على الكفر.
وفي هذه الآية دليل على المغفرة لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
ويجوز تعلق)مع(بفعل)آمنوا(أي الذين آمنوا به وصحبوه، فيكون مرادا به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا به ولم يرتدوا بعده، فتكون الآية مؤذنة مفصلة للصحابة.
وضمير)نورهم(عائد إلى النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه.
وإضافة نور إلى ضمير هم مع أنه لم يسبق إخبار عنهم بنور لهم ليست إضافة تعريف إذ ليس المقصود تعريف النور وتعيينه ولكن الإضافة مستعملة هنا في لازم معناها وهو اختصاص النور بهم في ذلك اليوم بحيث يميزه الناس من بين الأنوار يومئذ.
وسعي النور: امتداده وانتشاره. شبه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنه يحف بهم حيثما انتقلوا تنويها بشأنهم كما تنشر الأعلام بين يدي الأمير والقائد وكما تساق الجياد بين يدي الخليفة.
وإنما خص بالذكر من الجهات الأمام واليمين لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم ولأن الأيدي هي التي تمسك بها الأمور النفيسة وبها بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على الإيمان والنصر. وهذا النور نور حقيقي يجعله الله للمؤمنين يوم القيامة. والباء للملابسة، ويجوز أن تكون بمعنى عن .
وقد تقدم نظير هذا في سورة الحديد وما ذكرناه هنا أوسع.

وجملة)يقولون ربنا أتمم لنا نورنا(إلى آخرها حال من ضمير) نورهم(، وظاهرة أن يكون حالا مقارنة، أي يقولون ذلك في ذلك اليوم، ودعاؤهم طلب للزيادة من ذلك النور، فيكون ضمير)يقولون(عائد إلى جميع الذين آمنوا مع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ، أو يقول ذلك من كان نوره أقل من نور غيره ممن هو أفضل منه يومئذ فيكون ضمير)يقولون(على إرادة التوزيع على طوائف الذين آمنوا في ذلك اليوم.

وإتمام النور إدامته أو الزيادة منه على الوجهين المذكورين آنفا وكذلك الدعاء بطلب المغفرة لهم هو لطلب دوام المغفرة، وذلك كله أدب مع الله وتواضع له مثل ما قبل في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم سبعين مرة.

ويظهر بذلك وجه التذييل بقولهم)إنك على كل شيء قدير(المشعر بتعليل الدعاء كناية عن رجاء إجابته لهم.

)يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير[9](لما أبلغ الكفار ما سيحل بهم في الآخرة تصريحا بقوله)يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم(، وتعريضا بقوله)يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه(، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بمسمع منهم بأن يجاهدهم ويجاهد المستترين لكفرهم بظاهر الإيمان نفاقا، حتى إذا لم تؤثر فيهم الموعظة بعقاب الآخرة يخشون أن يسلط عليهم عذاب السيف في العاجلة فيقلعوا عن الكفر فيصلح نفوسهم وإنما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك لأن الكفار تألبوا مع المنافقين بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فاتخذوهم عيونا لهم وأيدي يدسون بها الأذى للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين.

فهذا نداء ثان للنبي صلى الله عليه وسلم يأمره بإقامة صلاح عموم الأمة بتطهيرها من الخبثاء بعد أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيء من واجب حسن المعاشرة مع الزوج.

وجهاد الكفر ظاهر، وأما عطف)المنافقين(على)الكفار(المفعول ل)جاهد(فيقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم مأمور بجهاد المنافقين وكان حال المنافقين ملتبسا إذ لم يكن أحد من المنافقين معلنا بالكفر ولا شهد على أحد منهم بذلك ولم يعين الله لرسوله صلى الله عليه وسلم منافقا يوقن بنفاقه وكفره أو أطلعه خاصا ولم يأمره بإعلانه بين المسلمين كما يؤخذ ذلك من أخبار كثيرة في الآثار.

فتعين تأويل عطف)المنافقين(على)الكفار(إما بأن يكون فعل) جاهد(مستعملا في حقيقته ومجازة وهما الجهاد بالسيف والجهاد بإقامة الحجة والتعريض للمنافق بنفاقه فإن ذلك يطلق عليه الجهاد مجازا كما في قوله صلى الله عليه وسلم رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وقوله للذي سأله الجهاد فقال له: ألك أبوان؟ قال: نعم: ففيهما فجاهد .

وعندي أن الأقرب في تأويل هذا العطف أن يكون المراد منه إلقاء الرعب في قلوب المنافقين ليشعروا بأن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالمرصاد منهم فلو بدت من أحدهم بادرة يعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروا ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الإفضاح فتكون هذه الآية من قبيل قوله تعالى)لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما أخذوا وقتلوا تقتيلا(.

والغلظة: حقيقتها صلابة الشيء وهي مستعارة هنا للمعاملة بالشدة بدون عفو ولا تسامح، أي كن غليظا، أي شديدا في إقامة ما أمر الله به أمثالهم. وتقدم عند قوله تعالى)وليجدوا فيكم غلظة(في سورة براءة، وقوله)ولو كنت فظا غليظ القلب(في سورة آل عمران.

والماوى: المسكن، وهو مفعل من أوى إذا رجع لأن الإنسان يرجع إلى مسكنه.

)ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين[10](

صفحة : 4486

أعقب جملة)يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية المقصود منها تهديدهم بعذاب السيف في الدنيا وإنذارهم بعذاب الآخرة وما قارن ذلك من مقابلة حالهم بحال المؤمنين، بأن ضرب مثلين للفريقين بنظرين في حاليهما لتزداد الموعظة وضوحا ويزداد التنويه بالمؤمنين استنارة. وقد تقدمت فائدة ذكر الأمثال في قوله تعالى) مثلهم كمثل الذي استوقد نارا(في سورة البقرة.

وضرب المثل: إلقاؤه وإيضاحه، وتقدم ذلك عند قوله تعالى)إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما(في سورة البقرة.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وهذا المثل لا يخلوا من تعريض بحث زوجي النبي صلى الله عليه وسلم على طاعته وبأن رضى

الله تعالى يتبع رضى رسله. فقد كان الحديث عن زوجتي النبي صلى الله عليه وسلم قريبا وكان عملهما ما فيه بارقة من مخالفة، وكان في المثلين ما فيه إشعار بالحالين.

وتعدية ضرب اللام الدال على العلة تفيد أن إلقاء المثل لأجل مدخولا اللام. فمعنى:)ضرب الله مثلا للذين كفروا(أنه ألقى هذا التنظير لأجلهم، أي اعتبارهم بهم وقياس حالهم على حال المثل به، فإذا قيل: ضرب لفلان مثلا، كان المعنى: أنه قصده به وأعلمه إياه، كقوله تعالى)ما ضربوه لك إلا جدلا( )ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل(. ونحو ذلك وتقديم المجرور باللام على المفعولين للاهتمام بإيقاظ الذين كفروا.

فمعنى)ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط(، أن الله جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا، أي ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف فلا يحبسوا أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بينه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيد بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيها رسولي رب العالمين.

ومناسبة ضرب المثل بامرأة لوط دون غيرها من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح عليهما السلام لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم. وقد تقدم ذكر أبي إبراهيم وابن نوح، لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة، وليكون في ذكرهما عقب ما سبق من تملوء أمي المؤمنين على زوجها صلى الله عليه وسلم تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبي صلى الله عليه وسلم ليكون الشبه في التمثيل وأقوى. فعن مقاتل يقول الله سبحانه لعائشة وحفصة لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية وكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم . ووضحه في الكشاف بأنه من قبيل التعريض.

ومنعه الفخر، وقال ابن عطية: قال بعض الناس في المثلين عبرة لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم حين تقدم عتابهن. وفي هذا بعد لأن النص أنه للكفار يبعد هذا اه.

ويدفع استبعاده أن دلالة التعريض لا تنافي اللفظ الصريح، ومن لطائف التقيد بقوله تعالى)للذين كفروا(أن المقصد الأصلي هو ضرب المثل للذين كفروا وذلك من الاحتراس من أن تحمل التمثيل على المشابهة من جميع الوجوه والاحتراس بكثرة التشبيهات ومنه تجريد للاستعارة.

وقصة امرأة نوح لم تذكر في القرآن في غير هذه الآية والذي يظهر أنها خانت زوجها بعد الطوفان وأن نوحا لم يعلم بخونها لأن الله سمى عملها خيانة.
وقد ورد في سفر التكوين من التوراة ذكر امرأة نوح مع الذين ركبوا السفينة وذكر خروجها من السفينة بعد الطوفان ثم طوى ذكرها لما ذكر الله بركته نوحا وبنيه وميثاقه معهم فلم تذكر معهم زوجه. فلعلها كفرت بعد ذلك أو لعل نوحا تزوج امرأة أخرى بعد الطوفان لم تذكر في التوراة.
ووصف الله فعل امرأة نوح بخيانة زوجها، فقال المفسرون: هي خيانة في الدين، أي كانت كافرة مسرة الكفر، فلعل الكفر حدث مرة أخرى في قوم نوح بعد الطوفان ولم يذكر في القرآن.
وأما حديث امرأة لوط في القرآن مرات. وتقدم في سورة الأعراف ويقال: فلانة كانت تحت فلان، أي كانت زوجا له.
والتحتية هنا مجاز في معنى الصيانة ومنه قول أنس بن مالك في الحديث المروي في الموطأ وفي صحيح البخاري عن أم حرام بنت ملحان وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت .

صفحة : 4487

ومن بدائع الأجوبة أن أحد الأمراء من الشيعة سأل أحد علماء السنة: من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأجابه: الذي كانت ابنته تحته فظن أنه فضل عليا إذ فهم أن الضمير المضاف إليه ابنة ضمير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الضمير المضاف إليه تحت ضمير اسم الموصول، وإنما أراد السني العكس بأن يكون ضمير ابنته ضمير الموصول تحته ضمير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك هو أبو بكر.
وقد ظهر أن المراد بالعبدين نوح ولوط وإنما خصا بوصف عبدين صالحين مع أن وصف النبوة من وصف الصلاح تنويها بوصف الصلاح وإيماء إلى أن النبوة صلاح ليعظم شأن الصالحين كما في قوله تعالى)وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين(. ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن فإن وصف النبوة قد انتهى بالنسبة للامة الإسلامية مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد الله الصالحين وعناية ربهم بهم ومدافعته عنهم.
والخيانة والخون ضد الأمانة وضد الوفاء، وذلك تفريط المرء ما أوتمن عليه وما عهد به إليه. وقد جمعها قوله تعالى)يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون(.

وانتصب)شيئا(على المفعولية المطلقة ل)يغنيا(لأن المعنى شيئا من الغنى، وتنكير)شيئا(للتحقير، أي عنى وأجحفه بله الغنى المهم، وتقدم في قوله تعالى)إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا(في سورة الجاثية.

وزيادة)مع الداخلين(لإفادة مساواتها في العذاب لغيرهما من الكفرة الخونة. وذلك تأييس من أن ينتفعا من حظوة زوجهما كقوله تعالى)ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين شركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون(.

)وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين[11](لما ضرب المثل للذين كفروا أعقب بضرب مثل للذين آمنوا لتحصل المقابلة فيتضح مقصود المثلين معا، وجريا على عادة القرآن في إتباع الترهيب بالترغيب.

وجعل المثل للذين آمنوا بحال امرأتين لتحصل المقابلة للمثلين السابقين، فهذا مراعاة النظير في المثلين.

وجاء أحد المثلين للذين آمنوا لإخلاص الإيمان. والمثل الثاني لشدة التقوى.

فكانت امرأة فرعون مثلا لمتانة المؤمنين ومريم مثلا للقانتين لأن المؤمنين تبرأوا من ذوي قرابتهم الذي بقوا على الكفر بمكة.

وامرأة فرعون هذه هي امرأة فرعون الذي أرسل إليه موسى وهو منفطح الثالث وليست امرأة فرعون التي تبنت موسى حين التقطته من اليم، لأن ذلك وقع في زمن فرعون رعمسيس الثاني وكان بين الزمنين ثمانون سنة. ولم يكن عندهم علم بدين قبي أي يرسل إليهم موسى.

ولعل امرأة فرعون هذه كانت من بنات إسرائيل تزوجها فرعون فكانت مؤمنة برسالة موسى عليه السلام. وقد حكى بعض المفسرين أنها عمة موسى أو تكون هداها الله إلى الإيمان كما هدى الرجل المؤمن من آل فرعون الذي تقدم ذكره في سورة غافر. وسماها النبي صلى الله عليه وسلم آسية في قوله كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون رواه البخاري.

وأرادت بعمل فرعون ظلمه، أي نجني من تبعه أعماله فيكون معنى نجني من فرعون من صحبته طلبت لنفسها فرجا وهو عطف الخاص على العام.

ومعنى)قالت(أنها أعلنت به، فقد روى أن فرعون اطلع عليها وأعلن ذلك لقومه وأمر بتعذيبها فماتت في تعذيبه ولم تحس ألما.

والقوم الظالمون: هم قوم فرعون. وظلمهم: إشراكهم بالله.

والظاهر أن قولها)ابن لي عندك بيتا في الجنة(مؤذن بأن فرعون وقومه صدوها عن الإيمان به وزينوا لها أنها آمنت بموسى تضيع ملكا عظيما وقصرا فخيما أو أن فرعون وعظها بأنها أصرت على ذلك تقتل، فلا يكون مدفنها الهرم الذي بناه فرعون لنفسه لدفنه في بادئ الملوك. ويؤيد هذا ما رواه المفسرون أن بيتها في الجنة من درة واحدة فتكون مشابهة الهرم الذي كان معدا لحفظ جثتها بعد موتها وزوجها. فقولها ذلك كقول السحرة الذين آمنوا جوابا عن تهديد فرعون)لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا ما أنت قاض(الآية في سورة طه.

صفحة : 4488

)ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتابه وكانت من القانتين[12](عطف على) امرأة فرعون(، أي وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم ابنة عمران، فضرب مثلين في الشر ومثلين في الخير.
ومريم ابنة عمران تقدم الكلام على نسبها وكرامتها في سورة آل عمران وغيرها، وقد ذكر الله باسمها في عدة مواضع من القرآن وقال ابن التلمساني في شرح الشفاء لعياض: لم يذكر الله امرأة في القرآن باسمها إلا مريم على أنها أمة الله إبطالا لعقائد النصارى.
والإحصان: جعل الشيء حصينا، أي لا يسلك إليه. ومعناه: منعت فرجها عن الرجال.
وتفريع)فنفخنا فيه من روحنا(تفريع العطية على العمل لأجله. أي جزيناها على إحصان فرجها، أي بأن كون الله فيه نبيا بصفة خارقة للعادة فخلد بذلك ذكرها في الصالحات.
والنفخ: مستعار لسرعة إبداع الحياة في المكون في رحمها. وإضافة الروح إلى ضمير الجلالة لأن تكوين المخلوق الحي في رحمها كان دون الأسباب المعتادة، أو أريد بالروح الملك الذي يؤمر بنفخ الأرواح في الأجنة، فعلى الأول تكون)من(تبعيضية، وعلى الثاني تكون ابتدائية، وتقدم قوله تعالى)فنفخنا فيها من روحنا(في سورة الأنبياء.
وتصديقها: يقينها بأن ما أبلغ إليها من الملك من إرادة الله حملها.
وكلمات ربها: هي الكلمات التي ألقاها إليها بطريق الوحي.

و)كتابه(يجوز أن يكون المراد به الإنجيل الذي جاء به ابنها عيسى وهو وإن لم يكن مكتوبا في زمن عيسى فقد كتبه الحواريون في حياة مريم.
ويجوز أن يراد ب)كتابه(، أراده الله وقدره أن تحمل من دون مس رجل إياها من باب وكان كتابا مفعولا.
والقانت: المتحمض للطاعة.
يجوز أن يكون و)من(للابتداء.
والمراد بالقانتين: المكثرون من العبادة. والمعنى أنها كانت سليلة قوم صالحين، أي فجاءت على طريقة أصولها في الخير والعفاف.

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وهذا إيماء إلى تبرئتها مما رماها به القوم البهت.
وهذا نظير قوله تعالى)والطيبات للطيبين والطيبون والطيبات أولئك مبرءون مما يقولون(.
ويجوز أن تجعل)من(للتبعيض، أي هي بعض من قنت لله. وغلبت صيغة جمع الذكور ولم يقل: من القانتات، جريا على طريقة التغليب وهو تخريج الكلام على مقتضى الظاهر. وهذه الآية مثال في علم المعاني.
ونكتته هنا الإشارة إلى أنها في عداد أهل الإكثار من العبادة وأن شأن ذلك أن يكون للرجال لأن نساء بني إسرائيل كن معفيات من عبادات كثيرة.
ووصف مريم بالموصول وصلته لأنها عرفت بتلك الصلة من قصتها المعروفة من تكرر ذكرها فيما نزل من القرآن قبل هذه السورة.
وفي ذكر)القانتين(إيماء إلى ما أوصى الله به أمهات المؤمنين بقوله تعالى)ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين(الآية.
وقرأ الجمهور)وكتابه(. وقرأه حفص وأبو عمرو ويعقوب) وكتبه(بصيغة الجمع، أي آمنت بالكتب التي أنزلت قبل عيسى وهي التوراة والزبور وكتب الأنبياء من بني إسرائيل، والإنجيل إن كان قد كتبه الحواريون في حياتها.
بسم الله الرحمن الرحيم
سورة الملك
سماها النبي صلى الله عليه وسلم)سورة تبارك الذي بيده الملك(في حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفرت له وهي)سورة تبارك الذي بيده الملك(قال الترمذي هذا حديث حسن.

فهذا تسمية للسورة بأول جملة وقعت فيها فتكون تسمية بجملة كما سمي ثابت بن جابر تأبط شرا . ولفظ سورة مضاف إلى تلك الجملة المحكية.

صفحة : 4489

وسميت أيضا)تبارك الملك(بمجموع الكلمتين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبسمع منه فيما رواه الترمذي عن ابن عباس أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال له ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان أي دفين فيه يقرأ سورة)تبارك الملك(حتى ختمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر حديث حسن غريب يكون اسم السورة مجموع هذين اللفظين على طريقة عد الكلمات في اللفظ دون إضافة إحداهما إلى الأخرى مثل تسمية لام ألف . ونظيره أسماء السور بالأحرف المقطعة التي في أولها على بعض الأقوال في المراد منها وعليه فيحكى لفظ)تبارك(بصيغة الماضي ويحكى لفظ)الملك(مرفوعا كما هو في الآية، فيكون لفظ سورة مضافا من إضافة المسمى إلى الاسم. لأن المقصود تعريف السورة بهاتين الكلمتين على حكاية اللفظين الواقعين في أولها مع اختصار ما بين الكلمتين وذلك قصدا للفرق بينهما وبين تبارك الفرقان . كما قالوا: عبيد الله الرقيات، بإضافة مجموع عبيد الله إلى الرقيات تمييزا لعبيد الله بن قيس العامري الشاعر عن غيره ممن يشبه اسمه اسمه مثل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أو لمجرد اشتهاره بالتشبيه في نساء كان اسم كل واحدة منهن رقية وهن ثلاث. ولذلك يجب أن يكون لفظ)تبارك(في هذا المركب مفتوح الآخر. ولفظ) الملك(مضموم الكاف. وكذلك وقع ضبطه في نسخة جامع الترمذي وكلتاهما حركة حكاية.

والشائع في كتب السنة وكتب التفسير وفي أكثر المصاحف تسمية هذه السورة سورة الملك وكذلك ترجمها الترمذي: باب ما جاء في فضل سورة الملك. وكذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال كنا نسميها على عهد رسول الله المانعة ، أي أخذا من وصف النبي صلى الله عليه وسلم إياها بأنها المانعة المنجية كما في حديث الترمذي المذكور آنفا وليس بالصريح في التسمية.

وفي الإتقان عن تاريخ ابن عساكر من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها المنجية ولعل ذلك من وصفه إياها بالمنجية في حديث الترمذي وليس أيضا بالصريح في أنه اسم.
وفي الإتقان عن كتاب جمال القراء تسمى أيضا الواقية ، وتسمى المناعة بصيغة المبالغة.
وذكر الفخر: أن ابن عباس كان يسميها المجادلة لأنها تجادل عن قارئها عند سؤال الملكين ولم أره لغير الفخر.
فهذه ثمانية أسماء سميت بها هذه السورة.
وهي مكية قال ابن عطية والقرطبي: باتفاق الجميع.
وفي الإتقان أخرج جويبر في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس نزلت تبارك الملك في أهل مكة إلا ثلاث آيات اه. فيحتمل أن الضحاك عنى استثناء ثلاث آيات نزلت في المدينة. وهذا الاحتمال هو الذي يقتضيه إخراج صاحب الإتقان هذا النقل في عداد السور المختلف في بعض آياتها، ويحتمل أن يريد أن ثلاث آيات منها غير مخاطب بها أهل مكة، وعلى كلا الاحتمالين فهو لم يعين هذه الآيات الثلاث وليس في آيات السورة ثلاث آيات لا تتعلق بالمشركين خاصة بل نجد الخمس الآيات الأوائل يجوز أن يكون القصد منها الفريقين من أول السورة إلى قوله)عذاب السعير(.
وقال في الإتقان أيضا فيها قول غريب لم يعزه أن جميع السورة مدني .
وهي السادسة والسبعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الحاقة.
وآيها في عد أهل الحجاز إحدى وثلاثون وفي عد غيرهم ثلاثون.

أغراض السورة
والأغراض التي في هذه السورة جارية على سنن الأغراض في السور المكية.
ابتدأت بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله تعالى وتفرده بالملك الحق؛ والنظر في إتقان صنعه الدال على تفرده بالإلهية فبذلك يكون في تلك الآيات حظ لعظة المشركين.
ومن ذلك التذكير بأنه أقام نظام الموت والحياة لتظهر في الحالين مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها.
وأنه الذي يجازي عليها.
وانفراده بخلق العوالم خلقا بالغا غاية الإتقان فيما تراد له.
وأتبعه بالأمر بالنظر في ذلك وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية وتلك دلائل على انفراده بالإلهية.

وتخلصا من ذلك إلى تحذير الناس من كيد الشياطين، والارتباق معهم في ربقة عذاب جهنم وأن في اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم نجاة من ذلك وفي تكذيبه الخسران، وتنبيه المعاندين للرسول صلى الله عليه وسلم إلى علم الله بما يحوكونه للرسول ظاهرا وخفية بأن علم الله محيط بمخلوقاته.

والتذكير بمنة خلق العالم الأرضي، ودقة نظامه، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيهم ومنها رزقهم.

والموعظة بأن الله قادر على إفساد ذلك النظام فيصبح الناس في كرب وعناء يتذكروا قيمة النعم بتصور زوالها.

وضرب لهم مثلا في لطفه تعالى بهم بلطفه بالطير في طيرانها.

وأيسهم من التوكل على نصرة الأصنام أو على أن ترزقهم رزقا.

وفظع لهم حالة الضلال التي ورطوا أنفسهم فيها.

ثم وبخ المشركين على كفرهم نعمة الله تعالى وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده وأنه وشيك الوقوع بهم.

ووبخهم على استعجالهم موت النبي صلى الله عليه وسلم ليستريحوا من دعوته.

وأوعدهم بأنهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم، وأنذرهم بما قد يحل بهم من قحط وغيره.

)تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير[1](افتتحت السورة بما يدل على منتهى كمال الله تعالى افتتاحا يؤذن بأن ما حوته يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لما نسبوا إليه شركاء في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده.

ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال كما تقدم في طالع سورة الفرقان.

وفعل)تبارك(يدل على المبالغة في وفرة الخير وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة، أي يفيد أن كل وفرة من الكمال ثابتة لله تعالى بحيث لا يتخلف نوع منها عن أن يكون صفة له تعالى.

وصيغة تفاعل إذا أسندت إلى واحد تدل على تكلف فعل ما اشتقت منه نحو تطاول وتغابن، وترد كناية عن قوة الفعل وشدته مثل: تواصل الحبل.

وهو مشتق من البركة، وهي زيادة الخير ووفرته، وتقدمت البركة عند قوله تعالى)وبركات عليك(في سورة هود.
وتقدم)تبارك(عند قوله تعالى)تبارك الله رب العالمين(في أول الأعراف.
وهذا الكلام يجوز أن يكون مرادا به مجرد الإخبار عن عظمة الله تعالى وكماله ويجوز أن يكون مع ذلك إنشاء ثناء على الله أثناه على نفسه، وتعليما للناس كيف يثنون على الله ويحمدونه كما في)الحمد لله رب العالمين(: إما على وجه الكناية بالجملة عن إنشاء الثناء، وإما باستعمال الصيغة المشتركة بين الإخبار والإنشاء في معنييها، ولو صيغ بغير هذا الأسلوب لما احتمل هذين المعنيين، وقد تقدم في قوله تعالى)تبارك الذي نزل الفرقان على عبده(.
وجعل المسند إليه اسم موصول للإيذان بأن معنى الصلة، مما اشتهر به كما هو غالب أحوال الموصول فصارت الصلة مغنية عن الاسم العلم لاستوائهما في الاختصاص به إذ يعلم كل أحد أن الاختصاص بالملك الكامل المطلق ليس إلا لله.
وذكر)الذي بيده الملك(هنا نظير ذكر مثله عقب نظيره في قوله تعالى)تبارك الذي نزل الفرقان على عبده(إلى قوله)الذي له ملك السماوات والأرض(.
والباء في)بيده(يجوز أن تكون بمعنى في مثل الباء التي تدخل على أسماء الأمكنة نحو)ولقد نصركم الله ببدر(وقول أمرء القيس: بسقط اللوى فالظرفية هنا مجازية مستعملة في معنى إحاطة قدرته بحقيقة الملك، الملك على هذا اسم للحالة التي يكون صاحبها ملكا.
والتعريف في)الملك(على هذا الوجه تعريف الجنس الذي يشمل جميع أفراد الجنس، وهو الاستغراق فما يوجد من أفراده فرد إلا وهو مما في قدرة الله فهو يعطيه وهو يمنعه.
واليد على هذا الوجه استعارة للقدرة والتصرف كما في قوله تعالى)والسماء بنيناها بأيد(وقول العرب: ما لي بهذا الأمر يدان.
ويجوز أن تكون الباء للسببية، ويكون)الملك(اسما فيأتي في معناه ما قرر في الوجه المتقدم.
وتقديم المسند وهو)بيده(على المسند إليه لإفادة الاختصاص، أي الملك بيده لا بيد غيره.
وهو قصر ادعائي مبني على عدم الاعتداد بملك غيره، ولا بما يتراءى من إعطاء الخلفاء والملوك الاصقاع للأمراء والسلاطين وولاة العهد لأن كل ذلك ملك غير تام لأنه لا يعم المملوكات كلها، ولأنه معرض للزوال، وملك الله هو الملك الحقيقي، قال)فتعالى الله الملك الحق(.

فالناس يتوهمون أمثال ذلك ملكا وليس كما يتوهمون.
واليد: تمثيل بأن شبهت الهيئة المعقولة المركبة من التصرف المطلق في الممكنات الموجودة والمعدومة بالإمداد والتغيير والإعدام والإيجاد؛ بهيئة إمساك اليد بالشيء المملوك تشبيه معقول بمحسوس في المركبات.
وفي معنى هذه الآية قوله تعالى)قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء(في سورة آل عمران.
والملك بضم الميم: اسم لأكمل أحوال الملك بكسر الميم، والملك بالكسر جنس للملك بالضم، وفسر الملك المضموم بضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، وهو تفسير قاصر. وأرى أن يفسر بأنه تصرف في طائفة من الناس ووطنهم تصرفا كاملا بتدبير ورعاية، فكل ملك بالضم ملك بالكسر وليس كل ملك ملكا.
وقد تقدم في قوله)ملك يوم الدين(في الفاتحة وعند قوله)أنى يكون له الملك علينا(في سورة البقرة. وجملة)وهو على كل شيء قدير(معطوفة على جملة)بيده الملك(التي هي صلة الموصول وهي تعميم بعد تخصيص لتكميل المقصود من الصلة، إذ أفادت الصلة عموم تصرفه في الموجودات، وأفادت هذه عموم تصرفه في الموجودات والمعدومات بالإعدام للموجودات والإيجاد للمعدومات، فيكون قوله)وهو على كل شيء قدير(مفيدا معنى آخر غير ما أفاده قوله)بيده الملك(تفادي من أن يكون معناه تأكيدا لمعنى)بيده الملك(وتكون هذه الجملة تتميما للصلة. وفي معنى صلة ثانية ثم عطفت ولم يكرر فيها اسم موصول بخلاف قوله)الذي خلق الموت(وقوله)الذي خلق سبع سماوات(.
و)شيء(: ما يصح أن يعلم ويخبر عنه. وهذا هو الإطلاق الأصلي في اللغة. وقد يطلق)الشيء(على خصوص الموجود بحسب دلالة القرائن والمقامات. وأما التزام الأشاعرة: أن الشيء لا يطلق إلا على الموجود فهو التزام ما لا يلزم دعا إليه سد باب الحجاج مع المعتزلة في أن الوجود عين الموجود أو زائد على الموجود، فتفرعت عليه مسألة: أن المعدوم شيء عند جمهور المعتزلة وأن الشيء لا يطلق إلا على الموجود عند الأشعري وبعض المعتزلة وهي مسألة لا طائل تحتها، والخلاف فيها لفظي، والحق أنها مبنية على الاصطلاح في مسائل علم الكلام لا على تحقيق المعنى في اللغة.

وتقديم المجرور في قوله)على كل شيء قدير(للاهتمام بما فيه من التعميم، ولإبطال دعوى المشركين نسبتهم الإلهية لأصنامهم مع اعترافهم بأنه لا تقدر على خلق السماوات والأرض ولا على الإحياء والإماتة.

)الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور[2](صفة ل)الذي بيده الملك(فلما شمل قوله)وهو على كل شيء قدير(تعلق القدرة بالموجود والمعدوم أتبع بوصفه تعالى بالتصرف الذي منه خلق المخلوقات وأعراضها لأن الخلق أعظم تعلق القدرة بالمقدور لدلالته على صفة القدرة وعلى صفة العلم.

وأوثر بالذكر من المخلوقات الموت والحياة لأنهما أعظم العوارض لجنس الحيوان الذي هو أعجب الموجود على الأرض والذي الإنسان نوع منه، وهو المقصود بالمخاطبة بالشرائع والمواعظ، فالإماتة تصرف في الموجود بإعداده للفناء، والإحياء تصرف في المعدوم بإيجاده ثم إعطائه الحياة ليستكمل وجود نوعه.

فليس ذكر خلق الموت والحياة تفصيلا لمعنى الملك بل هو وصف مستقل.

والاقتصار على خلق الموت والحياة لأنهما حالتان هما مظهرا تعلق القدرة بالمقدور في الذات والعرض لأن الموت والحياة عرضان والإنسان معروض لهما.

والعرض لا يقوم بنفسه فلما ذكر خلق العرض علم من ذكره خلق معروضه بدلالة الاقتضاء.

وأوثر ذكر الموت والحياة لما يدلان عليه من العبرة بتداول العرضين المتضادين على معروض واحد، وللدلالة على كمال صنع الصانع، فالموت والحياة عرضان يعرضان للموجود من الحيوان، والموت يعد الموجود للفناء والحياة تعد الموجود للعمل للبقاء مدة. وهما عند المتكلمين من الأعراض المختصة بالحي، وعند الحكماء من مقولة الكيف ومن قسم الكيفيات النفسانية منه.

فالحياة: قوة تتبع اعتدال المزاج النوعي لتفيض منها سائر القوى.

والموت: كيفية عدمية هو عدم الحياة عما شأنه أن يوصف بالحياة أو الموت، أي زوال الحياة عن الحي، فبين الحياة والموت تقابل العدم والملكة.

صفحة : 4492

ومعنى خلق الحياة: خلق الحي لأن قوام الحي هو الحياة، ففي خلقه خلق ما به قوامه، وأما معنى خلق الموت فإيجاد أسبابه وإلا

فإن الموت عدم لا يتعلق به الخلق بالمعنى الحقيقي، ولكنه لما كان عرضا للمخلوق عبر عن حصوله بالخلق تبعا كما في قوله تعالى)والله خلقكم وما تعملون(.

وأيضا لأن الموت تصرف في الموجود القادر الذي من شأنه أن يدفع عن نفسه ما يكرهه. والموت مكروه لكل حي فكانت الإماتة مظهرا عظيما من مظاهر القدرة لأن فيها تجلي وصف القاهر.

فأما الإحياء فهو من مظاهر وصف القادر ولكن مع وصفه المنعم.

فمعنى القدرة في الإماتة أظهر وأقوى لأن القهر ضرب من القدرة.

ومعنى القدرة في الإحياء خفي بسبب أمرين بدقة الصنع وذلك من آثار صفة العلم، وبنعمة كمال الجنس وذلك من آثار صفة الإنعام. وقد تقدم بيان ذلك عند قوله تعالى)وكنتم أمواتا فأحياكم(في سورة البقرة.

وفي ذكرهما تخلص إلى ما يترتب عليهما من الآثار التي أعظمها العمل في الحياة والجزاء عليه بعد الموت، وذلك ما تضمنه قوله) ليبلوكم أيكم أحسن عملا(فإن معنى الابتلاء مشعر بترتب أثر له وهو الجزاء على العمل للتذكير بحكمة جعل هذين الناموسين البديعين في الحيوان لتظهر حكمة خلق الإنسان ويفضيا به إلى الوجود الخالد، كما أشار إليه قوله تعالى)أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون(.

وهذا التعليل من قبيل الإدماج.

وفيه استدلال على الوحدانية بدلالة في أنفسهم قال تعالى)وفي أنفسكم أفلا تبصرون(.

والمعنى: أنه خلق الموت والحياة ليكون منكم أحياء يعملون الصالحات والسيئات، ثم أمواتا يخلصون إلى يوم الجزاء فيجزون على أعمالهم بما يناسبها.

فالتعريف في)الموت(و)الحياة(تعريف الجنس. وفي الكلام تقدير: هو الذي خلق الموت والحياة لتحيوا فيبلوكم أيكم أحسن عملا، وتموت فتجزوا على حسب تلك البلوى، ولكون هذا هو المقصود الأهم من هذا الكلام قدم الموت على الحياة.

وجملة)ليبلوكم(إلى آخرها معترضة بين الموصولين.

واللام في)ليبلوكم(لام التعليل، أي في خلق الموت والحياة حكمة أن يبلوكم. الخ.

وتعليل فعل بعلة لا يقتضي انحصار علله في العلة المذكورة فإن الفعل الواحد تكون له علل متعددة فيذكر منها ما يستدعيه المقام، فقوله تعالى)ليبلوكم أيكم أحسن عملا(تعليل لفعل)خلق(باعتبار المعطوف على مفعوله، وهو)والحياة(لأن حياة الإنسان حياة خاصة

تصحح للموصوف بمن قامت به الإدراك الخاص الذي يندفع به إلى العمل باختياره، وذلك العمل هو الذي يوصف بالحسن والقبح، وهو ما دل عليه بالمنطوق والمفهوم قوله تعالى)أيكم أحسن عملا(أي وأيكم أقبح عملا.

ولذلك فذكر خلق الموت إتمام للاستدلال على دقيق الصنع الإلهي وهو المسوق له الكلام، وذكر خلق الحياة إدماج للتذكير، وهو من أغراض السورة.

ولا أشك في أن بناء هذا العالم على ناموس الموت والحياة له حكمة عظيمة يعسر على الإفهام الاطلاع عليها.

والبلوى: الاختبار وهي هنا مستعارة للعلم أي ليعلم علم ظهور أو مستعارة لإظهار الأمر الخفي، فجعل إظهار الشيء الخفي شبيها بالاختبار.

وجملة)أيكم أحسن عملا(مرتبطة ب)يبلوكم(.

و)أي(اسم استفهام ورفعه يعين أنه مبتدأ وأنه غير معمول للفظ قبله فوجب بيان موقع هذه الجملة، وفيه وجهان: أحدهما قول الفراء والزجاج والزمخشري في تفسير أول سورة هود أن جملة الاستفهام سادة مسد المفعول الثاني، وأن فعل)يبلوكم(المضمن معنى) يعلمكم(معلق عن العمل في المفعول الثاني، وليس وجود المفعول الأول مانعا من تعليق الفعل عن العمل في المفعول الثاني وأن لم يكن كثيرا في الكلام.

والوجه الثاني أن تكون الجملة واقعة في محل المفعول الثاني ليبلوكم أي تؤول الجملة بمعنى مفرد تقديره: ليعلمكم أهذا الفريق أحسن عملا أم الفريق الآخر.

وهذا مختار صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية. ومبناه على أن تعليق أفعال العلم عن العمل لا يستقيم إلا إذا لم يذكر للفعل مفعول فإذا ذكر مفعول لم يصح تعليق الفعل عن المفعول الثاني، وحاصله: أن التقدير ليعلم الذين يقال في حقهم)أيهم أحسن عملا(على نحو قوله تعالى)ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا(أي لننزعن الذين يقال فيهم: أيهم أشد .

صفحة : 4493

وجوز صاحب التقريب أن يكون التقدير: ليعلم جواب سؤال سائل: أيكم أحسن عملا.

قلت: ولك أن تجعل جملة)أيكم أحسن عملا(مستأنفة وتجعل الوقف على قوله)ليبلوكم(ويكون الاستفهام مستعملا في التحضيض على حسن العمل كما هو في قول طرفة:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني

عنيت فلم أكسل ولم أتبلد فجعل الاستفهام تحضيضا.

و)أحسن(تفضيل، أي أحسن عملا من غيره، فالأعمال الحسنة متفاوتة في الحسن إلى أدناها، فأما الأعمال السيئة فإنها مفهومة بدلالة الفحوى لأن البلوى في أحسن الأعمال تقتضي البلوى في السيئات بالأولى لأن إحصاءها والإحاطة بها أولى في الجزاء لما يترتب عليها من الاجتراء على الشارع، ومن الفساد في النفس، وفي نظام العالم، وذلك أولى بالعقاب عليه ففي قوله)ليبلوكم أيكم أحسن عملا(إيجاز.

وجملة)وهو العزيز الغفور(تذييل لجملة)ليبلوكم أيكم أحسن عملا(إشارة إلى صفاته تعالى تقتضي تعلقا بمتعلقاتها لئلا تكون معطلة في بعض الأحوال والأزمان فيفضي ذلك إلى نقائضها. فأما العزيز فهو الغالب الذي لا يعجز عن شيء، وذكره مناسب للجزاء المستفاد من قوله)ليبلوكم أيكم أحسن عملا(كما تقدم آنفا، أي ليجزيكم جزاء العزيز، فعلم أن المراد الجزاء على المخالفات والنكول عن الطاعة. وهذا حظ المشركين الذين شملهم ضمير الخطاب في قوله)ليبلوكم(.

وأما الغفور فهو الذي يكرم أولياءه ويصفح عن فلتاتهم فهو مناسب للجزاء على الطاعات وكناية عنه، قال تعالى)وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى(فهو إشارة إلى حظ أهل الصلاح من المخاطبين.

)الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفوت فارجع البصر هل ترى من فطور[3] ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير[4](صفة ثانية للذي بيده الملك، أعقب التذكير بتصرف الله بخلق الإنسان وأهم أعراضه بذكر خلق أعظم الموجودات غير الإنسان وهي السماوات، ومفيدة وصفا من عظيم صفات الأفعال الإلهية ولذلك أعيد فيها اسم الموصول لتكون الجمل الثلاث جارية على طريقة واحدة.

والسماوات تكرر ذكرها في القرآن. والظاهر أن المراد بها الكواكب التي هي مجموع النظام الشمسي ما عدا الأرض. كما تقدم عند قوله تعالى)فسواهن سبع سماوات(في سورة البقرة فإنها هي المشاهدة بأعين المخاطبين، فالاستدلال بها استدلال بالمحسوس.

والطباق يجوز أن يكون مصدر طابق وصفت به السماوات للمبالغة، أي شديدة المطابقة، أي مناسبة بعضها لبعض في النظام.

ويجوز أن تكون)طباقا(جمع طبق، والطبق المساوي في حالة ما، ومنهم قولهم في المثل وافق شن طبقة .
والمعنى: أنها مرتفع بعضها فوق بعض في الفضاء السحيق، أو المعنى: أنها متماثلة في بعض الصفات مثل التكوير والتحرك المنتظم في أنفسها وفي تحرك كل واحدة منها بالنسبة إلى تحرك بقيتها بحيث لا ترتطم ولا يتداخل سيرها.
وليس في قوله)طباقا(ما يقتضي أن بعضها مظروف لبعض لأن ذلك ليس من مفاد مادة الطباق فلا تكن طباقاء .
وجاءت جملة)ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت(تقريرا لقوله)خلق سبع سماوات طباقا(.
فإن نفي التفاوت يحقق معنى التطابق، أي التماثل. والمعنى: ما ترى في خلق الله السماوات تفاوتا. وأصل الكلام: ما ترى فيهن ولا في خلق الرحمن من تفاوت فعبر بخلق الرحمن لتكون الجملة تذييلا لمضمون جملة)خلق سبع سماوات طباقا(، لأن انتفاء التفاوت عما خلقه الله متحقق في خلق السماوات وغيرها، أي كانت السماوات طباقا لأنها من خلق الرحمن، وليس فيما خلق الرحمن من تفاوت ومن ذلك نظام السماوات.
والتفاوت بوزن التفاعل: شدة الفوت، والفوت: البعد، وليست صيغة التفاعل فيه لحصول فعل من جانبين ولكنها مفيدة للمبالغة.
ويقال: تفوت الأمر أيضا، وقيل: إن تفوت، بمعنى حصل فيه عيب.
وقرأ الجمهور)من تفاوت(، وقرأه حمزة والكسائي وخلف)من تفوت(بتشديد الواو دون ألف بعد الفاء، وهي مرسومة في المصحف بدون ألف كما هو كثير في رسم الفتحات المشبعة.
وهو هنا مستعار للتخالف وانعدام التناسق لأن عدم المناسبة يشبه البعد بين الشيئين تشبيه معقول بمحسوس.

صفحة : 4494

والخطاب لغير معين، أي لا ترى أيها الرائي تفاوتا.
والمقصود منه التعريض بأهل الشرك إذ أضاعوا النظر والاستدلال بما يدل على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب، وذلك ممكن لكل من يبصر، قال تعالى)أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج(فكأنه قال: ما ترون في خلق الرحمن من تفاوت، فيجوز أن يكون)خلق الرحمن(بمعنى المفعول كما في قوله تعالى)هذا خلق الله فأروني

ماذا خلق الذين من دونه(، ويراد منه السماوات، والمعنى: ما ترى في السماوات من تفاوت، فيكون العدول عن الضمير لتتأتى الإضافة إلى اسمه)الرحمن(المشعر بأن تلك المخلوقات فيها رحمة بالناس كما سيأتي.

ويجوز أن يكون)خلق(مصدرا فيشمل خلق السماوات وخلق غيرها فإن صنع الله رحمة للناس لو استقاموا كما صنع لهم وأوصاهم، فتفيد هذه الجملة مفاد التذييل في أثناء الكلام على وجه الاعتراض ولا يكون إظهارا في مقام الإضمار.

والتعبير بوصف)الرحمن(دون اسم الجلالة إيماء إلى أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلائم نظام عيشهم، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سببا لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق، قال تعالى)وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر(وقال)هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق(.

وأيضا في ذلك الوصف تورك على المشركين إذ أنكروا اسمه تعالى)الرحمن( )وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا(.

وفرع عليه قوله)فارجع البصر(الخ. والتفريع للتسبب، أي انتفاء رؤية التفاوت، جعل سببا للأمر بالنظر ليكون نفي التفاوت معلوما عن يقين دون تقليد للمخبر.

ورجع البصر: تكريره والرجع: العود إلى الموضع الذي يجاء منه، وفعل: رجع يكون قاصرا ومتعديا إلى مفعول بمعنى: أرجع، فأرجع هنا فعل أمر دون رجع المتعدي.

والرجع يقتضي سبق حلول بالموضع، فالمعنى: أعد النظر، وهو النظر الذي دل عليه قوله)ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت(أي أعد رؤية السماوات وأنها لا تفاوت فيها إعادة تحقيق وتبصر، كما يقال: أعد نظرا.

والخطاب في قوله)ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت(وقوله) فارجع البصر(الخ. خطاب لغير معين: وصيغة الأمر مستعملة في الإرشاد للمشركين مع دلالته على الوجوب للمسلمين فإن النظر في أدلة الصفات واجب لمن عرض له داع إلى الاستدلال.

والبصر مستعمل في حقيقته. والمراد به البصر المصحوب بالتفكر والاعتبار بدلالة الموجودات على موجدها.

وهذا يتصل بمسألة إيمان المقلد وما اختلف فيه من الرواية عن الشيخ أبي الحسن الأشعري.

والاستفهام في)هل ترى من فطور(تقريري ووقع ب)هل(لأن هل تفيد تأكيد الاستفهام إذ هي بمعنى قد في الاستفهام، وفي ذلك تأكيد وحث على التبصر والتأمل، أي لا تقنع بنظرة ونظرتين، فتقول: لم أجد فطورا، بل كرر النظر وعاوده باحثا عن مصادفة فطور لعلك تجده.
والفطور: جمع فطر بفتح الفاء وسكون الطاء، وهو الشق والصدع، أي لا يسعك إلا أن تعترف بانتفاء الفطور في نظام السماوات فتراها ملتئمة محبوكة لا ترى في خلالها انشقاقا، ولذلك كان انفطار السماء وانشقاقها علامة على انقراض هذا العالم ونظامه الشمسي، قال تعالى)وفتحت السماء فكانت أبوابا( )إذا السماء انشقت( )إذا السماء انفطرت(.
وعطف)ثم ارجع البصر كرتين(دال على التراخي الرتبي كما هو شأن)ثم(في عطف الجمل، فإن مضمون الجملة المعطوفة ب)ثم(هنا أهم وأدخل في الغرض من مضمون الجملة المعطوف عليها لأن إعادة النظر تزيد العلم بانتفاء التفاوت في الخلق رسوخا ويقينا.

صفحة : 4495

و)كرتين(تثنية كرة وهي المرة وعبر عنها هنا بالكرة مشتقة من الكر وهو العود لأنها عود إلى شيء بعد الانفصال عنه ككرة المقاتل يحمل على العدو بعد أن يفر فرارا مصنوعا. وإيثار لفظ كرتين في هذه الآية دون مرادفة نحو مرتين وتارتين لأن كلمة كرة لم يغلب إطلاقا على عدد الاثنين، فكان إيثارها في مقام لا يراد فيه اثنين أظهر في أنها مستعملة في مطلق التكرير دون عدد اثنين أو زوج وهذا من خصائص الإعجاز، ألا ترى أن مقام إرادة عدد الزوج كان مقتضيا تثنية مرة في قوله تعالى)الطلاق مرتان(لأن أظهر في إرادة العدد إذ لفظ مرة أكثر تداولا.
وتثنية)كرتين(ليس المراد بها عدد الاثنين الذي هو ضعف الواحد إذ لا يتعلق غرض بخصوص هذا العدد، وإنما التثنية مستعملة كناية عن مطلق التكرير فإن من استعمالات صيغة التثنية في الكلام أن يراد بها التكرير وذلك كما في قولهم لبيك وسعديك، يريدون تلبيات كثيرة وإسعادا كثيرا، وقولهم: دواليك، ومنه المثل دهدرين، سعد القين الدهدر الباطل، أي باطلا على باطل، أي أتيت يا سعد القين دهدرين وهو تثنية دهدر الدال مهملة في أوله مضمومة فهاء ساكنة فدال مهملة مضمومة فراء مشددة . وأصله كلمة

فارسية نقلها العرب وجعلوها بمعنى الباطل. وسبب النقل مختلف فيه وتثنيته مكنى بها عن مضاعفة الباطل، وكانوا يقولون هذا المثل عند تكذيب الرجل صاحبه وأما سعد القين فهو اسم رجل كان قينا وكان يمر على الأحياء لصقل سيوفهم وإصلاح أسلحتهم فكان يشيع أنه راحل غدا ليسرع أهل الحي بجلب ما يحتاج للإصلاح فإذا أتوه بها أقام ولم يرحل فضرب به المثل في الكذب فكان هذا المثل جامعا لمثلين، وقد ذكره الزمخشري في المستقصى، والميداني في مجمع الأمثال وأطال.

وأصل استعمال التثنية في معنى التكرير أنهم اختصروا بالتثنية تعداد ذكر الاسم تعدادا مشيرا إلى التكثير.

وقريب من هذا القبيل قولهم: وقع كذا غير مرة، أي مرات عديدة.

فمعنى)ارجع البصر كرتين(عاود التأمل في خلق السماوات وغيرها غير مرة. والانقلاب: الرجوع يقال: انقلب إلى أهله، أي رجع إلى منزله قال تعالى)وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين(وإيثار فعل)ينقلب(هنا دون: يرجع، لئلا يلتبس فعل)ارجع(المذكور قبله. وهذا من خصائص الإعجاز نظير إيثار كلمة)كرتين(كما ذكرناه آنفا.

والخاسئ: الخائب، أي الذي لم يجد ما يطلبه. وتقدم عند قوله تعالى)قال اخسأوا فيها(في سورة المؤمنين.

والحسير: الكليل، وهو كلل ناشئ عن قوة التأمل والتحديق مع التكرير، أي يرجع البصر غير واجد ما أغري بالحرص على رؤيته بعد أن أدام التأمل والفحص حتى عيي وكل، أي لا تجد بعد اللأي فطورا في خلق الله.

)ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلنها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير[5](انتقل من دلائل انتفاء الخلل عن خلقه السماوات، إلى بيان ما في إحدى السماوات من إتقان الصنع فهو مما شمله عموم الإتقان في خلق السماوات السبع وذكره من ذم بعض أفراد العام كذكر المثال بعد القاعدة الكلية، فدقائق السماء الدنيا أوضح دلالة على إتقان الصنع لكنها نصب أعين المخاطبين، ولأن من بعضها يحصل تخلص إلى التحذير من حيل الشياطين وسوء عواقب أتباعهم. وتأكيد الخبر ب)قد(لأنه إلى أنه نتيجة الاستفهام التقريري المؤكد ب)هل(أخت)قد(في الاستفهام.

والكلام على السماء الدنيا ولماذا وصفت بالدنيا وعن الكواكب تقدم في أول سورة الصافات.

وسميت النجوم هنا مصابيح على التشبيه على حسن المنظر فهو تشبيه بليغ.

وذكر التزيين إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال، أي زيناها لكم مثل الامتنان في قوله)ولكم فيها جمال(في سورة النحل.

والمقصد: التخلص إلى ذكر رجم الشياطين ليتخلص منه إلى وعيدهم ووعيد متبعيهم.
وعدل عن تعريف)مصابيح(باللام إلى تنكيره لما يفيده التنكير من التعظيم.
والرجوم: جمع رجم وهو اسم لما يرجم به، أي ما يرمي به الرامي من حجر ونحوه تسمية للمفعول بالمصدر مثل الخلق بمعنى المخلوق في قوله تعالى)هذا خلق الله(.
والذي جعل رجوما للشياطين هو بعض النجوم التي تبدو مضيئة ثم تلوح منقظة، وتسمى الشهب ومضى القول عليها في سورة الصافات.

صفحة : 4496

وضمير الغائبة في)جعلناها(المتبادر أنه عائد إلى المصابيح، أي أن المصابيح رجوم للشياطين.
ومعنى جعل المصابيح رجوما جار على طريقة إسناد عمل بعض الشيء إلى جميعه مثل إسناد الأعمال إلى القبائل لأن العاملين من أفراد القبيلة كقوله تعالى)ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم(وقول العرب: قتلت هذيل رضيع بني ليث تمام بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب.
وجعل بعض المفسرين الضمير المنصوب في)جعلناها(عائد إلى) السماء الدنيا(على تقدير: وجعلنا منها رجوما إما على حذف حرف الجر. وإما على تنزيل المكان الذي صدر منه الرجوم منزلة نفس الرجوم فهو مجاز عقلي ومنه قوله تعالى)فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها(في سورة البقرة ولكنها على جعل الضمير المنصوب راجعا إلى القرية وإن لم تذكر في تلك الآية ولكنها ذكرت في آية سورة الأعراف)واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر(وقصتها هي المشار إليها بقوله)ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت(فالتقدير: فجعلنا منها، أي من القرية نكالا، وهم القوم الذين قيل لهم)كونوا قردة خاسئين(.
والشياطين هي التي تسترق السمع فتطردها الشهب كما تقدم في سورة الصافات.
وأصل)اعتدنا(أعددنا أي هيأنا، قلبت الدال الأولى تاء لتقارب مخرجيها ليأتي الإدغام طلبا للخفة.

والسعير: اسم صيغ على مثال فعيل بمعنى مفعول من: سعر النار، إذا أوقدها وهو لهب النار، أي أعددنا للشياطين عذاب طبقة أشد طبقات النار حرارة وتوقدا فإن جهنم طبقات.

وكان السعير عذابا لشياطين الجن مع كونهم من عنصر النار لأن نار جهنم أشد من نار طبعهم، فإذا أصابتهم صارت لهم عذابا.

وتسمية عذابهم السعير دون النار، أو جهنم مراد لهذا المعنى ومثله قوله تعالى في عذاب الجن)ومن يزغ منه عن أمرنا نذقه من عذاب السعير(وقال)إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير(يعني الشيطان.

ومعنى الإعداد يحتمل أنه إعداد تقدير وإيجاد فلا يقتضي أن تكون جهنم مخلوقة قبل يوم القيامة ويحتمل أنه إعداد استعمال، فتكون جهنم مخلوقة حين نزول الآية وقد اختلف علماؤنا في أن النار موجودة أو توجد يوم الجزاء إذ لا دليل في الكتاب والسنة على أحد الاحتمالين وإنما دعاهم إلى فرض هذه المسألة تأويل بعض الآيات والأحاديث.

)وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير[6](هذا تتميم لئلا يتوهم أن العذاب أعد للشياطين خاصة، والمعنى: ولجميع الذين كفروا بالله عذاب جهنم فالمراد عامة المشركين ولأجل ما في الجملة من زيادة الفائدة غايرت الجملة التي قبلها فلذلك عطفت عليها.

وتقديم المجرور للاهتمام بتعلقه بالمسند إليه والمبادرة به.

وجملة)وبئس المصير(حال أو معترضة لإنشاء الذم وحذف المخصوص بالذم لدلالة ما قبل)بئس(عليه. والتقدير: وبئس المصير عذاب جهنم.

والمعنى: بئست جهنم مصيرا للذين كفروا.

)إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور[7] تكاد تميز من الغيظ(الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان ذم مصيرهم في جهنم، أي من جملة مذام مصيرهم مذمة ما يسمعونه فيها من أصوات مؤلمة مخيفة.

و)إذا(ظرف متعلق ب)سمعوا(يدل على الاقتران بين زمن الإلقاء وزمن سماع الشهيق.

والشهيق: تردد الأنفاس في الصدر لا تستطيع الصعود لبكاء ونحوه أطلق على صوت التهاب نار جهنم الشهيق نفضيعا له لأن قوله) سمعوا لها(يقتضي أن الشهيق شهيقا لأن أصل اللام أن تكون لشبه الملك.

وجملة)وهي تفور(حال من ضمير)فيها(وتفور: تغلي وترتفع ألسنة لهيبها.

و)الغيظ(أشد الغضب. وقوله)تكاد تميز من الغيظ(خبر ثان عن ضمير)وهي(مثلت حالة فورانها وتصاعد ألسنة لهيبها ورطمها ما فيها والتهام من يلقون إليها، بحال مغتاظ شديد الغيظ لا يترك شيئا مما غاظه إلا سلط عليه ما يستطيع من الأضرار.

واستعمل المركب الدال على الهيئة المشبه بها مع مرادفاته كقولهم: يكاد فلان يتميز غيظا ويتقصف غضبا، أي يكاد تتفرق أجزاءه فيتميز بعضها عن بعض وهذا من التمثيلية المكنية وقد وضحناها في تفسير قوله تعالى)أولئك على هدى من ربهم(في سورة البقرة.

صفحة : 4497

ونظير هذه الاستعارة قوله تعالى)فوجدا فيها جدارا يريد أن ينفض(في سورة الكهف إذ مثل الجدار بشخص له إرادة.

و)تميز(أصله تمييز، أي تنفصل، أي تتجزأ أجزاء تخييلا لشدة الاضطراب بأن أجزاءها قاربت أن تتقطع، وهذا كقولهم: غضب فلان فطارت منه شقة في الأرض وشقة في السماء.

)كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير[8] قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلل كبير[9](أتبع وصف ما يجده أهل النار عند إلقائهم فيها من فضائع أهوالها بوصف ما يتلقاهم به خزنة النار.

فالجملة استئناف بياني أثاره وصف النار عند إلقاء أهل النار فيها إذ يتساءل السامع عن سبب عن وقوع أهل النار فيها فجاء بيانه بأنه تكذيبهم رسل الله الذين أرسل إليهم، مع ما انضم إلى من وصف ندامة أهل النار على ما فرط منهم من تكذيب رسل الله وعلى إهمالهم النظر في دعوة الرسل والتدبر فيما جاءهم به.

و)كلما(مركب من)كل(اسم دال على الشمول ومن)ما(الظرفية المصدرية وهو حرف يؤول مع الفعل الذي بعده بمصدره.

والتقدير: في كل وقت إلقاء فوج يسألهم خزنتها الفوج.

وباتصال)كل(بحرف)ما(المصدرية الظرفية اكتسب التركيب معنى الشرط وشابه أدوات الشرط في الاحتياج إلى جملتين مرتبة إحداهما على الأخرى.

وجيء بفعلي)ألقى(و)سألهم(ماضيين لأن أكثر ما يقع الفعل بعد)كلما(أن يكون بصيغة المضي بأنها لما شابهت الشرط استوى الماضي والمضارع معها لظهور أنه للزمن المستقبل فأوثر فعل المضي لأنه أخف.

والفوج: الجماعة أي جماعة ممن حق عليهم الخلود، وتقدم عند قوله تعالى)ويوم نحشر من كل أمة فوجا(في سورة النمل.
وجيء بالضمائر العائدة إلى الفوج ضمائر جمع في قوله) سألهم(الخ. لتأويل الفوج بجماعة أفراده كما في قوله)وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا(.
وخزنة النار: الملائكة الموكل إليهم أمر جهنم وهو جمع خازن للموكل بالحفظ وأصل الخازن: الذي يخزن شيئا، أي يحفظه في مكان حصين، فإطلاقه على الموكلين مجاز مرسل.
وجملة)ألم يأتكم نذير(بيان لجملة سألهم كقوله)فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد(.
والاستفهام في)ألم يأتكم نذير(للتوبيخ والتنديم ليزيدهم حسرة.
والنذير: المنذر، أي رسول منذر بعقاب الله وهو مصوغ على غير قياس كما صيغ بمعنى المسمع السميع في قول عمرو بن معد يكرب: أمن ريحانة الداعي السميع.
والمراد أفواج أهل النار من جميع الأمم التي أرسلت إليهم الرسل فتكون جملة)كلما ألقي فيها فوج(الخ بمعنى التذليل.
وجملة)قالوا بلى قد جاءنا نذير(معترضة بين كلام خزنة جهنم اعتراضا يشير إلى أن الفوج قاطع كلام الخزنة بتعجيل الاعتراف بما وبخوهم عليه وذلك من شدة الخوف.
وفصلت الجملة لوجهين لأنها اعتراض، ولوقوعها في سياق المحاورة كما تقدم غير مرة كقوله تعالى)قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها(في سورة البقرة. وكان جوابهم جواب المتحسر المتندم، فابتدأوا الجواب دفعة بحرف)بلى(المفيد نفيض النفي في الاستفهام فهو مفيد معنى: جاءنا نذير. ولذلك كان قولهم)قد جاءنا نذير(مؤكدا لما دلت عليه)بلى(، وهو من تكرير الكلام عند التحسر، مع زيادة التحقيق ب)قد(وذلك التأكيد هو مناط الندامة والاعتراف بالخطا.
وجملة)إن أنتم إلا في ضلال كبير(الأظهر أنها بقية كلام خزنة جهنم فصل بينها وبين ما سبقها من كلامهم اعتراض جواب الفوج الموجه إليهم الاستفهام التوبيخي كما ذكرناه آنفا، ويؤيد هذا إعادة فعل القول في حكاية بقية كلام الفوج في قوله تعالى)وقالوا لو كنا نسمع(الخ لانقطاعه بالاعتراض الواقع خلال حكايته.

ويجوز أن تكون جملة)إن أنتم إلا في ضلال كبير(من تمام كلام كل فوج لنذيرهم. وأوتي بضمير جمع المخاطبين مع إن لكل قوم

رسولا واحدا في الغالب باستثناء موسى وهارون وباستثناء رسل أصحاب القرية المذكورة في سورة يس، أما على اعتبار الحكاية بالمعنى بأن جمع كلام جميع الأفواج في عبارة واحدة فجيء بضمير الجمع والمراد التوزيع على الأفواج، أي قال جميع الأفواج:)بلى قد جاءنا نذير(إلى قوله)إن أنتم إلا في ضلال كبير(، على طريقة المثال المشهور ركب القوم دوابهم ، وأما على إرادة شمول الضمير للنذير وأتباعه الذين يؤمنون بما جاء به.

وعموم)شيء(في قوله)ما نزل الله من شيء(والمراد منه شيء من التنزيل، يدل على أنهم كانوا يحيلون أن ينزل الله وحيا على بشر، وهذه شنشنة أهل الكفر قال تعالى)وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء(قد تقدم في آخر الأنعام.

ووصف الضلال ب)كبير(معناه شديد بالغ غاية ما يبلغ إليه جنسه حتى كأنه جسم كبير.

ومعنى القصر لمستفاد من النفي والاستثناء)إن أنتم إلا في ضلال كبير(قصر قلب، أي ما حالكم التي أنتم متلبسون بها إلا الضلال، وليس الوحي الإلهي والهدى كما تزعمون.

والظرفية مجازية لتشبيههم تمحضهم للضلال بإحاطة الظرف بالمظروف.

)وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحب السعير[10](أعيد فعل القول للإشارة إلى أن هذا كلام آخر غير الذي وقع جوابا على سؤال خزنة جهنم وإنما هذا قول قالوه في مجامعهم في النار تحسرا وتندما، أي وقال بعضهم لبعض في النار فهو من قبيل قوله تعالى)حتى إذا اداركوا فيها جميعا قال أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا(الخ. لتأكيد الإخبار على حسب الوجهين المتقدمين في موقع جملة)إن أنتم إلا في ضلال كبير(.

وذكروا ما يدل على انتفاء السمع والعقل عنهم في الدنيا، وهم يريدون سمعا خاصا وعقلا خاصا، فانتفاء السمع بإعراضهم عن تلقي دعوة الرسل مثل ما حكى الله عن المشركين)وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن(وانتفاء العقل بترك التدبر في آيات الرسل ودلائل صدقهم فيما يدعون إليه.

ولا شك أن أقل الناس عقلا المشركون لأنهم طرحوا ما هو سبب نجاتهم لغير معارض يعارضه في دينهم، إذ ليس في دين أهل الشرك وعيد على ما يخالف الشرك من معتقدات، ولا على ما يخالف أعمال أهله من الأعمال، فكان حكم العقل قاضيا بأن يتلقوا ما يدعوهم إليه الرسل من الإنذار للامتثال إذ لا معارض له في دينهم لولا الإلف والتكبر بخلاف حال أهل الأديان اتباع الرسل الذين

كانوا على دين فهم يخشون إن أهملوه أن لا يغني عنهم الدين الجديد شيئا فكانوا إلى المعذرة أقرب لولا أن الأدلة بعضها أقوى من بعض.

وذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى)أم تأمرهم أحلامهم بهذا(من سورة الطور عن كتاب الحكيم الترمذي إنه أخرج حديثا إن رجلا قال: يا رسول الله ما أعقل فلانا النصراني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مه، إن الكافر لا عقل له أما سمعت قول الله تعالى)وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير(قال وفي حديث ابن عمر فزجره النبي صلى الله عليه وسلم وقال: مه، إن العاقل من يعمل بطاعة الله ولم أقف عليه فيما رأيت من كتب التفسير ولم يذكره السيوطي في التفسير بالمأثور في سورة الطور ولا في سورة الملك.

ويؤخذ في هذه الآية أن أقوام الصلاح في حسن التلقي وحسن النظر وأن الأثر والنظر، أي القياس هما أصلا الهدى، ومن العجيب ما ذكره صاحب الكشاف: إن من المفسرين من قال: أن المراد من الآية لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي. ولم أقف على تعيين من فسر الآية بهذا و لا أحسبه إلا من قبيل الاسترواح.

و)أو(للتقسيم وهو تقسيم باعتبار نوعي الأحوال التي تقتضي حسن الاستماع تارة إذا ألقي إليها إرشاد، وحسن التفهم والنظر تارة إذا دعيت إلى النظر من داع غير أنفسها، أو من دواعي أنفسها، قال تعالى)فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب(.

ووجه تقديم السمع على العقل بمنزلة الكلي والسمع بمنزلة الجزئي ورعيا للترتيب الطبيعي لأن سمع دعوة النذير هو أول ما يتلقاه المنذرون، ثم يعملون عقولهم في التدبير فيها.

)فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحب السعير[11](الفاء الأولى فصيحة، والتقدير: إذ قالوا ذلك إذ تبين أنهم اعترفوا هنالك بذنبهم، أي فهم محقوقون بما هم فيه من العذاب.

والسحق: اسم مصدر معناه البعد، وهو هنا نائب عن الإسحاق لأنه دعاء بالإبعاد فهو مفعول مطلق نائب عن فعله، أي أسحقهم الله إسحاقا ويجوز أن يراد من هذا الدعاء التعجب من حالهم كما يقال: قاتله الله، وويل له، في مقام التعجب.

والفاء الثانية للتسبب، أي فهم جديرون بالدعاء عليهم بالإبعاد أو جديرون بالتعجب من بعدهم عن الحق أو عن رحمة الله تعالى. ويحتمل أيضا أن يقال لهم يوم الحساب عقب اعترافهم، تنديما يزيدهم ألما في نفوسهم فوق ألم الحريق في جلودهم.

واللام الداخلة على)سحقا(لام التقوية إن جعل)سحقا(داء عليهم بالإبعاد لأن المصدر فرع في العمل في الفعل، ويجوز أن يكون اللام لام التبيين لآياته تعلق العامل بمعموله كقولهم: شكرا لك، فكل من)سحقا(واللام المتعلقة به مستعمل في معنييه.

و)أصحاب السعير(يعم المخاطبين بالقرآن وغيرهم فكان هذا الدعاء بمنزلة التذييل لما فيه من العموم تبعا للجمل التي قبله.

وقرأ الجمهور)فسحقا(بسكون الحاء. وقرأه الكسائي وأبو جعفر بضم الحاء وهو لغة فيه وذلك لاتباع ضمة السين.

)إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير[12]

(اعتراض يفيد استئنافا بيانيا جاء على سنن أساليب القرآن من تعقيب الرهبة بالرغبة، فلما ذكر ما أعد للكافرين المعرضين عن خشية الله أعقبه بما أعد للذين يخشون ربهم بالغيب من المغفرة والثواب للعلم بأنهم يترقبون ما يميزهم عن أحوال المشركين.

وقدم المغفرة تطمينا لقلوبهم لأنهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام ومن اللمم ونحوه، ثم أعقبت بالبشارة بالأجر العظيم، فكان الكلام جاريا على قانون تقديم التخلية، أو تقديم دفع الضر على جلب النفع، والوصف بالكبير بمعنى العظيم نظير ما تقدم آنفا في قوله)ان أنتم إلا في ضلال كبير(.

وتنكير)مغفرة(للتعظيم بقرينة مقارنته ب)أجر كبير(وبقرينة التقديم، وتقديم المسند على المسند إليه في جملة)لهم مغفرة(ليأتي تنكير المبتدأ، ولإفادة الاهتمام، وللرعاية على الفاصلة وهي نكت كثيرة.

)وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور[13] ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير[14](عطف على الجملة السابقة عطف غرض على غرض، وهو انتقال إلى غرض آخر لمناسبة حكاية أقوالهم في الآخرة بذكر أقوالهم في الدنيا وهي الأقوال التي كانت تصدر منهم بالنيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الله يطلعهم على أقوالهم فيخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنكم قلتم كذا وكذا، فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم كي لا يسمعه رب محمد فأنزل الله)وأسروا قولكم أو اجهروا به(كذا روي عن ابن عباس.

وصيغة الأمر في)أسروا(و)اجهروا(مستعملة في التسوية كقوله تعالى)اصبروا أو لا تصبروا(، وهذا غالب أحوال صيغة افعل إذا جاءت معها)أو(عاطفة نقيض أحد الفعلين على نقيضه.
فنقول)إنه عليم بذات الصدور(تعليل للتسوية المستفادة من صيغة الأمر بقرينة المقام وسبب النزول، أي فسواء في علم الله الإسرار والإجهار لأن علمه محيط بما يختلج في صدور الناس بله ما يسرون به من الكلام، ولذلك جيء بوصف عليم إذ العليم من أمثلة المبالغة وهو القوي علمه.
وضمير)إنه(عائد إلى الله تعالى المعلوم من المقام، ولا معاد في الكلام يعود إليه الضمير، لأن الاسم الذي في جملة)إن الذين يخشون ربهم بالغيب(لا يكون معادا لكلام آخر.
و)ذات الصدور(ما يتردد في النفس من الخواطر والتقادير والنوايا على الأعمال. وهو مركب من)ذات(التي هي مؤنث)ذو(بمعنى صاحب، والصدور بمعنى العقول وشأن)ذو(أن يضاف إلى ما فيه رفعة.

صفحة : 4500

وجملة)ألا يعلم من خلق(استئناف بياني ناشئ عن قوله)إنه عليم بذات الصدور(بأن يسأل سائل منهم: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور فإنه خالق أصحاب تلك الصدور، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل اتصالا لتعلق علمه بما يختلج فيها وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور في خلدها، فالإتيان ب)من(الموصولة لإفادة التعليل بالصلة.
فيجوز أن يكون)من خلق(مفعول)يعلم(، فيكون)
يعلم(و)خلق(رافعين ضميرين عائدين إلى ما عاد إليه ضمير)إنه عليم بذات الصدور(، فيكون)من(الوصولة صادقة على المخلوقين وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير نصب يكثر حذفه. والتقدير: من خلفهم.
ويجوز أن يكون)من خلق(فاعل)يعلم(والمراد الله تعالى، وحذف مفعول)يعلم(لدلالة قوله)وأسروا قولكم أو اجهروا به(. والتقدير: ألا يعلم خالقكم سركم وجهركم وهو الموصوف بلطيف خبير.
والعلق يتعلق بذوات الناس وأحوالهم لأن الخلق إيجاد وإيجاد الذوات على نظام مخصوص دال على إرادة ما أودع فيه من

النظام وما ينشأ عن قوى ذلك النظام، فالآية دليل على عموم علمه تعالى ولا دلالة فيها على أنه تعالى خالق أفعال العباد للانفكاك الظاهر بين تعلق العلم وتعلق القدرة.

وجملة)وهو اللطيف الخبير(الأحسن أن تجعل عطفا على جملة) ألا يعلم من خلق(لتفيد تعليما للناس بأن علم الله محيط بذوات الكائنات وأحوالها فبعد أن أنكر ظنهم انتفاء على الله بما يسرون، أعلمهم أنه يعلم ما هو أعم من ذلك وما هو أخفى من الإسرار من الأحوال.

واللطيف: العالم بخبايا الأمور والمدبر لها برفق وحكمة.

والخبير: العليم الذي لا تعزب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضا بحدوثها فلذلك اشتق هذا الوصف من مادة الخبر، وتقدم عند قوله تعالى)وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير(في الأنعام وعند قوله)إن الله لطيف خبير(في سورة لقمان.

)هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[15](استئناف فيه عود إلى الاستدلال، وإدماج للامتنان، فإن خلق الأرض التي تحوي الناس على وجهها أدل على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان إذ ما الإنسان إلا جزء من الأرض أو كجزء منها قال تعالى)منها خلقناكم(، فلما ضرب لهم بخلق أنفسهم دليلا على علمه الدال على وحدانيته شفعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها، مع المنة بأنه خلقها هينة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم، وذيل ذلك بأن النشور منها وأن النشور إليه لا إلى غيره.

والذلول من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد، فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث، وتقدم في قوله تعالى)أنها بقرة لا ذلول(الآية في سورة البقرة، فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة.

والمناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها.

وفرع على هذه الاستعارة الأمر في)فامشوا في مناكبها(فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيرا بما سخر الله لهم في المشي في الأرض امتنانا بذلك.

ومناسبة)وكلوا من رزقه(أن الرزق من الأرض. والأمر مستعمل في الإدامة أيضا للامتنان، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذليل الذلول ركوبها والأكل منها. فالمشي على الأرض شبيه

بركوب الذلول، والأكل مما تنبته الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن وأكل العجول والخرفان ونحو ذلك. وجمع المناكب تجريد للاستعارة لأن الذلول لها منكبان والأرض ذات متسعات كثيرة.
وكل هذا تذكير بشواهد الربوبية والإنعام ليتدبروا فيتركوا العناد، قال تعالى)كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون(.
وأما عطف)وإليه النشور(فهو تتميم وزيادة عبر استطرون لمناسبة ذكر الأرض فإنها مثوى الناس بعد الموت.
والمعنى: إليه النشور منها، وذلك يقتضي حذفا، أي وفيها تعودون.

صفحة : 4500

وجملة)ألا يعلم من خلق(استئناف بياني ناشئ عن قوله)إنه عليم بذات الصدور(بأن يسأل سائل منهم: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور فإنه خالق أصحاب تلك الصدور، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل اتصالا لتعلق علمه بما يختلج فيها وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور في خلدها، فالإتيان ب)من(الموصولة لإفادة التعليل بالصلة.
فيجوز أن يكون)من خلق(مفعول)يعلم(، فيكون)
يعلم(و)خلق(رافعين ضميرين عائدين إلى ما عاد إليه ضمير)إنه عليم بذات الصدور(، فيكون)من(الوصولة صادقة على المخلوقين وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير نصب يكثر حذفه. والتقدير: من خلقهم.
ويجوز أن يكون)من خلق(فاعل)يعلم(والمراد الله تعالى، وحذف مفعول)يعلم(لدلالة قوله)وأسروا قولكم أو اجهروا به(. والتقدير: ألا يعلم خالقكم سركم وجهركم وهو الموصوف بلطيف خبير.
والعلق يتعلق بذوات الناس وأحوالهم لأن الخلق إيجاد وإيجاد الذوات على نظام مخصوص دال على إرادة ما أودع فيه من النظام وما ينشأ عن قوى ذلك النظام، فالآية دليل على عموم علمه تعالى ولا دلالة فيها على أنه تعالى خالق أفعال العباد للانفكاك الظاهر بين تعلق العلم وتعلق القدرة.
وجملة)وهو اللطيف الخبير(الأحسن أن تجعل عطفا على جملة) ألا يعلم من خلق(لتفيد تعليما للناس بأن علم الله محيط بذوات الكائنات وأحوالها فبعد أن أنكر ظنهم انتفاء على الله بما يسرون،

أعلمهم أنه يعلم ما هو أعم من ذلك وما هو أخفى من الإسرار من الأحوال.
واللطيف: العالم بخبايا الأمور والمدبر لها برفق وحكمة.
والخبير: العليم الذي لا تعزب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضا بحدوثها فلذلك اشتق هذا الوصف من مادة الخبر، وتقدم عند قوله تعالى)وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير(في الأنعام وعند قوله)إن الله لطيف خبير(في سورة لقمان.
)هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[15](استئناف فيه عود إلى الاستدلال، وإدماج للامتنان، فإن خلق الأرض التي تحوي الناس على وجهها أدل على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان إذ ما الإنسان إلا جزء من الأرض أو كجزء منها قال تعالى)منها خلقناكم(، فلما ضرب لهم بخلق أنفسهم دليلا على علمه الدال على وحدانيته شفعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها، مع المنة بأنه خلقها هينة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم، وذيل ذلك بأن النشور منها وأن النشور إليه لا إلى غيره.
والذلول من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد، فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث، وتقدم في قوله تعالى)أنها بقرة لا ذلول(الآية في سورة البقرة، فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة.
والمناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها.
وفرع على هذه الاستعارة الأمر في)فامشوا في مناكبها(فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيرا بما سخر الله لهم في المشي في الأرض امتنانا بذلك.
ومناسبة)وكلوا من رزقه(أن الرزق من الأرض. والأمر مستعمل في الإدامة أيضا للامتنان، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذليل الذلول ركوبها والأكل منها. فالمشي على الأرض شبيه بركوب الذلول، والأكل مما تنبته الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن وأكل العجول والخرفان ونحو ذلك. وجمع المناكب تجريد للاستعارة لأن الذلول لها منكبان والأرض ذات متسعات كثيرة.
وكل هذا تذكير بشواهد الربوبية والإنعام ليتدبروا فيتركوا العناد، قال تعالى)كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون(.

وأما عطف)وإليه النشور(فهو تتميم وزيادة عبر استطرون لمناسبة ذكر الأرض فإنها مثوى الناس بعد الموت.
والمعنى: إليه النشور منها، وذلك يقتضي حذفا، أي وفيها تعودون.

صفحة : 4500

وجملة)ألا يعلم من خلق(استئناف بياني ناشئ عن قوله)إنه عليم بذات الصدور(بأن يسأل سائل منهم: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور فإنه خالق أصحاب تلك الصدور، فكما خلقهم وخلق نفوسهم جعل اتصالا لتعلق علمه بما يختلج فيها وليس ذلك بأعجب من علم أصحاب الصدور بما يدور في خلدها، فالإتيان ب)من(الموصولة لإفادة التعليل بالصلة.
فيجوز أن يكون)من خلق(مفعول)يعلم(، فيكون)
يعلم(و)خلق(رافعين ضميرين عائدين إلى ما عاد إليه ضمير)إنه عليم بذات الصدور(، فيكون)من(الوصولة صادقة على المخلوقين وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير نصب يكثر حذفه. والتقدير: من خلفهم.
ويجوز أن يكون)من خلق(فاعل)يعلم(والمراد الله تعالى، وحذف مفعول)يعلم(لدلالة قوله)وأسروا قولكم أو اجهروا به(. والتقدير: ألا يعلم خالقكم سركم وجهركم وهو الموصوف بلطيف خبير.
والعلق يتعلق بذوات الناس وأحوالهم لأن الخلق إيجاد وإيجاد الذوات على نظام مخصوص دال على إرادة ما أودع فيه من النظام وما ينشأ عن قوى ذلك النظام، فالآية دليل على عموم علمه تعالى ولا دلالة فيها على أنه تعالى خالق أفعال العباد للانفكاك الظاهر بين تعلق العلم وتعلق القدرة.
وجملة)وهو اللطيف الخبير(الأحسن أن تجعل عطفا على جملة) ألا يعلم من خلق(لتفيد تعليما للناس بأن علم الله محيط بذوات الكائنات وأحوالها فبعد أن أنكر ظنهم انتفاء على الله بما يسرون، أعلمهم أنه يعلم ما هو أعم من ذلك وما هو أخفى من الإسرار من الأحوال.
واللطيف: العالم بخبايا الأمور والمدبر لها برفق وحكمة.
والخبير: العليم الذي لا تعزب عنه الحوادث الخفية التي من شأنها أن يخبر الناس بعضهم بعضا بحدوثها فلذلك اشتق هذا الوصف من مادة الخبر، وتقدم عند قوله تعالى)وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف

الخبير(في الأنعام وعند قوله)إن الله لطيف خبير(في سورة لقمان.

)هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور[15](استئناف فيه عود إلى الاستدلال، وإدماج للامتنان، فإن خلق الأرض التي تحوي الناس على وجهها أدل على قدرة الله تعالى وعلمه من خلق الإنسان إذ ما الإنسان إلا جزء من الأرض أو كجزء منها قال تعالى)منها خلقناكم(، فلما ضرب لهم بخلق أنفسهم دليلا على علمه الدال على وحدانيته شفعه بدليل خلق الأرض التي هم عليها، مع المنة بأنه خلقها هينة لهم صالحة للسير فيها مخرجة لأرزاقهم، وذيل ذلك بأن النشور منها وأن النشور إليه لا إلى غيره.

والذلول من الدواب المنقادة المطاوعة، مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد، فعول بمعنى فاعل يستوي فيه المذكر والمؤنث، وتقدم في قوله تعالى)أنها بقرة لا ذلول(الآية في سورة البقرة، فاستعير الذلول للأرض في تذليل الانتفاع بها مع صلابة خلقها تشبيها بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة.

والمناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد، جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها.

وفرع على هذه الاستعارة الأمر في)فامشوا في مناكبها(فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة تذكيرا بما سخر الله لهم في المشي في الأرض امتنانا بذلك.

ومناسبة)وكلوا من رزقه(أن الرزق من الأرض. والأمر مستعمل في الإدامة أيضا للامتنان، وبذلك تمت استعارة الذلول للأرض لأن فائدة تذليل الذلول ركوبها والأكل منها. فالمشي على الأرض شبيه بركوب الذلول، والأكل مما تنبته الأرض شبيه بأكل الألبان والسمن وأكل العجول والخرفان ونحو ذلك. وجمع المناكب تجريد للاستعارة لأن الذلول لها منكبان والأرض ذات متسعات كثيرة.

وكل هذا تذكير بشواهد الربوبية والإنعام ليتدبروا فيتركوا العناد، قال تعالى)كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون(.

وأما عطف)وإليه النشور(فهو تتميم وزيادة عبر استطرون لمناسبة ذكر الأرض فإنها مثوى الناس بعد الموت.

والمعنى: إليه النشور منها، وذلك يقتضي حذفا، أي وفيها تعودون.